المعارك الفاصلة والتحولات التاريخية في الإسلام

جمع وتأليف:

أبي محمد أمين بن أحمد بن عبْدة هباش الحجوري

كان اللّه له في الدنيا والآخرة

تقديم فضيلة الشيخ العلامة:

أبي عبد الرحمن يحيى بن علي الحجوري

حفظه الله تعالى



محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الثانية

١٤٤٦ هـ

مقدمة الشيخ العلامة أبي عبد الرحمن يحيى بن علي الحجوري

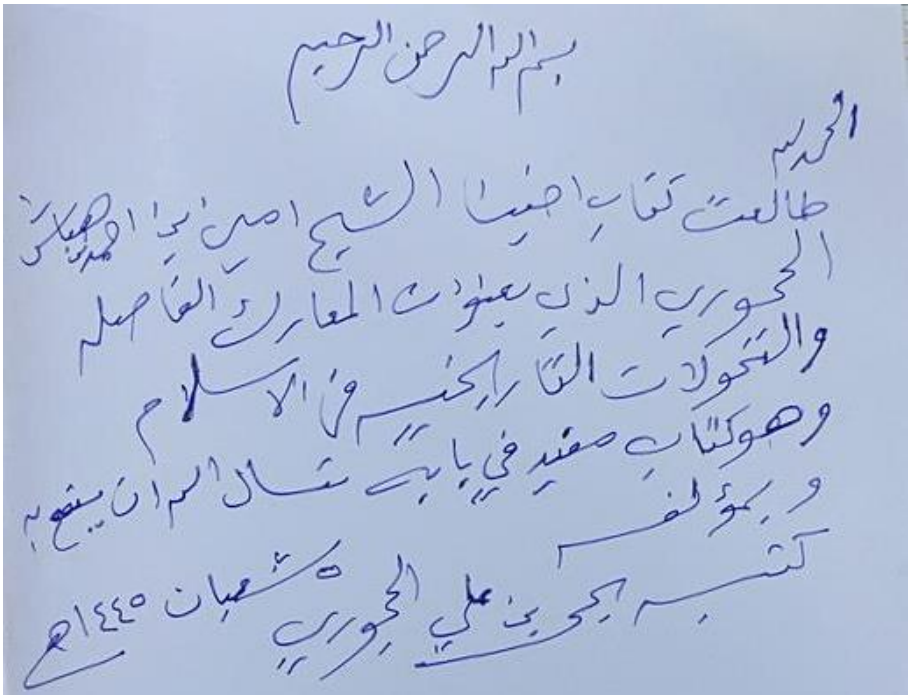
حفظه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، طالعت كتاب أخينا الشيخ أمين بن أحمد بن هباش الحجوري الذي بعنوان المعارك الفاصلة والتحولات التاريخية في الإسلام وهو كتاب مفيد في بابه نسأل الله أن ينفع به وبمؤلفه.

كتبه: يحيى بن علي الحجوري ٥/شعبان/ ١٤٤٥هـ

صورة المقدمة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الفتاح العليم، العزيز الحكيم، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا ينفع ذا الجَدِّ منه الجدُّ، من يطع الله ورسوله فهو المكرم بالدين ، ومن يعص الله ورسوله ويكفر به فهو العدو المبين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [سورة الحج:٣٩]. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ القائل «**جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**».

أما بعد:

فهذا طرف من تاريخ أمتنا المجيدة ذكرت فيه «**المعارك الفاصلة والتحولات التاريخية في الإسلام**» جمعت فيه مباحث مفرقة ، وأبقيتها على نصوص من نقلت عنهم ؛ لجودة طرحهم ، وحسن سبكهم ، وحذفت منها ما لم يصح، حتى تصل المادّة إلى القارئ مكتملة مع صفائها ، طيبة بنقائها ؛ لأن هذا الباب قد أُدخل فيه الطعن في الأخيار، وتمجيد الأشرار، ونشر الأفكار التي جاءت منها الأضرار. فهذا سُلّم الخوارج على الأمراء والعلماء، ولكن بحمد الله وجدنا أن الأحداث العظيمة التي تحقق فيها النجاح من الله تعالى كانت على يد أمراء ، وعلماء ، وأمة مطاوعة، ولو وجد التقصير.

ولم يسطر التاريخ مجدًا لأمير مسلم أغفل دينه، وهمش علماءه ، وأقصى نصحاءه ، ولا لعالم ثائر مفتئت على وليِّ أمره ، وقد جعل الله هذين الأمرين بهما قوام الأمم بعد تقديره سبحانه وتعالى: عالم عامل بالتنزيل ، وأمير وازع لأهل التبديل ، محارب لكل كافر وضِلِّيل، فقال: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ

وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾ [سورة الحديد:٢٥].

«وقد خالفت في شرح بعض هذه الوقائع الاختصارَ لحلاوة الظفر في وقت نزول الهموم ووقوعِها في الزمن الخامل، والله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء وهو المستعان»(١).

❊ والشرط في هذا الكتاب أني أذكر المعارك الكبرى التي لها تحول تاريخي في حياة المجتمع، وإلا فالمعارك كثيرة جدًا، وهذه المعارك على قسمين : **باللسان**: وهو الجهاد بالعلم الشرعي بالقرآن والسنة. **وبالسنان :** وهو الجهاد بالسلاح لإعلاء كلمة الله.

❊ وطريقة البحث أني أبحث عن أفضل من ذكر المعركة حسب ما أرى فأثبتها مع الإحالة إليه، وأضيف إليها ما يحتاج إلى إضافة، فأقدم للقارئ الكريم مادة مأمونة الغائلة إن شاء الله تعالى وقد بذلت جهدي في حذف العبارات التي لا تليق، وما لا يصح سنده ، وما لا تثبت نسبته، وخرجت الأحاديث من مصادرها ذاكرًا حكم أهل العلم عليها، وجعلت بعد كل معركة ملخصًا يسهل حفظه، وربما أفرده في جزء إن شاء الله تعالى، ونقلت خريطة توضيحية. وأسأل الله سبحانه حسن القصد في جميع عملي ، وأسأله القبول والسداد، والهدى والرشاد ، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



كتبه:

أبو محمد أمين بن أحمد بن عبدة هباش

الحجوري

٧/جمادى الأولى/١٤٤٥ هـ

مسجد إبراهيم – شحوح – سيئون

---

(١) «الروض المعطار في خبر الأقطار» (ص٥) بتصرف.

أولاً التحول التاريخي الأكبر :
التحول من الجاهلية إلى الإسلام

لا تسأل عن حال الناس من عرب وعجم قبل مجيء الإسلام، خاصة في الزمن الذي بين عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ، وبين نبينا محمد ﷺ يكفي أن تعرف أن الله سبحانه وتعالى أبغضهم من فوق سبع سماواته ؛ لتغييرهم الفطرة،وبعدهم عن تعاليم الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه. واقرأ هذا الحديث العظيم :

عَنْ عِيَاض الْمُجَاشِعِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: **« أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا ، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** . وَقَالَ : **إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ . وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا . فَقُلْتُ : رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً . قَالَ : اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقْ عَلَيْكَ ،وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ»**[1].

وكيف لا يمقتهم الله تعالى وقد كفروا به ،وعبدوا غيره ،وسخروا نعمه في غير مرضاته ،ونسبوا إليه الصاحبة والولد تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وإليك هذه الصور من باطلهم وشركهم ، ذكرها ابنُ عم رسول الله ﷺ فيها شيء مؤلم من واقع الجاهلية «فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" برقم: (٢٨٦٥).

قَالَتْ :لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيَّ ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا ، وَعَبَدْنَا اللهَ لَا نُؤْذَى ، وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا ائْتَمَرُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ ، وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ ،[ليردهم] ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ ، وَأَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ : فَأَرْسَلَ النَّجَاشِيُّ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَدَعَاهُمْ ، وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ ، فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ ، فَسَأَلَهُمْ فَقَالَ : مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي ، وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟ قَالَتْ : فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ : **أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ** ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ [تَعَالَى] إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ تَعَالَى **لِنُوَحِّدَهُ ، وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ** ، قَالَ : فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا ، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا ، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا ، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا ، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ [تَعَالَى]، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ . قَالَتْ : فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ : هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ : فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ :

نَعَمْ ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ : فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ : ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [سورة مريم:١].قَالَتْ : فَبَكَى وَاللهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ : إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ ، انْطَلِقَا ، فَوَاللهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا ، وَلَا أَكَادُ» .الحديث[1].

فانظر إلى ظلام الجهل كيف أطبق على هذه العقول ، فاستحسنت القبيح ، وما برحت عليه تسرح وتريح ، وإليك نبذة مما ذكره المباركفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في [«الرحيق المختوم» (ص٢٧ - ٣٧)] نضيف إليها ما يُحتاج إليه في هذا المقام إن شاء الله تعالى نميزها بمعقوفين[]. قال رحمه الله تعالى :

ديانات العرب

كان معظم العرب اتبعوا دعوة إسماعيل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين دعاهم إلى دين أبيه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فكانت تعبد الله وتوحده وتدين بدينه، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظًّا مما ذكروا به، إلا أنهم بقي فيهم التوحيد وعدة شعائر من دين إبراهيم، حتى جاء عمرو بن لحي رئيس خزاعة، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين، فأحبه الناس، ودانوا له ظنًّا منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء، ثم إنه سافر إلى الشام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنه حقًّا، لأن الشام محل الرسل والكتب، فقدم معه بهبل وجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله، فأجابوه.

[عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لِأَكْثَمَ بْنِ الْجَوْنِ الْخُزَاعِيِّ: **«يَا أَكْثَمُ، رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيِّ بْنِ قَمَعَةَ بْنِ خِنْدِفَ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، فَمَا**

---

(١) **حسن:** أخرجه أحمد رحمه الله (٢٢٩٣٤) وحسنه الإمام الوادعي رحمه الله في «الصحيح المسند» (٢/ ٥٣٨) برقم: (١٦٥١).

رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِرَجُلٍ مِنْكَ بِهِ، وَلَا بِكَ مِنْهُ»: فَقَالَ أَكْثَمُ: عَسَى أَنْ يَضُرَّنِي شَبَهُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **«لَا، إِنَّكَ مُؤْمِنٌ وَهُوَ كَافِرٌ، إِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ، فَنَصَبَ الْأَوْثَانَ، وَبَحَرَ الْبَحِيرَةَ، وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ، وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ، وَحَمَى الْحَامِي»**][1].

ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة، لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم. ومن أقدم أصنامهم مناة، كانت بالمشلل على ساحل البحر الأحمر بالقرب من قديد، ثم اتخذوا اللات في الطائف، ثم اتخذوا العزى بوادي نخلة، هذه الثلاث أكبر أوثانهم، ثم كثر الشرك، وكثرت الأوثان في كل بقعة من الحجاز، فلما جاء الحج دفع إلى القبائل [أصنامًا يعبدونها من دون الله تعالى]، فذهبت بها إلى أوطانها، حتى صار لكل قبيلة ثم في كل بيت صنم. وقد ملأوا المسجد الحرام بالأصنام.

[عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ: كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ: كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ: فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَأٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ: فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ: فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ، لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ][2]. ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنمًا، فجعل يطعنها حتى تساقطت، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت.

وهكذا صار الشرك وعبادة الأصنام أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية،

---

(١) **حسن لذاته:** أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ت السقا (١/ ٧٦) فقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ التَّيْمِيُّ أَنَّ أَبَا صَالِحٍ السَّمَّانَ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فذكره، والحديث أصله في الصحيحين وسيأتي ص (١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٢٠). **تنبيه:** ليست هذه الأصنام بنفسها التي عبدت بنفسها قبل نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولكن سميت بتلك الأسماء. والله أعلم.

الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم ﷺ.

وكانت لهم تقاليد ومراسم في عبادة الأصنام، ابتدع أكثرَها عمرو بن لحي، وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لحي بدعة حسنة وليس بتغيير لدين إبراهيم ﷺ.

مراسم عبادة العرب للأصنام : فكان من مراسم عبادتهم للأصنام أنهم:

١- كانوا يعكفون عليها، ويلتجئون إليها ويهتفون بها، ويستغيثونها في الشدائد، ويدعونها لحاجاتهم، معتقدين أنها تشفع عند الله، وتحقق لهم ما يريدون [فوبخهم الله تعالى بقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾ [سورة فاطر:١٣-١٤].]

٢- وكانوا يحجون إليها ويطوفون حولها، ويتذللون عندها، ويسجدون لها. [قال الله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾ [سورة النحل:٧٣].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ : [لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ -قَالَ : فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَيْلَكُمْ قَدْ قَدْ»** فَيَقُولُونَ : - إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ] يَقُولُونَ هَذَا ، وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ] (١).

٣- وكانوا يتقربون إليها بأنواع من القرابين ، فكانوا يذبحون وينحرون لها وبأسمائها. وهذان النوعان من الذبح ذكرهما الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ٣﴾ [سورة المائدة:٣]. ، وفي قوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ

(١) أخرجه مسلم (١١٨٥).

عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [سورة الأنعام:١٢١].

٤- وكان من أنواع التقرب أنهم كانوا يَخُصُّون للأصنام شيئًا من مآكلهم ومشاربهم حسبما يبدو لهم، وكذلك كانوا يخصون لها نصيبًا من حرثهم وأنعامهم.

ومن الطرائف أنهم كانوا يخصون من ذلك جزءًا لله أيضًا، وكانت عندهم أسباب كثيرًا ما كانوا ينقلون لأجلها إلى الأصنام ما كان لله، ولكن لم يكونوا ينقلون إلى الله ما كان لأصنامهم بحال. قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦].

[وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ السَّائِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنْتُ فِيمَنْ بَنَى الْبَيْتَ ، فَأَخَذْتُ حَجَرًا فَسَوَّيْتُهُ ، فَوَضَعْتُهُ إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ قَالَ : فَكُنْتُ أَعْبُدُهُ ، فَإِنْ كَانَ لَيَكُونُ فِي الْبَيْتِ الشَّيْءُ أَبْعَثُ بِهِ إِلَيْهِ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمًا لَبَنٌ طَيِّبٌ فَبَعَثْتُ بِهِ إِلَيْهِ فَصَبُّوهُ عَلَيْهِ(١).

وفي لفظ عَنْ مُجَاهِدٍ قال: حَدَّثَنِي مَوْلَايَ [السائب بن عبد الله بن أبي السائب] أَنَّ أَهْلَهُ بَعَثُوا مَعَهُ بِقَدَحٍ فِيهِ زُبْدٌ وَلَبَنٌ إِلَى آلِهَتِهِمْ ، قَالَ : فَمَنَعَنِي أَنْ آكُلَ الزُّبْدَ لِمَخَافَتِهَا ، قَالَ : فَجَاءَ كَلْبٌ فَأَكَلَ الزُّبْدَ وَشَرِبَ اللَّبَنَ ، ثُمَّ بَالَ عَلَى الصَّنَمِ ، وَهُوَ إِسَافٌ وَنَائِلَةُ ، قَالَ هَارُونُ : كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا سَافَرَ حَمَلَ مَعَهُ أَرْبَعَةَ أَحْجَارٍ ، ثَلَاثَةً لِقِدْرِهِ ، وَالرَّابِعَ يَعْبُدُهُ ، وَيُرَبِّي كَلْبَهُ ، وَيَقْتُلُ وَلَدَهُ(٢).

وعن أَبِي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيِّ قال: كُنَّا نَعْبُدُ الْحَجَرَ ، فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ

---

(١) **صحيح:** أخرجه الحاكم في "مستدركه" (١٦٨٩) والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (٥٥٩٦) وهو الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١/ ٤٩٠) (٥٧٨).

(٢) **حسن:** أخرجه الدارمي برقم: (٣) وأحمد (١٥٧٤٤) والطبراني في "الكبير" (٦٦١٧).

مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ وَأَخَذْنَا الْآخَرَ ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ ثُمَّ طُفْنَا بِهِ ، فَإِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَجَبٍ قُلْنَا: مُنَصِّلُ الْأَسِنَّةِ ، فَلَا نَدَعُ رُمْحًا فِيهِ حَدِيدَةٌ ، وَلَا سَهْمًا فِيهِ حَدِيدَةٌ ، إِلَّا نَزَعْنَاهُ وَأَلْقَيْنَاهُ شَهْرَ رَجَبٍ[١].]

٥- وكان من أنواع التقرب إلى الأصنام النذر في الحرث والأنعام، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

[رَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ فَلْيَقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَالْمِائَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ إِلَى قَوْلِهِ: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ[٢].

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ كَلَامٌ صَحِيحٌ، فَإِنَّهَا تَصَرَّفَتْ بِعُقُولِهَا الْعَاجِزَةِ فِي تَنْوِيعِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ سَفَاهَةً بِغَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا عَدْلٍ، وَالَّذِي تَصَرَّفَتْ بِالْجَهْلِ فِيهِ مِنِ اتِّخَاذِ الْآلِهَةِ أَعْظَمُ جَهْلًا وَأَكْبَرُ جُرْمًا، فَإِنَّ الِاعْتِدَاءَ عَلَى [حق] اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِنَ الِاعْتِدَاءِ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ[٣].]

٦- وكانت منها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي. قال ابن إسحاق:

البحيرة بنت السائبة: هي الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر سيبت، فلم يَركَب ظهرَها، ولم يَجُزّ وبرَها، ولم يَشرب لبنَها إلا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنها، ثم خُلّي سبيلها مع أمها، فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، كما فعل بأمها. فهي البحيرة بنت السائبة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٤٣٧٦).

(٢) **صحيح** : انظر [«تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٩٠)] وأحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٢/ ٢٧٦).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٢/ ٢٧٦).

والوصيلة: الشاة إذا أتأمت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة. قالوا: قد وصلت، فكان ما ولد بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت شيء فيشترك في أكله ذكورهم وإناثهم.

والحامي: الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمي ظهره، فلم يركب، ولم يجز وبره، وخلي في إبله يضرب فيها، لا ينتفع منه بغير ذلك، وفي ذلك أنزل الله تعالى ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [سورة المائدة:١٠٣]. ، وأنزل: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩﴾ [سورة الأنعام:١٣٩].

قَالَ الزُّهْرِيِّ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ قَالَ: الْبَحِيرَةُ الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ وَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَالسَّائِبَةُ الَّتِي كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِآلِهَتِهِمْ فَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ قَالَ وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ **«رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ»** (١).

كانت العرب تفعل كل ذلك بأصنامها، معتقدين أنها تقربهم إلى الله وتوصلهم إليه، وتشفع لديه كما في القرآن: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ٣﴾ [سورة الزمر:٣].وقال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ ١٨﴾ [سورة يونس:١٨].

٧- **وكانت** العرب تستقسم بالأزلام، **والزلم:** القِدْح الذي لا ريش عليه، يكتب على أحدهما «نعم» والثاني «لا» كانوا يستقسمون بها فيما يريدون من العمل

(١) أخرجه البخاري (٣٥٢١) ومسلم (٢٨٥٦).

من نحو السفر والنكاح وأمثالها. فإن خرج «نعم» عملوا به وإن خرج «لا» أخروه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى(١). ويقرب من هذا الميسر والقداح، وهو ضرب من ضروب القمار، وكانوا يقتسمون به لحم الجزور التي يذبحونها بحسب القداح. [ولذلك حرمها الله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [سورة المائدة:٩٠].] . وفي المائدة أيضًا آية: ٣.

٨- **وكانوا** يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين.

والكاهن: هو من يتعاطى الأخبار عن الكوائن في المستقبل، ويدعي معرفة الأسرار، ومن الكهنة من يزعم أن له تابعًا من الجن يلقي عليه الأخبار، ومنهم من يدعي إدراك الغيب بفهم أعطيه، ومنهم من يدعي معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا القسم يسمى عرافًا، كمن يدعي معرفة المسروق ومكان السرقة والضالّة ونحوهما.

والمنجّم: من ينظر في النجوم أي الكواكب، ويحسب سيرها ومواقيتها، ليعلم بها أحوال العالم وحوادثه التي تقع في المستقبل والتصديق بأخبار المنجمين هو في الحقيقة إيمان بالنجوم، وكان من إيمانهم بالنجوم الإيمان بالأنواء، فكانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا .وكانت فيهم الطّيرة (بكسر ففتح) وهي التشاؤم بالشيء، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبي فينفرونه، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا، وعدُّوه حسنًا، وإن أخذ ذات الشمال انتهوا عن ذلك وتشاءموا(٢).

---

(١) من أدلته حديث سراقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه البخاري (٣٩٠٦) في قصته حين تبع النبي ﷺ حينما هاجر.

(٢) من أدلة إتيانهم الكهان وتطيرهم ما أخرجه مسلم (٥٣٧)،عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ، أُمُورًا كُنَّا نَصْنَعُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ؛ كُنَّا نَأْتِي الْكُهَّانَ ! قَالَ: فَلَا تَأْتُوا الْكُهَّانَ

٩- **وكانوا** يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان في طريقهم. ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور والحيوانات والدور والنساء، والاعتقاد بالعدوى والهامة، فكانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه ما لم يؤخذ بثأره، وتصير روحه هامة أي: بومة تطير في الفلوات وتقول: صدى صدى أو اسقوني اسقوني، فإذا أخذ بثأره سكن واستراح، [فلما جاء الإسلام نهى عنه النَّبِيُّ ﷺ فقَالَ: **«لَا عَدْوَى ، وَلَا طِيَرَةَ ، وَلَا هَامَةَ ، وَلَا صَفَرَ»**](١).

* كان أهل الجاهلية على ذلك وفيهم بقايا من دين إبراهيم ولم يتركوه كله، مثل تعظيم البيت والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف بعرفة، والمزدلفة وإهداء البدن، [ولكنه غير نافع مع الشرك بالله سبحانه ومع ذلك] ابتدعوا في ذلك بدعًا:

منها: أن قريشًا كانوا يقولون: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم، وولاة البيت وقاطنو مكة، وليس لأحد من العرب مثل حقنا ومنزلتنا. وكانوا يسمون أنفسهم الحمس فلا ينبغي لنا أن نخرج من الحرم إلى الحل، فكانوا لا يقفون بعرفة، ولا يفيضون منها وإنما كانوا يفيضون من المزدلفة وفيهم أنزل: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ١٩٩﴾ [سورة البقرة:١٩٩].

[عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ ، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ الْحُمْسَ ، وَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ ، أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ ، ثُمَّ يَقِفَ بِهَا ، ثُمَّ يُفِيضَ مِنْهَا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ١٩٩﴾.](٢).

. قَالَ: قُلْتُ: كُنَّا نَتَطَيَّرُ ! قَالَ: ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أَحَدُكُمْ فِي نَفْسِهِ ، فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ . وفي الأنواء أحاديث منها ما أخرجه مسلم (٧٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٧) ومسلم (٢٢٢٠) ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٢٠) ومسلم (١٢١٩).

ومنها : أنهم أمروا أهل الحل ألايطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس، فإن لم يجدوا شيئًا فكان الرجال يطوفون عراة، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعًا مفرجًا ثم تطوف فيه وتقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ ❁ ❁ ❁ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

وأنزل الله في ذلك: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [سورة الأعراف:٣١]. (١)، فإن تكرم أحد من رجل أو امرأة فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها بعد الطواف ، ولا ينتفع بها هؤلاء ولا أحد غيره.

ومنها : أنهم كانوا لا يأتون بيوتهم من أبوابها في حال الإحرام، بل كانوا ينقبون في ظهور البيوت نقبًا يدخلون ويخرجون منه، وكانوا يحسبون ذلك الجفاء برًّا وقد منعه القرآن قال الله تعالى: ﴿۞وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۚ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾ [سورة البقرة:١٨٩] (٢).

كانت هذه الديانة ديانة الشرك وعبادة الأوثان، والاعتقاد بالوهميات والخرافيات ديانة معظم العرب، وقد وجدت اليهودية، والمسيحية، والمجوسية والصابئية سبيلًا للدخول في ربوع العرب.

جاء الإسلام، وقد أصاب هذه الديانات الانحلال والبوار، فالمشركون الذين كانوا يدَّعون أنهم على دين إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كانوا بعيدين عن أوامر ونواهي شريعة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، مهملين ما أتت به من مكارم الأخلاق. فكثرت معاصيهم، ونشأ فيهم على توالي الزمان ما ينشأ في الوثنيين من عادات

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢٨) عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (١٨٠٣) ، ومسلم (٣٠٢٦) عن البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

وتقاليد تجري مجرى الخرافات الدينية، وأثرت في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيرًا بالغًا جدًا.

أما اليهود فقد انقلبت أعمالهم رياء وتحكمًا، وصار رؤساؤها أربابًا من دون الله، يتحكمون في الناس ويحاسبونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه، وجعلوا همهم الحظوة بالمال والرياسة، وإن ضاع الدين وانتشر الإلحاد والكفر والتهاون بالتعاليم التي حض الله عليها وأمر كل فرد بتقديسها.

وأما النصرانية فقد عادت وثنية عسرة الفهم، وأوجدت خلطًا عجيبًا بين الله والإنسان، ولم يكن لها في نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقي، لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التي ألفوها، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها.

[وإليك ما حدث به زيد بن عمرو عن اليهود والنصارى الذين بدلوا دينهم فيما يحل بمن تابعهم بعد التحريف:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ ، يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ وَيَتْبَعُهُ ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ الْيَهُودِ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ ، فَقَالَ: إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ فَأَخْبِرْنِي ، فَقَالَ: لَا تَكُونُ عَلَى دِينِنَا ، حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ اللهِ ، قَالَ زَيْدٌ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ غَضَبِ اللهِ ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللهِ شَيْئًا أَبَدًا ، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُهُ؟ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا ، قَالَ زَيْدٌ: وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ ، لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللهَ. فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَى فَذَكَرَ مِثْلَهُ ، فَقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللهِ ، قَالَ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ لَعْنَةِ اللهِ ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللهِ ، وَلَا مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا ، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُ ، فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا ، قَالَ: وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ ، لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللهَ. فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ

يَدَيْهِ ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ . وَقَالَ اللَّيْثُ : كَتَبَ إِلَيَّ هِشَامٌ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: رَأَيْتُ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ قَائِمًا ، مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ ، يَقُولُ: يَا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ ، وَاللهِ مَا مِنْكُمْ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي ، وَكَانَ يُحْيِي الْمَوْءُودَةَ ، يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ: لَا تَقْتُلْهَا ، أَنَا أَكْفِيكَهَا مَئُونَتَهَا ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا تَرَعْرَعَتْ ، قَالَ لِأَبِيهَا: إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ ، وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَئُونَتَهَا(١).

فمات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل بعثة النبي ﷺ بيسير وهو يتلهف لرؤية هذا النور:

قال زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُرْدِفِي فِي يَوْمٍ حَارٍّ مِنْ أَيَّامِ مَكَّةَ، وَمَعَنَا شَاةٌ قَدْ ذَبَحْنَاهَا وَأَصْلَحْنَاهَا فَجَعَلْنَاهَا فِي سُفْرَةٍ، فَلَقِيَهُ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، فَحَيَّا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ بِتَحِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**يَا زَيْدُ -يَعْنِي ابْنَ عَمْرٍو-، مَا لِي أَرَى قَوْمَكَ قَدْ شَنِفُوا لَكَ؟**» قَالَ: وَاللهِ يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ ذَلِكَ لِغَيْرِ تِرَةٍ لِي فِيهِمْ، وَلَكِنْ خَرَجْتُ أَطْلُبُ هَذَا الدِّينَ حَتَّى أَقْدُمَ عَلَى أَحْبَارِ خَيْبَرَ، فَوَجَدْتُهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ وَيُشْرِكُونَ بِهِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا بِالدِّينِ الَّذِي أَبْتَغِي، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَقْدُمَ عَلَى أَحْبَارِ الشَّامِ، فَوَجَدْتُهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ وَيُشْرِكُونَ بِهِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا بِالدِّينِ الَّذِي أَبْتَغِي، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: إِنَّكَ لَتَسْأَلُ عَنْ دِينٍ مَا نَعْلَمُ أَحَدًا يَعْبُدُ اللهَ بِهِ إِلَّا شَيْخًا بِالْجَزِيرَةِ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَقْدُمَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: إِنَّ جَمِيعَ مَنْ رَأَيْتَ فِي ضَلَالٍ، فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِ اللهِ، مِنْ أَهْلِ الشَّوْكِ وَالْقَرَظِ. قَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ قَدْ ظَهَرَ بِبِلَادِكَ، قَدْ بُعِثَ نَبِيٌّ قَدْ طَلَعَ نَجْمُهُ، فَلَوْ أُحِسُّ بِشَيْءٍ يَا مُحَمَّدُ(٢).]

وأما سائر أديان العرب فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين، فقد تشابهت

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" برقم: (٣٨٢٧).

(٢) **حسن:** أخرجه البزار رحمه الله كما في "كشف الأستار" (ج ٣ ص ٢٨٣):وحسنه الإمام الوادعي في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (١/ ٣٠١):برقم: (٣٥٤).

قلوبهم، وتواردت عقائدهم، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم.

صور من المجتمع العربي الجاهلي

بعد البحث عن سياسة الجزيرة وأديانها؛ بقي لنا أن نتكلم حول الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، والخُلقية، وفيما يلي بيانها بإيجاز:

الحالة الاجتماعية

كانت في العرب أوساط متنوعة، تختلف أحوال بعضها عن بعض، فكانت علاقة الرجل مع أهله في الأشراف على درجة كبيرة من الرقي والتقدم، وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر، وكانت محترمة مصونة تسل دونها السيوف، وتراق الدماء، وكان الرجل إذا أراد أن يمتدح بها له في نظر العرب من المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته إلا المرأة، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة، وصاحب الكلمة فيها، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتات عليهم.

بينما هذه حال الأشراف، كان هناك في الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين الرجل والمرأة ، لا نستطيع أن نعبر عنه إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة:

عن عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ : أَنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ : فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ ، يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا ، وَنِكَاحٌ آخَرُ كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا أَرْسِلِي إِلَى فُلَانٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ ، وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلَا يَمَسُّهَا أَبَدًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الْوَلَدِ ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ ، وَنِكَاحٌ آخَرُ يَجْتَمِعُ

الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا ، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالِي بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا ، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا ، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ ، وَقَدْ وَلَدْتُ ، فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلَانُ ، تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ ، فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ ، وَنِكَاحُ الرَّابِعِ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لَا تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا ، وَهُنَّ الْبَغَايَا ، كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا ، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا ، جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمُ الْقَافَةَ ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ ، فَالْتَاطَ بِهِ وَدُعِيَ ابْنَهُ ، لَا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ (١).

وكانت عندهم اجتماعات بين الرجل والمرأة تعقدها شفار السيوف، وأسنة الرماح، فكان المتغلب في حروب القبائل يسبي نساء المقهور فيستحلها، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم.

وكان من المعروف في أهل الجاهلية أنهم كانوا يعددون بين الزوجات من غير حد معروف ينتهى إليه، وكانوا يجمعون بين الأختين قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ _إلى قوله_ ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة النساء:٢٣].

وكانوا يتزوجون بزوجات آبائهم إذا طلقوها أو ماتوا عنها [فحرمه الله تعالى بقوله : ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [سورة النساء:٢٢].].

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" برقم: (٥١٢٧).

وكان الطلاق بين الرجال لا إلى حد معين [١].

وكانت فاحشة الزنا سائدة في جميع الأوساط ، لا نستطيع أن نخص منها وسطًا دون وسط أو صنفًا دون صنف، إلا أفرادًا من الرجال والنساء ممن كان تعاظم نفوسهم يأبى الوقوع في هذه الرذيلة، وكانت الحرائر أحسن حالًا من الإماء والطامة الكبرى هي الإماء، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحس بعار في الانتساب إلى هذه الفاحشة:

روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام رجل فقال: يا رسول الله إن فلانا ابني، عاهرت بأمه في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ : **« لَا دِعْوَةَ فِي الْإِسْلَامِ ، ذَهَبَ أَمْرُ الْجَاهِلِيَّةِ ، الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ ، وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ»**[٢].

وفي قصة عتبة بن أبي وقاص قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : **«هُوَ لَكَ يَا عَبْدُ بْنَ زَمْعَةَ ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ»** ، ثُمَّ قَالَ لِسَوْدَةَ ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ: **«احْتَجِبِي مِنْهُ»**. لِمَا رَأَى مِنْ شَبَهِهِ بِعُتْبَةَ ، فَمَا رَآهَا حَتَّى لَقِيَ اللهَ [٣].

[أما عدة المرأة في الجاهلية فهي عقوبة وعذاب قَالَتْ زَيْنَبُ بنت أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين: سَمِعْتُ أُمَّ سَلَمَةَ تَقُولُ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ ابْنَتِي تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَقَدِ اشْتَكَتْ عَيْنَهَا أَفَتَكْحُلُهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا كُلَّ ذَلِكَ يَقُولُ لَا ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ ، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ

---

(١) **حسن:** أخرجه النسائي في "المجتبى" (٣٤٩٩ / ١) و في "الكبرى" (٥٦٧٤) ، وأبو داود في "سننه" (٢١٩٥) والبيهقي في "سننه الكبير" (١٥٠٨٤) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وصححه الألباني بشاهده عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخرجه الحاكم في "مستدركه" (٣١٢٤) والترمذي (١١٩٢) انظر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٧/ ١٦١).

(٢) **صحيح:** أخرجه أبو داود (٧/ ٤٥)(١٩٦٧) وقال الألباني: قلت: إسناده حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٥٣) ومسلم (١٤٥٧)عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ. قَالَ حُمَيْدٌ : فَقُلْتُ لِزَيْنَبَ : وَمَا تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ ، فَقَالَتْ زَيْنَبُ : كَانَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا دَخَلَتْ حِفْشًا وَلَبِسَتْ شَرَّ ثِيَابِهَا وَلَمْ تَمَسَّ طِيبًا حَتَّى تَمُرَّ بِهَا سَنَةٌ ، ثُمَّ تُؤْتَى بِدَابَّةٍ حِمَارٍ أَوْ شَاةٍ أَوْ طَائِرٍ فَتَفْتَضُّ بِهِ: فَقَلَّمَا تَفْتَضُّ بِشَيْءٍ إِلَّا مَاتَ ، ثُمَّ تَخْرُجُ فَتُعْطَى بَعْرَةً فَتَرْمِي ، ثُمَّ تُرَاجِعُ بَعْدُ مَا شَاءَتْ مِنْ طِيبٍ أَوْ غَيْرِهِ . سُئِلَ مَالِكٌ : مَا تَفْتَضُّ بِهِ ؟ قَالَ: تَمْسَحُ بِهِ جِلْدَهَا (١)

ثم تصبح المرأة ميراثًا كبقية المتاع فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ [سورة النساء:١٩]. قَالَ: كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا ، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا ، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا ، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ(٢).]

وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى فمنهم من يقول:

وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا ❁ ❁ ❁ أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ

ومنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق [ذكر الله عز وجل ذلك في كتابه في غير ما آية منها قوله تعالى :﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـًٔا كَبِيرٗا ٣١﴾ [سورة الإسراء:٣١].﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩﴾ [سورة التكوير٨:٩].] ولكن لا يمكننا أن نعد هذا من الأخلاق المنتشرة السائدة، فقد كانوا أشد الناس احتياجًا إلى البنين، ليتقوا بهم العدو.

أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية، فقد

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٣٦) ومسلم (١٤٨٩). والحفش: بيت صغير مظلم ، لا تخرج منه عامًا كاملًا ؛ ولذلك يموت ما تتمسح به لنتنها، فلتحمد اللهَ المرأةُ على إكرامه عز وجل لها بالإسلام ، وبالحقوق المفروضة لها فيه ، طفلة ، وعذراء، وزوجة ، وأمًّا.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٧٩).

كانوا يحيون للعصبية القبلية، ويموتون لها. وكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية وكان أساس النظام الاجتماعي هو العصبية الجنسية والرحم، وكانوا يسيرون على هذا **«انصر أخاك ظالما أو مظلوما»** لا على المعنى الحقيقي، الذي جاء به الإسلام من أن نصر الظالم كفه عن ظلمه، إلا أن التنافس في الشرف والسؤدد كثيرًا ما كان يفضي إلى الحروب بين القبائل التي كان يجمعها أب واحد، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج، وعبس وذبيان، وبكر وتغلب وغيرها.

أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تمامًا، وكانت قواهم متفانية في الحروب. إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها وفي بعض الحالات كانت الموالاة والحلف والتبعية تفضي إلى اجتماع القبائل المتغايرة، وكانت الأشهر الحرم رحمة وعونًا لهم على حياتهم وحصول معايشهم.

وقصارى الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت في الحضيض من الضعف والعماية فالجهل ضارب أطنابه، والخرافات لها جولة وصولة والناس يعيشون كالأنعام، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجمادات أحيانًا، والعلاقة بين الأمة واهية مبتوتة، وما كان من الحكومات فجل همتها امتلاء الخزائن من رعيتها، أو جر الحروب على مناوئيها.

الحالة الاقتصادية

أما الحالة الاقتصادية، فتبعت الحالة الاجتماعية، ويتضح ذلك إذا نظرنا في طرق معايش العرب. فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة، والجولة التجارية لا تتيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام، وكان ذلك مفقودًا في جزيرة العرب إلا في الأشهر الحرم، وهذه هي الشهور التي كانت تعقد فيها أسواق العرب الشهيرة من عكاظ وذي المجاز ومِجَنَّة وغيرها وأما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها، ومعظم الصناعات التي كانت توجد في العرب من الحياكة والدباغة وغيرها

كانت في أهل اليمن والحيرة، ومشارف الشام، نعم كانت في داخل الجزيرة الزراعة، والحرث، واقتناء الأنعام، وكانت نساء العرب كافّة يشتغلن بالغزل، لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب، وكان الفقر والجوع والعري عامًّا في المجتمع(١) اهـ.

وجاء الله بالنور ليتحول من وفقه الله تعالى إلى الهدى

لما كان هذا هو حالهم : جهل وكفر ، وقتل وقتال ، وحياة بهيمية ، بعث الرب الرحيم سبحانه وتعالى نبيه محمدًا ﷺ لتحويل هذه البشرية من الشر إلى الخير ، ومن الباطل إلى الحق ، ومن الظلمات إلى النور ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن الجهل إلى العلم ، ووعد سبحانه بأنه **«لَنْ يَقْبِضَهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ ، بِأَنْ يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا»**(٢). فناداه ربه سبحانه بقوله :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ [سورة الأحزاب:٤٦]. وقال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ [سورة الجمعة:٢]. فهذه من المقاصد التي بعث الله تعالى نبينا ﷺ بها، التزكيةُ وهي التطهير من العقائد الفاسدة والأعمال المخالفة لدينه وشرعه ، وبعثه بتعليم كتابه الكريم وسنته المطهرة وهي الحكمة وذلك هو العلم الذي ترقى به الأمم في الدنيا فيصير لهم ملكها ويخضع لهم به أهلها وفي الآخرة فيصيرون في أعلى عليين في جنات النعيم ولذلك بدأ الوحي بذكر العلم وأسبابه وآلاته وذكر مسديه وهو الله تعالى فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [سورة العلق:١-٥].وأمره الله تعالى

---

(١) راجع «الرحيق المختوم» (ص٢٧ - ٣٧) النقل بتصرف وزيادات.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٢٥) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أن يشمر عن ساعد الجد في إنقاذ البشرية من الخرافات والهوى وعبادة الأوثان فقال :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [سورة المدثر:١-٧]. ومن هنا بدأ النبي ﷺ بالدعوة فلم يتوان ولم يدخر جهدًا ولم يفوت فرصة تسنح له لينقذ إنسانًا من الشرك بالله تعالى. قال المباركفوري رحمه الله تعالى:

السيرة الإجمالية قبل النبوة

إن النبي ﷺ كان قد جمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات، وكان طرازًا رفيعًا من الفكر الصائب، والنظر السديد، ونال حظًا وافرًا من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل وإدمان الفكرة واستكناه الحق، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات، فعاف ما سواها من خرافة، ونأى عنها، ثم عايش الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجده حسنًا شارك فيه، مثل صيام عاشواء الذي كانت قريش تصومه وإلا عاد إلى عزلته العتيدة فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذبح على النصب، ولا يحضر للأوثان عيداً، ولا احتفالًا، بل كان من أول نشأته نافرًا من هذه المعبودات الباطلة، حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها، وحتى كان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى . ولا شك أن الله تعالى حاطه بالحفظ وكان النبي ﷺ يمتاز في قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة، وشمائل كريمة فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأعزهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وألينهم عريكة، وأعفهم نفسًا، وأكرمهم خيرًا، وأبرهم عملًا، وأوفاهم عهدًا، وآمنهم أمانة، حتى سماه قومه: الأمين؛ لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية، وكان كما قالت أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : يحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق

ولما تقاربت سنه ﷺ الأربعين، وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه، حبب إليه الخلاء، فكان يأخذ السويق والماء ويذهب إلى غار حراء في جبل النور، على مبعدة نحو ميلين من مكة- وهو غار لطيف طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع من ذراع الحديد- ومعه أهله قريبًا منه، فيقيم فيه شهر رمضان، يطعم من جاءه من المساكين، ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون، وفيما وراءها من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة، وتصوراتها الواهية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح، ولا منهج محدد، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه . وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفًا من تدبير الله له، وليعده لما ينتظره من الأمر العظيم. ولا بد لأي روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية فتحولها إلى وجهة أخرى فلا بد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت، وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة، وهموم الحياة، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة.

وهكذا دبر الله لمحمد ﷺ وهو يُعِدّه لحمل الأمانة الكبرى، وتغيير وجه الأرض، وتعديل خط التاريخ: دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات، ينطلق في هذه العزلة شهرًا من الزمان، مع روح الوجود الطليقة، حتى يحين الموعد عند ما يأذن الله.

جبريل ينزل بالوحي

ولما تكامل له أربعون سنة- وهي رأس الكمال، وقيل: ولها تبعث الرسل- بدأت آثار النبوة تتلوح وتتلمع له من وراء آفاق الحياة، وتلك الآثار هي الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، حتى مضت على ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة- فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ بحراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض، فأكرمه بالنبوة، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن .

وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الإثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلًا، ويوافق سنة ٦١٠ م، وكان عمره ﷺ إذ ذاك أربعين سنة قمرية، وستة أشهر، و ١٢ يومًا(١).

ولنستمع إلى عائشة الصديقة رضي الله عنها تروي لنا قصة هذه الوقعة التي كانت شعلة من نور ، أخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر والضلال، حتى غيرت مجرى الحياة، وعدلت خط التاريخ.

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: **« اقْرَأْ ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ ، قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ ، فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [سورة العلق:١-٥] **»** فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها فَقَالَ: **«زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ**

---

(١) يُستأنس لكون أول الوحي كان في شهر رمضان بقول الله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [سورة البقرة:١٨٥]. فيكون معنى الآية ابتداء نزوله في رمضان ، وكذلك إنزاله إلى بيت العزة فيه. **ودليل** كونه يوم الإثنين حديث: عَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ ، قَالَ: **«ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ - أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ -»** أخرجه مسلم (١١٦٢).

عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ خَدِيجَةُ : كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.» فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ، ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ ، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : يَا ابْنَ عَمِّ ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟!» قَالَ: نَعَمْ. لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا . ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ ، وَفَتَرَ الْوَحْيُ.»اهـ[1].

السابقون إلى الإسلام وبعض ما لاقوه، وتحول حياتهم به إلى خير

ولما أراد الله تعالى هذا النور اختار له خيرة خلقه بعد أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيئ[2].

١ - فكان أول من آمن به خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كما في الحديث.

٢ -وآمن به ورقة بن نوفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أن صار نبيًّا بإقرأ ومات قبل أن يرسل إلى الناس وذلك بالمدثر كما دل عليه الحديث السابق.

٣- ثم أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ، وَاسْمُهُ عبدُ الله، وَاسْمُ أَبِي قُحَافَةَ عُثْمَانُ بْنُ عَامِرِ

---

(١) «الرحيق المختوم» (٥٣ - ٥٧). والحديث أخرجه البخاري(٣) ومسلم (١٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٠٠) وحسنه الإمام الوادعي في «الصحيح المسند» (١/ ٦٤٩)رقم (٨٤٢).

بْنِ عَمْرِو بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ التيمي القرشي أول من أسلم من الرجال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ : كَذَبْتَ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَدَقَ. وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ»**(١).

٤- وعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْن هَاشِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أسلم وَهُوَ يَوْمئِذٍ ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ وكان مرعيًا في بيت رسول الله ﷺ وهو أول من أسلم من الصبيان.

٥- ثُمَّ أَسْلَمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بْنِ شُرَحْبِيلَ بْنِ كَعْبِ بن عبد العُزَّى بن امرئ القيس الكلبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من كعب بن وبرة وهم من قضاعة وهي من حِمْيَر ، وهو أول من أسلم من الموالي .

٦- وَبِلَالٌ، مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ، وَبِلَالٌ مُوَلَّد مِنْ مُوَلَّدِي بَنِي جُمَح، اشْتَرَاهُ أَبُو بَكْرٍ من أمية بن خلف ، بعد إسلامه ، وهو بلال بن رَباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وهو أول من أسلم من العبيد.

وذرية نبينا محمد ﷺ كانوا أسبق أهله لما بعثه الله تعالى به وهم:

٧- القاسم، وبه كان يكنى لأنه أكبر أولاده، ٨- ثم زينب، ٩- ثم رقية، ١٠- ثم أم كلثوم، ١١- ثم فاطمة ، ثم بعد النبوة: ١٢- عبد الله، ويقال له: الطيب والطاهر، لأنه ولد في الإسلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين وكلهم من خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا »(٢).

وقال ابن اسحاق في [«السير والمغازي» (ص١٤٠)] فلما أسلم أبو بكر وأظهر إسلامه ودعا إلى الله ورسوله ﷺ ، وكان أبو بكر رجلاً مآلفًا لقومه، محببًا سهلًا،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦١) ، (٤٦٤٠).

(٢) «الفصول في السيرة» لابن كثير(ص٢٤١).

وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بما كان فيها من خير أو شر، وكان رجلًا تاجرًا، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم على يديه:

١٣- الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ بنِ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيّ. أسلم الزبير وَهُوَ ابْن خمس عشرَة سنة، وَقيل وَهُوَ ابْن اثْنَتَيْ عشرَة سنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٤- وعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ قُصَيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٥- وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ كَعْبِ بْن سَعْدِ بْنِ تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٦- وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاسْمُ أَبِي وَقَّاصٍ مَالِكُ بْنُ أُهَيْبُ بْنُ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ.

عن سَعْد بْن أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مَا أَسْلَمَ أَحَدٌ إِلَّا فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَسْلَمْتُ فِيهِ، وَلَقَدْ مَكَثْتُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَإِنِّي لَثُلُثُ الْإِسْلَامِ(١).

١٧- وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفِ بْنِ عَبْدِ عَوْفِ بْنِ عَبْدِ بْنِ الْحَارِثِ بْن زُهْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أسلم عَبْدُ الرَّحْمَنِ قبل أَن يدْخل رَسُول الله ﷺ دَار الأرقم، فانطلقوا ومعهم أبو بكر حتى أتوا رسول الله ﷺ، فعرض عليهم الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، وأنبأهم بحق الإسلام، وبما وعدهم الله من كرامة فآمنوا، وأصبحوا مقرين بحق الإسلام، فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام فصدقوا رسول الله ﷺ، وآمنوا بما جاء من عند الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٢٦)، (٣٧٢٧)، (٣٨٥٨).

الصحابي الذي كان بيته مدرسة للمسلمين

١٨- وَالْأَرْقَمُ بْنُ أَبِي الْأَرْقَمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَاسْمُ أَبِي الْأَرْقَمِ عَبْدُ مَنَافِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ أسلم بعد عشرة أنفس. وَفِي دَار الأرقم بن أَبِي الأرقم هَذَا، كَانَ النَّبِي ﷺ مستخفيًا من قُرَيْش بِمَكَّة، يَدْعُو النَّاس فِيهَا إِلَى الْإِسْلَام فِي أول الْإِسْلَام حَتَّى خرج عَنْهَا، وَكَانَت دَاره بِمَكَّة على الصَّفَا، فَأسلم فِيهَا جمَاعَة.

١٩- ثُمَّ أَسْلَمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَاسْمُهُ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَرَّاحِ بْنِ هِلَالِ بْنِ أُهَيْبِ بْنِ ضَبَّةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ.

٢٠- وَأَبُو سَلَمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ ابْن عَبْدِ الْأَسَدِ بْنِ هِلَالِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَر بْنِ مَخْزُومٍ.

٢١-٢٢-٢٣- وَعُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونِ بْنِ حَبِيبِ بْنِ وَهْبِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ جُمَحَ **وَأَخَوَاهُ** قُدَامَةُ **وَ**عَبْدُ اللَّهِ ابْنَا مَظْعُونِ بْنِ حَبِيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَأسلم عُثْمَان بن مَظْعُون بعد ثَلَاثَة عشر رجلًا.

٢٤- وَعُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنُ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ أسن من رَسُول الله ﷺ بِعشر سِنِين، وَكَانَ إِسْلَامه قبل دُخُول رَسُول الله ﷺ دَار الأرقم.

٢٥- ٢٦- وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ عَبْدِ اللَّه ابْن قُرْطِ بْنِ رِيَاحِ بْنِ رَزَاحِ بْنِ عَدِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، **وَامْرَأَتُهُ** فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطَّابِ بْنِ نُفَيْلِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بنت عمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أُخْتُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ.

٢٧- وَخَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، وَيُقَالُ: هُوَ مِنْ خُزَاعَةَ.

٢٨- ٢٩- وَأَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وَعَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَهِيَ يَوْمئِذٍ صَغِيرَةٌ.

٣٠- وَعُمَيْرُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَخُو سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣١- وعَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُوْدِ بنِ غَافِلِ بنِ حبيب بن شَمْخِ بنِ فَارِ بنِ مَخْزُوْمِ بنِ صَاهِلَةَ بنِ كَاهِلِ بنِ الحَارِثِ بنِ تَمِيْمِ بنِ سَعْدِ بنِ **هُذَيْلِ** بنِ مُدْرَكَةَ بنِ إِلْيَاسِ بنِ مُضَرَ بنِ نِزَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قصة إسلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : كُنْتُ أَرْعَى غَنَمًا لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : **«يَا غُلَامُ هَلْ مِنْ لَبَنٍ؟»** قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ ، وَلَكِنِّي مُؤْتَمَنٌ ، قَالَ : **«فَهَلْ مِنْ شَاةٍ لَمْ يَنْزُ عَلَيْهَا الْفَحْلُ؟»** فَأَتَيْتُهُ بِشَاةٍ ، فَمَسَحَ ضَرْعَهَا ، فَنَزَلَ لَبَنٌ فَحَلَبَهُ فِي إِنَاءٍ فَشَرِبَ وَسَقَى أَبَا بَكْرٍ ، ثُمَّ قَالَ لِلضَّرْعِ : **«اقْلِصْ»** ، فَقَلَصَ ، قَالَ : ثُمَّ أَتَيْتُهُ بَعْدَ هَذَا فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي مِنْ هَذَا الْقَوْلِ ، قَالَ : فَمَسَحَ رَأْسِي وَقَالَ : **«يَرْحَمُكَ اللهُ ، فَإِنَّكَ غُلَيِّمٌ مُعَلَّمٌ»**. وفي رواية قال: قَالَ : فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ بِصَخْرَةٍ مَنْقُورَةٍ ، فَاحْتَلَبَ فِيهَا فَشَرِبَ ، وَشَرِبَ أَبُو بَكْرٍ وَشَرِبْتُ ، قَالَ : ثُمَّ أَتَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ [أي حين أسلم] ، قُلْتُ : عَلِّمْنِي مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ ، قَالَ : **«إِنَّكَ غُلَامٌ مُعَلَّمٌ»** ، قَالَ : فَأَخَذْتُ مِنْ فِيهِ سَبْعِينَ سُورَةً . وفي رواية قَالَ : كُنْتُ غُلَامًا يَافِعًا أَرْعَى غَنَمًا لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَقَدْ فَرَّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فذكره. وفي آخره: قَالَ : فَأَخَذْتُ مِنْ فِيهِ سَبْعِينَ سُورَةً ، لَا يُنَازِعُنِي فِيهَا أَحَدٌ .(١)

قال أبو المحاسن الحنفي: "سأله شاة لم يصبها فحل، ليريه في ذلك آيةً معجزة تقوم له بها الحجة عليه وعلى غيره، وفي ذلك منفعة لصاحب الشاة بتلبين ضرعها، فلم يكن له في اللبن حق، لأن الله تعالى جعله في ضرعها حينئذ فلذلك شربه ﷺ وسقاه أبا بكر".

---

(١) **حسن:** أخرجه أحمد رحمه الله (٣٥٩٨)وأبو يَعْلَى (ج ٨ ص ٤٠٢)، والطيالسي (٤٧)، وأبو بكر بن أبي شيبة (ج ٧ ص ٥١).وحسنه الوادعي في «الصحيح المسند» (١/ ٦٤٨)برقم(٨٤١).

الغار من مدارس النَّبِيِّ ﷺ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَارٍ بِمِنًى ، إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ [سورة المرسلات:١].وَإِنَّهُ لَيَتْلُوهَا ، وَإِنِّي لَأَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ ، وَإِنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا ، إِذْ وَثَبَتْ عَلَيْنَا حَيَّةٌ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اقْتُلُوهَا ، فَابْتَدَرْنَاهَا فَذَهَبَتْ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا (١).

٣٢- وَمَسْعُودُ بْنُ الْقَارِّيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَهُوَ مَسْعُودُ بْن رَبِيعَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ حَمَالَةَ بْنِ غَالِبِ بْنِ مُحَلِّمِ بْنِ عَائِذَةَ بن سُبَيْعِ بْنِ الْهُونِ بْنِ خُزَيْمَةَ مِنْ الْقَارَّةِ أسلم مَسْعُود قبل دُخُول رَسُول الله ﷺ دَار الأرقم.

٣٣- ٣٤- وَسَلِيطُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ وُدِّ بْنِ نَصْرِ بْن مَالِكِ بْنِ (حِسْلِ بْنِ) عَامِرِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرٍ، (**وَأَخُوهُ** حَاطِبُ بْنُ عَمْرٍو) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهما أخوا سهيل بن عمرو ، وَقد أسلم حَاطِب قبل دُخُول الرَّسُول ﷺ دَار الأرقم.

٣٥-٣٦- وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَر بْن مَخْزُومٍ ، **وَامْرَأَتُهُ** أَسْمَاءُ بِنْتُ سَلَامَةَ بْن مُخَرَّبَةِ التَّمِيمِيَّةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَكَانَ إِسْلَامه قبل أَن يدْخل رَسُول الله ﷺ دَار الأرقم.

٣٧- وَخُنَيْسُ بْنُ حُذَافَةَ بْنِ عَدِيِّ بْنِ سَعْدِ بْنِ سَهْمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣٨- وَعَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، مِنْ عَنْزِ بْنِ وَائِلٍ، حَلِيفُ آلِ الْخَطَّابِ بْنِ نُفَيْلِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: عَنْزِ بْنُ وَائِلِ أَخُو بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ، مِنْ رَبِيعَةَ بْنِ نِزَارٍ.

٣٩-٤٠-وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشِ بْنِ رِئَابِ بْنِ يَعْمَر بن صَبِرة بن مُرة بن كبير بن غَنْم بن دُودَان بن أسد بن خُزَيمة.**وَأَخُوهُ** أَبُو أَحْمَدَ عبد بنُ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، حَلِيفَا بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ. أسلم عبد الله قبل دُخُول رَسُول الله ﷺ دَار الأرقم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٠) ومسلم (٢٢٣٤).

٤١ - ٤٢- وَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، **وَامْرَأَتُهُ** أَسَمَاءُ بِنْتُ عُمَيْس بْنِ النُّعْمَانِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكِ بْنِ قُحَافَةَ، مِنْ خَثْعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٤٣-٤٤-٤٥-٤٦-٤٧- وَحَاطِبُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ مَعْمَر بْنِ حَبيب بْنِ وَهْبِ بْنِ حُذافة بْنِ جُمَح **وَامْرَأَتُهُ** فَاطِمَةُ بِنْتُ الْمُجَلَّل بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَيْس بْنِ عَبْدِ وُدّ بن نَصر بن مالك بن حِسْل بْنِ عَامِرِ بْنِ لُؤَي بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهر **وأخوه** خطَّاب بْنُ الْحَارِثِ، **وَامْرَأَتُهُ** فُكَيْهة بِنْتُ يَسار **وأخوهما** مَعْمَرُ بْنُ الحارث بن معمر بن حبيب بْنِ وَهْبِ بْنِ حُذَافة بْنِ جُمَح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. أَسْلم معمر قبل دُخُول رَسُول الله ﷺ دَار الأرقم.

٤٨- وَالسَّائِبُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعون بْنِ حَبِيب بْنِ وَهْب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤٩-٥٠- والمطَّلِب بْنُ أَزْهَر بن عبد عَوْف بن عبد بن الحارث بْنِ زُهْرة ، **وَامْرَأَتُهُ**: رَمْلَة بِنْتُ أَبِي عوف بن ضُبَيْرة بْنِ سَعيد بْنِ سَهْم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٥١- ونُعَيم النحام بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَسَيْد بْنِ عَبْدِ عَوْفِ بْنِ عبيد بن عويج بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَيُقَال إن نعيمًا أسلم بعد عشرة نفر.

٥٢- وَعَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، مَوْلَى أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُوَلَّد من مُوَلِّدي الأسَيْد، أسْوَد اشْتَرَاهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منهم وَأسلم عَامر قبل دُخُول النَّبِي ﷺ دَار الأرقم.

٥٣-٥٤- وَخَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عبد مناف **وَامْرَأَتُهُ** أمَيْنة بنت خَلَف ، مِنْ خُزاعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَيُقَالُ: هُمَيْنة بِنْتُ خَلَفٍ.

٥٥- وَوَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ عَرِين بْنِ ثَعْلبة بْنِ يَرْبوع بْنِ حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تَمِيم، حَلِيفُ بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.قَالَ ابْنُ هِشَام: جَاءَتْ بِهِ بَاهِلَةُ، فَبَاعُوهُ مِنْ الْخَطَّابِ بْنِ نُفَيْل، فَتَبَنَّاهُ. أسلم وَاقد قبل دُخُول رَسُول الله ﷺ دَار الأرقم.

٥٦-٥٧-٥٨-٥٩- وَخَالِدٌ وَعَامِرٌ وَعَاقِلٌ وَإِيَاسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بَنُو الْبُكَيْرِ بْنِ

عَبْدِ يَاليل بْنِ ناشِب بْنِ غِيَرَة بْنِ سَعْدِ بْنِ لَيْث بْنِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةِ بْنِ كِنَانَةِ حَلْفَاءُ بَنِي عدي. وَكَانَ عاقل من أول من أسلم وَبَايع رَسُول الله ﷺ فِي دَار الأرقم وهكذا إخوته.

٦٠-٦١-٦٢- وعَمَّارُ بنُ يَاسِرِ بنِ عَامِرِ بنِ مَالِكٍ العَنْسِيُّ مِنْ مَذْحِجٍ **ووالده** ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **وأم عمار** سمية بنت خياط (زوج ياسر) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.كانت أمةً لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي، وكان ياسر حليفًا لأبي حذيفة، فزوّجه سميّة، فولدتْ له عمّارًا، فأعتقه أبو حذيفة يعني عمارًا يقال إنها ثاني امرأة أسلمت بعد خديجة وكذا قيل في أم الفضل فالله أعلم وهي أول شهيدة في الإسلام. فهذه الأسرة المباركة من السابقين إلى الإسلام قَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا مَعَهُ إِلَّا خَمْسَةُ أَعْبُدٍ وَامْرَأَتَانِ، وَأَبُو بَكْرٍ**»(١).

٦٣- والْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرِو بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ ...بْنِ بَهْرَاءَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْحَافِّ بْنِ قُضَاعَةَ الْكِنْدِيّ

٦٤- وصهيبُ بْنُ سِنَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحَدُ النَّمِرِ بْنِ قَاسِطٍ حَلِيفُ بني تيم بن مرة. نسب صهيب: قَالَ ابْنُ هِشَام: النَّمِرُ بْنُ قَاسِطِ بْنِ هنب بن أفصى بن جديلة بن أسد بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ نِزَارٍ، وَيُقَالُ: أَفْصَى بْنُ دُعْمِيِّ بْنِ جَدِيلَةَ بْنِ أَسَدٍ؛ وَيُقَالُ: صُهَيْبٌ: مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ بْنِ عَمْرِو بن كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمٍ وَكَانَ إِسْلَامه هُوَ وعمار بن يَاسر فِي يَوْم وَاحِد.

٦٥- وأم الفضل وهي لُبَابةُ الكبرى ابنة الحارث بن حَزْن الهلالية من قَيْس بن عَيْلان بن مُضَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي زوج العباس بن عبد المطلب اهـ.

٦٦- وأَبو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جُنْدُبُ بْن جُنَادَةَ بْنِ سُفْيَانَ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ حرام بن غفار بن مليل بن خمرة بن بكر عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ كِنَانَةَ.

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" برقم: (٣٦٦٠).

قصة إسلام أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: قَدْ صَلَّيْتُ يَا ابْنَ أَخِي قَبْلَ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ اللهِ ﷺ بِثَلَاثِ سِنِينَ . قُلْتُ: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلهِ . قُلْتُ: فَأَيْنَ تَوَجَّهُ؟ قَالَ: أَتَوَجَّهُ حَيْثُ يُوَجِّهُنِي رَبِّي ، أُصَلِّي عِشَاءً حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أُلْقِيتُ كَأَنِّي خِفَاءٌ حَتَّى تَعْلُوَنِي الشَّمْسُ. فَقَالَ أُنَيْسٌ: إِنَّ لِي حَاجَةً بِمَكَّةَ فَاكْفِنِي ، فَانْطَلَقَ أُنَيْسٌ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ فَرَاثَ عَلَيَّ ، ثُمَّ جَاءَ فَقُلْتُ: مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: لَقِيتُ رَجُلًا بِمَكَّةَ عَلَى دِينِكَ يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ ! قُلْتُ: فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ قَالَ: يَقُولُونَ شَاعِرٌ كَاهِنٌ سَاحِرٌ ، وَكَانَ أُنَيْسٌ أَحَدَ الشُّعَرَاءِ. قَالَ أُنَيْسٌ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشِّعْرِ فَمَا يَلْتَئِمُ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي أَنَّهُ شِعْرٌ ، وَاللهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. قَالَ: قُلْتُ: فَاكْفِنِي حَتَّى أَذْهَبَ فَأَنْظُرَ . قَالَ: فَأَتَيْتُ مَكَّةَ فَتَضَعَّفْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ فَقُلْتُ: أَيْنَ هَذَا الَّذِي تَدْعُونَهُ الصَّابِئَ؟ فَأَشَارَ إِلَيَّ فَقَالَ: الصَّابِئَ ؟ فَمَالَ عَلَيَّ أَهْلُ الْوَادِي بِكُلِّ مَدَرَةٍ وَعَظْمٍ حَتَّى خَرَرْتُ مَغْشِيًّا عَلَيَّ . قَالَ: فَارْتَفَعْتُ حِينَ ارْتَفَعْتُ كَأَنِّي نُصُبٌ أَحْمَرُ . قَالَ: فَأَتَيْتُ زَمْزَمَ فَغَسَلْتُ عَنِّي الدِّمَاءَ وَشَرِبْتُ مِنْ مَائِهَا ، وَلَقَدْ لَبِثْتُ يَا ابْنَ أَخِي ثَلَاثِينَ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ ، فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُكَنُ بَطْنِي ، وَمَا وَجَدْتُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةَ جُوعٍ. قَالَ: فَبَيْنَا أَهْلُ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ قَمْرَاءَ إِضْحِيَانَ إِذْ ضُرِبَ عَلَى أَسْمِخَتِهِمْ فَمَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ أَحَدٌ ، وَامْرَأَتَانِ مِنْهُمْ تَدْعُوَانِ إِسَافًا وَنَائِلَةَ ، قَالَ: فَأَتَتَا عَلَيَّ فِي طَوَافِهِمَا ، فَقُلْتُ: أَنْكِحَا أَحَدَهُمَا الْأُخْرَى . قَالَ: فَمَا تَنَاهَتَا عَنْ قَوْلِهِمَا . قَالَ: فَأَتَتَا عَلَيَّ فَقُلْتُ: هَنٌ مِثْلُ الْخَشَبَةِ – غَيْرَ أَنِّي لَا أَكْنِي ، فَانْطَلَقَتَا تُوَلْوِلَانِ وَتَقُولَانِ: لَوْ كَانَ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنْ أَنْفَارِنَا ! قَالَ: فَاسْتَقْبَلَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَهُمَا هَابِطَانِ ، قَالَ: مَا لَكُمَا؟ قَالَتَا: الصَّابِئُ بَيْنَ الْكَعْبَةِ وَأَسْتَارِهَا ! قَالَ: مَا قَالَ لَكُمَا؟ قَالَتَا: إِنَّهُ قَالَ لَنَا كَلِمَةً تَمْلَأُ الْفَمَ ! وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى اسْتَلَمَ الْحَجَرَ وَطَافَ بِالْبَيْتِ هُوَ وَصَاحِبُهُ ، ثُمَّ صَلَّى ، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالَ أَبُو ذَرٍّ: فَكُنْتُ أَنَا أَوَّلَ مَنْ

حَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ ، قَالَ: فَقُلْتُ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ: «**وَعَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ**» ، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ أَنْتَ؟**» قَالَ: قُلْتُ: مِنْ غِفَارٍ . قَالَ: فَأَهْوَى بِيَدِهِ فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: كَرِهَ أَنِ انْتَمَيْتُ إِلَى غِفَارٍ ، فَذَهَبْتُ آخُذُ بِيَدِهِ فَقَدَعَنِي صَاحِبُهُ ، وَكَانَ أَعْلَمَ بِهِ مِنِّي ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، ثُمَّ قَالَ: «**مَتَى كُنْتَ هَاهُنَا؟**» قَالَ: قُلْتُ: قَدْ كُنْتُ هَاهُنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ . قَالَ: «**فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ؟**» قَالَ: قُلْتُ: مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ ، فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُكَنُ بَطْنِي ، وَمَا أَجِدُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةَ جُوعٍ . قَالَ: «**إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ ، إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ**» . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ ، ائْذَنْ لِي فِي طَعَامِهِ اللَّيْلَةَ . فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ ، وَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا ، فَفَتَحَ أَبُو بَكْرٍ بَابًا فَجَعَلَ يَقْبِضُ لَنَا مِنْ زَبِيبِ الطَّائِفِ ، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ طَعَامٍ أَكَلْتُهُ بِهَا ، ثُمَّ غَبَرْتُ مَا غَبَرْتُ ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**إِنَّهُ قَدْ وُجِّهَتْ لِي أَرْضٌ ذَاتُ نَخْلٍ لَا أُرَاهَا إِلَّا يَثْرِبَ ، فَهَلْ أَنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِّي قَوْمَكَ؟ عَسَى اللهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ وَيَأْجُرَكَ فِيهِمْ**» . فَأَتَيْتُ أُنَيْسًا فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: صَنَعْتُ أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ . قَالَ: مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكَ ، فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ . فَأَتَيْنَا أُمَّنَا فَقَالَتْ: مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكُمَا ، فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ ، فَاحْتَمَلْنَا حَتَّى أَتَيْنَا قَوْمَنَا غِفَارًا فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ ، وَكَانَ يَؤُمُّهُمْ إِيمَاءُ بْنُ رَحَضَةَ الْغِفَارِيُّ وَكَانَ سَيِّدَهُمْ ، وَقَالَ نِصْفُهُمْ: إِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَسْلَمْنَا . فَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمُ الْبَاقِي ، وَجَاءَتْ أَسْلَمُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِخْوَتُنَا ، نُسْلِمُ عَلَى الَّذِي أَسْلَمُوا عَلَيْهِ . فَأَسْلَمُوا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**غِفَارٌ غَفَرَ اللهُ لَهَا ، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ**»(١).

وفي روايةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ قَالَ لِأَخِيهِ: ارْكَبْ إِلَى هَذَا الْوَادِي فَاعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ يَأْتِيهِ

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٤٧٣).

الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ ثُمَّ ائْتِنِي . فَانْطَلَقَ الْآخَرُ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَبِي ذَرٍّ فَقَالَ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَكَلَامًا مَا هُوَ بِالشِّعْرِ. فَقَالَ: مَا شَفَيْتَنِي فِيمَا أَرَدْتُ ! فَتَزَوَّدَ وَحَمَلَ شَنَّةً لَهُ فِيهَا مَاءٌ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَأَتَى الْمَسْجِدَ ، فَالْتَمَسَ النَّبِيَّ ﷺ وَلَا يَعْرِفُهُ ، وَكَرِهَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْهُ حَتَّى أَدْرَكَهُ - يَعْنِي اللَّيْلَ - فَاضْطَجَعَ ، فَرَآهُ عَلِيٌّ فَعَرَفَ أَنَّهُ غَرِيبٌ ، فَلَمَّا رَآهُ تَبِعَهُ فَلَمْ يَسْأَلْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَصْبَحَ ، ثُمَّ احْتَمَلَ قِرْبَتَهُ وَزَادَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَظَلَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَا يَرَى النَّبِيَّ ﷺ حَتَّى أَمْسَى ، فَعَادَ إِلَى مَضْجَعِهِ فَمَرَّ بِهِ عَلِيٌّ فَقَالَ: مَا أَنَى لِلرَّجُلِ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَهُ؟ فَأَقَامَهُ فَذَهَبَ بِهِ مَعَهُ وَلَا يَسْأَلُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الثَّالِثِ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَأَقَامَهُ عَلِيٌّ مَعَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَلَا تُحَدِّثُنِي مَا الَّذِي أَقْدَمَكَ هَذَا الْبَلَدَ؟ قَالَ: إِنْ أَعْطَيْتَنِي عَهْدًا وَمِيثَاقًا لَتُرْشِدَنِّي فَعَلْتُ ! فَفَعَلَ ، فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: فَإِنَّهُ حَقٌّ ، وَهُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَاتَّبِعْنِي ، فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ شَيْئًا أَخَافُ عَلَيْكَ قُمْتُ كَأَنِّي أُرِيقُ الْمَاءَ ، فَإِنْ مَضَيْتُ فَاتَّبِعْنِي حَتَّى تَدْخُلَ مَدْخَلِي . فَفَعَلَ ، فَانْطَلَقَ يَقْفُوهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَدَخَلَ مَعَهُ ، فَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ وَأَسْلَمَ مَكَانَهُ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **«ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَأَخْبِرْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي»**. فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ ! فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ! وَثَارَ الْقَوْمُ فَضَرَبُوهُ حَتَّى أَضْجَعُوهُ ، فَأَتَى الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَالَ: وَيْلَكُمْ ، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ غِفَارٍ وَأَنَّ طَرِيقَ تُجَّارِكُمْ إِلَى الشَّامِ عَلَيْهِمْ ! فَأَنْقَذَهُ مِنْهُمْ ، ثُمَّ عَادَ مِنَ الْغَدِ بِمِثْلِهَا وَثَارُوا إِلَيْهِ فَضَرَبُوهُ ، فَأَكَبَّ عَلَيْهِ الْعَبَّاسُ فَأَنْقَذَهُ[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٢٢) ،(٣٨٦١) ومسلم (٢٤٧٤). **تنبيه:** الظاهر والله أعلم أن أبا ذر قدم مكة مرتين الأخيرة قبيل الهجرة حين قال : ثُمَّ غَبَرْتُ مَا غَبَرْتُ ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: **"إِنَّهُ قَدْ وُجِّهَتْ لِي أَرْضٌ ذَاتُ نَخْلٍ لَا أُرَاهَا إِلَّا يَثْرِبَ"** ولكن دخل بعض الحديث في بعض، والله أعلم.

٦٧ - وَأَبو نَجِيحٍ السُّلَمِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَمْرو بْنُ عَبْسَةَ بْنِ مُنْقِذِ بْنِ خَالِدِ بن حذيفة بن عمر خَلَفِ بْنِ مَازِنِ بْنِ مَالِكِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ بَهْثَةَ بْنِ سُلَيْمٍ(١).

قصة إسلام عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ . فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا ، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ . فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ لَهُ : مَا أَنْتَ ؟ قَالَ : **«أَنَا نَبِيٌّ»** . فَقُلْتُ : وَمَا نَبِيٌّ ؟ قَالَ : **«أَرْسَلَنِي اللهُ»** . فَقُلْتُ : وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ ؟ قَالَ : **«أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ»** . قُلْتُ لَهُ : فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا ؟ قَالَ : **«حُرٌّ وَعَبْدٌ»** . - قَالَ : وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ - . فَقُلْتُ : إِنِّي مُتَّبِعُكَ . قَالَ : **«إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا ! أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ ؟ وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي»** . قَالَ : فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي ، وَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ . وَكُنْتُ فِي أَهْلِي فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الْأَخْبَارَ ، وَأَسْأَلُ النَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ ، حَتَّى قَدِمَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَقُلْتُ : مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ ؟ فَقَالُوا : النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ ، وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ . فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَتَعْرِفُنِي ؟ قَالَ : «**نَعَمْ . أَنْتَ الَّذِي لَقِيتَنِي بِمَكَّةَ**»(٢).

فهؤلاء أول من أشرقت عليهم أنوار الرسالة وتحولوا إلى جادة الصواب من أمة محمد ﷺ ، وهناك غيرهم ، ممن جاء بعدهم منَّ الله عليهم ، استقت قلوبهم الإيمان، وتغلغل داخلهم التصديق، وسعدوا بهذا الدين العظيم، فمنهم من جاءه

---

(١) عيون الأثر (١/ ١١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٨٣٢).

الحق وهو في مرعاه، ومنهم من أشع عليه النور وهو لا يتوخاه، ولك أن تحلق بخيالك إلى هذه الحقبة الزمنية، وإلى هذا التحول العظيم، بل إلى هذه المعركة الفاصلة التي لم تكن بالسيف والسنان، بل كانت بالحجة والبيان وبالمعجزات والحق والبرهان، هذا يسلم في غنمه وهذا يستسلم كافرًا بصنمه.

قال في الرحيق: أسلم هؤلاء سرًّا، وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفيًا؛ لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية، وكان الوحي قد تتابع وحمي نزوله بعد نزول أوائل المدثر. وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا الزمان آيات قصيرة، ذات فواصل رائعة منيعة، خلابة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق، تشتمل على تحسين وتزكية النفوس، وتقبيح تلويثها برغائم الدنيا، تصف الجنة والنار كأنهما رأي العين، تسير بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع البشري آنذاك(١).

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ دَخَلَ النَّاسُ فِي الْإِسْلَامِ أَرْسَالًا مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، حَتَّى فَشَا ذِكْرُ الْإِسْلَامِ بِمَكَّةَ، وَتُحُدِّثَ بِهِ. ثُمَّ إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَصْدَعَ بِمَا جَاءَهُ مِنْهُ، وَأَنْ يُبَادِيَ النَّاسَ بِأَمْرِهِ، وَأَنْ يَدْعُوَ إلَيْهِ، وَكَانَ بَيْنَ مَا أَخْفَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَهُ وَاسْتَتَرَ بِهِ إلَى أَنْ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِإِظْهَارِ دِينِهِ ثَلَاثَ سِنِينَ - فِيمَا بَلَغَنِي - مِنْ مَبْعَثِهِ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [سورة الحجر: ٩٤]. وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [سورة الشعراء: ٢١٤-٢١٥]. وقال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الحجر: ٨٩] (٢) اهـ. عندها دعا النبي ﷺ جهرًا

فعَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: [كَانَ] أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللهِ

---

(١) «الرحيق المختوم مع زيادات» (ص٣٢).

(٢) «سيرة ابن هشام ت السقا» (١/ ٢٦٢-٢٦٣).

ﷺ ، وَأَبُو بَكْرٍ ، وَعَمَّارٌ ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ ، وَصُهَيْبٌ ، وَبِلَالٌ ، وَالْمِقْدَادُ ، فَأَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَنَعَهُ اللهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللهُ بِقَوْمِهِ ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ ، فَمَا مِنْهُمْ إِنْسَانٌ إِلَّا وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا إِلَّا بِلَالٌ ، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللهِ ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ ، وَأَخَذُوا يَطُوفُونَ بِهِ شِعَابَ مَكَّةَ ، وَهُوَ يَقُولُ : أَحَدٌ أَحَدٌ (١).

دعا النبي ﷺ جهرًا وكان ما هو معلوم في السيرمن تكذيب الكثير وإيمان القليل لكن رسول الله ﷺ صبر قائلًا «**أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**» (٢). وحصل ما رجاه ﷺ وما وعده الله تعالى به تتابع الناس للدخول في الإسلام وإن كانوا فردًا فردًا في أكثر الأحوال ولكن رسول الله ﷺ كان موقنًا بوعد الله عز وجل فقد قال لخباب مسلّيًا له ولغيره :«**وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»(٣).

الهجرة وظهور دولة الإسلام وطريقة بنائها

ثم أذن الله لنبيه ﷺ بالهجرة وأمره بإقامة الدولة ومحاربة كفار قريش الذين صبر عليهم ثلاث عشرة سنة فلم يسلم كثير منهم، وكانوا حجر عثرة أمام القبائل العربية التي كانت ترى في قريش نبراس خير فلم يتقبل الدعوة الإسلامية منهم إلا قليل لما يسمعون من التشويه:

فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَبِثَ عَشْرَ سِنِينَ يَتَتَبَّعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْمَوْسِمِ وَمَجَنَّةَ وَعُكَاظٍ ، [وَ]فِي مَنَازِلِهِمْ [بِمِنًى] ، يَقُولُ : «**مَنْ يُؤْوِينِي**

---

(١) **حسن:** أخرجه أحمد (٣٩٠٩)وغيره وهو في الصحيح المسند (٨٤٧)(١/ ٦٥٢).

(٢) متفق عليه البخاري: (٣٢٣١) ومسلم: (١٧٩٥).

(٣) أخرجه البخاري برقم: (٣٦١٢).

، **وَيَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّي ، وَلَهُ الْجَنَّةُ ؟»** فَلَا يَجِدُ ﷺ أَحَدًا يَنْصُرُهُ وَلَا يُؤْوِيهِ ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَرْحَلُ مِنْ مِصْرَ أَوْ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى ذِي رَحِمِهِ ، فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ لَهُ : احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ لَا يَفْتِنْكَ ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِحَالِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ فَيُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ ، حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ لَهُ مِنْ يَثْرِبَ ، فَيَأْتِيهِ الرَّجُلُ فَيُؤْمِنُ بِهِ ، وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ ، فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ يَثْرِبَ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ . فَائْتَمَرْنَا وَاجْتَمَعْنَا ، فَقُلْنَا : حَتَّى مَتَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ ؟ فَرَحَلْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ ، فَوَاعَدْنَا شِعْبَ الْعَقَبَةِ ، فَقَالَ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ : يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ، فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ ، فَلَمَّا نَظَرَ فِي وُجُوهِنَا ، قَالَ : هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُهُمْ ، هَؤُلَاءِ أَحْدَاثٌ ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ، عَلَى مَا نُبَايِعُكَ ؟ قَالَ : **«تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ ، لَا يَأْخُذُكُمْ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَتَمْنَعُونِي مَا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ ، فَلَكُمُ الْجَنَّةُ»** ، فَقُمْنَا نُبَايِعُهُ فَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ وَهُوَ أَصْغَرُ السَّبْعِينَ إِلَّا أَنَا قَالَ : رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ، إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً ، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَيْهَا إِذَا مَسَّتْكُمْ ، وَعَلَى قَتْلِ خِيَارِكُمْ وَمُفَارَقَةِ الْعَرَبِ كَافَّةً ، فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ ، وَإِمَّا أَنْتُمْ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً ، فَذَرُوهُ فَهُوَ أَعْذَرُ عِنْدَ اللهِ ، قَالُوا : يَا أَسْعَدُ ، أَمِطْ عَنَّا يَدَكَ ، فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ ، وَلَا نَسْتَقِيلُهَا ، قَالَ : فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلٌ رَجُلٌ ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا شَرِيطَةَ الْعَبَّاسِ ، وَضَمِنَ عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ.

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:مَاتَ أَسْعَدُ بَعْدَ قُدُومِ الْمُصْطَفَى ﷺ بِالْمَدِينَةِ بِأَيَّامٍ وَالْمُسْلِمُونَ

يَبْنُونَ الْمَسْجِدَ.[١] فهاجر ﷺ إلى هؤلاء الرجال الكرماء الأبطال الذين اختارهم الله تعالى لنصرة دينه، وبنيت دولة الإسلام.

بناء مجتمع جديد

هاجر رسول الله ﷺ ونزل قباء ثم المدينة في بني النجار يوم الجمعة (١٢ ربيع الأولى سنة ١ هـ) في أرض أمام دار أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: هٰهنا المنزل إن شاء الله، ثم انتقل إلى بيت أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بناء المسجد النبوي: [لم يترك رسول الله ﷺ الوقت يمضي بل شمر عن ساعد الجد] وأول خطوة خطاها رسول الله ﷺ بعد ذلك هو إقامة المسجد النبوي. ففي المكان الذي بركت فيه ناقته أمر ببناء هذا المسجد، واشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وساهم في بنائه بنفسه، فكان ينقل اللبن والحجارة ويقول:

«اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَهْ ❁❁❁ فَانْصُرِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ

وكان يقول:

هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالَ خَيْبَرْ ❁❁❁ هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ

وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في البناء حتى إن أحدهم ليقول:

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ ❁❁❁ لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ

وكَانَ ذلك المكان فِيهِ قُبُورُ الْمُشْرِكِينَ ، وَكَانَتْ فِيهِ خِرَبٌ ، وَكَانَ فِيهِ نَخْلٌ ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ ، وَبِالْخِرَبِ فَسُوِّيَتْ ، وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ ، فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ ، وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ حِجَارَةً ،[٢] وكانت القبلة إلى بيت المقدس، «وأقيمت حيطانه من اللبن والطين، وجعل سقفه من جريد النخل،

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن حبان (٧٠٢٠) وغيره وهو في الصحيح المسند (٢١٥) (١/ ١٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٣٢) ومسلم (٥٢٤) عن أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعمده الجذوع»،[١] وفرشت أرضه من الرمال والحصباء، وجعلت له ثلاثة أبواب، وطوله مما يلي القبلة إلى مؤخرة مائة ذراع، والجانبان مثل ذلك أو دونه، وكان أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع. وبنى بيوتًا إلى جانبه، بيوت الحجر باللبن، وسقفها بالجريد والجذوع، وهي حجرات أزواجه ﷺ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبي أيوب[٢].

❋ ولم يكن المسجد موضعًا لأداء الصلوات فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ومنتدى تلتقي وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها، وقاعدة لإدارة جميع الشؤون وبث الانطلاقات.

❋ وكان مع هذا كله دارًا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون.

❋ وفي أوائل الهجرة شرع الأذان، يدوي في الآفاق، فيرتج له أنحاء عالم الموجود يعلن كل يوم خمس مرات بأن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وتنفي كل كبرياء في الكون وكل دين في الوجود إلا كبرياء الله والدين الذي جاء به عبده محمد رسول الله ﷺ ، وقصة رؤيا عبد الله بن زيد بن عبد ربه بهذا الصدد معروفة [٣].

المؤاخاة بين المسلمين: وكما قام النبي ﷺ ببناء المسجد مركز التجمع والتآلف، قام بعمل آخر من أروع ما يأثره التاريخ، وهو عمل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. قال ابن القيم: ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلًا، نصفهم من المهاجرين

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٨)،وانظر زاد المعاد (٢/ ٥٦).

(٣) **حسن:** أخرجه أبو داود رحمه الله (ج ٢ ص ١٦٩) والترمذي (ج ١ ص ٥٦٣)، وابن ماجه (١/ ٢٣٢) وابن خزيمة (ج ١ ص ١٩٣) وحسنه الإمام الوادعي في الصحيح المسند برقم(٥٧٥).

ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة،ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام، إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[سورة الأنفال:٧٥].رد التوارث، دون عقد الأخوة. (١) اهـ.

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يكون أساس الولاء والبراء إلا الإسلام.

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال.

لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَسَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ : إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا ، فَأَقْسِمُ مَالِي نِصْفَيْنِ ، وَلِي امْرَأَتَانِ ، فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَسَمِّهَا لِي أُطَلِّقْهَا ، فَإِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَتَزَوَّجْهَا. قَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ ، أَيْنَ سُوقُكُمْ؟ فَدَلُّوهُ عَلَى سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ ، فَمَا انْقَلَبَ إِلَّا وَمَعَهُ فَضْلٌ مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ ، ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ ، ثُمَّ جَاءَ يَوْمًا وَبِهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « **مَهْيَمْ؟**» قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ ، قَالَ : « **مَا سُقْتَ إِلَيْهَا ؟**» قَالَ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ (٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَتِ الْأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ ﷺ : اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ قال: «**لا**». فقالوا: تَكْفُونَا الْمُؤْنَةَ ، وَنَشْرَكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ ، قَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا(٣). وهذا يدلنا على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة البالغة بإخوانهم

---

(١) انظر زاد المعاد (٢/ ٥٦). الحديث أخرجه الطيالسي في "مسنده" (٢٧٩٨) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وصححه الإمام الوادعي بشاهده عن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، الذي أخرجه الحاكم (٨٠٩٧) ، انظر الصحيح المسند من أسباب النزول (ص١٠٥).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٧٨٠).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٢٣٢٥).

المهاجرين، ومن التضحية والإيثار والود والصفاء، وما كان عليه المهاجرون من تقدير هذا الكرم حق قدره، فلم يستغلوه ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم.

وحقًّا فقد كانت هذه المؤاخاة حكمة فذة، وسياسة صائبة حكيمة، وحلًّا رائعًا لكثير من المشاكل التي كان يواجهها المسلمون، والتي أشرنا إليها.

أثر المعنويات في المجتمع: بهذه الحكمة، وبهذه الحذاقة أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد، ولكن كانت هذه الظاهرة أثرًا للمعاني التي كان يتمتع بها أولئك الأمجاد بفضل صحبة النبي ﷺ.

وكان النبي ﷺ يتعهدهم بالتعليم والتربية وتزكية النفوس والحث على مكارم الأخلاق، ويؤدبهم بآداب الود والإخاء والمجد والشرف والعبادة والطاعة.

سأله رجل أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: « **تُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ** »(١).

وقال عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما قدم النبي ﷺ المدينة جئت، فلما تبينت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما قال: « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصِلُوا الْأَرْحَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ** »(٢).

وكان يقول: « **لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ** »(٣).

ويقول: « **الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٢) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) **صحيح:** أخرجه الترمذي (٢٤٨٥) وابن ماجه (١٣٣٤) وغيرهما. وصححه الألباني في "الصحيحة" (٥٦٩).

(٣) أخرجه مسلم(٤٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نَهَى اللهُ عَنْهُ »[١].

ويقول: « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »[٢].

ويقول: « الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِنِ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ ، وَإِنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ »[٣].

ويقول: « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا . وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ»[٤].

ويقول: « لَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»[٥].

ويقول: « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[٦].

ويقول: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[٧].

ويقول: « لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ»[٨].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٠) واللفظ له وأخرج مسلم(٤٠) الجزء الأول منه عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري(١٣)ومسلم (٤٥) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٦) عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري(٤٨١) ومسلم (٢٥٨٥) عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري(٦٠٦٥) عن أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه البخاري(٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠) عن عَبْد اللهِ بْن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٧) **صحيح:** أخرجه الترمذي (١٩٢٤) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة»(٢/ ٥٩٤)«٩٢٥».

(٨) رواه البيهقي في شعب الإيمان،وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣/ ١٣٩١)«٤٩٩١ - [٤٥]عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا».

ويقول: « سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ »(١).

وكان يقول: « الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ »(٢).

وكان يحثهم على الإنفاق، ويذكر من فضائله ما تتقاذف إليه القلوب، فكان يقول: « الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيَّةَ ، كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ »(٣).

ويقول: « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ »(٤).

* وبجانب هذا كان يحث حثًّا شديدًا على الاستعفاف عن المسألة، ويذكر فضائل الصبر والقناعة، **كان يعد المسألة كدوحًا أو خدوشًا أو خموشًا في وجه السائل** اللّهم إلا إذا كان مضطرًا(٥)، كما كان يحدثهم بها في العبادات من الفضائل والأجر والثواب عند الله.

وكان يربطهم بالوحي النازل عليه من السماء ربطًا موثقًا يقرؤه عليهم، ويقرؤونه، لتكون هذه الدراسة إشعارًا بما عليهم من حقوق الدعوة، وتبعات الرسالة، فضلًا عن ضرورة الفهم والتدبر(٦).

وهكذا رفع معنوياتهم ومواهبهم، وزودهم بأعلى القيم والأقدار والمثل، حتى صاروا صورة لأعلى قمة من الكمال عرفت في تاريخ البشر بعد الأنبياء.

فقد رويَ عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : من كان مستنًا فليستن بمن قد

---

(١) أخرجه البخاري(٤٨)ومسلم (٦٤) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٦٤)و (١٠٠٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأخرج البخاري بعضه (٩).

(٣) **حسن:** أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة، مشكاة المصابيح (١/ ١٤).عن كعب بن عجرة وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري(٦٠٢٣)واللفظ له، ومسلم (١٠١٦) عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه الأربعة وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٢/ ٥٤٨)(٢٤٢٩) والصحيحة (٤٩٩)عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وانظر ما أخرجه مسلم (١٠٤٤) عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) وأما اليوم فإلى الله المشتكى من أحزاب تترك الحق عمدًا مراعاة لمنظريها، ومؤسسيها.

مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ ، كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم (١).

❋ ثم إن هذا الرسول القائد الأعظم ﷺ كان يتمتع من الصفات المعنوية والظاهرة، ومن الكمالات والمواهب والأمجاد والفضائل ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، بما جعلته تهوي إليه الأفئدة، وتتفانى عليه النفوس، فما يتكلم بكلمة إلا ويبادر صحابته رضي الله عنهم إلى امتثالها، وما يأتي برشد وتوجيه إلا ويتسابقون إلى التحلي به.بمثل هذا بعد توفيق الله تعالى استطاع النبي ﷺ أن يبني في المدينة مجتمعًا جديدًا، أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ، وأن يضع لمشاكل هذا المجتمع حلًّا تتنفس له الإنسانية الصعداء، بعد أن كانت تعبت في غياهب الزمان ودياجير الظلمات.

❋ وبمثل هذه المعنويات الشامخة تكاملت عناصر المجتمع الجديد الذي واجه كل تيارات الزمان حتى صرف وجهتها، وحول مجرى التاريخ والأيام.

❋ ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبي ﷺ [اليهود على ذلك بعد بدر فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ،[يعني جده] وَكَانَ أَحَدَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تِيبَ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ يَهْجُو النَّبِيَّ ﷺ ، وَيُحَرِّضُ عَلَيْهِ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، وَأَهْلُهَا أَخْلَاطٌ، مِنْهُمُ الْمُسْلِمُونَ، وَالْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، وَالْيَهُودُ وَكَانُوا يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، فَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ بِالصَّبْرِ وَالْعَفْوِ، فَفِيهِمْ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿*لَتُبْلَوُنَّ

(١) أخرجه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (٢/ ٩٧)، وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح(١/ ٣٢) ١٩٣ -[٥٤].ومعناه صحيح ، وهو المراد.

فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ [سورة آل عمران:١٨٦].فَلَمَّا أَبَى كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ أَنْ يَنْزِعَ عَنْ أَذَى النَّبِيِّ ﷺ ، أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ أَنْ يَبْعَثَ رَهْطًا يَقْتُلُونَهُ، فَبَعَثَ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ، وَذَكَرَ قِصَّةَ قَتْلِهِ، فَلَمَّا قَتَلُوهُ، فَزِعَتِ الْيَهُودُ وَالْمُشْرِكُونَ فَغَدَوْا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالُوا: طُرِقَ صَاحِبُنَا فَقُتِلَ، «فَذَكَرَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ الَّذِي كَانَ يَقُولُ، وَدَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَنْ يَكْتُبَ بَيْنَهُ [وبينهم] كِتَابًا، يَنْتَهُونَ إِلَى مَا فِيهِ فَكَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ ، بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً صَحِيفَةً»] (١).

❋ وهكذا صنع مع قبائل أخرى في المستقبل حسب الظروف اه(٢).

❋ وكذلك بنيت دولة الإسلام فما مرت الأيام والليالي حتى نصره الله فلا تزال بعد هجرته ﷺ رقعة الإسلام تتسع ورايته تعلو وأهله يكثرون حتى قال كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واصفًا كثرتهم حين استعدوا لغزوة تبوك وهي في السنة التاسعة فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ ،وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ(٣).

❋ أما بعد فتح مكة فقد دخل الناس في دين الله أفواجًا ، ولذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالإكثار من ذكره شكرًا لما حباه وأعطاه فقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٠٠) وصححه الألباني رحمه الله: وقد ذكروا هنا وثيقتين إحداهما بين المسلمين والثانية مع اليهود قال الألباني في تخريجه لفقه السيرة ص (١٨٥): (روى هذه الوثيقة ابن إسحاق (٢/ ١٦ - ١٨) بدون إسناد)إذن فلا تثبت اه.ولذلك حذفتها اكتفاء بالحديث الثابت.

(٢) «الرحيق المختوم» (ص١٦٦- ١٧٤).

(٣) متفق عليه خ: (٢٧٥٧)م : (٧١٦).

بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ [سورة النصر:١-٣].

وفي حجة الوداع قَالَ جَابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مصورًا لنا كثرة المسلمين : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَكَثَ تِسْعَ سِنِينَ لَمْ يَحُجَّ ، فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ فِي الْعَاشِرَةِ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَاجٌّ ، فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَشَرٌ كَثِيرٌ ، كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتَمَّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَيَعْمَلَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ ، فَخَرَجَ وَخَرَجْنَا مَعَهُ ، فَأَتَيْنَا ذَا الْحُلَيْفَةِ ، فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ ، ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ ، حَتَّى إِذَا اسْتَوَتْ بِهِ نَاقَتُهُ عَلَى الْبَيْدَاءِ نَظَرْتُ إِلَى مَدِّ بَصَرِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، بَيْنَ رَاكِبٍ وَمَاشٍ ، وَعَنْ يَمِينِهِ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَمِنْ خَلْفِهِ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، وَعَلَيْهِ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ ، وَهُوَ يَعْرِفُ تَأْوِيلَهُ، مَا عَمِلَ مِنْ شَيْءٍ عَمِلْنَا بِهِ(١).

وأصبح النبي ﷺ يبشر بما ستناله أمته من بعده فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : **«إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا ، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ»**(٢).

وكم قاسا النبي ﷺ من الشدائد في سبيل الله عز وجل حتى بلغ ما أمره الله تعالى به وحقق الله على يديه هذا الخير العظيم. ثلاث عشرة سنة وهو يجاهد بالحجة والبرهان بتلاوة القرآن ونصح الإنس والجان لم يؤذن له بالجهاد ولكن ﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ [سورة البقرة:١٠٩]. ثم لم يترك جهاد العلم بعد الهجرة بل استمر مع قيام الجهاد بالسيف فعن عَائِشَةَ وَعَبْد اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ:

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٢١٨).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (١٩٢٠)عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ . يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا»[1].

فعليه صلوات الله وسلامه ما تعاقب الليل والنهار وجزاه الله تعالى عن أمته خير ما جزى نبيًّا عن أمته وهكذا أصحاب نبينا ﷺ كم لاقوا وكم عانوا وكم صبروا ولو ذهبنا نتحدث عن مآسيهم وآلامهم وما حصل لهم من الأذى لخرجنا عن المقصود إذ المراد يا أتباع خير العباد ﷺ هو التحول التاريخي من الجاهلية إلى الإسلام وهداية الناس على يد خير الأنام ﷺ فاللهم لك الحمد ظاهرًا وباطنًا.

ولعل الشوق بقراءة هذا يحدوك، وحب الاطلاع يدعوك، لقراءة تفاصيل أسباب إسلامهم، وكيف كان استمساكهم بهذا الدين ، والقيام بهذا والله خير فعليك بمطالعة تراجمهم، وتفحص أخبارهم ؛ فإن الاستمساك فينا قد ضعف، والاقتداء أصبح بغير هذا السلف، والله المسئول أن يثبتنا على الدين حتى نلقاه غير ضالين ولا مضلين.

ملخص ما تقدم

- صفة الجاهلية ومافيها من الشر.
- ظهور نور الإسلام والجهاد العلمي ، والاستبسال في ذلك.
- تأسيس دولة الإسلام ، وإشارات إلى مفاهيم حول بناء الدول الناجحة.
- الإشارة إلى الانطلاق للجهاد بالسيف ، وبالعلم معًا ، لنشر الدين.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥) ، ومسلم (٥٢٩).



المعركة الأولى من معارك الإسلام الفاصلة: غزوة بدر الكبرى

تمهيد

لما هاجر النبي ﷺ فارًّا بدينه ، مريدًا تبليغ ما أمره الله تعالى به وترك هو وأصحابه ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين الظالمين وكانوا ينتظرون الإذن بالجهاد في سبيل الله تعالى بالسيف أنزل الله سبحانه قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ۝٤١﴾ [سورة الحج:٣٩-٤١].(١)

فبعث النبي ﷺ البعوث والسريا موقنًا بوعد الله عز وجل لهم بالتمكين وحصل ما وعده الله عز وجل به حينما أدّى هو وصحابته الأخيار الشروط المذكورة لمن أراد التمكين فكانت سراياه ﷺ قبل بدر كالتالي:

خرج النبي ﷺ إلى الْأَبْوَاءِ ويقال لها أيضًا وَدَّانَ ، **وَبَعَثَ** فِي مقَامه ذَلِك حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ مِنْ نَاحِيَةِ الْعِيصِ، فَلَمَّا قَفَلَ ﷺ مِنَ الْأَبْوَاءِ **بَعَثَ**

---

(١) **حسن**: أخرجه ابن حبان (٤٧١٠) وغيره ، وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٧/ ١٠٣) عن ابن عباس.

عُبَيْدَةَ بْنَ الْحَارِثِ إِلَى بَطْنِ رَابِغٍ، ثُمَّ **خرج** رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى بُوَاطٍ ثُمَّ الْعُشَيْرَةِ ،ثُمَّ كانت غَزْوَةُ بَدْرٍ الْأُولَى ثُمَّ **بَعْثُ** سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ إِلَى الْخَرَّارِ، ثُمَّ **بَعْثُ** عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ إِلَى نَخْلَةَ، ولم يحصل في أكثرها قتال ولكن صالح فيها بعض القبائل وآذن بها قريشًا بالمحاربة لهم ما حاربوا الله تعالى ورسوله ﷺ(١).

سبب الغزوة:

في غزوة العشيرة كانت عير قريش أفلتت من النبي ﷺ في ذهابها من مكة إلى الشام، ولما قرب رجوعها من الشام إلى مكة قال أنس: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ ، فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي ، وَغَيْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، قَالَ: لَا أَدْرِي مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ قَالَ: فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ ، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَكَلَّمَ فَقَالَ: **«إِنَّ لَنَا طَلِبَةً ، فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا»** . فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلُوِّ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: **«لَا ، إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا»**(٢).

كانت العير مركبة من ثروات طائلة من أهل مكة، ألف بعير موقرة بالأموال، لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي، ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلًا. إنها فرصة ذهبية لعسكر المدينة، وضربة عسكرية وسياسية واقتصادية قاصمة ضد المشركين لو أنهم فقدوا هذه الثروة الطائلة، لذلك أعلن رسول الله ﷺ في المسلمين قائلًا: **«هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ يُنْفِلُكموها»**(٣).ولم يعزم على أحد بالخروج، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة، لما أنه لم

---

(١) أردت بهذا التمهيد ربط الأحداث والإشارة إلى ما ليس من شرط كتابي هذا لتطَّلع على مالم يذكر وإن شاء الله تعالى نمضي على هذا المنوال نذكر المعارك الكبرى ونشير إلى ما عداها فاستفده.

(٢) أخرجه مسلم برقم: (١٩٠١).

(٣) **حسن لذاته:** أخرجه ابْنُ إِسْحَاقَ كما في سيرة ابن هشام ت السقا (١/ ٦٠٦) قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:

يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة- بدل العير- هذا الاصطدام العنيف في بدر، ولذلك تخلف كثير من الصحابة في المدينة، وهم يحسبون أن مضي رسول الله ﷺ في هذا الوجه لن يعدو ما ألفوه في السرايا الماضية، ولذلك لم ينكر على أحد تخلفه في هذه الغزوة.

[فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ ، قَالَ : فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ : إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاهَا ، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا . قَالَ : فَنَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى نَزَلُوا بَدْرًا][1].

مبلغ قوة الجيش الإسلامي وتوزيع القيادات: واستعد رسول الله ﷺ للخروج ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا.

[قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى

فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ الزُّهْرِيُّ، وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَيَزِيدُ بْنُ رُومَانَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ عُلَمَائِنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، كُلٌّ قَدْ حَدَّثَنِي بَعْضَ هَذَا الْحَدِيثِ فَاجْتَمَعَ حَدِيثُهُمْ فِيمَا سُقْتُ مِنْ حَدِيثِ بَدْرٍ فذكره.

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٩) وهذا الحديث بالنظر إلى رواياته يتبين أن هذه المشاورة كانت بالمدينة قبل الخروج للقتال وبهذا فلا يصح التشكيك في المتكلم أهو ابن عبادة أو ابن معاذ بل هو سعد بن عبادة وكان المراد منها الخروج للقافلة وهنا تكلم أبو بكر وعمر ، وبهذا انتهت رواية أنس،ثم لما تحقق اللقاء تكلم المقداد كما هو ظاهر من روايات حديث المقداد رضي الله عنهم أجمعين، وسُيذكر قريبًا إن شاء الله وذكر هذا الجمع الحافظ في الفتح (٧/ ٢٨٨). وجاءت روايات أن سعد بن معاذ تكلم بكلام سرّ رسول الله ﷺ وهو أهل لذلك ولكن لم يصح سنده أسنده ابن جرير في تفسيره (١٥٧٢٠). ط دار التربية والتراث (١٣/ ٣٩٩)) وفيه شيخه محمد بن حميد قد كُذّب. أما ما ذكر من أن سعد بن عبادة لم يشهد بدرًا فلم يثبت إسناده فيما رأيت ؛ لأنه من طريق الواقدي.

الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا[١].

وقال الْبَرَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : حَدَّثَنِي أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا : أَنَّهُمْ كَانُوا عِدَّةَ أَصْحَابِ طَالُوتَ ، الَّذِينَ جَازُوا مَعَهُ النَّهَرَ ، بِضْعَةَ عَشَرَ وَثَلَاثَمِائَةٍ . قَالَ الْبَرَاءُ : لَا وَاللهِ مَا جَاوَزَ مَعَهُ النَّهَرَ إِلَّا مُؤْمِنٌ. وفي رواية: «وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَوْمَ بَدْرٍ نَيِّفًا عَلَى سِتِّينَ ، وَالْأَنْصَارُ نَيِّفًا وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ» [٢].] أكثرهم من الخزرج [لقرب مساكنهم]. ولم يحتفلوا لهذا الخروج احتفالًا بليغًا، ولا اتخذوا أهبتهم كاملة، فلم يكن معهم إلا فرسان، فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [٣]، وكان معهم سبعون بعيرًا يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد

[قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا زميلي رسول الله ﷺ قال وكانت عقبة رسول الله ﷺ قال فقالا نحن نمشي عنك فقال «**مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي ، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا**»[٤].

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما كان بالروحاء ردّ أبا لبابة بن عبد المنذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، واستعمله على المدينة.

١ – ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشي العبدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ،

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٥٧) (٣٩٥٦).

(٣) **حسن:** أخرجه الحاكم (٥٥٩٨) عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : " كَانَتْ أَوَّلَ غَزْوَةٍ فِي الْإِسْلَامِ بَدْرٌ ، مَا كَانَ مَعَنَا إِلَّا فَرَسَانِ : فَرَسٌ لِلزُّبَيْرِ ، وَفَرَسٌ لِلْمِقْدَادِ . وجاء عنه: مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرَ الْمِقْدَادِ. قال الإمام الوادعي في الصحيح المسند (٢/ ٥٦) (٩٧١) هذا حديث **صحيحٌ**.

(٤) **حسن:** أخرجه أحمد(٣٩٧٨)وغيره وحسنه الإمامان الوادعي في:الصحيح المسند (١/٦٤٢) (٨٣١) والألباني في الصحيحة (٢٢٥٧).

وكان هذا اللواء أبيض[١].

٢- وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣- وعلى الميسرة المقداد بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- وَجَعَلَ عَلَى السَّاقَةِ قَيْسَ بْنَ أَبِي صَعْصَعَةَ أَخَا بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- وظلت القيادة العامة في يده ﷺ كقائد أعلى للجيش.

الجيش الإسلامي يتحرك نحو بدر: سار رسول الله ﷺ في هذا الجيش غير المتأهب، فخرج من نقب المدينة، ومضى على الطريق الرئيسي المؤدي إلى مكة، حتى بلغ بئر الروحاء ولما ارتحل منها، ترك طريق مكة بيسار، وانحرف ذات اليمين على النازية (يريد بدرًا) ، فسلك في ناحية منها، حتى جزع واديًا يقال له رحقان، بين النازية وبين مضيق الصفراء، ثم مر على المضيق، ثم انصب منه حتى قرب من الصفراء.

النذير في مكة: وأما خبر العير فإن أبا سفيان- وهو المسئول عنها- كان على غاية من الحيطة والحذر، فقد كان يعلم أن طريق مكة محفوف بالأخطار، وكان يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، ولم يلبث أن نقلت إليه طلائعه بأن محمدًا- ﷺ - قد استنفر أصحابه ليوقع بالعير، وحينئذ اسْتَأْجَرَ أبو سفيان ضَمْضَم بْنَ عَمْرو الْغِفَارِيَّ إلى مكة، مستصرخًا لقريش بالنفير إلى عيرهم، ليمنعوه من محمد- ﷺ - وأصحابه، وخرج ضمضم سريعًا حتى أتى مكة، فصرخ بِبَطْنِ الْوَادِي وَاقِفًا عَلَى بَعِيرِهِ ، قَدْ جَدَّعَ بعيرَه ، وحوَّل رحلَه، وَشَقَّ قَمِيصَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا معشرَ قُريش، اللطيمةَ اللطيمةَ أموالُكم مَعَ أَبِي سُفْيَانَ قَدْ عَرَض لَهَا مُحَمَّدٌ فِي أَصْحَابِهِ، لَا أَرَى أَنْ تدْرِكوها، الغَوْثَ الغَوْثَ.

---

(١) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥/ ١٣٧) لتخريج ما يتعلق بالراية، وصحيح سنن أبي داود ط غراس (٧/ ٣٤٢).

أهل مكة يتجهزون للغزو: فتحفز الناس سراعًا، وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟ كلا، والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين، إما خارج، وإما باعث مكانه رجلًا، وأوعبوا في الخروج، فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبي لهب، فإنه عوض عنه رجلًا كان له عليه دين، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي، فلم يخرج منهم أحد.

قوام الجيش المكي: وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية سيره، وكان معه مائة فرس وستمائة درع، وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط، وكان قائده العام أبا جهل بنَ هشام، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش، فكانوا ينحرون يوما تسعا ويوما عشرا من الإبل.

الشيطان الرجيم يشجع قريشًا على القتال: ولما أجمع هذا الجيش على المسير، ذكرت قريش ما كان بينها وبين بني بكر من العداوة والحرب، فخافوا أن تضربهم هذه القبائل من الخلف، فيكونوا بين نارين، فكاد ذلك يثنيهم، ولكن حينئذ [زيّن لهم إبليس الغزو وأمَّنهم] فقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه.[وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الأنفال:٤٨].[(١)].

جيش مكة يتحرك: وحينئذ خرجوا من ديارهم، كما قال الله: بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وأقبلوا بحدهم وحديدهم، يحادون الله ويحادون رسوله

---

(١) صح هذا التفسير من قول عروة بن الزبير كما في "الروض الأنف(٥/٨٨)"، وإلا فيقال وسوس لهم الشيطان بذلك ، والله أعلم.

ﷺ ، وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ، وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه، لاجتراء هؤلاء على قوافلهم. تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال في اتجاه بدر، وسلكوا في طريقهم وادي عسفان، ثم قديد، ثم الجحفة، وهناك تلقوا رسالة جديدة من أبي سفيان يقول لهم فيها: إنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجاها الله فارجعوا.

العير تُفلِت: وكان من قصة أبي سفيان أنه كان يسير على الطريق الرئيسي، ولكنه لم يزل حذرًا متيقظًا، وضاعف حركاته الاستكشافية، ولما اقترب من بدر تقدم عيره، حتى لقي مجدي بن عمرو، وسأله عن جيش المدينة، فقال: ما رأيت أحدًا أنكره، إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شن لهما، ثم انطلقا، فبادر أبو سفيان إلى مناخهما، فأخذ من أبعار بعيرهما، ففته، فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، فرجع إلى عيره سريعًا، وضرب وجهها محولًا اتجاهها نحو الساحل غربًا، تاركًا الطريق الرئيسي الذي يمر ببدر على اليسار وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع في قبضة جيش المدينة، وأرسل رسالته إلى جيش مكة التي تلقاها في الجحفة.

همُّ الجيش المكي بالرجوع ووقوع الانشقاق فيه: ولما تلقى هذه الرسالة جيش مكة هم بالرجوع، ولكن قام طاغية قريش أبو جهل في كبرياء وغطرسة قائلًا: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم بها ثلاثًا فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا. [وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الأنفال:٤٧].]

ولكن على رغم أبي جهل أشار الأخنس بن شريق بالرجوع فعصوه، فرجع هو وبنو زهرة - وكان حليفًا لهم ورئيسًا عليهم في هذا النفير- فلم يشهد بدرًا

زهري واحد، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل، واغتبطت بنو زهرة بعد برأي الأخنس بن شريق، فلم يزل فيهم مطاعًا معظمًا. وأرادت بنو هاشم الرجوع، فاشتد عليهم أبو جهل، وقال: لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع. فسار جيش مكة وقوامه ألف مقاتل بعد رجوع بني زهرة- وهو يقصد بدرًا- فواصل سيره حتى نزل قريبًا من بدر، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى على حدود وادي بدر.

حراجة موقف الجيش الإسلامي: أما طلائع جيش المدينة فقد نقلت إلى رسول الله ﷺ وهو لا يزال في الطريق بوادي ذفران- خبر العير والنفير، وتأكد لديه بعد التدبر في تلك الأخبار أنه لم يبق مجال للاجتناب عن لقاء دام، وأنه لا بد من إقدام يبنى على الشجاعة والبسالة، والجراءة، والجسارة، فمما لا شك فيه أنه لو ترك جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة يكون ذلك تدعيمًا لمكانة قريش العسكرية، وامتدادًا لسلطانها السياسي، وإضعافًا لكلمة المسلمين وتوهينًا لها، بل ربما تبقى الحركة الإسلامية بعد ذلك جسدًا لا روح فيه، ويجرؤ على الشر كل من فيه حقد أو غيظ على الإسلام في هذه المنطقة. وبعد هذا كله فهل يكون هناك أحد يضمن للمسلمين أن يمنع جيش مكة عن مواصلة سيره نحو المدينة، حتى ينقل المعركة إلى أسوارها، ويغزو المسلمين في عقر دارهم. كلا، فلو حدث من جيش المدينة نكول ما لكان له أسوأ الأثر على هيبة المسلمين وسمعتهم.

الرسول ﷺ يشاور أصحابه رضي الله عنهم:

ونظرًا إلى هذا التطور الخطير المفاجيء استشار رسول الله ﷺ، أصحابه رضي الله عنهم، وتبادل الرأي مع عامة جيشه، وقادته. وحينئذٍ [أشار بعضهم بتفادي هذا] اللقاء الدامي، وهم الذين قال الله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [سورة الأنفال: ٥-٦].

[وتكلم المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأحسن حتى قال ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شَهِدْتُ مِنَ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ مَشْهَدًا ، لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، فَقَالَ: لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ، وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ. فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ . يَعْنِي: قَوْلَهُ .وفي رواية قَالَ: قَالَ الْمِقْدَادُ يَوْمَ بَدْرٍ [(وَكَانَ رَجُلًا فَارِسًا)]: يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّا لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى : ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة المائدة:٢٤]. قَالَ:وَلَكِنِ امْضِ وَنَحْنُ مَعَكَ ، فَكَأَنَّهُ سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ(١).

وكانت الأنصار على ما قاله سعد بن عبادة من الاستعداد للتضحية في سبيل الله ومع حاجة المسلمين للمقاتلين لم يقبل رَسُولُ اللهِ ﷺ معونة المشركين إظهارًا لعزة الإسلام فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ : خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قِبَلَ بَدْرٍ ، فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ ، أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ ، فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ؟**» قَالَ : لَا ، قَالَ : «**فَارْجِعْ ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**» . قَالَتْ : ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ ، أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، قَالَ : «**فَارْجِعْ ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**» . قَالَ : ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ : «**تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ؟**» قَالَ : نَعَمْ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ ﷺ: **فَانْطَلِقْ**.](٢).

الجيش الإسلامي يواصل سيره: ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذفران، فسلك على

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٥٢)، وما بين المعقوفين عند أحمد.

(٢) أخرجه مسلم (١٨١٧).

ثنايا يقال لها الأصافر، ثم انحط منها إلى بلد يقال له الدية، وترك الحنان بيمين- وهو كثيب عظيم الأصل- ثم نزل قريبًا من بدر.

الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكي:

وفي مساء ذلك اليوم بعث ﷺ طلائعه من جديد، ليبحث عن أخبار العدو، «نَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى نَزَلُوا بَدْرًا ، وَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ رَوَايَا قُرَيْشٍ ، وَفِيهِمْ غُلَامٌ أَسْوَدُ لِبَنِي الْحَجَّاجِ فَأَخَذُوهُ ، فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ ، فَيَقُولُ : مَا لِي عِلْمٌ بِأَبِي سُفْيَانَ ، وَلَكِنْ هَذَا أَبُو جَهْلٍ ، وَعُتْبَةُ ، وَشَيْبَةُ ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ . فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ ضَرَبُوهُ ، فَقَالَ : نَعَمْ ، أَنَا أُخْبِرُكُمْ ، هَذَا أَبُو سُفْيَانَ ، فَإِذَا تَرَكُوهُ فَسَأَلُوهُ فَقَالَ : مَا لِي بِأَبِي سُفْيَانَ عِلْمٌ ، وَلَكِنْ هَذَا أَبُو جَهْلٍ ، وَعُتْبَةُ ، وَشَيْبَةُ ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ فِي النَّاسِ ، فَإِذَا قَالَ هَذَا أَيْضًا ضَرَبُوهُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ انْصَرَفَ . قَالَ : «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَتَضْرِبُوهُ إِذَا صَدَقَكُمْ وَتَتْرُكُوهُ إِذَا كَذَبَكُمْ**»(١).

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا بَلَغَنَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَقْبَلُوا سَارَ رَسُولُ ﷺ إِلَى بَدْرٍ ، وَبَدْرٌ بِئْرٌ ، فَسَبَقْنَا الْمُشْرِكِينَ إِلَيْهَا ، فَوَجَدْنَا فِيهَا رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ ، وَمَوْلًى لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، فَأَمَّا الْقُرَشِيُّ ، فَانْفَلَتَ ، وَأَمَّا مَوْلَى عُقْبَةَ ، فَأَخَذْنَاهُ ، فَجَعَلْنَا نَقُولُ لَهُ : كَمِ الْقَوْمُ ؟ فَيَقُولُ : هُمْ وَاللهِ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ ، شَدِيدٌ بَأْسُهُمْ ، فَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ إِذَا قَالَ ذَلِكَ ضَرَبُوهُ حَتَّى انْتَهَوْا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ « **كَمِ الْقَوْمُ ؟**» هُمْ وَاللهِ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ ، شَدِيدٌ بَأْسُهُمْ ، فَجَهَدَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُخْبِرَهُ كَمْ هُمْ ، فَأَبَى ، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَهُ:«**كَمْ يَنْحَرُونَ مِنَ الْجُزُرِ ؟**» فَقَالَ: عَشْرًا كُلَّ يَوْمٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**الْقَوْمُ أَلْفٌ ، كُلُّ جَزُورٍ لِمِائَةٍ ، وَتَبِعَهَا**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٩) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٩٤٨) وقال الإمام الوادعي [الصحيح المسند (٢/ ٥٨) (٩٧٥)].هذا حديث صحيحٌ. وهكذا نزول المطر الآتي ذكره جاء في حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نزول المطر: قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثُمَّ إِنَّهُ أَصَابَنَا مِنَ اللَّيْلِ طَشٌّ مِنْ مَطَرٍ فَانْطَلَقْنَا تَحْتَ الشَّجَرِ وَالْحَجَفِ، نَسْتَظِلُّ تَحْتَهَا مِنَ الْمَطَرِ(١) [فكان على المشركين وابلًا شديدًا منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طلًا طهرهم به، وأذهب عنهم رجس الشيطان، ووطأ به الأرض، وصلب به الرمل، وثبت الأقدام، ومهد به المنزل، وربط به على قلوبهم قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [سورة الأنفال:١١].]

الجيش الإسلامي يسبق إلى أهم المراكز العسكرية: وتحرك رسول الله ﷺ بجيشه، ليسبق المشركين إلى ماء بدر، ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنهض رسول الله ﷺ بالجيش، حتى أتى أقرب ماء من العدو، فنزل عليه شطر الليل، ثم صنعوا الحياض، وغوّروا ما عداها من القلب(٢). [وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾(شفير الوادي الأدنى والأقرب إلى المدينة)﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ (الأقصى منها إلى مكة) ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ (عير أبي سفيان أسفل الوادي على شط البحر بثلاثة أميال) ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة الأنفال:٤٢].

تعبئة الجيش وقضاء الليل: ثم عبأ رسول الله ﷺ جيشه، ومشى في موضع المعركة، وجعل يشير بيده: « **هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ** »(٣).

---

(١) قطعة من الحديث المتقدم.

(٢) إشارة الحباب بن المنذر التي تذكر هنا لم يصح سندها.

(٣) رواه مسلم عن أنس عن عمر (٢٨٧٣).

أهمية اللجوء إلى الله تعالى والتحريض قبل القتال ومعرفة مكان العدو:

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَبَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْفِئَةَ لَا تُعْبَدْ**»، قَالَ: فَلَمَّا [أَنْ] طَلَعَ الْفَجْرُ نَادَى: الصَّلَاةَ عِبَادَ اللهِ، فَجَاءَ النَّاسُ مِنْ تَحْتِ الشَّجَرِ، وَالْحَجَفِ، فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَحَرَّضَ عَلَى الْقِتَالِ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ جَمْعَ قُرَيْشٍ تَحْتَ هَذِهِ الضِّلَعِ الْحَمْرَاءِ مِنَ الْجَبَلِ**»[(١)]

وقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِمٌ، إِلَّا رَسُولَ اللهِ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ يُصَلِّي وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ[(٢)]. بات المسلمون ليلهم هادىء الأنفاس منير الآفاق، غمرت الثقة قلوبهم، وأخذوا من الراحة قسطهم، يأملون أن يروا بشائر ربهم بعيونهم صباحًا ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [سورة الأنفال: ١١]. كانت هذه الليلة ليلة الجمعة، السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وكان خروجه في ٨ أو ١٢ من نفس الشهر.

مقر القيادة: كان ذلك على تلٍّ مرتفع يقع في الشمال الشرقي لميدان القتال، ويشرف على ساحة المعركة، وتم انتخاب فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ، يحرسون رسول الله ﷺ حول مقر قيادته.

الجيش المكي في عرصة القتال ووقوع الانشقاق فيه:

أما قريش؛ فقضت ليلتها هذه في معسكرها بالعدوة القصوى، ولما أصبحت أقبلت في كتائبها، ونزلت من الكثيب إلى وادي بدر، فلما اطمأنت قريش بعثوا عمير بن وهب الجمحي؛ للتعرف على مدى قوة جيش المدينة، فَاسْتَجَالَ بِفَرَسِهِ حَوْلَ الْعَسْكَرِ ثم رجع إليهم، فقال: ثلاثمائة رَجُلٍ، يَزِيدُونَ قَلِيلًا أَوْ يَنْقُصُونَ، وَلَكِنْ أَمْهِلُونِي حَتَّى أَنْظُرَ أَلِلْقَوْمِ كَمِينٌ أَوْ مَدَدٌ؟ قَالَ: فَضَرَبَ فِي الْوَادِي حَتَّى أَبْعَدَ، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: مَا وَجَدْتُ شَيْئًا، وَلَكِنِّي قَدْ رَأَيْتُ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،

---

(١) قطعة من الحديث المتقدم.

(٢) **صحيح:** أخرجه أحمد (١١٧٦) وهو في الصحيح المسند (٢/ ٥٦) (٩٧١).

البَلايا تَحْمِلُ الْمَنَايَا، نَوَاضِحُ يَثْرب تَحْمِلُ الموتَ النَّاقِعَ، قَوْمٌ لَيْسَ مَعَهُمْ مَنَعَةٌ وَلَا مَلْجَأٌ إِلَّا سُيُوفُهُمْ، وَاللَّهِ مَا أَرَى أَنْ يُقتل رَجُلٌ مِنْهُمْ، حَتَّى يَقتل رَجُلًا مِنْكُمْ، فَإِذَا أَصَابُوا مِنْكُمْ أَعْدَادَهُمْ فَمَا خيرُ الْعَيْشِ بَعْدَ ذَلِكَ؟ فَرُوا رَأْيَكُمْ[1].

الجيشان يتراءان: قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَلَمَّا دَنَا الْقَوْمُ مِنَّا ، وَصَافَفْنَاهُمْ ، إِذَا رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَحْمَرَ ، يَسِيرُ فِي الْقَوْمِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **يَا عَلِيُّ ، نَادِ لِي حَمْزَةَ** ، وَكَانَ أَقْرَبَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، **مَنْ صَاحِبُ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ ، وَمَاذَا يَقُولُ لَهُمْ ؟** ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : **إِنْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحَدٌ يَأْمُرُ بِخَيْرٍ ، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ** ، فَجَاءَ حَمْزَةُ ، فَقَالَ : هُوَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَهُوَ يَنْهَى عَنِ الْقِتَالِ ، وَيَقُولُ لَهُمْ : يَا قَوْمُ ، إِنِّي أَرَى قَوْمًا مُسْتَمِيتِينَ لَا تَصِلُونَ إِلَيْهِمْ وَفِيكُمْ خَيْرٌ ، يَا قَوْمُ ، اعْصِبُوهَا الْيَوْمَ بِرَأْسِي ، وَقُولُوا : جَبُنَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي لَسْتُ بِأَجْبَنِكُمْ ، قَالَ : فَسَمِعَ ذَلِكَ أَبُو جَهْلٍ ، فَقَالَ : أَنْتَ تَقُولُ هَذَا ، وَاللهِ لَوْ غَيْرُكَ يَقُولُ هَذَا لَأَعْضَضْتُهُ ، قَدْ مَلَأَتْ رِئَتُكَ جَوْفَكَ رُعْبًا ، فَقَالَ عُتْبَةُ : إِيَّايَ تُعَيِّرُ يَا مُصَفِّرَ اسْتِهِ ؟ سَتَعْلَمُ الْيَوْمَ أَيُّنَا الْجَبَانُ[2]. وهكذا تغلب الطيش على الحكمة، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى.

ترتيب الجيش الإسلامي وتعليمات القتال: عدل رسول الله ﷺ صفوف المسلمين، وبينما هو يعدلها وقع أمر عجيب، فقد كان في يده قِدْح يعدل به، وكان سواد بن غزية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مستنصلًا من الصف، فطعن في بطنه بالقدح وقال: « **استوِ يَا سَوَّادُ** » ، فقال سواد: يا رسول الله أوجعتني فأقدني، فكشف عن بطنه، وَقَالَ

---

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة ت طه عبد الرؤوف سعد (٢/ ١٩٣) قال ابن إسحاق: وحدثني أبي: إسحاق بن يَسَارٍ، وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، عَنْ أَشْيَاخٍ مِنَ الْأَنْصَارِ. ، فإن كان الأشياخ من الصحابة فالحديث حسن.

(٢) **صحيح:** أخرجه أحمد (٩٤٨) قال الإمام الوادعي في الصحيح المسند (٢/ ٥٨) (٩٧٥) هذا حديث صحيحٌ. وهو قطعة من حديث علي ص (٦١).

«**استقدْ**» فَاعْتَنَقَهُ فقبَّل بَطْنَهُ: فقال: «**مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَّاد؟**» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَضَرَ مَا تَرَى، فَأَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ آخرُ الْعَهْدِ بِكَ أَنْ يمسَّ جِلْدِي جلدَك. فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بخير(١).

وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في شجاعة واستبسال: «**لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ**»(٢).

ولما تم تعديل الصفوف أدلى إليهم بتوجيه خاص في أمر الحرب فقال: قَالَ: «**إِذَا أَكْثَبُوكُمْ- يعني كثروكم- فَارْمُوهُمْ ، وَاسْتَبْقُوا نَبْلَكُمْ**»(٣)، ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة، وقام سعد بن معاذ بكتيبة الحراسة على باب العريش.

ساعة الصفر وأول وقود المعركة:



خرج ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة ، فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة، قال علي: فَبَرَزَ عُتْبَةُ ، وَأَخُوهُ شَيْبَةُ ، وَابْنُهُ الْوَلِيدُ حَمِيَّةً ، فَقَالُوا : مَنْ يُبَارِزُ ، فَخَرَجَ فِتْيَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ سِتَّةٌ [يعني ثلاثة بعد ثلاثة]، فَقَالَ عُتْبَةُ : لَا نُرِيدُ هَؤُلَاءِ ، وَلَكِنْ يُبَارِزُنَا مِنْ بَنِي عَمِّنَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **قُمْ يَا عَلِيُّ ، وَقُمْ يَا حَمْزَةُ ، وَقُمْ يَا عُبَيْدَةُ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ الْمُطَّلِبِ**» ، فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ فأخبروهم، فقالوا: أنتم أكفاء كرام، قال علي فَأَقْبَلَ حَمْزَةُ إِلَى عُتْبَةَ ، وَأَقْبَلْتُ إِلَى شَيْبَةَ وَاخْتُلِفَ بَيْنَ عُبَيْدَةَ وَالْوَلِيدِ ضَرْبَتَانِ ، فَأَثْخَنَ كُلُّ

---

(١) **قال الألباني رحمه الله:** قلت: وهذا إسناد حسن إن شاء الله تعالى. الصحيحة (٦/ ٨٠٨) (٢٨٣٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠١) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٨٤) عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ، ثُمَّ مِلْنَا عَلَى الْوَلِيدِ فَقَتَلْنَاهُ وَاحْتَمَلْنَا عُبَيْدَةَ [١]. احتملا عبيدة، وقد قطعت رجله؛ فلم يزل ضَمِنا حتى مات بالصفراء بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر، حينما كان المسلمون في طريقهم إلى المدينة.

وهذه الآية نزلت فيهم ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ ١٩﴾ الآية [سورة الحج:١٩] [٢].

الهجوم العام: وكانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة بالنسبة إلى المشركين، فقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة، فاستشاطوا غضبًا، وكروا على المسلمين كرة رجل واحد. وأما المسلمون فبعد أن استنصروا ربهم، واستغاثوه، وأخلصوا له، وتضرعوا إليه، تلقوا هجمات المشركين المتوالية، وهم مرابطون في مواقعهم، واقفون موقف الدفاع، وقد ألحقوا بالمشركين خسائر فادحة، وهم يقولون: أحد أحد.

الرسول ﷺ يناشد ربه ، ونزول الملائكة:

وأما رسول الله ﷺ ؛ فكان منذ رجوعه بعد تعديل الصفوف يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول: « **اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ** »[٣]. حتى إذا حمي الوطيس، واستدارت رحى الحرب بشدة، واحتدم القتال، وبلغت المعركة قمتها، قال: « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ** » . وبالغ في الابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فرده عليه الصديق، وقال: حسبك يا

---

(١) **صحيح:** أخرجه أحمد في "مسنده" (١ / ٢٦١) برقم: (٩٦٣) عن علي وصححه الإمام الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٢/ ٥٨) (٩٧٥)

(٢) أخرجه البخاري برقم: (٣٩٦٥) عن علي وعن أبي ذر في البخاري: (٣٩٦٩) ومسلم: (٣٠٣٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٦٣).

رسول الله، ألححت على ربك[١]. [قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ [سورة الأنفال:٩-١٠].] أي أنهم ردف لكم، أو يردف بعضهم بعضًا أرسالًا، لا يأتون دفعة واحدةً. وأوحى الله إلى ملائكته ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾ [سورة الأنفال:١٢].

دعاء أبي جهل قبحه الله:

[عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ صُعَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ أَبَا جَهْلٍ حِينَ الْتَقَى الْقَوْمُ قَالَ: اللَّهُمَّ أَقْطَعُنَا لِلرَّحِمِ، وَآتَانَا بِمَا لَا نَعْرِفُ، فَأَحِنْهُ الْغَدَاةَ. فَكَانَ هُوَ الْمُسْتَفْتِحَ. فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، وَقَدْ شَجَّعَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى لِقَاءِ عَدُوِّهِمْ، وَقَلَّلَهُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ حَتَّى طَمِعُوا فِيهِمْ، خَفَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَفْقَةً فِي الْعَرِيشِ، ثُمَّ انْتَبَهَ فَقَالَ: **«أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ، هَذَا جِبْرِيلُ مُعْتَجِرٌ بِعِمَامَتِهِ، آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ يَقُودُهُ، عَلَى ثَنَايَاهُ النَّقْعُ، أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ وَعِدَتُهُ»**. وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَ كَفًّا مِنَ الْحَصَى بِيَدِهِ، ثُمَّ خَرَجَ فَاسْتَقْبَلَ الْقَوْمَ فَقَالَ: **« شَاهَتِ الْوُجُوهُ »** ثُمَّ نَفَحَهُمْ بِهَا، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: **«احْمِلُوا»** فَلَمْ تَكُنْ إِلَّا الْهَزِيمَةُ.[٢] وأوصل ذلك التراب إلى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينه ومنخريه وفمه من تلك القبضة، وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۝١٧﴾ [سورة الأنفال:١٧][٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩١٥)عن ابن عباس.

(٢) **صحيح لغيره:** أخرجه الأموي في مغازيه وذكره ابن كثير بسنده في البداية والنهاية (٥/ ١٢٦ ت التركي).

(٣) **حسن لغيره:** أخرجه الطبراني في "الكبير" (٣ / ٢٠٣) عن حكيم بن حزام، انظر أسباب النزول للإمام الوادعي فقد أشار إلى هذا.

وفي استفتاح أبي جهل أنزل الله تعالى ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الأنفال:١٩].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ :«**هَذَا جِبْرِيلُ ، آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ ، عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ**»(١)].

فخرج رسول الله ﷺ من باب العريش، وهو يثب في الدرع، ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة القمر:٤٥](٢).

[وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ وَلِأَبِي بَكْرٍ:«**مَعَ أَحَدِكُمَا جِبْرِيلُ ، وَمَعَ الْآخَرِ مِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، مَلَكٌ عَظِيمٌ ، يَشْهَدُ الْقِتَالَ ، أَوْ يَكُونُ فِي الْقِتَالِ**»(٣).]

الهجوم المضاد:

وحينئذ أصدر ﷺ إلى جيشه أوامره الأخيرة بالهجمة المضادة فقال: وهو يحضهم على القتال: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**»،(وحينئذ) قَالَ: عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللهِ ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». قَالَ: بَخٍ بَخٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ ؟**» . قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قال: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**» . فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ ، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩١٥)عن ابن عباس.

(٣) **صحيح:** أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٤٥٦) وأحمد (١٢٦٤) والضياء في المختارة (٥٩٨) وغيرهم وهو في الصحيح المسند (٢/ ٦٠) (٩٧٧) والصحيحة (٣٢٤١).

حَتَّى قُتِلَ [١].

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ عُمَيْرًا قَاتَلَ وَهُوَ يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

رَكْضًا إِلَى اللهِ بِغَيْرِ زَادِ ❁❁❁ إِلَّا التُّقَى وَعَمَلِ الْمَعَادِ
وَالصَّبْرِ فِي اللهِ عَلَى الْجِهَادِ ❁❁❁ وَكُلُّ زَادٍ عُرْضَةُ النَّفَادِ
غَيْرَ التُّقَى وَالْبِرِّ وَالرَّشَادِ [٢]

وحين أصدر رسول الله ﷺ الأمر بالهجوم المضاد كانت حدة هجمات العدو قد ذهبت، وفتر حماسه، فكان لهذه الخطة الحكيمة أثر كبير في تعزيز موقف المسلمين، فإنهم حينما تلقوا أمر الشد والهجوم- وقد كان نشاطهم الحربي على شبابه- قاموا بهجوم كاسح مرير، فجعلوا يقلبون الصفوف، ويقطعون الأعناق، وزادهم نشاطًا وحدة أن رأوا رسول الله ﷺ يثب في الدرع، ويقول في جزم وصراحة ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة القمر:٤٥].

[وباشر القتال بنفسه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَالَ عَلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِنَّا أَدْنَى إِلَى الْقَوْمِ مِنْهُ» [٣].

وقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا [٤].]

وقاتل المسلمون أشد القتال، ونصرتهم الملائكة، قال ابن عباس: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَشْتَدُّ فِي إِثْرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتُ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ خُطِمَ عَلَى أَنْفِهِ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ بِالسَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ فَجَاءَ

---

(١) رواه مسلم (١٩٠١).
(٢) تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (٢/ ٤٤٨)
(٣) **صحيح لغيره:** أخرجه الحاكم في المستدرك(٢٦٤٨)والبيهقي في الكبرى(٨٥٨٥) وغيرهما
(٤) **صحيح:** أخرجه ابن أبي شيبة (٣٣٢٨١) وأحمد(٦٦٥) وغيرهما وهو في الصحيح المسند(٩٧٣).

الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ : «**صَدَقْتَ ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ**»(١).

وكَانَ سَعْدٌ يُقَاتِلُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ قِتَالَ الْفَارِسِ وَالرَّاجِلِ(٢).

وجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ قَصِيرٌ بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَسِيرًا ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ هَذَا وَاللهِ مَا أَسَرَنِي ، لَقَدْ أَسَرَنِي رَجُلٌ أَجْلَحُ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا عَلَى فَرَسٍ أَبْلَقَ ، مَا أُرَاهُ فِي الْقَوْمِ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : أَنَا أَسَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ : «**اسْكُتْ ، فَقَدْ أَيَّدَكَ اللهُ تَعَالَى بِمَلَكٍ كَرِيمٍ**»(٣).

وقَالَ الزُّبَيْرُ : لَقِيتُ يَوْمَ بَدْرٍ عُبَيْدَةَ بْنَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ، وَهُوَ مُدَجَّجٌ ، لَا يُرَى مِنْهُ إِلَّا عَيْنَاهُ ، وَهُوَ يُكْنَى أَبُو ذَاتِ الْكَرِشِ ، فَقَالَ أَنَا أَبُو ذَاتِ الْكَرِشِ ، فَحَمَلْتُ عَلَيْهِ بِالْعَنَزَةِ فَطَعَنْتُهُ فِي عَيْنِهِ فَمَاتَ . قَالَ هِشَامٌ : فَأُخْبِرْتُ : أَنَّ الزُّبَيْرَ قَالَ: لَقَدْ وَضَعْتُ رِجْلِي عَلَيْهِ ، ثُمَّ تَمَطَّأْتُ ، فَكَانَ الْجَهْدَ أَنْ نَزَعْتُهَا وَقَدِ انْثَنَى طَرَفَاهَا (٤).

إبليس ينسحب عن ميدان القتال:

ولما رأى إبليس ما يفعل الملائكة بالمشركين فر ونكص على عقبيه ، وقال ما ذكر الله تعالى عنه: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الأنفال:٤٨].

الهزيمة الساحقة:

وبدأت أمارات الفشل والاضطراب في صفوف المشركين، وجعلت تتهدم أمام حملات المسلمين العنيفة، واقتربت المعركة من نهايتها، وأخذت جموع

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه البزار في "مسنده" (١٥١٧)، (١٥١٨) عن ابن مسعود.

(٣) هذا قطعة من حديث علي المتقدم ص (٦١)وهو في الصحيح المسند للإمام الوادعي.

(٤) أخرجه البخاري (٣٩٩٨).

المشركين في الفرار والانسحاب المبدد، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون حتى تمت عليهم الهزيمة.

صمود أبي جهل:

أما الطاغية الأكبر أبو جهل، فإنه لما رأى أول أمارات الاضطراب في صفوفه حاول أن يصمد في وجه هذا السيل، فجعل يشجع جيشه،ولكن سرعان ما تبدى له حقيقة هذه الغطرسة، فما لبث إلا قليلًا حتى أخذت الصفوف تتصدع أمام تيارات هجوم المسلمين. نعم بقي حوله عصابة من المشركين، ضربت حوله سياجًا من السيوف وغابات من الرماح، ولكن عاصفة هجوم المسلمين بددت هذه السياج وأقلعت هذه الغابات، وحينئذ ظهر هذا الطاغية، ورآه المسلمون يجول على فرسه، وكان الموت ينتظر أن يشرب من دمه بأيدي غلامين أنصاريين.

مصرع أبي جهل:

قال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَشِمَالِي ، فَإِذَا أَنَا بِغُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ ، حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا ، تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا ، فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا ، فَقَالَ : يَا عَمِّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي ؟ قَالَ : أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا ، فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ ، فَغَمَزَنِي الْآخَرُ ، فَقَالَ لِي مِثْلَهَا ، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ ، قُلْتُ : أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي ، فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا ، فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ ، ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَاهُ ، فَقَالَ : «**أَيُّكُمَا قَتَلَهُ ؟**» قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا : أَنَا قَتَلْتُهُ ، فَقَالَ : «**هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا**» ، قَالَا : لَا ، فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ ، فَقَالَ : «**كِلَاكُمَا قَتَلَهُ**» ، سَلَبُهُ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ وَكَانَا مُعَاذَ بْنَ عَفْرَاءَ وَمُعَاذَ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ[1].

(١) أخرجه البخاري (٣١٤١)، ومسلم(١٧٥٢).

وقال ابن إسحاق: قَالَ مُعَاذُ ابْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ، أَخُو بَنِي سَلِمَةَ سَمِعْتُ الْقَوْمَ وَأَبُو جَهْلٍ فِي مِثْلِ الْحَرَجَةِ- قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: الْحَرَجَةُ: الشَّجَرُ الْمُلْتَفُّ وَهُمْ يَقُولُونَ: أَبُو الْحَكَمِ لَا يُخْلَصُ إِلَيْهِ.[شبه رماح المشركين وسيوفهم التي كانت حول أبي جهل لحفظه بهذه الشجرة] قَالَ: فَلَمَّا سَمِعْتُهَا جَعَلْتُهُ مِنْ شَأْنِي، فَصَمَدْتُ نَحْوَهُ، فَلَمَّا أَمْكَنَنِي حَمَلْتُ عَلَيْهِ، فَضَرَبْتُهُ ضَرْبَةً أَطَنَّتْ قَدَمَهُ - أطارتها- بِنِصْفِ سَاقِهِ، فو اللهِ مَا شَبَّهْتُهَا حِينَ طَاحَتْ إِلَّا بِالنَّوَاةِ تُطِيحُ مِنْ تَحْتِ مِرْضَخَةِ النَّوَى حِينَ يُضْرَبُ بِهَا. قَالَ: وَضَرَبَنِي ابْنُهُ عِكْرِمَةُ عَلَى عَاتِقِي، فَطَرَحَ يَدِي، فَتَعَلَّقَتْ بِجِلْدَةٍ مِنْ جَنْبِي، وَأَجْهَضَنِي الْقِتَالُ عَنْهُ، فَلَقَدْ قَاتَلْتُ عَامَّةَ يَوْمِي، وَإِنِّي لَأَسْحَبُهَا خَلْفِي، فَلَمَّا آذَتْنِي وَضَعْتُ عَلَيْهَا قَدَمِي، ثُمَّ تَمَطَّيْتُ بِهَا عَلَيْهَا حَتَّى طَرَحْتُهَا. ثُمَّ مَرَّ بِأَبِي جَهْلٍ وَهُوَ عَقِيرٌ، مُعَوِّذُ بْنُ عَفْرَاءَ، فَضَرَبَهُ حَتَّى أَثْبَتَهُ، فَتَرَكَهُ وَبِهِ رَمَقٌ. وَقَاتَلَ مُعَوِّذٌ حَتَّى قُتِلَ[1].

ولما انتهت المعركة قال رسول الله ﷺ : **مَنْ يَنْظُرُ لَنَا مَا صَنَعَ أَبُو جَهْلٍ ؟** [فتفرق الناس في طلبه]فَانْطَلَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَوَجَدَهُ قَدْ ضَرَبَهُ ابْنَا عَفْرَاءَ حَتَّى بَرَدَ ، قَالَ : فَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ [ليحتز رأسه]، فَقَالَ : آنْتَ أَبُو جَهْلٍ ؟ فَقَالَ : وَهَلْ فَوْقَ رَجُلٍ قَتَلْتُمُوهُ ؟ أَوْ قَالَ : قَتَلَهُ قَوْمُهُ ؟ وقَالَ أَبُو جَهْلٍ : فَلَوْ غَيْرُ أَكَّارٍ قَتَلَنِي[2].

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَتَى أَبَا جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ وَبِهِ رَمَقٌ قَالَ : [قَدْ

---

(١) **حسن:** رواه ابن إسحاق فقال: حدثني ثور بن يزيد عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
أقول والله أعلم: جمعًا بين الأدلة لقد شارك في قتل أبي جهل ثلاثة وذفّف عليه ابن مسعود فقد ذكر في الأحاديث مع مُعَاذ بْن عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا اثنان الأول مُعَاذ بْن عَفْرَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والثاني أخوه معوذ بن عفراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد قتل معوذ في هذه المعركة، وأما أخوه معاذ فمات سنة ٣٧ هـ في خلافة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وقيل بعد ذلك وله روايات وذِكْر بعد موت النبي ﷺ . وأما معاذ بن عمرو فقال البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٣٦٠ ت المعلمي اليماني) : مات في زمن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري(٤٠٢٠) و(٣٩٦١)ومسلم (١٨٠٠) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَخْزَاكَ اللهُ] ، قَالَ : هَلْ أَعْمَدُ مِنْ رَجُلٍ قَتَلْتُمُوهُ[١].

من روائع الإيمان في هذه المعركة:

لقد أسلفنا نموذجين رائعين من عمير بن الحمام وعوف بن الحارث- ابن عفراء- وقد تجلت في هذه المعركة مناظر رائعة، تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ، ففي هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء، والأخوة بالأخوة، خالفت بينهما المبادئ، والتقى المقهور بقاهره، فشفى منه غيظه.

ومن ذلك شأن بلال والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع أمية بن خلف فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ لِي صَدِيقًا بِمَكَّةَ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ مررتُ بِهِ، وَهُوَ وَاقِفٌ مَعَ ابْنِهِ، عَلِيُّ بْنُ أُمَيَّةَ، آخُذُ بِيَدِهِ وَمَعِي أَدْرَاعٌ قَدْ اسْتَلَبْتُهَا، فَأَنَا أَحْمِلُهَا فَلَمَّا رَآنِي قَالَ لِي: يَا عَبْدَ عَمْرٍو، فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ الإِلهِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: هَلْ لَكَ فِيَّ، فَأَنَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ هَذِهِ الْأَدْرَاعِ الَّتِي مَعَكَ؟ قَالَ: قُلْتُ نَعَمْ، هَا اللَّهِ ذَا قَالَ: فطرحتُ الْأَدْرَاعَ مِنْ يَدِي، وَأَخَذْتُ بِيَدِهِ وَيَدِ ابْنِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: مَا رأيتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ، أَمَا لَكُمْ حَاجَةٌ فِي اللَّبَنِ؟ قَالَ: ثُمَّ خَرَجْتُ أَمْشِي بِهِمَا[٢].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: يُرِيدُ بِاللَّبَنِ، أَنَّ مَنْ أَسَرَنِي افْتَدَيْتُ مِنْهُ بِإِبِلٍ كَثِيرَةِ اللَّبَنِ

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ لِي أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، وَأَنَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِهِ، آخِذٌ بِأَيْدِيهِمَا: يَا عَبْدَ الإِلهِ، مَنِ الرَّجُلُ مِنْكُمُ المعلَّم بِرِيشَةِ نَعَامَةٍ فِي صَدْرِهِ؟ قَالَ: قُلْتُ ذَاكَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ: ذَاكَ الَّذِي فَعَلَ بِنَا الْأَفَاعِيلَ، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَقُودُهُمَا إِذْ رَآهُ بِلَالٌ مَعِي، وَكَانَ هُوَ الَّذِي يُعَذِّبُ بِلَالًا بِمَكَّةَ عَلَى تَرْكِ الإِسلام، فيُخرجه إِلَى رَمْضَاءَ مَكَّةَ إِذَا حَمِيَتْ، فيُضجعه عَلَى ظَهْرِهِ ثُمَّ يَأْمُرُ بالصَّخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول: لَا تَزَالُ هَكَذَا أَوْ تُفَارِقَ دِينَ مُحَمَّدٍ،

---

(١) أي ليس علي عار فلن أبعد أن أكون رجلا قتله قومه. أخرجه البخاري برقم: (٣٩٦١) وهو مع زيادة ما بين المعقوفين عند ابن أبي شيبة (٣٧٨٣٠) بنفس الإسناد.

(٢) **حسن** : أخره ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ت طه عبد الرؤوف سعد (٢/ ١٩٩).

فَيَقُولُ بِلَالٌ: أَحَدٌ أَحَدٌ. قَالَ: فَلَمَّا رَآهُ، قَالَ رَأْسُ الْكُفْرِ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، لَا نجوتُ إِنْ نَجَا قَالَ: قُلْتُ: أَيْ بِلَالٌ، أَبِأَسِيرَيَّ قَالَ: لَا نَجَوْتُ إِنْ نَجَا. قَالَ: قلت أتسمع يابن السَّوْدَاءِ، قَالَ: لَا نجوتُ إِنْ نَجَا. قَالَ: ثُمَّ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ. يَا أنصارَ اللَّهِ، رَأْسُ الْكُفْرِ أميةُ بْنُ خَلَفٍ، لَا نَجَوْتُ إِنْ نَجَا. قَالَ: فَأَحَاطُوا بِنَا حَتَّى جَعَلُونَا فِي مِثْلِ الْمُسْكة وَأَنَا أذُبُّ عَنْهُ. قَالَ: فَأَخْلَفَ رجلٌ السيفَ، فَضَرَبَ رِجْل ابْنِهِ فَوَقَعَ، وَصَاحَ أُمَيَّةُ صَيْحَةً مَا سمعتُ مثلَها قطُّ. قَالَ: فقلتْ: انجُ بِنَفْسِكَ وَلَا نجاءَ بِكَ فَوَاللَّهِ مَا أُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا. قَالَ: فَهَبِرُوهُمَا بِأَسْيَافِهِمْ حَتَّى فَرَغُوا مِنْهُمَا، قَالَ: فَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَقُولُ: يَرْحَمُ اللَّهُ بِلَالًا، ذَهَبَتْ أَدْرَاعِي وفَجَعني بأسيري[1].

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ فِي يَوْمِ بَدْرٍ ، خَرَجْتُ إِلَى جَبَلٍ لِأُحْرِزَهُ حِينَ نَامَ النَّاسُ ، فَأَبْصَرَهُ بِلَالٌ ، فَخَرَجَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى مَجْلِسٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ : أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ ، لَا نَجَوْتُ إِنْ نَجَا أُمَيَّةُ ، فَخَرَجَ مَعَهُ فَرِيقٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي آثَارِنَا ، فَلَمَّا خَشِيتُ أَنْ يَلْحَقُونَا ، خَلَّفْتُ لَهُمُ ابْنَهُ لِأَشْغَلَهُمْ فَقَتَلُوهُ ، ثُمَّ أَبَوْا حَتَّى يَتْبَعُونَا ، وَكَانَ رَجُلًا ثَقِيلًا ، فَلَمَّا أَدْرَكُونَا ، قُلْتُ لَهُ : ابْرُكْ فَبَرَكَ ، فَأَلْقَيْتُ عَلَيْهِ نَفْسِي لِأَمْنَعَهُ ، فَتَخَلَّلُوهُ بِالسُّيُوفِ مِنْ تَحْتِي حَتَّى قَتَلُوهُ ، وَأَصَابَ أَحَدُهُمْ رِجْلِي بِسَيْفِهِ ، وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ يُرِينَا ذَلِكَ الْأَثَرَ فِي ظَهْرِ قَدَمِهِ [2].

قتلى الفريقين:

انتهت المعركة بهزيمة ساحقة بالنسبة إلى المشركين، وبفتح مبين بالنسبة للمسلمين، وقد استشهد من المسلمين في هذه المعركة أربعة عشر رجلًا، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار. أما المشركون فقد لحقتهم خسائر فادحة، قتل منهم

---

(١) **حسن لذاته:** أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ت طه عبد الرؤوف سعد (٢/ ١٩٩) قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَبِي عَوْن، عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فذكره.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٠١)، (٣٩٧١).

سبعون وأسر سبعون، وعامتهم القادة والزعماء والصناديد.[قال كعب بن مَالك (من الْكَامِل) :

فَـأَقَـامَ بِـالْعَطَنِ الْمُعَطَّنِ مِنْهُمُ ۞۞۞ سَـبْعُون عُتْبَـةُ مِنْهُمُ وَالأَسْـوَدُ]

ولما انقضت الحرب أمر رسول الله ﷺ بصناديد قتلى قريش، فسحبوا إلى قليب من قلب بدر.فعن أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن نبي الله ﷺ أَمَرَ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ رَجُلًا مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ ، فَقُذِفُوا فِي طَوِيٍّ مِنْ أَطْوَاءِ بَدْرٍ خَبِيثٍ مُخْبِثٍ ، وَكَانَ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِالْعَرْصَةِ ثَلَاثَ لَيَالٍ ، فَلَمَّا كَانَ بِبَدْرٍ الْيَوْمَ الثَّالِثَ أَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ فَشُدَّ عَلَيْهَا رَحْلُهَا ، ثُمَّ مَشَى وَاتَّبَعَهُ أَصْحَابُهُ وَقَالُوا: مَا نُرَى يَنْطَلِقُ إِلَّا لِبَعْضِ حَاجَتِهِ ، حَتَّى قَامَ عَلَى شَفَةِ الرَّكِيِّ ، فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ:« **يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ ، وَيَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ ، أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ ، فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟**» قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لَا أَرْوَاحَ لَهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ**» ، وفي حديث ابن عمر « **مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ** » [١].

مكة تتلقى نبأ الهزيمة: فر المشركون من ساحة بدر في صورة غير منظمة، تبعثروا في الوديان والشعاب، واتجهوا صوب مكة مذعورين، لا يدرون كيف يدخلونها خجلًا وتلقت مكة أنباء الهزيمة الساحقة في ميدان بدر، وقد أثر ذلك فيهم أثرًا سيئًا جدًا، حتى منعوا النياحة على القتلى، لئلا يشمت بهم المسلمون.

المدينة تتلقى أنباء النصر:

ولما تم الفتح للمسلمين أرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى أهل المدينة، ليعجل لهم البشرى، أرسل عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بشيرًا إلى أهل العالية،

(١) أخرجه البخاري (٣٩٧٦) ومسلم (٢٨٧٥)، وحديث ابن عمر أخرجه البخاري (١٣٧٠).

وأرسل زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بشيرًا إلى أهل السافلة. وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا في المدينة بإشاعة الدعايات الكاذبة، حتى أنهم أشاعوا خبر مقتل النبي ﷺ، ولما رأى أحد المنافقين زيد بن حارثة راكبًا القصواء- ناقة رسول الله ﷺ قال: لقد قتل محمد، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب، وجاء فلًّا[1]. فلما بلغ الرسولان أحاط بهما المسلمون، وأخذوا يسمعون منهما الخبر، حتى تأكد لديهم فتح المسلمين، فعمت البهجة والسرور، واهتزت أرجاء المدينة تهليلًا وتكبيرًا، وتقدم رءوس المسلمين- الذين كانوا بالمدينة- إلى طريق بدر، ليهنئوا رسول الله ﷺ بهذا الفتح المبين. قال أسامة بن زيد: أتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التي كانت عند عثمان بن عفان، كان رسول الله ﷺ خلفني عليها مع عثمان. قَالَ أُسَامَةُ : فَجِئْتُ وَهُوَ وَاقِفٌ لِلنَّاسِ ، يَقُولُ : قُتِلَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَأَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ ، وَنُبَيْهٌ وَمُنَبِّهٌ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ ، فَقُلْتُ : يَا أَبَتِ ، أَحَقٌّ هَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَاللهِ يَا بُنَيَّ[2].

الجيش النبوي يتحرك نحو المدينة:

أقام رسول الله ﷺ ببدر بعد انتهاء المعركة ثلاثة أيام، وقبل رحيله من مكان المعركة وقع خلاف بين الجيش حول الغنائم، ولما اشتد هذا الخلاف أمر رسول الله ﷺ بأن يَرد الجميع ما بأيديهم، ففعلوا، ثم نزل الوحي بحل هذه المشكلة. عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَشَهِدْتُ مَعَهُ بَدْرًا ، فَالْتَقَى النَّاسُ فَهَزَمَ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - الْعَدُوَّ ، فَانْطَلَقَتْ طَائِفَةٌ فِي آثَارِهِمْ يَهْزِمُونَ وَيَقْتُلُونَ ، وَأَكَبَّتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ يَحُوُونَهُ وَيَجْمَعُونَهُ ، وَأَحْدَقَتْ طَائِفَةٌ بِرَسُولِ

---

(١) فلًّا: منهزمًا.

(٢) **البعث بالتبشير ثابت:** قال الألباني في تحقيقه على فقه "السيرة (ص٢٤٠)" **حديث** صحيح، أخرجه البيهقي: ٩/ ١٧٤، بسند صحيح من حديث أسامة ورواه بنحوه الحاكم: ٣/ ٤٨، عن الزهري مرسلا، وفي الباب أحاديث أخرى تراجع في (المجمع) : (٩/ ٨٣- ٨٤). اهـ.

اللهِ ﷺ لَا يُصِيبُ الْعَدُوُّ مِنْهُ غِرَّةً ، حَتَّى إِذَا كَانَ اللَّيْلُ وَفَاءَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، قَالَ الَّذِينَ جَمَعُوا الْغَنَائِمَ : نَحْنُ حَوَيْنَاهَا وَجَمَعْنَاهَا فَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا نَصِيبٌ ، وَقَالَ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ : لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا نَحْنُ نَفَيْنَا عَنْهَا الْعَدُوَّ وَهَزَمْنَاهُمْ ، وَقَالَ الَّذِينَ أَحْدَقُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ : لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا نَحْنُ أَحْدَقْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَخِفْنَا أَنْ يُصِيبَ الْعَدُوُّ مِنْهُ غِرَّةً وَاشْتَغَلْنَا بِهِ ، فَنَزَلَتْ : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [سورة الأنفال:١]. فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى فُوَاقٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ (١). وبعد أن أقام رسول الله ﷺ ببدر ثلاثة أيام تحرك بجيشه نحو المدينة ومعه الأسارى من المشركين، واحتمل معه النفل الذي أصيب من المشركين، وجعل عليه عبد الله بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فلما خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية، وقسم هنالك الغنائم على المسلمين على السواء، بعد أن أخذ منها الخمس.

ولما وصل إلى عرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبي معيط، وقد أسلفنا بعض ما كان عليه من إيذاء رسول الله ﷺ ، فهو الذي كان ألقى سلا جزور على رأس رسول الله ﷺ وهو في الصلاة، وهو الذي خنقه بردائه، وكاد يقتله لولا أن يعترض أبو بكر. وكان قتل [هذا الطاغية] واجبًا من حيث وجهة الحرب، فلم يكن من الأسارى فحسب، بل كان من مجرمي الحرب بالإصطلاح الحديث (٢).

---

(١) **صحيح لغيره:** أخرجه أحمد (٢٣٢٠٥) وغيره، وصححه الإمام الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول (ص٩٧) بشاهده عن ابن عباس عند الحاكم (٢٨٩٤)

(٢) صح قتل عقبة يشهد لما ذكر ما في سنن أبي داود (٢٦٨٦) وغيره. عَنْ إِبْرَاهِيمَ ، قَالَ : أَرَادَ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ أَنْ يَسْتَعْمِلَ مَسْرُوقًا ، فَقَالَ لَهُ عُمَارَةُ بْنُ عُقْبَةَ : أَتَسْتَعْمِلُ رَجُلًا مِنْ بَقَايَا قَتَلَةِ عُثْمَانَ ، فَقَالَ لَهُ مَسْرُوقٌ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ -وَكَانَ فِي أَنْفُسِنَا مَوْثُوقَ الْحَدِيثِ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَرَادَ قَتْلَ أَبِيكَ قَالَ : مَنْ لِلصِّبْيَةِ ؟ قَالَ : النَّارُ فَقَدْ رَضِيتُ لَكَ مَا رَضِيَ لَكَ رَسُولُ اللهِ

وفود التهنئة: ولما وصل إلى الروحاء لقيه رءوس المسلمين- الذي كانوا قد خرجوا للتهنئة والاستقبال حين سمعوا بشارة الفتح من الرسولين- يهنئونه بالفتح. ثم دخل رسول الله ﷺ المدينة مظفرًا منصورًا، قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها. فأسلم بشر كثير من أهل المدينة، وحينئذ دخل عبد الله بن أبي وأصحابه في الإسلام ظاهرًا. وقدم الأسارى بعد بلوغه المدينة بيوم، فقسمهم على أصحابه، وأوصى بهم خيرًا،فكان الصحابة يأكلون التمر، ويقدمون لأسرائهم الخبز عملًا بوصية رسول الله ﷺ.

قضية الأسارى: ولما بلغ رسول الله ﷺ المدينة استشار أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الأسارى، **«مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى ؟»** فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا نَبِيَّ اللهِ ، هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فتكُونَ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟»** قُلْتُ : لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ (نَسِيبًا لِعُمَرَ) فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا . فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ»** (شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ) ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ

ﷺ. قال الألباني:قلت: وهذا إسناد جيد ، رجاله ثقات كلهم رجال الشيخين. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٥/ ٤٠).

﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧﴾ [سورة الأنفال:٦٧]. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [سورة الأنفال:٦٩]. فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ(١).

والكتاب الذي سبق من الله هو قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً ٤﴾ [سورة محمد:٤]. ففيه الإذن بأخذ الفدية من الأسارى ولذلك لم يعذبوا، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار قبل أن يثخنوا في الأرض، ثم إنهم قبلوا الفداء من أولئك المجرمين الذين لم يكونوا أسرى حرب فقط، بل كانوا أكابر مجرمي الحرب الذين لا يتركهم قانون الحرب الحديث إلا ويحاكمهم، ولا يكون الحكم في الغالب إلا بالإعدام أو بالحبس حتى الموت. واستقر الأمر على رأي الصديق فأخذ منهم الفداء، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم، إلى ثلاثة آلاف درهم، إلى ألف درهم، وكان أهل مكة يكتبون، وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداء. ومنّ رسول الله ﷺ على عدة من الأسارى، فأطلقهم بغير فداء، منهم: المطلب بن حنطب، وصيفي بن أبي رفاعة، وأبو عزة الجمحي، وهو الذي قتله أسرًا في أحد، وسيأتي. ومنّ على ختنه أبي العاص بشرط أن يخلي سبيل زينب، وكانت قد بعثت في فدائه بمال، بعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة، أدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، واستأذن أصحابه في إطلاق أبي العاص ففعلوا(٢).

وكان في الأسرى سهيل بن عمرو، وكان خطيبًا مِصْقَعًا.

القرآن ينزل حول موضوع المعركة:

وحول موضوع هذه المعركة نزلت سورة الأنفال، [وفيها بيانٌ لما حصل في] هذه المعركة، يختلف كثيرًا عن الكلام الذي ينطق به الملوك والقواد بعد الفتح.

---

(١) أخرجه مسلم(١٧٦٣).

(٢) **حسن:** أخرجه ابن الجارود في "المنتقى" (١١٦٨) وأحمد (٢٧٠٠٤) وغيرهما عن عائشة وهو في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٦٢٤)(٢/ ٥١٨).

١- إن الله تعالى لفت أنظار المسلمين- أولًا- إلى التقصيرات والتقاريظ الأخلاقية ، ليسعوا في تكميل نفوسهم وتزكيتها عن هذه التقاريظ. ثم ثنى بما كان في هذا الفتح من تأييد الله وعونه ونصره بالغيب للمسلمين. ذكر لهم ذلك لئلا يغتروا بشجاعتهم وبسالتهم، فتتسور نفوسهم الغطرسة والكبرياء، بل ليتوكلوا على الله ويطيعوه ويطيعوا رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

٢- ثم بين لهم الأهداف والأغراض النبيلة التي خاض الرسول ﷺ لأجلها هذه المعركة الدامية الرهيبة، ودلهم على الصفات والأخلاق التي تسببت في الفتوح وفي المعارك.

٣- ثم خاطب المشركين والمنافقين واليهود وأسارى المعركة، وعظهم موعظة بليغة، تهديهم إلى الاستسلام للحق والتقيد به. ثم خاطب المسلمين حول موضوع الغنائم، قنّن لهم مبادئ وأسس هذه المسألة.

٤- ثم بين وشرع لهم من [أحكام] الحرب والسلم ما كانت الحاجة تمس إليها بعد دخول الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة، حتى تمتاز حروب المسلمين عن حروب أهل الجاهلية، ويقوم لهم التفوق في الأخلاق والقيم والمثل، ويتأكد للدنيا أن الإسلام ليس مجرد وجهة نظرية، بل إنه يثقف أهله عمليًا على الأسس والمبادئ التي يدعو إليها.

٥- ثم قرر بنودًا من [أحكام] الدولة الإسلامية التي تقيم الفرق بين المسلمين الذين يسكنون داخل حدودها، والذين يسكنون خارجها.

٦- وفي السنة الثانية من الهجرة فرض صيام رمضان، وفرضت زكاة الفطر، وبينت أنصبة الزكاة الأخرى، وكانت فريضة زكاة الفطر وتفصيل أنصبة الزكاة الأخرى، تخفيفًا لكثير من الأوزار التي يعانيها عدد كبير من المهاجرين اللاجئين، الذين كانوا فقراء لا يستطيعون ضربًا في الأرض.

٧- ومن أحسن المواقع أن أول عيد تعيد به المسلمون في حياتهم هو العيد الذي وقع في شوال سنة ٢ هـ. إثر الفتح المبين الذي حصلوا عليه في غزوة بدر، فما أروع هذا العيد السعيد الذي جاء به الله بعد أن توج هامتهم بتاج الفتح والعز، وما أروق منظر تلك الصلاة التي صلوها بعد أن خرجوا من بيوتهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتوحيد والتحميد، وقد فاضت قلوبهم رغبة إلى الله، وحنينًا إلى رحمته ورضوانه بعد ما أولاهم من النعم، وأيدهم به من النصر، وذكرهم بذلك فقال سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ [سورة الأنفال:٢٦].

العبر والعظات

١- يدلنا السبب الأول لغزوة بدر أن الدافع الأصلي لخروج المسلمين مع رسول الله ﷺ لم يكن القتال والحرب، وإنما كان الدافع قصد الاستيلاء على عير قريش، هذه إرادة البشر. غير أن الله أراد لعباده غنيمة أكبر، ونصرًا أعظم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧﴾ [سورة الأنفال:٧].

٢- التزام النبي ﷺ بمبدأ التشاور مع أصحابه. فقد شاورهم في الأمر الذي فوجئوا به بعد أن أفلت منهم العير، وشاورهم في موضع العريش، والشورى واجبة في كل ما لم يثبت فيه نص ملزم من كتاب أو سنة.

٣- جواز الاستعانة بالعيون والمراقبين، ليكتشف المسلمون خطط أعدائهم وأحوالهم، ويجوز اتخاذ مختلف الوسائل لذلك، ولو استلزم ذلك تكتمًا أو نوعًا من المخادعة أو التحايل، فالحرب خدعة.

٤- أهمية التضرع لله وشدة الاستعانة به. لقد علمنا أن النبي ﷺ كان يطمئن أصحابه بأن النصر لهم، حتى إنه كان يشير إلى أماكن متفرقة في الأرض، ويقول: **«هذا مصرع فلان»** ، ولقد وقع الأمر كما أخبر ﷺ .ومع ذلك رأيناه يقف طوال ليلة الجمعة في العريش الذي أقيم له يجأر إلى الله تعالى داعيًا ومتضرعًا، باسطًا كفيه إلى السماء يناشد الله عز وجل أن يؤتيه نصره الذي وعد، حتى سقط عنه رداؤه، وأشفق أبو بكر عليه.فلماذا كل هذه الضراعة؟. إن اطمئنان النبي ﷺ وإيمانه بالنصر إنما كان تصديقا منه للوعد الذي وعد الله به رسوله. أما الاستغراق في التضرع والدعاء، فتلك هي وظيفة العبودية التي خلق من أجلها الإنسان، وعلى الإنسان أن لا يخرج عن طور العبودية مهما بلغ حاله.

٥- الحياة البرزخية للأموات. في الحوار الذي جرى بين النبي ﷺ وعمر بن الخطاب، عندما وقف النبي ﷺ على فم القليب ينادي قتلى المشركين، دليل واضح على أن للميت حياة روحية خاصة به، لا ندري حقيقتها وكيفيتها. وأن أرواح الموتى تظل حائمة حول أجسادهم، ومن هنا يتصور معنى عذاب القبر ونعيمه. وطريق الإيمان بذلك إنما هو التسليم، ولو لم نعرف حقيقتها، ما دام قد ثبت ذلك بدليل صحيح.

٦- مسألة الأسرى. استشار النبي ﷺ أصحابه في أمر الأسرى، فأشار عليه أبو بكر وجماعة أن يأخذ منهم فدية من المال تكون قوة للمسلمين، ويتركهم عسى الله يهديهم. وأشار عمر وجماعة بقتل الأسرى، لأنهم أئمة الكفر وصناديده، فمال النبي ﷺ إلى ما رآه أبو بكر.غير أن آيات من القرآن نزلت عتابا لرسول الله ﷺ في ذلك وتأييدًا للرأي الذي رآه عمر من قتلهم. وهذه الواقعة دلتنا على أن النبي ﷺ من حقه أن يجتهد، وله ذلك، وإلى هذا ذهب جمهور علماء الأصول. وإذا صح أن يجتهد صح منه بناء على ذلك أن يصيب أو يخطىء في الاجتهاد غير أن الخطأ لا

يستمر، بل لا بد أن تنزل آية من القرآن تصحح له اجتهاده، فإذا لم تنزل آية فهو دليل على أن اجتهاده ﷺ قد وقع على ما هو الحق في علم الله تعالى.

مَا قِيلَ مِنْ الشِّعْرِ فِي يَوْمِ بَدْرٍ:

«قَالَ ضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ بْنِ مِرْدَاسٍ، أَخُو بَنِي مُحَارِبِ بْنِ فِهْرٍ، فِي يَوْمِ بَدْرٍ:

عَجِبْتُ لِفَخْرِ الْأَوْسِ وَالْحَيْنُ دَائِرٌ ۞۞۞ عَلَيْهِمْ غَدًا وَالدَّهْرُ فِيهِ بَصَائِرُ
وَفَخْرُ بَنِي النَّجَّارِ إِنْ كَانَ مَعْشَرٌ ۞۞۞ أُصِيبُوا بِبَدْرٍ كُلُّهُمْ ثَمَّ صَابِرُ
فَإِنْ تَكُ قَتْلَى غُودِرَتْ مِنْ رِجَالِنَا ۞۞۞ فَإِنَّا رِجَالٌ بَعْدَهُمْ سَنُغَادِرُ
وَتَرْدِي بِنَا الْجُرْدُ الْعَنَاجِيجُ وَسَطَكُمْ ۞۞۞ بَنِي الْأَوْسِ حَتَّى يَشْفِي النَّفْسَ ثَائِرٌ
وَوَسْطَ بَنِي النَّجَّارِ سَوْفَ نَكُرُّهَا ۞۞۞ لَهَا بِالقَنَا وَالدَّار عين زَوَافِرُ
فَنَتْرُكُ صَرْعَى تَعْ ِصبُ الطَّيْرُ ۞۞۞ وَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا الْأَمَانِيُّ نَاصِرُ
وَتَبْكِيهِمْ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ نِسْوَةٌ ۞۞۞ لَهُنَّ بِهَا لَيْلٌ عَنْ النَّوْمِ سَاهِرُ
وَذَلِكَ أَنَّا لَا تَزَالُ سُيُوفُنَا ۞۞۞ بِهِنَّ دَمٌ مِمَّنْ يُحَارِبْنَ مَائِرُ
فَإِنْ تَظْفَرُوا فِي يَوْمِ بَدْرٍ فَإِنَّمَا ۞۞۞ بِأَحْمَدَ أَمْسَى جَدُّكُمْ وَهُوَ ظَاهِرُ
وَبِالنَّفَرِ الْأَخْيَارِ هُمْ أَوْلِيَاؤُهُ ۞۞۞ يُحَامُونَ فِي اللَّأْوَاءِ وَالْمَوْتُ حَاضِرُ
يُعَدُّ أَبُو بَكْرٍ وَحَمْزَةُ فِيهِمْ ۞۞۞ وَيُدْعَى عَلِيٌّ وَسْطَ مَنْ أَنْتَ ذَاكِرُ
وَيُدْعَى أَبُو حَفْصٍ وَعُثْمَانُ مِنْهُمْ ۞۞۞ وَسَعْدٌ إِذَا مَا كَانَ فِي الْحَرْبِ حَاضِرُ
أُولَئِكَ لَا مَنْ نَتَّجَتْ فِي دِيَارِهَا ۞۞۞ بَنُو الْأَوْسِ وَالنَّجَّارِ حَيْنَ تُفَاخِرُ
وَلَكِنْ أَبُوهُمْ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ ۞۞۞ إِذَا عُدَّتْ الْأَنْسَابُ كَعْبٌ وَعَامِرُ
هُمْ الطَّاعِنُونَ الْخَيْلَ فِي كُلِّ مَعْرَكٍ ۞۞۞ غَدَاةَ الْهِيَاجِ الْأَطْيَبُونَ الْأَكَاثِرُ

فَأَجَابَهُ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، أَخُو بَنِي سَلِمَةَ، فَقَالَ:

عَجِبْتُ لِأَمْرِ اللهِ وَاللهُ قَادِرٌ ۞۞۞ عَلَى مَا أَرَادَ، لَيْسَ لله قَاهِرُ
قَضَى يَوْمَ بَدْرٍ أَنْ نُلَاقِيَ مَعْشَرًا ۞۞۞ بَغَوْا وَسَبِيلُ الْبَغْيِ بِالنَّاسِ جَائِرُ

وَقَدْ حَشَدُوا وَاسْتَنْفَرُوا مِنْ يَلِيهِمُ ❁❁❁ مِنَ النَّاسِ حَتَّى جَمْعُهُمْ مُتَكَاثِرُ
وَسَارَتْ إِلَيْنَا لَا تُحَاوِلُ غَيْرَنَا ❁❁❁ بِأَجْمَعِهَا كَعْبٌ جَمِيعًا وَعَامِرُ
وَفِينَا رَسُولُ اللهِ وَالْأَوْسُ حَوْلَهُ ❁❁❁ لَهُ مَعْقِلٌ مِنْهُمْ عَزِيزٌ وَنَاصِرُ
وَجَمْعُ بَنِي النَّجَّارِ تَحْتَ لِوَائِهِ ❁❁❁ يُمَشَّوْنَ فِي الْمَاذِيِّ وَالنَّقْعُ ثَائِرُ
فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ وَكُلٌّ مُجَاهِدٌ ❁❁❁ لِأَصْحَابِهِ مُسْتَبْسِلُ النَّفْسِ صَابِرُ
شَهِدْنَا بِأَنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ ❁❁❁ وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ بِالْحَقِّ ظَاهِرُ
وَقَدْ عُرِّيَتْ بِيضٌ خِفَافٌ كَأَنَّهَا ❁❁❁ مَقَابِيسُ يُزْهِيهَا لِعَيْنَيْكَ شَاهِرُ
بِهِنَّ أَبَدْنَا جَمْعَهُمْ فَتَبَدَّدُوا ❁❁❁ وَكَانَ يُلَاقِي الْحَيْنَ مَنْ هُوَ فَاجِرُ
فَكُبَّ أَبُو جَهْلٍ صَرِيعًا لِوَجْهِهِ ❁❁❁ وَعُتْبَةُ قَدْ غَادَرْنَهُ وَهُوَ عَاثِرُ
وَشَيْبَةُ وَالتَّيْمِيُّ غَادَرْنَ فِي الْوَغَى ❁❁❁ وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا بِذِي الْعَرْشِ كَافِرُ
فَأَمْسَوْا وَقُودَ النَّارِ فِي مُسْتَقَرِّهَا ❁❁❁ وَكُلٌّ كَفُورٍ فِي جَهَنَّمَ صَائِرُ
تَلَظَّى عَلَيْهِمْ وَهِيَ قَدْ شَبَّ حَمْيُهَا ❁❁❁ بِزُبَرِ الْحَدِيدِ وَالْحِجَارَةِ سَاجِرُ
وَكَانَ رَسُولُ اللهِ قَدْ قَالَ أَقْبِلُوا ❁❁❁ فَوَلَّوْا وَقَالُوا: إِنَّمَا أَنْتَ سَاحِرُ
لِأَمْرٍ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَهْلِكُوا بِهِ ❁❁❁ وَلَيْسَ لِأَمْرٍ حَمَّهُ اللهُ زَاجِرُ

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزِّبَعْرَى السَّهْمِيُّ يَبْكِي قَتْلَى بدر: قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَتُرْوَى لِلْأَعْشَى بْنِ زُرَارَةَ بْنِ النَّبَّاشِ، أَحَدُ بَنِي أُسَيْدِ بن عَمْرِو بْن تَمِيمٍ، حَلِيفُ بَنِي نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ:

مَاذَا عَلَى بَدْرٍ وَمَاذَا حَوْلَهُ ❁❁❁ مِنْ فِتْيَةٍ بِيضِ الْوُجُوهِ كِرَامِ
تَرَكُوا نُبَيْهًا خَلْفَهُمْ وَمُنَبِّهًا ❁❁❁ وَابْنَيْ رَبِيعَةَ خَيْرَ خَصْمٍ فِغَامِ
وَالْحَارِثَ الْفَيَّاضَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ ❁❁❁ كَالْبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ الْإِظْلَامِ
وَالْعَاصِيَ بْنَ مُنَبِّهٍ ذَا مِرَّةٍ ❁❁❁ رُمْحًا تَمِيمًا غَيْرَ ذِي أَوْصَامِ

تَـنَـمَّـى بَـهُ أَعْـرَاقُـهُ وَجُـدُودُهُ ❁❁❁ وَمَـآثِـرُ الْأَخْـوَالِ وَالْأَعْـمَـام
وَإِذَا بَكَى بَـــاكٍ فَأَعْوَلَ شَـجْوَهُ ❁❁❁ فَعَلَى الرَّئِيسِ الْمَـــاجِدِ ابْنِ هِشَـامِ
حَيَّا الْإِلَـهُ أَبَـا الْوَلِيـدِ وَرَهْطَـهُ ❁❁❁ رَبَّ الْأَنَام، وَخَصَّـــهُمْ بِسَـلَام

فَأَجَابَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ:

ابْـــكِ بَكَتْ عَيْنَاكَ ثُمَّ تَبَادَرَتْ ❁❁❁ بِـدَم تُـعَـلُّ غُـرُوبُـهَـا سَـــجَّـام
مَـــاذَا بَكَيْتَ بِهِ الَّذِينَ تَتَايَعُوا ❁❁❁ هَـلَّا ذَكَـرْتَ مَـكَـارِمَ الْأَقْـوَام
وَذَكَـرْتَ مِـنَّـا مَـاجِـدًا ذَا هِـمَّـةٍ ❁❁❁ سَـمْحَ الْخَلَائِقِ صَـادِقَ الْإِقْدَام
أَعْنِي النَّبِيَّ أَخَا الْمَكَارِمِ وَالنَّدَى ❁❁❁ وَأَبَـــرَّ مَنْ يُولَى عَلَى الْإِقْسَـام
فَلِمِثْلِهِ وَلِـــمِثْلِ مَا يَـــدْعُو لَهُ ❁❁❁ كَانَ الْـــمُمَدَّحَ ثَمَّ غَيْرُ كَهَام

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ أَيْضًا:

إِنَّ كُنْـتِ كَـاذِبَـةَ الَّـذِي حَـدَّثْتِنِي ❁❁❁ فَنَجَوْتِ مَنْجَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَام
تَرَكَ الْأَحِبَّـةَ أَنْ يُقَـاتِـلَ دُونَهُمْ ❁❁❁ وَنَـجَـا بِـرَأْسِ طِـمـرَّةٍ وَلِـجَـام
تَـذَرُ الْعَنَـاجِيجُ الْجِيَـادُ بِقَفْرَةٍ ❁❁❁ مَرَّ الـدَّمُوكِ بِمُحْصَـــدٍ وَرِجَام
مَلَأَتْ بِـــهِ الفرجين فارمدّت بِهِ ❁❁❁ وَثَوَى أَحِبَّتُـهُ بِشَـــــرٍّ مَقَـام
وَبَنُو أَبِيـهِ وَرَهْـطُـهُ فِي مَعْرَكٍ ❁❁❁ نَصَـــرَ الْإِلَهُ بِهِ ذَوِي الْإِسْـلَام
طَـحَـنَـتْـهُـمْ، وَاللهُ يُـنْـفِـذُ أَمْـرَهُ ❁❁❁ حَرْبٌ يُشَبُّ سَعِيرُهَا بِضِـــرَام
لَـوْلَا الْإِلَـهُ وَجَـرْيُـهَـا لَـتَـرَكْـنَـهُ ❁❁❁ جَزَرَ السِّـــبَاعِ وَدُسْـنَهُ بحَوَامِي
مِنْ بَيْنَ مَأْسُـورٍ يَشُـدُّ وَثَـــاقَهُ ❁❁❁ صَـقْرٌ إِذَا لَاقَى الْأَسِـنَّةَ حَامِي
وَمُجَـدَّلٍ لَا يَسْـتَجِيبُ لِـدَعْوَةٍ ❁❁❁ حَتَّى تَزُولَ شَـوَامِخُ الْأَعْلَام
بِالْـــعَارِ وَالذُّلِّ الْمُبَيَّنِ إِذْ رَأَى ❁❁❁ بِيضَ السُّيُوفِ تَسُوقُ كُلَّ هُمَام
بِـــيَدَيْ أَغَرَّ إِذَا انْتَمَى لَمْ يُخْزِهِ ❁❁❁ نَسَـبُ الْقِصَـارِ سَـمَيْدَعِ مِقْدَام
بِيضٌ إِذَا لَاقَتْ حَدِيدًا صَـمَّمَت ❁❁❁ كَالْبَرْقِ تَحْتَ ظِلَالِ كُلِّ غَمَام

فَأَجَابَهُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ، فِيمَا ذَكَرَ ابْنُ هِشَامٍ،[يَعْتَذِرُ مِنْ فِرَارِهِ يَوْمَ بَدْرٍ] فَقَالَ:

اللهُ أَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ ❁❁❁ حَتَّى حَبَوْا مُهْرِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ
وَعَرَفْتُ أَنِّي إنْ أُقَاتِلْ وَاحِدًا ❁❁❁ أُقْتَلْ وَلَا يَنْكِي عَدُوِّي مَشْهَدِي
فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَالْأَحِبَّةُ فِيهِمُ ❁❁❁ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدِ

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ أَيْضًا:

يَا حَارِ قَدْ عَوَّلْتَ غَيْرَ مُعَوَّلٍ ❁❁❁ عِنْدَ الْهِيَاجِ وَسَاعَةَ الْأَحْسَابِ
إِذْ تَمْتَطِي سُرُحَ الْيَدَيْنِ نَجِيبَةً ❁❁❁ مَرْطَى الْجِرَاءِ طَوِيلَةَ الْأَقْرَابِ
وَالْقَوْمُ خَلْفَكَ قَدْ تَرَكْتَ قِتَالَهُمْ ❁❁❁ تَرْجُو النَّجَاءَ وَلَيْسَ حَيْنَ ذَهَابِ
أَلَّا عَطَفْتُ عَلَى ابْنِ أُمِّكَ إِذْ ثَوَى ❁❁❁ قَعْصَ الْأَسِنَّةِ ضَائِعَ الْأَسْلَابِ

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ أَيْضًا:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَتَى أَهْلَ مَكَّةَ ❁❁❁ إِبَارَتُنَا الْكُفَّارَ فِي سَاعَةِ الْعُسْرِ
قَتَلْنَا سَرَاةَ الْقَوْمِ عِنْدَ مَجَالِنَا ❁❁❁ فَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَّا بِقَاصِمَةِ الظَّهْرِ
قَتَلْنَا أَبَا جَهْلٍ وَعُتْبَةَ قَبْلَهُ ❁❁❁ وَشَيْبَةُ يَكْبُو لِلْيَدَيْنِ وَلِلنَّحْرِ
قَتَلْنَا سُوَيْدًا ثُمَّ عُتْبَةَ بَعْدَهُ ❁❁❁ وَطُعْمَةَ أَيْضًا عِنْدَ ثَائِرَةِ الْقَتْرِ
فَكَمْ قَدْ قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ مُرَزَّإٍ ❁❁❁ لَهُ حَسَبٌ فِي قَوْمِهِ نَابَهُ الذِّكْرُ
تَرَكْنَاهُمْ لِلْعَاوِيَاتِ يَنُبْنَهُمْ ❁❁❁ وَيَصْلَوْنَ نَارًا بَعْدُ حَامِيَةَ الْقَعْرِ
لَعَمْرُكَ مَا حَامَتْ فَوَارِسُ مَالِكٍ ❁❁❁ وَأَشْيَاعُهُمْ يَوْمَ الْتَقَيْنَا عَلَى بَدْرِ

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ أَيْضًا:

نَجَّى حَكِيمًا يَوْمَ بَدْرٍ شَدُّه ❁❁❁ كَنَجَاءِ مُهْرٍ مِنْ بَنَاتِ الْأَعْوَجِ
لَمَّا رَأَى بَدْرًا تَسِيلُ جِلَاهُهُ ❁❁❁ بِكَتِيبَةٍ خَضْرَاءَ مِنْ بَلْخَزْرَجِ
لَا ينكلون إِذا لَقُوا أَعْدَاءَهُمْ ❁❁❁ يَمْشُونَ عَائِدَةَ الطَّرِيقِ الْمَنْهَجِ

كَمْ فِيهِمْ مِنْ مَاجِدٍ ذِي مَنْعَةٍ ❁❁❁ بَطَلٌ بِمَهْلَكَةِ الْجَبَانِ الْمُحْرَجِ
وَمُسَوَّدٍ يُعْطِي الْجَزِيلَ بِكَفِّهِ ❁❁❁ حَمَّالَ أَثْقَالِ الدِّيَاتِ مُتَوَّجِ
زَيْنِ النَّدِيِّ مُعَاوِدٍ يَوْمَ الْوَغَى ❁❁❁ ضَرْبَ الْكُمَاةِ بِكُلِّ أَبْيَضَ سَلْجَجِ

وَقَالَ حَسَّانُ أَيْضًا:

فَمَا نَخْشَى بِحَوْلِ اللهِ قَوْمًا ❁❁❁ وَإِنْ كَثُرُوا وَأُجْمِعَتْ الزُّحُوفُ
إِذَا مَا أَلَّبُوا جَمْعًا عَلَيْنَا ❁❁❁ كَفَانَا حَدَّهُمْ رَبٌّ رَءُوفٌ
سَمَوْنَا يَوْمَ بَدْرٍ بِالْعَوَالِي ❁❁❁ سِرَاعًا مَا تُضَعْضِعُنَا الْحُتُوفُ
فَلَمْ تَرَ عُصْبَةً فِي النَّاسِ أَنْكَى ❁❁❁ لِمَنْ عَادَوْا إِذَا لَقِحَتْ كُشُوفٌ
وَلَكِنَّا تَوَكَّلْنَا وَقُلْنَا ❁❁❁ مَآثِرُنَا وَمَعْقِلُنَا السُّيُوفُ
لَقِينَاهُمْ بِهَا لَمَّا سَمَوْنَا ❁❁❁ وَنَحْنُ عِصَابَةٌ وَهُمْ أُلُوفٌ

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ أَيْضًا، يَهْجُو بَنِي جُمَحَ وَمَنْ أُصِيبَ مِنْهُمْ:

جَمَحَتْ بَنُو جُمَحٍ لِشِقْوَةِ جَدِّهِمْ ❁❁❁ إِنَّ الذَّلِيلَ مُوَكَّلٍ بِذَلِيلِ
قُتِلَتْ بَنُو جُمَحٍ بِبَدْرٍ عَنْوَةً ❁❁❁ وَتَخَاذَلُوا سَعْيًا بِكُلِّ سَبِيلِ
جَحَدُوا الْكِتَابَ وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ ❁❁❁ وَاللهُ يُظْهِرُ دِينَ كُلِّ رَسُولِ
لَعَنَ الْإِلَهُ أَبَا خُزَيْمَةَ وَابْنَهُ ❁❁❁ وَالْخَالِدَيْنِ، وَصَاعِدَ بْنَ عَقِيلِ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: لَمَّا أُصِيبَتْ رِجْلُ عبيدَةَ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَدْرَكَ أَبُو طَالِبٍ هَذَا الْيَوْمَ لَعَلِمَ أَنِّي أَحَقُّ مِنْهُ بِمَا قَالَ حِينَ يَقُولُ:

كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ يُبْزَى مُحَمَّدٌ ❁❁❁ وَلَمَّا نُطَاعِنْ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ
وَنُسْلِمُهُ حَتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ ❁❁❁ وَنُذْهَلُ عَنْ أَبْنَائِنَا والحلائل

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا هَلَكَ عَبِيدَةُ بْنُ الْحَارِثِ مِنْ مُصَابِ رِجْلِهِ يَوْمَ بَدْرٍ. قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ يَبْكِيهِ:

أَيَا عَيْنُ جُودِي وَلَا تَبْخَلِي ❁❁❁ بِدَمْعِكِ حَقًّا وَلَا تَنْزُرِي

عَـلَـىٰ سَـــيِّـدٍ هَـدَّنَـا هُـلْـكُـهُ ❁❁❁ كَرِيم الْمَشَـــاهِـدِ وَالْعُنْصُـــرِ
جَرِيءِ الْمُقَدَّم شَـاكِي السِّـلَاح ❁❁❁ كَرِيم النَّثَـا طَيِّـبِ الْمَكْسِـــرِ
عَـبِـيـدَةُ أَمْسَـــىٰ وَلَا نَـرْتَـجِـيـهِ ❁❁❁ لِـعُـرْفٍ عَـرَانَـا وَلَا مُـنْـكِـرِ
وَقَـدْ كَـانَ يحمىٰ غَـدَاة الْقِتَـال ❁❁❁ حَـامِـيَـةَ الْـجَـيْـشِ بِـالْـمُـبْـتَـرِ

وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَيْضًا، فِي يَوْمِ بَدْرٍ:

أَلَا هَلْ أَتَىٰ غَسَّانَ فِي نَأْيِ دَارِهَا ❁❁❁ وَأَخْبَرُ شَـــيْءٍ بِـالْأُمُورِ عَلِيمُهَا
بِأَنْ قَدْ رَمَتْنَا عَنْ قِسِيٍّ عَـــدَاوَةٍ ❁❁❁ مُعَـدٍّ مَعًا جُهَّـالُهَا وَحَلِيمُهَا
لِأَنَّـا عَـبَـدْنَـا اللهَ لَـمْ نَرْجُ غَيْرَهُ ❁❁❁ رَجَـاءَ الْجِنَانِ إِذْ أَتَـانَـا زَعِيمُهَا
نَـبِـيٌّ لَـهُ فِـي قَـوْمِـهِ إِرْثُ عِـزَّةٍ ❁❁❁ وَأَعْرَاقُ صِـــدْقٍ هَذَّبَتْهَا أُرُومُهَا
فَسَـارُوا وَسِـرْنَـــا فَالْتَقَيْنَا كَأَنَّنَا ❁❁❁ أُسُـــودُ لِقَـاءٍ لَا يُرَجَّىٰ كَلِيمُهَا
ضَـــرَبْنَاهُمْ حَتَّىٰ هَوَىٰ فِي مَكَرِّنَا ❁❁❁ لِمَنْخِرِ سَـــوْءٍ مِنْ لُؤَيٍّ عَظِيمُهَا
فَوَلَّوْا وَدُسْـنَاهُمْ بِبِيضٍ صَـوَارِمٍ ❁❁❁ سَـوَاءٌ عَلَيْنَا حِلْفُهَا وَصَـمِيمُهَا

[«سيرة ابن هشام ت السقا» (٢/ ١٣)]

عدد قتلى المشركين سبعون وهذه أسماء أشر افهم]:

١- حنظلة بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس.
٢- وعقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس.
٣- وعتبة بن ربيعة بن عبد شمس.
٤- وشيبة بن ربيعة بن عبد شمس.
٥- والوليد بن عتبة بن ربيعة .
٦- وطعيمة بن عدى بن نوفل.
٧- زمعة ابن الأسود بن المطلب
٨- وأبو البخترى وهو العاص بن هشام بن الحارث بن أسد.

٩- ونوفل بن خويلد بن أسد وهو ابن العدوية عدى خزاعة وهو الذى قرن أبا بكر وطلحة بن عبيد الله حين أسلما في حبل فكانا يسميان القرينين لذلك وكان من شياطين.

١٠- النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار قتل صبرًا.

١١- أبو جهل بن هشام واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم.

١٢- والأسود بن عبد الاسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم.

١٣- منبه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم.

١٤- وابنه العاص بن منبه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة.

١٥- ونبيه بن الحجاج بن عامر.

١٦- أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح.

قال ابن هشام حدّثنى أبو عبيدة عن أبي عمرو أن قتلى بدر من المشركين كانوا سبعين رجلًا والأسرى كذلك وهو قول ابن عباس[أخرجه مسلم (١٧٦٣)] وقول سعيد بن المسيب وفي كتاب الله تبارك وتعالى ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ [سورة آل عمران:١٦٥]. يقوله لأصحاب أحد وكان من استشهد منهم سبعين رجلًا يقول قد أصبتم يوم بدر مثلي من استشهد منكم يوم أحد سبعين قتيلا وسبعين أسيرًا.

* ولم يقتل من المسلمين إلا أربعة عشر رجلًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ورفع درجتهم وهم كالتالي : قال ابن حبان رحمه الله تعالى : فقتل من المسلمين في ذلك اليوم من قريش ستة أنفس:

من بني المطلب.

١-عبيدة بن الحارث بن المطلب.

ومن بني زهرة بن كلاب:

٢- عمير بن أبي وقاص أخو سعد[١].

٣- و ذو الشمالين ابن عبد عمرو بن نضلة حليف لهم من خزاعة

ومن بني عدي بن كعب:

٤- عاقل بن البكير حليف لهم من بني سعد بن ليث

٥- ومهجع مولى عمر

ومن بني الحارث بن فهر:

٦- صفوان بن بيضاء.

وقتل من الأنصار من بني عمرو بن عوف:

٧- سعد بن خيثمة

٨-ومبشر بن عبد المنذر.

ومن بني الحارث بن الخزرج:

٩- يزيد بن الحارث وهو الذي يقال له ابن فسحم.

ومن بني سلمة:

١٠- عمير بن الحمام.

ومن بني حبيب بن عبد الحارثة بن مالك بن غضب بن جشم:

١١- رافع بن المعلى[٢].

ومن بني النجار:

---

(١) حسن: أخرجه البزار في "مسنده": (١١٠٦).

(٢) وهذا فيه خلاف فقد جاء أنه عاش وروى عن النبي ﷺ وحديثه في البخاري ، ويحتمل تشابه الاسم.

١٢- حارثة ابن سراقة بن الحارث[١].

[ومن بني غنم بن مالك بن النجار:

١٣-١٤- عوف] ومعوذ [ابنا الحارث بن رفاعة بن سواد وهما] ابنا عفراء[٢].

وأحب هنا أن أسرد أسماء من شهد بدرًا من المسلمين لمزيتهم على غيرهم ، فهذه أسماء جميع البدريين منسوبين إلى قبائلهم[٣]:

البدريون من المهاجرين

أ - من بني هاشم بن عبد مناف ثمانية نفر:

١ - سيد المرسلين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ﷺ.

٢ - حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

٣ - علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

٤ - زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبى (مولى رسول الله ﷺ).

٥ - أنسة الحبشى (مولى رسول الله ﷺ).

٦ - أبو كبشة الفارسى (مولى رسول الله ﷺ)

٧ - كناز بن حصين بن يربوع (حليف لهم) وهو من قيس عيلان. وهو المكنى بأبي مرثد.

٨ - ابنه مرثد بن أبي مرثد (حليف لهم أيضًا).

ج - ومن بني المطلب بن عبد مناف أربعة نفر:

١ - عبيدة بن الحارث بن المطلب. (قتل يوم بدر).

---

(١) في البخاري (٦٥٥٠) عن أَنَسٍ قال: أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي ، فَإِنْ يَكُ فِي الْجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ ، فَقَالَ: وَيْحَكِ أَوَهَبِلْتِ ، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ ، إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ.

(٢) «السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان» (١/ ١٧٤ - ١٧٥).

(٣) ساق البخاري رحمه في صحيحه بعد حديث (٤٠٢٧) جملة ممن شهد بدرًا فقال: في كتاب المغازي - باب تسمية من سمي من أهل بدر.

٢ – الطفيل بن الحارث بن المطلب.

٣ – الحصين بن الحارث بن المطلب.

٤ – مسطح واسمه عوف بن أُثاثة بن عباد بن المطلب.

د – ومن بني أُمية بن عبد شمس بن عبد مناف ستة عشر رجلا.

١ – عثمان بن عفان، تخلّف على امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ لتمريضها في المدينة فضرب له رسول الله ﷺ بسهم وعدّه من البدريين في الأجر.

٢ – أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف.

٣ – سالم مولى أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة.

٤ – عبد الله بن جحش (حليف لهم).

٥ – عكاشة بن محصن. (حليف لهم).

٦ – شجاع بن وهب بن ربيعة (حليف لهم).

٧ – عقبة بن وهب بن ربيعة (حليف لهم).

٨ – يزيد بن رقيش (حليف لهم).

٩ – أبو سنان محصن بن حرثان بن قيس (حليف لهم).

١٠ – سنان بن أبي سنان (حليف لهم).

١١ – محرز بن نضلة بن عبد الله (حليف لهم).

١٢ – ربيعة بن أكثم بن سخبرة (حليف لهم).

١٣ – ثقيف بن عمرو (حليف لهم).

١٤ – مالك بن عمرو (حليف لهم).

١٥ – مدلج بن عمرو (حليف لهم).

١٦ – أبو مخشي (حليف لهم).

هـ – ومن بني نوفل بن عبد مناف، رجلان، وهما:

١ – عتبة بن غزوان (حليف لهم).

٢ – خباب مولى عتبة بن غزوان (حليف لهم).

و– ومن بني أسد بن عبد العزي ثلاثة نفر، وهم:

١ – الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد.

٢ – حاطب بن أبي بلتعة اليماني (حليف لهم)

٢ – سعد الكلبى (مولى حاطب بن أبي بلتعة) حليف لهم.

ز – ومن بني عبد الدار بن قصي، رجلان. وهما:

١ – مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار.

٢ – سويط بن سعد بن حريملة.

ح – ومن بني زهرة بن كلاب ثمانية نفر، وهم:

١ – عبد الرحمن بن عوف.

٢ – سعد بن أبي وقاص.

٣ – عمير بن أبي وقاص.

٤ – المقداد بن عمرو بن ثعلبة (حليف لهم).

٥ – عبد الله بن مسعود بن الحارث الهذلى (حليف لهم).

٦ – مسعود بن ربيعة بن عمرو بن سعد (حليف لهم).

٧ – ذو الشمالين بن عمرو بن نضلة الخزاعي (حليف لهم).

٨ – خباب بن الأرت التميمي (حليف لهم).

ط – ومن بني تيم بن مرة خمسة نفر:

١ – أبو بكر الصديق، ولقبه عتيق واسمه (عبد الله بن عثمان التيمي).

٢ – بلال بن رباح (مولى لأبي بكر الصديق).

٣ – عامر بن فهيرة (مولى أبي بكر الصديق).

٤ – صهيب بن سنان (مولى عبد الله بن جدعان التيمي).

٥ – طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيمم، كان غائبًا بالشام وقت المعركة فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وعدّه كالبدريين في الأجر.

ي – ومن بني مخزوم خمسة نفر، وهم

١ – أبو سلمة بن عبد الأسد واسمه عبد الله بن عبد الأسد.

٢ – شماس بن عثمان بن الشريد.

٣ – الأرقم بن أبي الأرقم، واسمه (عبد مناف بن أسد).

٤ – عمار بن ياسر.

٥ – معتَّب بن عوف بن عامر الخزاعي (حليف لهم).

٦ – ومن بني عدى بن كعب (قبيلة عمر بن الخطاب) أربعة عشر رجلا وهم:

١ – عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزي.

٢ – مهجع العكي (مولى عمر بن الخطاب).

٣ – عمرو بن سراقة بن المعتمر.

٤ – عبد الله بن سراقة.

٥ – واقد بن عبد الله بن مناف اليربوعى (حليف لهم).

٦ – خولى بن أبي خولى حليف لهم.

٧ – مالك بن أبي خولى حليف لهم.

٨ – عامر بن البكير بن عبد ياليل (حليف لهم).

١٠ – عاقل بن البكير.

١١ – خالد بن البكير.

١٢ – إياس بن البكير.

١٣ – زيد بن الخطاب (أخو عمر بن الخطاب).

١٤ – سعيد بن زياد بن عمرو بن نفيل. كان غائبًا في الشام فلما قدم ضرب له

رسول الله ﷺ بسهم، وعده مثل البدريين في الأجر، فصار بدريًا.

ل – ومن بني جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب خمسة رجال:

١ – عثمان بن مظعون.

٢ – السائب بن عثمان بن مظعون.

٣ – قدامة بن مظعون.

٤ – عبد الله بن مظعون.

٥ – معمر بن الحارث بن معمر.

م– ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص، رجل واحد:

١ – لم يذكر ابن إسحاق اسمه.

ن– ومن بني عامر بن لؤيّ سبعة رجال، وهم:

١ – أبو سبرة بن أبي رهم بن عبد العزي.

٢ – عبد الله بن مخرمة بن عبد العزي.

٣ – عبد الله بن سهيل بن عمرو.

٤ – عمير بن عوف (مولى سهيل بن عمرو).

٥ – سعد بن خولة (حليف لهم).

٦ – وهب بن سعد بن أبي سرح.

٧ – حاطب بن عمرو.

س– ومن بني الحارث بن فهم ستة رجال، وهم:

١ – عامر بن عبد الله بن الجراح المشهور (بأبي عبيدة بن الجراح).

٢ – عمرو بن الحارث بن زهير.

٣ – سهيل بن وهب بن ربيعة.

٤ – صفوان بن وهب بن ربيعة.

٥ – عمرو بن أبي سرح بن ربيعة.

٦ – عياض بن زهير

فهؤلاء البدريون من المهاجرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، منهم ثلاثة لم يباشروا القتال فصاروا في عداد البدريين لهم أجرهم عند الله مثلهم وأخذوا حصتهم في الغنائم، وهم (عثمان بن عفان) و (طلحة بن عبيد الله) و (سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل).

أسماء البدريين من الأنصار:

أ– من بني عبد الأشهل (بطن من الأوس) خمسة عشر رجلا، وهم:

١ – سعد بن معاذ.

٢ – الحارث بن أوس بن معاذ.

٣ – الحارث بن أنس بن رافع.

٤ – سعد بن زيد بن مالك.

٥ – سلمة بن سلامة بن وقش.

٦ – عباد بن بشر بن وقش.

٧ – مسلمة بن ثابت بن وقش.

٨ – رافع بن يزيد بن كرز.

٩ – الحارث بن خزانة بن عدي.

١٠ – محمد بن مسلمة.

١١ – سلمة بن أسلم بن حريش (حليف لهم من بني الحارث).

١٢ – أبو الهيثم بن التيهان.

١٣ – عبيد بن التيهان.

١٤ – عمرو بن معاذ بن النعمان.

١٥ – عبد الله بن سهل.

ب– ومن بني ظفر (بطن من الأوس) رجلان، وهما

١ – قتادة بن النعمان بن زيد.

٢ – عبيد بن أوس بن مالك.

ج– ومن بني عباد بن رزاح (بطن من الأوس) ثلاثة رجال وهم:

١ – نصر بن الحارث بن عبد.

٢ – معتب بن عبد.

٣ – عبد الله بن طارق البلوي (حليف لهم).

د– ومن بني حارثة بن الحارث (بطن من الأوس) ثلاثة نفر، وهم:

١ – مسعود بن سعد بن عامر.

٢ – أبو عبس بن جبر.

٣ – هاني بن نيار البلوي (حليف لهم).

هـ – ومن بني عمرو بن عوف (بطن من الأوس) ستة نفر، وهم:

١ – عاصم بن ثابت بن قيس.

٢ – قيس أبو الأقلح بن عصمة.

٣ – معتِّب بن قشير.

٤ – أبو مليل بن الأزعر.

٥ – عمرو بن معبد الأزعر.

٦ – سهل بن حنيف.

و– ومن بني أمية بن زيد (بطن من الأوس) تسعة نفر، وهم:

١ – مبشر بن عبد المنذر بن زنبر

٢ – رفاعة بن عبد المنذر بن زنبر.

٣ – سعد بن عبيد بن النعمان.

٤ – عويم بن ساعدة.

٥ – رافع بن عنجدة.

٦ – عبيد بن أبي عبيد.

٧ – ثعلبة بن حاطب.

٨ – الحارث بن حاطب، رجع من الطريق بأمر رسول الله ﷺ فضرب له بسهم وعده من البدريين في الأجر.

٩ – أبو لبابة.

ز– ومن بني عبيد بن زيد (بطن من الأوس) سبعة نفر، وهم.

١ – أنيس بن قتادة بن ربيعة.

٢ – معن بن عدي بن الجد البلوي (حليف لهم).

٣ – عبد الله بن سلمة العجلاني (حليف لهم).

٤ – زيد بن أسلم بن ثعلبة العجلاني (حليف لهم).

٥ – ربعي بن رافع بن زيد العجلاني (حليف لهم).

٦ – عاصم بن عدي بن الجد العجلاني (حليف لهم) خرج مع المسلمين إلى بدر فرده رسول الله ﷺ وضرب له بسهم مع أصحاب بدر، فعد في البدريين.

٧ – ثابت بن أقوم بن ثعلبة العجلاني (حليف لهم).

ح – ومن بني ثعلبة بن عمر بن عوف (بطن من الأوس)، سبعة نفر، وهم:

١ – عبد الله بن جبير بن النعمان.

٢ – عاصم بن قيس بن ثابت

٣ – أبو ضياح بن ثابت بن النعمان.

٤ – أبو حنة (ويقال) أبو حبة بن ثابت بن النعمان.

٥ – سالم بن عمير بن ثابت.

٦ – الحارث بن النعمان بن أُمية.

٧ – خوات بن جبير بن النعمان.

ط- ومن بني جحجبي بن كلفة بن عوف (بطن من الأوس) رجلان. وهما:

١ - منذر بن محمد بن عقبة.

٢ - أبو عقيل بن عبد الله بن ثعلبة، من بني أنيف (حليف لهم).

ى - ومن بني غنم بن السلم (بطن من الأوس) خمسة نفر، وهم:

١ - سعد بن خيثمة.

٢ - منذر بن قدامة بن عرفجة.

٣ - مالك بن قدامة بن عرفجة.

٤ - الحارث بن عرفجة.

٥ - تميم (مولى لهم).

ك - ومن بني معاوية بن مالك بن عوف (بطن من الأوس) ثلاثة نفر. وهم:

١ - جبر بن عتيك بن الحارث.

٢ - مالك بن نميلة (حليف لهم من مزينة).

٣ - النعمان بن عصر (حليف لهم) من قبيلة بلى (بفتح أوله وكسر ثانيه).

فهؤلاء هم البدريون من الأنصار من قبيلة الأوس خاصة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، وهم واحد وستون محاربًا.

أسماء البدريين من الخزرج:

أ- من بني امرئ القيس بن مالك، أربعة نفر، وهم:

١ - خارجة بن زيد.

٢ - سعد بن الربيع.

٣ - عبد الله بن رواحة.

٤ - خلاد بن سويد بن ثعلبة.

ب - ومن بني زيد بن مالك رجلان، وهما:

١ - بشير بن سعد بن ثعلبة.

٢ – سماك بن سعد بن ثعلبة.

ج – ومن بني عدي بن كعب بن الخزرج ثلاثة نفر، وهم:

١ – سبيع بن قيس بن عيشة.

٢ – عباد بن قيس بن عيشة.

٣ – عبد الله بن عبس.

د– ومن بني أحمر بن حارثة بن ثعلبة رجل واحد، وهو:

١ – يزيد بن الحارث بن قيس.

هـ – ومن بني جشم بن الحارث بن الخزرج أربعة نفر، وهم:

١ – خبيب بن أساف بن عتبة.

٢ – عبد الله بن زيد بن ثعلبة.

٣ – حريث بن زيد بن ثعلبة.

٤ – سفيان بن بشر.

و– ومن بني جدارة بن عوف بن الحارث أربعة نفر، وهم:

١ – تميم بن يعار بن قيس

٢ – عبد الله بن عمير.

٣ – زيد بن المزين بن قيس.

٤ – عبد الله بن عرفطة بن عدي.

ز – ومن بني الأبجر (وهم بنو خدرة) رجل واحد وهو:

١ – عبد الله بن ربيع بن قيس.

ح – ومن بني عوف بن الخزرج ثم من بني عبيد رجلان، وهما:

١ – عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وكان رجلًا صالحًا.

٢ – أوس بن خولي بن عبد الله بن الحارث.

ح – ومن بني جزء بن عدي بن مالك ستة نفر، وهم:

١ – زيد بن وديعة بن عمرو. حليف لهم من غطفان.

٢ – عامر بن سلمة بن عامر. حليف لهم من أهل اليمن.

٣ – أبو حميضة، معبد بن عباد، ويقال ابن عبادة بن قشير.

٤ – عامر بن البكير. حليف لهم.

٥ – عقبة بن وهب بن كلدة، حليف لهم من غطفان.

٦ – رفاعة بن عمرو بن زيد، حليف لهم.

ط – ومن بني سالم بن عوف، رجل واحد، وهو:

١ – نوفل بن عبد الله بن نضلة.

ي – ومن بني أصرم بن فهر بن ثعلبة رجلان، وهما

١ – عبادة بن الصامت.

٢– أوس بن الصامت.

ك – ومن بني دعد بن فهر بن ثعلبة، رجل واحد، وهو:

١ – النعمان بن مالك بن ثعلبة.

ل– ومن بني لوذان بن سالم عشرة نفر:

١ – ثابت بن هزال.

٢ – مالك بن الدخشم بن مرضخة (وهو من بني مرضخة).

٣ – ربيع بن إياس بن عمرو بن غنم.

٤ – ورقة بن إياس.

٥ – عمرو بن إياس (حليف لهم) من أهل اليمن.

٦ – المجذر بن زياد البلوى حليف لهم.

٧ – عبادة بن الخشخاش بن عمرو.

٨ – نحاب، ويقال له، (بحاث) بن ثعلبة بن حزمة.

٩ – عبد الله بن ثعلبة بن حزمة.

١٠ – عتبة بن ربيعة بن خالد بن معاوية (حليف لهم).

م – ومن بني ساعدة بن كعب بن الخزرج رجلان، وهما:

١ – أبو دجانة (سماك بن أوس بن خرشة).

٢ – المنذر بن عمرو بن خنيس. ويقال: المنذر بن عمرو بن خنبش.

ن – ومن بني البدى بن عامر بن عوف رجلان، وهما:

١ – أبو أسيد بن ربيعة بن البدى.

٢ – مالك بن مسعود بن البدى

س – ومن بني طريف بن الخزرج ستة نفر:

١ – عبد ربه بن حق بن أوس.

٢ – كعب بن حمار (ويقال بن جماز بن ثعلبة الغبشاني الجهني)، حليف لهم.

٣ – ضمرة بن عمرو (ويقال ابن بشر الجهني)، حليف لهم.

٤ – زياد بن عمرو (ويقال أيضًا ابن بشر) الجهني، حليف لهم.

٥ – بسبس بن عمرو الجهني، حليف لهم.

٦ – عبد الله بن عامر البلوى، حليف لهم.

ع – ومن بني جشم بن الخزرج إثنا عشر رجلا، وهم:

١ – خراش بن الصمة بن عمرو.

٢ – الحباب بن المنذر.

٣ – عمير بن الحمام.

٤ – تميم (مولى خراش بن الصمة).

٥ – عبد الله بن عمرو بن حرام.

٦ – معاذ بن عمرو بن الجموح.

٧ – خلاد بن عمرو بن الجموح.

٨ – عقبة بن عامر بن نابي.

٩ – حبيب بن أسود (مولى لهم).

١٠ – ثابت بن ثعلبة بن زيد.

١١ – معوذ بن عمرو بن الجموح.

١٢ – عمير بن الحارث بن ثعلبة.

ف – ومن بني عبيد بن عدي بن غنم بن كعب تسعة نفر، وهم:

١ – بشر بن البراء بن معرور بن صخر.

٢ – الطفيل بن مالك بن خنساء.

٣ – سنان بن صيفى بن خنساء.

٤ – عبد الله بن الجد بن قيس بن صخر بن خنساء.

٥ – عتبة بن عبد الله بن صخر بن خنساء.

٦ – خارجة بن حمير الأشجعي، حليف لهم.

٧ – عبد الله بن حمير، حليف لهم.

٨ – الطفيل بن النعمان بن خنساء.

ص – ومن بني خناس بن سنان بن عبيد سبعة نفر، وهم:

١ – يزيد بن المنذر بن سرح بن خناس.

٢ – معقل بن النفر بن خناس.

٣ – عبد الله بن النعمان بن بلدمة.

٤ – الضحاك بن حارثة بن زيد.

٥ – سواد بن زريق بن ثعلبة.

٦ – معبد بن قيس بن صخر بن حرام.

٧ – عبد الله بن قيس بن صخر بن حرام.

أ- ومن بني النعمان بن عبيد أربعة نفر، وهم:

١ - عبد الله بن عبد مناف بن النعمان.

٢ - جابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان.

٣ - خليدة بن قيس بن النعمان.

٤ - النعمان بن سنان (مولى لهم)

ب - ومن بني سواد بن غنم بن كعب بن سلمة أربعة نفر، وهم:

١ - يزيد بن حديدة.

٢ - سليم بن عمرو بن حديدة.

٣ - قطبة بن عمرو بن حديدة.

٤ - عنترة (مولى سليم بن عمرو).

ج - ومن بني عدى بن نأبي بن عمرو بن سواد بن غنم ستة نفر، وهم:

١ - عبس بن عامر بن عدي.

٢ - ثعلبة بن غنمة بن عدي.

٤ - سهل بن قيس بن أبي كعب.

٥ - عمرو بن طلق بن زيد بن أُمية.

٦ - معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس.

د - ومن بني زريق بن عامر بن زريق سبعة نفر وهم:

١ - قيس بن محصن بن خالد.

٢ - أبو خالد (الحارث بن قيس بن خالد).

٣ - جبير بن إياس بن خالد.

٤ - أبو عبادة (سعد بن عثمان بن خلدة).

٥ - ذكوان بن عبد قيس بن خلدة.

٦ – عقبة بن عثمان بن خلدة.

٧ – مسعود بن خلدة بن عامر.

هـ – ومن بني خالد بن عامر بن زريق رجل واحد، وهو:

١ – عباد بن قيس بن عامر بن خالد.

و– ومن بني خلدة بن عامر بن زريق خمسة نفر:

١ – أسعد بن يزيد بن الفاكهة

٢ – الفاكه بن بشر بن الفاكه.

٣ – معاذ بن ماعص بن قيس.

٤ – عائذ بن ماعص بن قيس.

٥ – مسعود بن سعد بن قيس.

ز – ومن بني العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق ستة نفر، وهم:

١ – رفاعة بن رافع بني العجلان.

٢ – خلاد بن رافع بن مالك.

٣ – عبيد بن زيد بن عامر.

٤ – عبيد بن مالك بن عمرو.

٥ – مليل بن وبرة بن خالد.

٦ – عصمة بن الحصين بن وبرة.

ح – ومن بني بياضة بن عامر بن زريق ستة نفر، وهم:

١ – زياد بن لبيد بن عامر.

٢ – فررة بن عمرو بن وذفة.

٣ – خالد بن قيس بن مالك.

٤ – رجيلة بن ثعلبة بن خالد.

٥ – عطية بن نويرة بن عامر.

٦ – خليفة بن عدي بن عمرو. ويقال عليفة.

ط – ومن بني حبيب بن عبد حارثة رجلان، وهما:

١ – رافع بن المعلى بن لوذان.

٢ – هلال بن المعلى بن لوذان.

ي – ومن بني النجار (وهو تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج) ثلاثة وخمسون رجلًا وهم:

١ – خالد بن زيد بن كليب.

٢ – ثابت بن خالد بن النعمان.

٣ – عمارة بن حزم بن زيد.

٤ – سراقة بن كعب بن عبد العزى.

٥ – حارثة بن النعمان بن زيد.

٦ – سليم بن قيس بن فهد.

٧ – سهيل بن رافع بن أبي عمرو.

٨ – عدي بن الزغباء (حليف لهم) من جهينة.

٩ – مسعود بن أوس بن زيد.

١٠ – أبو خزيمة بن أوس بن زيد.

١١ – رافع بن الحارث بن سواد.

١٢ – عوف بن الحارث بن رفاعة.

١٣ – معوذ بن الحارث بن رفاعة.

١٤ – معاذ بن الحارث بن رفاعة، (وهؤلاء الثلاثة هم بنو عفراء).

١٥ – النعمان بن عمرو بن رفاعة، ويقال (نعمان).

١٦ – عامر بن مخلد بن الحارث.

١٧ – عبد الله بن قيس بن خالد.

١٨ – عصيمة (حليف لهم من أشجع).

١٩ – وديعة بن عمرو (حليف لهم من جهينة).

٢٠ – ثابت بن عمرو بن زيد.

٢١ – ثعلبة بن عمرو بن محصن.

٢٢ – سهل بن عتيك بن عمرو

٢٣ – الحارث بن الصمة بن عمرو. ويقول ابن إسحاق أنه أصابه كسر وهو بالروحاء، فضرب له النبي ﷺ بسهمه فصار بدريًا.

٢٤ – أُبي بن كعب بن قيس.

٢٥ – أنس بن معاذ بن أنس.

٢٦ – أوس بن ثابت بن المنذر.

٢٧ – أبو شيخ (أبي بن ثابت بن المنذر أخو حسان بن ثابت).

٢٨ – أبو طلحة (زيد بن سهل بن الأسود).

٢٩ – حارثة بن سراقة بن الحارث.

٣٠ – عمرو بن ثعلبة بن وهب.

٣١ – سليط بن قيس بن عمرو بن عتيك.

٣٣ – أَبو زيد قيس بن سكن.

٣٤ – أبو خارجة عمرو بن قيس بن مالك.

٣٥ – ثابت بن خنساء بن عمرو.

٣٦ – عامر بن أُمية بن زيد.

٣٧ – محرز بن عامر بن مالك.

٣٨ – سواد بن غزية بن أهيب البلوى (حليف لهم).

٣٩ – الحارث بن ظالم بن عباس (أبو الأعور)، ويقال أبو الأعور بن الحارث.

٣٩ – سليم بن ملحان بن خالد بن زيد

٤١ – حرام بن ملحان بن خالد.

٤٢ – قيس بن أبي صعصعة.

٤٣ – عبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف.

٤٤ – عصيمة (حليف لهم من بني أسيد بن خزيمة).

٤٥ – عمير بن عامر بن مالك.

٤٦ – سراقة بن عمرو بن عطية.

٤٧ – قيس بن مخلد بن ثعلبة.

٤٨ – النعمان بن عبد عمرو بن مسعود.

٤٩ – الضحاك بن عبد عمرور بن مسعود.

٥٠ – سليم بن الحارث بن ثعلبة.

٥١ – جابر بن سهيل بن عبد الأشهل.

٥٢ – سعد بن سهيل بن عبد الأشهل.

٥٣ – كعب بن زيد بن قيس.

٥٤ – بجير بن أبي بجير (حليف لهم من غطفان) [١].

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى (١/١٨٩ – ٢٠٨).

(ملخص معركة بدر الكبرى الفاصلة)

١- اسم المعركة : بدر الكبرى.

٢- مكان المعركة : «تقع بدر جنوب غرب المدينة، والمسافة بينها وبين المدينة - بطرق القوافل التي سلكها الرسول ﷺ حوالي ١٦٠ ميلًا. كما أَن بدرًا تقع شمالي مكة، والمسافة بينها وبين مكة - بطرق القوافل القديمة التي سلكها المشركون - حوالي ٢٥٠ ميلًا. أَما المسافة اليوم بين مكة وبدر - بطرق السيارات - فهي ٣٤٣ كيلو مترًا، والمسافة بين المدينة وبدر بهذا الطريق فهي ١٥٣ كيلو مترًا. أَما المسافة بين بدر وساحل البحر الأَحمر الواقع غربيها فهي حوالي ثلاثين كيلو مترًا» [١]

٣- تاريخ المعركة: يوم الجمعة، السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة.

٤- الفريقان المتقاتلان :

١- المسلمون : بقيادة رسول الله ﷺ.

٢- مشركوا قريش: بقيادة أبي جهل بن هشام لعنه الله.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما:

١- المسلمون:

* عددهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا (٣١٩)، «كَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَوْمَ بَدْرٍ نَيِّفًا عَلَى سِتِّينَ ، وَالْأَنْصَارُ نَيِّفًا وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ»وأكثر الأنصار من الخزرج. ولم يكن معهم إلا فرسان، فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان معهم سبعون بعيرًا يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد.

١- ظلت القيادة العامة في يده ﷺ.

٢- ودفع ﷺ لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشي العبدري

---

(١) «موسوعة الغزوات الكبرى» (١/ ٢٥).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وكان هذا اللواء أبيض.

٣- وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

٤- وعلى الميسرة المقداد بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكانا هما الفارسين الوحيدين في الجيش كما أسلفنا.

٥- وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* **الترتيب:** قدم رسول الله الرماة ﷺ وهم على ترتيبهم الأول، فلما هجم المشركون رشقهم المسلمون بالنبل، ثم قال قوموا إلى جنة.. فحصل الهجوم المضاد.

ثانيًا المشركون:

* **كان** قوام هذا الجيش مابين التسعمائة إلى الألف
* **وكان** معه مائة فرس وستمائة درع، وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط.
* **وكان** قائده العام أبا جهل بنَ هشام.
* **وكان** القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش، فكانوا ينحرون يومًا تسعًا ويومًا عشرًا من الإبل.
* **الترتيب:** عبأوا جيشهم حسب نظام الصفوف.

٦- سبب المعركة : سببها أن قافلة تجارية لقريش، كانت قادمة من «الشام» إلى «مكة»، فأمر النبى - ﷺ - أصحابه بالتعرض لها والاستيلاء عليها؛ تعويضًا لهم عن أموالهم التى استولت «قريش» عليها في «مكة»، وهذا حق وعدل، ولم يكن في وسع الرسول - ﷺ - أن يترك «قريشًا» حرة طليقة، تجوب الطرق، وتتجر وتربح، وتعيش آمنة مطمئنة، وهى التى آذته وعذبت أصحابه، وتآمرت على حياته، وأرادت قتله، فلابد من التضييق عليها، وتهديدها في تجارتها التى هى رزقها ومصدر قوتها؛ لتراجع نفسها، وتقتنع بأن مواصلة العداء معه ليس في مصلحتها،

ولم يقصد الرسول ﷺ بهذا التصرف إهلاك «قريش» وتدميرها، لأنه جاء لإحيائهم وإسعادهم. ثم إن مال الكافر الحربي لا حرمة له لا سيما بعد إيذانه بالحرب وعندما وصل النبى ﷺ بجيشه إلى المكان الذى دارت فيه المعركة علم أن القافلة أفلتت ونجت، وقبل أن يفلت أبو سفيان بقافلته أرسل سريعًا إلى «قريش» يستنفرها للخروج لاستنقاذ أموالها التى توشك أن تقع في أيدى المسلمين فخرجت في نحو ألف رجل للقتال، وأصروا على ذلك حتى بعد أن علموا بنجاة قافلة «أبي سفيان»،وعلى رأسهم أبو جهل على إشعال نار الحرب فهزمهم الله تعالى[١].

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١ - انتصر المسلمون وقتل من المشركين سبعون وأسر سبعون.

٢ - نحو خمسة وعشرين من قتلى المشركين من سادات وشرفاء مكة وهذا يندر أن يوجد في المعارك.

٣- أسلم أكثر أهل المدينة وأظهر المنافقون إسلامهم خوفًا على أنفسهم.

٤-شفى الله صدور المؤمنين ممن عذبهم وشردهم من مشركي قريش فكل قد لقي من سيد قبيلته ما لقي فجعلهم الله تعالى يوم بدر حطب المعركة.

٥ - خضعت اليهود وخافت من دولة الإسلام وعاهدوا فمن التزم منهم العهد الذي بينه وبين النبي ﷺ لم يتعرض له المسلمون ومن نكث فإنما أضرّ بنفسه وذلك ما حصل لبني قينقاع وكعب بن الأشرف وغيرهم ممن خانوا الله ورسوله ﷺ.

٦ - وصلت هيبة المسلمين إلى الكفار ومنهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة يتحينون الفرصة للانقضاض على المسلمين.

٧- تعلم الصحابة من الأسارى الكتابة واستفادوا من آخرين الفداء.

---

(١) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (١/ ٣٨) بتصرف.

٨- تعلم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من سورة الأنفال التي شرحت المعركة ومن معركة بدر دروسًا عظيمة كانت سببًا لثباتهم ما بقوا، بل الإيمان بذلك سبب لثبات من قرأها بعدهم ، وفي سورة الأنفال قواعد وفوائد وأسس يمضي عليها المجاهد في سبيل الله تعالى ؛ فلا تغفل عنها فعليك تأملها وقراءة تفسيرها.

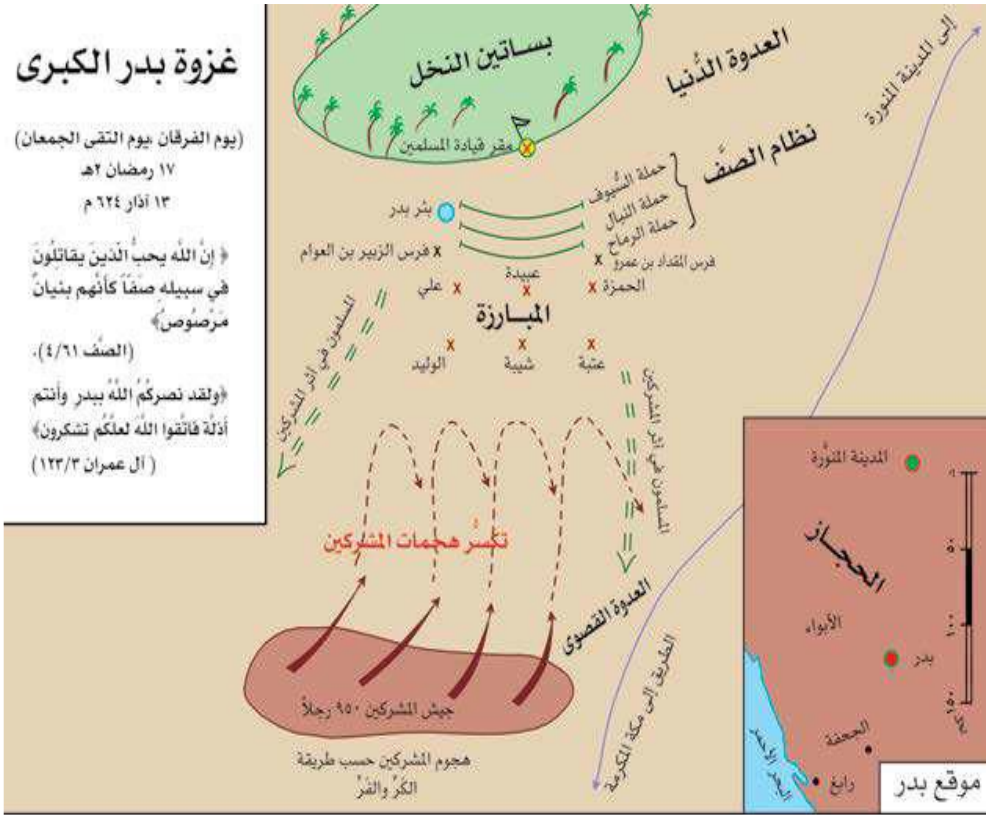
٩- سقطت هيبة كثرة المشركين من قلوب الصحابة بعد بدر قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأنفال:١٠].

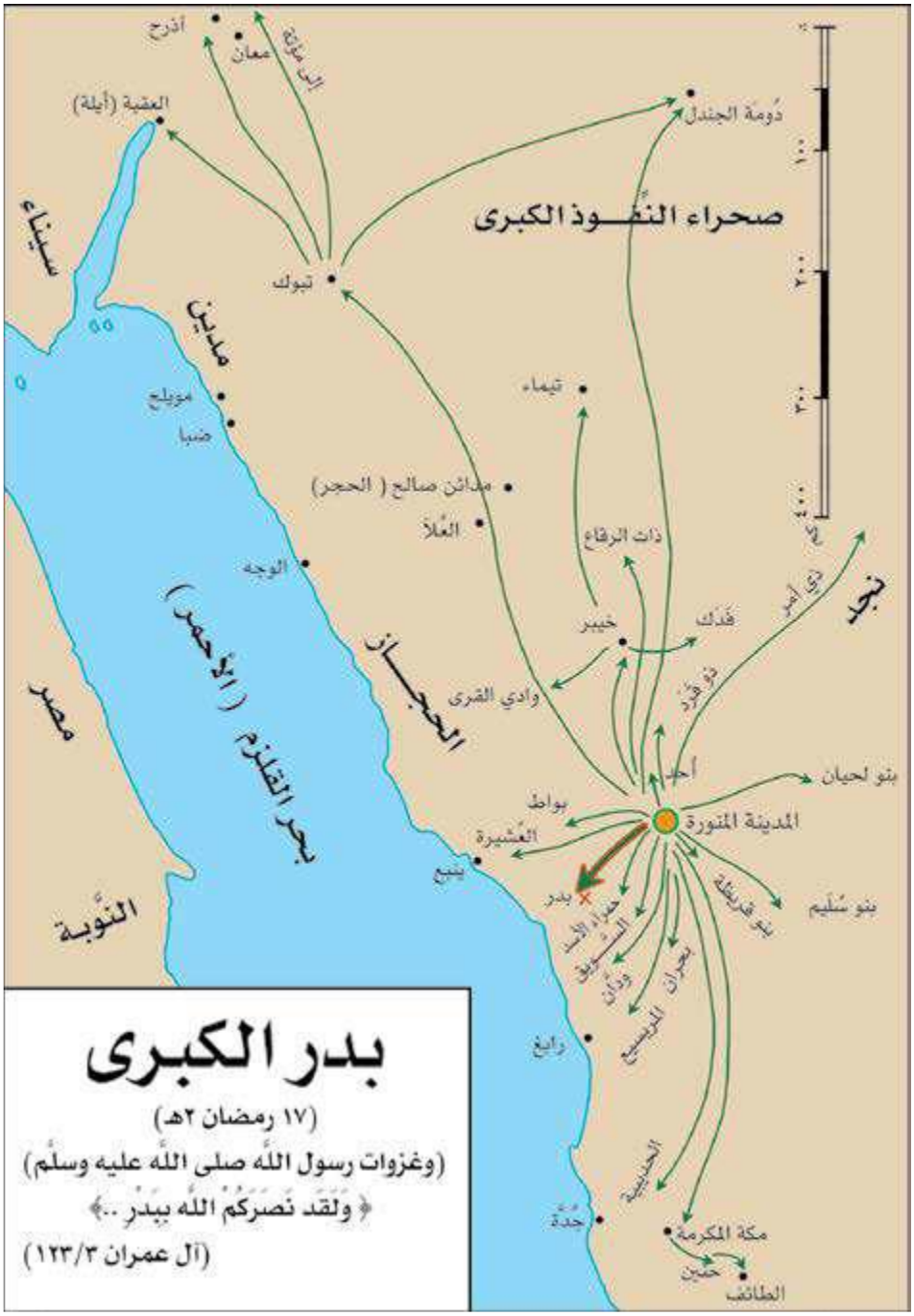
١٠- رزق الله المسلمين من هذه المعركة غنائم كثيرة.

١١- كانت هذه الغزوة بداية ظهور قوة دولة الإسلام ، ومعرفة قيمة أهله ؛ فإن الجهاد سبب العز والتمكين والظهور بالحق.

١٢- تقدم ذكر بعض الفوائد لخصها صاحب الرحيق فراجعها.

٨- خريطة: موقعة بدر من الصحيح المصفى للشيخ سليم وفقه الله:




أذرح
معان
إلى مؤتة
العقبة (أيلة)
دُومة الجندل
صحراء النفـــوذ الكبرى
سيناء
تبوك
مدين
مويلح
ضبا
تيماء
مدائن صالح (الحجر)
العُلاَ
ذات الرقاع
الوجه
خيبر
فَدَك
ذي أمر
نجد
وادي القرى
الحجـــاز
ذو قَرَد
بحر القلزم (الأحمر)
مصر
أحد
بنو لحيان
المدينة المنورة
بواط
العُشيرة
ينبع
بدر
بنو سُلَيم
بنو قريظة
النوبة
الصفراء
السُّويق
وداّن
بحران
الرَّبيع
رابغ
الحديبية
جُدَّة
مكة المكرمة
حُنين
الطائف
بدر الكبرى
(١٧ رمضان ٢هـ)
(وغزوات رسول الله صلى الله عليه وسلَّم)
﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ..﴾
(آل عمران ١٢٣/٣)



المعركة الثانية من معارك الإسلام الفاصلة: معركة أحد

استعداد قريش لمعركة ناقمة:

كانت مكة تحترق غيظًا على المسلمين مما أصابها في معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر، حتى إن قريشًا كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم في بدر، ومنعوا من الاستعجال في فداء الأسارى؛ حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم. وعلى إثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين، تشفي غيظها، وتروي غلة حقدها، وأخذت في الاستعداد للخوض في مثل هذه المعركة.

المحرّضون:

وكان عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب، وعبد الله بن أبي ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطًا وتحمسًا لخوض المعركة.

تمويل الحرب:

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التي كان قد نجا بها أبو سفيان والتي كانت سببًا لمعركة بدر، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم: يا معشر قريش، إن محمدًا قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثأرا، فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينار، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الأنفال:٣٦].

التعبئة العامة:

ثم فتحوا باب التطوع لكل من أحب المساهمة في غزو المسلمين من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة، وأخذوا لذلك أنواعا من طريق التحريض، حتى إن صفوان بن أمية أغرى أبا عزة الشاعر- الذي كان قد أسر في بدر فمنّ عليه رسول الله ﷺ ، وأطلق سراحه بغير فدية، وأخذ منه العهد بأن لا يقوم ضده- أغراه على أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسلمين، وعاهده أنه إن رجع عن الغزوة حيًا يغنيه، وإلا يكفل بناته، فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التي كانت تذكي حفائظهم، كما اختاروا شاعرًا آخر- مسافع بن عبد مناف الجمحي- لنفس المهمة. وكان أبو سفيان أشد تأليبًا على المسلمين بعد ما رجع عن غزوة السويق خائبا لم ينل ما في نفسه، بل أضاع مقدارا كبيرا من تمويناته في هذه الغزوة. وزاد الطينة بلة- أو زاد النار إذكاء، إن صح هذا التعبير- ما أصاب قريشًا أخيرًا في سرية زيد بن حارثة من الخسارة الفادحة التي قصمت فقار اقتصادها، وزودها من الحزن والهم ما لا يقادر قدره،[1] وحينئذ زادت سرعة قريش في استعدادها للخوض في معركة تفصل بينهم وبين المسلمين.

قوام جيش قريش وقيادته:

ولما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتها، واجتمع إليها من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحابيش، ورأى قادة قريش أن

---

(١) تسمى (سرية القَردة) كانت في مستهل جمادى الأولى- ٣ هـ بعد بدر قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَسَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ الَّتِي بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا، حَيْنَ أَصَابَ عِيرَ قُرَيْشٍ، وَفِيهَا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، عَلَى الْقَرَدَةِ، مَاءٌ مِنْ مِيَاهِ نَجْدٍ. وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهَا: أَنَّ قُرَيْشًا خَافُوا طَرِيقَهُمْ الَّذِي كَانُوا يَسْلُكُونَ إلَى الشَّأْمِ، حِينَ كَانَ مِنْ وَقْعَةِ بَدْرٍ مَا كَانَ، فَسَلَكُوا طَرِيقَ الْعِرَاقِ، فَخَرَجَ مِنْهُمْ تُجَّارٌ، فِيهِمْ: أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَمَعَهُ فِضَّةٌ كَثِيرَةٌ، وَهِيَ عُظْمُ تِجَارَتِهِمْ، وَاسْتَأْجَرُوا رَجُلًا مِنْ بَنِي بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ، يُقَالُ لَهُ: فُرَاتُ بْنُ حَيَّانَ يَدُلُّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ. فَلَقِيَهُمْ زيد عَلَى ذَلِكَ الْمَاءِ، فَأَصَابَ تِلْكَ الْعِيرَ وَمَا فِيهَا، وَأَعْجَزَهُ الرِّجَالُ، فَقَدِمَ بِهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. سيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٥٠)

يستصحبوا معهم النساء، حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة. وكان سلاح النقليات في هذا الجيش ثلاثة آلاف بعير، ومن سلاح الفرسان مائتا فرس[١] جنبوها طوال الطريق، وكان من سلاح الوقاية سبعمائة درع. وكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان بن حرب، وقيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد، يعاونه عكرمة بن أبي جهل، أما اللواء فكان إلى بني عبد الدار.

جيش مكة يتحرك:

تحرك الجيش المكي بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة، وكانت الثارات القديمة والغيظ الكامن يشعل البغضاء في القلوب، ويشف عما سوف يقع من قتال مرير.

الطلائع النبوية تكشف حركة العدو:

فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ تبادلوا الرأي.

استعداد المسلمين للطوارىء: وظلت المدينة في حالة استنفار عام، لا يفارق رجالها السلاح، حتى وهم في الصلاة، استعدادا للطوارىء. وقامت مفرزة من الأنصار فيهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة بحراسة رسول الله ﷺ ، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح.وقامت على مداخل المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها،خوفًا من أن يؤخذوا على غرة. وقامت دوريات من المسلمين لاكتشاف تحركات العدو- تتجول حول الطرق التي يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين.

الجيش المكي إلى أسوار المدينة: وتابع جيش مكة سيره على الطريق الغربية الرئيسية المعتادة، وواصل جيش مكة سيره حتى اقترب من المدينة، فسلك وادي العقيق ثم انحرف منه إلى ذات اليمين، حتى نزل قريبًا من جبل أحد في مكان يقال له عينين، في

(١) زاد المعاد (٢/ ٩٢)وهو المعروف، وفي فتح الباري مائة فرس (٧/ ٣٤٦).

بطن السبخة، من قناة على شفير الوادي- الذي يقع شمالي المدينة- فعسكر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة.

الشورى لأخذ خطة الدفاع:

ونقلت إلى المدينة أخبار جيش مكة خبرًا بعد خبر، حتى الخبر الأخير عن معسكره، وحينئذ استشار رسول الله ﷺ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وتبادل فيه الرأي معهم لاختيار الموقف، وأخبرهم عن رؤيا رآها، قال: **«رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ وَرَأَيْتُ بَقَرًا يُنْحَرُ، فَأَوَّلْتُ أَنَّ الدِّرْعَ الْمَدِينَةُ، وَأَنَّ الْبَقَرَ نَفَرٌ وَاللهِ خَيْرٌ، وَلَوْ أَقَمْنَا بِالْمَدِينَةِ، فَإِنْ دَخَلُوا عَلَيْنَا قَاتَلْنَاهُمْ»**. فَقَالُوا: وَاللهِ مَا دُخِلَتْ عَلَيْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَفَتُدْخَلُ عَلَيْنَا فِي الْإِسْلَامِ؟ **قَالَ: «فَشَأْنُكُمْ إِذًا»**، وَقَالَتِ الْأَنْصَارُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ: رَدَدْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَأْيَهُ، فَجَاؤُوا فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، شَأْنُكَ، فَقَالَ: **«الْآنَ؟ إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ»**[1]. قدم ﷺ رأيه إلى صحابته أن لا يخرجوا من المدينة، وأن يتحصنوا بها، فإن أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بشر مقام وبغير جدوى، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، وكان هذا هو الرأي. ووافقه على هذا الرأي عبد الله بن أبي بن سلول- رأس المنافقين- وكان قد حضر المجلس بصفته أحد زعماء الخزرج. وموافقته لهذا الرأي لم تكن لأجل أن هذا هو الموقف الصحيح من حيث الوجهة العسكرية، بل ليتمكن من التباعد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد، وشاء الله

---

(١) **حسن**: أخرجه الدارمي في "مسنده"(٢٢٠٥) وأحمد في "مسنده" (١٥٠١٥) والبيهقي (٧٦١٩) عن جابر، وصححه الألباني في الصحيحة (١١٠٠).
وذكر الدرع جاء عن ابن عباس عند الحاكم في "مستدركه" (٢٦٠٣) وغيره، وهو **حسن لغيره**.
وفي البخاري (٤٠٨١) ومسلم (٢٢٧٢): عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«رَأَيْتُ فِي رُؤْيَايَ أَنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا فَانْقَطَعَ صَدْرُهُ، فَإِذَا هُوَ مَا أُصِيبَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، ثُمَّ هَزَزْتُهُ أُخْرَى فَعَادَ أَحْسَنَ مَا كَانَ، فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ بِهِ اللهُ مِنَ الْفَتْحِ وَاجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَأَيْتُ فِيهَا بَقَرًا، وَاللهُ خَيْرٌ، فَإِذَا هُمُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ أُحُدٍ»**.

أن يفتضح هو وأصحابه- لأول مرة- أمام المسلمين، وينكشف عنهم الغطاء الذي كان كفرهم ونفاقهم يكمن وراءه، ويتعرف المسلمون في أحرج ساعتهم على الأفاعي التي كانت تتحرك تحت ملابسهم وأكمامهم. فقد بادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر، فأشاروا على النبي ﷺ بالخروج، وألحوا عليه في ذلك، حتى قال قائلهم: يا رسول الله، كنا نتمنى هذا اليوم وندعوا الله، فقد ساقه إلينا وقرب المسير، اخرج إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنّا عنهم. وكان في مقدمة هؤلاء حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ الذي كان قد أروى فرند سيفه في معركة بدر ، واستقر الرأي على الخروج من المدينة، واللقاء في الميدان السافر.

تكتيب الجيش الإسلامي وخروجه إلى ساحة القتال:

ثم صلى النبي ﷺ بالناس يوم الجمعة، فوعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ففرح الناس بذلك. ثم صلى بالناس العصر، وقد حشدوا وحضر أهل العوالي، ثم دخل بيته، ومعه صاحباه أبو بكر وعمر، فعمماه وألبساه، فتدجج بسلاحه، وظاهر بين درعين (أي لبس درعًا فوق درع) ، وتقلد السيف، ثم خرج على الناس.

قوام الجيش: وكان الجيش متألفًا من ألف مقاتل، فيهم مائة دارع وخمسون فارسًا[1] ، وقيل لم يكن من الفرسان أحد، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة، وأذن بالرحيل، فتحرك الجيش نحو الشمال، وخرج السعدان أمام النبي ﷺ يعدوان دارعين.

استعراض الجيش:

وعندما وصل إلى مقام يقال له «الشيخان» استعرض جيشه، فرد من استصغره

(١) قاله ابن القيم في الهدي (٢/ ٩٢) وقال ابن حجر: هو غلط بيّن. وقد جزم موسى بن عقبة بأنه لم يكن معهم في أحد شيء من الخيل. (فتح الباري ٧/ ٣٥٠) .

ولم يره مطيقًا للقتال، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب.

المبيت بين أحد والمدينة:

وفي هذا المكان أدركهم المساء، فصلى المغرب، ثم صلى العشاء، وبات هنالك، وانتخب خمسين رجلًا لحراسة المعسكر يتجولون حوله، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري، بطل سرية كعب بن الأشرف، وتولى ذكوان بن عبد قيس حراسة النبي ﷺ خاصة.

تمرد عبد الله بن أبي وأصحابه: وقبل طلوع الفجر بقليل أدلج، حتى إذا كان بالشوط صلى الفجر، وكان بمقربة جدًّا من العدو فقد كان يراهم ويرونه، وهناك تمرد عبد الله بن أبي المنافق، فانسحب بنحو ثلث العسكر- ثلاثمائة مقاتل- قائلًا: ما ندري علام نقتل أنفسنا؟ ومتظاهرًا بالاحتجاج بأن الرسول ﷺ ترك رأيه وأطاع غيره. ولا شك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ رأيه، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوي إلى هذا المكان معنى. بل لو كان هذا هو السبب لا نعزل عن الجيش منذ بداية سيره، بل كان هدفه الرئيسي من هذا التمرد- في ذلك الظرف الدقيق- أن يحدث البلبلة والاضطراب في جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم، حتى ينحاز عامة الجيش عن النبي ﷺ، وتنهار معنويات من يبقى معه، بينما يتشجع العدو، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر، فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبي ﷺ وأصحابه المخلصين، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه. وكاد المنافق ينجح في تحقيق بعض ما كان يهدف إليه، فقد همت طائفتان- بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج- أن تفشلا، ولكن الله تولاهما، فثبتتا بعد ما سرى فيهما الاضطراب وهمتا بالرجوع والانسحاب، وعنهما يقول الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

[سورة آل عمران:١٢٢].(١) وحاول عبد الله بن حرام- والد جابر بن عبد الله- تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم في هذا الظرف الدقيق، فتبعهم وهو يوبخهم ويحضهم على الرجوع، ويقول تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع. فرجع عنهم عبد الله بن حرام قائلًا: أبعدكم الله، أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه. وفي هؤلاء المنافقين يقول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [سورة آل عمران:١٦٧].

وعن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أُحُدٍ، رَجَعَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: نَقْتُلُهُمْ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: لَا نَقْتُلُهُمْ، فَنَزَلَتْ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۗ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾ [سورة النساء:٨٨]. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّهَا تَنْفِي الرِّجَالَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الْحَدِيدِ»**(٢).

بقية الجيش الإسلامي إلى أحد:

وبعد هذا التمرد والانسحاب قام النبي ﷺ ببقية الجيش- وهم سبعمائة مقاتل- ليواصل سيره نحو العدو، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أحد في مناطق كثيرة، فاختار طريقا قصيرًا إلى أحد يمر بحرة بني حارثة وبمزارعهم، تاركًا جيش المشركين إلى الغرب. ونفذ رسول الله ﷺ، حتى نزل الشعب من جبل أحد في عدوة الوادي، فعسكر بجيشه مستقبلًا المدينة، وجاعلًا ظهره إلى هضاب

(١) أخرجه البخاري (٤٠٥١) ومسلم (٢٥٠٥).
(٢) أخرجه البخاري (١٨٨٤)، ومسلم (٢٧٧٦).

جبل أحد، وعلى هذا صار جيش العدو فاصلًا بين المسلمين وبين المدينة.

خطة الدفاع:

قال الله تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٢١]. وهناك عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وهيأهم صفوفًا للقتال، فانتخب منهم فصيلة من الرماة الماهرين، قوامها خمسون مقاتلًا، وأعطى قيادتها لعبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري الأوسي البدري، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادي قناة- وعرف فيما بعد بجبل الرماة- جنوب شرق معسكر المسلمين، على بعد حوالي مائة وخمسين مترًا من مقر الجيش الإسلامي. والهدف من ذلك هو ما أبداه رسول الله ﷺ في كلماته التي ألقاها إلى هؤلاء الرماة فقد قال لقائدهم: « **لَا تَبْرَحُوا ، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا**». وفي رواية أنه قال: « **إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ ، فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ** »(١).ثم قال للرماة: « **احْمُوا ظُهُورَنَا ، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ فَلَا تَنْصُرُونَا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلَا تَشْرَكُونَا**»(٢).

وبتعيين هذه الفصيلة في الجبل مع هذه الأوامر العسكرية الشديدة سد رسول الله ﷺ الثلمة الوحيدة التي كان يمكن لفرسان المشركين أن يتسللوا من ورائها إلى صفوف المسلمين، ويقوموا بحركات الالتفاف وعملية التطويق. أما بقية الجيش :

١- فجعل على الميمنة المنذر بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- وجعل على الميسرة الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يسانده المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان إلى الزبير مهمة الصمود في وجه فرسان خالد بن الوليد.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٩) ، (٤٠٤٣) عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **حسن لغيره:** أخرجه أحمد(٢٦٥٢) وغيره عن ابن عباس. وفي السند عبد الرحمن بن أبي الزناد قال فيه ابن حجر : صدوق ، تغير حفظه لما قدم بغداد ، وكان فقيهًا.

٣- وجعل في مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة، والذين يوزنون بالآلاف.

٤- واللواء بيد مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولقد كانت خطة حكيمة ودقيقة جدًا، تتجلى فيها عبقرية قيادة النبي ﷺ العسكرية- وأنه لا يمكن لأي قائد مهما تقدمت كفاءته أن يضع خطة أدق وأحكم من هذا- فقد احتل أفضل موضع من ميدان المعركة، مع أنه نزل فيه بعد العدو، فقد حمى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل، وحمى ميسرته وظهره- حين يحتدم القتال- بسد الثلمة الوحيدة التي كانت توجد في جانب الجيش الإسلامي، واختار لمعسكره موضعًا مرتفعًا يحتمي به- إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين- ولا يلتجيء إلى الفرار، حتى يتعرض للوقوع في قبضة الأعداء المطاردين وأسرهم، ويلحق مع ذلك خسائر فادحة إلى أعدائه إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه، وألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جدًا أن يحصلوا على شيء من فوائد الفتح إن كانت الغلبة لهم، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين، كما أنه عوض النقص العددي في رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين. وهكذا تمت تعبئة الجيش النبوي صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣ هـ.

الرسول ﷺ ينفث روح البسالة في الجيش:

ونهى الرسول ﷺ الناس عن الأخذ في القتال حتى يأمرهم، وظاهر بين درعين، وحرض أصحابه على القتال، وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة في أصحابه، حتى جرد سيفًا باترًا ونادى أصحابه: فَقَالَ: « **مَنْ يَأْخُذُ مِنِّي هَذَا؟** » ؟ فَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: أَنَا أَنَا . قَالَ: «**فَمَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟**» فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ ، فَقَالَ سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ أَبُو دُجَانَةَ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا آخُذُهُ بِحَقِّهِ . فَأَخَذَهُ فَفَلَقَ بِهِ هَامَ الْمُشْرِكِينَ. (١) وكان أبو دجانة رجلًا شجاعًا يختال عند الحرب ، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت. فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة، وجعل يمشي بين الصفين.

تعبئة الجيش المكي:

أما المشركون فعبأوا جيشهم حسب نظام الصفوف

١ - فكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان صخر بن حرب الذي تمركز في القلب.

٢- وجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد

٣- وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل.

٤- وعلى المشاة صفوان بن أمية.

٥- وعلى رماة النبل عبد الله بن أبي ربيعة.

٦- أما اللواء فكان إلى مفرزة من بني عبد الدار، وقد كان ذلك منصبهم منذ أن اقتسمت بنو عبد مناف المناصب التي ورثوها من قصي بن كلاب وكان لا يمكن لأحد أن ينازعهم في ذلك، تقيدا بالتقاليد التي ورثوها كابرًا عن كابر، بيد أن القائد العام- أبا سفيان- ذكرهم بما أصاب قريشا يوم بدر حين أسر حامل لوائهم النضر بن الحارث، وقال لهم ليستفز غضبهم ويثير حميتهم: يا بني عبد الدار، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتي الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه. ونجح أبو سفيان في هدفه، فقد غضب بنو عبد الدار لقول أبي سفيان أشد الغضب، وهموا به وتواعدوه، وقالوا له: نحن نسلم إليك لواءنا؟ ستعلم غدًا إذا التقينا كيف نصنع. وقد ثبتوا عند احتدام المعركة حتى أبيدوا عن بكرة أبيهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧٠) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحقه هو ما فعله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "فلق به هام المشركين".

جهود نسوة قريش في التحميس:

قامت نسوة قريش بنصيبهن من المشاركة في المعركة، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، فكن يتجولن في الصفوف، ويضربن بالدفوف، يستنهضن الرجال، ويحرضن على القتال، ويثرن حفائظ الأبطال، ويحركن مشاعر أهل الطعان والضراب والنضال، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن:

وَيْـهَـا بَـنِـي عَـبْـدِ الـدَّارْ
وَيْـهَـا حُـمَـاةَ الْأَدْبَـارْ
ضَـرْبًـا بِـكُـلِّ بَـتَّـارْ

وتارة يأزرن قومهن على القتال وينشدن:

إن تـقـبـلـوا نـعـانـق ❁❁❁ ونـفـرش الـنـمـارق
أو تـدبـروا نـفـارق ❁❁❁ فـراق غـيـر وامـق

أول وقود المعركة:

وتقارب الجمعان، وتدانت الفئتان، وبدأت مراحل القتال، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري، وكان من أشجع فرسان قريش، يسميه المسلمون كبش الكتيبة، خرج وهو راكب على جمل، يدعو إلى المبارزة، فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته، ولكن تقدم إليه الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يمهله بل وثب إليه وثبة الليث، حتى صار معه على جمله، ثم اقتحم به الأرض، فألقاه عنه وذبحه بسيفه. ورأى النبي ﷺ هذا الصراع الرائع، فكبر وكبر المسلمون، وأثنى على الزبير .

ثقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته:

ثم اندلعت نيران المعركة، واشتد القتال بين الفريقين في كل نقطة من نقاط الميدان، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين. فقد تعاقب بنو عبد الدار

لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبي طلحة، فحمله أخوه أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة، وتقدم للقتال وهو يقول:

إن على أهل اللواء حقا ۞ ۞ ۞ أن تخضب الصعدة أو تندقا

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه، حتى وصلت إلى سرته، فبانت رئته.

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسهم أصاب حنجرته، فأدلع لسانه ومات لحينه. وقيل: بل خرج أبو سعد يدعو إلى البراز، فتقدم إليه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فاختلفا ضربتين، فضربه علي فقتله.

ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسهم فقتله، فحمل اللواء بعده أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة، فانقض عليه الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقاتله حتى قتله،

ثم حمل اللواء أخوهما الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة، فطعنه طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طعنة قضت على حياته، وقيل: بل رماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسهم فقضى عليه. هؤلاء ستة نفر من بيت واحد، بيت أبي طلحة عبد الله بن عثمان بن عبد الدار، قتلوا جميعًا حول لواء المشركين، ثم حمله من بني عبد الدار أرطاة بن شرحبيل، فقتله علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وقيل: حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ثم حمله شريح بن قارظ فقتله قزمان- وكان منافقًا قاتل مع المسلمين حمية، لا عن الإسلام- ثم حمله أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدري، فقتله قزمان أيضا، ثم حمله ولد لشرحبيل بن هاشم العبدري فقتله قزمان أيضًا. فهؤلاء عشرة من بني عبد الدار- من حملة اللواء- أبيدوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء، فتقدم غلام لهم حبشي- اسمه صواب فحمل اللواء، وأبدى من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله، فقد قاتل حتى قطعت يداه، فبرك على اللواء بصدره وعنقه؛ لئلا يسقط حتى قتل وهو يقول: اللّٰهم

هل أعزرت ، يعني هل أعذرت ؟ [١]. وبعد أن قتل هذا الغلام-صؤاب- سقط اللواء على الأرض، ولم يبق أحد يحمله، فبقي ساقطًا[٢].

القتال في بقية النقاط:

وبينما كان ثقل المعركة، يدور حول لواء المشركين، كان القتال المرير يجري في سائر نقاط المعركة، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تتقطع أمامه السدود.

وأقبل أبو دجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معلمًا بعصابته الحمراء، آخذًا بسيف رسول الله ﷺ ، مصممًا على أداء حقه، فقاتل حتى أمعن في الناس، وجعل لا يلقى مشركًا إلا قتله، وأخذ يهدّ صفوف المشركين هدًّا. فلما أخرج عصابة له حمراء، فعصب بها رأسه، قالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، فخرج وهو يقول:

إِنِّي امْرُؤٌ بَايَعَنِي خَلِيلِي ۞ ۞ ۞ وَنَحْنُ بِالسفح لدىٰ النَّخِيلِ
أَنْ لَا أَقُومَ الدَّهْرَ فِي الْكَيُّولِ ۞ ۞ ۞ أَضْرِبْ بِسَيْفِ اللهِ وَالرَّسُولِ

وقاتل حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قتال الليوث المهتاجة، فقد اندفع إلى قلب جيش المشركين يغامر مغامرة منقطعة النظير، ينكشف عنه الأبطال كما تتطاير الأوراق أمام الرياح الهوجاء، فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة في إبادة حاملي لواء المشركين؛ فعل الأفاعيل بأبطالهم الآخرين حتى صرع وهو في مقدمة المقاتلين، ولكن لا كما تصرع الأبطال وجها لوجه في ميدان القتال، وإنما كما يغتال الكرام في حلك الظلام.

---

(١) كان بلسانه لكنة يقلب الذال إلى الزاي.

(٢) **قصة أصحاب اللواء صحيحة** : أخرج مجملها الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٤٢٦٠) عَنِ الزُّبَيْرِ.

مصرع أسد الله حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يقول قاتل حمزة وحشي بن حرب: إِنَّ حَمْزَةَ قَتَلَ طُعَيْمَةَ بْنَ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ بِبَدْرٍ ، فَقَالَ لِي مَوْلَايَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ: إِنْ قَتَلْتَ حَمْزَةَ بِعَمِّي فَأَنْتَ حُرٌّ ، قَالَ: فَلَمَّا أَنْ خَرَجَ النَّاسُ عَامَ عَيْنَيْنِ وَعَيْنَيْنِ ، جَبَلٌ بِحِيَالِ أُحُدٍ ، بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَادٍ ، خَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ إِلَى الْقِتَالِ ،[وَكُنْتُ حَبَشِيًّا أَقْذِفُ بِالْحَرْبَةِ قَذْفَ الْحَبَشَةِ ، قَلَّمَا أُخْطِئُ بِهَا شَيْئًا] فَلَمَّا اصْطَفُّوا لِلْقِتَالِ ،[خَرَجْتُ أَنْظُرُ حَمْزَةَ حَتَّى رَأَيْتُهُ فِي عَرَضِ النَّاسِ مِثْلَ الْجَمَلِ الْأَوْرَقِ ، يَهُزُّ النَّاسَ بِسَيْفِهِ هَزًا ، مَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ ، فَوَاللهِ إِنِّي لَأَتَهَيَّأُ لَهُ أُرِيدُهُ ، وَأَتَأَنَّى عَجْزًا ، إِذْ تَقَدَّمَنِي إِلَيْهِ سِبَاعُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى] فَقَالَ: هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ ، قَالَ: فَخَرَجَ إِلَيْهِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَقَالَ: يَا سِبَاعُ ، يَا ابْنَ أُمِّ أَنْمَارٍ مُقَطِّعَةِ الْبُظُورِ ، أَتُحَادُّ اللهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِ ، فَكَانَ كَأَمْسِ الذَّاهِبِ ، [فَوَاللهِ لَكَأَنَّمَا أَخْطَأَ رَأْسَهُ] قَالَ: وَكَمَنْتُ لِحَمْزَةَ تَحْتَ صَخْرَةٍ ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي رَمَيْتُهُ بِحَرْبَتِي ، فَأَضَعُهَا فِي ثُنَّتِهِ حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ وَرِكَيْهِ ، [فَذَهَبَ لِيَنُوءَ نَحْوِي ، فَغُلِبَ] قَالَ: فَكَانَ ذَاكَ الْعَهْدَ بِهِ [وَتَرَكْتُهُ وَإِيَّاهَا حَتَّى مَاتَ ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَأَخَذْتُ حَرْبَتِي ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى النَّاسِ فَقَعَدْتُ فِي الْعَسْكَرِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِي بَعْدَهُ حَاجَةٌ ، إِنَّمَا قَتَلْتُهُ لِأُعْتَقَ ، فَلَمَّا قَدِمْتُ مَكَّةَ عُتِقْتُ.][1].

السيطرة على الموقف: وبرغم هذه الخسارة الفادحة التي لحقت بالمسلمين بقتل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب، ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله، فقد قاتل يومئذ أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير وطلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن جحش، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر وأمثالهم قتالاً فلّ عزائم المشركين، وفتَّ في أعضادهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧٢) وما بين الأقواس عند ابن حبان (٧٠١٦) وعنده صحيح لغيره.

غسيل الملائكة:

وكان من الأبطال المغامرين يومئذ حنظلة الغسيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وهو حنظلة بن أبي عامر، وأبو عامر هذا هو الراهب الذي سمي بالفاسق، كان حنظلة حديث عهد بالعرس، فلما سمع هواتف الحرب- وهو على امرأته- انخلع من أحضانها، وقام من فوره إلى الجهاد، فلما التقى بجيش المشركين في ساحة القتال، أخذ يشق الصفوف، حتى خلص إلى قائد المشركين أبي سفيان صخر بن حرب، وكاد يقضي عليه لولا أن أتاح الله له الشهادة، فقد شد على أبي سفيان، فلما استعلاه وتمكن منه رآه شداد بن الأسود فضربه حتى قتله[1].

نصيب فصيلة الرماة في المعركة:

وكانت للفصيلة التي عينها الرسول ﷺ على جبل الرماة يد بيضاء في إدارة دفة القتال لصالح الجيش الإسلامي، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد بن الوليد يسانده أبو عامر الفاسق، ثلاث مرات ليحطموا جناح الجيش الإسلامي الأيسر، حتى يتسربوا إلى ظهور المسلمين، فيحدثوا البلبلة والارتباك في صفوفهم، وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة، ولكن هؤلاء الرماة رشقوهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم الثلاث.

الهزيمة تنزل بالمشركين:

هكذا دارت رحى الحرب الزبون، وظل الجيش الإسلامي الصغير مسيطرًا على الموقف كله، حتى خارت عزائم أبطال المشركين، وأخذت صفوفهم تتبدد عن اليمين والشمال والأمام والخلف، كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم، لا بضع مئات قلائل، وظهر المسلمون في أعلى صور الشجاعة واليقين. وبعد أن بذلت قريش أقصى جهدها لصد هجوم المسلمين أحست بالعجز والخور،

---

(١) **حسن:** أخرجه ابن حبان رحمه الله كما في "الإحسان" (ج ١٥ ص ٤٩٥). انظر الصحيح المسند للوادعي (١/ ٤٨٦) (٥٧٤) سيأتي ص(١٤٨) وصححه الألباني في الصحيحة(٣٢٦) وفيه بدل ابن حرب قال ابن الحارث.

وانكسرت همتها حتى لم يجترئ أحد منها أن يدنو من لوائها، الذي سقط بعد مقتل صواب، فيحمله ليدور حوله القتال- فأخذت في الانسحاب، ولجأت إلى الفرار، ونسيت ما كانت تتحدث به في نفوسها من أخذ الثأر والوتر والانتقام، وإعادة العز والمجد والوقار.

قال ابن إسحاق: ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها.

روى عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه قال: وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَنْظُرُ إِلَى خَدَمِ هِنْدِ بِنْتِ عُتْبَةَ وَصَوَاحِبِهَا مُشَمِّرَاتٍ هَوَارِبَ ، مَا دُونَ أَخْذِهِنَّ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ ، إِذْ مَالَتِ الرُّمَاةُ إِلَى الْعَسْكَرِ حِينَ كَشَفَنَا الْقَوْمُ عَنْهُ ، وَخَلَّوْا ظُهُورَنَا لِلْخَيْلِ ، فَأُتِينَا مِنْ خَلْفِنَا ، وَصَرَخَ صَارِخٌ : أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ ، فَانْكَفَأْنَا ، وَانْكَفَأَ عَلَيْنَا الْقَوْمُ بَعْدَ أَنْ أَصَبْنَا أَصْحَابَ اللِّوَاءِ حَتَّى مَا يَدْنُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ(١).

وفي حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الْجَبَلِ ، رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ ، قَدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ (٢).

وتبع المسلمون المشركين، يضعون فيهم السلاح، وينتهبون الغنائم.

غلطة الرماة:

وبينما كان الجيش الإسلامي الصغير يسجل مرة أخرى نصرًا ساحقًا على مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذي اكتسبه يوم بدر، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة قلبت الوضع تمامًا، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، وكادت تكون سببًا في مقتل النبي ﷺ ، وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم، والهيبة التي كانوا يتمتعون بها بعد بدر. لقد أسلفنا نصوص الأوامر الشديدة التي أصدرها رسول الله ﷺ إلى هؤلاء الرماة، بلزومهم موقفهم من الجبل في كل حال من

(١) **حسن:** أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٣٣٩)، والضياء في المختارة (٨٨٢).
(٢) أخرجه البخاري (٤٠٤٣).

النصر أو الهزيمة، لكن على رغم هذه الأوامر المشددة؛ لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين ينتهبون غنائم العدو، غلبت أثارة من حب الدنيا، فقال بعضهم لبعض: الْغَنِيمَةَ أَيْ قَوْمِ ، الْغَنِيمَةَ ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جُبَيْرٍ : أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ ؟ ولكن الأغلبية الساحقة لم تلق لهذا التذكير بالًا، وقَالُوا : وَاللهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ ؟[1].ثم غادر أربعون رجلًا من هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل، والتحقوا بسواد الجيش، ليشاركوه في جمع الغنائم، وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة من أصحابه، التزموا مواقفهم، مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يبادوا. وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [سورة آل عمران:١٥٢].

خالد بن الوليد يقوم بخطة تطويق الجيش الإسلامي: وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فاستدار بسرعة خاطفة، حتى وصل إلى مؤخرة الجيش الإسلامي، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه، ثم انقض على المسلمين من خلفهم، وصاح فرسانه صيحة عرف المشركون المنهزمون بالتطور الجديد، فانقلبوا على المسلمين، وأسرعت امرأة منهم- وهي عمرة بنت علقمة الحارثية- فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب، فالتف حوله المشركون ولاثوا به، وتنادى بعضهم بعضًا، حتى اجتمعوا على المسلمين، وثبتوا للقتال، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف، ووقعوا بين شقي الرحى.

---

(١) أخرجه البخاري من حديث البراء بن عازب (٣٠٣٩).

موقف الرسول ﷺ الباسل إزاء عمل التطويق:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ.(١) وذلك في مؤخرة المسلمين قال تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ [سورة آل عمران:١٥٣].، كان يرقب مجالدة المسلمين ومطاردتهم المشركين؛ إذ بوغت بفرسان خالد مباغتة كاملة، فكان أمامه طريقان، إما أن ينجو- بالسرعة- بنفسه وبأصحابه التسعة إلى ملجأ مأمون، ويترك جيشه المطوق إلى مصيره المقدور، وإما أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه ليجمعهم حوله، ويتخذ بهم جبهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوق إلى هضاب أحد. وهناك تجلت عبقرية الرسول ﷺ وشجاعته المنقطعة النظير، فقد رفع صوته ينادي أصحابه: **«عباد الله»** ، وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون، ولكنه ناداهم ودعاهم مخاطرًا بنفسه في هذا الظرف الدقيق. وفعلًا فقد علم به المشركون فخلصوا إليه، قبل أن يصل إليه المسلمون.

تبدد المسلمين في الموقف: أما المسلمون فلما وقعوا في التطويق طار صواب طائفة منهم وأهمتها أنفسها، فقد أخذت طريق الفرار، وتركت ساحة القتال، وهي لا تدري ماذا وراءها؟ وفر من هذه الطائفة بعضهم إلى المدينة حتى دخلها، وانطلق بعضهم إلى فوق الجبل ، ورجعت طائفة أخرى فاختلطت بالمشركين، والتبس العسكران، فلم يتميزوا، فوقع القتل في المسلمين بعضهم من بعض.

فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ هُزِمَ الْمُشْرِكُونَ فَصَاحَ إِبْلِيسُ : أَيْ عِبَادَ اللهِ أُخْرَاكُمْ فَرَجَعَتْ أُولَاهُمْ فَاجْتَلَدَتْ هِيَ وَأُخْرَاهُمْ فَنَظَرَ حُذَيْفَةُ فَإِذَا هُوَ بِأَبِيهِ الْيَمَانِ فَقَالَ : أَيْ عِبَادَ اللهِ أَبِي أَبِي فَوَاللهِ مَا احْتَجَزُوا حَتَّى قَتَلُوهُ فَقَالَ حُذَيْفَةُ

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٩).

: غَفَرَ اللهُ لَكُمْ قَالَ عُرْوَةُ : فَمَا زَالَتْ فِي حُذَيْفَةَ مِنْهُ بَقِيَّةُ خَيْرٍ حَتَّى لَحِقَ بِاللهِ[١]. وهذه الطائفة حدث داخل صفوفها ارتباك شديد، وعمتها الفوضى، وتاه منها الكثيرون، لا يدرون أين يتوجهون، وبينما هم كذلك إذ صَرَخَ صَارِخٌ يَرَوْنَ أَنَّهُ الشَّيْطَانُ :أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ.[٢] فطار بقية صوابهم، وانهارت الروح المعنوية، أو كادت تنهار في نفوس كثير من أفرادها، وثبت أكثر الصحابة وممن له الباع الطويل يوم أحد أنس بن النظر فعَنْ أَنَسِ بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ قَالَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ يَعْنِي أَصْحَابَهُ وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ . ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ : يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ الْجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ قَالَ سَعْدٌ : فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا صَنَعَ . قَالَ أَنَسٌ : فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ : ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ . قَالَ أَنَسٌ : كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ : أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ : ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الأحزاب:٢٣][٣].

وبمثل هذا الاستبسال والتشجيع عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم، فعدلوا عن فكرة الاستسلام أو الاتصال بابن أبي، وأخذوا سلاحهم، يهاجمون تيارات المشركين، وهم يحاولون شق الطريق إلى مقر القيادة، وقد بلغهم أن خبر مقتل النبي ﷺ كذب مختلق، فزادهم ذلك قوة على

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٦٥) وانظر فتح الباري (٧/ ٣٥١، ٣٦٢،٣٦٣) وذكر غير البخاري أن رسول الله ﷺ أراد أن يديه.فقال حذيفة: تصدقت بديته على المسلمين، فزاد ذلك حذيفة خيرًا عند النبي ﷺ .

(٢) **صحيح:** أخرجه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (٤٢٦٠) عَنِ الزُّبَيْرِ.

(٣) أخرجه البخاري(٢٨٠٥) ومسلم(١٩٠٣).

قوتهم، فنجحوا في الإفلات عن التطويق، وفي التجمع حول مركز منيع بعد أن باشروا القتال المرير، وجالدوا بضراوة بالغة. وكانت هناك طائفة ثالثة لم يكن يهمهم إلا رسول الله ﷺ . فقد كرت هذه الطائفة إلى رسول الله ﷺ ، وعمل التطويق في بدايته، وفي مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب وغيرهم رضي الله عنهم كانوا في مقدمة المقاتلين، فلما أحسوا بالخطر على ذاته الشريفة عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صاروا في مقدمة المدافعين.

احتدام القتال حول رسول الله ﷺ:

وبينما كانت تلك الطوائف تتلقى أواصر التطويق، تطحن بين شقي رحى المشركين، كان العراك محتدمًا حول رسول الله ﷺ ، [وهو يقاتلهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بنفسه ومعه تسعة كيف لا وقد كان أشجع الناس:

قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في صفته: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَنْجَدَ ، وَلَا أَجْوَدَ ، وَلَا أَشْجَعَ ، وَلَا أَوْضَأَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.] (١)

وقد ذكرنا أن المشركين لما بدأوا عمل التطويق لم يكن مع رسول الله ﷺ إلا تسعة نفر، فدنا منه المشركون وعرفوه، فكروا إليه وهاجموه، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين، فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف، ظهرت فيه نوادر الحب والتفاني والبسالة والبطولة.

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَلَمَّا رَهِقُوهُ قَالَ : «**مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ**» . فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ، ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضًا ، فَقَالَ : «**مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ**» . فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى

(١) **صحيح**: أخرجه الدارمي في سننه (٦٠).

قُتِلَ ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِصَاحِبَيْهِ- أي القرشيين- : **«مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا»**(١). وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط وبعد لحظة فاءت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة، ثم مات (٢).

أحرج ساعة في حياة الرسول ﷺ :

وبعد سقوط ابن السكن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقي الرسول ﷺ في القُرَشِيَين فقط ، فعَنْ أَبِي عُثْمَانَ قَالَ: لَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي قَاتَلَ فِيهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَيْرُ طَلْحَةَ وَسَعْدٍ (يعني بن أبي وقاص)(٣)

وكانت أحرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله ﷺ ، وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين، ولم يتوان المشركون في انتهاز تلك الفرصة، فقد ركزوا حملتهم على النبي ﷺ وطمعوا في القضاء عليه، رماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فوقع لشقه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكلمت شفته السفلى، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهري، فشجه في جبهته.

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ وَيَقُولُ : **«كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ»** ؟ ! فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة آل عمران:١٢٨].(٤)

ولا شك أن المشركين كانوا يهدفون إلى القضاء على حياة رسول الله ﷺ ، إلا

---

(١) أخرجه مسلم(١٧٨٩).
(٢) (ابن هشام ٢/ ٨١) .
(٣) أخرجه البخاري (٤٠٦٠) ومسلم(٢٤١٤) ، يرويه عنهما ولذا قال: عَنْ حَدِيثِهِمَا .
(٤) أخرجه مسلم(١٧٩١) عن أنس وعلقه البخاري قبل رقم: (٤٠٦٩).

أن سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله بعد كلاءة الله تعالى له قد قاما ببطولة نادرة، وقاتلا ببسالة منقطعة النظير، حتى لم يتركا- وهما اثنان فحسب- سبيلًا إلى نجاح المشركين في هدفهم، وكانا من أمهر رماة العرب، فناضلا حتى أجهضا مفرزة المشركين عن رسول الله ﷺ . فأما سعد بن أبي وقاص، فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته، وقال: « **ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**». ويدل على مدى كفاءته أن النبي ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد(١).

وأما طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد روى النسائي عن جابر قصة تجمع المشركين حول رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار. قال جابر: فأدرك المشركون رسول الله ﷺ فقال: «**مَنْ لِلْقَوْمِ ؟**» ، فقال طلحة: أنا، ثم ذكر جابر تقدم الأنصار، وقتلهم واحدًا بعد واحد بنحو ما ذكرنا من رواية مسلم، فلما قتل الأنصار كلهم تقدم طلحة، قال جابر: فَقَاتَلَ طَلْحَةُ قِتَالَ الْأَحَدَ عَشَرَ حَتَّى ضُرِبَتْ يَدُهُ فَقُطِعَتْ أَصَابِعُهُ ، فَقَالَ : حَسِّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ قُلْتَ : بِاسْمِ اللهِ ، لَرَفَعَتْكَ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ**» ، ثُمَّ رَدَّ اللهُ الْمُشْرِكِينَ(٢).

ووقع عند الحاكم في الإكليل أنه جرح يوم أحد تسعًا وثلاثين، أو خمسًا وثلاثين، وشلت إصبعه، أي السبابة والتي تليها.

وروى البخاري عَنْ قَيْسٍ بن أبي حازم قَالَ : رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ شَلَّاءَ ، وَقَى بِهَا النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ(٣).

وروى الترمذي أن النبي ﷺ قال فيه يومئذ: « **مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَهِيدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ** »(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٠٥) ومسلم(٢٤١١) عن علي وعن سعد خ(٤٠٥٥) م(٢٤١٢).
(٢) أخرجه النسائي(٣١٤٩) وحسنه الألباني في الصحيحة (٢١٧١).
(٣) أخرجه البخاري (٣٧٢٤).
(٤) أخرجه الترمذي وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٥) عن جابر.

وقال فيه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت ❁ ❁ ❁ لك الجنان وبوئت المها العينا

وفي ذلك الظرف الدقيق والساعة الحرجة أنزل الله نصره بالغيب، ففي الصحيحين عن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد، ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض، كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد. وفي رواية يعني جبريل وميكائيل[1].

بداية تجمع الصحابة حول الرسول ﷺ:

وقعت هذه كلها بسرعة هائلة في لحظات خاطفة. وإلا فالمصطفون الأخيار من صحابته ﷺ - الذين كانوا في مقدمة صفوف المسلمين عند القتال- لم يكادوا يرون تطور الموقف، أو يسمعون صوته ﷺ ، حتى أسرعوا إليه؛ لئلا يصل إليه شيء يكرهونه، إلا أنهم وصلوا وقد لقي رسول الله ﷺ ما لقي من الجراحات- وستة من الأنصار قد قتلوا، والسابع قد أثبتته الجراحات، وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح- فلما وصلوا أقاموا حوله سياجًا من أجسادهم وسلاحهم، وبالغوا في وقايته من ضربات العدو، ورد هجماتهم. وكان أول من رجع إليه هو ثانيه في الغار أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وقد رمي النبي ﷺ في وجنته، حتى غابت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وخلال هذه اللحظات الحرجة اجتمع حول النبي ﷺ عصابة من أبطال المسلمين، منهم أبو دجانة، ومصعب بن عمير، وعلي بن أبي طالب، وسهل بن حنيف، ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري ، وقتادة بن النعمان، وعمر بن الخطاب، وحاطب بن أبي بلتعة، وأبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

تضاعف ضغط المشركين: كما كان عدد المشركين يتضاعف كل آن، وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم، وزاد ضغطهم على المسلمين.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٥٤) ومسلم (٢٣٠٦).

البطولات النادرة:

وقام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة، لم يعرف لها التاريخ نظيرا.

كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ، ويرفع صدره ليقيه عن سهام العدو. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ ، انْهَزَمَ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ, وَأَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ مُجَوِّبٌ عَلَيْهِ بِحَجَفَةٍ ، قَالَ : وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَجُلًا رَامِيًا شَدِيدَ النَّزْعِ ، وَكَسَرَ يَوْمَئِذٍ قَوْسَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ، قَالَ : فَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ الْجَعْبَةُ مِنَ النَّبْلِ فَيَقُولُ : انْثُرْهَا لِأَبِي طَلْحَةَ ، قَالَ : وَيُشْرِفُ نَبِيُّ اللهِ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى الْقَوْمِ فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ : يَا نَبِيَّ اللهِ ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ،لَا تُشْرِفْ لَا يُصِبْكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ(١).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا قَالَ : كَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَتَتَرَّسُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِتُرْسٍ وَاحِدٍ وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ حَسَنَ الرَّمْيِ فَكَانَ إِذَا رَمَى تَشَرَّفَ النَّبِيُّ ﷺ فَيَنْظُرُ إِلَى مَوْضِعِ نَبْلِهِ(٢).

وتبع حاطبُ بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عتبةَ بن أبي وقاص- الذي كسر الرَّباعية الشريفة- فضربه بالسيف حتى طرح رأسه، ثم أخذ فرسه وسيفه. وكان سعد بن أبي وقاص شديد الحرص على قتل أخيه- عتبة هذا- إلا أنه لم يظفر به، بل ظفر به حاطب.

وكان سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد الرماة الأبطال، بايع رسول الله ﷺ على الموت، ثم قام بدور فعال في ذود المشركين.

وكان رسول الله ﷺ يباشر الرماية بنفسه، فعن قتادة بن النعمان أن رسول الله ﷺ رَمَى عَنْ قَوْسِهِ حَتَّى انْدَقَّتْ سِيَتُهَا (٣) فَأَخَذَهَا قَتَادَةَ بْنُ النُّعْمَانِ، فَكَانَتْ

---

(١) أخرجه البخاري(٤٠٦٤) ومسلم(١٨١١).

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٩٠٢).

(٣) سيتها: ما عطف من طرفيها.

عِنْدَهُ، وَأُصِيبَتْ يَوْمئِذٍ عَيْنُ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ، حَتَّى وَقَعَتْ عَلَى وَجْنَتِهِ، فَرَدَّهَا رسول الله ﷺ بِيَدِهِ، فَكَانَتْ أَحْسَنَ عَيْنَيْهِ وَأَحَدَّهُمَا (١).

وقاتل مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بضراوة بالغة، يدافع عن النبي ﷺ هجوم ابن قمئة وأصحابه،وَأَقْبَلَ أبي بن خلف عَدُوُّ اللَّهِ، وَهُوَ مُقَنَّعٌ فِي الْحَدِيدِ، يَقُولُ: لَا نَجَوْتُ إِنْ نَجَا مُحَمَّدٌ، وَكَانَ حَلَفَ بِمَكَّةَ أَنْ يَقْتُلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَاسْتَقْبَلَهُ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، فَقُتِلَ مصعب وكان اللواء بيده، قاتل عنه حتى قتل، وظنوه رسول الله ﷺ – لشبهه به– فانصرف ابن قمئة إلى المشركين، [حين قتل أُبيٌّ مصعبًا] وصاح: إن محمدًا قد قتل(٢).

إشاعة مقتل النبي ﷺ وأثره على المعركة:

ولم يمض على هذا الصياح دقائق، حتى شاع خبر مقتل النبي ﷺ في المشركين والمسلمين وهذا هو الظرف الدقيق الذي خارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين، الذين لم يكونوا مع رسول الله ﷺ ، وانهارت معنوياتهم، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد، وعمتها الفوضى والاضطراب، إلا أن هذه الصيحة خففت بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين؛ لظنهم أنهم نجحوا في غاية مرامهم، فاشتغل الكثير منهم بتمثيل قتلى المسلمين.

الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقذ الموقف:

ولما قتل مصعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعطى رسول الله ﷺ اللواء علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقاتل قتالًا شديدًا، وقامت بقية الصحابة الموجودين هناك ببطولاتهم النادرة يقاتلون ويدافعون. وحينئذ استطاع رسول الله ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق، فأقبل إليهم:

---

(١) **صحيح بتعدد طرقه** .الألباني تحقيق بداية السول (ص٤١).
(٢) انظر ابن هشام ٢/ ٧٣، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، وزاد المعاد ٢/ ٩٧.

عَنْ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَصِرْنَا إِلَى الشِّعْبِ كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ عَرَفَهُ ، فَقُلْتُ : هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ! فَأَشَارَ إِلَيَّ بِيَدِهِ أَنِ اسْكُتْ ، ثُمَّ أَلْبَسَنِي لَأْمَتَهُ وَلَبِسَ لَأْمَتِي ، فَلَقَدْ ضُرِبْتُ حَتَّى جُرِحْتُ عِشْرِينَ - أَوْ قَالَ : بِضْعَةَ عَشَرَ - جُرْحًا ، كُلُّ مَنْ يَضْرِبُنِي يَحْسَبُنِي رَسُولَ اللهِ ﷺ.[١] أمره بالسكوت لئلا يعرف موضعه المشركون إلا أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين، فلاذ إليه المسلمون، حتى تجمع حوله حوالي ثلاثين رجلًا من الصحابة. وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله ﷺ في الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل، وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين، واشتد المشركون في هجومهم؛ لعرقلة الانسحاب إلا أنهم فشلوا أمام بسالة ليوث الإسلام.

وثبت الحارث بن الصمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع رسول الله ﷺ ، حين انكشف الناس، وبايعه على الموت[٢].

وأثناء هذا القتال المرير، كان المسلمون يأخذهم النعاس أمنة من الله، كما ذكر الله تعالى في القرآن ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [سورة آل عمران:١٥٤]. قال أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ فِيمَنْ تَغَشَّاهُ النُّعَاسُ يَوْمَ أُحُدٍ ، حَتَّى سَقَطَ سَيْفِي مِنْ يَدِي مِرَارًا ، يَسْقُطُ وَآخُذُهُ ، وَيَسْقُطُ فَآخُذُهُ.[٣] وبمثل هذه البسالة بلغت هذه الكتيبة- في انسحاب منظم- إلى شعب الجبل وشق لبقية الجيش

---

(١) **حسن** : أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة (ص٤٨٢) (٤١٤) لكن ظاهره الإرسال وأخرجه الطبراني متصلًا ،وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦/ ١١٢) رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ(١١٠٤) وَالْكَبِيرِ بِاخْتِصَارٍ، وَرِجَالُ الْأَوْسَطِ ثِقَاتٌ. **قلت:** شيخ الطبراني هو: أبو الفوارس أحمد بن عبد الرحمن بن يزيد بن عقال الحراني، قال فيه ابن عدي: "هو ممن يكتب حديثه" فيصح شاهدًا. وله شاهد من مراسيل عروة بن الزبير، أخرجه عبد الرزاق في "مصنفه" (٥ / ٣٦٣) برقم: (٩٧٣٥).

(٢) أخبار قبائل الخزرج (١/ ٣٧٧).

(٣) أخرجه البخاري(٤٠٦٨).

طريقًا إلى هذا المقام المأمون، فتلاحق به في الجبل، وفشلت عبقرية خالد أمام عبقرية رسول الله ﷺ.

مقتل أبي بن خلف: وَلَمَّا أُسْنِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الشِّعْبِ أَدْرَكَهُ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ وَهُوَ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ لَا نَجَوْتُ إِنْ نَجَوْتَ. فَقَالَ الْقَوْمُ: أَيَعْطِفُ عَلَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ مِنَّا؟ فَقَالَ: «**دَعُوهُ**». فَلَمَّا دَنَا تَنَاوَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَرْبَةَ مِنَ الْحَارِثِ بْنِ الصِّمَّةِ يَقُولُ بَعْضُ الْقَوْمِ فِيمَا ذُكِرَ لِي: فَلَمَّا أَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْتَفَضَ بِهَا انْتِفَاضَةً تَطَايَرْنَا عَنْهُ تَطَايُرَ الشَّعْرِ عَنْ ظَهْرِ الْبَعِيرِ إِذَا انْتَفَضَ ثُمَّ اسْتَقْبَلَهُ فَطَعَنَهُ بِهَا طَعْنَةً تَدَأْدَأَ مِنْهَا عَنْ ظَهْرِ فَرَسِهِ مِرَارًا[(١)] وكان أُبي يَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ عِنْدِي الْعَوْذَ، فَرَسًا أَعْلِفُهُ كُلَّ يَوْمٍ فَرَقًا مِنْ ذُرَةٍ، أَقْتُلُكَ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بَلْ أَنَا أَقْتُلُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ**». فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ وَقَدْ خَدَشَهُ فِي عُنُقِهِ خَدْشًا غَيْرَ كَبِيرٍ، فَاحْتَقَنَ الدَّمُ، قَالَ: قَتَلَنِي وَاللَّهِ مُحَمَّدٌ! قَالُوا لَهُ: ذَهَبَ وَاللَّهِ فُؤَادُكَ! وَاللَّهِ إِنْ بِكَ مِنْ بَأْسٍ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ كَانَ قَالَ لِي بِمَكَّةَ: «**أَنَا أَقْتُلك**»، فو الله لَوْ بَصَقَ عَلَيَّ لَقَتَلَنِي. فَمَاتَ عدوّ الله بسرف وَهُمْ قَافِلُونَ بِهِ إِلَى مَكَّةَ [(٢)]

وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِنَبِيِّهِ يُشِيرُ إِلَى رَبَاعِيَتِهِ**

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (ص٤٨٢) (٤١٤) من حديث عبد الله بن كعب بن مالك عن حديث أبيه وقد تقدم بعضه.

(٢) **أقول: هذه القصة ثابتة بمجموع طرقها إن شاء الله.** فقد أخرجها ابن سعد عن سعيد بن المسيب مرسلة. في الطبقات الكبرى – ط العلمية (٢/ ٣٥) ورواها ابن إسحاق عن صَالِح بْن إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ كذلك مرسلة وهو ثقة. انظر عيون الأثر (٢/ ٢٣) والسند إليهما صحيح وكذلك هي من مراسيل عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ. في دلائل النبوة لأبي نعيم (ص٤٨٣) إلا أن في الإسناد إليه ضعفًا فهي بمجموعها ثابتة إن شاء الله. **فائدة:** قال شيخ الإسلام: وَلَمْ يَقْتُلْ بِيَدِهِ إِلَّا أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ، قَتَلَهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَلَمْ يَقْتُلْ بِيَدِهِ أَحَدًا لَا قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا. وَكَانَ أَشْجَعَ مِنْ جَمِيعِ الصَّحَابَةِ. منهاج السنة النبوية (٨/ ٧٨).

اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ»(١).

طلحة ينهض بالنبي ﷺ : عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُصْعِدِينَ فِي أُحُدٍ ، فَذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى ظَهْرِهِ لِيَنْهَضَ عَلَى صَخْرَةٍ فَلَمْ يَسْتَطِعْ ، فَبَرَكَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ تَحْتَهُ ، فَصَعِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى ظَهْرِهِ ، حَتَّى جَلَسَ عَلَى الصَّخْرَةِ ، قَالَ الزُّبَيْرُ : فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، يَقُولُ : **«أَوْجَبَ طَلْحَةُ»**(٢).

آخر هجوم قام به المشركون: ولما تمكن رسول الله ﷺ من مقر قيادته في الشعب؛ قام المشركون بآخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين. قال ابن إسحاق: بينا رسول الله ﷺ في الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل- يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد- فقال رسول الله ﷺ : **«اللَّهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا»** ، فقاتل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل(٣).

تشويه الشهداء: وكان هذا آخر هجوم قام به المشركون ضد النبي ﷺ . ولما لم يكونوا يعرفون من مصيره شيئًا- بل كانوا على شبه اليقين من قتله- رجعوا إلى مقرهم، وأخذوا يتهيأون للرجوع إلى مكة، واشتغل من اشتغل منهم- وكذا اشتغلت نساؤهم- بقتلى المسلمين، يمثلون بهم، ويقطعون الآذان والأنوف والفروج، ويبقرون البطون(٤).

مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة: وفي هذه الساعة

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧٣) ومسلم (١٧٩٣) عن أَبِي هُرَيْرَةَ، وأخرجه البخاري (٤٠٧٤) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٩٧٩) والترمذي (١٦٩٢) ، وأحمد (١٤٣٤)،وحسنه الألباني في الصحيحة (٢/ ٦٢٨) (٩٤٥) والوادعي في الصحيح المسند (٣٤٠).

(٣) **حسن لغيره:** أخرجه ابن إسحاق في السير والمغازي (ص٣٣٢) بسند منقطع ، ولكنه في مسند أحمد (٢٦٠٩)عن ابن عباس بنحوه بسند حسن.

(٤) ثبت تشويه الشهداء في الصحيحين، ولكن لم يثبت أن هندًا حاولت أكل كبد حمزة.

الأخيرة وقعت وقعات، تدل على مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال، ومدى استماتتهم في سبيل الله ومعاونة النساء بالماء ونحوه من ذلك:

* [أن حِبان بن العرقة رمى أم أيمن فتكشفت فشق ذلك على رَسُولِ اللهِ ﷺ قال سعد بن أبي وقاص: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَحْرَقَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي ! قَالَ: فَنَزَعْتُ لَهُ بِسَهْمٍ لَيْسَ فِيهِ نَصْلٌ فَأَصَبْتُ جَنْبَهُ فَسَقَطَ فَانْكَشَفَتْ عَوْرَتُهُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى نَوَاجِذِهِ.] (١)

* وجاءت نسوة من المؤمنات إلى ساحة القتال بعد نهاية المعركة، قَالَ أَنَس: لَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا تَنْقُزَانِ الْقِرَبَ . وَقَالَ غَيْرُهُ : تَنْقُلَانِ الْقِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا ثُمَّ تُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلَآنِهَا ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانِهَا فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ . (٢)

* وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كانت أم سَلِيطٍ الأنصارية كَانَتْ تَزْفِرُ لَنَا الْقِرَبَ يَوْمَ أُحُدٍ(٣).

بعد انتهاء الرسول ﷺ إلى الشعب:

ولما استقر رسول الله ﷺ في مقره من الشعب خرج علي بن أبي طالب، حتى ملأ درقته ماء من المهراس- قيل: هو صخرة منقورة تسع كثيرًا وقيل: اسم ماء بأحد- فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه، فوجد له ريحًا فعافه، فلم يشرب منه، وغسل عن وجهه الدم، وصب على رأسه وهو يقول: « **اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى مَنْ دَمَّى وَجْهَ نَبِيِّهِ** »(٤).

---

(١) أخرجه مسلم(٢٤١٢). بدون ذكر أم أيمن.
(٢) أخرجه البخاري(٢٨٨٠) ومسلم (١٨١١).
(٣) أخرجه البخاري(٢٨٨١).
(٤) **صحيح لغيره:** أخرجه ابن حبان في صحيحه عن ابن الزبير (٦٩٧٩) والبيهقي في الكبرى (١٢٩٢)، والمرفوع في البخاري (٤٠٧٤) عن ابن عباس.

وقال سهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَعْرِفُ مَنْ كَانَ يَغْسِلُ جُرْحَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَنْ كَانَ يَسْكُبُ الْمَاءَ، وَبِمَا دُووِيَ، قَالَ: كَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَغْسِلُهُ، وَعَلِيٌّ يَسْكُبُ الْمَاءَ بِالْمِجَنِّ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً، أَخَذَتْ قِطْعَةً مِنْ حَصِيرٍ، فَأَحْرَقَتْهَا وَأَلْصَقَتْهَا، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَئِذٍ، وَجُرِحَ وَجْهُهُ، وَكُسِرَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ(١).

[وقوف] أبي سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر:

ولما تكامل تهيؤ المشركين للانصراف، أَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ: «**لَا تُجِيبُوهُ.**» فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ قَالَ: «**لَا تُجِيبُوهُ.**» فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ قُتِلُوا، فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءً لَأَجَابُوا، فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللهِ، أَبْقَى اللهُ عَلَيْكَ مَا يُخْزِيكَ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أُعْلُ هُبَلْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَجِيبُوهُ**». قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: قُولُوا: «**اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**». قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَجِيبُوهُ**». قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: قُولُوا: «**اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ.**» قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، وَتَجِدُونَ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي (٢).

تفقد القتلى والجرحى:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ عَمْرَو بْنَ أُقَيْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ لَهُ رَبًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَكَرِهَ أَنْ يُسْلِمَ حَتَّى يَأْخُذَهُ، فَجَاءَ يَوْمَ أُحُدٍ فَقَالَ: أَيْنَ بَنُو عَمِّي؟ فَقَالُوا: بِأُحُدٍ فَقَالَ: أَيْنَ فُلَانٌ؟ قَالُوا: بِأُحُدٍ قَالَ: أَيْنَ فُلَانٌ؟ قَالُوا: بِأُحُدٍ، فَلَبِسَ لَأْمَتَهُ، وَرَكِبَ فَرَسَهُ، ثُمَّ تَوَجَّهَ قِبَلَهُمْ، فَلَمَّا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ، قَالُوا: إِلَيْكَ عَنَّا يَا عَمْرُو قَالَ: إِنِّي آمَنْتُ، فَقَاتَلَ حَتَّى جُرِحَ، فَحُمِلَ إِلَى أَهْلِهِ جَرِيحًا، فَجَاءَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ لِأُخْتِهِ: سَلِيهِ حَمِيَّةً لِقَوْمِكَ، أَوْ غَضَبًا لَهُمْ، أَوْ غَضَبًا لِلهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ: "بَلْ غَضَبًا

(١) أخرجه البخاري(٤٠٧٥)ومسلم (١٧٩٠).
(٢) أخرجه البخاري برقم: (٣٠٣٩)، (٣٩٨٦)، (٤٠٤٣)، عَنِ الْبَرَاءِ.

لِلهِ وَرَسُولِهِ ، فَمَاتَ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَا صَلَّى لِلهِ صَلَاةً "(١).

جمع الشهداء ودفنهم وما جاء فيهم:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ صُعَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا أَشْرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ فَقَالَ: **«أَشْهَدُ عَلَى هَؤُلَاءِ مَا مِنْ مَجْرُوحٍ جُرِحَ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَّا بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَدْمَى ، اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ ، وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ ، انْظُرُوا أَكْثَرَهُمْ جَمْعًا لِلْقُرْآنِ فَقَدِّمُوهُ أَمَامَهُمْ فِي الْقَبْرِ»**(٢).

وقال جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ: أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَتْلَى أُحُدٍ بَعْدَمَا نُقِلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ أَنْ يُرَدُّوا إِلَى مَصَارِعِهِمْ(٣).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ يَقُولُ: **«أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟»** . فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ ، وَقَالَ: **«أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"»**. وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ فِي دِمَائِهِمْ ، وَلَمْ يُغَسَّلُوا ، وَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِمْ(٤).

ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة(٥).

[وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: أُصِيبَ أَبِي يَوْمَ أُحُدٍ فَجَعَلْتُ أَكْشِفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ وَأَبْكِي وَجَعَلُوا يَنْهَوْنَنِي ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَنْهَانِي ، قَالَ: وَجَعَلَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرٍو تَبْكِيهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«تَبْكِيهِ أَوْ لَا تَبْكِيهِ ، مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ**

---

(١) **حسن**: أخرجه أبوادود (٢٥٣٧) وأحمد (٢٤١٢٤) عن أبي هريرة وهو في الصحيح المسند للوادعي (١٣٩٣).

(٢) **حسن** : أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٣٤٠) (٥٠٢)عن كعب بن مالك وأحمد(٢٤٠٩٠) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ صُعَيْرٍ.

(٣) **صحيح** : أخرجه ابن الجارود (٦٠٤) وصححه شيخنا يحيى حفظه الله تعالى في تحقيقه للمنتقى.

(٤) أخرجه البخاري برقم: (١٣٤٣).

(٥) أخرجه البخاري(١٣٥١) وتسميتهما في الموطأ (١٧٠٤).

تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ»[(١)].

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قال : لَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ لِي : يَا جَابِرُ ، مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا ؟ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، اسْتُشْهِدَ أَبِي ، وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيْنًا ، قَالَ : أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ » ؟ قَالَ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ . قَالَ : مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا ، فَقَالَ : يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ ، قَالَ : يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً ، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ : إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » . قَالَ : وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [سورة آل عمران:١٦٩].[(٢)]

وقال رسول الله ﷺ [في شأن حنظلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]: **«إِنَّ صَاحِبَكُمْ حَنْظَلَةَ تَغْسِلُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَسَلُوا صَاحِبَتَهُ»** فَقَالَتْ: خَرَجَ وَهُوَ جُنُبٌ لَمَّا سَمِعَ الْهَائِعَةَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«فَذَاكَ قَدْ غَسَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ»**[(٣)] ومن هنا سمي حنظلة: غسيل الملائكة.

ولما رأى ما بحمزة- عمه وأخيه من الرضاعة- اشتد حزنه، وجاءت عمته صفية تريد أن تنظر أخاها حمزة، قَالَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا انْصَرَفَ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ أُحُدٍ ، جَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ نَاحِيَةً ، وَجَاءَتِ امْرَأَةٌ تَؤُمُّ الْقَتْلَى ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ** » فَلَمَّا تَوَسَّمْتُهَا ، إِذَا هِيَ أُمِّي صَفِيَّةُ ، فَقُلْتُ : يَا أُمَّهْ ، ارْجِعِي . فَلَدَمَتْ فِي صَدْرِي ، وَقَالَتْ : لَا أَرْضَ لَكَ . فَقُلْتُ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعْزِمُ عَلَيْكِ ، قَالَ : فَأَعْطَتْنِي ثَوْبَيْنِ ، فَقَالَتْ : كَفِّنُوا فِي هَذَيْنِ أَخِي ، قَالَ : فَوَجَدْنَا إِلَى جَنْبِ حَمْزَةَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، لَيْسَ لَهُ كَفَنٌ ، فَوَجَدْنَا فِي أَنْفُسِنَا غَضَاضَةً أَنْ نُكَفِّنَ حَمْزَةَ فِي

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (١٢٤٤) ومسلم برقم: (٢٤٧١).

(٢) **حسن:** أخرجه الترمذي في "جامعه" برقم: (٣٠١٠) وابن ماجه في "سننه" برقم: (١٩٠) و (٢٨٠٠) وغيرهما. وحسنه الإمام الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول (ص٥٦)

(٣) **حسن:** أخرجه ابن حبان رحمه الله كما في "الإحسان" (ج ١٥ ص ٤٩٥). انظر الصحيح المسند للوادعي (١/ ٤٨٦)(٥٧٤).

ثَوْبَيْنِ ، وَالْأَنْصَارِيُّ إِلَى جَنْبِهِ لَيْسَ لَهُ كَفَنٌ ، قَالَ : فَأَقْرَعْنَا بَيْنَهُمَا فِي أَجْوَدِ الثَّوْبَيْنِ ، فَكَفَّنَّا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي الثَّوْبِ الَّذِي طَارَ لَهُ .(١) ثم أمر رسول الله ﷺ بدفنه مع عبد الله بن جحش- وكان ابن أخته، وأخاه من الرضاعة. وكان منظر الشهداء مريعًا جدًّا يفتت الأكباد. قال خباب: إن حمزة لم يوجد له كفن إلا بردة ملحاء، إذا جعلت على رأسه قلصت عن قدميه، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه حتى مدت على رأسه، وجعل على قدميه الإذخر(٢).

وقال عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، وكفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وروي مثل ذلك عن خباب، وفيه فقال لنا النبي ﷺ: **«غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ ، وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلِهِ الْإِذْخِرَ »**(٣).

[وعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [سورة آل عمران:١٦٩]. قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: **«أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً ، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا ، حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»**(٤).]

---

(١) **حسن:** أخرجه البيهقي (٦٧٨٦)، والضياء في المختارة (٨٧٤)، وأحمد (١٤٣٥)، وأبو يعلى (٦٨٦) ، والبزار (٩٨٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٠٧٢) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٥٠٦)(١٦١٥).

(٣) أخرجه البخاري(١٢٧٥).

(٤) أخرجه مسلم في "صحيحه" برقم: (١٨٨٧).

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ حَضَرَ ذَلِكَ قَالَ : أَتَى عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى أُقْتَلَ ، أَمْشِي بِرِجْلِي هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الْجَنَّةِ؟ وَكَانَتْ رِجْلُهُ عَرْجَاءَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ» ، فَقَتَلُوهُ يَوْمَ أُحُدٍ هُوَ وَابْنُ أَخِيهِ وَمَوْلًى لَهُمْ ، فَمَرَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ : «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ تَمْشِي بِرِجْلِكَ هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الْجَنَّةِ» ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِهِمَا وَبِمَوْلَاهُمَا فَجُعِلُوا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ(١).

الرسول ﷺ يثني على ربه عز وجل ويدعوه:

عَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:« لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ " فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا ، فَقَالَ : « اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ ، وَلَا هَادِيَ لِمَنْ أَضْلَلْتَ ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَعَّدْتَ ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ ، اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ ، اللَّهُمَّ عَائِذٌ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا ، وَشَرِّ مَا مَنَعْتَنَا ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا ، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ إِلَهَ الْحَقِّ آمِينَ»(٢).

---

(١) **حسن:** أخرجه أحمد (٢٢٩٩١) وقال الإمام الألباني فقه السيرة (ص٢٦٧) وسنده صحيح.

(٢) **صحيح:** أخرجه الحاكم (١٨٧٤) ، والنسائي في "الكبرى" (١٠٣٧٠) ، وأحمد (١٥٧٣٢) والبزار (٣٧٢٤) والطبراني في "الكبير" (٤٥٤٩) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦٩٩/٥٤١).

الرجوع إلى المدينة، ونوادر الحب والتفاني:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه انصرف راجعًا إلى المدينة، وقد ظهرت له نوادر الحب والتفاني من المؤمنات الصادقات،[بالصبر على قدر الله والاستيقان بوعد الله والفرح بسلامة رسول الله ﷺ كما ظهرت من المؤمنين في أثناء المعركة هون ذلك من أحزانه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الرسول ﷺ في المدينة، وذكر قتلى الفريقين:

وانتهى رسول الله ﷺ مساء ذلك اليوم- يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣ هـ- إلى المدينة.أما القتلى فاتفقت جل الروايات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين، وكانت الأغلبية من الأنصار، [فعن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أُصِيبَ مِنْ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلًا، وَمِنْ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ، فِيهِمْ حَمْزَةُ، فَمَثَّلُوا بِهِمْ] [(١)].

أسماء الشهداء في أحد: أولًا عدد شهداء المهاجرين وأسماؤهم:

١ - **من بني هاشم بن عبد مناف**، . حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قتله وحشي الحبشي مولى جبير بن مطعم.

٢ - **من بني عبد شمس بن عبد مناف** عبد الله بن جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (حليف لهم) وهو من بني أسد بن خزيمة.

٣- **من عبد الدار ابن قصي** . مصعب بن عمير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قتله أبي بن خلف[(٢)].

٤ - **من بني مخزوم** شماس بن عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) **حسن:** أخرجه الترمذي (ج ٨ ص ٥٥٩) وهو في الصحيح المسند (١/ ٣٢) رقم(٧).

(٢) «زاد المعاد في هدي خير العباد - ط الرسالة» (٣/ ١٨٨) وذكر كثير من أهل السير أن الذي قتله هو ابن قمئة والأجود إسنادًا أن القاتل هو أبي بن خلف أفاده أخونا أمين الجزائري في قصص لا تثبت.

٢- عدد شهداء الأنصار وأسماؤهم :أما شهداء الأنصار فهم (كما قلنا) ستة وستون، وهم:

أ - من بني عبد الأشهل (وهم بطن من الأوس) أربعة عشر رجلًا وهم:

١ - عمرو بن معاذ بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخو الصحابي الشهير -سعد بن معاذ- سيد الأوس-، شهد بدرًا، وقد قتله يوم أحد ضرار بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب.

٢ - الحارث بن أنس بن رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢ - عمارة بن زيد بن السكن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بطل قتل بين يدي رسول الله ﷺ وهو يدافع عنه أثناء الانسحاب إلى الجبل.

٤ - سلمة بن ثابت بن وقيش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥ - عمرو بن ثابت بن وقش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦ - أبوهما ثابت بن وقش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧ - حسيل بن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٨ - صيفي بن قيظي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٩ - حباب بن قيظي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٠ - عباد بن سهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١١ - الحارث بن أوس بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٢ - رفاعة بن وقش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٣ - إياس بن أوس بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٤ - عبيد بن التيهان. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ب - ومن بني ظفر (وهو بطن من الأوس)، رجل واحد وهو:

١٥- يزيد بن خاطب بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ج - ومن بني ضبيعة (وهم بطن الأوس) رجلان وهما:

١٦- أبو سفيان بن الحارث بن قيس بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٧- حنظلة بن أبي عامر (غسيل الملائكة) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

د - ومن بني عبيد (بضم العين) (وهم بطن من الأوس) رجل واحد وهو:

١٨- أنيس بن قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هـ - ومن بني ثعلبة بن عمرو بن عوف (بطن من الأوس رجلان، وهما:

١٩- أبو حية بن عمرو بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٠- عبد الله بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أمير فصيلة الرماة الذين وضعهم الرسول ﷺ في الجبل لحماية مؤخرة المسلمين.

و- ومن بني السلم (بفتح السين مع التشديد وسكون اللام) (بطن من الأوس) رجل واحد:

٢١- خيثمة، أبو سعد بن خيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ز - ومن بني العجلان (بطن من الخزرج) رجل واحد:

٢٢- عبد الله بن سلمة البلوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ح - ومن بني معاوية بن مالك بن عوف (بطن من الأوس) رجل واحد:

٢٣- سبيع بن حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ط - ومن بني النجار بن ثعلبة (بطن من الخزرج) اثنا عشر شهيدًا:

٢٤- عمرو بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٥- ابنه قيس بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٦- ثابت بن عمرو بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٧- عامر بن مخلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٨- أبو هبيرة بن الحارث بن علقمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٩- عمرو بن مطرّف بن علقمة بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣٠- أوس بن ثابت بن المنذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣١- أنس بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣٢- قيس بن مخلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣٣- كيسان (عبد لهم) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣٤- سليم بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣٥- نعمان بن عبد عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ي - ومن بني الحارث (بطن من الخزرج) ثلاثة نفر، هم:

٣٦- خارجة بن زيد بن أبي زهير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣٧- سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (دفن الاثنان في قبر).

٣٨- أوس بن الأرقم بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ك - ومن بني الأبجر (بطن من الخزرج) ثلاثة نفر، وهم:

٣٩- مالك بن سنان بن عبيد **والد أبي سعيد الخدري** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤٠- سعيد بن سويد بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤١- عتبة بن ربيع بن نافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ل - ومن بني ساعدة (بطن من الخزرج) رجلان وهم:

٤٢- ثعلبة بن سعد بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤٣- ثقف بن فروة بن البدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

م - ومن بني طريف (بطن من الخزرج) رجلان وهما:

٤٤- عبد الله بن عمرو بن وهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤٥- ضمرة (حليف لهم) من بني جهينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ن - ومن عوف بن الخزرج (بطن من الخزرج) خمسة نفر، وهم:

٤٦- نوفل بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤٧- عباس بن عبادة بن نضلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤٨- نعمان بن مالك بن ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤٩- المجذر بن زياد البلوى الأنصاري الخزرجي (بالحلف) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥٠- عبادة بن الحسحاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ص- ومن بني الحبلي (بضم الحاء، بطن من الخزرج) رجل واحد:

٥٢- رفاعة بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ع- ومن بني سلمة (بطن من الخزرج) أربعة نفر وهم:

٥٣- عبد الله بن عمرو بن حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥٤- عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥٥- خلاد بن عمرو بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥٦- أبو أيمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ف- ومن بني سواد بن غنم (بطن من الخزرج) ثلاثة نفر وهم:

٥٧-سليم بن عمرو بن حديدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥٨- عنترة (مولى سليم بن عمرو) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥٩- سهل بن قيس بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ص- ومن بني زريق بن عامر (بطن من الخزرج) رجلان وهما:

٦٠- ذكوان بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦١- عبيد بن المعلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هؤلاء خمسة وستون شهيدًا من المهاجرين والأنصار ذكرهم ابن إسحاق، واستدرك عليه ابن هشام خمسة من الأنصار استشهدوا لم يذكرهم، وهم:

أ- من بني معاوية بن مالك (بطن من الأوس) رجل واحد وهو:

٦٢- مالك بن نميلة المزني (حليف لهم) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ب- ومن بني خطمة (بطن من الأوس) رجل واحد وهو

٦٣- الحارث بن عدي بن خرشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ج - ومن بني سواد بن مالك (بطن من الخزرج) رجل واحد، وهو:

٦٤- مالك بن إياس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

د - ومن بني عمرو بن مالك (بطن من الخزرج) رجل واحد وهو:

٦٥- إياس بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هـ - ومن بني سالم بن عوف (بطن من الخزرج) رجل واحد وهو:

٦٦- عمرو بن إياس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. يضاف هذا العدد إلى أربعة من المهاجرين فتموا سبعين.

عدد قتلى المشركين في أحد

وأما قتلى المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلًا، ولكن الإحصاء الدقيق- بعد تعميق النظر في جميع تفاصيل المعركة التي ذكرها أهل المغازي والسير، والتي تتضمن ذكر قتلى المشركين في مختلف مراحل القتال- يفيد أن عدد قتلى المشركين **سبعة وثلاثون**، لا اثنان وعشرون. والله أعلم.

وهم كالتالي :

أ - من بني عبد الدار بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب أحد عشر رجلًا، وجميعهم من حملة اللواء.

١ - طلحة بن أبي طلحة . قتله الزبير بن العوام.

٢ - أبو سعيد بن أبي طلحة، قتله سعد بن أبي وقاص.

٣ - عثمان بن أبي طلحة، قتله حمزة بن عبد المطلب.

٤ - مسافع بن أبي طلحة، قتله (رميًا بالنبل) عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح

٥ - الجلاس (بضم الجيم) بن طلحة بن أبي طلحة، قتله أيضًا (رميًا بالنبل) عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح.

٦ - الحارث بن طلحة بن أبي طلحة، قتله قزمان.

٧ – كلاب بن طلحة بن أبي طلحة، قتله أيضًا، قزمان، وقال ابن هشام. قتله عبد الرحمن بن عوف.

٨ – أرطأة بن شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار قتله حمزة بن عبد المطلب.

٩ – أبو يزيد بن عمير (أخو مصعب بن عمير) بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، قتله قزمان.

١٠ – القاسط بن شريح بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، قتله قزمان.

١١ – صؤاب (غلام حبشي لهم)، قتله قزمان، ويقال قتله علي بن أبي طالب، ويقال سعد بن أبي وقاص.

ب – ومن بني أسد بن عبد العزي بن قصي رجل واحد وهو

١٢ – عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد، قتله علي بن أبي طالب.

ج – ومن بني زهرة بن كلاب رجلان وهما:

١٣ – أبو الحكم بن الأخنس بن شريق (بفتح أوله) بن عمرو الثقفي (والزهري بالحلف)، قتله علي بن أبي طالب.

١٤ – سباع بن عبد العزى الغبشاني الخزاعي (الزهري بالحلف)، قتله حمزة بن عبد المطلب.

د – ومن بني مخزوم بن يقظة أربعة نفر، وهم:

١٥ – هشام بن أبي أمية بن المغيرة (ابن عم خالد بن الوليد) قتله قزمان.

١٦ – الوليد بن العاص بن هشام بن المغيرة، قتله أيضًا قزمان.

١٧ – أبو أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة، قتله علي بن أبي طالب.

١٨ – خالد بن الأعلم (حليف لبني مخزوم)، قتله قزمان.

هـ – ومن بني جمح (بضم أوله وفتح ثانيه) رجلان، وهما:

١٩- أبو عزة، عمرو بن عبد الله بن عمير بن وهب أمر رسول الله - ﷺ - بضرب عنقه بعد أن وقع في الأسر.

٢٠- أبي بن خلف بن وهب، قتله رسول الله - ﷺ - بيده الكريمة وهو القتيل الوحيد الذي قتله النبي ﷺ بيده.

ز - ومن بني عامر بن لؤي رجلان وهما:

٢١- عبيدة بن جابر، قتله قزمان.

٢٢- شيبة بن مالك بن المضرب، قتله (أيضًا) قزمان. قال ابن هشام، ويقال قتله عبد الله بن مسعود. فهولاء هم قتلى المشركين في معركة أحد (على ما ذكره ابن إسحاق). ويفيد سياق غير ابن إسحاق من المؤرخين أن قتلى المشركين أكثر من اثنين وعشرين، فقد ذكر ابن القيم في زاد المعاد (ج ٢ ص ٢٤٠).

٢٣- ٢٤- ٢٥- أن سعد بن أبي وقاص قتل ثلاثة من المشركين في الهجوم الأخير الذي اقتحم به أبو سفيان الجبل.

٢٦- كما أن ابن إسحاق نفسه ذكر في الحديث الذي رواه الزبير أن أبا دجانة قد قتل رجلًا من المشركين.

٢٧- كما أن كعب بن مالك الصحابي الشهير روى (كما في البداية والنهاية ج ٤ ص ١٧) أن أبا دجانة أيضًا قتل رجلا من المشركين: ضربه بالسيف حتى تفرق فرقتين.

٢٨- كذلك الحارث بن الصمة قتل (أثناء الانسحاب) عثمان بن عبد الله بن المغيرة عند ما حاول الهجوم على النبي ﷺ (كما جاء في السيرة الحلبية) ج ١ ص ٣٠.

٢٩- كما أن أبا دجانة أيضًا قتل (أثناء الانسحاب) عبيد الله الجابري، الذي حاول قتل الحارث بن الصمة (كما ذكر ذلك في السيرة الحلبية) ج ١ ص ٣٠.

٣٠- (كذلك عتبة بن أبي وقاص) أخو سعد بن أبي وقاص قتله حاطب بن أبي بلتعة عندما هاجم الرسول ﷺ ساعة الانتكاسة وكسر رباعيته، كما ذكر ذلك في

السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٧،.

٣١-٣٢-٣٣-٣٤-٣٥-٣٦-٣٧- كما أنه أيضًا جاء في السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤٥ أن الحارث بن الصمة رأى سبعة من قتلى المشركين (أثناء الانسحاب إلى الجبل) بين يدي عبد الرحمن بن عوف فقال له (ظفرت يمينك) أكل هؤلاء قتلت؟ فقال ابن عوف، أما هذا وهذا فأنا قاتلتهما وأما هؤلاء فقتلهم من لم أره، ثم رجح ابن برهان الدين في السيرة الحلبية أن يكون الخمسة الآخرون قد قتلتهم الملائكة (دفاعًا عن عبد الرحمن بن عوف)، **فهولاء خمسة عشر قتيلا من المشركين لم يذكرهم بن إسحاق فيما رواه عنه ابن هشام في السيرة النبوية، فعلى هذا يكون عدد قتلى المشركين (في معركة أحد) سبعة وثلاثين لا اثنين وعشرين، والله أعلم.** [١]

أما جرحى المشركين فلم يعرف عددهم.

حالة الطوارىء في المدينة:

بات المسلمون في المدينة- ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ بعد الرجوع عن معركة أحد- وهم في حالة الطوارىء، باتوا- وقد أنهكهم التعب، ونال منهم أي منال- يحرسون أنقاب المدينة ومداخلها، ويحرسون رسول الله ﷺ خاصة، إذ كانت تتلاحقهم الشبهات من كل جانب.

غزوة حمراء الأسد:

وبات الرسول ﷺ وهو يفكر في الموقف، فقد كان يخاف أن المشركين إن فكروا في أنهم لم يستفيدوا شيئًا من النصر والغلبة التي كسبوها في ساحة القتال، فلا بد من أن يندموا على ذلك، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية، فصمم على أن يقوم بعملية مطاردة الجيش المكي. نادى النبي ﷺ في الناس، وندب من شاء إلى المسير إلى لقاء العدو- وذلك صباح الغد من معركة أحد، أي يوم الأحد

---

(١) «موسوعة الغزوات الكبرى» (٢/ ٢٣١ – ٢٤٦).

الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ- واستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد، والخوف المزيد، وقالوا: سمعًا وطاعة.

[عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة آل عمران:١٧٢]. قَالَتْ لِعُرْوَةَ : يَا ابْنَ أُخْتِي ، كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمُ: الزُّبَيْرُ وَأَبُو بَكْرٍ ، لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ ، خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا ، قَالَ: مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ؟ فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا ، قَالَ: كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّبَيْرُ (١).]

واستأذنه جابر بن عبد الله، وقال: يا رسول الله، إني أحب أن لا تشهد مشهدًا إلا كنت معك، وإنما خلفني أبي على بناته، فأذن لي، أسير معك، فأذن له(٢). وسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه، حتى بلغوا حمراء الأسد، فعسكروا هناك. ولم يكن ما خافه رسول الله ﷺ من تفكير المشركين في العودة إلى المدينة إلا حقًّا، فإنهم لما نزلوا بالروحاء تلاوموا فيما بينهم.

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً أُخْرَى : أَخْبَرَنِي عِكْرِمَةُ ، قَالَ : لَمَّا انْصَرَفَ أَبُو سُفْيَانَ وَالْمُشْرِكُونَ عَنْ أُحُدٍ ، وَبَلَغُوا الرَّوْحَاءَ[وهي على بعد ستة وثلاثين ميلًا من المدينة] ، قَالُوا : لَا مُحَمَّدًا قَتَلْتُمْ ، وَلَا الْكَوَاعِبَ أَرْدَفْتُمْ ، شَرٌّ مَا صَنَعْتُمْ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَنَدَبَ النَّاسَ فَانْتَدَبُوا حَتَّى بَلَغُوا حَمْرَاءَ الْأَسَدِ أَوْ بِئْرَ أَبِي عُيَيْنَةَ [على بعد ثمانية أميال من المدينة جنوب غربيِّ المدينة على

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧٧) ومسلم (٢٤١٨).

(٢) انظر زاد المعاد في هدي خير العباد - ط عطاءات العلم (٣/ ٢٨٢) وقال المحقق ذكره موسى بن عقبة، كما في «دلائل النبوة» (٣/ ٢١٧) اهـ. **قلت**: أصله في مسلم(١٨١٣) عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ قال : غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ تِسْعَ عَشْرَةَ غَزْوَةً ، قَالَ جَابِرٌ : لَمْ أَشْهَدْ بَدْرًا ، وَلَا أُحُدًا ، مَنَعَنِي أَبِي ، فَلَمَّا قُتِلَ عَبْدُ اللهِ يَوْمَ أُحُدٍ ، لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ قَطُّ .

قرابة عشرين كم] ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة آل عمران:١٧٢] (١).

حينئذ انهارت عزائم الجيش المكي حين بلغه الخبر، وأخذه الفزع والرعب، فلم ير العافية إلا في مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكة. وظهر ثبات المسلمين على دينهم أعظم من ثبات الجبال الراسيات، وصدق توكلهم على المولى الكريم سبحانه وذكر ذلك فقال تعالى]: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة آل عمران:١٧٣]. فزادهم- أي زاد المسلمين قولهم ذلك- إيمانا وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ أقام رسول الله ﷺ بحمراء الأسد بعد- مقدمه يوم الأحد- الإثنين والثلاثاءوالأربعاء- ٩/ ١٠/ ١١ شوال سنة ٣ هـ- ثم رجع إلى المدينة(٢).

الموعد الثاني

ثم خرج رسول الله ﷺ في السنة الرابعة إلى بدر لما قال أبو سفيان موعدكم بدر لكن قريشًا لم تفِ:

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: وَقَدْ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : مَوْعِدُكَ مَوْسِمُ بَدْرٍ حَيْثُ قَتَلْتُمْ أَصْحَابَنَا ، فَأَمَّا الْجَبَانُ فَرَجَعَ ، وَأَمَّا الشُّجَاعُ فَأَخَذَ أُهْبَةَ الْقِتَالِ وَالتِّجَارَةِ ، فَأَتَوْهُ فَلَمْ يَجِدُوا بِهِ أَحَدًا وَتَسَوَّقُوا ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فَٱنقَلَبُوا۟

---

(١) **صحيح:** وتخريجه ستراه مع تتمة الحديث بعده.

(٢) قال المباركفوري رحمه الله:أخذنا تفصيل غزوة أحد، وحمراء الأسد من ابن هشام(٢/ ٦٠ - ١٢٩)، وزاد المعاد (٢/ ٩١ - ١٠٨)، وفتح الباري مع صحيح البخاري(٧/ ٣٤٥ - ٣٧٧) ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي من(٢٤٢ - ٢٥٧)، وقد أحلنا إلى المصادر الأخرى في مواضعها.

بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٤]. (١)

هل كانت أحد هزيمة للمسلمين:

ومما لا شك فيه أن غزوة حمراء الأسد ليست بغزوة مستقلة، إنما هي جزء من غزوة أحد وتتمة لها، وصفحة من صفحاتها. تلك هي غزوة أحد بجميع مراحلها وتفاصيلها، وطالمًا بحث الباحثون حول مصير هذه الغزوة، هل كانت هزيمة أم لا؟ والذي لا يشك فيه أن التفوق العسكري في الصفحة الثانية من القتال كان للمشركين، وأنهم كانوا مسيطرين على ساحة القتال، وأن خسارة الأرواح والنفوس كانت في جانب المسلمين أكثر وأفدح، وأن طائفة من المؤمنين انهزمت قطعًا، وأن دفة القتال جرت لصالح الجيش المكي، لكن هناك أمورا تمنعنا أن نعبر عن كل ذلك بالنصر والفتح. فمما لا شك فيه أن الجيش المكي لم يستطع احتلال معسكر المسلمين، وأن المقدار الكبير من الجيش المدني لم يلتجىء إلى الفرار- مع الارتباك الشديد والفوضى العامة- بل قاوم بالبسالة حتى تجمع حول مقر قيادته، وأن كفته لم تسقط إلى حد أن يطارده الجيش المكي، وأن أحدا من جيش المدينة لم يقع في أسر الكفار، وأن الكفار لم يحصلوا على شيء من غنائم المسلمين، وأن الكفار لم يقوموا إلى الصفحة الثالثة من القتال مع أن جيش المسلمين لم يزل في معسكره، وأنهم لم يقيموا بساحة القتال يومًا أو يومين أو ثلاثة أيام- كما هو دأب الفاتحين في ذلك الزمان- بل سارعوا إلى الانسحاب وترك ساحة القتال، قبل أن يتركها

---

(١) **صحيح:** أخرجه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" برقم: (٢١٠) والنسائي في "الكبرى" برقم: (١١٠١٧) والطبراني في "الكبير" برقم: (١١٦٣٢) وقال الإمام الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول (ص٥٧) الذي أرسله هو محمد بن عبد الله بن يزيد المقرني كما في تفسير ابن كثير ، والذي وصله محمد بن منصور الطوسي وكلاهما قال الحافظ في التقريب إنه ثقة فإذا لم يتابع أحدهما حمل أن سفيان بن عيينة تارة يرويه متصلا وتارة يرسله كما تفيده رواية الطبراني **ويصح الحديث والحمد لله.**

المسلمون، ولم يجترئوا على الدخول في المدينة لنهب الذراري والأموال، مع أنها على بعد عدة خطوات فحسب، وكانت مفتوحة وخالية تمامًا. كل ذلك يؤكد لنا أن ما حصل لقريش لم يكن أكثر من أنهم وجدوا فرصة، نجحوا فيها بإلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، مع الفشل فيما كانوا يهدفون إليه من إبادة الجيش الإسلامي بعد عمل التطويق- وكثيرا ما يلقى الفاتحون بمثل هذه الخسائر التي نالها المسلمون- أما أن ذلك كان نصرًا وفتحًا فكلا وحاشا. بل يؤكد لنا تعجيل أبي سفيان في الانسحاب والانصراف؛ أنه كان يخاف على جيشه المعرة والهزيمة لو جرت صفحة ثالثة من القتال، ويزداد ذلك تأكدًا حين ننظر إلى موقف أبي سفيان من غزوة حمراء الأسد. وإذن فهذه الغزوة إنما كانت حربًا غير منفصلة، أخذ كل فريق بقسطه ونصيبه من النجاح والخسارة، ثم حاد كل منهما عن القتال، من غير أن يفر عن ساحة القتال ويترك مقره لاحتلال العدو، وهذا هو معنى الحرب غير المنفصلة. وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ [سورة النساء:١٠٤]. فقد شبه أحد العسكرين بالآخر في وإيقاع الألم، مما يفيد أن الموقفين كانا متماثلين، وأن الفريقين رجعا وكل غير غالب.

نزول القرآن حول موضوع المعركة:

ونزل القرآن يلقي ضوءًا على جميع المراحل المهمة من هذه المعركة مرحلة مرحلة، [فيه آيات] تصرح بالأسباب التي أدت إلى هذه الخسارة الفادحة، وذكر النواحي الضعيفة التي لم تزل موجودة في طوائف أهل الإيمان بالنسبة إلى واجبهم في مثل هذه المواقف الحاسمة، وبالنسبة إلى الأهداف النبيلة السامية التي أنشئت للحصول عليها هذه الأمة، التي تمتاز عن غيرها بكونها خير أمة أخرجت للناس.

كما أخبرنا الله تعالى عن موقف المنافقين، ففضحهم، وأبدى ما كان في باطنهم من العداوة لله ولرسوله، مع إزالة الشبهات والوساوس التي كانت تختلج بقلوب ضعفاء المسلمين، والتي كان يثيرها هؤلاء المنافقون وإخوانهم اليهود- أصحاب الدس والمؤامرة- وقد أشار إلى الحكم والغايات المحمودة التي تمخضت عنها هذه المعركة. نزلت حول موضوع المعركة ستون آية من سورة آل عمران تبتدىء بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [سورة آل عمران:١٢١]. [وذكر الله في نهايتها بيانًا] جامعًا لنتائج هذه المعركة وحكمتها قال تعالى:﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [سورة آل عمران:١٧٩].

الحكم والغايات المحمودة في هذه الغزوة:

قد بسط ابن القيم الكلام على هذا الموضوع بسطًا تامًّا [(١)] [فقال:]

منها: تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، وشؤم ارتكاب النهي، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول ﷺ أن لا يبرحوا منه.

ومنها: أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائمًا دخل في المؤمنين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفيا عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة، وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحا، وعرف المسلمون أن لهم عدوا في دورهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم.

---

(١) انظر زاد المعاد(٢/ ٩٩ - ١٠٨) راجعها بتمامها هنالك.

ومنها: أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضمًا للنفس، وكسرًا لشماختها، فلما ابتلي المؤمنون صبروا، وجزع المنافقون.

ومنها: أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها. ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم.

ومنها: أنه أراد إهلاك أعدائه، فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين، ومحق بذلك الكافرين [١].

العبروالدلالات والعظات والدروس

١- أن الطاعة هي قوام النظام في كل جيوش العالم، فإذا ما انعدمت الطاعة فسدت الخطة، وصار الأمر فوضى وخسرانا.

٢- اقتضت الحكمة الجمع بين النصر وتأخيره، ليتميز الصادق من الكاذب. ولو قطع الله كل يد امتدت إلى رسول الله ﷺ في حينه، لما بقي إسلام بعده، ولا صبر داعية، ولا تحمل مسلم، ولقيل: إن الله لم ينتصر لنا كما انتصر لنبيه. فتحمله ﷺ أسوه وقدوة لتحمل الدعاة المجاهدين من بعده، فتأخير النصر في بعض المواطن حكمة، فهو لتربية النفوس ولكسر شموخها وتعاظمها، فلما كان الابتلاء والامتحان صبر المؤمنون، وجزع المنافقون.

٣- حنكة رسول الله ﷺ الحربية، وبراعته العسكرية، وتقديره الدقيق للموقف، مع سرعة في اتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب، مع السيطرة التامة على سير الأحداث. فالتفاف جيش خالد كان كافيا لإفناء جيش المسلمين، وتحطيم كل قواته وعتاده. فجاءت الحنكة والاتزان والهدوء، بفك الطوق والانسحاب

---

(١) فتح الباري(٧/ ٣٤٧).

المنظم إلى جبل أحد. فاستطاع النبي ﷺ أن يجعل الخسارة أقل ما يكون. إن الافلات من عواقب الانكسار الشنيع عمل لا يقل- في خطره وعظمته- عن الانتصار الأول.

٤- تبختر أبي دجانة، يدل على أن بعض مظاهر الكبر المحرمة في الأحوال العامة تزول حرمتها في حالات الحرب.

٥- كان لشيوع خبر مقتل رسول الله ﷺ في صفوف المسلمين، فائدة عظيمة، وهي أن ارتباط المسلمين برسول الله ﷺ ووجوده فيما بينهم كان له من القوة بحيث لم يكونوا يتصورون فراقه. ولم يكونوا يتخيلون قدرة لهم على التمسك من بعده. فكان من الحكمة الباهرة شيوع هذا الخبر كي يستفيق المسلمون إلى الحقيقة التي ينبغي أن يوطنوا أنفسهم لها منذ الساعة، وأن لا يرتدوا على أعقابهم إذا وجدوا أن رسول الله ﷺ قد اختفى ما بينهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٤٤].

٦- الإيمان الكامل بالله ورسوله، والمحبة التامة لرسول الله ﷺ، كانا هما سبب التضحية الرائعة، من قبل الصحابة الذين كانوا يتساقطون الواحد منهم إثر الآخر تحت وابل السهام، وهم في نشوة عارمة، وكلهم حرص على حفظ حياة رسول الله ﷺ (١).

«ذِكْرُ بعض مَا قِيلَ مِنْ الشِّعْرِ يَوْمَ أُحُدٍ»(٢)

(شِعْرُ حَسَّانَ فِي عُتْبَةَ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَمَا أَصَابَ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ) :

---

(١) هذه الغزوة منقولة من «الرحيق المختوم مع زيادات» (ص٢٢٤ - ٢٢٨) وما كان من زيادات أحلنا عليها في مواضعها.

(٢) هذه الأشعار منقولة من: «سيرة ابن هشام ت السقا» (٢/ ١٢٩- ١٦٣).

إِذَا اللهُ جَازَى مَعْشَرًا بِفِعَالِهِمْ ۞۞۞ وَضَرَّهُمُ الرَّحْمَنُ رَبُّ الْمَشَارِقِ
فَأَخْزَاكَ رَبِّي يَا عُتَيْبَ بْنَ مَالِكٍ ۞۞۞ وَلَقَّاكَ قَبْلَ الْمَوْتِ إِحْدَى الصَّوَاعِقِ
بَسَطْتَ يَمِينًا لِلنَّبِيِّ تَعَمُّدًا ۞۞۞ فَأَدْمَيْتَ فَاهُ، قُطِّعَتْ بِالْبَوَارِقِ
فَهَلَّا ذَكَرْتَ اللهَ وَالْمَنْزِلَ الَّذِي ۞۞۞ تَصِيرُ إِلَيْهِ عِنْدَ إِحْدَى الْبَوَائِقِ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ فِي مَقْتَلِ أُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ:

لَقَدْ وَرِثَ الضَّلَالَةَ عَنْ أَبِيهِ ۞۞۞ أُبَيٌّ يَوْمَ بَارَزَهُ الرَّسُولُ
أَتَيْتَ إِلَيْهِ تَحْمِلُ رِمَّ عَظْمٍ ۞۞۞ وَتُوعِدُهُ وَأَنْتَ بِهِ جَهُولُ
وَقَدْ قَتَلَتْ بَنُو النَّجَّارِ مِنْكُمْ ۞۞۞ أُمَيَّةَ إِذْ يُغَوَّثُ: يَا عَقِيلُ
وَتَبَّ ابْنَا رَبِيعَةَ إِذْ أَطَاعَا ۞۞۞ أَبَا جَهْلٍ، لِأُمِّهِمَا الْهَبُولُ
وَأَفْلَتَ حَارِثٌ لَمَّا شَغَلْنَا ۞۞۞ بِأَسْرِ الْقَوْمِ، أُسْرَتُهُ فَلَيْلُ

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ أَيْضًا فِي ذَلِكَ:

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي أُبَيًّا ۞۞۞ لَقَدْ أُلْقِيتَ فِي سُحُقِ السَّعِيرِ
تَمَنَّى بِالضَّلَالَةِ مِنْ بَعِيدٍ ۞۞۞ وَتُقْسِمُ أَنْ قَدَرْتَ مَعَ النُّذُورِ
تَمَنِّيكَ الْأَمَانِيِّ مِنْ بَعِيدٍ ۞۞۞ وَقَوْلُ الْكُفْرِ يَرْجِعُ فِي غُرُورِ
فَقَدْ لَاقَتْكَ طَعْنَةُ ذِي حِفَاظٍ ۞۞۞ كَرِيمِ الْبَيْتِ لَيْسَ بِذِي فُجُورِ
لَهُ فَضْلٌ عَلَى الْأَحْيَاءِ طُرًّا ۞۞۞ إِذَا نَابَتْ مُلِمَّاتُ الْأُمُورِ

[وقال] كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، فَقَالَ:

أَبْلِغْ قُرَيْشًا وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ ۞۞۞ وَالصِّدْقُ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَقْبُولُ
أَنْ قَدْ قَتَلْنَا بِقَتْلَانَا سَرَاتَكُمْ ۞۞۞ أَهْلَ اللِّوَاءِ فَفِيمَا يَكْثُرُ الْقِيلُ
وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ ۞۞۞ فِيهِ مَعَ النَّصْرِ مِيكَالُ وَجِبْرِيلُ
إِنْ تَقْتُلُونَا فَدِينُ الْحَقِّ فِطْرَتُنَا ۞۞۞ وَالْقَتْلُ فِي الْحَقِّ عِنْدَ اللهِ تَفْضِيلُ

وَإِنْ تَرَوْا أَمْرَنَا فِي رَأْيِكُمْ سَفَهًا ۞۞۞ فَرَأْيُ مَنْ خَالَفَ الْإِسْلَامَ تَضْلِيلُ
فَلَا تَمَنَّوْا لِقَاحَ الْحَرْبِ وَاقْتَعِدُوا ۞۞۞ إِنَّ أَخَا الْحَرْبِ أَصْدَى اللَّوْنِ مَشْغُولُ
إِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا ضَرْبًا تَرَاحُ لَهُ ۞۞۞ عُرْجُ الضِّبَاعِ لَهُ خَذْمٌ رَعَابِيلُ
إِنَّا بَنُو الْحَرْبِ نَمْرِيهَا وَنَنْتِجُهَا ۞۞۞ وَعِنْدَنَا لِذَوِي الْأَضْغَانِ تَنْكِيلُ
إِنْ يَنْجُ مِنْهَا ابْنُ حَرْبٍ بَعْدَ مَا بَلَغَتْ ۞۞۞ مِنْهُ التَّرَاقِي وَأَمْرُ اللهِ مَفْعُولُ
فَقَدْ أَفَادَتْ لَهُ حِلْمًا وَمَوْعِظَةً ۞۞۞ لِمَنْ يَكُونُ لَهُ لُبٌّ وَمَعْقُولُ
وَلَوْ هَبَطْتُمْ بِبَطْنِ السَّيْلِ كَافَحَكُمْ ۞۞۞ ضَرْبٌ بِشَاكِلَةِ الْبَطْحَاءِ تَرْعِيلُ
تَلْقَاكُمُ عُصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهُمْ ۞۞۞ مِمَّا يُعِدُّونَ لِلْهَيْجَا سَرَابِيلُ
مِنْ جِذْمِ غَسَّانَ مُسْتَرِخٍ حَمَائِلُهُمْ ۞۞۞ لَا جُبَنَاءُ وَلَا مِيلٌ مَعَازِيلُ
يَمْشُونَ تَحْتَ عَمَايَاتِ الْقِتَالِ كَمَا ۞۞۞ تَمْشِي الْمَصَاعِبَةُ الْأُدْمُ الْمَرَاسِيلُ
أَوْ مِثْلُ مَشْيِ أُسُودِ الظِّلِّ أَثْقَلَهَا ۞۞۞ يَوْمُ رَذَاذٍ مِنَ الْجَوْزَاءِ مَشْمُولُ
فِي كُلِّ سَابِغَةٍ كَالنَّهْيِ مُحْكَمَةٍ ۞۞۞ قِيَامُهَا فَلَجٌ كَالسَّيْفِ بُهْلُولُ
تَرُدُّ حَدَّ قِرَامِ النَّبْلِ خَاسِئَةً ۞۞۞ وَيَرْجِعُ السَّيْفُ عَنْهَا وَهُوَ مَفْلُولُ
وَلَوْ قَذَفْتُمْ بِسَلْعٍ عَنْ ظُهُورِكُمْ ۞۞۞ وَلِلْحَيَاةِ وَدَفْعِ الْمَوْتِ تَأْجِيلُ
مَا زَالَ فِي الْقَوْمِ وِتْرٌ مِنْكُمُ أَبَدًا ۞۞۞ تَعْفُو السَّلَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ مَطْلُولُ
عَبْدٌ وَحُرٌّ كَرِيمٌ مُوثِقٌ قَنَصًا ۞۞۞ شَطْرَ الْمَدِينَةِ مَأْسُورٌ وَمَقْتُولُ
كُنَّا نُؤَمِّلُ أُخْرَاكُمْ فَأَعْجَلَكُمْ ۞۞۞ مِنَّا فَوَارِسُ لَا عُزْلٌ وَلَا مِيلُ
إِذَا جَنَى فِيهِمُ الْجَانِي فَقَدْ عَلِمُوا ۞۞۞ حَقًّا بِأَنَّ الَّذِي قَدْ جَرَّ مَحْمُولُ
مَا نَحْنُ لَا نَحْنُ مِنْ إِثْمٍ مُجَاهَرَةً ۞۞۞ وَلَا مَلُومٌ وَلَا فِي الْغُرْمِ مَخْذُولُ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَبْكِي حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَنْشَدَنِيهَا أَبُو زَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ لِكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ:

بَكَتْ عَيْنِي وَحَقَّ لَهَا بُكَاهَا ۞۞۞ وَمَا يُغْنِي الْبُكَاءُ وَلَا الْعَوِيلُ

عَلَى أَسَـــدِ الْإِلَـهِ غَـدَاةَ قَـالُوا ۞۞۞ أَحَمْزَةُ ذَاكُمُ الرَّجُـلُ الْقَتِيـلُ
أُصِـيبَ الْمُسْـلِمُونَ بِهِ جَمِيعًا ۞۞۞ هُنَاكَ وَقَدْ أُصِـيبَ بِهِ الرَّسُـولُ
أَبَـا يَعْلِي لَـكَ الْأَرْكَـانُ هُـدَّتْ ۞۞۞ وَأَنْـتَ الْمَـاجِدُ الْبَرُّ الْوَصُـولُ
عَلَيْـكَ سَـلَامُ رَبِّـكَ فِي جِنَانٍ ۞۞۞ مُـخَـالِـطُـهَـا نَـعِـيـمٌ لَا يَـزُولُ
أَلَا يَـا هَـاشِـمَ الْأَخْيَارِ صَـبْرًا ۞۞۞ فَكُـلُّ فِعَـالِكُمْ حَسَـنٌ جَمِيـلُ
رَسُـولُ اللهِ مُصْـطَبِرٌ كَـرِيـمٌ ۞۞۞ بِـأَمْـرِ اللهِ يَـنْـطِـقُ إِذْ يَـقُـولُ
أَلَا مِـنْ مُـبْـلِـغٍ عَـنِّـي لُـؤَيًّـا ۞۞۞ فَـبَـعْـدَ الْـيَـوْمِ دَائِـلَـةٌ تَـدُولُ
وَقَبْـلَ الْيَوْمِ مَـا عَرَفُوا وَذَاقُوا ۞۞۞ وَقَـائِعَنَا بِهَـا يُشْـفَى الْغَلِيـلُ
نَسِـيـتُمْ ضَـرْبَنَـا بِقَلِيـبِ بَـدْرٍ ۞۞۞ غَـدَاةَ أَتَـاكُمُ الْمَوْتُ الْعَجِيـلُ
غَـدَاةً ثَوَى أَبُو جَهْـلٍ صَـرِيعًـا ۞۞۞ عَلَيْـهِ الطَّيْرُ حَـائِمَـةٌ تَجُولُ
وَعُـتْـبَـةُ وَابْـنُـهُ خَـرَّا جَـمِـيـعًـا ۞۞۞ وَشَـيْبَةُ عَضَّـهُ السَّـيْفُ الصَّـقِيلُ
وَمَـتْـرَكُـنَـا أُمَـيَّـةَ مُـجْـلَـعِـبًّـا ۞۞۞ وَفِـي حَـيْـزُومِـهِ لَـدْنٌ نَـبِـيـلُ
وَهَـامَ بَنِي رَبِيعَـةَ سَـائِلُوهَـا ۞۞۞ فَفِي أَسْـيَـافِنَـا مِنْهَـا فُلُـولُ

(ملخص معركة أحد الفاصلة)

١- اسم المعركة : معركة أحد.

٢- مكان المعركة : عند جبل أُحُد وهو جبل شهير من جبال المدينة النبوية، ويقع هذا الجبل في شمالي المدينة، ويقع على بعد حوالي أربعة كيلو مترات منها. ويفصل جبل أُحُد عن المدينة وادي قناة الذي يأتي من شرق المدينة الذي يمر حذاء جبل أُحُد متجهًا نحو الغرب حتى يصب في زغابة.وطوله من الشرق إلى الغرب ستة آلاف متر، وفيه رءوس كثيرة وهضبات شتى، وقد وقعت المعركة بالقرب من سفوح هذا الجبل من الناحية الجنوبية في بطن وادي قناة وما حواليه من السهول. [«موسوعة الغزوات الكبرى» (٢/ ٢٥)].

٣- تاريخ المعركة: يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣ هـ.

٤- الفريقان المتقاتلان :

١- المسلمون: بقيادة نبينا ﷺ.

٢- المشركون: بقيادة أبي سفيان بن حرب.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما:

أولًا المسلمون: عددهم : سبعمائة مقاتل ، فيهم مائة دارع وخمسون فارسًا، وقيل بل فارسان فقط.

قسم النبي ﷺ جيشه في ساحة المعركة كالتالي:

١- فصيلة الرماة الماهرين، قوامها خمسون مقاتلًا،أعطى قيادتها لعبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري الأوسي البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادي قناة جنوب شرق معسكر المسلمين، على بعد حوالي مائة وخمسين مترًا من مقر الجيش الإسلامي.

٢- جعل على الميمنة المنذر بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣- وجعل على الميسرة الزبير بن العوام، يسانده المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان إلى الزبير مهمة الصمود في وجه فرسان خالد بن الوليد.

٤- وجعل في مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة، والذين يوزنون بالآلاف. وكان خلف المسلمين جبل أحد والعدو بينه وبين المدينة ليشعر بالقلق الدائم من أي مدد يقدم.

ثانيًا المشركون: كان سلاح النقليات في هذا الجيش ثلاثة آلاف بعير، ومن سلاح الفرسان مائتا فرس جنبوها طوال الطريق، وكان من سلاح الوقاية سبعمائة درع. **وعددهم:** ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحابيش،وعبأوا جيشهم كالتالي:

١- كانت القيادة العامة إلى أبي سفيان صخر بن حرب الذي تمركز في قلب الجيش.

٢- وجعلوا على الميمنة وقيادة الفرسان خالد بن الوليد.

٣- وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل وهو معاون لخالد في قيادة الفرسان أيضًا.

٤- وعلى المشاة صفوان بن أمية.

٥- وعلى رماة النبل عبد الله بن أبي ربيعة.

٦- أما اللواء فكان إلى مفرزة من بني عبد الدار.

٦- سبب المعركة : اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين، تشفي غيظها، وتروي غلة حقدها، لما أصابها في معركة بدر وأخذت في الاستعداد فكانت غزوة أحد.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- نزلت حول موضوع المعركة ستون آية من سورة آل عمران تبتدئ بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٢١].].[وذكر الله في نهايتها بيانًا] جامعًا لنتائج هذه المعركة وحكمتها قال تعالى:﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٧٩].

*** أقول كما تقدم في سورة الأنفال فيها قواعد وفوائد وأسس يمضي عليها المجاهد في سبيل الله تعالى ؛ فلا تغفل عنها فعليك تأملها وقراءة تفسيرها. ستعرف إن شاء الله تعالى صاحبك في الحرب وعدوك وأهمية ثبات القائد في الحرب لا سيما عند ارتباك الصفوف و...إلخ** وهذه السورة الثانية تمر معنا في شأن الجهاد وأحكامه.

٢- وأخبر الله تعالى بقوله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ

مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ [سورة آل عمران:١٤٠].أن المعركة لم تكن هزيمة للمسلمين فكلا الفريقين لديهم جراح وخلاصة ما حصل أن المسلمين انتصروا في أول المعركة ثم تمكن المشركون ولكن لم يتم لهم النصر ؛ لأنهم لم يغنموا، ولم يسبوا، ولم يأسروا ، ولم يدخلوا المدينة ، ولم يقيموا في ساحة المعركة إقامة المنتصر، ولم يرجعوا حينما لحقهم المسلمون إلى حمراء الأسد ، وأحسن ما يقال خرجوا بماء الوجه.

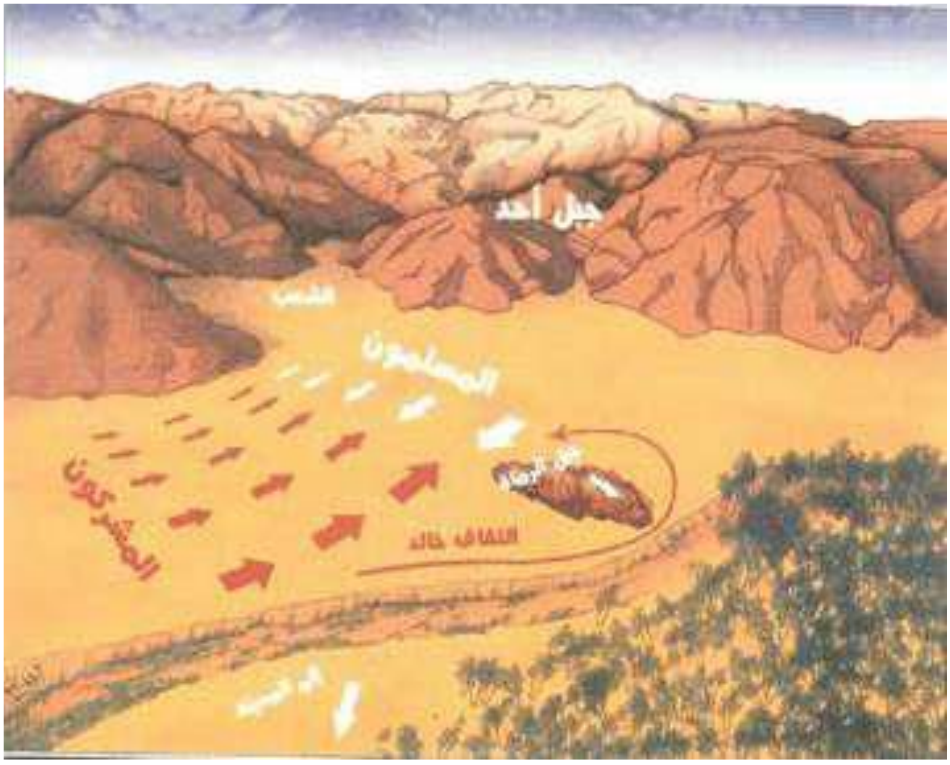
٣- عدد قتلى المشركين (في معركة أحد) سبعة وثلاثون، أما جرحى المشركين فلم يعرف عددهم.

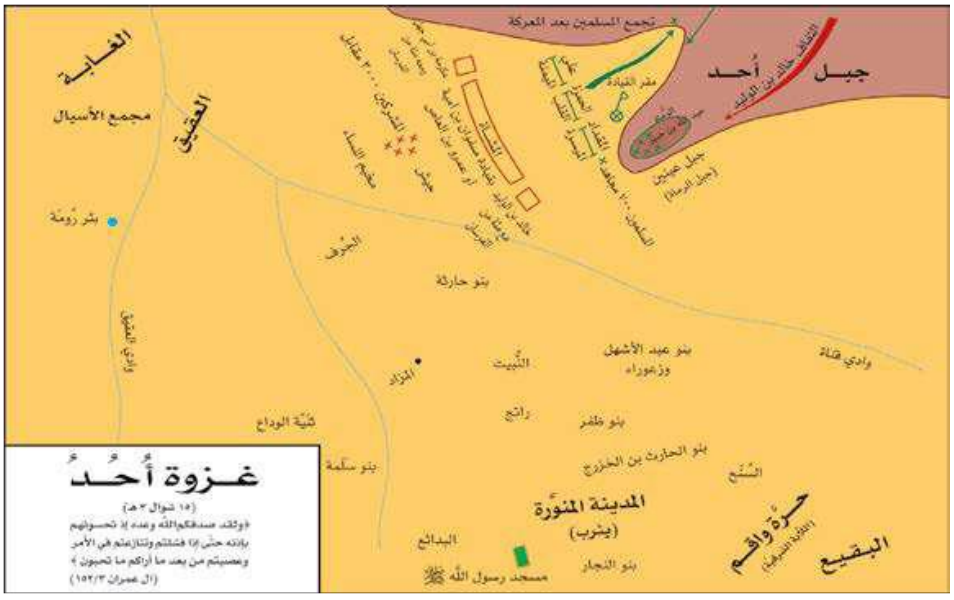
٤- اتفقت جل الروايات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين، وكانت الأغلبية من الأنصار، فقد قتل منهم [ستة] وستون رجلًا، واحد وأربعون من الخزرج، وأربعة وعشرون من الأوس.وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط.وأما الجرحى فهم أكثر.

٥- من أهم ما يستفاد هنا أن المنافقين من أعظم أسباب الخذيلة، وأنه لا يفرح بهم في قتال الأعداء وأن الجيوش ينبغي أن تطهر ممن يبث الرعب ويضعف الهمم ويصد الناس ولو تظاهر بالمعرفة والحكمة، وهذه الصفة تراها فيهم في كل زمان ومكان، **وأعظم شيء أعُدُّ به هذه المعركة من المعارك الفاصلة هو أنها بينت حال المنافق من المخلص وقد ذكر الله تعالى هذه الحكمة جلية، وأن علينا ألا نتشكك في صحة ديننا لعارض هزيمة أو فقر أو نحو ذلك** فقال سبحانه:﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ [سورة آل عمران:١٧٩].

٦- تقدم في كلام صاحب الرحيق ذكر كثير من النتائج فيرجع إليها.

٨- خريطة موقعة أحد: من الصحيح المصفى للشيخ سليم وفقه الله:









المعركة الثالثة من معارك الإسلام الفاصلة: غزوة الأحزاب

تمهيد[١]:

عاد السلام والأمن، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعثات التي استغرقت أكثر من سنة كاملة، إلا أن اليهود؛ لغدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم لم يفيقوا من غيهم، ولم يستكينوا ولم يتعظوا بما أصابهم نتيجة الغدر والتآمر، فبعد نفيهم إلى خيبر ظلوا ينتظرون ما يحل بالمسلمين نتيجة المناوشات التي كانت قائمة بين المسلمين والوثنيين. ولمّا تحول مجرى الأيام لصالح المسلمين، وتمخضت الليالي والأيام عن بسط نفوذهم، وتوطد سلطانهم، تحرق هؤلاء اليهود أيَّ تحرق. وشرعوا في التآمر من جديد على المسلمين، وأخذوا يعدون العدة، لتهيئة ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها. ولما لم يكونوا يجدون في أنفسهم جرأة على مناورة المسلمين مباشرة، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبة.

خرج عشرون رجلًا من زعماء اليهود وسادات بني النضير إلى قريش بمكة، يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ ، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، وقريش قد أخلفت وعدها في الخروج إلى بدر، فرأت في ذلك إنقاذ سمعتها والبر بكلمتها.

ثم خرج هذا الوفد إلى غطفان، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشا، فاستجابوا

---

(١) نقلت هذه المعركة من [«الرحيق المختوم» (ص٢٧٥- ٢٩٣)] وزدت فيها ما لم يذكره مميزًا له بين معقوفين []، وحذفت منها ما لم يصح.

لذلك، ثم طاف الوفد في قبائل العرب المجاورة يدعوهم إلى ذلك، فاستجاب له من استجاب، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبيّ ﷺ ودعوته والمسلمين. وفعلًا خرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة- وقائدهم أبو سفيان- في أربعة آلاف، ووافاهم بنو سليم بمر الظهران، وخرجت من الشرق قبائل غطفان: بنو فزارة، يقودهم عيينة بن حصن، وبنو مرة، يقودهم الحارث بن عوف، وبنو أشجع يقودهم مسعر بن رخيلة كما خرجت بنو أسد وغيرها واتجهت هذه الأحزاب، وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه.

وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عرمرم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل، جيش ربما يزيد عدده على جميع من في المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ.

ولو بلغت هذه الأحزاب المحزبة والجنود المجندة إلى أسوار المدينة بغتة لكانت أعظم خطر على كيان المسلمين مما يقاس، ربما تبلغ إلى استئصال الشأفة وإبادة الخضراء، ولكن بعد حفظ الله تعالى كانت قيادة المدينة كانت قيادة متيقظة، لم تزل واضعة أناملها على العروق النابضة، تجس الظروف، وتقدر ما يتمخض عن مجراها، فلم تكد تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت الأخبار إلى المدينة بهذا الزحف الخطير.

[ولم يكن رسول الله ﷺ قائدًا ضعيفًا ولا جبانًا ولا قائدًا متهورًا بل كان رسولًا متوكلًا شجاعًا محنّكًا فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ[1].]

سارع رسول الله ﷺ إلى استشارة أصحابه رضي الله عنهم كما أمره الله تعالى،

(١) أخرجه البخاري برقم: (٢٨٢٠) ومسلم برقم: (٢٣٠٧).

وتناول معهم موضوع خطة الدفاع عن كيان المدينة، وبعد مناقشات جرت ، اتفقوا على قرار حفر الخندق وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك.

وأسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعًا.

وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق، ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهمهم في عملهم هذا، ففي البخاري عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْخَنْدَقِ ، وَهُمْ يَحْفِرُونَ ، وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُّرَابَ عَلَى أَكْتَادِنَا(١) ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَهْ ❁ ❁ ❁ فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:(٢)قال خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ :

اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَهْ ❁ ❁ ❁ فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ

فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ :

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا ❁ ❁ ❁ عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

وفيه (٣)عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَحْزَابِ وَخَنْدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الْخَنْدَقِ ، حَتَّى وَارَى عَنِّي الْغُبَارُ جِلْدَةَ بَطْنِهِ ، وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعَرِ ، فَسَمِعْتُهُ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَاتِ ابْنِ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

---

(١) أكتادنا: بالمثناة جمع كتد وهو ما بين الكاهل إلى الظهر. الحديث أخرجه البخاري(٣٧٩٧) واللفظ له، ومسلم(١٨٠٤).

(٢) أخرجه البخاري(٢٨٣٤) واللفظ له، ومسلم(٥٧٨٩).

(٣) أخرجه البخاري(٤١٠٦) واللفظ له، ومسلم(١٨٠٣).

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ۞۞۞ وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ۞۞۞ وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا
إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ۞۞۞ وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

قال: ثم يمد بها صوته بآخرها، وفي رواية:

وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ۞۞۞ إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

كان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهم يقاسون من شدة الجوع، ما يفتت الأكباد قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كان أهل الخندق) قَالَ: يُؤْتَوْنَ بِمِلْءِ كَفِّي مِنَ الشَّعِيرِ، فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ، تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيِ الْقَوْمِ، وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ، وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الْحَلْقِ، وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ[1].

وبهذه المناسبة وقع في حفر الخندق آيات من أعلام النبوة، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ، فَقَالَ: «**أَنَا نَازِلٌ**». ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ، فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ، أَوْ أَهْيَمَ[أي صار رملًا لا يتماسك]، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ، فَذَبَحْتُ الْعَنَاقَ، وَطَحَنْتُ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدِ انْكَسَرَ، وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الْأَثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ، قَالَ: كَمْ هُوَ. فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ: «**كَثِيرٌ طَيِّبٌ**»، قَالَ: «**قُلْ لَهَا: لَا تَنْزِعِ الْبُرْمَةَ، وَلَا الْخُبْزَ مِنَ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ**»، فَقَالَ: «**قُومُوا**». فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ

---

(١) أخرجه البخاري(٤١٠٠) والإهالة: الدهن الذي يؤتدم به سواء كان زيتًا أو سمنًا أو شحمًا سنخة: أي تغير طعمها ولونها من قدمها.

قَالَ: وَيْحَكِ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ ، فَقَالَ: **«ادْخُلُوا وَلَا تَضَاغَطُوا»**. فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ ، وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ ، وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ ، قَالَ: **«كُلِي هَذَا وَأَهْدِي ، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ»**.

وفي لفظ مسلم قَالَ: فَأَخْرَجْتُ لَهُ عَجِينَتَنَا فَبَصَقَ فِيهَا وَبَارَكَ ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ فِيهَا وَبَارَكَ ، ثُمَّ قَالَ: **«ادْعِي خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعَكِ ، وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ ، وَلَا تُنْزِلُوهَا»**. وَهُمْ أَلْفٌ ، فَأُقْسِمُ بِاللهِ لَأَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا ، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ ، وَإِنَّ عَجِينَتَنَا لَتُخْبَزُ كَمَا هُوَ[1].

وليس هذا لجابر وحده فقد جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : احْتَفَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْخَنْدَقَ وَأَصْحَابُهُ قَدْ شَدُّوا الْحِجَارَةَ عَلَى بُطُونِهِمْ مِنَ الْجُوعِ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ : **هَلْ دَلَلْتُمْ عَلَى رَجُلٍ يُطْعِمُنَا أَكْلَةً ؟** قَالَ رَجُلٌ : نَعَمْ ، قَالَ : **" أَمَا لَا فَتَقَدَّمْ فَدُلَّنَا عَلَيْهِ "** فَانْطَلَقُوا إِلَى الرَّجُلِ فَإِذَا فِي الْخَنْدَقِ يُعَالِجُ نَصِيبَهُ مِنْهُ ، فَأَرْسَلَتِ امْرَأَتُهُ أَنْ جِئْ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَتَانَا ، فَجَاءَ الرَّجُلُ يَسْعَى ، فَقَالَ : بِأَبِي وَأُمِّي وَلَهُ مَعْزَةٌ وَمَعَهَا جَدْيُهَا ، فَوَثَبَ إِلَيْهَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **" الْجَدْيُ مِنْ وَرَائِنَا "** **فَذَبَحَ الْجَدْيَ** ، وَعَمَدَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى طَحِينَةٍ لَهَا فَعَجَنَتْهَا وَخَبَزَتْ فَأَدْرَكَتِ الْقِدْرَ فَثَرَدَتْ قَصْعَتَهَا ، فَقَرَّبَتْهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ، فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِصْبَعَهُ فِيهَا ، فَقَالَ : **" بِاسْمِ اللهِ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهَا ، اطْعَمُوا "** فَأَكَلُوا مِنْهَا حَتَّى صَدَرُوا وَلَمْ يَأْكُلُوا مِنْهَا إِلَّا ثُلُثَهَا وَبَقِيَ ثُلُثَاهَا ، فَسَرَّحَ أُولَئِكَ الْعَشَرَةَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ **أَنِ اذْهَبُوا وَسَرِّحُوا إِلَيْنَا بِعِدَّتِكُمْ** ، فَذَهَبُوا وَجَاءَ أُولَئِكَ الْعَشَرَةُ مَكَانَهُمْ فَأَكَلُوا مِنْهَا حَتَّى شَبِعُوا ، ثُمَّ قَامَ وَدَعَا لِرَبَّةِ الْبَيْتِ وَسَمَّتَ عَلَيْهَا وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِهَا ، ثُمَّ تَمَشَّوْا إِلَى الْخَنْدَقِ

---

(١) أخرجه البخاري(٤١٠١) و (٤١٠٢) ومسلم(٢٠٣٩).

، فَقَالَ : اذْهَبُوا بِنَا إِلَى سَلْمَانَ ، فَإِذَا صَخْرَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ قَدْ ضَعُفَ عَنْهَا ، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ : " **دَعُونِي فَأَكُونَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَهَا** " فَقَالَ : " **بِاسْمِ اللهِ** " فَضَرَبَهَا فَوَقَعَتْ فِلْقَةٌ ثُلُثُهَا ، فَقَالَ : " **اللهُ أَكْبَرُ قُصُورُ الرُّومِ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ** " ثُمَّ ضَرَبَ بِأُخْرَى فَوَقَعَتْ فِلْقَةٌ فَقَالَ : " **اللهُ أَكْبَرُ قُصُورُ فَارِسَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ** " فَقَالَ عِنْدَهَا الْمُنَافِقُونَ : نَحْنُ نُخَنْدِقُ عَلَى أَنْفُسِنَا وَهُوَ يَعِدُنَا قُصُورَ فَارِسَ وَالرُّومِ(١).

ولما كانت المدينة تحيط بها الحرات والجبال وبساتين من النخيل من كل جانب سوى الشمال، وكان النبي ﷺ يعلم أن زحفَ مثل هذا الجيش الكبير، ومهاجمة المدينة- لا يمكن إلا من جهة الشمال، اتخذ الخندق في هذا الجانب، وواصل المسلمون عملهم في حفره، فكانوا يحفرونه طول النهار، ويرجعون إلى أهليهم في المساء، حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة، قبل أن يصل الجيش الوثني العرمرم إلى أسوار المدينة.

وأقبلت قريش في أربعة آلاف، حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد في ستة آلاف حتى نزلوا بذنب نقمي إلى جانب أحد. ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الأحزاب:٢٢].وأما المنافقون وضعفاء النفوس فقد تزعزعت قلوبهم لرؤية هذا الجيش قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [سورة الأحزاب:١٢].

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٠٥٢).

تفاصيل خطة الدفاع

١ - أن يبقى المسلمون في المدينة للدفاع عنها وأن لا يخرجوا إلى الأحزاب خارجها.

٢ - أن تكون خطوط الدفاع الرئيسية في الطرف الشمالي من المدينة والواقع أمام جبل (سلع) على أن يكون هذا الجبل خلف ظهر القيادة الإسلامية.

٣ - أن يقوم المسلمون بحفر خندق عميق يكون حاجزًا بينهم وبين جيوش الأحزاب.

٤ - أن يقوم المسلمون بإخلاء المدينة من النساء والأطفال والعجزة، على أن يجمعوهم في الحصون والآطام المنيعة، بعيدين عن العدو، ولتسهل حمايتهم (وخاصة من يهود بنى قريظة الواقعة منازلهم في المدينة والذين لا يأمن المسلمون جانبهم).

٥ - أن تقوم الدوريات الإسلامية بحراسة المدينة على التوالي، طول الليل حتى الصباح[١].

وكان شعارهم ما جاء عن رَجُل مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةَ الْخَنْدَقِ: **«إِنِّي لَا أَرَى الْقَوْمَ إِلَّا مُبَيِّتِيكُمُ اللَّيْلَةَ ، فَإِنَّ شِعَارَكُمْ حم لَا يُنْصَرُونَ»**[٢].

واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في آطام المدينة. أي حصونها. ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة، وجدوا

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى (٣/ ١٣٠).

(٢) **صحيح:** أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢٠ / ٣٧٦) (٣٧٩٥٤) والنسائي في "الكبرى" (٨٨١٠) عن رجل من الصحابة وهو البراء كما في المستدرك(٢٥٢٧) وغيره وهو في الصحيح المسند (٢/ ٤٥٦) (١٥٢٥).

خندقًا عريضًا يحول بينهم وبينها، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم، إذ كانت هذه الخطة- كما قالوا- مكيدة ما عرفتها العرب، فلم يكونوا أدخلوها في حسابهم رأسًا. وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضابًا، يتحسسون نقطة ضعيفة، لينحدروا منها، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين، يرشقونهم بالنبل، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه، ولا يستطيعوا أن يقتحموه، أو يهيلوا عليه التراب، ليبنوا به طريقًا يمكنهم من العبور. وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى في ترقب نتائج الحصار:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قُتِلَ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ قَتَلَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مُبَارَزَةً[1].وكان من شجعان المشركين وأبطالهم أقبل على عليّ، فتجاولا وتصاولا، حتى قتله علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وانهزم من كان معه ، وقد حاول المشركون في بعض الأيام محاولة بليغة، لاقتحام الخندق، أو لبناء الطرق فيها، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة، ورشقوهم بالنبل وناضلوهم أشد النضال حتى فشل المشركون في محاولتهم.

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فاتت بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ والمسلمين، ففي الصحيحين عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جاء يوم الخندق، فجعل يسب كفار قريش. فقال: يا رسول الله ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب، فقال النبي ﷺ : **«وأنا والله ما صليتها»** ، فنزلنا مع النبي ﷺ بطحان، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر

---

(١) **حسن بشواهده:** أخرجه الحاكم (٤٣٤٩) وفيه الحكم روايته عن مقسم فيها انقطاع ، ولكن له شاهدان مرسلان عن عروة بن الزبير ، ومحمد بن كعب القرظي كما في السنن الكبرى للبيهقي (١٢٨٩٦).

بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب [١]. وقد استاء رسول الله ﷺ لفوات هذه الصلاة حتى دعا على المشركين، ففي البخاري عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال يوم الخندق: «**ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس**» [٢] .وفي مسند أحمد والشافعي أنهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فصلاهن جميعًا. قال النووي: وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أيامًا فكان هذا في بعض الأيام، وهذا في بعضها. اهـ [٣].ومن هنا يؤخذ أن محاولة العبور من المشركين، والمكافحة المتواصلة من المسلمين دامت أيامًا، إلا أن الخندق لما كان حائلًا بين الجيشين لم يجر بينهما قتال مباشر وحرب دامية، بل اقتصروا على المراماة والمناضلة.وفي هذه المراماة قتل رجال من الجيشين، يعدون على الأصابع ستة من المسلمين وعشرة من المشركين، بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف.

روى ابن إسحاق أنّ عائشة أم المؤمنين كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق، وكان من أحرز حصون المدينة، وكانت أمّ سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا معها في الحصن. قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب. فمرّ (سعد) وعليه درع مقلصة خرجت منها ذراعه كلها، وفي يده حربته يرقل بها ويقول:

لبّث قليلا يشــهد الهيجا حمل ۞ ۞ ۞ لا بأس بالموت إذا حان الأجل

فقالت له أمه: اِلحق يا بنيّ فقد- والله- أخرت. فقالت عائشة: فقلت لها: يا أم سعد! والله لوددت أنّ درع سعد كانت أسبغ مما هي. قالت: وخفت عليه حيث

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٦) ومسلم (٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٤١١١).

(٣) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص(٢٨٧)، وشرح مسلم للنووي (١ / ٢٢٧).

أصاب السهم منه، فرمي سعد بن معاذ بسهم قطع منه الأكحل[١].

رمي سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رماه رجل من قريش يقال له حبان بن العرقة، فدعا سعد: اللّهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ وأخرجوه، اللّهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني لهم، حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتتي فيها. وقال في آخر دعائه: ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة[٢].

وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة كانت أفاعي الدس والتآمر تتقلب في جحورها، تريد إيصال السم داخل أجسادهم. انطلق كبير مجرمي بني النضير إلى ديار بني قريظة، فأتى كعب بن أسد القرظي- سيد بني قريظة، وصاحب عقدهم وعهدهم، وكان قد عاقد رسول الله ﷺ على أن ينصره إذا أصابته حرب - فضرب عليه حيي الباب، فأغلقه كعب دونه، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه، فقال حيي: إني قد جئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمي إلى جانب أحد، قد عاهدوني وعاقدوني على ألايبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه. فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه، فهو يرعد ويبرق، ليس فيه شيء، ويحك يا حيي! فدعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاء.فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب، حتى سمح له على أن أعطاه عهدا من الله وميثاقا: لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك في حصنك، حتى يصيبني ما

---

(١) **حسن:** أخرجه ابْنُ إِسْحَاقَ في السيرة وانظر سيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٢٢٦).وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ١٤٣) (٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٢٢) (٤٧٨٤).

أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين، ودخل مع المشركين في المحاربة ضد المسلمين [١].

وانتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين فبادر إلى تحقيقه، حتى يستجلي موقف قريظة، فيواجهه بما يجب من الوجهة العسكرية، وبعث [الزبير رضي الله عنه] لتحقيق الخبر [قال جَابِر: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ : **«مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»**. فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا ، ثُمَّ قَالَ: **«مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»**. فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا ، ثُمَّ قَالَ: **«مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»**. فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا ، ثُمَّ قَالَ: **«إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيَّ ، وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ»**[٢].] وتفطن الناس لجلية الأمر، فتجسد أمامهم خطر رهيب،وقد كان أحرج موقف يقفه المسلمون، فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شيء يمنعهم من ضربهم من الخلف، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الإنصراف، عنه، وكانت ذراريهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء الغادرين في غير منعة وحفظ، وصاروا كما يقول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ (أهل مكة والحجاز) وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ (أهل نجد من غطفان ومن إليها) وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [سورة الأحزاب: ١٠-١١].[٣] بالخوف والقلق، والجوع، ليتبين إيمانهم، ويزيد إيقانهم، فظهر -ولله الحمد- من إيمانهم، وشدة يقينهم، ما فاقوا فيه الأولين والآخرين وحينئذ نجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. وحتى قال بعض آخر في ملأ من رجال قومه: إن بيوتنا عورة من العدو،

---

(١) ابن هشام(٢/ ٢٢٠، ٢٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٤١١٣) ومسلم (٢٤١٥).

(٣) نزلت الآية في هذا كما في البخاري (٤١٠٣) ومسلم (٣٠٢٠) عن عائشة.

فأذن لنا أن نخرج، فنرجع إلى دارنا، فإنها خارج المدينة، وفي هؤلاء أنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [سورة الأحزاب: ١٢-١٣]. أما رسول الله ﷺ فإنه أخذ يخطط لمجابهة الظرف الراهن، وكجزء من هذه الخطة كان يبعث الحرس إلى المدينة، لئلا يؤتى الذراري والنساء على غرة، ولكن كان لا بد من إقدام حاسم، يفضي إلى تخاذل الأحزاب، وفي هذا الحال جاء عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان يطلبان الصلح على ثلث ثمار المدينة، حتى ينصرفا بقومهما، ويخلو المسلمون لإلحاق الهزيمة الساحقة العاجلة على قريش التي اختبروا مدى قوتها وبأسها مرارًا:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (١): جَاءَ الْحَارِثُ الْغَطَفَانِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، شَاطِرْنَا تَمْرَ الْمَدِينَةِ ، قَالَ : [**«حَتَّى أَسْتَأْمِرَ السُّعُودَ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ وَسَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ»** ، يَعْنِي : يُشَاوِرُهُمَا] ، فَقَالَ : **«إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَأَنَّ الْحَارِثَ يَسْأَلُكُمْ أَنْ تُشَاطِرُوهُ تَمْرَ الْمَدِينَةِ ، فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْهِ عَامَكُمْ هَذَا ، حَتَّى تَنْظُرُوا فِي أَمْرِكُمْ بَعْدُ»** ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَوَحْيٌ مِنَ السَّمَاءِ ، فَالتَّسْلِيمُ لِأَمْرِ اللهِ ، أَوْ عَنْ رَأْيِكَ ، أَوْ هَوَاكَ ، فَرَأْيُنَا تَبَعٌ لِهَوَاكَ وَرَأْيِكَ ، فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ الْإِبْقَاءَ عَلَيْنَا ، فَوَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَإِيَّاهُمْ عَلَى سَوَاءٍ مَا يَنَالُونَ مِنَّا تَمْرَةً إِلَّا بِشِرًى ، أَوْ قِرًى ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«هُوَ ذَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُونَ»** ، قَالُوا : غَدَرْتَ يَا مُحَمَّدُ ، فَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ:

يَا حَارِ مَنْ يَغْدِرْ بِذِمَّةِ جَارِهِ ❁❁❁ أَبَدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا لَا يَغْدِرْ
وَأَمَانَةُ الْمَرْءِ حَيْثُ لَقِيتَهَا ❁❁❁ كَسْرُ الزُّجَاجَةِ صَدْعُهَا لَا يُجْبَرُ

---

(١) **حسن:** أخرجه البزار في "مسنده (٨٠١٧) والطبراني في "الكبير(٥٤٠٩) واللفظ له سوى ما بين المعقوفين فإنه لفظ البزار وهو المتعين.

إِنْ تَغْدِرُوا فَالْغَدْرُ مِنْ عَادَاتِكُمْ ❁ ❁ ❁ وَاللُّؤْمُ يَنْبُتُ فِي أُصُولِ السَّخْبَرِ

وكان المسلمون يدعون الله تعالى، ودَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ : «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الْحِسَابِ اللَّهُمَّ اهْزِمِ الْأَحْزَابَ اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**»(١). وقد سمع الله عز وجل دعاء رسوله ﷺ والمسلمين، فبعد أن دبت الفرقة في صفوف المشركين، وسرى بينهم التخاذل، أرسل الله عليهم جندًا من الريح، فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قدرًا إلا كفأتها، ولا طنبًا إلا قلعته، ولا يقر لهم قرار، وأرسل جندًا من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ [سورة الأحزاب:٩].وأرسل رسول الله ﷺ في تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحال، وقد تهيأوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغيظه لم ينالوا خيرًا، قال حذيفة لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ** . فَسَكَتْنَا ، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ . ثُمَّ قَالَ : **أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ** . فَسَكَتْنَا ، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ . ثُمَّ قَالَ : **أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فَسَكَتْنَا** ، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ . فَقَالَ : **قُمْ يَا حُذَيْفَةُ ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ** . فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ ، قَالَ : **اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ** . فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ

(١) أخرجه البخاري(٢٩٣٣) ومسلم (١٧٤٢) عن عَبْد اللهِ بْن أَبِي أَوْفَى.

، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: **وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ** . وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا ، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ : **قُمْ يَا نَوْمَانُ**.(١)

وفي رواية أحمد:قال: «**يَا حُذَيْفَةُ اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ ، فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا**» ، قَالَ : فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ ، وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللهِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ ، لَا تُقِرُّ لَهُمْ قِدْرًا ، وَلَا نَارًا ، وَلَا بِنَاءً ، فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، لِيَنْظُرِ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ . فَقَالَ حُذَيْفَةُ : فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي فَقُلْتُ : مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ : أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ . ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنَّكُمْ وَاللهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ ، لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ وَبَلَغَنَا عَنْهُمُ الَّذِي نَكْرَهُ ، وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ ، وَاللهِ مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ ، وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ ، وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ ، ثُمَّ قَامَ إِلَى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَى ثَلَاثٍ ، فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ ، وَلَوْلَا عَهْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: لَا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي . ثُمَّ شِئْتُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ ، قَالَ حُذَيْفَةُ : ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مُرَحَّلٍ ، فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَى رَحْلِهِ وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنِّي لَفِيهِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ ، وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ وَانْشَمَرُوا إِلَى بِلَادِهِمْ(٢).كفاه الله قتالهم، فصدق وعده وأعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فرجع إلى المدينة. وهذه الريح هي ريح الصبا فقد ورد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٨).

(٢) **حسن لغيره:** أخرجه أحمد(٢٣٨٠٩).

النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا ، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**»(١). وتأتي من الشرق.

وكانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين، وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ والمسلمين شهرًا أو خمسًا وعشرين ليلة. ويبدو بعد الجمع بين المصادر أن بداية فرض الحصار كانت في شوال، ونهايته في ذي القعدة، وعند ابن سعد أن انصراف رسول الله ﷺ من الخندق كان يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة.

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر؛ بل كانت معركة أعصاب، لم يجر فيها قتال مرير، إلا أنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام، تمخضت عن تخاذل المشركين، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة، لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب، ولذلك قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله الأحزاب: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**» (٢).

غزوة بني قريظة

في اليوم الذي رجع فيه رسول الله ﷺ إلى المدينة، جاءه جبريل عليه السلام فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا رَجَعَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَوَضَعَ السِّلَاحَ وَاغْتَسَلَ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ وَقَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ الْغُبَارُ فَقَالَ : وَضَعْتَ السِّلَاحَ فَوَاللهِ مَا وَضَعْتُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَأَيْنَ**» . قَالَ : هَا هُنَا وَأَوْمَأَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ . قَالَتْ : فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ.(٣)

فأمر رسول الله ﷺ الناس بالمسير فقال: [«**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي**

---

(١) أخرجه البخاري(١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠).

(٢) أخرجه البخاري(٤١١٠) عن سُلَيْمَانَ بْن صُرَدٍ.

(٣) أخرجه البخاري(٢٨١٣) ومسلم (١٧٦٩).

قُرَيْظَةَ» .][1]

فانطلق الناس وانطلق جبريل بكتيبته قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى غُبَارٍ سَاطِعٍ فِي سِكَّةِ بَنِي غَنْمٍ : مَوْكِبَ جِبْرِيلَ.[2]

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقدّمه إلى بني قريظة فسار علي حتى إذا دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة في رسول الله ﷺ وخرج رسول الله ﷺ في موكبه من المهاجرين والأنصار، حتى نزل على بئر من آبار قريظة يقال لها بئر أنا، وبادر المسلمون إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، وتحركوا نحو قريظة، وأدركتهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصليها إلا في بني قريظة كما أمرنا، حتى أن رجالًا منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك، وإنما أراد سرعة الخروج، فصلوها في الطريق، فلم يعنف واحدة من الطائفتين. هكذا تحرك الجيش الإسلامي نحو بني قريظة أرسالًا، حتى تلاحقوا بالنبي ﷺ ، وهم ثلاثة آلاف، والخيل ثلاثون فرسًا، فنازلوا حصون بني قريظة، وفرضوا عليهم الحصار.

ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال: فقَالَ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ! إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا تَرَوْنَ، وَإِنِّي عَارِضٌ عَلَيْكُمْ خِلَالًا ثَلَاثًا فَخُذُوا أَيَّهَا شِئْتُمْ، فَقَالُوا: مَا هُوَ؟ قَالَ نُبَايِعُ هَذَا الرَّجُلَ وَنُصَدِّقُهُ، فو الله لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَأَنَّهُ الَّذِي تَجِدُونَهُ فِي كِتَابِكُمْ، فَتَأْمَنُوا عَلَى دِمَائِكُمْ، وَأَمْوَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ فَقَالُوا: لَا نُفَارِقُ حُكْمَ التَّوْرَاةِ أَبَدًا، وَلَا نَسْتَبْدِلُ بِهِ غَيْرَهُ، قَالَ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ عَلَيَّ هَذَا فَهَلُمُّوا فَلْنَقْتُلْ أَبْنَاءَنَا، وَنِسَاءَنَا ثُمَّ نَخْرُجُ إِلَى مُحَمَّدٍ رِجَالًا مُصْلِتِينَ السُّيُوفَ لَمْ نَتْرُكْ وَرَاءَنَا ثَقَلًا يَهُمُّنَا، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، فَإِنْ نَهْلِكْ،

---

(١) أخرجه البخاري(٩٤٦) ومسلم (١٧٧٠)عَنِ ابْنِ عُمَرَ.

(٢) أخرجه البخاري(٣٢١٤).

نَهْلِكْ، وَلَمْ نَتْرُكْ وَرَاءَنَا نَسْلًا، يَهُمُّنَا نَخَافُ عَلَيْهِ، وَإِنْ نَظْهَرْ فَلَعَمْرِي لَنَجِدَنَّ النِّسَاءَ، وَالْأَبْنَاءَ، فَقَالُوا:نَقْتُلُ هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينَ!! فَمَا خَيْرُ الْعَيْشِ بَعْدَهُمْ؟ فَقَالَ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ هَذِهِ عَلَيَّ، فَإِنَّ اللَّيْلَةَ لَيْلَةُ السَّبْتِ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ قَدْ أَمِنُونَا فِيهَا، فَانْزِلُوا، فَلَعَلَّنَا نُصِيبُ مِنْهُمْ غِرَّةً فَقَالُوا: نُفْسِدُ سَبْتَنَا، وَنُحْدِثُ فِيهِ مَا أَحْدَثَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فَأَصَابَهُمْ مَا قَدْ عَلِمْتَ، مِنَ الْمَسْخِ، فَقَالَ: مَا بَاتَ رَجُلٌ مِنْكُمْ لَيْلَةً وَاحِدَةً، مُنْذُ وَلِدَ حازما ثُمَّ بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ابْعَثْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْأَوْسِ، نَسْتَشِيرُهُ فِي أَمْرِنَا، فَأَرْسَلَهُ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ فَلَمَّا رَأَوْهُ، قَامَ إِلَيْهِ الرِّجَالُ، وَجَهَشَ إِلَيْهِ النِّسَاءُ، وَالصِّبْيَانُ، يَبْكُونَ فِي وَجْهِهِ، فَرَقَّ لَهُمْ وَقَالُوا لَهُ: يَا أَبَا لُبَابَةَ أَتَرَى أَنْ تَنْزِلَ عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ. فَقَالَ: نَعَمْ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ: أَنَّهُ الذَّبْحُ. قَالَ أَبُو لبابة: فو الله، مَا زَالَتْ قَدَمَايَ تَرْجُفَانِ، حِينَ عَرَفْتُ أَنِّي قَدْ خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ. ثُمَّ انْطَلَقَ أَبُو لُبَابَةَ عَلَى وَجْهِهِ وَلَمْ يَأْتِ رَسُولَ الله ﷺ حَتَّى ارْتَبَطَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَى عَمُودٍ مِنْ عُمُدِهِ. وَقَالَ: لَا أَبْرَحُ مَكَانِي هَذَا حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيَّ، مِمَّا صَنَعْتُ وَعَاهَدَ اللهَ أَنْ لَا يَطَأَ بَنِي قُرَيْظَةَ أَبَدًا، وَلَا يَرَانِي فِي بَلَدٍ خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيهِ، فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرُهُ، وَكَانَ قَدِ اسْتَبْطَأَهُ، قَالَ: **«أَمَا لَوْ جَاءَنِي لَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ. فَأَمَّا إِذْ فَعَلَ الَّذِي فَعَلَ، مَا أَنَا بِالَّذِي يُطْلِقُهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ»**[(١)]. فتاب الله سبحانه وتعالى عليه.

وبرغم ما أشار إليه أبو لبابة قررت قريظة النزول على حكم رسول الله ﷺ، ولقد كان باستطاعة اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل؛ لتوفر المواد الغذائية والمياه

---

(١) **قصة أبي لبابة هذه ثابتة بمجموع طرقها** : أخرجها البيهقي في دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ١٥- ١٦) عَنْ مَعْبَدِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ السُّلَمِيِّ مرسلاً، ويشهد له حديث عائشة الآتي، ومرسل سَعِيد بْن الْمُسَيِّبِ. في دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٢٧٠) ومرسل قتادة عند الطبري في تفسيره جامع البيان - ط هجر (١٩/ ٧٢).

والآبار ومناعة الحصون، ولأن المسلمين كانوا يقاسون البرد القارس والجوع الشديد وهم في العراء، مع شدة التعب الذي اعتراهم، لمواصلة الأعمال الحربية من قبل بداية معركة الأحزاب، إلا أن حرب قريظة كانت حرب أعصاب، فقد قذف الله في قلوبهم الرعب، وأخذت معنوياتهم تنهار، وبلغ هذا الانهيار إلى نهايته وحينئذ [«قِيلَ لَهُمْ : انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَاسْتَشَارُوا أَبَا لُبَابَةَ ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ الذَّبْحُ ، فَقَالُوا : نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ ، وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى سَعْدٍ ، فَحُمِلَ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَيْهِ إِكَافٌ مِنْ لِيفٍ وَحَفَّ بِهِ قَوْمُهُ ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ : يَا أَبَا عَمْرٍو ، حُلَفَاؤُكَ وَمَوَالِيكَ وَأَهْلُ النِّكَايَةِ وَمَنْ قَدْ عَلِمْتَ ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ ذَرَارِيِّهِمُ الْتَفَتَ إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ : قَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا يُبَالِي فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، فَلَمَّا طَلَعَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : **«قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ فَأَنْزِلُوهُ»** ، قَالَ عُمَرُ : سَيِّدُنَا اللهُ ، قَالَ :**«أَنْزِلُوهُ»** ، فَأَنْزَلُوهُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **احْكُمْ فِيهِمْ** ، قَالَ : فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ ، وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ ، وَتُقْسَمَ أَمْوَالُهُمْ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ»** . ثُمَّ دَعَا اللهَ سَعْدٌ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ عَلَى نَبِيِّكَ ﷺ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا ، فَأَبْقِنِي لَهَا ، وَإِنْ كُنْتَ قَطَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ، فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ ، فَانْفَجَرَ كَلْمُهُ ، وَكَانَ قَدْ بَرَأَ مِنْهُ حَتَّى مَا بَقِيَ مِنْهُ إِلَّا مِثْلُ الْخِمَّصِ ...الحديث [(١)].

وكان حكم سعد في غاية العدل والإنصاف، فإن بني قريظة بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع- كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفًا وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع، وخمسمائة ترس وحجفة، حصل عليها المسلمون

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن حبان في (٧٠٢٨)عن عائشة وأصله في البخاري(٣٠٤٣) ومسلم (١٧٦٨) عن أبي سعيد وأخرجه النسائي في الكبرى وغيره عن سعد بن أبي وقاص وصححه الألباني الصحيحة (٦/ ٥٥٦) (٢٧٤٥).

بعد فتح ديارهم.

وأمر رسول الله ﷺ فحبست بنو قريظة في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، وحفرت لهم خنادق في سوق المدينة، ثم أمر بهم فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالًا أرسالًا، وتضرب في تلك الخنادق أعناقهم. فقال من كان بعد في الحبس لرئيسهم كعب بن أسد: ما تراه يصنع بنا؟ فقال: أفي كل موطن لا تعقلون أما ترون الداعي لا ينزع؟ والذاهب منكم لا يرجع؟ هو والله القتل. [وكانوا أربعمائة(١)]، فضربت أعناقهم.وهكذا تم استئصال أفاعي الغدر والخيانة، والذين كانوا قد نقضوا الميثاق المؤكد، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين في أحرج ساعة كانوا يمرون بها في حياتهم وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمي الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام.

وقتل مع هؤلاء شيطان بني النضير، وأحد أكابر مجرمي معركة الأحزاب حيي بن أخطب والد صفية أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، كان قد دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان؛ وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يثيره على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب، فلما أتي به وعليه حلة قد شقها من كل ناحية بقدر أنملة لئلا يسلبها مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، قال لرسول الله ﷺ : أما والله ما لمت نفسي في معاداتك، ولكن من يغالب الله يغلب. ثم قال: أيها الناس، لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه.

وقتل من نسائهم امرأة واحدة، كانت قد طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته، فقتلت لأجل ذلك. [فعن عائشة قالت: لم يقتل من نسائهم -تعني بني

---

(١) ما بين المعقوفين جاء في حديث جابر عند الترمذي (١٥٨٢) وحسنه الإمام الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١/ ١٧٦) (٢١١).

قريظة- إلا امرأة إنها لعندي تحدث تضحك ظهرًا وبطنًا ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسيوف إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة قالت أنا قلت وما شأنك قالت حدث أحدثته قالت فانطلق بها فضربت عنقها فما أنسى عجبًا منها أنها تضحك ظهرًا وبطنًا وقد علمت أنها تقتل] (١).

وكان رسول الله ﷺ قد أمر بقتل من أنبت، وترك من لم ينبت، فكان ممن لم ينبت عطية القرظي، فترك حيًا، فأسلم، وله صحبة. (٢).

وأسلم عبد الرحمن بن الزَّبير، وله صحبة. واستوهبت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية رفاعة بن سموأل القرظي، فوهبه لها، فاستحيته، فأسلم، وله صحبة.

وأسلم منهم تلك الليلة نفر من قبل النزول، فحقنوا دماءهم وأموالهم وذراريهم.

وخرج تلك الليلة عَمْرُو بْنُ سُعْدَى الْقَرَظِيُّ وكان رجلًا لم يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ فرآه محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوي، فخلى سبيله حين عرفه، فلم يعلم أين ذهب.

وقسم رسول الله ﷺ أموال بني قريظة بعد أن أخرج منها الخمس، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم، سهمان للفرس وسهم للفارس، وأسهم للراجل سهمًا واحدًا، وبعث من السبايا إلى نجد تحت إشراف سعد بن زيد الأنصاري. فابتاع بها خيلًا وسلاحًا.

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود(٢٦٧١). وتسميته في السنن الكبرى للبيهقي(١٨١٦٢) خلاد بن سويد وقيل محمود بن مسلمة، والأول أرجح الحديث حسنه الإمام الوادعي في الصحيح المسند (٢/ ٤٨٣)(١٥٥٧) وشيخنا يحيى حفظه الله في تحقيق السنن الصغير(٤/ ٥٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٨٧٧٦)، وأبو داود (٤٤٠٥)، والترمذي (١٥٨٤)، والنسائي (٥٥٩٤) وابن ماجه (٢٥٤١). عن عطية القرظي وهو في الصحيح المسند (٩٢٦)(٢/ ٢٥).

ولما تم أمر قريظة أجيبت دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- التي قدمنا ذكرها في غزوة الأحزاب- وكان النبي ﷺ قد ضرب له خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فلما تم أمر قريظة انتقضت جراحته. قالت عائشة: فانفجرت من ليلته فلم يرعهم وفي المسجد خيمة من بني غفار إلا والدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا يأتينا من قبلكم، فإذا سعد يغذوا جرحه دمًا، فمات منها [١].

وفي الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: **«اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»** [٢].

وصحح الترمذي من حديث أنس: قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته، فقال رسول الله ﷺ: **«إن الملائكة كانت تحمله»** [٣].

قتل في حصار بني قريظة رجل واحد من المسلمين، وهو خلاد بن سويد، الذي طرحت عليه الرحى امرأة من قريظة، ومات في الحصار أبو سنان بن محصن أخو عكاشة. أما أبو لبابة، فأقام مرتبطًا بالجذع حتى تاب الله تعالى عليه وحل رباطه رسول الله ﷺ.

وأنزل الله تعالى في غزوة الأحزاب وبني قريظة [تسع عشرة آية] من سورة الأحزاب، ذكر الله تعالى فيها أهم جزئيات الوقعة بين حال المؤمنين والمنافقين، ثم تخذيل الأحزاب، ونتائج الغدر من أهل الكتاب[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٣) ومسلم (١٧٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٠٣) ومسلم (٢٤٦٦).

(٣) **حسن لغيره**. قاله الإمام الوادعي في الصحيح المسند (١/ ٦٧) (٥٩) الحديث أخرجه الترمذي (٣٨٤٩).

(٤) انظر لتفصيل هذه الغزوة سيرة ابن هشام(٢/٢٢٧، ٢٢٨) وصحيح البخاري(٢/ ٥٩٠، ٥٩١)،زاد المعاد(٢/٧٢، ٧٣، ٧٤)،مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي (٢٨٧-٢٩٠).

وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ (إلى قوله تعالى)وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرًا ٢٧﴾ [سورة الأحزاب:٩-٢٧].

(ملخص معركة الأحزاب أو الخندق الفاصلة)

١- اسم المعركة : الخندق والأحزاب.

٢- مكان المعركة : المدينة النبوية.

٣- تاريخ المعركة: كانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين.

٤- الفريقان المتقاتلان :

أولًا المسلمون: بقيادة نبينا ﷺ.

ثانيًا المشركون: ثلاث فرق:

* قريش: بقيادة أبي سفيان بن حرب.

* غطفان ومن إليهم: بقيادة عيينة بن حصن والحارث بن عوف زعيم بني مرة ، ومسعر بن رخيلة زعيم أشجع.

* اليهود: بقيادة كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة الذي نقض عهده وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين، ودخل مع المشركين في المحاربة ضد المسلمين، أغراه بذلك حيي بن أخطب سيد بني النضير.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما :

* **العدد:** خرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين

* **خطة الدفاع:** أسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ خطة حفر خندق حول شمال المدينة،لأنه المكان المتوقع دخول الأحزاب منه فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعًا حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة، قبل أن يصل الجيش الوثني العرمرم إلى أسوار المدينة.

* **الترتيب:** جعل المسلمون ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار. وكان شعارهم: « حمّ لا ينصرون؛ واستخلف على المدينة ابن

أم مكتوم، وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في آطام المدينة أي: حصونها.

ثانيًا المشركون: جيشهم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل. قريش في أربعة آلاف حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزعابة،وغطفان ومن تبعهم من أهل نجد في ستة آلاف نزلوا بذنب نقمي إلى جانب أحد.

٦- سبب المعركة :

خرج عشرون رجلًا من زعماء اليهود وسادات بني النضير بعد إجلائهم إلى خيبر خرجوا إلى قريش بمكة، يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ ، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش ثم خرج هذا الوفد إلى غطفان، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشًا، فاستجابوا لذلك، ثم طاف الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك، فاستجاب له من استجاب، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبيّ ﷺ ودعوته والمسلمين. وفعلًا خرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة ووافاهم بنو سليم بمر الظهران، وخرجت من الشرق قبائل غطفان: بنو فزارة، وبنو مرة، وبنو أشجع كما خرجت بنو أسد وغيرها واتجهت هذه الأحزاب، وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه ، فكانت غزوة الأحزاب.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- لم تحصل مواجهة إنما كانت مراماة بالسهام وفي هذه المراماة قتل رجال من الجيشين، يعدون على الأصابع ستة من المسلمين وعشرة من المشركين، بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف، وقتل في حصار بني قريظة رجل واحد من المسلمين، وهو خلاد بن سويد، طرحت عليه الرحى امرأة من قريظة فقتلت به.

٢- أقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ والمسلمين شهرًا أو نحو شهر بداية فرض الحصار كانت في شوال، ونهايته في ذي القعدة.

٣- إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر بدنية؛ بل كانت معركة أعصاب،

لم يجر فيها قتال مرير، إلا أنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام، تمخضت عن تخاذل المشركين.

٤- أراح الله تعالى المسلمين من الفرقة الثالثة من اليهود وهم بنو قريظة وهذا تحول تاريخي عظيم فقد غنم المسلمون ألفًا وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع، وخمسمائة ترس وحجفة، من بني قريظة بعد فتح ديارهم كانت قريظة قد جمعتها لإبادة المسلمين، وقتلت مقاتلتهم الذين نقضوا العهد في وقت الشدة على المسلمين واستعدوا للقتال مع قريش وغطفان قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمي الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام فقتلوا [وكانوا أربعمائة] وقيل: ما بين الستمائة إلى السبعمائة، فضربت أعناقهم، وقتل مع هؤلاء شيطان بني النضير، وأحد أكابر مجرمي معركة الأحزاب حيي بن أخطب بعد أن رفضوا الدخول في الإسلام وهذا يبين ما عليه اليهود من الحقد على المسلمين فقتلهم لا إشكال ولا خلاف فيه عند جيوش العالم أناس ينقضون العهد ولم يروا إلا وفاء كما اعترف سيدهم ، ثم لا يقبلون بالإسلام ويفضلون عليه الموت فمن اعترض هذا الحكم فإنما عارض حكم الله وقد قال رسول الله ﷺ لسعد حين حكم : **لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ.**

٥- بهذه المعركة وما قبلها عُرِف جبن اليهود وقد وصفهم الله تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الحشر: ١٤]. **وهذه الآية نزلت في بني النظير.**

أجليت قينقاع والنظير بعد تبجحهما، وقتل مقاتلة قريظة، وكذلك بعد ذلك صالحت خيبر وأضحوا عمالًا ؛ فلا يهولنك جمع اليهود، فإنهم إذا حمي الوطيس يفرون فرار القرود وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن

يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران: ١١١-١١٢].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ: بِعَهْدٍ مِنَ اللَّهِ وَعَهْدٍ مِنَ النَّاسِ[1].وهذا ما نراه اليوم فإن اليهود لا يحاربون حتى تحالفهم الدول النصرانية الكثيرة وغيرها.

٦- قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله الأحزاب: **«الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم»** وهذا أعظم تحول نعد به هذه المعركة فاصلة، فبعد هذه المعركة تحركت البعوث والسرايا ثم أراد رسول الله ﷺ العمرة في السنة السادسة، فامتنعت قريش مع ضعفها فنزلت سورة الفتح تبشر بالفتح وبإنجازات قبل الفتح منها فتح خيبر ثم استعمالهم على المزارع بالنصف وبه تيسرت الأرزاق بفضل الله شيئًا ما وأسلم كثير من قادة قريش منهم خالد وعمرو بن العاص ، وكاتب رسول الله ﷺ أكابر ملوك الأرض بعزة وحكمة يدعوهم إلى الإسلام ، ثم بدأ الجهاد ضد إحدى أكبر دول العالم وهي الروم فحصلت معركة مؤتة ، ثم كان فتح مكة الذي سنتحدث عنه إن شاء الله تعالى.

٦- ومن أعظم ما نستفيده أن المنافقين لا يفرح بهم أبدًا فلا يكثر بهم السواد، ولا يدحر بهم الأوغاد ، بل هم حرب على المسلمين يثبطون عن الجهاد ويقوون عليهم الأعداء والحساد.

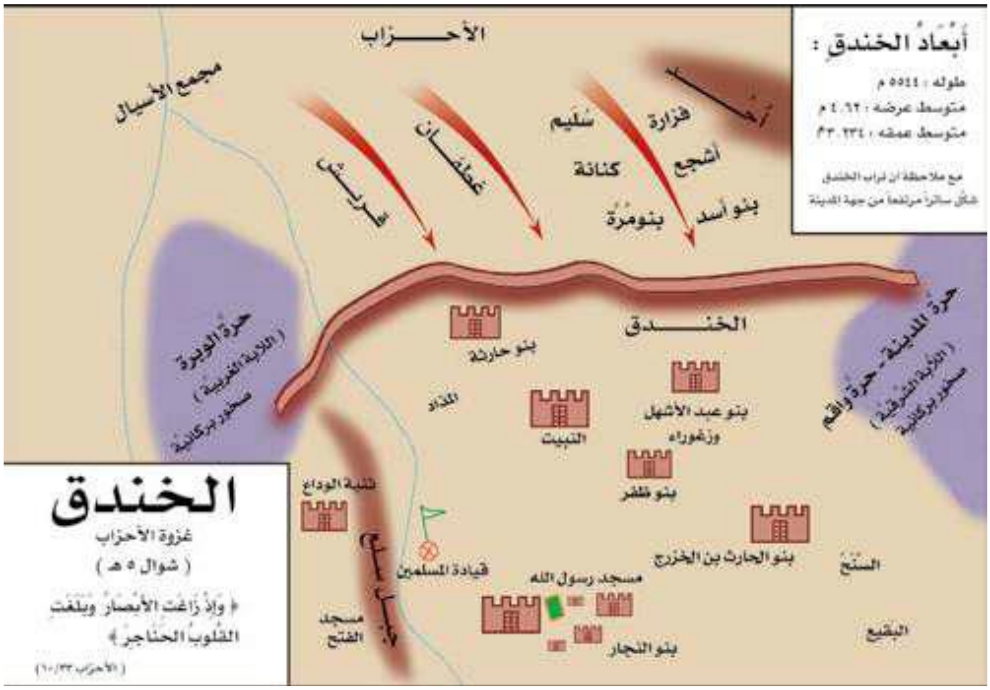
٧- **ومن أهم المهمات فهم آيات الأحزاب، وكل ما نزل في المعارك من**

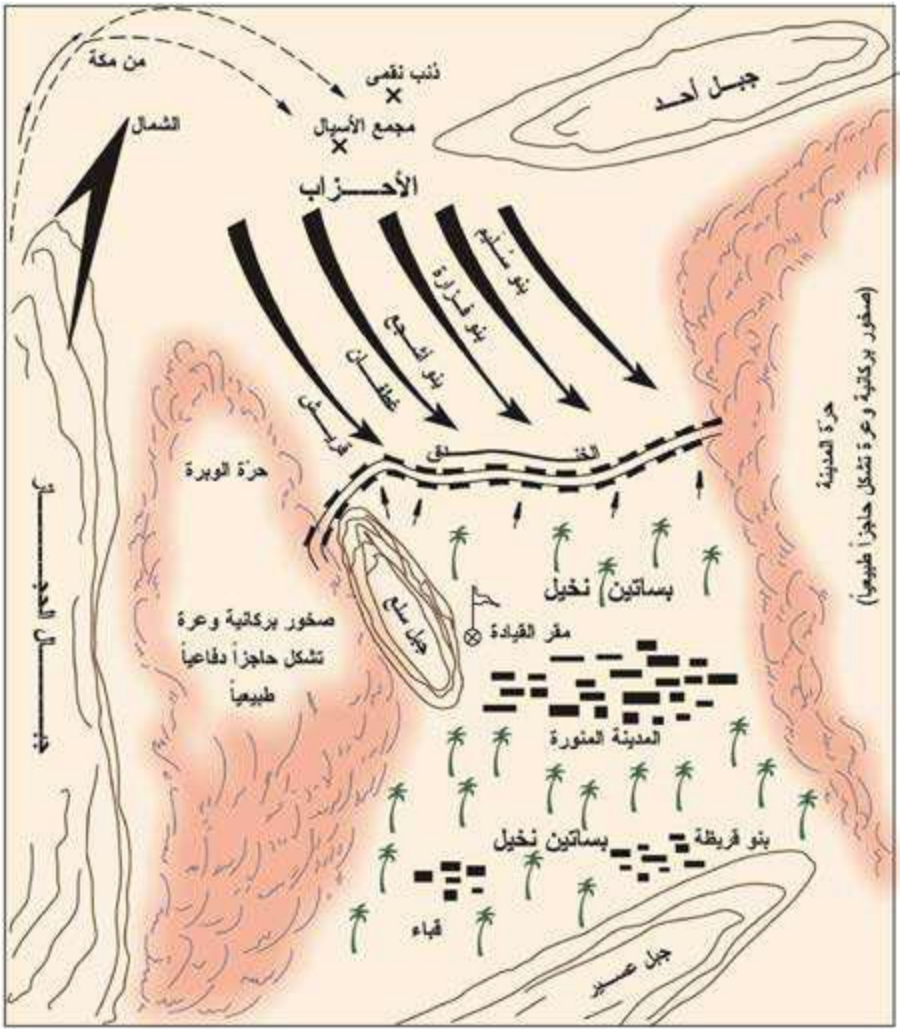
---

(١) تفسير ابن كثير - ت السلامة (٢/ ١٠٤).

الكتاب؛ تبصرك في فنون الحروب ، وتنير أمامك الدروب ، وتسليك إذا اشتدت الكروب، فيها أمر الله تعالى ونهيه، وتعليمه ووحيه.

٨- خريطة: موقعة معركة الأحزاب من الصحيح المصفى للشيخ سليم وفقه الله:




من مكة
ذنب نقمى
مجمع الأسيال
الشمال
الأحـــزاب
جبـل أحـد
بنو سليم
بنو فزارة
بنو أشجع
غطفان
قريش
الخندق
حرة الوبرة
حرة المدينة
(صخور بركانية وعرة تشكل حاجزاً طبيعياً)
جبـــل الحجـــر
بساتين نخيل
جبل سلع
مقر القيادة
صخور بركانية وعرة
تشكل حاجزاً دفاعياً
طبيعياً
المدينة المنورة
بنو قريظة
بساتين نخيل
قباء
جبل عير



المعركة الرابعة : فتح مكة وغزوة حنين

غزوة فتح مكة [١]:

قال ابن القيم: هو الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله ﷺ وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجًا. اهـ [٢].

سبب الغزوة:

كان مما علم في وقعة الحديبية في السنة السادسة حين ردت قريش رسول الله ﷺ والمسلمون عن البيت الحرام وهم يريدون العمرة وكتبوا معاهدة منها أن بندًا من بنود هذه المعاهدة يفيد أن من أحب أن يدخل في عقد محمد- ﷺ - وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءًا من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدوانًا على ذلك الفريق.

وحسب هذا البند دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأخرى، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وتوترات في الجاهلية، فلما جاء الإسلام، ووقعت هذه الهدنة، وأمن

---

(١) معظم ما نقلته هنا هو من [«الرحيق المختوم» (ص٣٦٢-٣٩٤)] وأضفت إليه من سيرة ابن هشام وغيرها وذكرت بعض الأحاديث التي لم يذكرها.

(٢) زاد المعاد (٢/ ١٦٠).

كل فريق من الآخر اغتنمها بنو بكر، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في جماعة من بني بكر في شهر شعبان سنة ٨ هـ، فأغاروا على خزاعة ليلًا، وهم على ماء يقال له «الوتير» فأصابوا منهم رجالًا، وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك. فقال كلمة عظيمة: لا إله اليوم يا بني بكر، أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟ ولما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي، وإلى دار مولى لهم يقال له رافع. وأسرع عمرو بن سالم الخزاعي، فخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه، وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال:

يا رب إني ناشد محمدا ❁❁❁ حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم وُلدا وكنا والدا ❁❁❁ ثمة أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر، هداك الله، نصرا أيدا ❁❁❁ وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله، قد تجردا ❁❁❁ أبيض مثل البدر، يسمو صعدا
إن سيم خسفا وجهه تربدا ❁❁❁ في فيلق كالبحر يجري مزبدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ❁❁❁ ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كداء رصدا ❁❁❁ وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل، وأقل عددا ❁❁❁ هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعًا وسجدا[1]

فقال رسول الله ﷺ: **«نصرت يا عمرو بن سالم»**، ثم عرضت له سحابة من

(١) يقول: قتلنا وقد أسلمنا، والأتلد: القديم، يشير إلى الحلف الذي كان بين خزاعة وبين بني هاشم منذ عهد عبد المطلب.

السماء فقال:«**إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب**» . وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -النَّاسَ بِالْجِهَازِ ، وَكَتَمَهُمْ مَخْرَجَهُ ،وَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُعَمِّيَ عَلَى قُرَيْشٍ خَبَرَهُ حَتَّى يَبْغَتَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ [(١)].

ولا شك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدرًا محضًا ونقضًا صريحًا للميثاق لم يكن له أي مبرر، ولذلك سرعان ما أحست قريش بغدرها، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة.

التهيؤ للغزوة ومحاولة الإخفاء:

[تقدم الحديث بأن رَسُول اللهِ ﷺ أَمَرَ النَّاسَ بِالْجِهَازِ ، وَكَتَمَهُمْ مَخْرَجَهُ ،وَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُعَمِّيَ عَلَى قُرَيْشٍ خَبَرَهُ حَتَّى يَبْغَتَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ] وزيادة في الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال تحت قيادة أبي قتادة بن ربعي إلى بطن إضم فيما بين ذي خشب وذي المروة على ثلاثة برد من المدينة، في أول شهر رمضان سنة ٨ هـ، ليظن الظان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار، وواصلت هذه السرية سيرها، حتى إذا وصلت حيثما أمرت بلغها أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة، فسارت إليه حتى لحقته.

خبر حاطب: وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتابًا يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جعلًا على أن تبلغه قريشًا، فجلعته في قرون رأسها، ثم خرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث عليًا والمقداد، فقال: انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش، فانطلقا تعادى بهما خيلهما حتى وجدا المرأة بذلك المكان،

---

(١) حسنه شيخنا يحيى حفظه الله تعالى في تحقيق السنن الصغير للبيهقي(٤/١٤٢) رقم(١٥٩٠) وبعضه في الصحيح المسند (٢/ ٣٣٢) (١٣٠١) أخرجه البزار كما في "كشف الأستار" (ج ٢ ص ٣٤٢)عن أبي هريرة.

فاستنزلاها، وقالا: معك كتاب؟ فقالت ما معي كتاب، ففتشا رحلها فلم يجدا شيئًا، فقال لها علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أحلف بالله، ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجد منه قالت: أعرض، فأعرض، فحلت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليهما، فأتيا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه: (من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش) يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ ، فدعا رسول الله ﷺ حاطبًا، فقال: **«ما هذا يا حاطب؟»** فقال: لا تعجل عليّ يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت ولا بدلت، ولكني كنت امرأ ملصقًا في قريش لست من أنفسهم، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي. فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق، فقال رسول الله ﷺ: **«إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»** ، فذرفت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم(١).

وهكذا أخذ الله العيون، فلم يبلغ إلى قريش أي خبر من أخبار تجهز المسلمين وتهيئهم للزحف والقتال.

الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : مَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ أَبَا رُهْمٍ كُلْثُومَ بْنَ حُصَيْنٍ الْغِفَارِيَّ ، وَخَرَجَ لِعَشْرٍ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ [سنة ٨ هـ]، « فَصَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَصَامَ النَّاسُ مَعَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْكَدِيدِ مَا بَيْنَ عُسْفَانَ وَأَمْجٍ أَفْطَرَ»[والْكَدِيدِ يبعد عن مكة ٨٦كم]، ثُمَّ مَضَى حَتَّى نَزَلَ مَرَّ الظَّهْرَانِ فِي عَشَرَةِ آلَافٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ مُزَيْنَةَ وَسُلَيْمٍ ، وَفِي كُلِّ الْقَبَائِلِ عَدَدٌ وَإِسْلَامٌ

(١) أخرجه البخاري: (٣٠٠٧) ومسلم : (٢٤٩٤). من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

، وَأَوْعَبَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ، فَلَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، فَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ ، وَقَدْ عَمِيَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ قُرَيْشٍ ، فَلَمْ يَأْتِهِمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ خَبَرٌ ، وَلَا يَدْرُونَ مَا هُوَ فَاعِلٌ ، خَرَجَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ ، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ ، وَبُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ يَتَحَسَّسُونَ وَيَنْتَظِرُونَ هَلْ يَجِدُونَ خَبَرًا ، أَوْ يَسْمَعُونَ بِهِ ، وَقَدْ كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ (قيل بالجحفة أو فوق ذلك ، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا(١))، وَقَدْ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ قَدْ لَقِيَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ[فِي ثَنِيَّةِ الْعُقَابِ] ، فَالْتَمَسَا الدُّخُولَ عَلَيْهِ ، فَكَلَّمَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ فِيهِمَا ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ، ابْنُ عَمِّكَ وَابْنُ عَمَّتِكَ وَصِهْرُكَ . قَالَ : **«لَا حَاجَةَ لِي بِهِمَا ، أَمَّا ابْنُ عَمِّي فَهَتَكَ عِرْضِي ، وَأَمَّا ابْنُ عَمَّتِي وَصِهْرِي ، فَهُوَ الَّذِي قَالَ لِي بِمَكَّةَ مَا قَالَ »**. فَلَمَّا أُخْرِجَ إِلَيْهِمَا بِذَلِكَ ، وَمَعَ أَبِي سُفْيَانَ بُنَيٌّ لَهُ ، فَقَالَ : وَاللهِ لَيَأْذَنَنَّ لِي أَوْ لَآخُذَنَّ بِيَدِ ابْنِي هَذَا ، ثُمَّ لَنَذْهَبَنَّ فِي الْأَرْضِ حَتَّى نَمُوتَ عَطَشًا وَجُوعًا ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَقَّ لَهُمَا ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُمَا فَدَخَلَا وَأَسْلَمَا (فَأَنْشَدَهُ أَبُو سُفْيَانَ قَوْلَهُ فِي إِسْلَامِهِ، وَاعْتِذَارِهِ مِمَّا كَانَ مَضَى فِيهِ، فَقَالَ: من [البحر الطويل]

لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ أَحْمِلُ رَايَةً ❁❁❁ لِتَغْلِبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ مُحَمَّدِ
لَكَالِمُدْلِجِ الْحَيْرَانُ أَظْلَمَ لَيْلَةً ❁❁❁ فَهَذَا أَوَانُ الْحَقِّ أَهْدِي وَأَهْتَدِي
فَقُلْ لِثَقِيفٍ لَا أُرِيدُ قِتَالَكُمْ ❁❁❁ وَقُلْ لِثَقِيفٍ تِلْكَ عِنْدِي فَاوْعَدِي
هَدَانِي هَادٍ غَيْرَ نَفْسِي وَدَلَّنِي ❁❁❁ إِلَى اللهِ مَنْ طَرَدْتُ كُلَّ مَطْرَدِ

(١) هذا هو الزمن الصحيح لتحديد إسلام العباس وما نقل من أنه أسلم قبل فلم يثبت سنده غير أنه كان يتعاون مع رسول الله ﷺ بمحض العاطفة وحب العم لابن أخيه فقد حضر معه ليلة العقبة وهو مشرك، نعم كانت أم الفضل مسلمة كما صح عن ابن عباس.

أَفِرُّ سَـرِيعًا جَاهِدًا عَنْ مُحَمَّدٍ ❁❁❁ وَأَدَّعِي وَلَوْ لَمْ أَنْتَسِبْ لِمُحَمَّدِ
هُمُ عُصْبَةٌ مَنْ لَمْ يَقُلْ بِهَوَاهُمُ ❁❁❁ وَإِنْ كَانَ ذَا رَأْيٍ يُلِمْ وَيُفَنَّدِ
أُرِيدُ لِأَرْضِيَهُمْ وَلَسْتُ بِلَافِظٍ ❁❁❁ مَعَ الْقَوْمِ مَا لَمْ أُهْدَ فِي كُلِّ مَقْعَدِ
فَمَا كُنْتُ فِي الْجَيْشِ الَّذِي نَالَ عَامِرًا ❁❁❁ وَلَا كَلَّ عَنْ خَيْرٍ لِسَانِي وَلَا يَدِي
قَبَائِلُ جَاءَتْ مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ ❁❁❁ تَوَابِعُ جَاءَتْ مِنْ سِهَامٍ وَسُرْدَدِ
وَإِنَّ الَّذِي أَخْرَجْتُمْ وَشَتَمْتُمْ ❁❁❁ سَيَسْعَى لَكُمْ سَعْيَ امْرِئٍ غَيْرِ قَعْدَدِ

قَالَ: فَلَمَّا أَنْشَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: إِلَى اللَّهِ مَنْ طُرِدْتُ كُلَّ مَطْرَدٍ، ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِهِ، فَقَالَ: «**أَنْتَ طَرَدْتَنِي كُلَّ مَطْرَدٍ**»(١))

أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ:

فَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ قَالَ الْعَبَّاسُ : وَاصَبَاحَ قُرَيْشٍ ، وَاللهِ لَئِنْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ عَنْوَةً قَبْلَ أَنْ يَسْتَأْمِنُوهُ ، إِنَّهُ لَهَلَاكُ قُرَيْشٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ قَالَ : فَجَلَسْتُ عَلَى بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْبَيْضَاءِ ، فَخَرَجْتُ عَلَيْهَا حَتَّى جِئْتُ الْأَرَاكَ فَقُلْتُ : لَعَلِّي أَلْقَى بَعْضَ الْحَطَّابَةِ ، أَوْ صَاحِبَ لَبَنٍ ، أَوْ ذَا حَاجَةٍ يَأْتِي مَكَّةَ ، فَيُخْبِرُهُمْ بِمَكَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَخْرُجُوا إِلَيْهِ ، فَيَسْتَأْمِنُوهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا عَلَيْهِمْ عَنْوَةً . قَالَ : فَوَاللهِ ، إِنِّي لَأَسِيرُ عَلَيْهَا ، وَأَلْتَمِسُ مَا خَرَجْتُ لَهُ إِذْ سَمِعْتُ كَلَامَ أَبِي سُفْيَانَ ، وَبُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ وَهُمَا يَتَرَاجَعَانِ ، وَأَبُو سُفْيَانَ يَقُولُ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ نِيرَانًا وَلَا عَسْكَرًا قَالَ : يَقُولُ بُدَيْلٌ : هَذِهِ وَاللهِ نِيرَانُ خُزَاعَةَ حَمَشَتْهَا

---

(١) ما بين القوسين زاده في الحديث الحاكم في المستدرك على الصحيحين - ط العلمية (٣/ ٤٦) (٤٣٥٩) **بإسناد حسن** وهو الإسناد الآتي ذكره بعد تمام الحديث إن شاء الله تعالى، وقد حسن إسلام أبي سفيان هذا بعد ذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويقال: إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياء منه، وكان رسول الله ﷺ يحبه، وشهد له بالجنة، وقال: أرجو أن يكون خلفًا من حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولما حضرته الوفاة قال: لا تبكوا علي، فوالله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت. [زاد المعاد ٢/ ١٦٢، ١٦٣].

الْحَرْبُ . قَالَ : يَقُولُ أَبُو سُفْيَانَ : خُزَاعَةُ ، وَاللهِ أَذَلُّ وَأَلْأَمُ مِنْ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ نِيرَانَهَا وَعَسْكَرَهَا . قَالَ : فَعَرَفْتُ صَوْتَهُ ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا حَنْظَلَةَ ، فَعَرَفَ صَوْتِي ، فَقَالَ أَبُو الْفَضْلِ فَقُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : مَالَكَ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي . فَقُلْتُ : وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ ، هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّاسِ وَاصَبَاحَ قُرَيْشٍ وَاللهِ قَالَ : فَمَا الْحِيلَةُ ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي ؟ قَالَ : قُلْتُ : وَاللهِ لَئِنْ ظَفِرَ بِكَ لَيَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ ، فَارْكَبْ مَعِي هَذِهِ الْبَغْلَةَ حَتَّى آتِيَ بِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْتَأْمِنُهُ لَكَ ، قَالَ : فَرَكِبَ خَلْفِي وَرَجَعَ صَاحِبَاهُ ، فَحَرَّكْتُ بِهِ كُلَّمَا مَرَرْتُ بِنَارٍ مِنْ نِيرَانِ الْمُسْلِمِينَ ، قَالُوا : مَنْ هَذَا ؟ فَإِذَا رَأَوْا بَغْلَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا : عَمُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ حَتَّى مَرَرْتُ بِنَارِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ : مَنْ هَذَا ؟ وَقَامَ إِلَيَّ ، فَلَمَّا رَأَى أَبَا سُفْيَانَ عَلَى عَجُزِ الْبَغْلَةِ ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ عَدُوُّ اللهِ ، الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَمْكَنَ مِنْكَ بِغَيْرِ عَقْدٍ وَلَا عَهْدٍ ، ثُمَّ خَرَجَ يَشْتَدُّ نَحْوَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرَكَضْتُ الْبَغْلَةَ ، فَسَبَقْتُهُ بِمَا تَسْبِقُ الدَّابَّةُ الْبَطِيءُ الرَّجُلَ الْبَطِيءَ ، فَاقْتَحَمْتُ عَنِ الْبَغْلَةِ ، فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَدَخَلَ عُمَرُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، هَذَا أَبُو سُفْيَانَ قَدْ أَمْكَنَ اللهُ مِنْهُ بِغَيْرِ عَقْدٍ وَلَا عَهْدٍ ، فَدَعْنِي فَلْأَضْرِبْ عُنُقَهُ . قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنِّي أَجَرْتُهُ ، ثُمَّ جَلَسْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخَذْتُ بِرَأْسِهِ فَقُلْتُ : لَا وَاللهِ لَا يُنَاجِيهِ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ دُونِي ، فَلَمَّا أَكْثَرَ عُمَرُ فِي شَأْنِهِ قُلْتُ : مَهْلًا يَا عُمَرُ ، أَمَا وَاللهِ لَوْ كَانَ مِنْ رِجَالِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ مَا قُلْتُ هَذَا ، وَلَكِنَّكَ عَرَفْتَ أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْ رِجَالِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ قَالَ : مَهْلًا يَا عَبَّاسُ ، فَوَاللهِ لَإِسْلَامُكَ يَوْمَ أَسْلَمْتَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ ، وَمَا بِي إِلَّا أَنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ إِسْلَامَكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **اذْهَبْ بِهِ إِلَى رَحْلِكَ يَا عَبَّاسُ ، فَإِذَا أَصْبَحَ فَائْتِنِي بِهِ** » . فَذَهَبْتُ بِهِ إِلَى رَحْلِي فَبَاتَ عِنْدِي ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَوْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ : « **وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ؟** » قَالَ

: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، مَا أَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ ، وَاللهِ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنْ لَوْ كَانَ مَعَ اللهِ غَيْرُهُ لَقَدْ أَغْنَى عَنِّي شَيْئًا قَالَ : « **وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ ؟** » قَالَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ هَذِهِ وَاللهِ كَانَ فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ حَتَّى الْآنَ . قَالَ الْعَبَّاسُ : وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ أَسْلِمْ ، وَاشْهَدْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ قَبْلَ أَنْ تُضْرَبَ عُنُقُكَ ، قَالَ : فَشَهِدَ بِشَهَادَةِ الْحَقِّ وَأَسْلَمَ . قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا الْفَخْرَ ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا قَالَ : « **نَعَمْ مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ.**

الجيش الإسلامي يغادر مرّ الظهران إلى مكة:

فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَنْصَرِفَ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **يَا عَبَّاسُ ، احْبِسْهُ بِمَضِيقِ الْوَادِي عِنْدَ خَطْمِ الْجَبَلِ ، حَتَّى تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ اللهِ فَيَرَاهَا** » [وذلك صباح يوم الثلاثاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة ٨ هـ] . قَالَ : فَخَرَجْتُ بِهِ حَتَّى حَبَسْتُهُ حَيْثُ أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَحْبِسَهُ قَالَ : وَمَرَّتْ بِهِ الْقَبَائِلُ عَلَى رَايَاتِهَا كُلَّمَا مَرَّتْ قَبِيلَةٌ قَالَ : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ فَأَقُولُ : سُلَيْمٌ . فَيَقُولُ : مَا لِيَ وَلِسُلَيْمٍ ؟ قَالَ : ثُمَّ تَمُرُّ الْقَبِيلَةُ قَالَ : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ فَأَقُولُ : مُزَيْنَةُ . فَيَقُولُ : مَا لِيَ وَلِمُزَيْنَةَ ؟ حَتَّى تَعَدَّتِ الْقَبَائِلُ لَا تَمُرُّ قَبِيلَةٌ إِلَّا قَالَ : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ فَأَقُولُ : بَنُو فُلَانٍ . فَيَقُولُ : مَا لِيَ وَلِبَنِي فُلَانٍ . حَتَّى مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْخَضْرَاءِ كَتِيبَةٍ فِيهَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ لَا يُرَى مِنْهُمْ إِلَّا الْحَدَقُ ، قَالَ : سُبْحَانَ اللهِ ، مَنْ هَؤُلَاءِ يَا عَبَّاسُ ؟ قُلْتُ : هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ . قَالَ : مَا لِأَحَدٍ بِهَؤُلَاءِ قِبَلٌ وَلَا طَاقَةٌ ، وَاللهِ يَا أَبَا الْفَضْلِ ، لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ الْغَدَاةَ عَظِيمًا . قُلْتُ : يَا أَبَا سُفْيَانَ ، إِنَّهَا النُّبُوَّةُ . قَالَ : فَنَعَمْ إِذَنْ.

نفي التفاخر: وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما مر بأبي سفيان قال له اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشًا. فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال: يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد؟ قال: **وما قال؟** فقال: كذا وكذا. فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يا رسول الله ما نأمن

أن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ : «**بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشًا**» ، ثم أرسل إلى سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فنزع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد(١).

قريش تباغت بزحف الجيش الإسلامي:

ولما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال له العباس: النَّجَاءُ إِلَى قَوْمِكَ . قَالَ : فَخَرَجَ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، هَذَا مُحَمَّدٌ قَدْ جَاءَكُمْ بِمَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ ، فَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ امْرَأَتُهُ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ ، فَأَخَذَتْ بِشَارِبِهِ ، فَقَالَتِ : اقْتُلُوا الدَّسِمَ الْأَحْمَسَ ، فَبِئْسَ مِنْ طَلِيعَةِ قَوْمٍ . قَالَ : وَيْحَكُمْ ، لَا تَغُرَّنَّكُمْ هَذِهِ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ مَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ ، فَهُوَ آمِنٌ قَالُوا : وَيْلَكَ وَمَا تُغْنِي عَنَّا دَارُكَ . قَالَ : وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ فَتَفَرَّقَ النَّاسُ إِلَى دُورِهِمْ وَإِلَى الْمَسْجِدِ . (٢)

[وذَكَرَ أَبو هُرَيْرَةَ فَتْحَ مَكَّةَ ودور الأنصار فيه فَقَالَ : أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ ، فَبَعَثَ الزُّبَيْرَ عَلَى إِحْدَى الْمُجَنِّبَتَيْنِ ، وَبَعَثَ خَالِدًا عَلَى الْمُجَنِّبَةِ الْأُخْرَى ، وَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ عَلَى الْحُسَّرِ ، فَأَخَذُوا بَطْنَ الْوَادِي ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي كَتِيبَةٍ ، قَالَ : فَنَظَرَ فَرَآنِي فَقَالَ : **أَبُو هُرَيْرَةَ** . قُلْتُ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ : **لَا**

---

(١) أخرجه البخاري مرسلًا عن عروة بن الزبير، وله شاهد عن أبي بن كعب عند الترمذي (٣٤٣٤) وهو في الصحيح المسند (١/ ٣٢) (٧) وأصله في مسلم عن أبي هريرة (٤٦٥٥).

(٢) **حسن:** ذكره الألباني في الصحيحة (٧/ ١٠٢٩) (٣٣٤١) من قوله مضى رسول الله ﷺ ، واستخلف على المدينة إلى دخول مكة فقال: قصة فتح مكة الرائعة وإسلام أبي سفيان في أكمل رواية صحيحة أخرجها ابن إسحاق في "السيرة" (٤/١٧- ٢٤- ابن هشام) ، والطبراني في "المعجم الكبير" (٨/ ١٠- ١٥) - والسياق له-، والطبري في "التاريخ " (٣/ ١١٤) - بعضه- ، وكذا الحاكم (٣/٤٣- ٤٤) ، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٥/٣٢) ، وأبو داود (٣٠٢١) - فقرة منه - من طريق محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم الزهري عن عبيد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود عن ابن عباس به. وبالجملة؛ **فالحديث صحيح بهذه الطرق والشواهد، وهو أصح وأتم ما وقفت عليه مسندًا في قصة فتح مكة حرسها الله.** والله سبحانه وتعالى أعلم اهـ.).

يَأْتِينِي إِلَّا أَنْصَارِيٌّ اهْتِفْ لِي بِالْأَنْصَارِ . قَالَ : فَأَطَافُوا بِهِ وَوَبَّشَتْ قُرَيْشٌ أَوْبَاشًا لَهَا وَأَتْبَاعًا ، فَقَالُوا : نُقَدِّمُ هَؤُلَاءِ فَإِنْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ كُنَّا مَعَهُمْ ، وَإِنْ أُصِيبُوا أَعْطَيْنَا الَّذِي سُئِلْنَا . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **تَرَوْنَ إِلَى أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ وَأَتْبَاعِهِمْ** . ثُمَّ قَالَ بِيَدَيْهِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ،في رواية [**احْصُدُوهُمْ حَصْدًا**] ثُمَّ قَالَ : **حَتَّى تُوَافُونِي بِالصَّفَا** . قَالَ : فَانْطَلَقْنَا ، فَمَا شَاءَ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ يَقْتُلَ أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ ، وَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يُوَجِّهُ إِلَيْنَا شَيْئًا وفي رواية: فَمَا أَشْرَفَ يَوْمَئِذٍ لَهُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَنَامُوهُ ، قَالَ : وَصَعِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّفَا ، وَجَاءَتِ الْأَنْصَارُ فَأَطَافُوا بِالصَّفَا] (١)

تجمع سفهاء قريش وأخفاؤها مع عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو بالخندمة ليقاتلوا المسلمين، وكان فيهم رجل من بني بكر- حماس بن قيس- كان يعد قبل ذلك سلاحًا، فقالت له امرأته: لماذا تعد ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه قالت: والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء. قال: إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم. ثم قال:

إن يقبلوا اليوم فمالي علّه ❁ هذا سلاح كامل وألّه

وذو غرارين سريع السّلّه

فكان هذا الرجل فيمن اجتمعوا في الخندمة (٢).

الجيش الإسلامي بذي طوى: أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهى إلى ذي طوى- وكان يضع رأسه تواضعًا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل.

[ترتيب الجيش الإسلامي]

وهناك وزع ﷺ جيشه:

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٠).

(٢) علّه: يقال علّ الرجل يعل من المرض، غرارين: حدين، السله: الانتشال والسحب.

١- [رسول الله ﷺ في كتيبته الخاصة من المهاجرين والأنصار في القلب دخل من كدى.]

٢- وخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على المجنبة اليمنى- وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب- فأمره أن يدخل مكة من أسفلها، وقال: إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدًا، حتى توافوني على الصفا.

٣- وكان الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على المجنبة اليسرى، وكان معه راية رسول الله ﷺ، فأمره أن يدخل مكة من أعلاها- من كداء- وأن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه.

٤- وكان أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الرجالة والحسر- وهم الذين لا سلاح معهم-[في المقدمة] فأمره أن يأخذ بطن الوادي، حتى ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ.

الجيش الإسلامي يدخل مكة:

وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامي على الطريق التي كلفت الدخول منها فأما خالد وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أناموه، وقتل من أصحابه من المسلمين كرز بن جابر الفهري وخنيس بن خالد بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كانا قد شذا عن الجيش، فسلكا طريقًا غير طريقه فقتلا معًا، وأما سفهاء قريش فلقيهم خالد وأصحابه بالخندمة فناوشوهم شيئًا من قتال، فأصابوا من المشركين اثني عشر رجلًا فانهزم المشركون، وانهزم حماس بن قيس- الذي كان يعد السلاح لقتال المسلمين- حتى دخل بيته، فقال لامرأته: أغلقي علي بابي. فقالت: وأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنك لو شـهدت يوم الخندمه ۞ ۞ ۞ إذ فر صـفوان وفر عكرمه
واستقبلتنا بالسيوف المسلمه ۞ ۞ ۞ يقطعن كل ساعد وجمجمه

ضـــربًا فلا يســـمع إلا غمغمه ❁ ❁ ❁ لهم نهيت خلفنا وهمهمه
لـم تـنـطـقـي في الـلـوم أدنـى كـلـمـه

وأقبل خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله ﷺ على الصفا. وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح، وضرب له هناك قبة، فلم يبرح حتى جاءه رسول الله ﷺ.

الرسول ﷺ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام:

عسكر النبي ﷺ في منطقة جبل هند بعد أن سيطرت قواته على جميع مداخل مكة، فلما استراح وتجمعت أرتاله[١]، نهض رسول الله ﷺ ، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [سورة الإسراء:٨١]. ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة سبأ:٤٩]. [٢] والأصنام تتساقط على وجوهها.

وكان طوافه على راحلته، ولم يكن محرمًا يومئذ، واقتصر على الطواف، فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففتحت، فلَمَّا رَأَى الصُّوَرَ فِي الْبَيْتِ لَمْ يَدْخُلْ حَتَّى أَمَرَ بِهَا فَمُحِيَتْ وَرَأَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِأَيْدِيهِمَا الْأَزْلَامُ فَقَالَ : **قَاتَلَهُمُ اللهُ وَاللهِ إِنِ اسْتَقْسَمَا بِالْأَزْلَامِ قَطُّ** [٣].

---

(١) الرسول القائد (ص٣٤٠).
(٢) أخرجه البخاري برقم: (٤٢٨٧) ومسلم برقم: (١٧٨١) عن ابن مسعود، وأوله عن أبي هريرة في مسلم (١٧٨٠).
(٣) أخرجه البخاري (٣٣٥٢) عن ابن عباس.

ورأى في الكعبة حمامة من عيدان، فكسرها بيده ثم طرحها[١].

الرسول ﷺ يصلي في الكعبة:

ثم أغلق عليه الباب ﷺ،وعلى أسامة وبلال رضي الله عنهما، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب، حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف، «جَعَلَ عَمُودَيْنِ عَنْ يَسَارِهِ ، وَعَمُودًا عَنْ يَمِينِهِ ، وَثَلَاثَةَ أَعْمِدَةٍ وَرَاءَهُ ، وَكَانَ الْبَيْتُ يَوْمَئِذٍ عَلَى سِتَّةِ أَعْمِدَةٍ ، ثُمَّ صَلَّى» .[٢]، ثم دار في البيت، ودَعَا فِي نَوَاحِيهِ كُلِّهَا ،ثم فتح الباب[٣].

سماحة رسول الله ﷺ والمسلمين:

مع هذا النصر المبين والعز المكين أطلق رسول الله ﷺ قريشًا وأطلق لهم أموالهم ترغيبًا لهم في الإسلام.[٤] وأبقى الحجابة عند أهلها ، وكذا السقاية.

ودخل رسول الله ﷺ يومئذ دار أم هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها: فاغتسل وصلى ثماني ركعات في بيتها، وكان ضحى، وأجارت أم هانىء حموين لها، فقال رسول الله ﷺ: قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء، وقد كان أخوها علي بن أبي طالب رضي الله عنه أراد أن يقتلهما، فأغلقت عليهما باب بيتها، وسألت النبي ﷺ ، فقال لها ذلك[٥].

---

(١) **حسن:** أخرجه ابن هشام في السيرة ت السقا (٢/ ٤١١) عن ابن إسحاق بسند حسن عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦)و(٢٩٨٨) ومسلم (١٣٢٩) عن ابن عمر.

(٣) أخرجه مسلم (١٣٣٠) عن ابن عباس.

(٤) قد جاءت تسميتهم الطلقاء في [«صحيح مسلم» (٢/ ٧٣٥):]«عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ أَقْبَلَتْ هَوَازِنُ وَغَطَفَانُ، وَغَيْرُهُمْ بِذَرَارِيِّهِمْ وَنَعَمِهِمْ، وَمَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَئِذٍ عَشَرَةُ آلَافٍ، وَمَعَهُ الطُّلَقَاءُ». وفي قصة أم سليم الآتي في غزوة حنين.

(٥) **صحيح** : أخرجه أحمد بهذا اللفظ (٢٧٤٨٠) وهو في الصحيحة (٢٠٤٩) وأصله في البخاري (٣٥٧) ومسلم (٣٣٦).

إهدار دماء رجال من أكابر المجرمين:

وأهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء أربعة نفر وامرأتين، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة

عن أُبَيّ بن كَعْبٍ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أُصِيبَ مِنْ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلًا، وَمِنْ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ، فِيهِمْ حَمْزَةُ، فَمَثَّلُوا بِهِمْ، فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ: لَئِنْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ، قَالَ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [سورة النحل:١٢٦]. فَقَالَ رَجُلٌ: لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُفُّوا عَنْ الْقَوْمِ إِلَّا أَرْبَعَةً**»(١)

وعن سعد قال: لما كان يوم فتح مكة، أَمَّن رسول الله ﷺ الناس، إلا أربعة نَفَر، وامرأتين، وقال: «**اقْتُلُوهُمْ! وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الكَعْبَةِ، عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ خَطَلٍ، وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ**»(٢).

فأما ابن أبي سرح، فجاء به عثمان إلى النبي ﷺ ، وشفع فيه فحقن دمه، وقبل إسلامه بعد أن أمسك عنه، رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر، ثم ارتد ورجع إلى مكة(٣).

وأما عكرمة بن أبي جهل ففر إلى اليمن، فاستأمنت له امرأته، فأمنه النبي ﷺ فتبعته، فرجع معها وأسلم، وحسن إسلامه.

---

(١) **حسنٌ:** أخرجه النسائي في "الكبرى" برقم: (١١٢١٥) والترمذي في "جامعه" برقم: (٣١٢٩) وحسنه الإمام الوادعي في الصحيح المسند (١/ ٣٢) (٧).

(٢) **حسنٌ:** أخرجه النسائي في "المجتبى" برقم: (٤٠٧٨ / ١١) وفي "الكبرى" برقم: (٣٥١٦) وأبو داود في "سننه" برقم: (٢٦٨٣) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٣/ ٨٥٢)(٣٧٩١).

(٣) **حسنٌ:** أخرجه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" أبو داود في "سننه" برقم: (٣١٩٤) والترمذي في "جامعه" برقم: (١٠٣٤) وابن ماجه في "سننه" برقم: (١٤٩٤) وحسنه الإمام الوادعي الصحيح المسند مما (١/ ١٠١)(١١٩).

وأما ابن خطل فكان متعلقًا بأستار الكعبة، فجاء رجل إلى النبي ﷺ وأخبره فقال: «**اقتله**» فقتله [١].

وأما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبد الله، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله، ثم ارتد ولحق بالمشركين.

والقينتان كانتا لابن خطل، أو لمقيس بن صبابة كانتا تُغَنِّيَانِ بِهِجَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، قُتِلَتْ إِحْدَاهُمَا ، وَأَفْلَتَتِ الْأُخْرَى فَأَسْلَمَتْ[٢].

إسلام صفوان بن أمية:

لم يكن صفوان ممن أهدر دمه، لكنه بصفته زعيمًا كبيرًا من زعماء قريش خاف على نفسه وفر، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحي رسول الله ﷺ فأمنه، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر من جُدة إلى اليمن فرده، فقال لرسول الله ﷺ: اجعلني بالخيار شهرين. قال: أنت بالخيار أربعة أشهر. ثم أسلم صفوان، وقد كانت امرأته أسلمت قبله، فأقرهما على النكاح الأول[٣].

خطبة الرسول ﷺ في اليوم الثاني من الفتح: ولما كان الغد من يوم الفتح قام

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٤٦) ومسلم (١٣٥٧) عن أنس.

(٢) **حسن لغيره:** أخرجه أبو داود (٢٦٨٤) والبيهقي في "سننه الكبير" (١٨٣٤٧) ، والدارقطني في "سننه" (٢٧٩٣) والطبراني في "الكبير" (٥٥٢٩) عن سَعِيدِ بْنِ يَرْبُوعٍ الْمَخْزُومِيُّ وَكَانَ يُسَمَّى الصُّرْمَ، هذه القطعة من حديثه أصلها حديث سعد.

(٣) القصة بطولها خرجها الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٦/ ٣٣٧) ثم قال قلت: وهذا إسناد مرسل أو معضل ، وقال ابن عبد البر " لا أعلمه يتصل من وجه صحيح ، وهو حديث مشهور معلوم عند أهل السير ، وابن شهاب إمام أهلها ، وشهرة هذا الحديث أقوى من إسناده إن شاء الله "اهـ. **قلت:** قد أخرج مسلم (٢٣١٣) عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: غَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ غَزْوَةَ الْفَتْحِ فَتْحِ مَكَّةَ ، ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَاقْتَتَلُوا بِحُنَيْنٍ ، فَنَصَرَ اللهُ دِينَهُ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَأَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِائَةً مِنَ النَّعَمِ ثُمَّ مِائَةً ثُمَّ مِائَةً. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: حَدَّثَنِي **سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ** أَنَّ صَفْوَانَ قَالَ: وَاللهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ .فقوله: وإنه لأبغض الناس إليّ يدل على تسييره مدة وأنه ما أسلم إلا بعد غزو الطائف فالقصة ثابتة إن شاء الله.

رسول الله ﷺ في الناس خطيبًا، فحمد الله، وأثنى عليه، ومجده بما هو أهله، ثم قال: « **أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهِيَ حَرَامٌ مِنْ حَرَامِ اللهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ فِيهَا دَمًا ، وَلَا يَعْضُدَ بِهَا شَجَرًا ، لَمْ تَحْلِلْ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ يَكُونُ بَعْدِي ، وَلَمْ تَحْلِلْ لِي إِلَّا هَذِهِ السَّاعَةَ غَضَبًا عَلَى أَهْلِهَا ، أَلَا ثُمَّ قَدْ رَجَعَتْ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ ، أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الْغَائِبَ ، فَمَنْ قَالَ لَكُمْ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قَاتَلَ بِهَا ، فَقُولُوا : إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَحَلَّهَا لِرَسُولِهِ وَلَمْ يُحْلِلْهَا لَكُمْ** [وكانت خزاعة قتلت يومئذ رجلًا من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ بهذا الصدد:] **يَا مَعْشَرَ خُزَاعَةَ ، ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ عَنِ الْقَتْلِ فَقَدْ كَثُرَ أَنْ يَقَعَ ، لَئِنْ قَتَلْتُمْ قَتِيلًا لَأَدِيَنَّهُ ، فَمَنْ قُتِلَ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا فَأَهْلُهُ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ : إِنْ شَاءُوا فَدَمُ قَاتِلِهِ ، وَإِنْ شَاءُوا فَعَقْلُهُ "ثُمَّ وَدَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجُلَ الَّذِي قَتَلَتْهُ خُزَاعَةُ** » (١).

وفي حديث ابْنِ عَبَّاسٍ: « **لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ ، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ ، وَلَا يَلْتَقِطُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا**» فَقَالَ الْعَبَّاسُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِلَّا الْإِذْخِرَ ، فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِبُيُوتِهِمْ ، فَقَالَ : «**إِلَّا الْإِذْخِرَ**»(٢).

وفي حديث أبي هُرَيْرَةَ: فَقَامَ أَبُو شَاهٍ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ : اكْتُبُوا لِي يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **اكْتُبُوا لِأَبِي شَاهٍ** »(٣).

تخوف الأنصار من بقاء الرسول ﷺ في مكة:

ولما تم فتح مكة على الرسول ﷺ - وهي بلده ووطنه ومولده- قال الأنصار فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها- وهو

---

(١) **صحيح لغيره:** أخرجه أحمد (١٦٥٧٠) عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ.وأصله في البخاري (٢٤٣٤) و(٤٢٩٥) و(١١٢) ومسلم (١٣٥٥) (١٣٥٤) عن أَبِي هُرَيْرَةَ وأَبِي شُرَيْحٍ .

(٢) أخرجه البخاري: (١٣٤٩) ومسلم (١٣٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٣٤)، ومسلم (١٣٥٥).

يدعو على الصفا رافعًا يديه- فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال رسول الله ﷺ : **«معاذ الله المحيا محياكم، والممات مماتكم»** (١).

أخذ البيعة:

وحين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ والمسلمين تبين لأهل مكة الحق، وعلموا أن لا سبيل إلى النجاح إلا الإسلام، فأذعنوا له، واجتمعوا للبيعة، فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يبايع الناس، وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسفل منه، يأخذ على الناس، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا ، ولما فرغ النبي ﷺ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر قاعد أسفل منه، يبايعهن بأمره، ويبلغهن عنه [فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : جَاءَتْ هِنْدٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَهْلُ خِبَاءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُذِلَّهُمُ اللهُ مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ ، وَمَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَهْلُ خِبَاءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُعِزَّهُمُ اللهُ مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«وَأَيْضًا ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ»** . ثُمَّ قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مُمْسِكٌ ، فَهَلْ عَلَيَّ حَرَجٌ أَنْ أُنْفِقَ عَلَى عِيَالِهِ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَا حَرَجَ عَلَيْكِ أَنْ تُنْفِقِي عَلَيْهِمْ بِالْمَعْرُوفِ»**.] (٢).

إقامته ﷺ بمكة، وعمله فيها:

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا، يجدد معالم الإسلام، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى، وخلال هذه الأيام أمر أبا أسيد الخزاعي، فجدد أنصاب الحرم (حدوده)، وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام، ولكسر الأوثان التي كانت

---

(١) قال الألباني : حديث صحيح، رواه بهذا السياق ابن هشام بلاغًا؛ ووصله مسلم: (١٧٨٠) وغيره من حديث أبي هريرة نحوه. [فقه السيرة (ص٣٩٨)].

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٢٥) ومسلم (٤٥١٢).

حول مكة، فكسرت كلها، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسره.

المرحلة الثالثة: [ما حصل من تحوّل تاريخي عظيم]

وهي آخر مرحلة من مراحل حياة الرسول ﷺ، تمثل النتائج التي أثمرتها دعوته الإسلامية بعد جهاد طويل وعناء ومتاعب وقلاقل وفتن واضطرابات ومعارك وحروب دامية، واجهتها طيلة بضعة وعشرين عامًا. وكان فتح مكة هو أخطر كسب حصل عليه المسلمون في هذه الأعوام، تغير لأجله مجرى الأيام، وتحول به جو العرب، فقد كان الفتح حدًا فاصلا بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده، فإن قريشًا كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره، والعرب في ذلك تبع لهم، فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثني في جزيرة العرب. ويمكن أن نقسم هذه المرحلة إلى صفحتين:

١- صفحة المجاهدة والقتال.

٢- صفحة تسابق الشعوب والقبائل إلى اعتناق الإسلام. وهاتان الصفحتان متلاصقتان تناوبتا في هذه المرحلة، ووقعت كل واحدة منهما خلال الأخرى، إلا أنا اخترنا في الترتيب الوضعي، أنا نأتي على ذكر كل من الصفحتين متميزة عن الأخرى، ونظرا إلى أن صفحة القتال ألصق بما مضى، وأكثر مناسبة من الأخرى قدمناها في الترتيب[1].

غزوة حنين

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة شده لها العرب، وبوغتت القبائل المجاورة بالأمر الواقع، الذي لم يكن يمكن لها أن تدفعه، ولذلك لم تمتنع عن الاستسلام إلا بعض القبائل الشرسة القوية المتغطرسة، وفي مقدمتها بطون هوازن وثقيف، واجتمعت إليها نصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال- وكلها من قيس عيلان-[من مضر]

(١) «الرحيق المختوم مع زيادات» (ص٣٥٣).

رأت هذه البطون من نفسها عزًا وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع، فاجتمعت إلى مالك بن عوف النصري، وقررت المسير إلى حرب المسلمين.

مسير العدو ونزوله بأوطاس

ولما أجمع القائد العام- مالك بن عوف- المسير إلى حرب المسلمين ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فسار حتى نزل بأوطاس- وهو واد في دار هوازن بالقرب من حنين، لكن وادي أوطاس غير وادي حنين، وحنين واد إلى جنب ذي المجاز، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا من جهة عرفات [١].وقدر جيشه بعشرين ألفًا.

مجرب الحروب يغلط رأي القائد:

ولما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس، وفيهم دريد بن الصمة- وهو شيخ كبير، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب، وكان شجاعًا مجربًا- قال دريد: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس، مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصبي وثغاء الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم، فدعا مالكًا وسأله عما حمله على ذلك، فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيئًا؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك. ثم سأل عن بعض البطون والرؤساء، ثم قال: يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم، ثم الق الصباة على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك.

---

(١) انظر فتح الباري (٨/ ٢٧، ٤٢) وفي كتاب السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري (٢/ ٤٩٦) ذكر أن حنينًا الآن تسمى الشرائع وتبعد عن مكة ٢٠ كم.

ولكن مالكًا- القائد العام- رفض هذا الطلب قائلًا: والله لا أفعل، إنك قد كبرت وضاع عقلك، والله لتطيعني هوازن أو لأتكأن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأي، فقالوا: أطعناك. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني.

يا ليتني فيها جذع ❁❁❁ أخب فيها وأضع
أقود وطفاء الدمع ❁❁❁ كأنها شاة صدع

طليعة رسول الله ﷺ:

ونقلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ بمسير العدو، فبعث أبا حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، ففعل.

الرسول ﷺ يغادر مكة إلى حنين:

وفي يوم السبت- السادس من شهر شوال سنة ٨ هـ- غادر رسول الله ﷺ مكة- وكان ذلك اليوم التاسع عشر من يوم دخوله في مكة- خرج في اثني عشر ألفا من المسلمين، عشرة آلاف ممن كانوا خرجوا معه لفتح مكة، وألفان من أهل مكة، وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها[1]، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد.

ولما كان عَشِيَّةً جَاءَ رَجُلٌ فَارِسٌ-وهو أبو حدرد الأسلمي- ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي انْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ حَتَّى طَلَعْتُ جَبَلَ كَذَا وَكَذَا ، فَإِذَا أَنَا بِهَوَازِنَ عَلَى بَكْرَةِ آبَائِهِمْ بِظُعُنِهِمْ وَنَعَمِهِمْ وَشَائِهِمُ اجْتَمَعُوا إِلَى حُنَيْنٍ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وقال: **«تِلْكَ غَنِيمَةُ الْمُسْلِمِينَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ»** ، ثُمَّ قَالَ : **«مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ ؟»** قَالَ أَنَسُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيُّ : أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ : **فَارْكَبْ** فَرَكِبَ فَرَسًا لَهُ ، وَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«اسْتَقْبِلْ هَذَا الشِّعْبَ ، حَتَّى تَكُونَ فِي**

(١) **حسن بشواهده**: انظر تخريجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٢٠٧)(٦٣١)

أَعْلَاهُ ، وَلَا نُغَرَّنَّ مِنْ قِبَلِكَ اللَّيْلَةَ» فَلَمَّا أَصْبَحْنَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى مُصَلَّاهُ ، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ قَالَ : **«هَلْ أَحْسَسْتُمْ فَارِسَكُمْ ؟»** قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَحْسَسْنَاهُ ، فَثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ يَتَلَفَّتُ إِلَى الشِّعْبِ حَتَّى إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ وَسَلَّمَ فَقَالَ : **«أَبْشِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ فَارِسُكُمْ»** فَجَعَلْنَا نَنْظُرُ إِلَى خِلَالِ الشَّجَرِ فِي الشِّعْبِ ، فَإِذَا هُوَ قَدْ جَاءَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ : إِنِّي انْطَلَقْتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلَى هَذَا الشِّعْبِ حَيْثُ أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ اطَّلَعْتُ الشِّعْبَيْنِ كِلَيْهِمَا ، فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : **«هَلْ نَزَلْتَ اللَّيْلَةَ ؟»** قَالَ : لَا إِلَّا مُصَلِّيًا أَوْ قَاضِيًا حَاجَةً ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : **«قَدْ أَوْجَبْتَ ، فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْمَلَ بَعْدَهَا.»**(١).

وفي طريقهم إلى حنين رأوا سدرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها ويعكفون، فقال بعض أهل الجيش لرسول ﷺ: اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«اللهُ أَكْبَرُ ، إِنَّهَا السَّنَنُ ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ :** ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ [سورة الأعراف:١٣٨]. **، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ .»**(٢).

الجيش الإسلامي يُباغت بالرماة والمهاجمين وذكر شجاعة نبينا ﷺ

انتهى الجيش الإسلامي إلى حنين ليلة الأربعاء لعشر خلون من شوال، وكان مالك بن عوف قد سبقهم، فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي، وفرق كمناءه في

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود(٢٤٩٧)، عن سَهْل بْن الْحَنْظَلِيَّةِ ، والحديث في الصحيح المسند للإمام الوادعي (٤٦٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي(٢١٨٠) والطبراني في "الكبير (٣٢٩١) وهذا لفظه عن أبي واقد الليثي.

الطرق والمداخل، والشعاب والأخباء والمضايق، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما طلعوا، ثم يشدوا شدة رجل واحد. وبالسحر عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وعقد الألوية والرايات وفرقها على الناس:

قَالَ جَابِر بْن عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَمَّا اسْتَقْبَلْنَا وَادِيَ حُنَيْنٍ : انْحَدَرْنَا فِي وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ تِهَامَةَ أَجْوَفَ حَطُوطٍ إِنَّمَا نَنْحَدِرُ فِيهِ انْحِدَارًا قَالَ : وَفِي عَمَايَةِ الصُّبْحِ وَقَدْ كَانَ الْقَوْمُ كَمَنُوا لَنَا فِي شِعَابِهِ وَفِي أَجْنَابِهِ ومَضَايِقِهِ قَدْ أَجْمَعُوا وَتَهَيَّئُوا وَأَعَدُّوا ، قَالَ : فَوَاللهِ مَا رَاعَنَا وَنَحْنُ مُنْحَطُّونَ إِلَّا الْكَتَائِبُ قَدْ شَدَّتْ عَلَيْنَا شَدَّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ وَانْهَزَمَ النَّاسُ رَاجِعِينَ ، فَاسْتَمَرُّوا لَا يَلْوِي أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ وَانْحَازَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ الْيَمِينِ ، ثُمَّ قَالَ : **إِلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَيَّ ، أَنَا رَسُولُ اللهِ ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ** قَالَ : فَلَا شَيْءَ احْتَمَلَتِ الْإِبِلُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَانْطَلَقَ النَّاسُ ، إِلَّا أَنَّ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَهْطًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ غَيْرَ كَثِيرٍ ، [وَفِيمَنْ] ثَبَتَ مَعَهُ [ﷺ] أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ ، وَمِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَابْنُهُ الْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ ،[وابنه جعفر] وَرَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَأَيْمَنُ بْنُ عُبَيْدٍ وَهُوَ ابْنُ أُمِّ أَيْمَنَ وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، قَالَ : وَرَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَحْمَرَ فِي يَدِهِ رَايَةٌ لَهُ سَوْدَاءُ فِي رَأْسِ رُمْحٍ طَوِيلٍ لَهُ أَمَامَ النَّاسِ وَهَوَازِنُ خَلْفَهُ فَإِذَا أَدْرَكَ طَعَنَ بِرُمْحِهِ ،وَإِذَا فَاتَهُ النَّاسُ رَفَعَهُ لِمَنْ وَرَاءَهُ فَاتَّبَعُوهُ.قَالَ جَابِر بْن عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : بَيْنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ مِنْ هَوَازِنَ صَاحِبُ الرَّايَةِ عَلَى جَمَلِهِ ذَلِكَ يَصْنَعُ مَا يَصْنَعُ إِذْ هَوَى لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُرِيدَانِهِ قَالَ : فَيَأْتِيهِ عَلِيٌّ مِنْ خَلْفِهِ فَضَرَبَ عُرْقُوبَيِ الْجَمَلِ فَوَقَعَ عَلَى عَجُزِهِ وَوَثَبَ الْأَنْصَارِيُّ عَلَى الرَّجُلِ فَضَرَبَهُ ضَرْبَةً أَطَنَّ قَدَمَهُ بِنِصْفِ سَاقِهِ فَانْجَعَفَ عَنْ رَحْلِهِ ، وَاجْتَلَدَ النَّاسُ فَوَاللهِ مَا رَجَعَتْ رَاجِعَةُ النَّاسِ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ

حَتَّى وَجَدُوا الْأَسْرَى مُكَتَّفِينَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ(١).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا انْهَزَمَ النَّاسُ يَوْمَ حُنَيْنٍ جَعَلَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ يَقُولُ : لَا تَنْتَهِي هَزِيمَتُهُمْ دُونَ الْبَحْرِ وَصَرَخَ كَلَدَةُ بْنُ الْحَنْبَلِ وَهُوَ مَعَ أَخِيهِ لِأُمِّهِ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ : أَلَا بَطَلَ السِّحْرُ الْيَوْمَ فَقَالَ لَهُ صَفْوَانُ : اسْكُتْ فَضَّ اللهُ فَاكَ فَوَاللهِ لَأَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ(٢).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ حُنَيْنٍ وَإِنَّ الْفِئَتَيْنِ لَمُوَلِّيَتَانِ وَمَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِائَةُ رَجُلٍ (٣).

وقد كانت في هذه اللحظات جولة سريعة للمسلمين في بعض نقاط المعركة قبل الفرار قَالَ الْبَرَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَكَانَتْ هَوَازِنُ يَوْمَئِذٍ رُمَاةً ، وَإِنَّا لَمَّا حَمَلْنَا عَلَيْهِمُ انْكَشَفُوا ، فَأَكْبَبْنَا عَلَى الْغَنَائِمِ فَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ(٤).

وقَالَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: افْتَتَحْنَا مَكَّةَ ، ثُمَّ إِنَّا غَزَوْنَا حُنَيْنًا فَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ بِأَحْسَنِ صُفُوفٍ رَأَيْتُ قَالَ: فَصُفَّتِ الْخَيْلُ ، ثُمَّ صُفَّتِ الْمُقَاتِلَةُ ، ثُمَّ صُفَّتِ النِّسَاءُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ ، ثُمَّ صُفَّتِ الْغَنَمُ ، ثُمَّ صُفَّتِ النَّعَمُ ، قَالَ: وَنَحْنُ بَشَرٌ كَثِيرٌ قَدْ بَلَغْنَا سِتَّةَ آلَافٍ ، وَعَلَى مُجَنِّبَةِ خَيْلِنَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ قَالَ: فَجَعَلَتْ خَيْلُنَا تَلْوِي خَلْفَ ظُهُورِنَا ، فَلَمْ نَلْبَثْ أَنِ انْكَشَفَتْ خَيْلُنَا وَفَرَّتِ الْأَعْرَابُ وَمَنْ نَعْلَمُ مِنَ النَّاسِ(٥).

وحينئذ ظهرت شجاعة النبي ﷺ التي لا نظير لها. قَالَ الْبَرَاءُ: وَلَقَدْ رَأَيْتُ

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (١٥٢٥٨) والطحاوي في شرح مشكل الآثار عقب حديث (٢٥٧٦) وابن حبان (٤٧٧٤) وصححه الألباني في تحقيقه لفقه السيرة (ص٣٩٠).

(٢) **حسن**: أخرجه ابن حبان (٤٧٧٤) والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (٦ / ٤١٢) وصححه الألباني في تحقيقه لفقه السيرة (ص٣٩٠).

(٣) **حسن**: أخرجه الترمذي (١٦٨٩) والطبراني في الأوسط (٤٩٧٦) وحسنه الإمام الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١/ ٦٠٠) (٧٦٨).

(٤) أخرجه مسلم برقم: (١٧٧٦).

(٥) أخرجه مسلم برقم: (١٠٥٩).

رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ ، وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ الْحَارِثِ آخِذٌ بِلِجَامِهَا وَهُوَ يَقُولُ(١):

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ ❁❁❁ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ

وقَالَ عَبَّاسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ ، فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَلَمْ نُفَارِقْهُ ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ ، أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ ، فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ . قَالَ عَبَّاسٌ : وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ(٢).

ثم نَزَلَ وَدَعَا وَاسْتَنْصَرَ: « **اللَّهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ** » قَالَ الْبَرَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنَّا وَاللهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ. وقَالَ : فَمَا رُئِيَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ أَشَدُّ مِنْهُ(٣).

وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَامَ حُنَيْنٍ ،فَلَمَّا الْتَقَيْنَا ، كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ جَوْلَةٌ ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَاسْتَدَرْتُ حَتَّى أَتَيْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ حَتَّى ضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ عَلَى حَبْلِ عَاتِقِهِ ، فَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَضَمَّنِي ضَمَّةً وَجَدْتُ مِنْهَا رِيحَ الْمَوْتِ ، ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَأَرْسَلَنِي ، فَلَحِقْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقُلْتُ : مَا بَالُ النَّاسِ ؟ قَالَ : أَمْرُ اللهِ ، ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ رَجَعُوا ، وَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : « **مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ** » فَقُمْتُ فَقُلْتُ : مَنْ يَشْهَدُ لِي ، ثُمَّ جَلَسْتُ ، ثُمَّ قَالَ : « **مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ** » ، فَقُمْتُ فَقُلْتُ : مَنْ يَشْهَدُ لِي ؟ ثُمَّ جَلَسْتُ ، ثُمَّ قَالَ الثَّالِثَةَ مِثْلَهُ ، فَقَالَ رَجُلٌ : صَدَقَ يَا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣١٧) ، ومسلم(١٧٧٦).

(٢) أخرجه مسلم(١٧٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٦٤) (٣٠٤٢) ، ومسلم(١٧٧٦).

رَسُولَ اللهِ ، وَسَلَبُهُ عِنْدِي فَأَرْضِهِ عَنِّي ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَاهَا اللهِ ، إِذًا يَعْمِدُ إِلَى أَسَدٍ مِنْ أُسْدِ اللهِ ، يُقَاتِلُ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، يُعْطِيكَ سَلَبَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ فَأَعْطَاهُ»(١).

وقَالَ سَلَمَة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُنَيْنًا ، فَلَمَّا وَاجَهْنَا الْعَدُوَّ تَقَدَّمْتُ فَأَعْلُو ثَنِيَّةً ، فَاسْتَقْبَلَنِي رَجُلٌ مِنَ الْعَدُوِّ فَأَرْمِيهِ بِسَهْمٍ ، فَتَوَارَى عَنِّي فَمَا دَرَيْتُ مَا صَنَعَ ، وَنَظَرْتُ إِلَى الْقَوْمِ فَإِذَا هُمْ قَدْ طَلَعُوا مِنْ ثَنِيَّةٍ أُخْرَى ، فَالْتَقَوْا هُمْ وَصَحَابَةُ النَّبِيِّ ﷺ، فَوَلَّى صَحَابَةُ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَرْجِعُ مُنْهَزِمًا وَعَلَيَّ بُرْدَتَانِ مُتَّزِرًا بِإِحْدَاهُمَا مُرْتَدِيًا بِالْأُخْرَى ، فَاسْتَطْلَقَ إِزَارِي ، فَجَمَعْتُهُمَا جَمِيعًا ، وَمَرَرْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مُنْهَزِمًا ، وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ الشَّهْبَاءِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ رَأَى ابْنُ الْأَكْوَعِ فَزَعًا». فَلَمَّا غَشُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ نَزَلَ عَنِ الْبَغْلَةِ ، ثُمَّ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ مِنَ الْأَرْضِ ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وُجُوهَهُمْ فَقَالَ : «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» . فَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلَّا مَلَأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ ، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ ، فَهَزَمَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ(٢).

رجوع المسلمين واحتدام المعركة:

وأمر رسول الله ﷺ عمه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ينادي الصحابة فَقَالَ: «أَيْ عَبَّاسُ ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ» . فَقَالَ عَبَّاسٌ (وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا) : فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي : أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ ؟ قَالَ : فَوَاللهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا ، فَقَالُوا : يَا لَبَّيْكَ ، يَا لَبَّيْكَ . قَالَ : فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ ، وَالدَّعْوَةُ فِي الْأَنْصَارِ يَقُولُونَ : يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، قَالَ : ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ ، فَقَالُوا : يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ ، يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا

(١) أخرجه البخاري (٣١٤٢) ومسلم (١٧٥١).

(٢) أخرجه مسلم: (١٧٧٧).

إِلَى قِتَالِهِمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ» ، قَالَ : ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ ، ثُمَّ قَالَ : «انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ» . قَالَ : فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ ، فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى ، قَالَ : فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ ، فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا ، وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا(١).

ويصف العَبَّاسُ حسن امتثالهم حين سمعوا الصوت قَائلًا : يَذْهَبُ الرَّجُلُ لِيُثْنِيَ بَعِيرَهُ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَيَأْخُذُ دِرْعَهُ، فَيَقْذِفُهَا فِي عُنُقِهِ، وَيَأْخُذُ سَيْفَهُ وَتُرْسَهُ، وَيَقْتَحِمُ عَنْ بَعِيرِهِ، وَيُخَلِّي سَبِيلَهُ، فَيَؤُمُّ الصَّوْتَ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْهُم مائَة، اسْتَقْبَلُوا النَّاسَ، فَاقْتَتَلُوا، وَكَانَتْ الدَّعْوَى أَوَّلَ مَا كَانَتْ: يَا لَلْأَنْصَارِ. ثُمَّ خَلَصَتْ أَخِيرًا: يَا لَلْخَزْرَجِ. وَكَانُوا صُبْرًا عِنْدَ الْحَرْبِ، فَأَشْرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي رَكَائِبِهِ. فَنَظَرَ إِلَى مُجْتَلَدِ الْقَوْمِ وَهُمْ يَجْتَلِدُونَ، فَقَالَ: «الْآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ»(٢).

وَالْتَفَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ مِمَّنْ صَبَرَ يَوْمَئِذٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَ حَسَنَ الْإِسْلَامِ حِينَ أَسْلَمَ، وَهُوَ آخِذٌ بِثَفَرِ بَغْلَتِهِ ، فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» قَالَ:أَنَا ابْنُ أُمِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ خَيْرًا(٣).

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ اتَّخَذَتْ يَوْمَ حُنَيْنٍ خِنْجَرًا ، فَكَانَ مَعَهَا, فَرَآهَا أَبُو طَلْحَةَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، هَذِهِ أُمُّ سُلَيْمٍ مَعَهَا خِنْجَرٌ ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا هَذَا الْخِنْجَرُ ؟ قَالَتِ : اتَّخَذْتُهُ ، إِنْ دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَقَرْتُ بِهِ بَطْنَهُ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَضْحَكُ ، قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ، اقْتُلْ مَنْ بَعْدَنَا مِنَ

---

(١) أخرجه مسلم: (١٧٧٥) عن العباس.

(٢) **حسن لذاته:** أخرجه ابْنُ إِسْحَاقَ كما في سيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٤٤٥). فقَالَ وَحَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ، عَنْ كَثِيرِ بْنِ الْعَبَّاسِ، عَنْ أَبِيهِ الْعَبَّاسِ فذكره.

(٣) **حسن لذاته:** أخرجه الطبراني في الكبير (١٩٠٣٣) عن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وانظر «سيرة ابن هشام ت السقا» (٢/ ٤٤٦).

الطُّلَقَاءِ انْهَزَمُوا بِكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **يَا أُمَّ سُلَيْمٍ ، إِنَّ اللهَ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ**(١).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ - يَعْنِي يَوْمَ حُنَيْنٍ : - «**مَنْ قَتَلَ كَافِرًا فَلَهُ سَلَبُهُ**» فَقَتَلَ أَبُو طَلْحَةَ يَوْمَئِذٍ عِشْرِينَ رَجُلًا ، وَأَخَذَ أَسْلَابَهُمْ(٢).

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا انْهَزَمَتْ هَوَازِنُ اسْتَحَرَّ الْقَتْلُ مِنْ ثَقِيفٍ فِي بَنِي مَالِكٍ،فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا تَحْتَ رَايَتِهِمْ، فِيهِمْ عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ حَبِيبٍ، وَكَانَتْ رَايَتُهُمْ مَعَ ذِي الْخِمَارِ، فَلَمَّا قُتِلَ أَخَذَهَا عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَاتَلَ بِهَا حَتَّى قُتِلَ وَكَانَتْ رَايَةُ الْأَحْلَافِ مَعَ قَارِبِ بْنِ الْأَسْوَدِ، فَلَمَّا انْهَزَمَ النَّاسُ أَسْنَدَ رَايَتَهُ إِلَى شَجَرَةٍ، وَهَرَبَ هُوَ وَبَنُو عَمِّهِ وَقَوْمُهُ مِنْ الْأَحْلَافِ، فَلَمْ يُقْتَلْ مِنْ الْأَحْلَافِ غَيْرُ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ مِنْ غِيَرَةَ، يُقَالُ لَهُ وَهْبٌ، وَآخَرُ مِنْ بَنِي كُبَّةَ، يُقَالُ لَهُ الْجُلَاحُ»(٣).

انكسار حدة العدو، وهزيمته الساحقة:

وما هي إلا ساعات قلائل- بعد رمي القبضة- حتى انهزم العدو هزيمة منكرة، وقتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظعن. وهذا هو التطور الذي أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة التوبة: ٢٥-٢٦].

---

(١) أخرجه مسلم : (١٨٠٩).

(٢) قال الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود ط غراس» (٨/ ٥٥)«(قلت: إسناده صحيح على شرط مسلم».

(٣) «سيرة ابن هشام ت السقا» (٢/ ٤٤٩ - ٤٥٠).

وقال سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ هَوَازِنَ ، فَبَيْنَا نَحْنُ نَتَضَحَّى مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ فَأَنَاخَهُ ، ثُمَّ انْتَزَعَ طَلَقًا مِنْ حَقَبِهِ فَقَيَّدَ بِهِ الْجَمَلَ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ يَتَغَدَّى مَعَ الْقَوْمِ ، وَجَعَلَ يَنْظُرُ وَفِينَا ضَعْفَةٌ وَرِقَّةٌ فِي الظَّهْرِ وَبَعْضُنَا مُشَاةٌ ، إِذْ خَرَجَ يَشْتَدُّ ، فَأَتَى جَمَلَهُ فَأَطْلَقَ قَيْدَهُ ، ثُمَّ أَنَاخَهُ وَقَعَدَ عَلَيْهِ فَأَثَارَهُ فَاشْتَدَّ بِهِ الْجَمَلُ ، فَاتَّبَعَهُ رَجُلٌ عَلَى نَاقَةٍ وَرْقَاءَ ، قَالَ سَلَمَةُ : وَخَرَجْتُ أَشْتَدُّ فَكُنْتُ عِنْدَ وَرِكِ النَّاقَةِ ، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ حَتَّى كُنْتُ عِنْدَ وَرِكِ الْجَمَلِ ، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ حَتَّى أَخَذْتُ بِخِطَامِ الْجَمَلِ فَأَنَخْتُهُ ، فَلَمَّا وَضَعَ رُكْبَتَهُ فِي الْأَرْضِ اخْتَرَطْتُ سَيْفِي فَضَرَبْتُ رَأْسَ الرَّجُلِ فَنَدَرَ ، ثُمَّ جِئْتُ بِالْجَمَلِ أَقُودُهُ ، عَلَيْهِ رَحْلُهُ وَسِلَاحُهُ ، فَاسْتَقْبَلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالنَّاسُ مَعَهُ فَقَالَ : مَنْ قَتَلَ الرَّجُلَ ؟ قَالُوا : ابْنُ الْأَكْوَعِ ، قَالَ: لَهُ سَلَبُهُ أَجْمَعُ. (١) وهذا المقتول كان جاسوسًا للمشركين.

حركة المطاردة: ولما انهزم العدو صارت طائفة منهم إلى الطائف، وطائفة إلى نخلة، وطائفة إلى أوطاس، فأرسل النبي ﷺ إلى أوطاس طائفة من المطاردين يقودهم أبو عامر الأشعري، فتناوش الفريقان القتال قليلًا، ثم انهزم جيش المشركين، وفي هذه المناوشة قتل القائد أبو عامر الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ حُنَيْنٍ بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاسٍ ، فَلَقِيَ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّةِ ، فَقُتِلَ دُرَيْدٌ وَهَزَمَ اللهُ أَصْحَابَهُ ، قَالَ أَبُو مُوسَى: وَبَعَثَنِي مَعَ أَبِي عَامِرٍ ، فَرُمِيَ أَبُو عَامِرٍ فِي رُكْبَتِهِ ، رَمَاهُ جُشَمِيٌّ بِسَهْمٍ فَأَثْبَتَهُ فِي رُكْبَتِهِ ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا عَمِّ مَنْ رَمَاكَ؟ فَأَشَارَ إِلَى أَبِي مُوسَى فَقَالَ: ذَاكَ قَاتِلِي الَّذِي رَمَانِي ، فَقَصَدْتُ لَهُ فَلَحِقْتُهُ ، فَلَمَّا رَآنِي وَلَّى ، فَاتَّبَعْتُهُ وَجَعَلْتُ أَقُولُ لَهُ: أَلَا تَسْتَحِي ،[أَلَسْتَ عَرَبِيًّا؟] أَلَا تَثْبُتُ ؟ فَكَفَّ ، فَاخْتَلَفْنَا ضَرْبَتَيْنِ بِالسَّيْفِ فَقَتَلْتُهُ ، ثُمَّ قُلْتُ لِأَبِي عَامِرٍ: قَتَلَ اللهُ صَاحِبَكَ ، قَالَ: فَانْزِعْ هَذَا السَّهْمَ ، فَنَزَعْتُهُ فَنَزَا مِنْهُ

(١) أخرجه البخاري (٣٠٥١) ومسلم(١٧٥٤).

الْمَاءُ ، قَالَ يَا ابْنَ أَخِي: أَقْرِئِ النَّبِيَّ ﷺ السَّلَامَ ، وَقُلْ لَهُ: اسْتَغْفِرْ لِي. وَاسْتَخْلَفَنِي أَبُو عَامِرٍ عَلَى النَّاسِ ، فَمَكَثَ يَسِيرًا ثُمَّ مَاتَ ، فَرَجَعْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِهِ عَلَى سَرِيرٍ مُرْمَلٍ وَعَلَيْهِ فِرَاشٌ ، قَدْ أَثَّرَ رِمَالُ السَّرِيرِ بِظَهْرِهِ وَجَنْبَيْهِ ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِنَا وَخَبَرِ أَبِي عَامِرٍ ، وَقَالَ: قُلْ لَهُ اسْتَغْفِرْ لِي ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِرٍ وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ. فَقُلْتُ: وَلِي فَاسْتَغْفِرْ ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ ، وَأَدْخِلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُدْخَلًا كَرِيمًا**»[(١)].

وطاردت طائفة أخرى من فرسان المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا نخلة.

وأما معظم فلول المشركين الذين لجأوا إلى الطائف؛ فتوجه إليهم رسول الله ﷺ بنفسه بعد أن جمع الغنائم.

الغنائم:

وكانت الغنائم: السبي ستة آلاف رأس[(٢)]، والإبل أربعة وعشرون ألفًا، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، أمر رسول الله ﷺ بجمعها، ثم حبسها بالجعرانة، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري، ولم يقسمها حتى فرغ من غزوة الطائف.

غزوة الطائف:

وهذه الغزوة في الحقيقة امتداد لغزوة حنين، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع القائد العام- مالك بن عوف النصري- وتحصنوا بها،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٢٣) ومسلم (٢٤٩٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره جامع البيان - ط دار التربية والتراث (١٤/ ١٨٣) عن سعيد بن المسيب مرسلًا وهو صحيح إليه ، وصح أيضًا عن عروة بن الزبير مرسلًا كما في تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (٣/ ٨٢) فيثبت هذا الخبر في التاريخ بمثل هذا إن شاء الله تعالى.

فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم بالجعرانة في نفس الشهر- شوال سنة ٨ هـ وقدم خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على مقدمته طليعة في ألف رجل، ثم سلك رسول الله ﷺ إلى الطائف، فمر في طريقه على النخلة اليمانية، ثم على قرن المنازل، ثم على لية، وكان هناك حصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريبًا من حصنه، وعسكر هناك، وفرض الحصار على أهل الحصن. ودام الحصار مدة غير قليلة، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انْطَلَقْنَا إِلَى الطَّائِفِ فَحَاصَرْنَاهُمْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى مَكَّةَ[(١)]. ووقعت في هذه المدة مراماة ومقاذفات، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رميًا شديدًا كأنه رجل جراد، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقتل منهم اثنا عشر رجلًا، واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم، فعسكروا هناك ، ودخل نفر من المسلمين تحت دبابة [(٢)] ، ودخلوا بها إلى الجدار ليحرقوه، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرموهم بالنبل وقتلوا منهم رجالًا. وأمر رسول الله ﷺ - كجزء من سياسة الحرب لإلجاء العدو إلى الاستسلام- أمر بقطع الأعناب وتحريقها. فقطعها المسلمون قطعًا ذريعًا، فسألته ثقيف أن يدعها لله والرحم، فتركها لله والرحم.

وخَرَجَ أَبو بَكْرَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُحَاصِرٌ أَهْلَ الطَّائِفِ بِثَلَاثَةٍ وَعِشْرِينَ عَبْدًا ، فَأَعْتَقَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَهُمُ الَّذِينَ يُقَالُ لَهُمُ الْعُتَقَاءُ [(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٥٩).

(٢) لم تكن الدبابة كدبابتنا اليوم، وإنما كانت تصنع من الخشب، كان الناس يدخلون في جوفها ثم يدفعونها في أصل الحصن لينقبوه وهم في جوفها، أو ليدخلوا من النقبات.

(٣) **صحيح:** أخرجه عبد الرزاق (٩٦٨٢) وأخرجه البخاري (٤٣٢٦) ضمن حديث، وأخرج أحمد في "مسنده" (١٧٨٠٢) عن رجل من ثقيف أن رسول الله ﷺ قال في أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « **هُوَ طَلِيقُ اللهِ، ثُمَّ طَلِيقُ رَسُولِهِ** » وصححه الإمام الوادعي في الصحيح المسند (١٤٩٩) (٢/ ٤٤٤).

وأَعْتَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الطَّائِفِ مَنْ خَرَجَ إِلَيْهِ مِنْ عَبِيدِ الْمُشْرِكِينَ [١].

ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة ولما طال الحصار، واستعصى الحصن، وأصيب المسلمون بما أصيبوا من رشق النبال وبسكك الحديد المحماة- وكان أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة- وحينئذ عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل، فأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس: إنا قافلون غدًا إن شاء الله، فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال رسول الله ﷺ: **«اغدوا على القتال»** ، فغدوا فأصابهم جراح، فقال: إنا قافلون غدًا إن شاء الله، فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك. [٢] ولما ارتحلوا واستقلوا قال: «**قولوا: آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون**»[٣].

قسمة الغنائم بالجعرانة:

ولما عاد رسول الله ﷺ بعد رفع الحصار عن الطائف؛ مكث بالجعرانة بضع عشرة ليلة لا يقسم الغنائم، ويتأنى بها، يبتغي أن يقدم عليه وفد هوازن تائبين، فيحرزوا ما فقدوا، ولكنه لم يجئه أحد، فبدأ بقسمة المال، [فأعطى] رؤساء القبائل وأشراف مكة، فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطي وحظي بالأنصبة الجزلة تألفًا.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ ، آثَرَ النَّبِيُّ ﷺ أُنَاسًا فِي الْقِسْمَةِ ، فَأَعْطَى الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ ، فَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ ، قَالَ رَجُلٌ : وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا ، وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ . فَقُلْتُ : وَاللهِ لَأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ ، رَحِمَ اللهُ مُوسَى ،

---

(١) **حسن بشاهده المتقدم:** أخرجه أحمد(١٩٨٤) عن ابْن عَبَّاسٍ:وفيه حَجَّاج بن أرطأة وهو مدلس.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٢٥) ومسلم (١٧٧٨) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٨٥) ومسلم (١٣٤٤) عن ابن عمر.

قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ(١).

وعَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَصَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ، وَعُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ، وَالْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى عَبَّاسَ بْنَ مِرْدَاسٍ دُونَ ذَلِكَ، فَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي، وَنَهْبَ الْعُبَيْدِ ❁❁❁ بَيْنَ عُيَيْنَةَ، وَالْأَقْرَعِ
فَمَا كَانَ بَدْرٌ، وَلَا حَابِسٌ ❁❁❁ يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي الْمَجْمَعِ
وَمَا كُنْتُ دُونَ امْرِئٍ مِنْهُمَا ❁❁❁ وَمَنْ تَخْفِضِ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ

قَالَ: فَأَتَمَّ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِائَةً(٢).

وأعطى كثيرًا حتى شاع في الناس «أن محمدًا يعطي عطاء ما يخاف الفقر»(٣).

وبَيْنَمَا رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسِيرُ وَمَعَهُ النَّاسُ مَقْفَلَهُ مِنْ حُنَيْنٍ عَلِقَهُ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى سَمُرَةٍ فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ فَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: **أَعْطُونِي رِدَائِي لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بَخِيلًا وَلَا كَذُوبًا وَلَا جَبَانًا**(٤).

وعن عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ، قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى بَعِيرٍ مِنَ الْمَغْنَمِ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخَذَ وَبَرَةً مِنْ جَنْبِ الْبَعِيرِ، ثُمَّ قَالَ: «**لَا يَحِلُّ لِي مِنْ غَنَائِمِكُمْ مِثْلُ هَذَا إِلَّا الْخُمُسُ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ**»(٥).

وعن عبد الله بن عمرو قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**رُدُّوا رِدَائِي، رُدُّوا رِدَائِي، فَوَاللهِ لَوْ كَانَ عِنْدِي عَدَدَ شَجَرِ تِهَامَةَ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، وَمَا أَلْفَيْتُمُونِي بَخِيلًا وَلَا**

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢).
(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٠٦٠).
(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٣١٢).
(٤) أخرجه البخاري (٢٨٢١) عن جبير بن مطعم.
(٥) **حسن:** أخرجه الحاكم في "مستدركه" (٦٦٤٦) وأبو داود في "سننه" (٢٧٥٥) والبيهقي في "سننه الكبير" (١٣٠٦٦) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٦٧٩).

جَبَانًا وَلَا كَذِبًا ، ثُمَّ قَامَ إِلَى جَنْبِ بَعِيرٍ فَأَخَذَ مِنْ سَنَامِهِ وَبَرَةً ، فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ لَيْسَ لِي مِنْ فَيْئِكُمْ مِثْلَ هَذِهِ إِلَّا الْخُمُسَ ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ فَأَدُّوا الْخَيْطَ وَالْمِخْيَطَ ، فَإِنَّ الْغُلُولَ يَكُونُ عَلَى صَاحِبِهِ عَارًا وَنَارًا وَشَنَارًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِكُبَّةٍ مِنْ خُيُوطِ شَعَرٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَخَذْتُ لِأَخِيطَ بِهَا بُرْدَةَ بَعِيرٍ لِي دَبِرَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا مَا كَانَ لِي فَهُوَ لَكَ» ، قَالَ : [أي: الرجل] أَمَّا إِذَا بَلَغَتْ هَذَا ، فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ [(١)].

وبعد إعطاء المؤلفة قلوبهم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإحضار الغنائم والناس، ثم فرضها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل أربعًا من الإبل وأربعين شاة، فإن كان فارسًا أخذ اثني عشر بعيرًا وعشرين ومائة شاة.

الأنصار تجد على رسول الله ﷺ :

روى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت؛ قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي: قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة» ، فخرج سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال: لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «يا

---

(١) **حسن:** أخرجه ابن الجارود في "المنتقى" (١١٥٨) وغيره.

معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالًا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل.ثم قال: **«ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟»** قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال: **«أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتم: آتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فاويناك، وعائلا فاسيناك»** . **«أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا، وسلكت الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار، اللّهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»** . فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًا، ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا(١).

قدوم وفد هوازن : وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلمًا، وهم أربعة عشر رجلًا، ورأسهم زهير بن صرد، وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة، فسألوه أن يمن عليهم بالسبي والأموال، وأدلوا إليه بكلام ترق له القلوب، فأنشده زهير:

امنن علينا رسول الله في كرم	❁❁❁	فإنك المرءُ نرجوه وننتظر
امنن على بيضةٍ قد عاقها قَدَر	❁❁❁	مفرقًا شملها في دهرها غيَرُ
أبقت لنا الدهر هتّافًا على حزنٍ	❁❁❁	على قلوبهمُ الغماءُ والغُمُرُ
إن لم تداركهُم نعماء تنشُرُها	❁❁❁	يا أرجح الناس حلمًا حين يُختبرُ
امنن على نسوة قد كنت تَرضعُها	❁❁❁	وإذ يزينُك ما يأتي وما تذرُ

(١) أخرجه أحمد (١١٩٠٩). وحسنه الإمام الوادعي الصحيح المسند (١/ ٣٣٦)(٣٩٦)

لاتجعلنَّا كمن شـــالت نعامته ❁❁❁ فاســتبقِ منا فإنا معشــرٌ زُهرُ
إنـا لنشــكرُ للنعمـاء إذ كُفِرَت ❁❁❁ وعنـدنـا بعـد هـذا اليوم مُـدَّخَرُ
فألبِسِ العفو من قد كنت تَرضَـعُه ❁❁❁ من أمّهـاتـك إنّ العفو مشــتهرُ
يا خيرمن مرحت كمتُ الجيادِ به ❁❁❁ عند الهياج إذا ما استُوقِد الشَّررُ
إنـا نؤمِّـل عفواً منـك نلبسُـــهُ ❁❁❁ هـادي البريَّةِ إذ تعفُو وتنتصِــرُ
فاعفُ عفا الله عمّا أنت راهبُهُ ❁❁❁ يوم القيامة إذ يَهدِي لك الظفَرُ

فلما سمع هذا الشعر قال: « **أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم**» (١)

وقال: «**إن معي من ترون، وإن أحب الحديث إلي أصدقه، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟**» قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا. فقال: إذا صليت الغداة- أي صلاة الظهر- فقوموا فقولوا: «**إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سبينا**» فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وسأسأل لكم الناس**» فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال الأقرع بن حابس، أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا. وقال العباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا. فقال بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال العباس بن مرداس: وهنتموني. فقال رسول الله ﷺ: «**إن هؤلاء القوم قد جاؤا مسلمين، وقد كنت استأنيت سبيهم، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئًا. فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه بأن يرده فسبيل ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم، وله بكل فريضة**

(١) **حسن**: أخرجه الطبراني في "الكبير" (٥٣٠٣) و"الأوسط" (٤٦٣٠) و"الصغير" (٦٦١) وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٢٥٢) (٧/ ٧٦١).

ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا» [١] فقال الناس: قد طيبنا لرسول الله ﷺ فقال: **«إنا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم»** [٢] فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم.

(تَسْمِيَةُ مَنْ اُسْتُشْهِدَ يَوْمَ حُنَيْنٍ ثم الطائف) : [٣]

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَهَذِهِ تَسْمِيَةُ مَنْ اُسْتُشْهِدَ يَوْمَ حُنَيْنٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ.

١- مِنْ قُرَيْشٍ ثُمَّ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ: أَيْمَنُ بْنُ عُبَيْدٍ.

٢- وَمِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى: يَزِيدُ بْنُ زَمَعَةَ بْنِ الْأَسْوَدِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَسَدٍ، جَمَحَ بِهِ فَرَسٌ لَهُ يُقَالُ لَهُ الْجَنَاحُ، فَقُتِلَ.

٣- وَمِنْ الْأَنْصَارِ: سُرَاقَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَدِيٍّ، مِنْ بَنِي الْعَجْلَانِ.

٤- وَمِنْ الْأَشْعَرِيِّينَ: أَبُو عَامِرٍ الْأَشْعَرِيُّ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَهَذِهِ تَسْمِيَةُ مَنْ اُسْتُشْهِدَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الطَّائِفِ.

(مِنْ قُرَيْشٍ) :

٥- مِنْ قُرَيْشٍ، ثُمَّ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ: سَعِيدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ.

٦- وَعُرْفُطَةُ بْنُ جَنَّابٍ، حَلِيفٌ لَهُمْ، مِنْ الْأُسْدِ بْنِ الْغَوْثِ.قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ: ابْنُ حُبَابٍ.

٧- وَمِنْ بَنِي تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رُمِيَ بِسَهْمٍ، فَمَاتَ مِنْهُ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

٨- وَمِنْ بَنِي مَخْزُومٍ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، مِنْ رَمْيَةٍ رُمِيَهَا يَوْمَئِذٍ.

---

(١) حسنه الألباني في الصحيحة (١٩٧٣) (٤/ ٦٢١) الحديث أخرجه أحمد(٦٨٠٤) عن عبد الله بن عمرو.

(٢) أخرجه البخاري(٢٥٣٩) عن المسور بن مخرمة بنحو ما تقدم.

(٣) «سيرة ابن هشام ت السقا» (٢/ ٤٥٩) و(٢/ ٤٨٦).

٩- وَمِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ، حَلِيفٌ لَهُمْ.
١٠- وَمِنْ بَنِي سَهْمِ بْنِ عَمْرٍو: السَّائِبُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ،
١١- وَأَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ.
١٢- وَمِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ لَيْثٍ: جُلَيْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ.
(وَاسْتُشْهِدَ مِنْ الْأَنْصَارِ) :
١٣- مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: ثَابِتُ بْنُ الْجَذَعِ
١٤- وَمِنْ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ: الْحَارِثُ بْنُ سَهْلِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ.
١٥- وَمِنْ بَنِي سَاعِدَةَ: الْمُنْذِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ.
١٦- وَمِنْ الْأَوْسِ: رُقَيْمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ لَوْذَانَ بْنِ مُعَاوِيَةَ.

العمرة والانصراف إلى المدينة:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم في الجعرانة أهلّ معتمرًا منها، فأدى العمرة، وانصرف بعد ذلك راجعًا إلى المدينة بعد أن ولَّى على مكة عتاب ابن أسيد، وكان رجوعه إلى المدينة لست ليال بقيت من ذي القعدة سنة ٨ هـ.

[تأمل هذا الحدث التاريخي العظيم بعد فتح مكة]

* البعوث والسرايا بعد الرجوع من غزوة الفتح

وبعد الرجوع من هذا السفر الطويل الناجح أقام رسول الله ﷺ بالمدينة يستقبل الوفود، ويبعث العمال، ويبث الدعاة، ويكبت من بقي فيه الاستكبار عن الدخول في دين الله، والإستسلام للأمر الواقع الذي شاهدته العرب. وهاك صورة مصغرة من ذلك:

* المصدقون (١)

قد عرفنا مما تقدم أن رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة كان في أواخر أيام السنة

(١) المصدقون هم من يبعثهم وليُّ الأمر لجمع الزكاة والجزية والخراج.

الثامنة فما هو إلا أن استهل هلال المحرم من سنة ٩ هـ، وبعث رسول الله ﷺ المصدقين إلى القبائل. وهذه هي قائمتهم:

١- عيينة بن حصن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بني تميم.

٢- يزيد بن الحصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أسلم وغفار.

٣- عباد بن بشير الأشهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى سليم ومزينة.

٤- رافع بن مكيث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى جهينة.

٥- عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بني فزارة.

٦- الضحاك بن سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بني كلاب.

٧- بشير بن سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بني كلاب.

٨- ابن اللتبية الأزدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بني ذبيان.

٩- المهاجر بن أبي أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى صنعاء.

١٠- زياد بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى حضر موت.

١١- عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى طيء وبني أسد.

١٢- مالك بن نويرة إلى بني حنظلة.

١٣- الزبرقان بن بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بني سعد. (إلى قسم منهم).

١٤- قيس بن عاصم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بني سعد (إلى قسم آخر منهم).

١٥- العلاء بن الحضرمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى البحرين

١٦- علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى نجران (لجمع الصدقة والجزية كليهما).

وليس هؤلاء العمال كلهم بعثوا في المحرم سنة ٩ هـ، بل تأخر بعث عدة منهم إلى اعتناق الإسلام من تلك القبائل التي بعثوا إليها. نعم كانت بداية بعث العمال بهذا الاهتمام البالغ في المحرم سنة ٩ هـ. وهذا يدل على مدى نجاح الدعوة الإسلامية بعد هدنة الحديبية، وأما بعد فتح مكة فقد دخل الناس في دين الله أفواجًا.

* السرايا

وكما بعث المصدقون إلى القبائل، مست الحاجة إلى بعث عدة من السرايا، مع سيادة الأمن على عامة مناطق الجزيرة. وهاك لوحة تلك السرايا:

١- سرية عيينة بن حصن الفزاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في المحرم سنة ٩ هـ- إلى بني تميم، في خمسين فارسًا .

٢- سرية قطبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى حي من خثعم بناحية تبالة، بالقرب من تربة، في صفر سنة ٩ هـ.

٣- سرية الضحاك بن سفيان الكلابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بني كلاب في ربيع الأولى ٩ هـ.

٤- سرية علقمة بن مجزز المدلجي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى سواحل جدة لتأمينها من قراصنة الحبشة.

٥- سرية علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى صنم لطيء. يقال له القلس - ليهدمه- في شهر ربيع الأولى ٩ هـ. بعثه رسول الله ﷺ في خمسين ومائة على مائة بعير وخمسين فرسًا، ومعه راية سوداء ولواء أبيض.

٦- غزوة تبوك في رجب سنة ٩ هـ.

مما قيل من الشعر يوم الفتح ويوم حنين والطائف [١]

«قال ابْنَ الزِّبَعْرَى حِينَ أَسْلَمَ:

يَا رَسُولَ الْمَلِيكِ إِنَّ لِسَانِي ❁❁❁ رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بور
إِذْ أُبَارِي الشَّيْطَانَ فِي سُنَنِ الْغَيِّ ❁❁❁ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ
آمَنَ اللَّحْمُ وَالْعِظَامُ لِرَبِّي ❁❁❁ ثُمَّ قَلْبِي الشَّهِيدُ أَنْتَ النَّذِيرُ
إِنَّنِي عَنْكَ زَاجِرٌ ثَمَّ حَيًّا ❁❁❁ مِنْ لُؤَيٍّ وَكُلُّهُمْ مَغْرُورُ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ أَنَسُ بْنُ زُنَيْمٍ الدِّيلِيُّ يَعْتَذِرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِمَّا كَانَ

---

(١) «سيرة ابن هشام ت السقا» (٢/ ٤١٩ - ٤٢٨) و(٢/ ٤٥١-٤٩١).

قَالَ فِيهِمْ عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ الْخُزَاعِيُّ:

أَأَنْتَ الَّذِي تُهْدَى مَعَدٌّ بِأَمْرِهِ ❁❁❁ بَلْ اللهُ يَهْدِيهِمْ وَقَالَ لَكَ اشْهَدِ
وَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا ❁❁❁ أَبَرَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدِ
أَحَثَّ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبَغَ نَائِلًا ❁❁❁ إِذَا رَاحَ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ الْمُهَنَّدِ
وَأَكْسَى لِبُرْدِ الْخَالِ قَبْلَ ابْتِذَالِهِ ❁❁❁ وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِقِ الْمُتَجَرِّدِ
تَعَلَّمْ رَسُولَ اللهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي ❁❁❁ وَأَنَّ وَعِيدًا مِنْكَ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ
تَعَلَّمْ رَسُولَ اللهِ أَنَّكَ قَادِرٌ ❁❁❁ عَلَى كُلِّ صِرْمٍ مُتْهِمِينَ وَمُنْجِدِ
تَعَلَّمْ بِأَنَّ الرَّكْبَ رَكْبُ عُوَيْمِرٍ ❁❁❁ هُمْ الْكَاذِبُونَ الْمُخْلِفُو كلّ موعد
ونبئ رَسُولَ اللهِ أَنِّي هَجَوْتُهُ ❁❁❁ فَلَا حَمَلَتْ سَوْطِي إِلَيَّ إِذَنْ يَدِي
سِوَى أَنَّنِي قَدْ قُلْتُ وَيْلُ امِّ فِتْيَةٍ ❁❁❁ أُصِيبُوا بِنَحْسٍ لَا بِطَلْقٍ وَأَسْعُدِ
أَصَابَهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ لِدِمَائِهِمْ ❁❁❁ كِفَاءً فَعَزَّتْ عَبْرَتِي وَتَبَلَّدِي
فَإِنَّكَ قَدْ أَخْفَرْتَ إِنْ كُنْتَ سَاعِيًا ❁❁❁ بِعَبْدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ وَابْنَةِ مهود
ذُؤَيْبٍ وَكُلْثُومٌ وَسَلْمَى تَتَابَعُوا ❁❁❁ جَمِيعًا فَإِلَّا تَدْمَعْ الْعَيْنُ اكْمَدِ
وَسَلْمَى وَسَلْمَى لَيْسَ حَيٌّ ❁❁❁ وَإِخْوَتِهِ وَهَلْ مُلُوكٌ كَأَعْبُدِ؟
فَإِنِّي لَا دِينًا فَتَقْتُ وَلَا دَمًا ❁❁❁ هَرَقْتُ تَبَيَّنْ عَالِمَ الْحَقِّ وَاقْصِدِ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ بُجَيْرُ بْنُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى فِي يَوْمِ الْفَتْحِ:

نَفَى أَهْلَ الْحَبَلَّقِ كُلَّ فَجٍّ ❁❁❁ مُزَيْنَةُ غُدْوَةً وَبَنُو خُفَافِ
ضَرَبْنَاهُمْ بِمَكَّةَ يَوْم فتح النّبيّ ❁❁❁ الْخَيْرِ بِالْبِيضِ الْخِفَافِ
صَبَحْنَاهُمْ بِسَبْعٍ مِنْ سُلَيْم ❁❁❁ وَأَلْفٍ مِنْ بَنِي عُثْمَانَ وَافِ
نَطَا أَكْتَافَهُمْ ضَرْبًا وَطَعْنًا ❁❁❁ وَرَشْقًا بِالْمُرَيَّشَةِ اللِّطَافِ
تَرَى بَيْنَ الصُّفُوفِ لَهَا حَفِيفًا ❁❁❁ كَمَا انْصَاعَ الْفُوَاقُ مِنْ الرِّصَافِ
فَرُحْنَا وَالْجِيَادُ تَجُولُ فِيهِمْ ❁❁❁ بِأَرْمَاحٍ مُقَوَّمَةِ الثِّقَافِ

فَأُبْنَا غَانِمِينَ بِمَا اشْتَهَيْنَا ❁❁❁ وَآبُوا نَادِمِينَ عَلَى الْخِلَافِ
وَأَعْطَيْنَا رَسُولَ اللهِ مِنَّا ❁❁❁ مَوَاثِقَنَا عَلَى حُسْنِ التَّصَافِي
وَقَدْ سَمِعُوا مَقَالَتَنَا فَهَمُّوا ❁❁❁ غَدَاةَ الرَّوْعِ مِنَّا بِانْصِرَافِ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ السُّلَمِيُّ فِي فَتْحِ مَكَّةَ:

مِنَّا بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتْحِ مُحَمَّدٍ ❁❁❁ أَلْفٌ تَسِيلُ بِهِ الْبِطَاحُ مُسَوَّمُ
نَصَرُوا الرَّسُولَ وَشَاهَدُوا أَيَّامَهُ ❁❁❁ وَشِعَارُهُمْ يَوْمَ اللِّقَاءِ مُقَدَّمُ
فِي مَنْزِلٍ ثَبَتَتْ بِهِ أَقْدَامُهُمْ ❁❁❁ ضَنْكٍ كَأَنَّ الْهَامَ فِيهِ الْحَنْتَمُ
جَرَّتْ سَنَابِكَهَا بِنَجْدٍ قَبْلَهَا ❁❁❁ حَتَّى اسْتَقَادَ لَهَا الْحِجَازُ الْأَدْهَمُ
اللهُ مَكَّنَهُ لَهُ وَأَذَلَّهُ ❁❁❁ حُكْمُ السُّيُوفِ لَنَا وَجَدٌّ مزحم
عود الرّئاسة شَامِخٌ عِرْنِينُهُ ❁❁❁ مُتَطَلِّعٌ ثُغَرَ الْمَكَارِمِ خِضْرِمُ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَقَالَ جَعْدَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْخُزَاعِيُّ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ:

أَكَعْبَ بْنُ عَمْرٍو دَعْوَةً غَيْرَ بَاطِلٍ ❁❁❁ لِحَيْنِ لَهُ يَوْمَ الْحَدِيدِ مُتَاحِ
أُتِيحَتْ لَهُ مِنْ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ ❁❁❁ لِتَقْتُلَهُ لَيْلًا بِغَيْرِ سِلَاحِ
وَنَحْنُ الْأُلَى سَدَّتْ غَزَالَ خُيُولُنَا ❁❁❁ وَلِفْتًا سَدَدْنَاهُ وَفَجَّ طِلَاحِ
خَطَرْنَا وَرَاءَ الْمُسْلِمِينَ بِجَحْفَلٍ ❁❁❁ ذَوِي عَضُدٍ مِنْ خَيْلِنَا وَرِمَاحِ

وَهَذِهِ الْأَبْيَاتُ فِي أَبْيَاتٍ لَهُ. وَقَالَ بُجَيْدُ بْنُ عِمْرَانَ الْخُزَاعِيُّ:

وَقَدْ أَنْشَأَ اللهُ السَّحَابَ بِنَصْرِنَا ❁❁❁ رُكَامَ صِحَابِ الْهَيْدَبِ
وَهِجْرَتُنَا فِي أَرْضِنَا عِنْدَنَا بِهَا ❁❁❁ كِتَابٌ أَتَى مِنْ خَيْرِ مُمْلٍ وَكَاتِبِ
وَمِنْ أَجْلِنَا حَلَّتْ بِمَكَّةَ حُرْمَةٌ ❁❁❁ لِنُدْرِكَ ثَأْرًا بِالسُّيُوفِ الْقَوَاضِبِ

ومما قيل في يوم حنين

ما قَالَه عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ السُّلَمِيُّ يَذْكُرُ قَارِبَ بْنَ الْأَسْوَدِ وَفِرَارَهُ مِنْ بَنِي أَبِيهِ،

وَذَا الْخِمَارِ وَحَبْسَهُ قَوْمَهُ لِلْمَوْتِ:

أَلَا مِنْ مُبَلِّغ غَيْلَانَ عَنِّي ❁❁❁ وَسَوْفَ إِخَالُ يَأْتِيهِ الْخَبِيرُ
وَعُرْوَةَ إِنَّمَا أُهْدِي جَوَابًا ❁❁❁ وَقَوْلًا غَيْرَ قَوْلِكُمَا يَسِيرُ
بِأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدٌ رَسُولٌ ❁❁❁ لِرَبٍّ لَا يَضِلُّ وَلَا يَجُورُ
وَجَدْنَاهُ نَبِيًّا مِثْلَ مُوسَى ❁❁❁ فَكُلُّ فَتَى يُخَابِرُهُ مَخِيرُ
وَبِئْسَ الْأَمْرُ أَمْرُ بَنِي قَسِيٍّ ❁❁❁ بِوَجٍّ إِذْ تُقُسِّمَتْ الْأُمُورُ
أَضَاعُوا أَمْرَهُمْ وَلِكُلِّ قَوْم ❁❁❁ أَمِيرٌ وَالدَّوَائِرُ قَدْ تَدُورُ
فَجِئْنَا أُسْدَ غَابَاتٍ إِلَيْهِمْ ❁❁❁ جُنُودُ اللهِ ضَاحِيَةً تَسِيرُ
يَؤُمُّ الْجَمْعَ جَمْعَ بَنِي قَسِيٍّ ❁❁❁ عَلَى حَنَقٍ نَكَادُ لَهُ نَطِيرُ
وَأُقْسِمُ لَوْ هُمْ مَكَثُوا لَسِرْنَا ❁❁❁ إِلَيْهِمْ بِالْجُنُودِ وَلَمْ يَغُورُوا
فَكُنَّا أُسْدَ لِيَّةَ ثَمَّ حَتَّى ❁❁❁ أَبَحْنَاهَا وَأُسْلِمَتْ النُّصُورُ
وَيَوْمٌ كَانَ قَبْلُ لَدَى حُنَيْنٍ ❁❁❁ فَأَقْلَعَ وَالدِّمَاءُ بِهِ تَمُورُ
مِنْ الْأَيَّامِ لَمْ تَسْمَعْ كَيَوْم ❁❁❁ وَلَمْ يَسْمَعْ بِهِ قَوْمٌ ذُكُورُ
قَتَلْنَا فِي الْغُبَارِ بَنِي حُطَيْطٍ ❁❁❁ عَلَى رَايَاتِهَا وَالْخَيْلُ زُورُ
وَلَمْ يَكُ ذُو الْخِمَارِ رَئِيسَ قَوْم ❁❁❁ لَهُمْ عَقْلٌ يُعَاقِبُ أَوْ مَكِيرُ
أَقَامَ بِهِمْ عَلَى سَنَنِ الْمَنَايَا ❁❁❁ وَقَدْ بَانَتْ لِمُبْصِرِهَا الْأُمُورُ
فَأَفْلَتَ مَنْ نجا مِنْهُم جيضا ❁❁❁ وَقُتِّلَ مِنْهُمْ بَشَرٌ كَثِيرُ
وَلَا يُغْنِي الْأُمُورَ أَخُو الْتَوَانِي ❁❁❁ وَلَا الْغَلِقُ الصَّرِيرَةُ الْحَصُورُ
أَحَانَهُمُ وَحَانَ وَمَلَّكُوهُ ❁❁❁ أُمُورَهُمْ وَأَفْلَتَتْ الصُّقُورُ
بَنُو عَوْفٍ تَمِيحُ بِهِمْ جِيَادٌ ❁❁❁ أُهِينَ لَهَا الْفَصَافِصُ وَالشَّعِيرُ
فَلَوْلَا قَارِبٌ وَبَنُو أَبِيهِ ❁❁❁ تُقُسِّمَتَ الْمَزَارِعُ والقصور

ولكنّ الرِّئَاسَـــةَ عُـمِّـمُوهَـا ۞۞۞ عَلَىٰ يُمْنٍ أَشَـــارَ بِـهِ الْمُشِـيرُ
أَطَـاعُـوا قَـارِبًـا وَلَـهُـمْ جُـدُودٌ ۞۞۞ وَأَحْـلَامٌ إِلَـىٰ عِـزٍّ تَصِـيـرُ
فَـإِنْ يُهْـدَوْا إِلَىٰ الْإِسْـلَامِ يُلْفَوْا ۞۞۞ أُنُوفَ النَّاسِ مَا سَـمَرَ السَّـمِيرُ
وَإِنْ لَـمْ يُسْـلِـمُـوا فَـهُـمْ أَذَانٌ ۞۞۞ بِحَرْبِ اللهِ لَيْسَ لَهُمْ نَصِـيرُ
كَمَا حَكَّتْ بَنِي سَـعْدٍ وَحَرْبٌ ۞۞۞ بِـرَهْـطِ بَـنِي غَـزِيَّـةَ عَـنْـقَـفِـيرُ
كَـأَنَّ بَـنِـي مُـعَـاوِيَـةَ بْـنِ بَـكْـرٍ ۞۞۞ إِلَىٰ الْإِسْـلَامِ ضَـائِنَـةٌ تَخُورُ
فَـقُـلْـنَـا أَسْـلِـمُـوا إِنَّـا أَخُـوكُـمْ ۞۞۞ وَقَدْ بَرَأَتْ مِنَ الْإِحَنِ الصُّـدُورُ
كَـأَنَّ الْـقَـوْمَ إِذْ جَـاءُوا إِلَـيْـنَـا ۞۞۞ مِنَ الْبَغْضَـاءِ بَعْدَ السِّـلْمِ عُورُ

قَالَ ابْنُ هِشَام: غَيْلَانُ:غَيْلَانُ بْنُ سَلَمَةَ الثَّقَفِيُّ، وَعُرْوَةُ: عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ.

ثُمَّ سَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ حِينَ فَرَغَ مِنْ حُنَيْنٍ، فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، حِينَ أَجْمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّيْرَ إِلَى الطَّائِفِ.

قَضَـيْـنَـا مِنْ تِهَـامَـةَ كُـلَّ رَيْـبٍ ۞۞۞ وخيبر ثمَّ أجممنا السُّـيُوفَـا
نُخَـيِّـرُهَـا وَلَـوْ نَـطَـقَـتْ لَـقَـالَـتْ ۞۞۞ قَـوَاطِـعُـهُـنَّ: دَوْسًـا أَوْ ثَـقِـيفًـا
فَلَسْـتُ لِحَاضِـنٍ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ۞۞۞ بِسَـاحَـةِ داركـم مـنّـا أُلُـوفَـا
وَنَـنْـتَـزِعُ الْـعُـرُوشَ بِـبَـطْـنِ وَجٍّ ۞۞۞ وَتُـصْـبِـحُ دُورُكُـمْ مِنْكُمْ خُلُوفَا
وَيَـأْتِيكُـمْ لَـنَـا سَـرَعَـانُ خَـيْـلٍ ۞۞۞ يُـغَـادِرُ خَـلْـفَـهُ جَـمْـعًـا كَـثِـيفَـا
إِذَا نَـزَلُـوا بِسَـاحَـتِكُـمْ سَـمِـعْـتُـمْ ۞۞۞ لَـهَـا مِـمَّـا أَنَـاخَ بِـهَـا رَجِـيفَـا
بِـأَيْـدِيهِـمْ قَـوَاضِـبُ مُـرْهَـفَـاتٌ ۞۞۞ يُـزِرْنَ الْـمُـصْـطَـلِينَ بِهَا الْحُتُوفَا
كَـأَمْـثَـالِ الْـعَـقَـائِقِ أَخْـلَصَـتْـهَـا ۞۞۞ قُيُونُ الْهِنْدِ لَمْ تُضْـرَبْ كَتِيفَا
تَـخَـالُ جَـدِيَّـةَ الْأَبْـطَـالِ فِـيـهَـا ۞۞۞ غَـدَاةَ الزَّحْفِ جَـادِيًّـا مَـدُوفَـا
أَجِـدَّهُـمْ أَلَـيْـسَ لَـهُـمْ نَـصِـيحٌ ۞۞۞ مِـنَ الْأَقْـوَامِ كَـانَ بِـنَـا عَـرِيفَـا

يُخَبِّرُهُمْ بِأَنَّا قَدْ جَمَعْنَا ❁❁❁ عِتَاقَ الْخَيْلِ وَالنُّجُبَ الطُّرُوفَا
وَأَنَّا قد أتيناهم يزحف ❁❁❁ يُحِيطُ بِسُورِ حِصْنِهِمْ صُفُوفَا
رَئِيسُهُمُ النَّبِيُّ وَكَانَ صُلْبًا ❁❁❁ نَقِيَّ الْقَلْبِ مُصْطَبِرًا عَزُوفَا
رَشِيدُ الْأَمْرِ ذُو حُكْمٍ وَعِلْمٍ ❁❁❁ وَحِلْمٍ لَمْ يَكُنْ نَزِقًا خَفِيفَا
نُطِيعُ نَبِيَّنَا وَنُطِيعُ رَبًّا ❁❁❁ هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بِنَا رَءُوفَا
فَإِنْ تُلْقُوا إِلَيْنَا السِّلْمَ نَقْبَلْ ❁❁❁ وَنَجْعَلْكُمْ لَنَا عَضُدًا وَرِيفَا
وَإِنْ تَأْبَوْا نُجَاهِدْكُمْ وَنَصْبِرْ ❁❁❁ وَلَا يَكُ أَمْرُنَا رَعِشًا ضَعِيفَا
نُجَالِدُ مَا بَقِينَا أَوْ تُنِيبُوا ❁❁❁ إِلَى الْإِسْلَامِ إِذْعَانًا مُضِيفَا
نُجَاهِدُ لَا نُبَالِي مَنْ لَقِينَا ❁❁❁ أَأَهْلَكَنَا التِّلَادَ أَمِ الطَّرِيفَا
وَكَمْ مِنْ مَعْشَرٍ أَلَبُوا عَلَيْنَا ❁❁❁ صَمِيمَ الْجِذْمِ مِنْهُمْ وَالْحَلِيفَا
أَتَوْنَا لَا يَرَوْنَ لَهُمْ كِفَاءً ❁❁❁ فَجَدَّعْنَا الْمَسَامِعَ وَالْأُنُوفَا
بِكُلِّ مُهَنَّدٍ لَيْنٍ صَقِيلٍ ❁❁❁ يَسُوقُهُمْ بِهَا سَوْقًا عَنِيفَا
لِأَمْرِ اللهِ وَالْإِسْلَامِ حَتَّى ❁❁❁ يَقُومَ الدِّينُ مُعْتَدِلًا حَنِيفَا
وَتُنْسَى اللَّاتُ وَالْعُزَّى وَوَدٌّ ❁❁❁ وَنَسْلُبُهَا الْقَلَائِدَ وَالشُّنُوفَا
فَأَمْسَوْا قَدْ أَقَرُّوا وَاطْمَأَنُّوا ❁❁❁ وَمَنْ لَا يَمْتَنِعْ يَقْبَلْ خُسُوفَا

فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ الطَّائِفِ بَعْدَ الْقِتَالِ وَالْحِصَارِ، قَالَ بُجَيْرُ بْنُ زُهَيْرِ ابْنِ أَبِي سُلْمَى يَذْكُرُ حُنَيْنًا وَالطَّائِفَ:

كَانَتْ عُلَالَةَ يَوْمَ بَطْنِ حُنَيْنِ ❁❁❁ وَغَدَاةَ أَوْطَاسٍ وَيَوْمَ الْأَبْرَقِ
جَمَعَتْ بِإِغْوَاءِ هَوَازِنُ جَمْعَهَا ❁❁❁ فَتَبَدَّدُوا كَالطَّائِرِ الْمُتَمَزِّقِ
لَمْ يَمْنَعُوا مِنَّا مَقَامًا وَاحِدًا ❁❁❁ إِلَّا جِدَارَهُمْ وَبَطْنَ الْخَنْدَقِ
وَلَقَدْ تَعَرَّضْنَا لِكَيْمَا يَخْرُجُوا ❁❁❁ فَتَحَصَّنُوا مِنَّا بِبَابٍ مُغْلَقِ
تَرْتَدُّ حَسْرَانًا إِلَى رَجْرَاجَةٍ ❁❁❁ شَهْبَاءَ تَلْمَعُ بِالْمَنَايَا فَيْلَقِ

مَلْمُومَةٍ خَضْـرَاءَ لَوْ قَذَفُوا بِهَا ❁❁❁ حَضَـنًا لَظَلَّ كَأَنَّهُ لَمْ يُخْلَقِ
مَشْيَ الضِّرَاءِ عَلَى الْهَرَاسِ كَأَنَّنَا ❁❁❁ قُدُرٌ تَفَرَّقُ فِي الْقِيَادِ وَتَلْتَقِي
فِي كُلِّ سَابِغَةٍ إِذَا مَا اسْتَحْصَنَتْ ❁❁❁ كَالنِّهْيِ هَبَّتْ رِيحُهُ الْمُتَرَقْرِقِ
جُدُلٌ تَمَسُّ فُضُولُهُنَّ نِعَالَنَا ❁❁❁ مِنْ نَسْجِ دَاوُدٍ وَآلِ مُحَرِّقِ

وأَدْرَكَهُ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ بِالْجِعْرَانَةِ أَوْ بِمَكَّةَ، فَرَدَّ عَلَيْهِ أَهْلَهُ وَمَاله، وَأَعْطَاهُ مائة مِنْ الْإِبِلِ، وَأَسْلَمَ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، فَقَالَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ حِينَ أَسْلَمَ:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ ❁❁❁ فِي النَّاسِ كُلِّهِم بِمِثْلِ مُحَمَّدِ
وَإِذَا الْكَتِيبَةُ عَرَّدَتْ أَنْيَابُهَا ❁❁❁ بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرْبِ كُلِّ مُهَنَّدِ
فَكَأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ ❁❁❁ وَسْطَ الْهَبَاءَةِ خَادِرٌ فِي مَرْصَدِ

(ملخص فتح مكة)

١ – اسم المعركة : فتح مكة.

٢ – مكان المعركة : كان القتال ﷺ يسيرًا في الخندمة فقط.

٣– تاريخ المعركة: كان فتح مكة يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر رمضان سنة ٨هـ.

٤ – الفريقان المتقاتلان :

١ – المسلمون بقيادة نبينا ﷺ.

٢ – مشركوا قريش: بقيادة صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو.

٥ – عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما :

أولًا: المسلمون: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ جَمِيعُ مَنْ شَهِدَ فَتْحَ مَكَّةَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَشَرَةَ آلَافٍ. مِنْ بَنِي سليم سبع مائة. وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: أَلْفٌ، وَمِنْ بَنِي غفار أَربع مائَة، وَمِنْ أسلم أَربع مائَة، وَمِنْ مُزَيْنَةَ أَلْفٌ وَثَلَاثَةُ نَفَرٍ، وَسَائِرُهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ وَحُلَفَائِهِمْ، وَطَوَائِفُ الْعَرَبِ مِنْ تَمِيمٍ وَقَيْسٍ وَأَسَدٍ» [«سيرة ابن هشام ت

السقا» (٢/ ٤٢١)].

١- كان خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على المجنبة اليمنى- وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب- أمره ﷺ أن يدخل مكة من أسفلها، وقال: إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدًا، حتى توافوني على الصفا.

٢- وكان الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على المجنبة اليسرى، وكان معه راية رسول الله ﷺ، فأمره أن يدخل مكة من أعلاها- من كداء- وأن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه.

٣- وكان أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الرجالة والحسر- وهم الذين لا سلاح معهم- فأمره أن يأخذ بطن الوادي، حتى ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ.

٤- وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم مع ابنه قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

ثانيًا المشركون: كانوا بقيادة عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو قالوا: نقدم هؤلاء وبثوا أوباشًا لهم فإن كان لقريش شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا. فتجمع سفهاء قريش بالخندمة ليقاتلوا المسلمين فلم يصمدوا.

٦- سبب المعركة : علم في وقعة الحديبية أن بندًا من بنود صلح الحديبية أن من أحب أن يدخل في عقد محمد- ﷺ - وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءًا من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدوانًا على ذلك الفريق. وحسب هذا البند دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأخرى، فغدرت بنو بكر بخزاعة ومعهم نفر من قريش فاستنصرت خزاعة برسول الله ﷺ وأخبروه بنقض العهد بهذا العمل فكان الفتح.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

أولًا: قتلى الفريقين:

١- **قتل من المسلمين:** كرز بن جابر الفهري وخنيس بن خالد بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٢- **وأصابوا من المشركين:** اثني عشر رجلًا في الخندمة ، وقتل ممن كان يؤذي النبي ﷺ بمكة أو له جرم أخذ به:

١- عبد العزى بن خطل كان متعلقًا بأستار الكعبة، فجاء رجل إلى النبي ﷺ وأخبره فقال: اقتله. فقتله.

٢- ومقيس بن صبابة قتله نميلة بن عبد الله، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله، ثم ارتد ولحق بالمشركين.

٣- وأما القينتان فقتلت إحداهما، واستؤمن للأخرى، فأسلمت

ثانيًا تكسير الأصنام التي كانت تعبد من دون الله عز وجل :

طاف ﷺ بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [سورة الإسراء:٨١]. ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة سبأ:٤٩]. والأصنام تتساقط على وجوهها. وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام، ولكسر الأوثان التي كانت حول مكة، فكسرت كلها، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسره.

ثالثًا: بدأ ﷺ بالتربية حتى يعلم الجميع أن الإسلام جاء للرقيِّ لا لحب الأرض ومجرد التوسع فيها فقال ﷺ: ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد- السوط والعصا- ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا

معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب. وقال: من قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين، إن شاءوا فدم قاتله، وإن شاءوا فعقله.أي ديته.

رابعًا: الوفاء للأنصار: قال الأنصار فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها فقال رسول الله ﷺ : معاذ الله المحيا محياكم، والممات مماتكم.

خامسًا: من الحزم أخذ البيعة: اجتمعت قريش للبيعة، فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يبايع الناس، وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسفل منه، يأخذ على الناس، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا ولما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء كلامًا من غير مصافحة.

سادسًا: "كان فتح مكة هو أخطر كسب حصل عليه المسلمون في هذه الأعوام، تغير لأجله مجرى الأيام، وتحول به جو العرب، فقد كان الفتح حدًا فاصلا بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده، فإن قريشًا كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره، والعرب في ذلك تبع لهم، فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثني في جزيرة العرب.

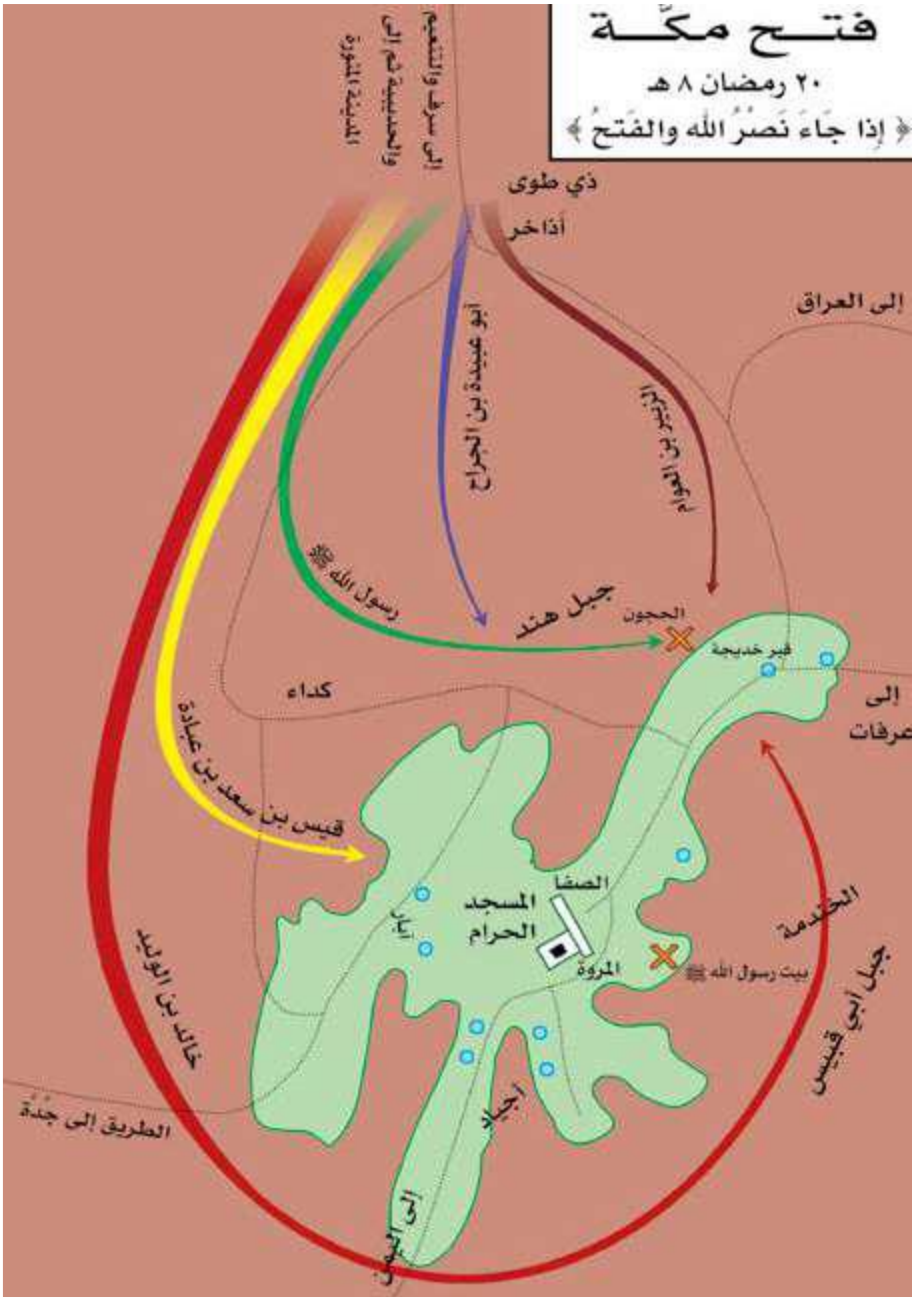
إن غزوة فتح مكة كانت غزوة فاصلة بين الحق والباطل: لم يبق بعدها مجال للريبة والظن في رسالة محمد ﷺ عند العرب، ولذلك انقلب المجرى تمامًا، ودخل الناس في دين الله أفواجًا كما ظهر ذلك مما علم من كثرة الوفود، ومن العدد الذي حضر في حجة الوداع وانتهت المتاعب الداخلية واستراح المسلمون، لتعليم شرائع الله، وبث دعوة الإسلام"[(١)].

وبهذا الفتح المبين **أعني فتح مكة اتسعت رقعة الإسلام وتحول العرب من**

(١) [«الرحيق المختوم مع زيادات» (ص٣٣٣ - ٣٩٤)]

ظلام الجاهلية إلى نور الإيمان فعَنْ أَيُّوبَ ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ سَلِمَةَ قَالَ: قَالَ لِي أَبُو قِلَابَةَ : أَلَا تَلْقَاهُ فَتَسْأَلَهُ؟ قَالَ فَلَقِيتُهُ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: كُنَّا بِمَاءٍ مَمَرَّ النَّاسِ ، وَكَانَ يَمُرُّ بِنَا الرُّكْبَانُ فَنَسْأَلُهُمْ: مَا لِلنَّاسِ ، مَا لِلنَّاسِ؟ مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُونَ: يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ ، أَوْحَى إِلَيْهِ. أَوْ: أَوْحَى اللهُ بِكَذَا ، فَكُنْتُ أَحْفَظُ ذَلِكَ الْكَلَامَ ، وَكَأَنَّمَا يُغْرَى فِي صَدْرِي ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَلَوَّمُ بِإِسْلَامِهِمُ الْفَتْحَ ، فَيَقُولُونَ: اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ ، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ ، وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: جِئْتُكُمْ وَاللهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ حَقًّا ، فَقَالَ: صَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا ، وَصَلُّوا كَذَا فِي حِينِ كَذَا ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ أَحَدُكُمْ ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا . فَنَظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآنًا مِنِّي ، لِمَا كُنْتُ أَتَلَقَّى مِنَ الرُّكْبَانِ ، فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنِينَ . [أخرجه البخاري برقم: (٤٣٠٢)].

٨- خريطة: موقعة فتح مكة: من الصحيح المصفى :



(ملخص معركة حنين الفاصلة)

١- اسم المعركة :معركة حنين.

٢- مكان المعركة : وادي حنين بين الطائف ومكة.

٣- تاريخ المعركة: يوم الخميس ١١/من شهر شوال سنة ٨ هـ بعد فتح مكة.

٤- الفريقان المتقاتلان :

١- المسلمون: بقيادة نبينا ﷺ.

٢- مشركوا الطائف: هوازن وثقيف، واجتمعت إليها نصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال- وكلها من قيس عيلان-[من مضر] قائدهم العام مالك بن عوف النصري.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتها وطريقة ترتيبها :

١- المسلمون: خرج نبينا ﷺ في اثني عشر ألفًا من المسلمين، عشرة آلاف ممن كانوا خرجوا معه لفتح مكة، وألفان من أهل مكة.

* واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها.
* وتطوع للحراسة تلك الليلة أنس بن أبي مرثد الغنوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
* كانت القيادة كلها بيد نبينا ﷺ وهزم الله عز وجل المشركين ولما انهزم العدو صارت كالتالي:

*فرت طائفة من المشركين إلى أوطاس،فأرسل النبي ﷺ إليهم طائفة من المطارِدين يقودهم أبو عامر الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتناوش الفريقان القتال قليلًا، ثم انهزم جيش المشركين.

* وطائفة إلى نخلة طاردتهم طائفة أخرى من فرسان المسلمين فأدركت دريد بن الصمة فقتله ربيعة بن رفيع.
* طائفة منهم إلى الطائف، وهم معظم فلول المشركين ، فتوجه إليهم رسول

الله ﷺ بنفسه بعد أن جمع الغنائم.

٢- المشركون:

١- «فِي بَنِي جُشَمٍ دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ شَيْخٌ كَبِيرٌ، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ إِلَّا التَّيَمُّنَ بِرَأْيِهِ وَمُعْرِفَتَهُ بِالْحَرْبِ، وَكَانَ شَيْخًا[شجاعًا] مُجَرِّبًا.

٢- وَفِي ثَقِيفٍ سَيِّدَانِ هُمْ، فِي الْأَحْلَافِ قَارِبُ بْنُ الْأَسْوَدِ بْنِ مَسْعُودِ بن مُعَتِّبٍ.

٣- وَفِي بَنِي مَالِكٍ ذُو الْخِمَارِ سُبَيْعُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكٍ، وَأَخُوهُ أَحْمَرُ بْنُ الْحَارِثِ.

٤- وَجِمَاعُ أَمْرِ النَّاسِ إِلَى مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ النَّصْرِيِّ» [«سيرة ابن هشام ت السقا» (٢/ ٤٣٧)].

* قدر جيش المشركين بعشرين ألفًا.

٦- سبب المعركة : رأت هذه القبائل من نفسها عزًّا وأنفة أن تقابل هذا الانتصار وهو فتح مكة بالخضوع، فاجتمعت إلى مالك بن عوف النصري، وقررت المسير إلى حرب المسلمين فكان أن مكن الله تعالى منهم ثم هدى من بقي منهم للحق.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

أولًا: قتلى الفريقين:

١- قتلى المسلمين: مجموع من قتل في حنين والطائف ستة عشر رجلًا.

٢- قتلى المشركين: قتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظعن.

ثانيًا: الغنائم:كانت الغنائم: السبي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرون ألفًا، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة.

بدأ رسول الله ﷺ فأعطى رؤساء القبائل وأشراف مكة، فكان المؤلفة قلوبهم

أول من أعطى وحظي بالأنصبة الجزلة فكان يعطي الرجل مائة من الإبل وهم جماعة.

ثم قسم بين المقاتلين فكانت سهامهم لكل رجل أربعًا من الإبل وأربعين شاة، فإن كان فارسًا أخذ اثني عشر بعيرًا وعشرين ومائة شاة.

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلمًا، فخيرهم رسول الله ﷺ بين استرداد السبي أو المال فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا فرد عليهم السبي.

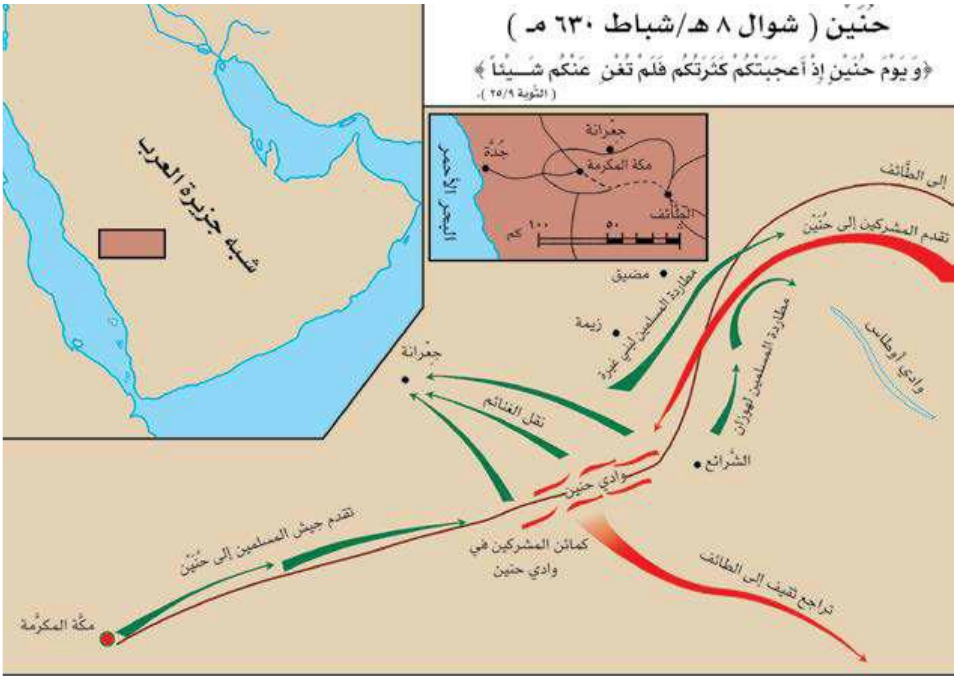
ثالثًا: بعد الفتح وحنين كان مما أمر الله به هو نشر الإسلام خارج الجزيرة فقال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [سورة التوبة:٢٩].

رابعًا: نزل في شأن فتح مكة وحنين آيات من سورة التوبة فيها علوم جمة ، وفوائد عظيمة لا يستغنى عنها في طريقة بناء الدول ، وتصفية المجتمعات ، وفضح العناصر السيئة في الأوطان، وبمن يبدأ في الجهاد؛ فلا تهمل تفسير هذه السورة ، والتفهم لكنوز معانيها المسطورة، فتضاف إلى سورة الأنفال، وآل عمران، والأحزاب، والحمد الذي جعل القرآن تبيانًا لكل شيء فمنه نتعلم كيف نجاهد ومنه نتعلم كل خير.

خامسًا: مجموع غزوات النبي ﷺ في حياته كلها إحدى وعشرون غزوة فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قال : غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ تِسْعَ عَشْرَةَ غَزْوَةً ، قَالَ جَابِرٌ : لَمْ أَشْهَدْ بَدْرًا ، وَلَا أُحُدًا ، مَنَعَنِي أَبِي ، فَلَمَّا قُتِلَ عَبْدُ اللهِ يَوْمَ أُحُدٍ ، لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ قَطُّ . أخرجه مسلم: (١٨١٣).

وفي حديث بُرَيْدَةَ «قَاتَلَ فِي ثَمَانٍ مِنْهُنَّ» أخرجه مسلم (١٨١٤).

٨- خريطة: موقعة حنين من الصحيح المصفى للشيخ سليم وفقه الله.





المعركة الخامسة من معارك الإسلام الفاصلة: حديقة الموت

تمهيد: قال ابن كثير: «خِلَافَة الصِّدِّيقِ، وَمَا كَانَ فِي أَيَّامِهِ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْأُمُورِ

تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الِإثْنَيْنِ(١) وَذَلِكَ ضُحًى، فَاشْتَغَلَ النَّاسُ بِأَمْرِ بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، ثُمَّ فِي الْمَسْجِدِ الْبَيْعَةُ الْعَامَّةُ فِي بَقِيَّةِ يَوْمِ الِإثْنَيْنِ وَصَبِيحَةَ الثُّلَاثَاءِ، ثُمَّ أَخَذُوا فِي غَسْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَكْفِينِهِ، وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ ، بَقِيَّةَ يَوْمِ الثُّلَاثَاءِ، وَدَفَنُوهُ لَيْلَةَ الْأَرْبِعَاءِ(٢).

قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا بُويِعَ أَبُو بَكْرٍ فِي السَّقِيفَةِ وَكَانَ الْغَدُ، جَلَسَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَقَامَ عُمَرُ فَتَكَلَّمَ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ قُلْتُ لَكُمْ بِالْأَمْسِ مَقَالَةً مَا كَانَتْ مِمَّا وَجَدْتُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَلَا كَانَتْ عَهْدًا عَهِدَهُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَلَكِنِّي قَدْ كُنْتُ أَرَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَيُدَبِّرُ أَمْرَنَا - يَقُولُ: يَكُونُ آخِرَنَا - وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْقَى فِيكُمْ كِتَابَهُ الَّذِي بِهِ هَدَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَإِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ هَدَاكُمُ اللَّهُ لِمَا كَانَ هَدَاهُ لَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَمَعَ أَمْرَكُمْ عَلَى خَيْرِكُمْ ; صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ، فَقُومُوا فَبَايِعُوهُ.فَبَايَعَ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ بَيْعَةَ الْعَامَّةِ بَعْدَ بَيْعَةِ السَّقِيفَةِ، ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ:أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي، الصِّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ، وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ، إِنْ شَاءَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٧) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وجاء عن غيرها.

(٢) **حسن:** أخرجه أحمد (٢٥٤٢٩)، والطبراني في "الأوسط" (٤٢٨٨) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

اللَّهُ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالذُّلِّ، وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ، قُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمْكُمُ اللَّهُ[1]. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

وَقَدِ اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى بَيْعَةِ الصِّدِّيقِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، حَتَّى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَأَرْضَاهُمَا، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ فِي دَارِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَفِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: فَقَامَ خَطِيبُ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَخَلِيفَتُهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَنَحْنُ كُنَّا أَنْصَارَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَنَحْنُ أَنْصَارُ خَلِيفَتِهِ، كَمَا كُنَّا أَنْصَارَهُ. قَالَ: فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: صَدَقَ قَائِلُكُمْ، وَلَوْ قُلْتُمْ غَيْرَ هَذَا لَمْ نُتَابِعْكُمْ. فَأَخَذَ بِيَدِ أَبِي بَكْرٍ، وَقَالَ: هَذَا صَاحِبُكُمْ فَبَايِعُوهُ. فَبَايَعَهُ عُمَرُ، وَبَايَعَهُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، قَالَ: فَصَعِدَ أَبُو بَكْرٍ الْمِنْبَرَ، فَنَظَرَ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ، فَلَمْ يَرَ الزُّبَيْرَ. قَالَ: فَدَعَا بِالزُّبَيْرِ فَجَاءَ، قَالَ: قُلْتُ: ابْنُ عَمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَوَارِيُّهُ، أَرَدْتَ أَنْ تَشُقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ؟ ! قَالَ: لَا تَثْرِيبَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ. فَقَامَ فَبَايَعَهُ، ثُمَّ نَظَرَ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ فَلَمْ يَرَ عَلِيًّا، فَدَعَا بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَجَاءَ فَقَالَ: قُلْتَ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَتَنُهُ عَلَى ابْنَتِهِ، أَرَدْتَ أَنْ تَشُقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ؟ ! قَالَ: لَا تَثْرِيبَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ. فَبَايَعَهُ[2].

---

(١) **حسن:** أخرجه ابن هشام في السيرة ت السقا (٢/ ٦٦٠) قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ. وقال ابن كثير هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ فَقَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَلِيتُكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ. مِنْ بَابِ الْهَضْمِ وَالتَّوَاضُعِ، فَإِنَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّهُ أَفْضَلُهُمْ وَخَيْرُهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ اهـ. البداية والنهاية (٨/ ٩٠ ت التركي) وهكذا قوله: فقوموني أي: بالنصيحة.

(٢) **صحيح:** أخرجه الحاكم في "مستدركه"(٤٤٨٣) والبيهقي في "سننه الكبير" (١٦٦٣٤) ، وأحمد

ثُمَّ خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ، وَاعْتَذَرَ إِلَى النَّاسِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ حَرِيصًا عَلَى الْإِمَارَةِ يَوْمًا وَلَا لَيْلَةً، وَلَا سَأَلْتُهَا اللَّهَ فِي سِرٍّ وَلَا عَلَانِيَةٍ. فَقَبِلَ الْمُهَاجِرُونَ مَقَالَتَهُ، وَقَالَ عَلِيٌّ وَالزُّبَيْرُ: مَا غَضِبْنَا إِلَّا لِأَنَّنَا أُخِّرْنَا عَنِ الْمُشُورَةِ، وَإِنَّا نَرَى أَبَا بَكْرٍ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِنَّهُ لَصَاحِبُ الْغَارِ، وَإِنَّا لَنَعْرِفُ شَرَفَهُ وَخَيْرَهُ، وَلَقَدْ أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالصَّلَاةِ بِالنَّاسِ وَهُوَ حَيٌّ(١).

وَهَذَا اللَّائِقُ بِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآثَارُ ; مِنْ شُهُودِهِ مَعَهُ الصَّلَوَاتِ، وَخُرُوجِهِ مَعَهُ إِلَى ذِي الْقَصَّةِ بَعْدَ مَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَمَا سَنُورِدُهُ، وَبَذْلِهِ لَهُ النَّصِيحَةَ وَالْمَشُورَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَمَّا مَا يَأْتِي مِنْ مُبَايَعَتِهِ إِيَّاهُ بَعْدَ مَوْتِ فَاطِمَةَ - وَقَدْ مَاتَتْ بَعْدَ أَبِيهَا، عَلَيْهِا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ - فتلك بَيْعَةٌ ثَانِيَةٌ أَزَالَتْ مَاكَانَ قَدْ وَقَعَ مِنْ وَحْشَةٍ بِسَبَبِ الْكَلَامِ فِي الْمِيرَاثِ، وَمَنْعِهِ إِيَّاهُمْ ذَلِكَ بِالنَّصِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ»(٢).

فَصْلٌ فِي تَنْفِيذِ جَيْشِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

كَانُوا قَدْ أَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمَسِيرِ إِلَى تُخُومِ الْبَلْقَاءِ مِنَ الشَّامِ حَيْثُ قُتِلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ وَجَعْفَرٌ وَابْنُ رَوَاحَةَ فَيُغِيرُوا عَلَى تِلْكَ الْأَرَاضِي، فَخَرَجُوا إِلَى الْجُرْفِ فَخَيَّمُوا بِهِ، وَكَانَ فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَيُقَالُ وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ. فَاسْتَثْنَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ ; لِلصَّلَاةِ - فَلَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَقَامُوا هُنَالِكَ، فَلَمَّا مَاتَ عَظُمَ الْخُطْبُ وَاشْتَدَّ الْحَالُ وَنَجَمَ النِّفَاقُ بِالْمَدِينَةِ، وَارْتَدَّ مَنِ ارْتَدَّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، وَامْتَنَعَ آخَرُونَ مِنْ أَدَاءِ الزَّكَاةِ إِلَى الصِّدِّيقِ، وَلَمْ تَبْقَ الْجُمُعَةُ تُقَامُ فِي بَلَدٍ سِوَى

في "مسنده" (٢٢٠١٨) والطيالسي في "مسنده" (٦٠٣) وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٨١٩٥) والطبراني في "الكبير" (٤٧٨٥). وصححه الإمام الوادعي في الصحيح المسند (١/ ٣٥٦) (٤٢٧).

(١) **حسن:** أخرجه الحاكم في "مستدركه" (٤٤٤٨) والبيهقي في "سننه الكبير": (١٦٦٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٢٧) و(٦٧٣٠) ومسلم (١٧٥٨). عن عائشة وقد جاء الحديث عن جمع من الصحابة منهم الخلفاء الأربعة أخرجه البخاري (٤٠٣٣) ومسلم (١٧٥٧).

مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ جُوَاثَا مِنَ الْبَحْرَيْنِ أَوَّلَ قَرْيَةٍ أَقَامَتِ الْجُمُعَةَ بَعْدَ رُجُوعِ النَّاسِ إِلَى الْحَقِّ، كَمَا فِي " صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ " عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَمَا سَيَأْتِي(١).

وَقَدْ كَانَتْ ثَقِيفٌ بِالطَّائِفِ ثَبَتُوا عَلَى الْإِسْلَامِ، لَمْ يَفِرُّوا وَلَا ارْتَدُّوا. وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَمَّا وَقَعَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ أَشَارَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى الصِّدِّيقِ أَنْ لَا يُنْفِذَ جَيْشَ أُسَامَةَ لِاحْتِيَاجِهِ إِلَيْهِ فِيمَا هُوَ أَهَمُّ الْآنَ مِمَّا جُهِّزَ بِسَبَبِهِ فِي حَالِ السَّلَامَةِ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ أَشَارَ بِذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَامْتَنَعَ الصِّدِّيقُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَبَى أَشَدَّ الْإِبَاءِ إِلَّا أَنْ يُنْفِذَ جَيْشَ أُسَامَةَ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَحُلُّ عُقْدَةً عَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَلَوْ أَنَّ الطَّيْرَ تَخَطَّفُنَا، وَالسِّبَاعَ مِنْ حَوْلِ الْمَدِينَةِ، وَلَوْ أَنَّ الْكِلَابَ جَرَّتْ بِأَرْجُلِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، لَأُجَهِّزَنَّ جَيْشَ أُسَامَةَ. فَجَهَّزَهُ وَأَمَرَ الْحَرَسَ يَكُونُونَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، فَكَانَ خُرُوجُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ أَكْبَرِ الْمَصَالِحِ وَالْحَالَةُ تِلْكَ، فَسَارُوا لَا يَمُرُّونَ بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ إِلَّا أُرْعِبُوا مِنْهُمْ، وَقَالُوا: مَا خَرَجَ هَؤُلَاءِ مِنْ قَوْمٍ إِلَّا وَبِهِمْ مَنَعَةٌ شَدِيدَةٌ. فَغَابُوا أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَيُقَالُ: سَبْعِينَ يَوْمًا. ثُمَّ آبُوا سَالِمِينَ غَانِمِينَ، ثُمَّ رَجَعُوا فَجَهَّزَهُمْ حِينَئِذٍ مَعَ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ أَخْرَجَهُمْ لِقِتَالِ الْمُرْتَدَّةِ، وَمَانِعِي الزَّكَاةِ، عَلَى مَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩٢).

(٢) **تجهيز جيش أسامة ثابت والإشارات إليه في الصحيحين وغيرهما منها:**

حديث عبد الله بن عباس، أخرجه البخاري (٣٠٥٣) ، ومسلم (١٦٣٧) وفيه : **وَأَوْصَاهُمْ بِثَلَاثٍ ، قَالَ: أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ ، وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثَةِ ، أَوْ قَالَ: فَنَسِيتُهَا** . قال المهلب الثالثة هي بعث أسامة.

وحديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَمَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أُسَامَةَ عَلَى قَوْمٍ فَطَعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ ، فَقَالَ: **إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ ، وَايْمُ اللهِ لَقَدْ كَانَ خَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ.** أخرجه البخاري (٤٢٥٠) ، ومسلم (٢٤٢٦). **ووجه الدلالة منه:** أن هذا البعث كان بعد موت أبيه وذلك أنه بعثه فخرج إلى الجرف فعسكر به ليجتمع بقية المقاتلين فجاءه الخبر بأن رسول الله ﷺ قد ثقل من المرض فرجع، يبينه

وقَالَتْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ارْتَدَتِ الْعَرَبُ قَاطِبَةً وَاشْرَأَبَّ النِّفَاقُ، وَاللَّهِ لَقَدْ نَزَلَ بِأَبِي مَا لَوْ نَزَلَ بِالْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ لَهَاضَهَا، وَصَارَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَأَنَّهُمْ مِعْزًى مَطِيرَةٌ فِي حِفْشٍ فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ بِأَرْضٍ مُسْبِعَةٍ، فَوَاللَّهِ مَا اخْتَلَفُوا فِي نُقْطَةٍ إِلَّا طَارَ أَبِي بِحَظِّهَا وَعَنَائِهَا وَفَضْلِهَا. ثُمَّ ذَكَرَتْ عُمَرَ فَقَالَتْ: مَنْ رَأَى عُمَرَ عَلِمَ أَنَّهُ خُلِقَ غِنًى لِلْإِسْلَامِ، كَانَ وَاللَّهِ أَحْوَزِيًّا نَسِيجَ وَحْدِهِ، قَدْ أَعَدَّ لِلْأُمُورِ أَقْرَانَهَا(١).

فَصْلٌ فِي تَصَدِّي الصِّدِّيقِ لِقِتَالِ أَهْلِ الرِّدَّةِ وَمَانِعِي الزَّكَاةِ.

قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا تُوُفِّيَ ارْتَدَتْ أَحْيَاءٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَنَجَمَ النِّفَاقُ بِالْمَدِينَةِ، وَانْحَازَ إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ بَنُو حَنِيفَةَ وَخَلْقٌ كَثِيرٌ بِالْيَمَامَةِ، وَالْتَفَتَ عَلَى طُلَيْحَةَ الْأَسَدِيِّ بَنُو أَسَدٍ وَطَيِّئٌ، وَبَشَرٌ كَثِيرٌ أَيْضًا، وَادَّعَى النُّبُوَّةَ أَيْضًا كَمَا ادَّعَاهَا مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ، وَعَظُمَ الْخَطْبُ وَاشْتَدَّتِ الْحَالُ، وَنَفَّذَ الصِّدِّيقُ جَيْشَ أُسَامَةَ، فَقَلَّ الْجُنْدُ عِنْدَ الصِّدِّيقِ، فَطَمِعَتْ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فِي الْمَدِينَةِ، وَرَامُوا أَنْ يَهْجُمُوا عَلَيْهَا، فَجَعَلَ الصِّدِّيقُ عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ حُرَّاسًا يَبِيتُونَ بِالْجُيُوشِ حَوْلَهَا ;

حديثه الذي عند الترمذي في "جامعه" (٣٨١٧) وأحمد في "مسنده" (٢٢١٦٩) وحسنه الإمام الوادعي في الصحيح المسند (١/ ٤٠) (١٧) فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، هَبَطْتُ وَهَبَطَ النَّاسُ مَعِي إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ أُصْمِتَ فَلَا يَتَكَلَّمُ ، فَجَعَلَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ يَصُبُّهَا عَلَيَّ ، أَعْرِفُ أَنَّهُ يَدْعُو لِي . فالناس هنا هم جيشه الذي أنفذه له أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد موت رَسُولِ اللهِ ﷺ. هذا وفي الباب حديث ضعيف عند أبي داود (٢٦١٦) فيه صالح بن أبي الأخضر عن أُسَامَةَ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ عَهِدَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَغِرْ عَلَى أُبْنَى صَبَاحًا وَحَرِّقْ» ضعفه الألباني وكذلك شيخنا يحيى في تحقيق السنن الصغير للبيهقي (٤/٥٢) ولكن تلك شواهده، وفي الباب مراسيل أيضًا منها عن ابن جريج في مصنف عبد الرزاق (١٩٣٧٢) (١٠/ ٣٦١ ت الأعظمي).

(١) **صحيح**: أخرجه البيهقي في "سننه الكبير" (١٦٩٤٩) وأورده ابن حجر في "المطالب العالية" (٣٨٨٠ / ٣) وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٨٢١٠) والطبراني في "الأوسط" (٤٣١٨) ، (٤٩١٣) وأخرجه في "الصغير" (١٠٥١).

فَمِنْ أُمَرَاءِ الْحَرَسِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَجَعَلَتْ وُفُودُ الْعَرَبِ تَقْدَمُ الْمَدِينَةَ، يُقِرُّونَ بِالصَّلَاةِ وَيَمْتَنِعُونَ مِنْ أَدَاءِ الزَّكَاةِ، وَمِنْهُمْ مَنِ امْتَنَعَ مِنْ دَفْعِهَا إِلَى الصِّدِّيقِ، وَذَكَرَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنِ احْتَجَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة التوبة:١٠٣]. قَالُوا: فَلَسْنَا نَدْفَعُ زَكَاتَنَا إِلَّا إِلَى مَنْ صَلَاتُهُ سَكَنٌ لَنَا.

وَقَدْ تَكَلَّمَ الصَّحَابَةُ مَعَ الصِّدِّيقِ فِي أَنْ يَتْرُكَهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ مَنْعِ الزَّكَاةِوَيَتَأَلَّفَهُمْ حَتَّى يَتَمَكَّنَ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ يُزَكُّونَ، فَامْتَنَعَ الصِّدِّيقُ مِنْ ذَلِكَ وَأَبَاهُ.

وَقَدْ رَوَى الْجَمَاعَةُ فِي كُتُبِهِمْ سِوَى ابْنُ مَاجَهْ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: عَلَامَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا»** ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِنَاقًا – وَفِي رِوَايَةٍ: عِقَالًا – كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى مَنْعِهَا، إِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ. قَالَ عُمَرُ: فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ. قُلْتُ: وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [سورة التوبة:٥][(١)].

وَثَبَتَ فِي " الصَّحِيحِين ": **« أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ ،**

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٩) (١٤٥٦) (٦٩٢٤) (٧٢٨٤) ومسلم (٢٠).

وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ »[١].

وَفِي "الصَّحِيحَيْنِ": «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ ; شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[٢].

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: ارْتَدَّتِ الْعَرَبُ عِنْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا خَلَا أَهْلُ الْمَسْجِدَيْنِ ; مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَارْتَدَّتْ أَسَدٌ وَغَطَفَانُ، وَعَلَيْهِمْ طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الْأَسَدِيُّ الْكَاهِنُ[٣]، وَارْتَدَّتْ كِنْدَةُ وَمَنْ يَلِيهَا، وَعَلَيْهِمُ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ الْكِنْدِيُّ[٤]، وَارْتَدَّتْ مَذْحِجٌ وَمَنْ يَلِيهَا، وَعَلَيْهِمُ الْأَسْوَدُ بْنُ كَعْبٍ الْعَنْسِيُّ الْكَاهِنُ وَارْتَدَّتْ رَبِيعَةُ مَعَ الْمُعْرُورِ بْنِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ، وَكَانَتْ بَنُو حَنِيفَةَ مُقِيمَةً عَلَى أَمْرِهَا مَعَ مُسَيْلِمَةَ بْنِ حَبِيبٍ الْكَذَّابِ، وَارْتَدَّتْ سُلَيْمٌ مَعَ الْفُجَاءَةِ، وَاسْمُهُ أَنَسُ بْنُ عَبْدِ يَالِيلَ، وَارْتَدَّتْ بَنُو تَمِيمٍ مَعَ سَجَاحِ الْكَاهِنَةِ[٥].

وكان من أمر مسيلمة ما ذكر في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَدِمَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ فَجَعَلَ يَقُولُ: إِنْ جَعَلَ لِي مُحَمَّدٌ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ تَبِعْتُهُ ! فَقَدِمَهَا فِي بَشَرٍ كَثِيرٍ مِنْ قَوْمِهِ ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَمَعَهُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ وَفِي يَدِ النَّبِيِّ ﷺ قِطْعَةُ جَرِيدَةٍ حَتَّى وَقَفَ عَلَى مُسَيْلِمَةَ فِي أَصْحَابِهِ ،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥) ومسلم (٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٨) ومسلم (١٦) عن ابن عمر.

(٣) وقد فر حين هزمه خالد ولحق بالشام، فكان عند بني جفنة حتى قدم مسلمًا مع الحاج المدينة وأسلم طليحة بعد إسلاما صحيحًا ولم يغمص عليه في إسلامه وشهد القادسية ونهاوند مع المسلمين وقد عد في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٧٧٣)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة ط العلمية (٣/ ٩٤).

(٤) كذلك راجع إسلامه وحسن حاله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) قال الحافظ في الإصابة في تمييز الصحابة (٨/ ١٩٨): (١١٣٦٧)- سجاح بنت الحارث التميمية التي ادّعت النبوة في الردّة، وتبعها قوم ثم صالحت مسيلمة وتزوجته ثم بعد قتله عادت إلى الإسلام فأسلمت، وعاشت إلى خلافة معاوية ذكر ذلك صاحب التّاريخ المظفري.

قَالَ: لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا وَلَنْ أَتَعَدَّى أَمْرَ اللهِ فِيكَ ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللهُ ، وَإِنِّي لَأَرَاكَ الَّذِي أُرِيتُ فِيكَ مَا أُرِيتُ ، وَهَذَا ثَابِتٌ يُجِيبُكَ عَنِّي - ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَسَأَلْتُ عَنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ إِنَّكَ أَرَى الَّذِي أُرِيتُ فِيكَ مَا أُرِيتُ ، فَأَخْبَرَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ فِي يَدَيَّ سِوَارَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ ، فَأَهَمَّنِي شَأْنُهُمَا ، فَأُوحِيَ إِلَيَّ فِي الْمَنَامِ أَنِ انْفُخْهُمَا فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا ، فَأَوَّلْتُهُمَا كَذَّابَيْنِ يَخْرُجَانِ مِنْ بَعْدِي ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا الْعَنْسِيَّ صَاحِبَ صَنْعَاءَ ، وَالْآخَرُ مُسَيْلِمَةَ صَاحِبَ الْيَمَامَةِ(١).

وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ: اجْتَمَعَتْ أَسَدٌ وَغَطَفَانُ وَطَيِّئٌ عَلَى طُلَيْحَةَ الْأَسَدِيِّ، وَبَعَثُوا وُفُودًا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَنَزَلُوا عَلَى وُجُوهِ النَّاسِ، فَأَنْزَلُوهُمْ إِلَّا الْعَبَّاسَ، فَحَمَلُوا بِهِمْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ عَلَى أَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَلَا يُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَعَزَمَ اللَّهُ لِأَبِي بَكْرٍ عَلَى الْحَقِّ، وَقَالَ: لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا لَجَاهَدْتُهُمْ. فَرَدَّهُمْ فَرَجَعُوا إِلَى عَشَائِرِهِمْ، فَأَخْبَرُوهُمْ بِقِلَّةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَطَمَّعُوهُمْ فِيهَا، فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ الْحَرَسَ عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ، وَأَلْزَمَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِحُضُورِ الْمَسْجِدِ، وَقَالَ: إِنَّ الْأَرْضَ كَافِرَةٌ، وَقَدْ رَأَى وَفْدُهُمْ مِنْكُمْ قِلَّةً، وَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ لَيْلًا تُؤْتَوْنَ أَمْ نَهَارًا، وَأَدْنَاهُمْ مِنْكُمْ عَلَى بَرِيدٍ، وَقَدْ كَانَ الْقَوْمُ يُؤَمِّلُونَ أَنْ نَقْبَلَ مِنْهُمْ وَنُوَادِعَهُمْ، وَقَدْ أَبَيْنَا عَلَيْهِمْ فَاسْتَعِدُّوا وَأَعِدُّوا. فَمَا لَبِثُوا إِلَّا ثَلَاثًا حَتَّى طَرَقُوا الْمَدِينَةَ غَارَةً، وَخَلَّفُوا نِصْفَهُمْ بِذِي حُسًى لِيَكُونُوا رِدْءًا لَهُمْ، وَأَرْسَلَ الْحَرَسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ يُخْبِرُونَهُ بِالْغَارَةِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ أَنِ الْزَمُوا مَكَانَكُمْ، وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ فِي أَهْلِ الْمَسْجِدِ عَلَى النَّوَاضِحِ إِلَيْهِمْ، فَانْقَشَعَ الْعَدُوُّ، وَاتَّبَعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِبِلِهِمْ، حَتَّى بَلَغُوا ذَا حُسًى، فَخَرَجَ عَلَيْهِمُ الرِّدْءُ، فَالْتَقَوْا مَعَ الْجَمِيعِ فَكَانَ الْفَتْحُ.

وَفِي جُمَادَى الْآخِرَةِ رَكِبَ الصِّدِّيقُ فِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَأُمَرَاءِ الْأَنْقَابِ إِلَى مَنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ أَغَارُوا عَلَيْهَا، فَلَمَّا تَوَاجَهَ هُوَ وَأَعْدَاؤُهُ مِنْ بَنِي عَبْسٍ،

(١) أخرجه البخاري (٤٣٧٣) ، ومسلم (٢٢٧٣).

وَبَنِي مُرَّةَ، وَذُبْيَانَ، وَمَنْ نَاصَبَ مَعَهُمْ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ، وَأَمَدَّهُمْ طُلَيْحَةَ بِابْنِهِ حِبَالٍ، فَلَمَّا تَوَاجَهَ الْقَوْمُ كَانُوا قَدْ صَنَعُوا مَكِيدَةً، وَهِيَ أَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى أَنْحَاءٍ فَنَفَخُوهَا[1] ثُمَّ أَرْسَلُوهَا مِنْ رُءُوسِ الْجِبَالِ، فَلَمَّا رَأَتْهَا إِبِلُ أَصْحَابِ الصِّدِّيقِ نَفَرَتْ وَذَهَبَتْ كُلَّ مَذْهَبٍ، فَلَمْ يَمْلِكُوا مِنْ أَمْرِهَا شَيْئًا إِلَى اللَّيْلِ، حَتَّى رَجَعَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا وَقَعَ مَا وَقَعَ ظَنَّ الْقَوْمُ بِالْمُسْلِمِينَ الْوَهَنَ، وَبَعَثُوا إِلَى عَشَائِرِهِمْ مِنْ نَوَاحِي أُخَرَ، فَاجْتَمَعُوا، وَبَاتَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَائِمًا لَيْلَهُ يَتَهَيَّأُ يُعَبِّئُ النَّاسَ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَى تَعْبِئَةٍ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، وَعَلَى مَيْمَنَتِهِ النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنٍ، وَعَلَى الْمَيْسَرَةِ أَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُقَرِّنٍ، وَعَلَى السَّاقَةِ أَخُوهُمَا سُوَيْدُ بْنُ مُقَرِّنٍ، فَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ إِلَّا وَهُمْ وَالْعَدُوُّ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَمَا سَمِعُوا لِلْمُسْلِمِينَ حِسًّا وَلَا هَمْسًا، حَتَّى وَضَعُوا فِيهِمُ السُّيُوفَ، فَمَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ حَتَّى وَلَّوْهُمُ الْأَدْبَارَ، وَغَلَبُوهُمْ عَلَى عَامَّةِ ظَهْرِهِمْ، وَقُتِلَ حِبَالٌ، وَاتَّبَعَهُمْ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى نَزَلَ بِذِي الْقَصَّةِ، وَكَانَ أَوَّلَ الْفَتْحِ، وَذَلَّ بِهَا الْمُشْرِكُونَ، وَعَزَّ بِهَا الْمُسْلِمُونَ، وَوَثَبَ بَنُو ذُبْيَانَ وَعَبْسٌ عَلَى مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَتَلُوهُمْ، وَفَعَلَ مَنْ وَرَاءَهُمْ كَفِعْلِهِمْ، فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ لَيَقْتُلَنَّ فِي كُلِّ قَبِيلَةٍ بِمَنْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَزِيَادَةً، فَفِي ذَلِكَ يَقُولُ زِيَادُ بْنُ حَنْظَلَةَ التَّمِيمِيُّ:

أَقَمْنَا لَـــهُمْ عُرْضَ الشِّـــمَالِ ❁❁❁ كَكَبْكَبَةِ الْغُزَّى أَنَاخُوا عَلَى الْوَفْرِ

فَمَا صَـــبَرُوا لِلْحَرْبِ عِنْدَ قِيَامِهَا ❁❁❁ صَبِيحَةَ يَسْمُو بِالرِّجَالِ أَبُو بَكْرِ

فَكَانَتْ هَذِهِ الْوَقْعَةُ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى نَصْرِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَزَّ الْمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ قَبِيلَةٍ، وَذَلَّ الْكُفَّارُ فِي كُلِّ قَبِيلَةٍ، وَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى الْمَدِينَةِ مُؤَيَّدًا مَنْصُورًا، سَالِمًا غَانِمًا، وَطَرَقَتِ الْمَدِينَةُ فِي اللَّيْلِ صَدَقَاتُ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، وَصَفْوَانَ بن صفوان والي صدقات بني عمرو من بني تميم، وَالزِّبْرِقَانِ، إِحْدَاهَا فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَالثَّانِيَةُ فِي أَوْسَطِهِ، وَالثَّالِثَةُ فِي آخِرِهِ، وَقَدِمَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بَشِيرٌ مِنْ أُمَرَاءِ

(١) يعني ظروف السمن.

الْأَنْقَابِ، فَكَانَ الَّذِي بَشَّرَ بِصَفْوَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَالَّذِي بَشَّرَ بِالزِّبْرِقَانِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَالَّذِي بَشَّرَ بِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَيُقَالُ: أَبُو قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَذَلِكَ عَلَى رَأْسِ سِتِّينَ لَيْلَةً مِنْ مُتَوَفَّى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَدِمَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ بَعْدَ ذَلِكَ بِلَيَالٍ، فَاسْتَخْلَفَهُ أَبُو بَكْرٍ عَلَى الْمَدِينَةِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُرِيحُوا ظَهْرَهُمْ، ثُمَّ رَكِبَ أَبُو بَكْرٍ فِي الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ فِي الْوَقْعَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ إِلَى ذِي الْقَصَّةِ، فَقَالَ لَهُ الْمُسْلِمُونَ: لَوْ رَجَعْتَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَرْسَلْتَ رَجُلًا، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ، وَلَأُوَاسِيَنَّكُمْ بِنَفْسِي. فَخَرَجَ فِي تَعْبِئَتِهِ إِلَى ذِي حُسًى وَذِي الْقَصَّةِ، وَالنُّعْمَانُ وَعَبْدُ اللَّهِ وَسُوَيْدٌ بَنُو مُقَرِّنٍ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ، حَتَّى نَزَلَ عَلَى أَهْلِ الرَّبْذَةِ بِالْأَبْرَقِ، وَهُنَاكَ جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ وَذُبْيَانَ، وَطَائِفَةٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ، فَاقْتَتَلُوا فَهَزَمَ اللَّهُ الْحَارِثَ وَعَوْفًا، فَأُخِذَ الْحُطَيْئَةُ أَسِيرًا، فَطَارَتْ بَنُو عَبْسٍ وَبَنُو بَكْرٍ، وَأَقَامَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى الْأَبْرَقِ أَيَّامًا، وَقَدْ غَلَبَ بَنُو ذُبْيَانَ عَلَى الْبِلَادِ، فَقَالَ: حَرَامٌ عَلَى بَنِي ذُبْيَانَ أَنْ يَتَمَلَّكُوا هَذِهِ الْبِلَادَ إِذْ غَنَّمَنَاهَا اللَّهُ، وَحَمَى الْأَبْرَقَ [وكلمه الصحابة في الرجوع إلى المدينة]فَرَجَعَ وَأَمْضَى الْجَيْشَ.

وقال الْقَاسِم بن مُحَمَّدٍ: لَمَّا اسْتَرَاحَ أُسَامَةُ وَجُنْدُهُ، وَقَدْ جَاءَتْ صَدَقَاتٌ كَثِيرَةٌ تَفْضُلُ عَنْهُمْ، قَطَعَ أَبُو بَكْرٍ الْبُعُوثَ، وَعَقَدَ الْأَلْوِيَةَ، **فَعَقَدَ أَحَدَ عَشَرَ لِوَاءً** :

١- عَقَدَ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَمَرَهُ بِطُلَيْحَةَ بْنِ خُوَيْلِدٍ، فَإِذَا فَرَغَ سَارَ إِلَى مَالِكِ بْنِ نُوَيْرَةٍ بِالْبِطَاحِ إِنْ أَقَامَ لَهُ.

٢- وَلِعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَمَرَهُ بِمُسَيْلِمَةَ.

٣- وَبَعَثَ شُرَحْبِيلَ بنَ حَسَنَةَ الكندي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَثَرِهِ إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، ثُمَّ إِلَى بَنِي قُضَاعَةَ.

٤- وَلِلْمُهَاجِرِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَمَرَهُ بِجُنُودِ الْعَنْسِيِّ، وَمَعُونَةِ الْأَبْنَاءِ عَلَى قَيْسِ بْنِ مَكْشُوحٍ - قُلْتُ: وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ نَزَعَ يَدَهُ مِنَ الطَّاعَةِ.

٥- وَلِخَالِدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى مَشَارِفِ الشَّامِ.

٦- وَلِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى جِمَاعِ قُضَاعَةَ وَوَدِيعَةَ وَالْحَارِثِ.
٧- وَلِحُذَيْفَةَ بْنِ مِحْصَنٍ الْغَطَفَانِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَمَرَهُ بِأَهْلِ دَبَا.
٨- وَلِعَرْفَجَةَ بْنِ هَرْثَمَةَ الأزدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَمَرَهُ بِمَهْرَةَ.
٩- وَلِطَرِيفَةَ بْنِ حَاجِزٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَمَرَهُ بِبَنِي سُلَيْمٍ وَمَنْ مَعَهُمْ مِنْ هَوَازِنَ.
١٠- وَلِسُوَيْدِ بْنِ مُقَرِّنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَمَرَهُ بِتِهَامَةِ الْيَمَنِ.
١١- وَلِلْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَمَرَهُ بِالْبَحْرَيْنِ. وَقَدْ كَتَبَ لِكُلِّ أَمِيرٍ كِتَابَ عَهْدِهِ عَلَى حِدَتِهِ، فَفَصَلَ كُلُّ أَمِيرٍ بِجُنْدِهِ مِنْ ذِي الْقَصَّةِ، وَرَجَعَ الصِّدِّيقُ إِلَى الْمَدِينَةِ ،وَقَدْ كَتَبَ مَعَهُمُ الصِّدِّيقُ كِتَابًا إِلَى الْمُرْتَدَّةِ، **وإليك أحداث المعركة :**

مَقْتَلُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ لَعَنَهُ اللَّهُ وَأَخْزَاهُ ومعركة عقرباء وحديقة الموت

كان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قد عاهد خالدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا فرغ من أسد وغطفان والضاحية أن يقصد اليمامة، وأكد عليه في ذلك، فلما أظفر الله خالدًا بأولئك تسلل بعضهم إلى المدينة يسألون أبا بكر أن يبايعهم على الإسلام ويؤمنهم، فقال لهم: بيعتي إياكم وأماني لكم أن تلحقوا بخالد بن الوليد ومن معه من المسلمين، فمن كتب إليّ خالدٌ بأنه حضر معه اليمامة فهو آمن، فليبلغ شاهدكم غائبكم، ولا تقدموا عليّ، اجعلوا وجوهكم إلى خالد.

توجيهات مهمة من الخليفة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كتب الخليفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ عَبْدِ الله بن عثمان، خليفة رسول الله ﷺ إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ، أَمَّا بَعْدُ، يَا خَالِدُ، فَإِنِّي قَدْ أَمَرْتُكَ بِالْجِدِّ فِي أَمْرِ اللَّهِ، وَالْمُجَاهَدَةِ لِمَنْ تَوَلَّى عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ وَرَجَعَ عَنْ دِينِ الإِسْلامِ وَالْهُدَى، إِلَى الضَّلالَةِ وَالرَّدَى، وَعَهْدِي إِلَيْكَ يَا خَالِدُ أَنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَعَلَيْكَ بالرفق والتأني وَسِرْ نَحْوَ بَنِي حَنِيفَةَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ قَوْمًا قَطُّ يُشْبِهُونَ بَنِي حَنِيفَةَ

فِي الْبَأْسِ وَالشِّدَّةِ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَيْهِمْ فَلا تَبْدَأْهُمْ بِقِتَالٍ حَتَّى تَدْعُوهُمْ إِلَى دَاعِيَةِ الإِسْلام، وَاحْرِصْ عَلَى صَلاحِهِمْ، فَمَنْ أَجَابَكَ مِنْهُمْ فَاقْبَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَمَنْ أَبَى فَاسْتَعْمِلْ فِيهِ السَّيْفَ، وَاعْلَمْ يَا خَالِدُ فَإِنَّكَ إِنَّمَا تُقَاتِلُ قَوْمًا كُفَّارًا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِذَا عَزَمْتَ عَلَى الْحَرْبِ فَبَاشِرْهَا بِنَفْسِكَ وَلا تَتَّكِلْ عَلَى غَيْرِكَ، وَصُفَّ صُفُوفَكَ وَاحْكُمْ تَعْبِيَتَكَ وَاحْزِمْ عَلَى أَمْرِكَ، وَاجْعَلْ عَلَى مَيْمَنَتِكَ رَجُلا تَرْضَاهُ، وَعَلَى مَيْسَرَتِكَ مِثْلَهُ، وَاجْعَلْ عَلَى خَيْلِكَ رَجُلا عَالِمًا صَابِرًا، وَاسْتَشِرْ مَنْ مَعَكَ مِنْ أَكَابِرِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُوَفِّقُكَ بِمَشُورَتِهِمْ، وَاعْرِفْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ حَقَّهُمْ وَفَضْلَهُمْ، وَلا تَكْسَلْ وَلا تَفْشَلْ، وَأَعِدَّ السَّيْفَ لِلسَّيْفِ، وَالرُّمْحَ لِلرُّمْحِ، وَالسَّهْمَ لِلسَّهْمِ، وَاسْتَوْصِ بِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، وَلَيِّنِ الْكَلامَ وَأَحْسِنِ الصُّحْبَةَ وَاحْفَظْ وَصِيَّةَ نبيك محمد ﷺ فِي الأَنْصَارِ خَاصَّةً، وَأَنْ تُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ وَتَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَقُلْ لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ» فلما انتهى الكتاب إلى خالد اقترأه، وقال: سمعًا وطاعة.

ولما اتصل بأهل اليمامة مسير خالد إليهم بعد الذى صنع الله له في أمثالهم حيرهم ذلك وجزع له محكم بن الطفيل سيدهم، وهم أن يرجع إلى الإسلام، فبات يتلوى على فراشه، فلما رآه القوم ، عرفوا أنه ثابت على ضلالته معهم، وفرح بذلك منه مسيلمة، وكان محكم سيد أهل اليمامة، وكان صديقًا لزياد بن لبيد بن بياضة من الأنصار، فقال له خالد في بعض الطريق: لو ألقيت إلى محكم شيئًا تكسره به، فإنه سيد أهل اليمامة، وطاعة القوم له، فبعث إليه مع راكب، ويقال: بل بعث بها إليه حسان بن ثابت من المدينة:

يَا مُحْكَمُ بْنَ طُفَيْلٍ قَدْ أُتِيحَ لَكُمْ ❁❁❁ لله دَرُّ أَبِيكُمْ حَيَّةِ الْوَادِي
يَا مُحْكَمُ بْنَ طُفَيْلٍ إِنَّكُمْ نَفَرٌ ❁❁❁ كَالشَّاءِ أَسْلَمَهَا الرَّاعِي لآسَادِ
مَا فِي مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ مِنْ عِوَضٍ ❁❁❁ مِنْ دَارِ قَوْمٍ وَأَمْوَالٍ وَأَوْلادِ

فَاكْفُفْ حَنِيفَةُ عَنْهُمْ قَبْلَ نَاعِيَةٍ ❁❁❁ تَنْعَى فَوَارِسَ حَرْبٍ شَجْوُهَا بَادِ
لا تَأْمَنُوا خَالِدًا بِالْبَرْدِ مُعْتَجِرًا ❁❁❁ وَسْطَ الْعَجَاجَةِ مِثْلَ الضَّيْغَمِ الْعَادِي
وَيْلُ الْيَمَامَةِ وَيْلٌ لا قَوَامَ لَهُ ❁❁❁ إِنْ جَالَتِ الْخَيْلُ فِيهَا بِالْقَنَا الصَّادِي
وَاللهِ وَاللهِ لا تُثْنَى أَعِنَّتُهَا ❁❁❁ حَتَّى تَكُونُوا كَأَهْلِ الْحِجْرِ أَوْ عَادِ

قال السهيلي: يقال: (فلان حية الوادي) إذا كان مهيبًا يذعر منه، يعني بحية الوادي خالد بن الوليد. ووردت على محكم، وقيل له: هذا خالد بن الوليد في المسلمين، فقال: رضي خالد أمرًا ورضينا غيره، وما ينكر خالد أن يكون في بني حنيفة من قد أشرك في الأمر، فسيرى خالد إن قدم علينا يلق قوما ليسوا كمن لقى، ثم خطب أهل اليمامة فقال: يا معشر أهل اليمامة إنكم تلقون قومًا يبذلون أنفسهم دون صاحبهم، فابذلوا أنفسكم دون صاحبكم، فإن أسدًا وغطفان إنما أشار إليهم خالد بذباب السيف، فكانوا كالنعام الشارد، وقد أظهر خالد بن الوليد بأوا حيث أوقع ببزاخة ما أوقع، وقال: هل حنيفة إلا كمن لقينا.

وكان عمير بن ضابئ اليشكري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] في أصحاب خالد، وكان من سادات اليمامة، ولم يكن من أهل حجر، كان من أهل ملمم، وهى لبني يشكر، فقال له خالد: تقدم إلى قومك، فاكسرهم، فأتاهم، ولم يكونوا علموا بإسلامه، وكان مجتهدًا فارسًا سيدًا، فقال: يا معشر أهل اليمامة، أظلكم خالد في المهاجرين والأنصار، تركت القوم يتتابعون إلى فتح اليمامة، قد قضوا وطرًا من أسد وغطفان وعليا وهوازن، وأنتم في أكفهم، وقولهم: لا قوة إلا بالله، إنى رأيت أقوامًا إن

(١) ذكره الحافظ في الإصابة في تمييز الصحابة (٥/ ١٢٥) رقم (٦٥٤٩) فقال عمير بن ضابىء اليشكري: آخر. يعني هذا صحابي وهو غير عمير بن ضابىء البرجمي الذي قتله الحجاج قيل إنه شارك في قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

غلبتموهم بالصبر غلبوكم بالنصر، وإن غلبتموهم على الحياة غلبوكم على الموت، وإن غلبتموهم بالعدد غلبوكم بالمدد، لستم والقوم سواء، الإسلام مقبل، والشرك مدبر، وصاحبهم نبى، وصاحبكم كذاب، ومعهم السرور، ومعكم الغرور، فالآن والسيف في غمده والنبل في جفيره قبل أن يسل السيف ويرمى بالسهم سرت إليكم مع القوم عشرًا. فكذبوه واتهموه، فرجع عنهم.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: ارْتَدَّ أَهْلُ الْيَمَامَةِ عَنِ الإِسْلامِ غَيْرَ ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ، فَكَانَ مُقِيمًا بِالْيَمَامَةِ يَنْهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ مُسَيْلِمَةَ وَتَصْدِيقِهِ، وَيَقُولُ: إِيَّاكُمْ وَأَمْرًا مُظْلِمًا لا نُورَ فِيهِ، وَإِنَّهُ لَشَقَاءٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَنْ أَخَذَ بِهِ مِنْكُمْ، وَبَلاءٌ عَلَى مَنْ لَمْ يَأْخُذْ بِهِ مِنْكُمْ يَا بَنِي حَنِيفَةَ. فَلَمَّا عَصَوْهُ وَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ أَصْفَقُوا عَلَى اتِّبَاعِ مُسَيْلَمَةَ عَزَمَ عَلَى مُفَارَقَتِهِمْ، وَمَرَّ الْعَلاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ تَبِعَهُ عَلَى جَانِبِ الْيَمَامَةِ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ قَالَ لأَصْحَابِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَرَى أَنْ أُقِيمَ مَعَ هَؤُلاءِ مَعَ مَا قَدْ أَحْدَثُوا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَضَارِبُهُمْ بِبَلِيَّةٍ لا يَقُومُونَ بِهَا وَلا يَقْعُدُونَ وَمَا نَرَى أَنْ نَتَخَلَّفَ عَنْ هَؤُلاءِ وَهُمْ مُسْلِمُونَ، وَقَدْ عَرَفْنَا الَّذِي يُرِيدُونَ، وَقَدْ مَرُّوا قَرِيبًا، وَلا أَرَى إِلا الْخُرُوجَ إِلَيْهِمْ، فَمَنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ مِنْكُمْ فَلْيَخْرُجْ. [فَخَرَجَ] مُمِدًّا لِلْعَلاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ[فقاتل معه المرتدين من أهل البحرين]، وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَكَانَ ذَلِكَ قَدْ فَتَّ فِي أَعْضَادِ عَدُوِّهِمْ حِينَ بَلَغَهُمْ مَدَدُ بَنِي حَنِيفَةَ (١).

ذكر تقديم خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطلائع أمامه من البطاح

قالوا: ولما سار خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من البطاح، ووقع في أرض بني تميم، قدم أمامه مائتي فارس عليهم معن بن عدي العجلاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبعث معه فرات بن حيان العجلي دليلًا، وقدم عينين له أمامه، مكنف بن زيد الخيل الطائي، وأخاه

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ٢١٥).

[حريثًا] وقال: من أصبتم من الناس فخذوه، فانطلقوا حتى أخذوا مجاعة بن مرارة الحنفي في ثلاثة وعشرين رجلًا[وقيل بِنَحْوٍ مِنْ أَرْبَعِينَ، وَقِيلَ: سِتِّينَ فَارِسًا] من قومه قد خرجوا في طلب رجل من بني نمير أصاب فيهم دمًا، فخرجوا وهم لا يشعرون بمقبل خالد، فسألوهم: ممن أنتم؟ قالوا: من بني حنيفة، فظن المسلمون أنهم رسل من مسيلمة إلى خالد، فلما أصبحوا وتلاحق الناس، جاؤا بهم إلى خالد، فلما رآهم ظن أيضًا، أنهم رسل من مسيلمة، فقال: ما تقولون يا بني حنيفة في صاحبكم؟ فشهدوا أنه رسول الله فقال لمجاعة: ما تقول أنت؟ فقال: والله ما خرجت إلا في طلب رجل من بني نمير أصاب فينا دما، وما كنت أقرب مسيلمة، ولقد قدمت على رسول الله ﷺ، فأسلمت، وما غيرت ولا بدلت، فقدم القوم، فضرب أعناقهم على دم واحد، حتى إذا بقي سارية بن مسيلمة بن عامر قال: يا خالد، إن كنت تريد بأهل اليمامة خيرًا أو شرًا فاستبق هذا، يعنى مجاعة بن مرارة اليمامي ، فإنه لك عون على حربك وسلمك. وكان مجاعة شريفًا، فلم يقتله، وأعجب بسارية وكلامه، فتركه أيضًا، وأمر بهما فأوثقا في جوامع حديد [(١)].

إقبال خالد وترتيب جيش مسيلمة الكذاب

وكان خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بَعَثَهُ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى قِتَالِ بَنِي حَنِيفَةَ بِالْيَمَامَةِ، أَوْعَبَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَعَلَى الْأَنْصَارِ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَسَارَ لَا يَمُرُّ بِأَحَدٍ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ إِلَّا نَكَّلَ بِهِمْ، وَقَدِ اجْتَازَ بِخُيُولٍ لِأَصْحَابِ سَجَاحِ فَشَرَّدَهُمْ، وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَأَرْدَفَ الصِّدِّيقُ خَالِدًا بِسَرِيَّةٍ ; لِتَكُونَ رِدْءًا لَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَدْ كَانَ بَعَثَ قَبْلَهُ إِلَى مُسَيْلِمَةَ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ، وَشُرَحْبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ، فَلَمْ يُقَاوِمَا بَنِي حَنِيفَةَ ; لِأَنَّهُمْ فِي نَحْوٍ مِنْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُقَاتِلَةِ، فَلَمَّا سَمِعَ مُسَيْلِمَةُ بِقُدُومِ خَالِدٍ، عَسْكَرَ بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ: عَقْرَبَاءُ. فِي طَرَفِ

(١) «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء» (٢/ ١١٦ - ١٢٠).

الْيَمَامَةِ، وَالرِّيفُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَنَدَبَ لَهُ النَّاسَ وَحَثَّهُمْ، فَحَشَدَ لَهُ أَهْلَ الْيَمَامَةِ، وَجَعَلَ عَلَى مُجَنِّبَتَيْ جَيْشِهِ الْمُحْكَمَ بْنَ الطُّفَيْلِ، وَالرَّجَّالَ بْنَ عُنْفُوَةَ بْنِ نَهْشَلٍ، وَكَانَ الرَّجَّالُ هَذَا صَدِيقُهُ الَّذِي شَهِدَ لَهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِنَّهُ قَدْ أَشْرَكَ مَعَهُ مُسَيْلِمَةَ بْنَ حَبِيبٍ فِي الْأَمْرِ، فَكَانَ هَذَا الْمَلْعُونُ مِنْ أَكْبَرِ مَا أَضَلَّ أَهْلَ الْيَمَامَةِ، حَتَّى اتَّبَعُوا مُسَيْلِمَةَ، لَعَنَهُمَا اللَّهُ، وَقَدْ كَانَ الرَّجَّالُ هَذَا قَدْ وَفَدَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَرَأَ " الْبَقَرَةَ " وَجَاءَ زَمَنَ الرِّدَّةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَبَعَثَهُ إِلَى أَهْلِ الْيَمَامَةِ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَيُثَبِّتُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَارْتَدَّ مَعَ مُسَيْلِمَةَ وَشَهِدَ لَهُ بِالنُّبُوَّةِ.

ترتيب جيش المسلمين:

١- عَلَى الْمُقَدِّمَةِ شُرَحْبِيلُ بن حَسَنَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- ٣- وَعَلَى الْمُجَنِّبَتَيْنِ زَيْد بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وأَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقيل:كَانَ عَلَى مَيْمَنَتِهِ زَيْدُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ.

٤- وفي القلب خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

٥- وعلى البراء بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

١- وَرَايَةُ الْمُهَاجِرِينَ مَعَ سَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعد قتل زيد بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- وَرَايَةُ الْأَنْصَارِ مَعَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالْعَرَبُ عَلَى رَايَاتِهَا.

وكان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما انصرف إليه أسامة بن زيد من بعثه إلى الشام، بعثه في أربعمائة مددًا لخالد بن الوليد، فأدرك خالدًا قبل أن يدخل اليمامة بثلاث، فلما التقى المسلمون كان أوّل من لقيَهم الرّجال بن عُنْفوة، فقتله الله على يد زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [واقتتلوا قتالًا شديدًا، وصبر الفريقان جميعًا صبرًا طويلًا، حتى كثرت القتلى والجراح في الفريقين، وكان أول قتيل من المسلمين مالك بن أوس من بني زعوراء، قتله محكم بن الطفيل]» فَلَمَّا تَوَاجَهَ الْجَيْشَانِ قَالَ مُسَيْلِمَةُ لِقَوْمِهِ: الْيَوْمُ يَوْمُ الْغَيْرَةِ، الْيَوْمُ إِنْ هُزِمْتُمْ تُسْتَرْدَفِ النِّسَاءُ سَبِيَّاتٍ، وَيُنْكَحْنَ غَيْرَ

حَظِيَّاتٍ، فَقَاتِلُوا عَنْ أَحِسَابِكُمْ وَامْنَعُوا نِسَاءَكُمْ. وَتَقَدَّمَ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ خَالِدٌ عَلَى كَثِيبٍ يُشْرِفُ عَلَى الْيَمَامَةِ فَضَرَبَ بِهِ عَسْكَرَهُ وَمُجَّاعَةُ بْنُ مُرَارَةَ مُقَيَّدٌ فِي الْخَيْمَةِ، فَاصْطَدَمَ الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ، فَكَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ جَوْلَةٌ وَانْهَزَمَتِ الْأَعْرَابُ حَتَّى دَخَلَتْ بَنُو حَنِيفَةَ خَيْمَةَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَهَمُّوا بِقَتْلِ أُمِّ تَمِيمٍ، حَتَّى أَجَارَهَا مُجَّاعَةُ، وَقَالَ: نِعْمَتِ الْحُرَّةُ هَذِهِ، وإذا أرادوا حمل مجاعة، لا يستطيعون لما هو فيه من الحديد ، ثُمَّ تَذَامَرَ الصَّحَابَةُ بَيْنَهُمْ.

وأَتَى أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَدْ حَسَرَ عَنْ فَخِذَيْهِ وَهُوَ يَتَحَنَّطُ فَقَالَ : يَا عَمِّ مَا يَحْبِسُكَ أَنْ لَا تَجِيءَ قَالَ : الْآنَ يَا ابْنَ أَخِي وَجَعَلَ يَتَحَنَّطُ يَعْنِي مِنَ الْحَنُوطِ ثُمَّ جَاءَ فَجَلَسَ فَذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ انْكِشَافًا مِنَ النَّاسِ فَقَالَ : هَكَذَا عَنْ وُجُوهِنَا حَتَّى نُضَارِبَ الْقَوْمَ مَا هَكَذَا كُنَّا نَفْعَلُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِئْسَ مَا عَوَّدْتُمْ أَقْرَانَكُمْ(١).

وقد انكشف المسلمون حتى غلبت حنيفة على الرحال، فجعل زيد بن الخطاب ينادي، وكانت عنده راية خالد: أَيُّهَا النَّاسُ، عَضُّوا عَلَى أَضْرَاسِكُمْ، وَاضْرِبُوا فِي عَدُوِّكُمْ، وَامْضُوا قُدُمًا. وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَتَكَلَّمُ حَتَّى يَهْزِمَهُمُ اللَّهُ أَوْ أَلْقَى اللَّهَ فَأُكَلِّمَهُ بِحُجَّتِي. فَقُتِلَ شَهِيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . فلما قتل وقعت الراية، فأخذها سالم مولى أبي حذيفة، وَجَعَلَ الصَّحَابَةُ يَتَوَاصَوْنَ بَيْنَهُمْ وَيَقُولُونَ: يَا أَصْحَابَ سُورَةِ " الْبَقَرَةِ " .

وَقَالَ أَبُو حُذَيْفَةَ: يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ، زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِالْفِعَالِ، وَحَمَلَ فِيهِمْ حَتَّى أَبْعَدَهُمْ وَأُصِيبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ونادت الأنصار ثابت بن قيس وهو يحمل رايتهم: الزمها، فإنما ملاك القوم الراية. ، فتقدم سالم مولى أبي حذيفة، فحفر لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه، ومعه راية المهاجرين، وحفر ثابت لنفسه مثل ذلك ، ثم لزما رايتيهما، ولقد كان الناس

(١) أخرجه البخاري برقم: (٢٨٤٥).

يتفرقون في كل وجه، وإن سالمًا وثابتًا لقائمان برايتيهما[١]، حتى قتل سالم وقُتِل أبو حذيفة مولاه، رحمهما الله تعالى، فوجد رأس أبي حذيفة عند رجلي سالم، ورأس سالم عند رجلي أبي حذيفة، لقرب مصرع كل واحد منهما من صاحبه، فلما قتل سالم، مكثت الراية ساعة لا يرفعها أحد، فأقبل يزيد بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان بدريًا، فحملها حتى قتل رحمه الله، ثم حملها الحكم بن سعيد بن العاص، فقاتل دونها نهارًا طويلًا، ثم قتل رحمه الله.

قال وحشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اقتتلنا قتالًا شديدًا، فهزموا المسلمين ثلاث مرات، وكر المسلمون في الرابعة، وتاب الله عليهم، وثبت أقدامهم، وصبروا لوقع السيوف، واختلفت بينهم وبين بني حنيفة السيوف، حتى رأيت شهب النار تخرج من خلالها، حتى سمعت لها أصواتًا كالأجراس، وأنزل الله تعالى، علينا نصره، وهزم الله بني حنيفة، وقتل الله مسيلمة. قال: ولقد ضربت بسيفي يومئذ حتى غري قائمه في كفي من دمائهم[٢].

وَحَمَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى جَاوَزَهُمْ وَسَارَ بِحِيَالِ مُسَيْلِمَةَ وَجَعَلَ يَتَرَقَّبُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ فَيَقْتُلَهُ، ثُمَّ رَجَعَ ثُمَّ وَثَبَ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ وَدَعَا إِلَى الْبِرَازِ، وَقَالَ أَنَا ابْنُ الْوَلِيدِ الْعَوْد، أَنَا ابْنُ عَامِرٍ وَزَيْد. ثُمَّ نَادَى بِشِعَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَجَعَلَ لَا يَبْرُزُ لَهُمْ أَحَدٌ إِلَّا قَتَلَهُ، وَلَا يَدْنُو مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا أَكَلَهُ، وَدَارَتْ رَحَى الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنْ مُسَيْلِمَةَ فَعَرَضَ عَلَيْهِ النَّصَفَ وَالرُّجُوعَ إِلَى الْحَقِّ، فَجَعَلَ شَيْطَانُ مُسَيْلِمَةَ يَلْوِي عُنُقَهُ، لَا يَقْبَلُ مِنْهُ شَيْئًا، وَكُلَّمَا أَرَادَ مُسَيْلِمَةُ يُقَارِبُ مِنَ الْأَمْرِ صَرَفَهُ عَنْهُ شَيْطَانُهُ، فَانْصَرَفَ عَنْهُ خَالِدٌ، وَقَدْ مَيَّزَ خَالِدٌ الْمُهَاجِرِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَكُلُّ بَنِي

---

(١) هذا قطعة من حديث بنت ثابت انظر ص (٢٨٧).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٢/ ٤١٥) بسند فيه وَحْشِيُّ بْنُ حَرْبِ بْنِ وَحْشِيِّ بْنِ حَرْبٍ عَنْ أَبِيهِ وفيهما ضعف يسير وقد وثقهما ابن حبان القصة يرويها حَرْبُ بْنُ وَحْشِيٍّ عَنْ أَبِيهِ وَحْشِيٍّ الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَبٍ عَلَى رَايَتِهِمْ، يُقَاتِلُونَ تَحْتَهَا، حَتَّى يَعْرِفَ النَّاسُ مِنْ أَيْنَ يُؤْتَوْنَ، وَصَبَرَتِ الصَّحَابَةُ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ صَبْرًا لَمْ يُعْهَدْ مِثْلُهُ.

وقال سعد القرظ: لقد رأيت عمار بن ياسر يومئذ يقاتل قتال عشرة.

وقال شريك الفزاري: لما التقينا والقوم، صبر الفريقان صبرًا لم أر مثله قط، ما تزول الأقدام فترى، واختلفت السيوف بينهم، وجعل يقبل أهل السوابق والنيات فيتقدمون، فيقتلون، حتى فنوا، وذلقت فينا سيوفهم طويلًا، فانهزمنا، فلقد أحصيت لنا ثلاث انهزامات، وما أحصيت لحنيفة إلا انهزامة واحدة، التى ألجأناهم فيها إلى الحديقة، يعنى حديقة الموت. وَلَمْ يَزَالُوا يَتَقَدَّمُونَ إِلَى نُحُورِ عَدُوِّهِمْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

وقال ضمرة بن سعيد المازني، وذكر ردة بني حنيفة: لم يلق المسلمون عدوًّا أشد لهم نكاية منهم، لقوهم بالموت الناقع، وبالسيوف قد أصلتوها قبل النبل، وقبل الرماح، وقد صبر المسلمون لهم، فكان المعول يومئذ على أهل السوابق، ونادى عباد بن بشر يومئذ وهو يضرب بالسيف، قد قطع من الجراح، وما هو إلا كالنمر الجرب، فيلقى رجلًا من بني حنيفة كأنه جمل صئول، فقال: هلم يا أخا الخزرج، أتحسب قتالنا مثل من لاقيت، فيعمد له عباد، ويبدره الحنفي، ويضربه ضربة بالسيف، فانكسر سيفه ولم يصنع شيئًا، وضربه عباد فقطع رجليه وجاوزه وتركه ينوء على ركبتيه، فناداه: يا ابن الأكارم أجهز عليّ، فكر عليه عباد، فضرب عنقه، ثم قام آخر في ذلك المقام، فاختلفا ضربات وتجاولا، وعباد على ذلك كثير الجراح، فضربه عباد ضربة أبدى سحره، وقال: خذها وأنا ابن وقش، ثم جاوزه يفري في بني حنيفة ضربًا فريًا، فكان يقال: قتل عباد يومئذ من بني حنيفة بالسيف أكثر من عشرين رجلًا، وأكثر فيهم الجراح.

قال ضمرة: فحدثني رجل من بني حنيفة قديم قال: إن حنيفة لتذكر عباد بن

بشر، فإذا رأت الجراح بالرجل منهم تقول: هذا ضرب مجرب القوم، عباد بن بشر.

وفي بعض الروايات عن حديث رافع بن خديج قال: خرجنا من المدينة ونحن أربعة آلاف، وأصحابنا من الأنصار ما بين خمسمائة إلى أربعمائة، وعلى الأنصار ثابت بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فانتهينا إلى اليمامة، فننتهى إلى قوم هم الذين قال الله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الفتح:١٦]. فلما صففنا صفوفنا ووضعنا الرايات مواضعها، لم يلبثوا أن حملوا علينا، فهزمونا مرارًا، فنعود إلى مصافنا وفيها خلل، وذلك أن صفوفنا كانت مختلطة، فيها حشو كثير من الأعراب في خلال صفوفنا، فينهزم أولئك الناس فيستخفون أهل البصائر والنيات، حتى كثر ذلك منهم، ثم إن الله بمنِّه وفضله رزقنا عليهم الظفر.

وحمي الوطيس بعد إعادة ترتيب الجيش ، ودخول الحديقة:

وذلك أن ثابت بن قيس نادى خالدَ بنَ الوليد: أخلصنا، فقال: ذلك إليك، فناد في أصحابك، قال: فأخذ الراية ونادى: يا للأنصار، فتسللت إليه رجلًا رجلًا، فنادى خالد المهاجرين، فأحدقوا به، ونادى عدي بن حاتم، ومكنف بن زيد الخيل الطائي بطيئ، فثابت إليهما طيئ، وكانوا أهل بلاء حسن، وعزلت الأعراب عنا ناحية، فقاموا من ورائنا غلوة أو أكثر، وإنما كنا نؤتى من الأعراب.قال رافع: فانتهينا إلى جمعهم فصبروا وصبرنا صبرًا لم ير مثله قط، لم تزُل الأقدام، فذكرت بيتي قيس بن الخطيم:

إِذا ما فَرَرنا كانَ أَسوَا فِرارِنا ۞۞۞ صُدودَ الخُدودِ وَازوِرارَ المَناكِبِ

صُدودَ الخُدودِ وَالقَنا مُتَشاجِرٌ ۞۞۞ وَلا تَبرَحُ الأَقدامُ عِندَ التَضارُبِ

قال: وأجهضهم أهل السوابق والبصائر، فهم في نحورهم ما يجد أحد مدخلًا إلا أن يقتل رجل منهم، أو يخرج فيقع، فيخلف مقامه آخر، حتى أوجعنا فيهم وبان خلل صفوفهم، وضجوا من السيف، ثم اقتحمنا الحديقة، فضاربوا فيها، وعلقنا الحديقة، وأقمنا على بابها رجالًا لئلا يهرب منهم أحد، فلما رأوا ذلك عرفوا أنه

الموت، جدوا في القتال، ودكت السيوف بيننا وبينهم، ما فيها رمي بسهم ولا حجر ولا طعن حتى قتلنا عدو الله مسيلمة، فقيل لرافع: يا أبا عبد الله، أي القتلى كان أكثر، قتلاكم أو قتلاهم؟ قال: قتلاهم أكثر من قتلانا وأخبث، أحسبنا قتلنا منهم ضعف ما قتلوا منا مرتين، فقد قتل من الأنصار يومئذ زيادة على التسعين، وجرح منهم مائتان، ولقد لقينا بني سليم بالجواء، وإنهم لمجروحون، فأبلوا بلاء حسنًا.

وعَنْ سَلَمَةَ بْنِ نُعَيْمٍ قَالَ : شَهِدْتُ مَعَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ يَوْمَ الْيَمَامَةِ ، فَلَمَّا شَدَدْنَا عَلَى الْقَوْمِ جَرَحْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ ، فَلَمَّا وَقَعَ قَالَ : اللَّهُمَّ عَلَى مِلَّتِكَ وَمِلَّةِ رَسُولِكَ ، وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا عَلَيْهِ مُسَيْلِمَةُ ، فَعَقَدْتُ فِي رِجْلِهِ خَيْطًا ، وَمَضَيْتُ مَعَ الْقَوْمِ ، فَلَمَّا رَجَعْتُ نَادَيْتُ مَنْ يَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ ؟ فَمَرَّ بِي أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ ، فَقَالُوا : هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَرَجَعْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ زَمَنَ عُمَرَ ، فَحَدَّثْتُهُ هَذَا الْحَدِيثَ ، فَقَالَ : قَدْ أَحْسَنْتَ ، اذْهَبْ ، فَإِنَّ عَلَيْكَ وَعَلَى قَوْمِكَ الدِّيَةَ ، وَعَلَيْكَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ(١).

وكان أبو خيثمة النجاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لما انكشف المسلمون يوم اليمامة تنحيت ناحية، وكأني أنظر إلى أبي دجانة يومئذ ما يولي ظهره منهزمًا، وما هو إلا في نحور القوم، حتى قتل رحمه الله، وكان يختال في مشيته عند الحرب سجية، ما يستطيع غير ذلك .قال: وكرت عليه طائفة من بني حنيفة، فما زال يضرب بالسيف أمامه وعن يمينه وعن شماله، فحمل على رجل فصرعه، وما ينبس بكلمة، حتى انفرجوا عنه ونكصوا على أعقابهم، والمسلمون مولون، وقد ابْيض ما بينهم وبينه، فما ترى إلا المهاجرين والأنصار، لا والله ما أرى أحدًا يخالطهم، فقاموا ناحية، وتلاحق الناس، فدفعوا حنيفة دفعة واحدة، فانتهينا بهم إلى الحديقة، فأقحمناهم إياها.

قال أبو دجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألقوني على الترسة حتى أشغلهم، فكانوا قد

(١) **صحيح:** أخرجه الطحاوي في "شرح مشكل الآثار" بعد برقم: (٥٩٨٦)

أغلقوا الحديقة، فأخذوه فألقوه على الترسة، حتى وقع في الحديقة، وهو يقول: لا ينجيكم منا الفرار، فضاربهم حتى فتحها، ودخلنا عليه مقتولًا رحمه الله.

وقد روي أن البراء بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو المرمى به في الحديقة، والأول أثبت.

وقال ثابت بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يومئذ: يا معشر الأنصار، الله الله ودينكم، علمنا هؤلاء أمرًا ما كنا نحسنه، ثم أقبل على المسلمين، فقال: أف لكم ولما تعملون، ثم قال: خلوا بيننا وبينهم، أخلصونا، فأخلصت الأنصار، فلم يكن لهم ناهية حتى انتهوا إلى محكم بن الطفيل، فقتلوه، ثم انتهوا إلى الحديقة فدخلوها، فقاتلوا أشد القتال، حتى اختلطوا فيها، فما يعرف بعضهم بعضًا إلا بالشعار، وشعارهم: أمت أمت.

وقال واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ: لما زحف المسلمون، انكشفوا أقبح الانكشاف، حتى ظن ظانهم أن لا تكون لهم فئة في ذلك اليوم، والناس أوزاع قد هدأ حسهم. وأشرت حنيفة وأظهروا البغى، وأوفى عباد بن بشر على نشز من الأرض، ثم صاح بأعلى صوته: أنا عباد بن بشر، يا للأنصار، يا للأنصار، ألا إليَّ، ألا إليَّ، فأقبلوا إليه جميعًا، وأجابوه: لبيك لبيك، حتى توافوا عنده، فقال: فداكم أبي وأمي، حطموا جفون السيوف، ثم حطم جفن سيفه، فألقاه، وحطمت الأنصار جفون سيوفهم، ثم قال: حملة صادقة، اتبعونى، فخرج أمامهم حتى ساقوا حنيفة منهزمين، حتى انتهوا بهم إلى الحديقة، فأغلق عليهم، فأوفى عباد بن بشر يشرف على الحديقة وهم فيها، فقال للرماة: ارموا، فرموا أهل الحديقة بالنبل حتى ألجئوهم أن اجتمعوا في ناحية منها لا يطلع النبل عليهم، ثم إن الله فتح الحديقة، فاقتحم عليهم المسلمون، فضاربوهم ساعة، ثم أغلق عباد باب الحديقة لما كلّ أصحابه، وكره أن تفر حنيفة، وجعل يقول: اللّهم إنى أبرأ إليك مما جاءت به حنيفة.

وقال رافع بن خديج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شهدنا اليمامة، فكنا تسعين من النبيت، فلاقينا عدوا صبرًا لوقع السلاح، فلما التقينا أذن الله للسيوف فينا وفيهم، فجعلت

السيوف تختلي هام الرجال وأكفهم، وجراحًا لم أر جراحًا قط أبعد غورًا منه، فينا وفيهم، إني لأنظر إلى عباد بن بشر قد ضرب بسيفه حتى انحنى كأنه منجل، فيقيمه على ركبته، فيعرض له رجل من بني حنيفة، فلما اختلفا ضربات ضربه عباد بن بشر على العاتق مستمكنًا، فو الله لرأيت سحره باديًا، ومضى عنه عباد، ومررت بالحنفي وبه رمق، فأجهزت عليه، وأنظر بعد إلى عباد وقد اختلفت السيوف عليه وهو يبضع بها ويبعج بطنه، فوقع وما أعلم به مصحًا، وكانوا حنقوا عليه لأنه أكثر القتل فيهم. قال: وحرضت على قتلته، فناديت أصحابنا من النبيت، فقمنا عليه، وقتلنا قتلته، فرأيتهم حوله مقتلين، فقلت: بعدًا لكم.

وقال أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت عباد بن بشر يقول حين فرغنا من بزاخة: يا أبا سعيد، رأيت الليلة كأن السماء فرجت، ثم أطبقت عليّ، فهى إن شاء الله الشهادة، قال: قلت: خيرًا والله، قال أبو سعيد: فأنظر إليه يوم اليمامة وإنه ليصيح بالأنصار ويقول: أخلصونا، فأخلصوا أربعمائة رجل، لا يخلطهم أحد، يقدمهم البراء بن مالك وأبو دجانة سماك بن خرشة وعباد بن بشر، حتى انتهوا إلى باب الحديقة. قال أبو سعيد: فرأيت بوجه عباد، يعني بعد قتله، ضربًا كثيرًا، وما عرفته إلا بعلامة كانت في جسده.

وركب البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فرسه، وإن الخيل لأوزاع في كل ناحية، وما هي إلا الهزيمة، فجعل يليح بسيفه وينادي: يا صحابة، يا للأنصار، يا للأنصار، يا خيلاه، يا خيلاه، أنا البراء بن مالك، فثابت إليه الخيل من كل ناحية، وثابت إليه الأنصار، فارسها وراجلها. قال أبو سعيد الخدري: فقال لنا: احملوا عليهم فداكم أبي وأمي، حملة صادقة، تريدون فيها الموت، ثم أظهر التكبير، وكبرنا معه، فما كانت لنا ناهية إلا باب الحديقة، وَاتَّبَعُوهُمْ يُقَتِّلُونَ فِي أَقْفَائِهِمْ، وَيَضَعُونَ السُّيُوفَ فِي رِقَابِهِمْ حَيْثُ شَاءُوا، حَتَّى أَلْجَأُوهُمْ إِلَى **حَدِيقَةِ الْمَوْتِ** ، فَدَخَلُوهَا وَفِيهَا عَدُوُّ اللَّهِ مُسَيْلِمَةُ، لَعَنَهُ

اللَّهُ، وَأَغْلَقَتْ بَنُو حَنِيفَةَ الْحَدِيقَةَ عَلَيْهِمْ، وَأَحَاطَ بِهِمُ الصَّحَابَةُ، وَدَخَلَ الْمُسْلِمُونَ الْحَدِيقَةَ مِنْ حِيطَانِهَا وَأَبْوَابِهَا يَقْتُلُونَ منْ فِيهَا مِنَ الْمُرْتَدَّةِ مِنْ أَهْلِ الْيَمَامَةِ.

وقال عبد الله بن أبي بكر بن حزم: كان البراء فارسًا، وكان إذا حضرته الحرب أخذته رعدة، وانتفض حتى يضبطه الرجال مليًّا، ثم يفيق فيبول بولًا أحمر كأنه نقاعة الحناء، فلما رأى ما يصنع بالناس يومئذ من الهزيمة أخذه ما كان يأخذه، فانتفض وضبطه أصحابه وجعل يقول: طروني إلى الأرض، فلما أفاق سري عنه، وهو مثل الأسد، وهو يقول:

أسعدني ربي على الأنصار ❁❁❁ كانوا يدًا طرًّا على الكفار

في كل يوم ساطع الغبار ❁❁❁ فاستبدلوا النجاة بالفرار

قال: وضرب بسيفه قُدُمًا، حتى أفرجوا له، وخاض غمرتهم، وثابت إليه الأنصار كأنها النحل تأوى إلى يعسوبها، وتلاومت الأنصار.

وقَالَ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ بَيْنَ يَدَيْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَبَيْنَ الْبَرَاءِ يَوْمَ الْيَمَامَةِ ، قَالَ : فَبَعَثَ خَالِدٌ الْخَيْلَ فَجَاؤُوا مُنْهَزِمِينَ ، وَجَعَلَ الْبَرَاءُ يُرْعَدُ فَجَعَلْتُ أَطِدُهُ إِلَى الْأَرْضِ وَهُوَ يَقُولُ : إِنِّي أَجِدُنِي أُفْطِرُ ، قَالَ : ثُمَّ بَعَثَ خَالِدٌ الْخَيْلَ ، فَجَاؤُوا مُنْهَزِمِينَ ، قَالَ : فَنَظَرَ خَالِدٌ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ بَلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ إِذَا أَرَادَ الْأَمْرَ ، ثُمَّ قَالَ : يَا بَرَاءُ ، وحدّ فِي نَفسِه؟[قم] قَالَ : فَقَالَ : الْآنَ ؟ قَالَ : فَقَالَ : نَعَمِ الْآنَ ، قَالَ : فَرَكِبَ الْبَرَاءُ فَرَسَهُ فَجَعَلَ يَضْرِبُهَا بِالسَّوْطِ ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهَا ، [وَهِيَ] تَمْصَعُ بِذَنَبِهَا ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ ، إِنَّهُ لَا مَدِينَةَ لَكُمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ اللهُ وَحْدَهُ وَالْجَنَّةُ ، ثُمَّ حَمَلَ وَحَمَلَ النَّاسُ مَعَهُ ، فَانْهَزَمَ أَهْلُ الْيَمَامَةِ حَتَّى أَتَى حِصْنَهُمْ فَلَقِيَهُ مُحَكَّمُ الْيَمَامَةِ ، فَقَالَ : يَا بَرَاءُ ، فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَاتَّقَاهُ الْبَرَاءُ بِالْحَجَفَةِ ، فَأَصَابَ الْحَجَفَةَ ، ثُمَّ ضَرَبَهُ الْبَرَاءُ فَقَتَلَهُ وَمَعَ مُحَكَّمِ الْيَمَامَةِ صَفِيحَةٌ عَرِيضَةٌ ، فَأَلْقَى سَيْفَهُ وَأَخَذَ صَفِيحَةَ مُحَكَّمٍ فَحَمَلَ فَضَرَبَ بِهَا حَتَّى انْكَسَرَتْ ، فَقَالَ : قَبَّحَ اللهُ مَا بَقِيَ

مِنْكَ ، وَرَمَى بِهِ وَعَادَ إِلَى سَيْفِهِ [١].

وحدث ضمرة بن سعيد: أنه خلص يومئذ إلى محكم بن طفيل وهو يقول: يا بني حنيفة قاتلوا قبل أن تستحقب الكرائم غير رضيات، وينكحن غير حظيات، وما كان عندكم من حسب فأخرجوه، فقد لحم الأمر، واحتيج إلى ذلك منكم، وجعل يقول: يا بني حنيفة ادخلوا الحديقة، سأمنع دابركم، وجعل يرتجز:

لبئسما أوردنا مسيلمه ❁❁❁ أورثنا من بعده أغيلمه

فدخلوا الحديقة وغلقوها عليهم، وقام مكان محكم المعترض ابن عمه، فقاتل ساعة حتى قتله الله.

وقاتلت حنيفة بعد قتل محكم بن طفيل أشد القتال، وهم يقولون: لا بقاء بعد محكم، وقال قائل: يا أبا ثمامة، أين ما كنت وعدتنا؟ قال: أما الدين فلا دين، ولكن قاتلوا عن أحسابكم، فاستيقن القوم أنهم كانوا على غير شيء.

وقال خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شهدت عشرين زحفًا، فلم أر قومًا أصبر لوقع السيوف ولا أضرب بها ولا أثبت أقدامًا من بني حنيفة يوم اليمامة، أنّا لما فرغنا من طليحة الكذاب، ولم تكن له شوكة، قلت كلمة والبلاء موكل بالقول: وما حنيفة، ما هي إلا كمن لقينا فلقينا قوما ليسوا يشبهون أحدًا، لما انتهينا إلى عسكرهم نظرت إلى قوم قد قدموا أمام عسكرهم بشرًا كثيرًا، فقلت: هذه مكيدة، وإذا القوم لم يحفلوا بنا، فعسكرنا منهم بمنظر العين، فلما أمسيت حزرت القوم بنفسي، فإذا القوم نحونا، فبتنا في عسكرنا، وباتوا في عسكرهم. فلما طلع الفجر قام القوم إلى التعبئة، وثرنا معهم في غدوة باردة، وصففت صفوفي، وصفوا صفوفهم، ثم أقبلوا إلينا يقطعون قطوا، قد سلوا السيوف، فكبرت، ورأيت ذلك منهم فشلا، فلما دنوا منا نادوا: أن هذا ليس بفشل، ولكنها الهندوانية وخفنا

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٤٤١٠) ، (٣٤٤١٥) انظر الروايتين.

التحطم عليها، فما هو إلا أن واجهونا، حملوا علينا حملة واحدة، وانهزمت الأعراب، ولاذوا بين أضعاف الصفوف، فانهزم معهم أهل النيات، وأوجعت حنيفة في أدباركم بالقتل، وتقدمت أضرب بسيفي مرة يشتملون عليّ، ومرة أنفذ منهم، وكر المسلمون كرة ثانية، فحملت بنو حنيفة أيضًا، حتى هزموا المسلمين ثلاث مرات. وإنما ينهزم بالناس الأعراب. فناديت في المسلمين، فذكرتهم الله، وناديت في المهاجرين والأنصار: الله الله، الكرة على عدوكم، فنادى أهل السوابق: أخلصونا، فأخلصوا، لا يخلطهم رجل، فأخلص قوم قد ألح السيف عليهم، وقتل من قتل منهم، ومن بقى من أهل النيات منقطع من الجراح ولكنا لم نجد المعول إلا عليهم ولا الصبر إلا عندهم، فصفوا جميعًا في نحر العدو، وجاءت الأعراب من خلفهم، وذهبت حنيفة تطلب أن تهزمهم كما كانت تفعل، فثبتوا على مصافهم لا تزول فترا، واختلفت السيوف بينهم، وصبر الفريقان جميعًا، وذهب الأعراب من ورائنا، فحملنا عليهم حملة، فما زادت حنيفة على أن رجعت القهقرى ما تولي الأدبار، حتى وقفوا على باب الحديقة، واختلفت السيوف بيننا وبينهم حتى نظرت إلى شهب النار، وحتى صارت القتلى منا ومنهم ركامًا، وقد أغلقت الحديقة، فدخل من رحمه الله فشغلهم عن الباب حتى دخلنا. فإذا أهل السوابق قد وطئوا أنفسهم على الموت، فما هو إلا أن عاينتهم حنيفة في الحديقة، فناديت أصحابي: عضوا على النواجذ، لا أسمع شيئًا إلا وقع الحديد بعضه على بعض، فما كان شيء حتى قتل عدو الله، فما ضرب أحد بعده من بني حنيفة بسيف، ولقد صبروا لنا من حين طلعت الشمس إلى صلاة العصر، ولقد رأيتني في الحديقة وعانقني رجل منهم وأنا فارس وهو فارس، فوقعنا عن فرسينا، ثم تعانقنا بالأرض، فأجؤه بخنجر في سيفي، وجعل يجؤني بمعول في سيفه، فجرحني سبع جراحات، وقد جرحته جرحا أثبته، فاسترخى في يدي، وما بي حركة من الجراح، وقد نزفت من الدم إلا أنه سبقنى بالأجل، فالحمد لله على ذلك.

وخَلَص المسلمون إِلَى مُسَيْلِمَةَ، لَعَنَهُ اللَّهُ قال وحشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وخَرَجَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ ، قُلْتُ: لَأَخْرُجَنَّ إِلَى مُسَيْلِمَةَ ، لَعَلِّي أَقْتُلُهُ فَأُكَافِئَ بِهِ حَمْزَةَ ، قَالَ: فَخَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ ، قَالَ: فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي ثَلْمَةِ جِدَارٍ ، كَأَنَّهُ جَمَلٌ أَوْرَقُ ، ثَائِرَ الرَّأْسِ ، قَالَ: فَرَمَيْتُهُ بِحَرْبَتِي ، فَأَضَعُهَا بَيْنَ ثَدْيَيْهِ حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ ، قَالَ: وَوَثَبَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ عَلَى هَامَتِهِ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْفَضْلِ : فَأَخْبَرَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ يَسَارٍ : أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ: فَقَالَتْ جَارِيَةٌ عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ: وَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَتَلَهُ الْعَبْدُ الْأَسْوَدُ[(١)].

وفي رواية: فَرَبُّكَ أَعْلَمُ أَيُّنَا قَتَلَهُ فَإِنْ كُنْتُ أَنَا قَتَلْتُهُ فَقَدْ قَتَلْتُ خَيْرَ النَّاسِ وَشَرَّ النَّاسِ[(٢)].

وقال أبو الحويرث: ما رأيت أحدًا يشك أن عبد الله بن زيد الأنصاري ضرب مسيلمة وزرقه وحشي فقتلاه جميعًا.

وقاتل كعب الأقطع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومئذ ، وانهزم الناس الهزيمة الآخرة ، وجاوزوا الرحال منهزمين، فجعل يصيح: يا للأنصار، يا أنصار الله ورسوله، حتى انتهى إلى محكم بن الطفيل، فضربه محكم، فقطع شماله، فو الله ما عرج عليها كعب، وأنه ليضرب بيمينه، وإن شماله لتهراق الدماء، حتى انتهى إلى الحديقة، فدخل[(٣)].

وأقبل حاجب بن يَزِيدَ بن تميم الأشهلي يصيح بالأوس: يا للأشهل، فقال له ثابت ابن هذال: ناد يا للأنصار، فإنه جماع لنا ولك، فنادى: يا للأنصار،يا

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٤٠٧٢).

(٢) هذه الرواية أخرجها الطيالسي (١٤١٠) وهي **صحيحة**.

(٣) عرف بكعب الأقطع قال البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٢٢٢ ت المعلمي اليماني) كعب قطعت يده يوم اليمامة له صحبة اهـ.

للأنصار، حتى اشتملت عليه حنيفة، فانفرجت، وتحته منهم اثنان قد قتلهما، وقتل رحمه الله، فخلفه في مقامه عمير بن أوس، فاشتملوا عليه حتى قتل رحمه الله.

وذكر مجاعة بن مرارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا، معن بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان نازلًا به ليالى قدم على رسول الله ﷺ، مع خلة كانت بينهما قبل ذلك قديمة، فلما قدم في وفد اليمامة على أبي بكر، توجه أبو بكر رضى الله عنه، يوما إلى قبور الشهداء زائرا لهم في نفر من أصحابه يمشون، قال: فخرجت معهم حتى أتوا قبور الشهداء السبعين يرحمهم الله، فقلت: يا خليفة رسول الله، لم أر قوما قط، أصبر لوقع السيوف، ولا أصدق كرة منهم، لقد رأيت رجلا منهم يرحمهم الله، وكانت بينى وبينه خلة، فقال أبو بكر رضى الله عنه: معن بن عدى؟ قلت: نعم، وكان عارفًا بما كان بيني وبينه، فقال: رحمه الله، ذكرت رجلًا صالحًا، حديثك، قلت: يا خليفة رسول الله، فأنظر إليه وأنا موثق في الحديد في فسطاط ابن الوليد، وانهزم المسلمون، انهزمت بهم الضاحية انهزامة ظننت أنهم لا يجتبرون لها، وساءنى ذلك، قال أبو بكر: الله، لساءك ذلك؟ قلت: الله لساءنى، قال أبو بكر: الحمد لله على ذلك، قال: فأنظر إلى معن بن عدي قد كر معلمًا في رأسه بعصابة حمراء، واضعًا سيفه على عاتقه، وإنه ليقطر دمًا، ينادى: يا للأنصار، كرة صادقة، قال: فكرت الأنصار عليه، فكانت الوقعة التى ثبتوا عليها حتى انتحوا وأباحوا عدوهم، فلقد رأيتنى وأنا أطوف مع خالد بن الوليد أعرفه قتلى بني حنيفة، وإنى لأنظر إلى الأنصار وهم صرعى، فبكى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى بل لحيته.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: دخلت الحديقة حين جاء وقت الظهر، واستحر القتال، فأمر خالد بن الوليد المؤذن، فأذن على جدار الحديقة بالظهر، والقوم يضطربون على القتل، حتى انقطعت الحرب بعد العصر، فصلى بنا خالد الظهر والعصر، ثم بعث السقاة يطوفون على القتلى، فطفت معهم، فمررت بأبي عقيل الأنصارى البدري، وبه خمسة عشر جرحًا، فاستسقانى، فسقيته، فخرج

الماء من جراحاته كلها، ومات رحمه الله[١]، ومررت ببشر بن عبد الله وهو قاعد في حشوته، فاستسقانى، فسقيته، فمات، ومررت بعامر بن ثابت العجلاني وإلى جنبه رجل من بني حنيفة به جراح، فسقيت عامرًا فشرب وقال الحنفي: اسقنى فدى لك أبي وأمي، قلت: لا كرامة، ولكني أجهز عليك، قال: قد أحسنت لي مسألة ولا شيء عليك فيها، أسألك عنها، قلت: وما هى؟ قال: أبو ثمامة، ما فعل؟ قلت: قتل والله، قال: نبي ضيعه قومه!!!، قال أبو سعيد: فضربت عنقه.

وعن محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما قتل خالد بن الوليد من أهل اليمامة من قتل، كانت لهم في المسلمين أيضا مقتلة عظيمة ، حتى أبيح أكثر أصحاب رسول الله ﷺ ، وقيل: لا نغمد السيوف بيننا وبينهم عين تطرف وكان فيمن بقي من المسلمين جراحات كثيرة، فلما أمسى مجاعة بن مرارة، أرسل إلى قومه ليلًا: أن ألبسوا السلاح النساء والذرية والعبيد، ثم إذا أصبحتم فقوموا مستقبلى الشمس على حصونكم حتى يأتيكم أمري، وبات خالد والمسلمون يدفنون قتلاهم، فلما فرغوا، رجعوا إلى منازلهم، فباتوا يتكمدون بالنار من الجراح. فلما أصبح خالد، أمر بمجاعة، فسيق معه في الحديد، فجعل يستبرئ القتلى، وهو يريد مسيلمة، فمر برجل وسيم، فقال: يا مجاعة، أهو هذا؟ قال: لا، هذا والله أكرم منه، هذا محكم بن الطفيل، ثم قال مجاعة: إن الذى تبتغون رجل ضخم أشعر البطن والظهر، أبجر، بجرته مثل القدح، مطرق إحدى العينين، ويقال: هو أرجل أصيفر أخينس، قال: وأمر خالد بالقتلى، فكشفوا حتى وجد الخبيث، فوقف عليه خالد، فحمد الله كثيرًا، وأمر به فألقى في البئر التى كان يشرب منها» . قالوا: ولما أمسينا، أخذنا شعل السعف، ثم جعلنا نحفر لقتلانا حتى دفناهم جميعًا، بدمائهم وثيابهم، وما صلينا عليهم، وتركنا قتلى بني حنيفة، فلما صالحوا خالدًا طرحوهم في الآبار. فَكَانَ

---

(١) ذكر ابن قدامة في المغني (٣/ ٤٧٣ ت التركي) أن الذي سقاه هو ابن عمر.

جُمْلَةُ مَنْ قُتِلُوا فِي الْحَدِيقَةِ وَفِي الْمَعْرَكَةِ قَرِيبًا مِنْ عَشَرَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ - وَقِيلَ: أَحَدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا -وفي كتاب يعقوب الزهري أنه قتل منهم أكثر من سبعة آلاف، وعن غيره أنه أصيب يومئذ من صليب بني حنيفة سبعمائة مقاتل، وكان داؤهم خبيثا، والطارئ منهم على الإسلام عظيمًا، فاستأصل الله تعالى شأفتهم، ورد ألفة الإسلام على ما كانت عليه على عهد رسول الله ﷺ وَقُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سِتُّمِائَةٍ - وَقِيلَ: خَمْسُمِائَةٍ - فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَفِيهِمْ مِنْ سَادَاتِ الصَّحَابَةِ، وَأَعْيَانِ النَّاسِ مَنْ يُذْكَرُ بَعْدُ.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قتلت الأنصار في مواطن أربعة سبعين سبعين، يوم أحد سبعين، ويوم بئر معونة سبعين، ويوم اليمامة سبعين، ويوم جسر أبي عبيد سبعين.

وقال زيد بن طلحة: قتل يوم اليمامة من قريش سبعون، ومن الأنصار ستون، ومن سائر الناس خمسمائة.

وعن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ ، فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عِنْدَهُ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ : إِنَّ الْقَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقُرَّاءِ الْقُرْآنِ(١).

ثُمَّ بَعَثَ خَالِدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْخُيُولَ حَوْلَ الْيَمَامَةِ يَلْتَقِطُونَ مَا حَوْلَ حُصُونِهَا مِنْ مَالٍ وَسَبْيٍ، ثُمَّ عَزَمَ عَلَى غَزْوِ الْحُصُونِ، وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ فِيهَا إِلَّا النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ وَالشُّيُوخُ الْكِبَارُ، فَخَدَعَهُ مُجَّاعَةُ فَقَالَ: إِنَّهَا مَلْأَى رِجَالًا وَمُقَاتِلَةً فَهَلُمَّ فَصَالِحْنِي عَنْهُمْ. فَصَالَحَهُ خَالِدٌ ; لِمَا رَأَى بِالْمُسْلِمِينَ مِنَ الْجَهْدِ، وَقَدْ كَلُّوا مِنْ كَثْرَةِ الْحُرُوبِ وَالْقِتَالِ، فَقَالَ: دَعْنِي حَتَّى أَذْهَبَ إِلَيْهِمْ لِيُوَافِقُونِي عَلَى الصُّلْحِ. فَقَالَ: اذْهَبْ. فَسَارَ إِلَيْهِمْ مُجَّاعَةُ، فَأَمَرَ النِّسَاءَ أَنْ يَلْبَسْنَ الْحَدِيدَ وَيَبْرُزْنَ عَلَى رُءُوسِ الْحُصُونِ، فَنَظَرَ خَالِدٌ فَإِذَا الشُّرُفَاتُ مُمْتَلِئَةٌ مِنْ رُءُوسِ النَّاسِ، فَظَنَّهُمْ كَمَا قَالَ مُجَّاعَةُ، **فَانْتَظَمَ الصُّلْحُ، فَصَالَحَهُمْ**

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨٦).

عَلَى الْبَيْضَاءِ وَالصَّفْرَاءِ وَالْحُلْقَةِ وَالْكُرَاعِ وَنِصْفِ الرَّقِيقِ. وَقِيلَ لِخَالِدٍ: إِنَّ مُجَّاعَةَ قَدْ خَدَعَكَ. فَقَالَ لَهُ: يَا مُجَّاعَةُ، خَدَعْتَنِي. فَقَالَ: إِنَّهُمْ قَوْمِي وَقَدْ أَفْنَيْتَهُمْ، فَلَا تَلُمْنِي عَلَى ذَلِكَ. وَدَعَاهُمْ خَالِدٌ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَسْلَمُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَرَجَعُوا إِلَى الْحَقِّ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ خَالِدٌ بَعْضَ مَا كَانَ أَخَذَ مِنَ السَّبْيِ، وَسَاقَ الْبَاقِينَ إِلَى الصِّدِّيقِ، وَقَدْ قَالَ ضِرَارُ بْنُ الْأَزْوَرِ فِي غَزْوَةِ الْيَمَامَةِ هَذِهِ:

وَلَوْ سُئِلَتْ عَنَّا جَنُوبُ لَأَخْبَرَتْ ❁❁❁ عَشِيَّةَ سَالَتْ عَقْرَبَاءُ وَمَلْهَمُ
وَسَالَ بِفَرْعِ الْوَادِ حَتَّى تَرَقْرَقَتْ ❁❁❁ حِجَارَتُهُ فِيهِ مِنَ الْقَوْمِ بِالدَّمِ
عَشِيَّةَ لَا تُغْنِي الرِّمَاحُ مَكَانَهَا ❁❁❁ وَلَا النَّبْلُ إِلَّا الْمَشْرَفِيُّ الْمُصَمِّمُ
فَإِنْ تَبْتَغِي الْكُفَّارَ غَيْرَ مُلِيمَةٍ ❁❁❁ جَنُوبُ فَإِنِّي تَابِعُ الدِّينِ مُسْلِمُ
أُجَاهِدُ إِذْ كَانَ الْجِهَادُ غَنِيمَةً ❁❁❁ وَلِلَّهِ بِالْمَرْءِ الْمُجَاهِدِ أَعْلَمُ

ولما فرغ خالد من الصلح، أمر بالحصون فألزمها الرجال، وحلف مجاعة بالله لا يغيب عنه شيئًا مما صالحه عليه، ولا يعلم أحدا غيبة إلا رفعه إلى خالد، ثم فتحت الحصون، فأخرج سلاحًا كثيرًا، فجمعه خالد على حدة، وأخرج ما وجد فيها من دنانير ودراهم، فجمعه على حدة، وجمع كراعهم، وترك الخف فلم يحركه ولا الرثة، ثم أخرج السبي، فقسمه قسمين، ثم أقرع على القسمين، فخرج سهمه على أحدهما، وفيه: مكتوب لله، ثم جزأ الذى صار له من السبي على خمسة أجزاء، ثم كتب على كل سهم منها: لله، وجزأ الكراع، والحلقة هكذا، ووزن الذهب والفضة، فعزل الخمس، وقسم على الناس أربعة أخماس، وأسهم للفرس سهمين، ولصاحبه سهما، وعزل الخمس من ذلك كله، حتى قدم به على أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من كرامات الأولياء

ولما قتل ثابت بن قيس بن شماس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم اليمامة، ومعه كانت راية الأنصار يومئذ، وهو خطيبهم وسيد من سادتهم، أُرِيَ رجل من المسلمين في منامه

ثابت بن قيس يقول له: إنى موصيك بوصية، فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه، إنى لما قتلت بالأمس جاء رجل من ضاحية نجد وعليّ درع فأخذها، فأتى بها منزله فأكفأ عليها برمة، وجعل على البرمة رحلا، وخباؤه في أقصى العسكر، إلى جنب خبائه فرس يستن في طوله، فائت خالد بن الوليد فأخبره فليبعث إلى درعي فليأخذها، وإذا قدمت على خليفة رسول الله ﷺ، فأخبره أن عليَّ من الدين كذا ولي من الدين كذا، وسعد ومبارك غلاماي حران، وإياك أن تقول هذا حلم، فتضيعه. فلما أصبح الرجل أتى خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخبره، فبعث خالد إلى الدرع فوجدها كما قال، وأخبره بوصيته فأجازها، ولا نعلم أحدا من المسلمين أجيزت، وصيته بعد موته إلا ثابت بن قيس[1].

ولما انقطعت الحرب بين خالد وبين أهل اليمامة، تحول من منزله الذى كان فيه إلى منزل آخر، ينتظر كتاب أبي بكر يأمره أن ينصرف إليه بالمدينة، وخرج أبو بكر يومًا بالعشي إلى ظهر الحرة، يريد أن يبلغ صرارًا، ومعه عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله، ونفر من المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فلقي أبا خيثمة النجاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد أرسله خالد، فلما رآه أبو بكر قال له: ما وراءك يا أبا خيثمة؟ قال: خير يا خليفة رسول الله، قد فتح الله علينا اليمامة، قال: فسجد أبو بكر، قال

---

(١) **صحيح لغيره:** أخرجه الحاكم في "مستدركه" (٥٠٦٩) وأورده ابن حجر في "المطالب العالية" (٣٧٢١)، (٤٠٨٢) وأخرجه الطبراني في "الكبير" (١٣٢٠) ابن أبي عاصم الآحاد والمثاني (٣/ ٤٦١) (١٩٢١) ورجاله ثقات غير ابنة ثابت وقد اختلف في صحبتها وقد ذكرها ابن حبيب فيمن بايعن رسول الله - ﷺ كما في الإصابة في تمييز الصحابة: (١٣ / ٤١٧) وهي مع ذلك تحكي قصة أبيها، ثم إنه قد دُلَّ عليها لعلم الناس بمعرفتها بذلك. وللقصة شاهد صحيح عند الطبراني في "الكبير" (١٣٠٧) عَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ ، جَاءَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ ، وَقَدْ تَخَنَّطَ وَنَشَرَ أَكْفَانَهُ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ هَؤُلَاءِ ، وَأَعْتَذِرُ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ فَقُتِلَ ، وَكَانَتْ لَهُ دِرْعٌ فَسُرِقَتْ ، فَرَآهُ رَجُلٌ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ " ، فَقَالَ : " إِنَّ دِرْعِي فِي قِدْرٍ تَحْتَ الْكَانُونِ ، فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا ، وَأَوْصَاهُ بِوَصَايَا ، فَطَلَبُوا الدِّرْعَ فَوَجَدُوهَا ، وَأَنْفَذُوا الْوَصَايَا " .

أبو خيثمة: وهذا كتاب خالد إليك، فحمد الله أبو بكر وأصحابه، ثم قال: أخبرني عن الوقعة، كيف كانت؟. فجعل أبو خيثمة يخبره كيف صنع خالد، وكيف صف أصحابه، وكيف انهزم المسلمون، ومن قتل منهم، وجعل أبو بكر يسترجع ويترحم عليهم، وجعل أبو خيثمة يقول: يا خليفة رسول الله ﷺ، أتينا من قبل الأعراب، انهزموا بنا وعودونا ما لم نكن نحسن، حتى أظفرنا الله بعد، ثم قال أبو بكر: كرهت رؤيا رأيتها كراهية شديدة، ووقع في نفسي أن خالدًا سيلقى منهم شدة، وليت خالدًا لم يصالحهم، وأنه حملهم على السيف، فما بعد هؤلاء المقتولين يستبقى أهل اليمامة، ولن يزالوا من كذابهم في بلية إلى يوم القيامة، إلا أن يعصمهم الله، ثم قدم بعد ذلك وفد اليمامة مع خالد على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكانوا سبعة عشر رجلًا من بني حنيفة، فيهم مجاعة بن مرارة، وإخوته، فحبسهم، فلم يدخلهم عليه.

قال زيد بن أسلم عن أبيه: لما دخلوا على أبي بكر الصديق، قال: ويحكم، ما هذا الذى استنزل منكم ما استنزل، وخدعكم، قالوا: يا خليفة رسول الله، قد كان الذى بلغك مما أصابنا. ثم أقبل أبو بكر، على مجاعة، فقال: يا مجاعة، أنت خرجت طليعة لمسيلمة حتى أخذك خالد أخذا؟ فقال: يا خليفة رسول الله، والله ما فعلت، خرجت في طلب رجل من بني نمير قد أصاب فينا دمًا، فهجمت علينا خيل خالد، ولقد كنت قدمت على رسول الله، فلما ذكر رسول الله، قال أبو بكر: قل ﷺ، فقال: ﷺ، ثم رجعت إلى قومي، فو الله ما زلت معتزلًا أمر مسيلمة حتى كان أوان قدمت عليك مقدمي هذا، ثم لم آل لخالد فيما استشارني إلى اليوم، وقد جئناك لترضى عمن أساء، وتقبل ممن تاب، فإن القوم قد رجعوا وتابوا، فقال أبو بكر: أما أني قد كتبت إلى خالد كتابا في أثر كتاب آمره أن لا يستبقي من بني حنيفة أحدًا مرت عليه الموسى قال مجاعة: الذى صنع الله لك ولخالد خير، يفيء الله بهم إلى الإسلام، قال أبو بكر: أرجو أن يكون ما صنع خالد خيرًا، قالوا: يا خليفة رسول

الله، قد أردنا الرجوع إلى بلادنا، قال: ارجعوا، وكتب لهم كتابا أمنهم فيه.

* وقال أبو بكر لخالد: سم لي أهل البلاء، فقال: يا خليفة رسول الله، كان البلاء للبراء بن مالك، والناس له تبع.

ولما قدم خالد المدينة لم يبق بها دار إلا فيها باك لكثرة من قتل معه من الناس، فبكى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما رأى ذلك، وقال ما أبعد ما رأى من الظفر، والله لثابت بن قيس بن شماس أعز على الأنصار من أسماعها وأبصارها.

قَالَ خَلِيفَةُ بْنُ خَيَّاطٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ وَخَلْقٌ مِنَ السَّلَفِ: كَانَتْ وَقْعَةُ الْيَمَامَةِ فِي سَنَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ. وَقَالَ ابْنُ قَانِعٍ: فِي آخِرِهَا. وَقَالَ آخَرُونَ: كَانَتْ فِي سَنَةِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ. وَالْجَمْعُ بَيْنَهَا أَنَّ ابْتِدَاءَهَا فِي سِنَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ، وَالْفَرَاغَ مِنْهَا فِي سَنَةِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قرقرة الشيطان هي قرآن مسيلمة لعنه الله

وَلَمَّا قَدِمَتْ وُفُودُ بَنِي حَنِيفَةَ عَلَى الصِّدِّيقِ قَالَ لَهُمْ: أَسْمِعُونَا شَيْئًا مِنْ قُرْآنِ مُسَيْلِمَةَ. فَقَالُوا: أَوَتَعْفِينَا يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ.

فَقَالُوا: كَانَ يَقُولُ: يَا ضِفْدَعُ بِنْتَ الضِّفْدَعِينْ، نَقِّي كَمْ تَنِقِّينْ، لَا الْمَاءَ تُكَدِّرِينْ، وَلَا الشَّارِبَ تَمْنَعِينْ، رَأْسُكِ فِي الْمَاءِ وَذَنَبُكِ فِي الطِّينْ.

وَكَانَ يَقُولُ: وَالْمُبْذِّرَاتِ زَرْعًا، وَالْحَاصِدَاتِ حَصْدًا، وَالذَّارِيَاتِ قَمْحًا، وَالطَّاحِنَاتِ طِحْنًا، وَالْخَابِزَاتِ خَبْزًا، وَالثَّارِدَاتِ ثَرْدًا، وَاللَّاقِمَاتِ لَقْمًا، إِهَالَةً وَسَمْنًا، لَقَدْ فُضِّلْتُمْ عَلَى أَهْلِ الْوَبَرِ، وَمَا سَبَقَكُمْ أَهْلُ الْمَدَرِ، رَفِيقَكُمْ فَامْنَعُوهُ، وَالْمُعْتَرَّ فَآوُوهُ، وَالْبَاغِيَ فَنَاوِئُوهُ. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ مِنْ هَذِهِ الْخُرَافَاتِ الَّتِي يَأْنَفُ مِنْ قَوْلِهَا الصِّبْيَانُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ، فَيُقَالُ: إِنَّ الصِّدِّيقَ قَالَ لَهُمْ: وَيْحَكُمْ! أَيْنَ كَانَ يُذْهَبُ بِعُقُولِكُمْ؟ إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ إِلٍّ[1].

(١) [قَالَ أَبُو عُبَيْد] : الإل ثَلَاثَة أَشْيَاء: اللَّه تَعَالَى والقرابة والعهد.اهـ من [غريب الحديث – لأبي عبيد

وَكَانَ يَقُولُ: وَالْفِيلْ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفِيلْ، لَهُ زَلُّومٌ طَوِيلْ.

وَكَانَ يَقُولُ: وَاللَّيْلُ الدَّامِسْ، وَالذِّئْبُ الْهَامِسْ، مَا قَطَعَتْ أَسَدٌ مِنْ رَطْبٍ وَلَا يَابِسْ.

ويقول: لَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى الْحُبْلَى، أَخْرَجَ مِنْهَا نَسَمَةً تَسْعَى، مِنْ بَيْنِ صِفَاقٍ وَحَشَا. وَأَشْيَاءُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ السَّخِيفِ الرَّكِيكِ الْبَارِدِ السَّمِجِ.

تعرّف على كرامات الأشقياء!!!

ذَكَرَ عُلَمَاءُ التَّارِيخِ أَنَّهُ كَانَ يَتَشَبَّهُ بِالنَّبِيِّ ﷺ ؛ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَصَقَ فِي بِئْرٍ، فَغَزُرَ مَاؤُهَا، فَبَصَقَ فِي بِئْرٍ فَغَاضَ مَاؤُهَا بِالْكُلِّيَّةِ، وَفِي أُخْرَى فَصَارَ مَاؤُهَا أُجَاجًا، وَتَوَضَّأَ وَسَقَى بِوَضُوئِهِ نَخْلًا فَيَبِسَتْ وَهَلَكَتْ.

وَأُتِيَ بِوِلْدَانٍ يَبَرِّكُ عَلَيْهِمْ فَجَعَلَ يَمْسَحُ رُءُوسَهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ قُرِعَ رَأْسُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لُثِغَ لِسَانُهُ.

وَيُقَالُ: إِنَّهُ دَعَا لِرَجُلٍ أَصَابَهُ وَجَعٌ فِي عَيْنَيْهِ فَمَسَحَهُمَا فَعَمِي.

وجاءه قوم بمولود، فمسح رأسه فقرع وقرع كل مولود له، وجاءه آخر، فقال: يا أبا ثمامة، إني ذو مال، وليس لي مولود يبلغ سنتين حتى يموت غير هذا المولود، وهو ابن عشر سنين، ولي مولود ولد أمس، فأحب أن تبارك فيه وتدعو أن يطيل الله عمره، فقال: سأطلب لك الذي طلبت، فجعل عمر المولود أربعين سنة، فرجع الرجل إلى منزله مسرورًا، فوجد الأكبر قد تردى في بئر، ووجد الصغير ينزع في الموت، فلم يمس من ذلك اليوم حتى ماتا جميعًا، تقول أمهما: فلا والله ما لأبي ثمامة عند إلهه مثل منزلة محمد. وعظمت فتنة بني حنيفة بكذابهم هذا حتى كان يدعو لمريضهم ويبرك على مولودهم، ولا ينهاهم عن اغترارهم به ما يشاهدون من قلة غنائه عنهم.

– ط الهندية (١/ ١٠٠)] **قلت:** فيكون المعنى هذا ليس من كلام الله تعالى كما يلبس مسيلمة. وبعض كلامهم سمع من بعض أتباع مسيلمة وأقام ابن مسعود عليه الحد أخرجه عبد الرزاق (١٨٧٠٨) وصححه الإمام الوادعي في الصحيح المسند (١/ ٦٣٨)(٨٢٣).

ذكر بعض من استشهد يوم اليمامة

مِنْهُمْ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ الْأَنْصَارِيُّ الْخَزْرَجِيُّ، أَبُو مُحَمَّدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَطِيبُ الْأَنْصَارِ، وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا: خَطِيبُ النَّبِيِّ ﷺ. وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَنَّهُ بَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ وَأَنَّهُ بَشَّرَهُ بِالشَّهَادَةِ(١).

وَمِنْهُمْ حَزْنُ بْنُ أَبِي وَهْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَائِذِ بْنِ عِمْرَانَ الْمَخْزُومِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَهُ هِجْرَةٌ، وَيُقَالُ: أَسْلَمَ عَامَ الْفَتْحِ. وَهُوَ جَدُّ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، اسْتُشْهِدَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ وَقُتِلَ مَعَهُ أَيْضًا ابْنَاهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَوَهْبٌ، وَابْنُ ابْنِهِ حَكِيمُ بْنُ وَهْبِ بْنِ حَزْنٍ.

وَمِنْهُمْ زَيْدُ بْنُ الْخَطَّابِ بْنِ نُفَيْلٍ الْقُرَشِيُّ الْعَدَوِيُّ أَبُو مُحَمَّدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ أَخُو عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِأَبِيهِ، وَكَانَ زَيْدٌ أَكْبَرُ مِنْ عُمَرَ، أَسْلَمَ قَدِيمًا، وَشَهِدَ بَدْرًا وَمَا بَعْدَهَا.

وَمِنْهُمْ سَالِمُ بْنُ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَيُقَالُ: ابْنُ مَعْقِلٍ. مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَكَانَ مِنْ سَادَاتِ الْمُسْلِمِينَ، أَسْلَمَ قَدِيمًا وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَ يُصَلِّي بِمَنْ بِهَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَفِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ; لِكَثْرَةِ حِفْظِهِ الْقُرْآنَ(٢)، وَشَهِدَ بَدْرًا وَمَا بَعْدَهَا، وَهُوَ أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«اسْتَقْرِئُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ»**(٣).

وَمِنْهُمْ أَبُو دُجَانَةَ سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَيُقَالُ: سِمَاكُ بْنُ أَوْسِ بْنِ خَرَشَةَ الْأَنْصَارِيُّ الْخَزْرَجِيُّ، شَهِدَ بَدْرًا وَأَبْلَى يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَاتَلَ قِتَالًا شَدِيدًا، وَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ سَيْفًا فَأَعْطَاهُ حَقَّهُ. وَكَانَ يَعْصِبُ رَأْسَهُ بِعِصَابَةٍ حَمْرَاءَ؛ شِعَارًا لَهُ بِالشَّجَاعَةِ.

وَمِنْهُمْ شُجَاعُ بْنُ وَهْبِ بْنِ رَبِيعَةَ الْأَسَدِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَسْلَمَ قَدِيمًا وَهَاجَرَ، وَشَهِدَ بَدْرًا وَمَا بَعْدَهَا، وَكَانَ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شَمِرٍ الْغَسَّانِيِّ، فَلَمْ يُسْلِمْ، وَأَسْلَمَ حَاجِبُهُ مُرِّيٌّ. وَاسْتُشْهِدَ عَنْ بِضْعٍ

---

(١) انظر تخريج الأثر في وصيته والشاهد منه: بَلْ تَعِيشُ حَمِيدًا، وَتُقْتَلُ شَهِيدًا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٢)، عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٥٨)، ومسلم (٢٤٦٤)، عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو.

وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَكَانَ رَجُلًا طِوَالًا نَحِيفًا أَجْنَأَ.

وَمِنْهُمُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَسْلَمَ قَدِيمًا قَبْلَ الْهِجْرَةِ، وَذَهَبَ إِلَى قَوْمِهِ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ فَهَدَاهُمُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ جَاءَهُ بِتِسْعِينَ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ دَوْسٍ مُسْلِمِينَ.

وَمِنْهُمْ عَبَّادُ بْنُ بِشْرِ بْنِ وَقْشٍ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَسْلَمَ عَلَى يَدَيْ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، قَبْلَ إِسْلَامِ مُعَاذٍ وَأُسَيْدِ بْنِ الْحُضَيْرِ، وَشَهِدَ بَدْرًا وَمَا بَعْدَهَا، وَكَانَ مِمَّنْ قَتَلَ كَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ، وَكَانَتْ عَصَاهُ تُضِيءُ لَهُ إِذَا خَرَجَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ظُلْمَةٍ. قُتِلَ عَنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَكَانَ لَهُ بَلَاءٌ وَغَنَاءٌ.

وَمِنْهُمُ السَّائِبُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَدْرِيٌّ، مِنَ الرُّمَاةِ، أَصَابَهُ يَوْمَ الْيَمَامَةِ سَهْمٌ فَقَتَلَهُ وَهُوَ شَابٌّ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَمِنْهُمُ السَّائِبُ بْنُ الْعَوَّامِ، أَخُو الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَمِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ وُدٍّ الْقُرَشِيُّ الْعَامِرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَسْلَمَ قَدِيمًا وَهَاجَرَ.

وَمِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ الْأَنْصَارِيُّ الْخَزْرَجِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ مِنْ سَادَاتِ الصَّحَابَةِ وَفُضَلَائِهِمْ، شَهِدَ بَدْرًا وَمَا بَعْدَهَا، وَكَانَ أَبُوهُ رَأْسَ الْمُنَافِقِينَ، وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ عَلَى أَبِيهِ.

وَمِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَسْلَمَ قَدِيمًا إِنَّهُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْأَخْبَارِ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى أَبِيهِ أَبِي بَكْرٍ وَهُمَا بِغَارِ ثَوْرٍ، وَيَبِيتُ عِنْدَهُمَا وَيُصْبِحُ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلَا يَسْمَعُ بِأَمْرٍ يُكَادَانِ بِهِ إِلَّا أَخْبَرَهُمَا بِهِ.

وَمِنْهُمْ مَعْنُ بْنُ عَدِيِّ بْنِ الْجَدِّ بْنِ عَجْلَانَ بْنِ ضُبَيْعَةَ الْبَلَوِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَلِيفُ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَهُوَ أَخُو عَاصِمِ بْنِ عَدِيٍّ، شَهِدَ الْعَقَبَةَ وَبَدْرًا وَأُحُدًا وَالْخَنْدَقَ وَسَائِرَ الْمَشَاهِدِ، وَكَانَ قَدْ آخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقُتِلَا

جَمِيعًا يَوْمَ الْيَمَامَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَمِنْهُمْ أَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ الْقُرَشِيُّ الْعَبْشَمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَسْلَمَ قَدِيمًا قَبْلَ دَارِ الْأَرْقَمِ، وَهَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ وَإِلَى الْمَدِينَةِ، وَشَهِدَ بَدْرًا وَمَا بَعْدَهَا، وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ، وَقَدْ قُتِلَا شَهِيدِينَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ. وَكَانَ عُمُرُ أَبِي حُذَيْفَةَ يَوْمَئِذٍ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا وَخَمْسِينَ سَنَةً.

قال ابن كثير رحمه الله: وَبِالْجُمْلَةِ فَقَدْ قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ أَرْبَعُمِائَةٍ وَخَمْسُونَ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ وَمِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ. وَإِنَّمَا أَوْرَدْنَا هَؤُلَاءِ لِشُهْرَتِهِمْ، وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانِ(١).

(١) نقلت أحداث هذه المعركة من «البداية والنهاية ط هجر» (٩/٤١٣- ٥٠٢) و «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله -ﷺ- والثلاثة الخلفاء» (٢/ ١١٦ - ١٤٤).

(ملخص معركة حديقة الموت الفاصلة)

١- اسم المعركة : حديقة الموت.

٢- مكان المعركة : كانت المعركة في مكان يقال له عقرباء في اليمامة في نجد وعقرباء هذه الأيام في الجبيلة وهي تابعة لمحافظة الدرعية منطقة الرياض في المملكة العربية السعودية وتقع شمال الرياض.

٣- تاريخ المعركة: كانت في أول سنة ١٢هـ.

٤- الفريقان المتقاتلان :

١- المسلمون: بأمر الخليفة الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقيادة سيف الله المسلول أبي سليمان خالد بن الوليد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

٢- المرتدون: من أهل اليمامة بقيادة مسيلمة الكذاب عليه لعنة الله.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما:

أولًا المسلمون: القيادة العامة لخالد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

١- وعَلَى الْمُقَدِّمَةِ شُرَحْبِيل بن حَسَنَةَ.

٢- ٣- وَعَلَى الْمُجَنِّبَتَيْنِ زَيْد بْن الْخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وَأَبو حُذَيْفَةَ بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

٤- وَرَايَةُ الْمُهَاجِرِينَ مَعَ سَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

٥- وَرَايَةُ الْأَنْصَارِ مَعَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وَالْعَرَبُ عَلَى رَايَاتِهَا

٦- وعلى الخيل البراء بن مالك.

وكَانَ الْمُسْلِمُونَ بِضْعَةَ عَشَرَ أَلْفًا. [البداية والنهاية (٩/ ٣٣٣ ت التركي)].

ثانيًا المشركون:

* كانوا نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُقَاتِلَةِ.
* عَلَى مُجَنِّبَتَيْ جَيْشِهِم الْمُحْكَمَ بْنَ الطُّفَيْلِ، وَالرَّجَّالَ بْنَ عُنْفُوَةَ بْنِ نَهْشَلٍ.

٦- سبب المعركة : هو ادعاء مسيلمة الكذاب النبوة وارتداد كثير منهم عن الإسلام اتباعًا له قبحه الله.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- قتلى المسلمين رحمهم الله قال ابن كثير رحمه الله: وَبِالْجُمْلَةِ فَقَدْ قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ أَرْبَعُمِائَةٍ وَخَمْسُونَ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ وَمِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ قُتِل من قريش سبعون، ومن الأنصار سبعون والبقية من غيرهم.

٢- أما المرتدون فَكَانَ جُمْلَةُ مَنْ قُتِلَ منهم فِي الْحَدِيقَةِ وَفِي الْمَعْرَكَةِ قَرِيبًا مِنْ عَشَرَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ - وَقِيلَ: أَحَدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا - وقيل: قتل منهم أكثر من سبعة آلاف، وعن غيره أنه أصيب يومئذ من صليب بني حنيفة سبعمائة مقاتل، وكان داؤهم خبيثًا، والطارئ منهم على الإسلام عظيمًا، فاستأصل الله تعالى شأفتهم، ورد ألفة الإسلام على ما كانت عليه على عهد رسول الله ﷺ.

٣- أما الغنيمة فكانت عظيمة انْتَظَمَ الصُّلْحُ، عَلَى تسليم الْبَيْضَاءِ وهي الفضة وَالصَّفْرَاءِ وهو الذهب وَالْحَلْقَةِ وَالْكُرَاعِ أي:السلاح، وَنِصْفِ الرَّقِيقِ.

٤- أراح الله تعالى بني حنيفة والمسلمين من شر مسيلمة واستجابت بنوا حنيفة بعد المعركة دَعَاهُمْ خَالِدٌ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَسْلَمُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَرَجَعُوا إِلَى الْحَقِّ، وأصبحوا من جنود الإسلام وحماته، وهذا يدلنا أن المسلمين أهل خير إذا تركوا العصبية القومية، فكم تابع مسيلمة والأسود العنسي من أناس من هذا المنطلق، وهذا يحتم علينا التجرد لديننا وعقيدتنا والاعتزاز به وعدم التفريط فيه لأجل أحد مهما كان وهذا والله من أهم ما يحتاج المسلم الانتباه له فكم من شخص تراه لك معجبًا ثم تفسده هذه النعرات، وهذا أهم ما أعدُّ به هذه المعركة من المعارك الفاصلة لأنها بينت المتجرد للحق كثمامة بن أثال من غيره كالرجال بن عنفوة.

٥- أيضًا كانت من المعارك الفاصلة لأنها أوقفت حركة المرتدين والمشاغبين والمتمردين.

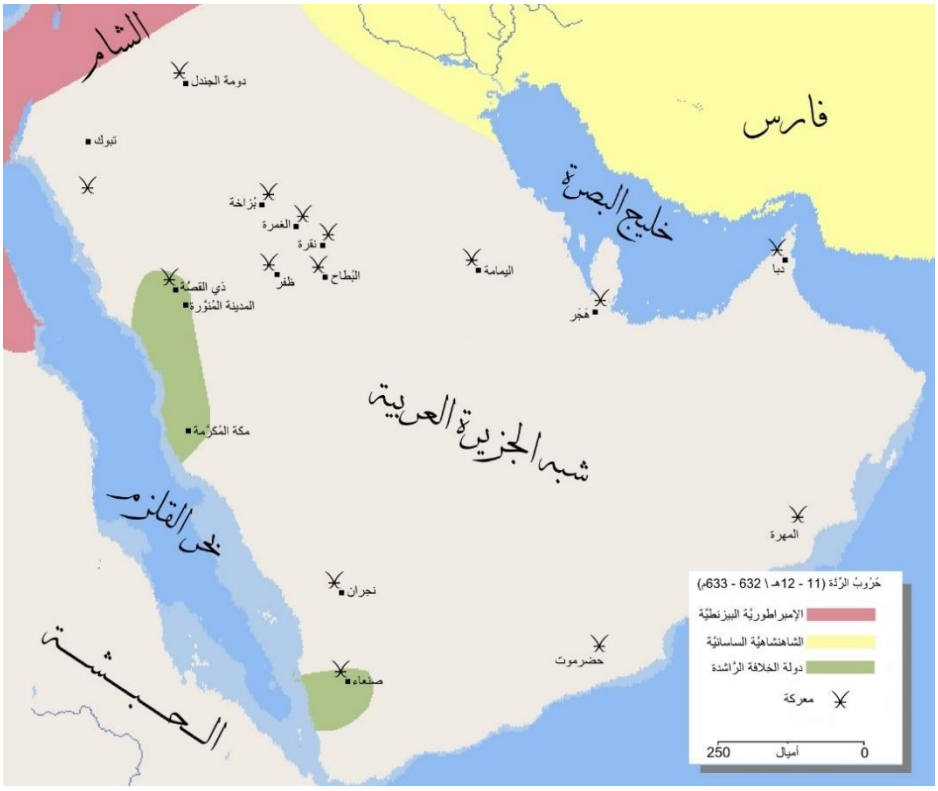
٦- وأيضًا تفرغ المسلمون بعدها لجهاد الفرس والروم، ونشر الإسلام بين الأمم.

٧- هذا التحول التاريخي العظيم من حسنات الخليفة الراشد الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقام بالناس على ما كان عليه نبينا ﷺ وصارع بضراوة من كان يريد تحول الناس عنه قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ارْتَدَتِ الْعَرَبُ قَاطِبَةً وَاشْرَأَبَّ النِّفَاقُ، وَاللَّهِ لَقَدْ نَزَلَ بِأَبِي مَا لَوْ نَزَلَ بِالْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ لَهَاضَهَا، وَصَارَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَأَنَّهُمْ مِعْزًى مَطِيرَةٌ فِي حِفْشٍ فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ بِأَرْضٍ مُسْبِعَةٍ، فَوَاللَّهِ مَا اخْتَلَفُوا فِي نُقْطَةٍ إِلَّا طَارَ أَبِي بِحَظِّهَا وَعَنَائِهَا وَفَضْلِهَا.

وقال ابن المديني: إن الله نصر هذا الدين بأبي بكر في الفتنة... فقاتل اللهُ من أبغض الصِّدِيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أو سبه ألا إن من سبه كافر هاوٍ في مكان سحيق.

٨- معرفة تضحية الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وتفانيهم في نشر الدين وحمايته.

٨- خريطة: موقعة حديقة الموت





المعركة الفاصلة السادسة: معركة اليرموك

قال ابن كثير رحمه الله : بسم الله الرّحمن الرّحيم سنة ثلاث عشرة من الهجرة اسْتَهَلَّتْ هَذِهِ السَّنَةُ وَالصِّدِّيقُ عَازِمٌ عَلَى جَمْعِ الْجُنُودِ لِيَبْعَثَهُمْ إِلَى الشَّامِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَرْجِعِهِ من الحج عَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾[سورة التوبة:١٢٣].وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [سورة التوبة:٢٩]. وَاقْتِدَاءً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ جَمَعَ الْمُسْلِمِينَ لِغَزْوِ الشَّامِ- وَذَلِكَ عَامَ تَبُوكَ- حَتَّى وَصَلَهَا فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَجَهْدٍ، فرجع عامه ذلك، ثم بعث قبل موته أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ مَوْلَاهُ لِيَغْزُوَ تُخُومَ الشَّامِ كَمَا تَقَدَّمَ. وَلَمَّا فَرَغَ الصِّدِّيقُ مِنْ أَمْرِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بَسَطَ يَمِينَهُ إِلَى الْعِرَاقِ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ إِلَى الشَّامِ كَمَا بَعَثَ إِلَى الْعِرَاقِ، فَشَرَعَ فِي جَمْعِ الْأُمَرَاءِ فِي أَمَاكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ. وَكَانَ قَدِ اسْتَعْمَلَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ عَلَى صَدَقَاتِ قُضَاعَةَ مَعَهُ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ فِيهِمْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ يَسْتَنْفِرُهُ إِلَى الشَّامِ: «إِنِّي كُنْتُ قَدْ رَدَدْتُكَ عَلَى الْعَمَلِ الَّذِي وَلَّاكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّةً، وَسَمَّاهُ لَكَ أُخْرَى، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَنْ أُفَرِّغَكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ فِي حَيَاتِكَ وَمَعَادِكَ مِنْهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ أَحَبَّ إِلَيْكَ» فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: إِنِّي سَهْمٌ من سهام الإسلام، وأنت عبد اللَّهِ الرَّامِي بِهَا، وَالْجَامِعُ لَهَا، فَانْظُرْ أَشَدَّهَا وَأَخْشَاهَا فَارْمِ بِي فِيهَا. وَكَتَبَ إِلَى الْوَلِيدِ بن عقبة

بمثل ذلك ورد عليه مثله، وأقبلا بعد ما اسْتَخْلَفَا فِي عَمَلِهِمَا، إِلَى الْمَدِينَةِ. وَقَدِمَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ مِنَ الْيَمَنِ فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ وَلَمَّا اجْتَمَعَ عِنْدَ الصِّدِّيقِ مِنَ الْجُيُوشِ مَا أَرَادَ قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ حَثَّ النَّاسَ عَلَى الْجِهَادِ فَقَالَ: أَلَا لِكُلِّ أَمْرٍ جَوَامِعُ، فَمَنْ بَلَغَهَا فَهِيَ حَسْبُهُ، وَمَنْ عَمِلَ للَّه كَفَاهُ اللَّهُ، عَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْقَصْدِ فَإِنَّ الْقَصْدَ أَبْلَغُ، أَلَا إِنَّهُ لَا دِينَ لِأَحَدٍ لَا إِيمَانَ لَهُ، وَلَا إِيمان لمن لا خشية لَهُ، وَلَا عَمَلَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُحِبَّ أَنْ يُخَصَّ بِهِ، هِيَ النجاة التي دل الله عليها، إذ نجى بِهَا مِنَ الْخِزْيِ، وَأَلْحَقَ بِهَا الْكَرَامَةَ. ثُمَّ شَرَعَ الصِّدِّيقُ فِي تَوْلِيَةِ الْأُمَرَاءِ وَعَقْدِ الْأَلْوِيَةِ وَالرَّايَاتِ.

فَيُقَالُ **إِنْ أَوَّلَ لِوَاءٍ عَقَدَهُ لِخَالِدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَوَلَّاهُ أَرْضَ «تَيْمَاءَ» يَكُونُ بِهَا فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُ أَمْرُهُ.

ثُمَّ عَقَدَ لِوَاءَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمَعَهُ جُمْهُورُ النَّاسِ، وَمَعَهُ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَشْبَاهُهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَخَرَجَ مَعَهُ مَاشِيًا يُوصِيهِ بِمَا اعْتَمَدَهُ فِي حَرْبِهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَجَعَلَ لَهُ دِمَشْقَ.

وَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى جُنْدٍ آخَرَ، وَخَرَجَ مَعَهُ مَاشِيًا يُوصِيهِ، وَجَعَلَ لَهُ نِيَابَةَ حِمْصَ.

وَبَعَثَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَعَهُ جُنْدٌ آخَرُ وَجَعَلَهُ عَلَى فِلَسْطِينَ. وَأَمَرَ كُلَّ أَمِيرٍ أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقًا غَيْرَ طَرِيقِ الْآخَرِ، لِمَا لَحَظَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ. وَكَانَ الصِّدِّيقُ اقْتَدَى فِي ذَلِكَ بِنَبِيِّ اللَّهِ يَعْقُوبَ ﷺ حِينَ قَالَ لِبَنِيهِ: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ [سورة يوسف:٦٧].

تاريخ بداية بعث الجيوش

وَكَانَ بَعْثُ أَبِي بَكْرٍ هَذِهِ الْجُيُوشَ فِي أَوَّلِ سَنَةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ

إِسْحَاقَ عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ: خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَاشِيًا وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ رَاكِبًا فَجَعَلَ، يُوصِيهِ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: أُقْرِئُكَ السَّلَامَ وأستودعك الله، ثم انصرف ومضى يزيد وأجدّ السير فَكَانَ سُلُوكُ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى تَبُوكَ، ثُمَّ تبعه أَبُو عُبَيْدَةَ ، فَسَلَك غير ذَلِكَ الطَّرِيقَ. وَخَرَجَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ حَتَّى نزل العرمات مِنْ أَرْضِ الشَّامِ. وَيُقَالُ إِنَّ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ نَزَلَ الْبَلْقَاءَ أَوَّلًا. وَنَزَلَ شُرَحْبِيلُ بِالْأُرْدُنِّ، وَيُقَالُ بِبُصْرَى. وَنَزَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِالْجَابِيَةِ. وَجَعَلَ الصِّدِّيقُ يُمِدُّهُمْ بِالْجُيُوشِ، وَأَمَرَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَنْضَافَ إِلَى مَنْ أَحَبَّ مِنَ الْأُمَرَاءِ.

وَيُقَالُ إِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ لَمَّا مر بأرض الْبَلْقَاءِ قَاتَلَهُمْ حَتَّى صَالَحُوهُ **وَكَانَ أَوَّلَ صُلْحٍ وَقَعَ بِالشَّامِ.**

وَيُقَالُ إِنَّ أَوَّلَ حَرْبٍ وَقَعَ بِالشَّامِ أَنَّ الرُّومَ اجْتَمَعُوا بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ العرية من أرض فلسطين، فوجه اليهم أَبَا أُمَامَةَ فِي سَرِيَّةٍ فَقَتَلَهُمْ وَغَنِمَ مِنْهُمْ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ بِطَرِيقًا عَظِيمًا. **ثُمَّ** كَانَتْ بَعْدَ هذه وقعة مرج الصفراء[أو الصُفَّر] اسْتُشْهِدَ فِيهَا خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَيُقَالُ إِنَّ الَّذِي اسْتُشْهِدَ في مرج الصفراء ابن الخالد بْنِ سَعِيدٍ، وَأَمَّا هُوَ فَفَرَّ حَتَّى انْحَازَ إِلَى أَرْضِ الْحِجَازِ فالله أَعْلَمُ، حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَلَمَّا انْتَهَى خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ إِلَى تَيْمَاءَ اجْتَمَعَ لَهُ جُنُودٌ مِنَ الرُّومِ فِي جَمْعٍ كَثِيرٍ مِنْ نَصَارَى العرب، من غبراء، وَتَنُوخَ، وَبَنِي كَلْبٍ، وَسَلِيحٍ، وَلَخْمٍ وَجُذَامَ، وَغَسَّانَ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ، فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْهُمْ تَفَرَّقُوا عَنْهُ وَدَخَلَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي الإسلام، وبعث إلى الصديق يعلمه بِمَا وَقَعَ مِنَ الْفَتْحِ، فَأَمَرَهُ الصِّدِّيقُ أَنْ يتقدم ولا يحجم، وأمده بالوليد بن عتبة وَعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ وَجَمَاعَةٍ، فَسَارَ إِلَى قريب من إيلياء فَالْتَقَى هُوَ وَأَمِيرٌ مَنِ الرُّومِ يُقَالُ لَهُ ماهان فكسره، ولجأ ماهان إِلَى دِمَشْقَ، فَلَحِقَهُ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ، وَبَادَرَ الجيوش إلى لحوق دمشق فوصلوا إلى مرج الصفراء فانطوت عليه مسالح ماهان وأخذوا عليهم الطريق، وزحف

ماهان فَفَرَّ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ، فَلَمْ يَرِدْ إِلَى ذِي الْمَرْوَةِ. وَاسْتَحْوَذَ الرُّومُ عَلَى جَيْشِهِمْ إِلَّا مَنْ فَرَّ عَلَى الْخَيْلِ، وَثَبَتَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَقَدْ تَقَهْقَرَ عَنِ الشَّامِ قَرِيبًا وَبَقِيَ رِدْءًا لِمَنْ نَفَرَ إِلَيْهِ.

وَأَقْبَلَ شُرَحْبِيلُ بن حَسَنَةَ مِنَ الْعِرَاقِ مِنْ عِنْدِ خَالِدِ بْنِ الوليد إلى الصديق، فأمره على جيشه وَبَعَثَهُ إِلَى الشَّامِ، فَلَمَّا مَرَّ بِخَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ بِذِي الْمَرْوَةِ، أَخَذَ جُمْهُورَ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ هَرَبُوا مَعَهُ إِلَى ذِي الْمَرْوَةِ. ثُمَّ اجْتَمَعَ عِنْدَ الصِّدِّيقِ طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ وَأَرْسَلَهُ وَرَاءَ أَخِيهِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ. وَلَمَّا مَرَّ بِخَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ أَخَذَ مَنْ كَانَ بَقِيَ مَعَهُ بِذِي الْمَرْوَةِ إِلَى الشَّامِ. ثُمَّ أَذِنَ الصِّدِّيقُ لِخَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ فِي الدُّخُولِ إِلَى الْمَدِينَةِ.

ما قبل وَقْعَةِ الْيَرْمُوكِ وذكر أمراء الأجناد:

لَمَّا تَوَجَّهَتْ هَذِهِ الْجُيُوشُ نَحْوَ الشَّامِ أَفْزَعَ ذَلِكَ الرُّومَ وَخَافُوا خَوْفًا شَدِيدًا، وَكَتَبُوا إِلَى هِرَقْلَ يُعْلِمُونَهُ بِمَا كَانَ مِنَ الْأَمْرِ. فَيُقَالُ إنه كان يومئذ بمحص، ويقال: كَانَ حَجَّ عَامَهُ ذَلِكَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ. فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ الْخَبَرُ. قَالَ لَهُمْ: وَيْحَكُمْ إِنَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ دِينٍ جَدِيدٍ، وَإِنَّهُمْ لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِهِمْ، فَأَطِيعُونِي وَصَالِحُوهُمْ بِمَا تُصَالِحُونَهُمْ عَلَى نِصْفِ خَرَاجِ الشَّامِ وَيَبْقَى لَكُمْ جِبَالُ الرُّومِ، وَإِنْ أَنْتُمْ أَبَيْتُمْ ذَلِكَ أَخَذُوا مِنْكُمُ الشَّامَ وَضَيَّقُوا عَلَيْكُمْ جِبَالَ الرُّومِ. فَنَخَرُوا مِنْ ذَلِكَ نَخْرَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ كَمَا هِيَ عَادَاتُهُمْ فِي قِلَّةِ الْمَعْرِفَةِ وَالرَّأْيِ بِالْحَرْبِ وَالنُّصْرَةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا. فَعِنْدَ ذَلِكَ سَارَ إِلَى حِمْصَ وَأَمَرَ هِرَقْلُ بِخُرُوجِ الْجُيُوشِ الرُّومِيَّةِ صُحْبَةَ الْأُمَرَاءِ، فِي مُقَابَلَةِ كُلِّ أَمِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَيْشٌ كثيف.

١ -فبعث إلى عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخًا له لِأَبَوَيْهِ اسمه «تَذَارِقَ» فِي تِسْعِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُقَاتِلَةِ.

٢- وبعث جرجة بن بوذيها إِلَى نَاحِيَةِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَعَسْكَرَ بإزائه في خمسين ألفا أو ستين ألفًا.

٣- وبعث الدراقص إلى شرحبيل بن حسنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٤- وبعث القيقار ويقال القيقلان- قال ابن إسحاق وهو خصي هرقل نستور- فِي سِتِّينَ أَلْفًا إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَتِ الرُّومُ: وَاللَّهِ لنشغلن أَبَا بَكْرٍ عَنْ أَنْ يُورِدَ الْخُيُولَ إِلَى أَرْضِنَا. وَجَمِيعُ عَسَاكِرِ الْمُسْلِمِينَ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا سِوَى الْجَيْشِ الَّذِي مَعَ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ. وَكَانَ وَاقِفًا فِي طَرَفِ الشَّامِ رِدْءًا لِلنَّاسِ فِي سِتَّةِ آلَافٍ.

وصية الخليفة للجيوش

فَكَتَبَ الْأُمَرَاءُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ يُعْلِمُونَهُمَا بِمَا وَقَعَ مِنَ الْأَمْرِ العظيم، فكتب إليهم أن اجتمعوا وكونوا جندًا واحدًا والقوا جنود المشركين، فأنتم أنصار اللَّهِ وَاللَّهُ نَاصِرٌ مَنْ نَصَرَهُ، وَخَاذِلٌ مَنْ كَفَرَهُ، وَلَنْ يُؤْتَى مِثْلُكُمْ عَنْ قِلَّةٍ، وَلَكِنْ مِنْ تِلْقَاءِ الذُّنُوبِ فَاحْتَرِسُوا مِنْهَا، وَلْيُصَلِّ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِأَصْحَابِهِ.

ترتيب جيش الروم

وَلَمَّا بَلَغَ هِرَقْلَ مَا أَمَرَ بِهِ الصِّدِّيقُ أُمَرَاءَهُ مِنَ الِاجْتِمَاعِ، بَعَثَ إِلَى أُمَرَائِهِ أَنْ يَجْتَمِعُوا أَيْضًا وَأَنْ يَنْزِلُوا بِالْجَيْشِ مَنْزِلًا وَاسِعَ الْعَطَنِ، وَاسِعَ الْمَطْرَدِ، ضَيِّقَ الْمَهْرَبِ،

١- وَعَلَى النَّاسِ أَخُوهُ تَذَارِقُ.

٢- وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ جَرَجَةُ.

٣- ٤- وَعَلَى الْمُجَنِّبَتَيْنِ بَاهَانُ وَالدُّرَاقِصُ.

٥- وَعَلَى الْحَرْبِ الْقَيْقَلَانُ.

فَسَارَتِ الرُّومُ فَنَزَلُوا الْوَاقُوصَةَ قَرِيبًا مِنَ الْيَرْمُوكِ، وَصَارَ الْوَادِي خَنْدَقًا [لهم، وهو لهب لا يدرك]. وَبَعَثَ الصَّحَابَةُ إِلَى الصِّدِّيقِ يَسْتَمِدُّونَهُ وَيُعْلِمُونَهُ بِمَا اجْتَمَعَ مِنْ جَيْشِ الرُّومِ بِالْيَرْمُوكِ.

فَقَالَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَاللَّهِ لَأَشْغَلَنَّ النصارى عن وساوس الشيطان بخالد

بْنِ الْوَلِيدِ. وَبَعَثَ إِلَيْهِ وَهُوَ بِالْعِرَاقِ لِيَقْدَمَ إِلَى الشَّامِ فَيَكُونَ الْأَمِيرَ عَلَى مَنْ بِهِ، فَإِذَا فَرَغَ عَادَ إِلَى عَمَلِهِ بِالْعِرَاقِ، [ففعل خالد] فَاسْتَنَابَ الْمُثَنَّى بْنَ حَارِثَةَ عَلَى الْعِرَاقِ وسار خالد مسرعًا في تسعة آلاف وخمسمائة، وَدَلِيلُهُ رَافِعُ بْنُ عُمَيْرَةَ الطَّائِيُّ، فَأَخَذَ بِهِ على السماوة حَتَّى انْتَهَى إِلَى قُرَاقِرَ، وَسَلَكَ بِهِ أَرَاضِيَ لَمْ يَسْلُكْهَا قَبْلَهُ أَحَدٌ، فَاجْتَابَ الْبَرَارِيَّ وَالْقِفَارَ، وَقَطَعَ الْأَوْدِيَةَ، وَتَصَعَّدَ عَلَى الْجِبَالِ، وَسَارَ فِي غَيْرِ مَهْيَعٍ، وَجَعَلَ رَافِعٌ يَدُلُّهُمْ فِي مَسِيرِهِمْ على الطريق وهو في مفاوز معطشة، وَعَطَّشَ النُّوقَ وَسَقَاهَا الْمَاءَ عَلَلًا بَعْدَ نَهَلٍ[1]، وقطع مشافرها وكعمها حتى لا تحتز رحل أَدْبَارَهَا، وَاسْتَاقَهَا مَعَهُ، فَلَمَّا فَقَدُوا الْمَاءَ نَحَرَهَا فَشَرِبت الْخَيْلُ مَا فِي أَجْوَافِهَا مِنَ الْمَاءِ، وَشَرِب الناس مَا كَانَتْ تَحْمِلُهُ مِنَ الْمَاءِ وَأَكَلُوا لُحُومَهَا، وَقَدْ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَسِيرِهِمْ هَذَا مَعَ خَالِدٍ:

لله عينا رافع أنى اهتدى ❁❁❁ قرفون من قراقر إلى شوى
خمسًا إذا ما ساره الْجَيْشُ بَكَى ❁❁❁ مَا سَارَهَا قَبْلَكَ إِنْسِيٌّ أَرَى

❁ وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْعَرَبِ قَالَ لَهُ فِي هَذَا الْمَسِيرِ: إِنْ أَنْتَ أَصْبَحْتَ عِنْدَ الشَّجَرَةِ الْفُلَانِيَّةِ نَجَوْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ، وَإِنْ لَمْ تُدْرِكْهَا هَلَكْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ، فَسَارَ خَالِدٌ بِمَنْ مَعَهُ وَسَرَوْا سَرْوَةً عَظِيمَةً فَأَصْبَحُوا عِنْدَهَا، فَقَالَ خَالِدٌ: **عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى.** فَأَرْسَلَهَا مَثَلًا، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ قَالَهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَوَصَلَ ولله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ فِي خَمْسَةِ أَيَّامٍ، فَخَرَجَ عَلَى الرُّومِ من ناحية تدمر فصالح أهل تدمر وأركة، وَلَمَّا مَرَّ بِعَذْرَاءَ أَبَاحَهَا وَغَنِمَ لِغَسَّانَ أَمْوَالًا عَظِيمَةً وَخَرَجَ مِنْ شَرْقِيِّ دِمَشْقَ.

أول مدينة فتحت من الشام

ثُمَّ سَارَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَنَاةِ بُصْرَى فَوَجَدَ الصَّحَابَةَ تحاربها فَصَالَحَهُ صَاحِبُهَا وَسَلَّمَهَا إِلَيْهِ، فَكَانَتْ أَوَّلَ مَدِينَةٍ فُتِحَتْ مِنَ الشَّامِ ولله الْحَمْدُ.

---

(١) العلل: الشربة الثانية،والنهل: الشربة الأولى.

وَبَعَثَ خَالِدٌ بِأَخْمَاسِ مَا غَنِمَ مِنْ غَسَّانَ مَعَ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُزَنِيِّ إِلَى الصِّدِّيقِ.

[معركة في الطريق إلى النصر الأكبر]

ثُمَّ سَارَ خَالِدٌ وَأَبُو عبيدة ومرثد وَشُرَحْبِيلُ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ- وَقَدْ قَصَدَهُ الروم بأرض العربا من المعور- فَكَانَتْ **وَاقِعَةُ أَجْنَادِينَ**. وكانت قَبْلَ وَقْعَةِ الْيَرْمُوكِ [جرت] لِلَيْلَتَيْنِ بَقِيَتَا مِنْ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَقُتِلَ بِهَا بَشَرٌ كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَهُزِمَ الرُّومُ وَقُتِلَ أَمِيرُهُمُ الْقَيْقَلَانُ[وقيل بل قتل في اليرموك]. وَكَانَ قد بعث رجلًا من نصارى العرب يحبس لَهُ أَمْرَ الصَّحَابَةِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَيْهِ قَالَ: وَجَدْتُ قَوْمًا رُهْبَانًا بِاللَّيْلِ فُرْسَانًا بِالنَّهَارِ، وَاللَّهِ لو سرق فيهم ابن ملكهم لقطعوه، أَوْ زَنَى لَرَجَمُوهُ. فَقَالَ لَهُ الْقَيْقَلَانُ: وَاللَّهِ لَئِنْ كُنْتَ صَادِقًا لَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ ظَهْرِهَا.

* وحِينَ اجْتَمَعَتِ الرُّومُ مَعَ أُمَرَائِهَا بِالْوَاقُوصَةِ وَانْتَقَلَ الصَّحَابَةُ مِنْ مَنْزِلِهِمُ الَّذِي كَانُوا فِيهِ فَنَزَلُوا قَرِيبًا مِنَ الرُّومِ فِي طَرِيقِهِمُ الَّذِي لَيْسَ لَهُمْ طَرِيقٌ غَيْرُهُ،فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: أَبْشِرُوا أَيُّهَا النَّاسُ، فَقَدْ حُصِرَتْ وَاللَّهِ الرُّومُ، وَقَلَّمَا جَاءَ مَحْصُورٌ بِخَيْرٍ. وَيُقَالُ إِنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا اجْتَمَعُوا لِلْمَشُورَةِ فِي كَيْفِيَّةِ الْمَسِيرِ إِلَى الرُّومِ، جَلَسَ الْأُمَرَاءُ لِذَلِكَ فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي أُعَمَّرُ حَتَّى أُدْرِكَ قَوْمًا يَجْتَمِعُونَ لِحَرْبٍ وَلَا أَحْضُرُهُمْ، ثُمَّ أَشَارَ أَنْ يَتَجَزَّأَ الْجَيْشُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ، فَيَسِيرُ ثُلُثُهُ فَيَنْزِلُونَ تُجَاهَ الرُّومِ، ثُمَّ تَسِيرُ الْأَثْقَالُ وَالذَّرَارِيُّ فِي الثُّلُثِ الْآخَرِ، وَيَتَأَخَّرُ خَالِدٌ بِالثُّلُثِ الْآخِرِ حَتَّى إِذَا وَصَلَتِ الْأَثْقَالُ إِلَى أُولَئِكَ سَارَ بَعَدَهُمْ وَنَزَلُوا فِي مَكَانٍ تَكُونُ الْبَرِّيَّةُ مِنْ وراء ظهورهم لتصل إِلَيْهِمُ الْبُرُدُ وَالْمَدَدُ. فَامْتَثَلُوا مَا أَشَارَ بِهِ وَنِعْمَ الرَّأْيُ هُوَ. فذُكِرَ أَنَّ الرُّومَ نَزَلُوا فِيمَا بَيْنَ دَيْرِ أَيُّوبَ وَالْيَرْمُوكَ، وَنَزَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وَأَذْرِعَاتُ خَلْفَهُمْ لِيَصِلَ إِلَيْهِمُ الْمَدَدُ مِنَ الْمَدِينَةِ. ويقال إن خالدًا إنما قدم عليهم بعد ما نزل الصحابة تجاه الروم بعد ما صَابَرُوهُمْ وَحَاصَرُوهُمْ شَهْرًا بِكَمَالِهِ، فَلَمَّا انْسَلَخَ وَأَمْكَنَ الْقِتَالُ لِقِلَّةِ الْمَاءِ بَعَثُوا إِلَى الصِّدِّيقِ

يَسْتَمِدُّونَهُ فَقَالَ: خَالِدٌ لَهَا.

وصول خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من العراق وذكر عدد الجيشين

فَبَعَثَ إِلَى خَالِدٍ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ فَعِنْدَ وصول خالد إليهم أقبل ماهان مَدَدًا لِلرُّومِ وَمَعَهُ الْقَسَاقِسَةُ، وَالشَّمَامِسَةُ وَالرُّهْبَانُ يَحُثُّونَهُمْ وَيُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ لِنَصْرِ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ، فَتَكَامَلَ جَيْشُ الرُّومِ أَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْ أَلْفٍ : ثَمَانُونَ أَلْفَ مُسَلْسَلٍ بِالْحَدِيدِ وَالْجِبَالِ، وَثَمَانُونَ أَلْفَ فَارِسٍ وَثَمَانُونَ أَلْفَ رَاجِلٍ وَقِيلَ بَلْ كَانَ الَّذِينَ تَسَلْسَلُوا كُلُّ عَشَرَةٍ سِلْسِلَةٍ لِئَلَّا يَفِرُّوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا، فاللَّه أَعْلَمُ.

وَقَدِمَ عِكْرِمَةُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجُيُوشِ **فَتَكَامَلَ جَيْشُ الصَّحَابَةِ سِتَّةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا إِلَى الْأَرْبَعِينَ أَلْفًا**. وَوَجَدَ خَالِدٌ الْجُيُوشَ مُتَفَرِّقَةً فَجَيْشُ أَبِي عُبَيْدَةَ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ نَاحِيَةً، وَجَيْشُ يَزِيدَ وَشُرَحْبِيلَ نَاحِيَةً. فَقَامَ خَالِدٌ فِي النَّاسِ خَطِيبًا. فَأَمَرَهُمْ بِالِاجْتِمَاعِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ. فَاجْتَمَعَ النَّاسُ وَتَصَافُّوا مَعَ عَدُوِّهِمْ فِي أَوَّلِ جُمَادَى الْآخِرَةِ وَقَامَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي النَّاسِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: إِنَّ هَذَا يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ، لَا يَنْبَغِي فِيهِ الْفَخْرُ وَلَا الْبَغْيُ، أَخْلِصُوا جِهَادَكُمْ وَأَرِيدُوا اللَّهَ بِعَمَلِكُمْ، وإن هذا يوم له ما بعده لو رَدَدْنَاهُمُ الْيَوْمَ إِلَى خَنْدَقِهِمْ فَلَا نَزَالُ نَرُدُّهُمْ، وَإِنْ هَزَمُونَا لَا نُفْلِحُ بَعْدَهَا أَبَدًا، فَتَعَالَوْا فَلْتَتَعَاوَرِ الْإِمَارَةَ فَلْيَكُنْ عَلَيْهَا بَعْضُنَا الْيَوْمَ وَالْآخَرُ غَدًا وَالْآخَرُ بَعْدَ غَدٍ، حَتَّى يَتَأَمَّرَ كُلُّكُمْ، وَدَعُونِي الْيَوْمَ أَلِيكُمْ، فَأَمَّرُوهُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ الْأَمْرَ يَطُولُ جِدًّا.

ترتيب الجيشين

فَخَرَجَتِ الرُّومُ فِي تعبئة لم ير مثلها قبلها قَطُّ وَخَرَجَ خَالِدٌ فِي تَعْبِئَةٍ لَمْ تُعَبِّهَا الْعَرَبُ قَبْلَ ذَلِكَ. فَخَرَجَ فِي سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ كُرْدُوسًا إِلَى الْأَرْبَعِينَ كُلُّ كُرْدُوسٍ أَلْفُ رَجُلٍ عَلَيْهِمْ أَمِيرٌ.

١- فَجَعَلَ الْقَلْبَ كَرَادِيسَ، وَأَقَامَ فِيهِ أَبَا عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- وَجَعَلَ الْمَيْمَنَةَ كَرَادِيسَ وَعَلَيْهَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَفِيهَا شُرَحْبِيلُ بْنُ

حَسَنَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقيل: جعل مُعَاذ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣- وَجَعَلَ الْمَيْسَرَةَ كَرَادِيسَ وَعَلَيْهَا يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقيل: نفاثة بن أسامة الكناني وَأَمَّرَ عَلَى كُلِّ كُرْدُوسٍ أَمِيرًا.

٤- وَعَلَى الطَّلَائِعِ قباث بْنَ أَشْيَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- وَعَلَى الْخَيَّالَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ الْمُشِيرُ فِي الْحَرْبِ الَّذِي يَصْدُرُ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَنْ رَأْيِهِ.

٦- وزاد ابن إسحاق فقال على الرجالة هاشم بن عتبة بن أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧- وَعَلَى الْأَقْبَاضِ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٨- وَالْقَاضِي يَوْمَئِذٍ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٩- وَقَاصُّهُمُ الَّذِي يَعِظُهُمْ وَيَحُثُّهُمْ عَلَى الْقِتَالِ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٠- وَقَارِئُهُمِ الَّذِي يَدُورُ عَلَى النَّاسِ فَيَقْرَأُ سُورَةَ الْأَنْفَالِ وَآيَاتِ الْجِهَادِ الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال الطبري: ومن السنة التي سن رسول الله ﷺ بعد بدر أن تقرأ سورة الجهاد عند اللقاء، وهي الأنفال، ولم يزل الناس بعد ذلك على ذلك.اهـ [(١)].

قلت: أما اليوم فإلى الله المشتكى من توجيه المسلمين بالغناء، وبذلك يجمع للمقاتل بين سبب سوء الخاتمة،واشتداد البلاء وحصول النكبات بالمعصية.

أما الكراديس فهي داخلة تحت هذا التقسيم ولكل واحد منها أمير وهي كالتالي:

«قَالَ خالد: إِنَّ عدوكم قد كثر وطغى، وليس من التعبئة تعبئة أكثر في رَأْيِ الْعَيْنِ مِنَ الْكَرَادِيسِ.

١- وَكَانَ عَلَى كُرْدُوسٍ مِنْ كَرَادِيسِ أَهْلِ الْعِرَاقِ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- وَعَلَى كُرْدُوسٍ مَذْعُورُ بْنُ عَدِيٍّ

---

(١) تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (٣/ ٣٩٧).

٣- وَعِيَاضُ بْنُ غَنْمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى كُرْدُوسٍ
٤- وَهَاشِمُ بْنُ عُتْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى كُرْدُوسٍ
٥- وَزِيَادُ بْنُ حَنْظَلَةَ عَلَى كُرْدُوسٍ
٦- وَخَالِدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي كُرْدُوسٍ
٧- ودحية بْنُ خَلِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى كُرْدُوسٍ
٨- وَامْرُؤُ الْقَيْسِ عَلَى كُرْدُوسٍ
٩- وَيَزِيدُ بْنُ يُحَنَّسَ عَلَى كُرْدُوسٍ
١٠- وَأَبُو عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى كُرْدُوسٍ
١١- وَعِكْرِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى كُرْدُوسٍ.
١٢- وَسُهَيْلٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى كُرْدُوسٍ.
١٣- وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدٍ عَلَى كُرْدُوسٍ- وَهُوَ يَوْمَئِذٍ ابْنُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً-
١٤- وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى كُرْدُوسٍ.
١٥- وَسَعِيدُ بْنُ خَالِدٍ عَلَى كُرْدُوسٍ.
١٦- وَأَبُو الأَعْوَرِ بْنُ سُفْيَانَ عَلَى كُرْدُوسٍ.
١٧- وَابْنُ ذِي الْخِمَارِ عَلَى كُرْدُوسٍ.
١٨- **وَفِي الْمَيْمَنَةِ:** عمارة بن مخشى ابن خُوَيْلِدٍ عَلَى كُرْدُوسٍ.
١٩- وَشُرَحْبِيلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على كردوس وَمَعَهُ خالد بن سَعِيدٍ.
٢٠- وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ عَلَى كُرْدُوسٍ.
٢١- وَعَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى كُرْدُوسٍ.
٢٢- وَالسِّمْطُ بْنُ الأَسْوَدِ عَلَى كُرْدُوسٍ.
٢٣- وَذُو الْكلاعِ عَلَى كُرْدُوسٍ.
٢٤- وَمُعَاوِيَةُ بْنُ حُدَيْجٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى آخَرَ.
٢٥- وَجُنْدُبُ بْنُ عَمْرِو بْنِ حُمَمَةَ عَلَى كُرْدُوسٍ.

٢٦- وَعَمْرُو بْنُ فُلانٍ عَلَى كُرْدُوسٍ.
٢٧- وَلَقِيطُ بْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ بُجْرَةَ حَلِيفٌ لِبَنِي ظُفَرَ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ عَلَى كُرْدُوسٍ.
٢٨- **وَفِي الْمَيْسَرَةِ:** يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَلَى كُرْدُوسٍ
٢٩- وَالزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى كُرْدُوسٍ
٣٠- وَحَوْشَبُ ذُو ظُلَيْمٍ عَلَى كُرْدُوسٍ
٣١- وَقَيْسُ بْنُ عَمْرِو بْنِ زَيْدِ بْنِ عَوْفِ بْنِ مَبْذُولِ بْنِ مَازِنِ بْنِ صَعْصَعَةَ مِنْ هَوَازِنَ- حَلِيفٌ لِبَنِي النَّجَّارِ- عَلَى كُرْدُوسٍ.
٣٢- وَعِصْمَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ- حَلِيفٌ لِبَنِي النَّجَّارِ مِنْ بَنِي أَسَدٍ- عَلَى كُرْدُوسٍ
٣٤- وَضِرَارُ بْنُ الأَزْوَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى كُرْدُوسٍ
٣٥- وَمَسْرُوقُ بْنُ فُلانٍ عَلَى كُرْدُوسٍ
٣٦- وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ بَهْزٍ- حَلِيفٌ لِبَنِي عِصْمَةَ- عَلَى كُرْدُوسٍ
٣٧- وَجَارِيَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الأَشْجَعِيُّ- حَلِيفٌ لِبَنِي سَلَمَةَ- عَلَى كُرْدُوسٍ
٣٨- وَقَبَاثٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. عَلَى كُرْدُوسٍ
٣٩- وَحَبِيبُ بْنُ مَسْلَمَةَ عَلَى كُرْدُوسٍ»(١).

وَلَمَّا أَقْبَلَتِ الرُّومُ فِي خُيَلَائِهَا وَفَخْرِهَا قَدْ سَدَّتْ أَقْطَارَ تِلْكَ الْبُقْعَةِ سَهْلِهَا وَوَعْرِهَا كَأَنَّهُمْ غَمَامَةٌ سَوْدَاءُ يَصِيحُونَ بِأَصْوَاتٍ مُرْتَفِعَةٍ وَرُهْبَانُهُمْ يَتْلُونَ الْإِنْجِيلَ وَيُحَثُّونَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ، وَكَانَ خَالِدٌ فِي الْخَيْلِ بَيْنَ يَدَيِ الْجَيْشِ فَسَاقَ بِفَرَسِهِ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ فَقَالَ لَهُ: إني مشير بأمر، فقال: قل ما أمرك الله أسمع لك وأطيع. فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ حَمْلَةٍ عَظِيمَةٍ لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا، وَإِنِّي أَخْشَى عَلَى

(١) [«تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري» (٣/ ٣٩٦)] ومعنى كراديس كتائب أو فرق.

الْمَيْمَنَةِ وَالْمَيْسَرَةِ وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُفَرِّقَ الْخَيْلَ فِرْقَتَيْنِ وَأَجْعَلَهَا وَرَاءِ الْمَيْمَنَةِ وَالْمَيْسَرَةِ حَتَّى إِذَا صَدَمُوهُمْ كَانُوا لهم ردءًا فنأتيهم مِنْ وَرَائِهِمْ. فَقَالَ: لَهُ نِعْمَ مَا رَأَيْتَ. فَكَانَ خَالِدٌ فِي أَحَدِ الْخَيْلَيْنِ مِنْ وَرَاءِ الْمَيْمَنَةِ وَجَعَلَ قَيْسَ بْنَ هُبَيْرَةَ فِي الْخَيْلِ الْأُخْرَى وَأَمَرَ أَبَا عُبَيْدَةَ أَنْ يَتَأَخَّرَ عَنِ الْقَلْبِ إِلَى وَرَاءِ الْجَيْشِ كُلِّهِ لِكَيْ إِذَا رآه المنهزم استحى مِنْهُ وَرَجَعَ إِلَى الْقِتَالِ، فَجَعَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ مكانه في القلب سَعِيدَ بْنَ زَيْدٍ أَحَدَ الْعَشْرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَسَاقَ خَالِدٌ إِلَى النِّسَاءِ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ وَمَعَهُنَّ عَدَدٌ مِنَ السُّيُوفِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَوْقِفِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[الحث والتذكير وشحذ الهمم قبل القتال]

وَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ وَتَبَارَزَ الْفَرِيقَانِ

١- وَعَظَ أَبُو عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: عِبَادَ اللَّهِ انْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ، يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ اصْبِرُوا فَإِنّ الصَّبْرَ مَنْجَاةٌ مِنَ الْكُفْرِ وَمَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ وَمَدْحَضَةٌ لِلْعَارِ وَلَا تَبْرَحُوا مَصَافَّكُمْ، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدءوهم بالقتال وشرعوا الرِّمَاحَ وَاسْتَتِرُوا بِالدَّرَقِ وَالْزَمُوا الصَّمْتَ إِلَّا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي أَنْفُسِكُمْ حَتَّى آمُرَكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

٢-قَالُوا: وَخَرَجَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى النَّاسِ فَجَعَلَ يُذَكِّرُهُمْ وَيَقُولُ يَا أهل القرآن، ومتحفظى الْكِتَابِ وَأَنْصَارَ الْهُدَى وَالْحَقِّ، إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ لَا تُنَالُ وَجَنَّتَهُ لَا تُدْخَلُ بِالْأَمَانِيِّ، وَلَا يُؤْتِي اللَّهُ الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ الْوَاسِعَةَ إِلَّا الصَّادِقَ الْمُصَدِّقَ أَلَمْ تَسْمَعُوا لِقَوْلِ اللَّهِ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [سورة النور:٥٥].فَاسْتَحْيُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ مِنْ رَبِّكُمْ أَنْ يَرَاكُمْ فُرَّارًا مِنْ عَدُوِّكُمْ وَأَنْتُمْ فِي قَبْضَتِهِ وَلَيْسَ لَكُمْ مُلْتَحَدٌ مِنْ دُونِهِ وَلَا عِزٌّ بِغَيْرِهِ.

٣-وَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ غضوا الأبصار، واجثوا على الركب، وأشرعوا الرماح، فَإِذَا حَمَلُوا عَلَيْكُمْ فَأَمْهِلُوهُمْ حَتَّى إِذَا رَكِبُوا أطراف

الأسنة فثبوا إليهم وثبة الأسد، فوالّذي يَرْضَى الصِّدْقَ وَيُثِيبُ عَلَيْهِ وَيَمْقُتُ الْكَذِبَ وَيَجْزِي بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا، لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ سَيَفْتَحُونَهَا كَفْرًا وَقَصْرًا قَصْرًا، فَلَا يَهُولَنَّكُمْ جُمُوعُهُمْ وَلَا عَدَدُهُمْ، فَإِنَّكُمْ لَوْ صَدَقْتُمُوهُمُ الشَّدَّ تَطَايَرُوا تَطَايُرَ أَوْلَادِ الْحَجَلِ.

٤-وَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْتُمُ الْعَرَبُ وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي دَارِ الْعَجَمِ مُنْقَطِعِينَ عَنِ الْأَهْلِ نَائِينَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْدَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ وَاللَّهِ أَصْبَحْتُمْ بِإِزَاءِ عَدُوٍّ كَثِيرٍ عَدَدُهُ، شَدِيدٌ عَلَيْكُمْ حَنَقُهُ، وَقَدْ وَتِرْتُمُوهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَبِلَادِهِمْ وَنِسَائِهِمْ، وَاللَّهِ لَا يُنَجِّيكُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، وَلَا يُبْلِغُ بِكُمْ رِضْوَانَ اللَّهِ غَدًا إِلَّا بِصِدْقِ اللِّقَاءِ وَالصَّبْرِ فِي الْمَوَاطِنِ الْمَكْرُوهَةِ، أَلَا وَإِنَّهَا سُنَّةٌ لَازِمَةٌ وَإِنَّ الْأَرْضَ وَرَاءَكُمْ، بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ صَحَارَي وَبَرَارِيُّ، لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا مَعْقِلٌ وَلَا مَعْدِلٌ إِلَّا الصَّبْرُ وَرَجَاءُ مَا وَعَدَ اللَّهُ فَهُوَ خَيْرُ مُعَوَّلٍ، فَامْتَنِعُوا بِسُيُوفِكُمْ وَتَعَاوَنُوا وَلْتَكُنْ هِيَ الْحُصُونُ. ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى النِّسَاءِ فَوَصَّاهُنَّ ثُمَّ عَادَ فَنَادَى: يَا مَعَاشِرَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ حَضَرَ مَا تَرَوْنَ فَهَذَا رسول الله وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ، وَالشَّيْطَانُ وَالنَّارُ خَلْفَكُمْ. ثُمَّ سَارَ إِلَى مَوْقِفِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٥-وَقَدْ وَعَظَ النَّاسَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْضًا فَجَعَلَ يَقُولُ: سَارِعُوا إِلَى الْحُورِ الْعِينِ وَجِوَارِ رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، مَا أَنْتُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فِي موطن بأحب إِلَيْهِ مِنْكُمْ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ، أَلَا وَإِنَّ لِلصَّابِرِينَ فَضْلَهُمْ.

[عدد الصحابة في هذا الجيش]

وكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَمْعِ أَلْفُ رَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ مِائَةٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ. وَجَعَلَ أَبُو سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقِفُ عَلَى كُلِّ كُرْدُوسٍ وَيَقُولُ: اللَّهَ اللَّهَ إِنَّكُمْ دَارَةُ الْعَرَبِ وَأَنْصَارُ الْإِسْلَامِ، وَإِنَّهُمْ دَارَةُ الرُّومِ وَأَنْصَارُ الشِّرْكِ، اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِكَ، اللَّهُمَّ أَنْزِلْ نَصْرَكَ عَلَى عِبَادِكَ. قَالُوا: وَلَمَّا أَقْبَلَ خَالِدٌ مِنَ الْعِرَاقِ قَالَ رَجُلٌ مِنْ نَصَارَى الْعَرَبِ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا أَكْثَرَ الرُّومَ وَأَقَلَّ الْمُسْلِمِينَ!! فَقَالَ خَالِدٌ: وَيْلَكَ، أَتُخَوِّفُنِي بِالرُّومِ؟ إِنَّمَا تَكْثُرُ الْجُنُودُ بِالنَّصْرِ، وَتَقِلُّ بِالْخِذْلَانِ لَا بِعَدَدِ الرِّجَالِ، وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أن

الأشقر برأ من توجعه، وَأَنَّهُمْ أَضْعَفُوا فِي الْعَدَدِ- وَكَانَ فَرَسُهُ قَدْ حفا وَاشْتَكَى فِي مَجِيئِهِ مِنَ الْعِرَاقِ- وَلَمَّا تَقَارَبَ النَّاسُ تَقَدَّمَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَمَعَهُمَا ضِرَارُ بْنُ الْأَزْوَرِ، وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ، وَأَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَنَادَوْا: إِنَّمَا نُرِيدُ أَمِيرَكُمْ لِنَجْتَمِعَ بِهِ، فَأُذِنَ لَهُمْ فِي الدُّخُولِ عَلَى تَذَارِقَ، وَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي خَيْمَةٍ مِنْ حَرِيرٍ. فَقَالَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: لَا نَسْتَحِلُّ دُخُولَهَا، فَأَمَرَ لَهُمْ بِفُرُشٍ بُسُطٍ مِنْ حَرِيرٍ، فَقَالُوا: وَلَا نَجْلِسُ عَلَى هَذِهِ. فَجَلَسَ مَعَهُمْ حيث أَحَبُّوا وَتَرَاضَوْا عَلَى الصُّلْحِ، وَرَجَعَ عَنْهُمُ الصَّحَابَةُ بعد ما دَعَوْهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَمْ يَتِمَّ ذلك. وذكر الوليد بن مسلم أن ماهان طَلَبَ خَالِدًا لِيَبْرُزَ إِلَيْهِ فِيمَا بَيْنَ الصَّفَّيْنِ فيجتمعا في مصلحة لهم. فقال ماهان: إِنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مَا أَخْرَجَكُمْ مِنْ بِلَادِكُمُ الْجَهْدَ وَالْجُوعَ، فَهَلُمُّوا إِلَى أَنْ أُعْطِيَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ عَشَرَةَ دَنَانِيرَ وَكِسْوَةً وَطَعَامًا وَتَرْجِعُونَ إِلَى بِلَادِكُمْ، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ بَعَثْنَا لَكُمْ بِمِثْلِهَا. فَقَالَ خَالِدٌ: إِنَّهُ لَمْ يُخْرِجْنَا مِنْ بِلَادِنَا مَا ذَكَرْتَ، غَيْرَ أَنَّا قَوْمٌ نَشْرَبُ الدِّمَاءَ، وَأَنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّهُ لَا دَمَ أَطْيَبُ مِنْ دَمِ الرُّومِ، فَجِئْنَا لذلك. فقال أصحاب ماهان: هَذَا وَاللَّهِ مَا كُنَّا نُحَدَّثُ بِهِ عَنِ الْعَرَبِ.

[وبدأت المعركة]

قَالُوا ثُمَّ تَقَدَّمَ خَالِدٌ إِلَى عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ وَالْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو- وَهُمَا عَلَى مُجَنِّبَتَيِ الْقَلْبِ- أَنْ يُنْشِئَا الْقِتَالَ، فَبَدَرَا يَرْتَجِزَانِ وَدَعَوْا إِلَى الْبِرَازِ، «وَارْتَجَزَ الْقَعْقَاعُ وَقَالَ:

يَا لَيْتَنِي أَلْقَاكَ فِي الطِّرَادِ قَبْلَ ❁❁❁ اعْتِرَامِ الْجَحْفَلِ الْوَرَّادِ
وَأَنْتَ فِي حَلَبَتِكَ الْوِرَادِ

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: (١)

قَدْ عَلِمَتْ بَهْكَنَةُ الْجَوَارِي ❁❁❁ أَنِّي عَلَى مَكْرُمَةٍ أُحَامِي

وَتَنَازَلَ الْأَبْطَالُ، وَتَجَاوَلُوا وَحَمِيَ الْحَرْبُ وَقَامَتْ عَلَى سَاقٍ. هَذَا وَخَالِدٌ مع كُرْدُوسٍ مِنَ الْحُمَاةِ الشُّجْعَانِ الْأَبْطَالِ بَيْنَ يَدَيِ الصُّفُوفِ، وَالْأَبْطَالُ يَتَصَاوَلُونَ مِنَ

(١) «تاريخ الطبري وصلة تاريخ الطبري» (٣/ ٣٩٨).

الْفَرِيقَيْنِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ يَنْظُرُ وَيَبْعَثُ إِلَى كُلِّ قَوْمٍ مِنْ أَصْحَابِهِ بِمَا يَعْتَمِدُونَهُ مِنَ الْأَفَاعِيلِ، وَيُدَبِّرُ أَمْرَ الحرب أتم تدبير. وَأَقْبَلَتِ الرُّومُ رَافِعَةً صُلْبَانَهَا وَهُمْ أَصْوَاتٌ مُزْعِجَةٌ كَالرَّعْدِ، وَالْقَسَاوِسَةُ وَالْبَطَارِقَةُ تُحَرِّضُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَهُمْ فِي عَدَدٍ وَعُدَدٍ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ، فالله الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

«وكان الأشتر قد شهد اليرموك ، فخرج يومئذ رجل من الروم، فقال: من يبارز؟ فخرج إليه الأشتر، فاختلفا ضربتين، فقال للرومي: خذها وأنا الغلام الإيادي، فقال: الرومي: أكثر الله في قومي مثلك! أما والله لو أنك من قومي لآزرت الروم، فأما الآن فلا أعينهم!» (١).

أول من سل سيفاً في سبيل الله حاضر

وَقَدْ كَانَ فِيمَنْ شَهِدَ الْيَرْمُوكَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ أَفْضَلُ مَنْ هُنَاكَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَكَانَ مِنْ فُرْسَانِ النَّاسِ وَشُجْعَانِهِمْ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَبْطَالِ يَوْمَئِذٍ فَقَالُوا: أَلَا تَحْمِلُ فَنَحْمِلَ مَعَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَا تَثْبُتُونَ، فَقَالُوا: بَلَى! فَحَمَلَ وَحَمَلُوا فَلَمَّا وَاجَهُوا صُفُوفَ الرُّومِ أَحْجَمُوا وَأَقْدَمَ هُوَ فَاخْتَرَقَ صُفُوفَ الرُّومِ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ وَعَادَ إِلَى أَصْحَابِهِ. ثُمَّ جَاءُوا إِلَيْهِ مَرَّةً ثَانِيَةً فَفَعَلَ كَمَا فَعَلَ فِي الْأُولَى، وَجُرِحَ يَوْمَئِذٍ جُرْحَيْنِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَفِي رِوَايَةٍ جُرْحٌ. وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ مَعْنَى مَا ذَكَرْنَاهُ فِي صَحِيحِهِ. وَجَعَلَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّمَا سَمِعَ أَصْوَاتَ الْقِسِّيسِينَ وَالرُّهْبَانِ يَقُولُ: اللَّهمّ زَلْزِلْ أَقْدَامَهُمْ، وَأَرْعِبْ قُلُوبَهُمْ: وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا السَّكِينَةَ، وَأَلْزِمْنَا كلمة التقوى، وحبب إلينا اللقاء، وأرضنا بالقضاء. وخرج ماهان فأمر صاحب الميسرة وهو الديرجان ، وَكَانَ عَدُوُّ اللَّهِ مُتَنَسِّكًا فِيهِمْ، فَحَمَلَ عَلَى الْمَيْمَنَةِ وَفِيهَا الْأَزْدُ وَمَذْحِجٌ وَحَضْرَمَوْتُ وَخَوْلَانُ، فَثَبَتُوا حَتَّى صَدَقُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ، ثُمَّ رَكِبَهُمْ مِنَ الرُّومِ أَمْثَالُ الْجِبَالِ. فَزَالَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمَيْمَنَةِ إِلَى ناحية القلب،

(١) «تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري» (٣/ ٤٠١).

وانكشف طائفة من الناس إلى العسكر، وثبت سور من المسلمين عظيم يقاتلون تحت راياتهم، وانكشف زُبَيْدٌ. ثُمَّ تَنَادَوْا فَتَرَاجَعُوا وَحَمَلُوا حَتَّى نَهْنَهُوا مَنْ أَمَامَهُمْ مِنَ الرُّومِ وَأَشْغَلُوهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ مَنِ انْكَشَفَ مِنَ النَّاسِ، وَاسْتَقْبَلَ النِّسَاءُ مَنِ انْهَزَمَ مِنْ سَرَعَانِ النَّاسِ يَضْرِبْنَهُمْ بِالْخَشَبِ وَالْحِجَارَةِ وَجَعَلَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ تَقُولُ:

يَا هَارِبًا عَنْ نِسْوَةٍ تَقِيَّاتِ ۞ ۞ ۞ فَعَنْ قَلِيلٍ مَا تَرَىٰ سبياتِ

ولا حظياتٍ وَلَا رَضِيَّاتِ

قَالَ: فَتَرَاجَعَ النَّاسُ إِلَى مَوَاقِفِهِمْ.

الصدق في الأفعال والأقوال والإيثار

وقَالَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ: قَاتَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي مَوَاطِنَ وَأَفِرُّ مِنْكُمُ الْيَوْمَ؟ ثُمَّ نَادَى: مَنْ يُبَايِعُ عَلَى الْمَوْتِ؟ فَبَايَعَهُ عَمُّهُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ، وَضِرَارُ بْنُ الْأَزْوَرِ فِي أَرْبَعِمِائَةٍ مِنْ وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ وَفُرْسَانِهِمْ، فَقَاتَلُوا قُدَّامَ فُسْطَاطِ خَالِدٍ حَتَّى أُثْبِتُوا جَمِيعًا جِرَاحًا، وَقُتِلَ مِنْهُمْ خَلْقٌ مِنْهُمْ ضِرَارُ بْنُ الْأَزْوَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّهُمْ لَمَّا صُرِعُوا مِنَ الْجِرَاحِ اسْتَسْقَوْا مَاءً فَجِيءَ إِلَيْهِمْ بِشَرْبَةِ مَاءٍ فَلَمَّا قُرِّبَتْ إِلَى أَحَدِهِمْ نَظَرَ إِلَيْهِ الْآخَرُ فَقَالَ: ادْفَعْهَا إِلَيْهِ، فَلَمَّا دُفِعَتْ إِلَيْهِ نَظَرَ إِلَيْهِ الآخر فقال: ادفعها إليه، فتدافعوها كلهم مِنْ وَاحِدٍ إِلَى وَاحِدٍ حَتَّى مَاتُوا جَمِيعًا وَلَمْ يَشْرَبْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

ورحل البطل يحمل رسالة

وَيُقَالُ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ شَهِيدًا رَجُلٌ جَاءَ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ فَقَالَ: إِنِّي قَدْ تَهَيَّأْتُ لِأَمْرِي فَهَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ قال: نعم، تقرئه عَنِّي السَّلَامَ وَتَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا. قَالَ: فتقدم هذا الرجل حَتَّى قُتِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ. قَالُوا: وَثَبَتَ كُلُّ قَوْمٍ عَلَى رَايَتِهِمْ حَتَّى صَارَتِ الرُّومُ تَدُورُ كأنّها الرحا. فلم تر يوم اليرموك (إلا) مخًّا سَاقِطًا، وَمِعْصَمًا نَادِرًا، وَكَفًّا طَائِرَةً مِنْ ذَلِكَ الْمَوْطِنِ. ثُمَّ حَمَلَ خَالِدٌ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْخَيَّالَةِ عَلَى الْمَيْسَرَةِ الَّتِي حَمَلَتْ عَلَى

مَيْمَنَةِ المسلمين فأزالوهم إلى القلب فقتل من الروم فِي حَمْلَتِهِ هَذِهِ سِتَّةَ آلَافٍ مِنْهُمْ ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنَ الصَّبْرِ وَالْجَلَدِ غَيْرَ مَا رَأَيْتُمْ، وَإِنِّي لَأَرْجُوَ أَنْ يَمْنَحَكُمُ اللَّهُ أَكْتَافَهُمْ. ثُمَّ اعْتَرَضَهُمْ فَحَمَلَ بِمِائَةِ فَارِسٍ مَعَهُ عَلَى نَحْوٍ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ فَمَا وَصَلَ إِلَيْهِمْ حَتَّى انْفَضَّ جَمْعُهُمْ، وَحَمَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ حَمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَانْكَشَفُوا وَتَبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ لَا يَمْتَنِعُونَ مِنْهُمْ.

مجاهد آخر يريد الجنة ثمنًا لروحه

عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ : رَأَيْتُ رَجُلًا يُرِيدُ أَنْ يَشْرِيَ نَفْسَهُ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ وَامْرَأَتُهُ تُنَاشِدُهُ ، قَالَ: رُدُّوا هَذِهِ عَنِّي فَلَوْ أَعْلَمُ أَنَّهُ يُصِيبُهَا الَّذِي أُرِيدُ مَا نَفِسْتُ عَلَيْهَا ، إِنِّي وَاللهِ لَئِنِ اسْتَطَعْتُ لَا يَمْضِي يَوْمٌ يَزُولُ هَذَا مِنْ مَكَانِهِ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى جَبَلٍ - فَإِنْ غَلَبْتُمْ عَلَى جَسَدِي فَخُذُوهُ ، قَالَ قَيْسٌ : فَمَرَرْنَا عَلَيْهِ فَرَأَيْنَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ قَتِيلًا فِي تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ[1].

قَالُوا: وَبَيْنَمَا هُمْ فِي جَوْلَةِ الْحَرْبِ وَحَوْمَةِ الْوَغَى وَالْأَبْطَالُ يَتَصَاوَلُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، إِذْ قَدِمَ الْبَرِيدُ مِنْ نَحْوِ الْحِجَازِ فَدُفِعَ إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فَقَالَ لَهُ: مَا الْخَبَرُ؟ فَقَالَ لَهُ- فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ-: إِنَّ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد توفي واستخلف عمر، واستناب عَلَى الْجُيُوشِ أَبَا عُبَيْدَةَ عَامِرَ بْنَ الْجَرَّاحِ. فَأَسَرَّهَا خَالِدٌ وَلَمْ يُبْدِ ذَلِكَ لِلنَّاسِ لِئَلَّا يَحْصُلَ ضَعْفٌ وَوَهَنٌ فِي تِلْكَ الْحَالِ، وَقَالَ لَهُ وَالنَّاسُ يَسْمَعُونَ: أَحْسَنْتَ، وَأَخَذَ مِنْهُ الْكِتَابَ فَوَضَعَهُ فِي كِنَانَتِهِ وَاشْتَغَلَ بِمَا كَانَ فِيهِ مِنْ تَدْبِيرِ الْحَرْبِ وَالْمُقَاتِلَةِ، وَأَوْقَفَ الرَّسُولَ الَّذِي جاء بالكتاب- وهو منجمة بْنُ زُنَيْمٍ- إِلَى جَانِبِهِ.

أسلم ثم قتل

قَالُوا وَخَرَجَ جَرَجَةُ أَحَدُ الْأُمَرَاءِ الْكِبَارِ مِنَ الصَّفِّ وَاسْتَدْعَى خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فجاء إليه حتى اختلفت أعناق فَرَسَيْهِمَا، فَقَالَ جَرَجَةُ: يَا خَالِدُ أَخْبِرْنِي فَاصْدُقْنِي

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٩٧٠٠)، (٣٤٥٢٦).

وَلَا تَكْذِبْنِي، فَإِنَّ الْحُرَّ لَا يَكْذِبُ، وَلَا تُخَادِعْنِي فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يُخَادِعُ الْمُسْتَرْسِلَ بِاللَّهِ، هَلْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّكُمْ سَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ فَأَعْطَاكَهُ فَلَا تَسُلُّهُ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا هزمتهم؟ قال: لا! قال: فيم سُمِّيتَ سَيْفَ اللَّهِ؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ فينا نبيه فَدَعَانَا فَنَفَرْنَا مِنْهُ وَنَأَيْنَا عَنْهُ جَمِيعًا، ثُمَّ إِنَّ بَعْضَنَا صَدَّقَهُ وَتَابَعَهُ، وَبَعْضَنَا كَذَّبَهُ وَبَاعَدَهُ، فَكُنْتُ فِيمَنْ كَذَّبَهُ وَبَاعَدَهُ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ بِقُلُوبِنَا وَنَوَاصِينَا فَهَدَانَا بِهِ وَبَايَعْنَاهُ، فَقَالَ لِي: أَنْتَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ سَلَّهُ اللَّهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. وَدَعَا لِي بِالنَّصْرِ، فَسُمِّيتُ سَيْفَ اللَّهِ بِذَلِكَ فَأَنَا مِنْ أَشَدِّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. فَقَالَ جَرْجَةُ: يا خالد إلى ما تَدْعُونَ؟ قَالَ: إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَالْإِقْرَارِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: فَمَنْ لَمْ يُجِبْكُمْ؟ قَالَ: فَالْجِزْيَةُ وَنَمْنَعُهُمْ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ يُعْطِهَا قَالَ: نُؤْذِنُهُ بِالْحَرْبِ ثُمَّ نُقَاتِلُهُ. قَالَ: فَمَا مَنْزِلَةُ مَنْ يُجِيبُكُمْ وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْيَوْمَ؟ قَالَ مَنْزِلَتُنَا وَاحِدَةٌ فِيمَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْنَا، شَرِيفُنَا وَوَضِيعُنَا وَأَوَّلُنَا وَآخِرُنَا. قَالَ جَرَجَةُ: فَلِمَنْ دَخَلَ فِيكُمُ الْيَوْمَ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ مَا لَكَمَ مِنَ الْأَجْرِ وَالذُّخْرِ؟ قَالَ: نَعَمْ وَأَفْضَلُ. قَالَ: وَكَيْفَ يُسَاوِيكُمْ وَقَدْ سَبَقْتُمُوهُ؟ فَقَالَ خَالِدٌ: إِنَّا قبلنا هذا الأمر عنوة وبايعنا نبينا وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا تَأْتِيهِ أَخْبَارُ السَّمَاءِ ويخبرنا بالكتاب وَيُرِينَا الْآيَاتِ، وَحُقَّ لِمَنْ رَأَى مَا رَأَيْنَا، وَسَمِعَ مَا سَمِعْنَا أَنْ يُسْلِمَ وَيُبَايِعَ، وَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ لَمْ تَرَوْا مَا رَأَيْنَا، وَلَمْ تَسْمَعُوا مَا سَمِعْنَا مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْحُجَجِ، فَمَنْ دَخَلَ فِي هَذَا الْأَمْرِ مِنْكُمْ بِحَقِيقَةٍ وَنِيَّةٍ كَانَ أَفْضَلَ مِنَّا؟ فَقَالَ جَرَجَةُ: باللَّه لَقَدْ صَدَقْتَنِي ولم تخادعني؟ قال: تاللَّه لَقَدْ صَدَقْتُكَ وَإِنَّ اللَّهَ وَلِيُّ مَا سَأَلْتَ عَنْهُ. فَعِنْدَ ذَلِكَ قَلَبَ جَرَجَةُ التُّرْسَ وَمَالَ مَعَ خَالِدٍ وَقَالَ: عَلِّمْنِي الْإِسْلَامَ، فَمَالَ بِهِ خالد إلى فسطاطه فسنّ عَلَيْهِ قِرْبَةً مِنْ مَاءٍ ثُمَّ صَلَّى بِهِ رَكْعَتَيْنِ. وَحَمَلَتِ الرُّومُ مَعَ انْقِلَابِهِ إِلَى خَالِدٍ وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهَا مِنْهُ حَمْلَةٌ فَأَزَالُوا الْمُسْلِمِينَ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ إِلَّا الْمُحَامِيَةَ عَلَيْهِمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أبي جهل والحارث بْنُ هِشَامٍ. فَرَكِبَ خَالِدٌ وَجَرَجَةُ مَعَهُ وَالرُّومُ خِلَالَ الْمُسْلِمِينَ، فَتَنَادَى النَّاسُ وَثَابُوا وَتَرَاجَعَتِ الرُّومُ إِلَى مَوَاقِفِهِمْ وَزَحَفَ خَالِدٌ بِالْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَصَافَحُوا

بِالسُّيُوفِ فَضَرَبَ فِيهِمْ خَالِدٌ وَجَرَجَةُ مِنْ لَدُنِ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ إِلَى جُنُوحِ الشَّمْسِ لِلْغُرُوبِ. وَصَلَّى الْمُسْلِمُونَ صَلَاةَ الظُّهْرِ وَصَلَاةَ الْعَصْرِ إِيمَاءً، وَأُصِيبَ جَرَجَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَلَمْ يُصَلِّ للَّه إِلَّا تِلْكَ الرَّكْعَتَيْنِ مَعَ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وضعضعت الرُّومُ عِنْدَ ذَلِكَ. ثُمَّ نَهَدَ خَالِدٌ بِالْقَلْبِ حَتَّى صَارَ فِي وَسَطِ خُيُولِ الرُّومِ، فَعِنْدَ ذلك هربت خيالتهم، وأسندت بِهِمْ فِي تِلْكَ الصَّحْرَاءِ، وَأَفْرَجَ الْمُسْلِمُونَ بِخُيُولِهِمْ حتى ذهبوا. وأخر الناس صلاتي العشاءين حتى استقر الفتح، وعمد خالد إلى رحل الرُّومِ وَهُمُ الرَّجَّالَةُ فَفَصَلُوهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ حَتَّى صَارُوا كَأَنَّهُمْ حَائِطٌ قَدْ هُدِمَ ثُمَّ تَبِعُوا مَنْ فَرَّ مِنَ الْخَيَّالَةِ وَاقْتَحَمَ خَالِدٌ عَلَيْهِمْ خَنْدَقَهُمْ، وَجَاءَ الرُّومُ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ إِلَى الْوَاقُوصَةِ، فَجَعَلَ الَّذِينَ تَسَلْسَلُوا وَقَيَّدُوا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ إِذَا سَقَطَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَقَطَ الَّذِينَ مَعَهُ.

قتلى الروم

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ: فَسَقَطَ فِيهَا وَقُتِلَ عِنْدَهَا مِائَةُ أَلْفٍ وَعِشْرُونَ أَلْفًا سِوَى مَنْ قُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ.

وكان نِسَاءُ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْيَوْمِ يَضْرِبْنَ مَنِ انْهَزَمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَيَقُلْنَ: أَيْنَ تَذْهَبُونَ وَتَدَعُونَنَا لِلْعُلُوجِ؟ فَإِذَا زَجَرْنَهُمْ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ نَفْسَهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْقِتَالِ. قَالَ وَتَجَلَّلَ الْقَيْقَلَانُ وَأَشْرَافٌ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ الرُّومِ بِبَرَانِسِهِمْ وَقَالُوا: إِذَا لَمْ نَقْدِرْ عَلَى نَصْرِ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ فَلْنَمُتْ عَلَى دِينِهِمْ. فَجَاءَ الْمُسْلِمُونَ فَقَتَلُوهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ.

عدد قتلى المسلمين

قَالُوا: وَقُتِلَ فِي هَذَا الْيَوْمِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةُ آلَافٍ مِنْهُمْ عِكْرِمَةُ وَابْنُهُ عَمْرٌو، وَسَلَمَةُ بْنُ هِشَامٍ، وَعَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ، وَأَبَانُ بْنُ سَعِيدٍ، وَأُثْبِتَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ فَلَا يُدْرَى أَيْنَ ذَهَبَ وَضِرَارُ بْنُ الْأَزْوَرِ، وَهِشَامُ بْنُ الْعَاصِ وَعَمْرُو بْنُ الطُّفَيْلِ بْنِ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ، وَحَقَّقَ اللَّهُ رُؤْيَا أَبِيهِ يَوْمَ اليمامة. وَانْكَشَفَ شُرَحْبِيلُ بن حَسَنَةَ وَأَصْحَابُهُ ثُمَّ تَرَاجَعُوا حِينَ وَعَظَهُمُ الْأَمِيرُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [سورة التوبة: ١١١].

هنا تُعرف الرجال

وَثَبَتَ يَوْمَئِذٍ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَقَاتَلَ قِتَالًا شَدِيدًا، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَاهُ مَرَّ بِهِ فَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالصَّبْرِ فَإِنَّهُ لَيْسَ رَجُلٌ بِهَذَا الْوَادِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مَحْفُوفًا بِالْقِتَالِ، فَكَيْفَ بِكَ وَبِأَشْبَاهِكَ الَّذِينَ وُلُّوا أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ؟! أُولَئِكَ أَحَقُّ النَّاسِ بِالصَّبْرِ وَالنَّصِيحَةِ، فَاتَّقِ اللَّهَ يَا بُنَيَّ وَلَا يَكُونَنَّ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ بِأَرْغَبَ فِي الْأَجْرِ وَالصَّبْرِ فِي الْحَرْبِ وَلَا أَجْرَأَ عَلَى عَدُوِّ الْإِسْلَامِ مِنْكَ. فَقَالَ: أَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَقَاتَلَ يَوْمَئِذٍ قِتَالًا شَدِيدًا وَكَانَ مِنْ نَاحِيَةِ الْقَلْبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: هَدَأَتِ الْأَصْوَاتُ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ فَسَمِعْنَا صَوْتًا يَكَادُ يَمْلَأُ الْعَسْكَرَ يَقُولُ: يَا نَصْرَ اللَّهِ اقْتَرِبْ، الثَّبَاتَ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ: فَنَظَرْنَا فَإِذَا هُوَ أَبُو سُفْيَانَ تَحْتَ رَايَةِ ابْنِهِ يَزِيدَ. وَأَكْمَلَ خَالِدٌ ليلته في خيمة تذارق أَخِي هِرَقْلَ- وَهُوَ أَمِيرُ الرُّومِ كُلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ- هَرَبَ فِيمَنْ هَرَبَ، وَبَاتَتِ الْخُيُولُ تَجُولُ نَحْوَ خَيْمَةِ خَالِدٍ يَقْتُلُونَ مَنْ مَرَّ بِهِمْ مِنَ الروم حتى أصبحوا، وقتل تذارق وَكَانَ لَهُ ثَلَاثُونَ سُرَادِقًا وَثَلَاثُونَ رُوَاقًا مِنْ دِيبَاجٍ بِمَا فِيهَا مِنَ الْفُرُشِ وَالْحَرِيرِ، فَلَمَّا كان الصباح حازوا ما كان لك مِنَ الْغَنَائِمِ. وَمَا فَرِحُوا بِمَا وَجَدُوا بِقَدْرِ حُزْنِهِمْ عَلَى الصِّدِّيقِ حِينَ أَعْلَمَهُمْ خَالِدٌ بِذَلِكَ وَلَكِنْ عَوَّضَهُمُ اللَّهُ بِالْفَارُوقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ملاحقة المنهزمين:

وَقَدِ اتَّبَعَ خَالِدٌ مَنِ انْهَزَمَ مِنَ الرُّومِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى دِمَشْقَ فَخَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا فَقَالُوا: نَحْنُ عَلَى عَهْدِنَا وَصُلْحِنَا؟ قَالَ: نَعَمْ. ثُمَّ اتَّبَعَهُمْ إِلَى ثَنِيَّةِ الْعُقَابِ فَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ سَاقَ وَرَاءَهُمْ إِلَى حِمْصَ فَخَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا فَصَالَحَهُمْ كَمَا صَالَحَ أَهْلَ

دِمَشْقَ. وَبَعَثَ أَبُو عُبَيْدَةَ عِيَاضَ بْنَ غَنْمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَرَاءَهُمْ أَيْضًا فَسَاقَ حَتَّى وَصَلَ مَلَطْيَةَ فَصَالَحَهُ أَهْلُهَا وَرَجَعَ.

نهاية حكم الروم في الشام ومقالة هرقل الشهيرة

فَلَمَّا بَلَغَ هِرَقْلَ ذَلِكَ بَعَثَ إِلَى مُقَاتِلِيهَا فَحَضَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَمَرَ بِمَلَطْيَةَ فَحُرِقَتْ وَانْتَهَتِ الرُّومُ مُنْهَزِمَةً إِلَى هِرَقْلَ وَهُوَ بِحِمْصَ وَالْمُسْلِمُونَ فِي آثَارِهِمْ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ وَيَغْنَمُونَ. فَلَمَّا وَصَلَ الْخَبَرُ إِلَى هِرَقْلَ ارْتَحَلَ مِنْ حِمْصَ وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَرَّسَ بِهَا وَقَالَ هِرَقْلُ: أَمَّا الشَّامُ فَلَا شَامَ، وَوَيْلٌ لِلرُّومِ مِنَ الْمَوْلُودِ الْمَشْئُومِ. [وقال: السلام عليك يا سوريا، سلامًا لا لقاء بعده، ونعم البلد أنت للعدو وليس للصديق، ولا يدخلك رومي بعد الآن إلا خائفًا] (١).

وَمِمَّا قِيلَ مِنَ الْأَشْعَارِ فِي يَوْمِ الْيَرْمُوكِ قَوْلُ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو:

أَلَمْ تَرَنَا عَلَى الْيَرْمُوكِ فُزْنَا ❁❁❁ كَمَا فُزْنَا بِأَيَّامِ الْعِرَاقِ
فَتَحْنَا قَبْلَهَا بُصْرَى وَكَانَتْ ❁❁❁ مُحَرَّمَةَ الْجَنَابِ لَدَى الْبُعَاقِ
وَعَذْرَاءَ الْمَدَائِنِ قَدْ فَتَحْنَا ❁❁❁ وَمَرَجَ الصُّفَّرَيْنِ عَلَى الْعِتَاقِ
قَتَلْنَا مَنْ أَقَامَ لَنَا وَفِينَا ❁❁❁ نِهَابُهُمُ بِأَسْيَافٍ رِقَاقِ
قَتَلْنَا الرُّومَ حَتَّى مَا تُسَاوِي ❁❁❁ عَلَى الْيَرْمُوكِ ثُفْرُوقَ الْوِرَاقِ
فَضَضْنَا جَمْعَهُمْ لَمَّا اسْتَحَالُوا ❁❁❁ عَلَى الْوَاقُوصِ بِالْبُتْرِ الرِّقَاقِ
غَدَاةَ تَهَافَتُوا فِيهَا فَصَارُوا ❁❁❁ إِلَى أَمْرٍ يُعَضِّلُ بِالذَّوَاقِ

وَقَالَ الْأَسْوَدُ بن مقرن التَّمِيمِيُّ:

وَكَمْ قَدْ أَغَرْنَا غَارَةً بَعْدَ غَارَةٍ ❁❁❁ يومًا وَيَوْمًا قَدْ كَشَفْنَا أَهَاوِلَهْ
وَلَوْلَا رِجَالٌ كَانَ عشو غَنِيمَةٍ ❁❁❁ لَدَى مَأْقَطٍ رَجَّتْ عَلَيْنَا أَوَائِلُهْ

(١) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (١/ ٧٩).

لَقِينَاهُمُ الْيَرْمُوكَ لَمَّا تَضَـايَقَتْ ❁❁❁ بِمَنْ حَلَّ بِالْيَرْمُوكِ مِنْهُ حمائله
فلا يعـدمنْ مِنَّـا هِرَقْـلُ كَتَـائِبًـا ❁❁❁ إِذَا رَامَهَـا رَامَ الَّـذِي لَا يُحَـاوِلُـهُ

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ:

الْقَوْمُ لَخْمٌ وَجُـذَامٌ فِي الْحَرِبْ ❁❁❁ وَنَحْنُ وَالرُّومُ بِمَرْج نضــطرب
فإن يعودوا بهـا لا نصــطحب ❁❁❁ بل نعصــب الفرار بالضــرب

أسباب النصر الحقيقية وأسباب الهزيمة:

رَوَى أَحْمَدُ بْنُ مَرْوَانَ الْمَالِكِيُّ فِي الْمُجَالَسَةِ: ثنا أبو إسماعيل الترمذي ثنا أبو مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: كَانَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا يَثْبُتُ لَهُمُ الْعَدُوُّ فُوَاقَ نَاقَةٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، فَقَالَ هِرَقْلُ وَهُوَ عَلَى أَنْطَاكِيَةَ لَمَّا قَدِمَتْ مُنْهَزِمَةُ الرُّومِ: وَيْلَكُمْ أَخْبِرُونِي عَنْ هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بَشَرًا مِثْلَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَأَنْتُمْ أَكْثَرُ أَمْ هُمْ؟ قَالُوا: بَلْ نَحْنُ أَكْثَرُ مِنْهُمْ أَضْعَافًا فِي كُلِّ مَوْطِنٍ. قَالَ: فَمَا بَالُكُمْ تنهزمون؟ فَقَالَ شَيْخٌ مِنْ عُظَمَائِهِمْ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ يَقُومُونَ اللَّيْلَ وَيَصُومُونَ النَّهَارَ، وَيُوفُونَ بِالْعَهْدِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَتَنَاصَفُونَ بَيْنَهُمْ، وَمِنْ أَجْلِ أَنَّا نَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَنَزْنِي، وَنَرْكَبُ الْحَرَامَ، وننقض العهد، ونغصب ونظلم ونأمر بالسخط وَنَنْهَى عَمَّا يُرْضِي اللَّهَ وَنُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ. فَقَالَ: أَنْتَ صَدَقْتَنِي. وَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ يَحْيَى بْنَ يَحْيَى الْغَسَّانِيَّ يُحَدِّثُ عَنْ رَجُلَيْنِ مِنْ قَوْمِهِ قَالَا: لَمَّا نَزَلَ الْمُسْلِمُونَ بِنَاحِيَةِ الْأُرْدُنِّ، تَحَدَّثْنَا بَيْنَنَا أَنَّ دِمَشْقَ سَتُحَاصَرُ فَذَهَبْنَا نَتَسَوَّقُ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ، فبينا نحن فيها إذا أَرْسَلَ إِلَيْنَا بِطْرِيقُهَا فَجِئْنَاهُ فَقَالَ: أَنْتُمَا مِنَ الْعَرَبِ؟ قُلْنَا نَعَمْ! قَالَ: وَعَلَى النَّصْرَانِيَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ. فَقَالَ: لِيَذْهَبْ أَحَدُكُمَا فَلْيَتَجَسَّسْ لَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَرَأْيِهِمْ، وَلِيَثْبُتِ الْآخَرُ عَلَى مَتَاعِ صَاحِبِهِ. فَفَعَلَ ذَلِكَ أَحَدُنَا، فَلَبِثَ مَلِيًّا ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: جِئْتُكَ مِنْ عِنْدِ رِجَالٍ دِقَاقٍ يركبون خيولا عتاقا، أَمَّا اللَّيْلُ فَرُهْبَانٌ، وَأَمَّا النَّهَارُ فَفُرْسَانٌ، يَرِيشُونَ النَّبْلَ وَيَبْرُونَهَا، وَيُثَقِّفُونَ الْقَنَا، لَوْ حَدَّثْتَ جَلِيسَكَ حَدِيثًا مَا فَهِمَهُ عَنْكَ لِمَا عَلَا مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ وَالذِّكْرِ.

قَالَ فَالْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ: أَتَاكُمْ مِنْهُمْ مَا لَا طَاقَةَ لَكُمْ به.

(ملخص معركة اليرموك الفاصلة)

١- اسم المعركة : اليرموك.

٢- مكان المعركة : اليرموك ويقع في أقصى شمال غرب الأردن محافظة إربد على جنوب الحدود محافظة درعا السورية ويعتبر هذا الوادي منطقة حدودية، فوادي أو نهر اليرموك في الأردن محافظة إربد وهو «من أنهار الشام، ينبع من أطراف الغور ويصب في نهر الأردن، ثم يتجه إلى البحر الميت ويصب فيه».

وقال محمود شاكر رحمه الله تعالى في [التاريخ الإسلامي ٣/ ١٤٥]: كان تجمع المسلمين في المنطقة الغربية من درعا اليوم، وقد أخطأ كثير من المؤرخين فجعلوا نهر اليرموك المنطقة الفاصلة بين المسلمين والروم ، ومن يجول في تلك البقعة يدرك مباشرة أنه لايمكن لهذا الوادي السحيق أن يكون ميدانًا لمعركة أو تكون جنباته ساحة لها ولتصل الإمدادات جعل المسلمون مؤخرة جندهم إلى الشمال الغربي من درعا، **وتكون المعركة قد وقعت على جانبي أحد روافد اليرموك إما (الرقاد) أو (العلق) واليرموك في ميسرة الجيش الإسلامي.**

٣- تاريخ المعركة: كانت في أواخر شهر جُمَادَى الْآخِرَة من السّنة الثَّالِثَة عشرَة من الْهِجْرَة هذا أرجح الأقوال.

٤- الفريقان المتقاتلان :

١- المسلمون: بأمر الخليفة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقيادة سيف الله المسلول أبي سليمان خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- نصارى الروم : بأمر هرقل ملك الروم، وقيادة تذارق أَخِي هِرَقْلَ وَهُوَ أَمِيرُ الرُّومِ كُلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتها وطريقة ترتيبها:

أولًا المسلمون: كان جَيْشُ الصَّحَابَةِ سِتَّةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا إِلَى الْأَرْبَعِينَ أَلْفًا.

وخَرَجَ خَالِدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تَعْبِئَةٍ لَمْ تُعَبِّئْهَا الْعَرَبُ قَبْلَ ذَلِكَ. فَخَرَجَ فِي سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ كُرْدُوسًا إِلَى الْأَرْبَعِينَ كُلُّ كُرْدُوسٍ أَلْفُ رَجُلٍ عَلَيْهِمْ أَمِيرٌ.

١ - وَجَعَلَ أَبَا عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْقَلْبِ

٢ - وَعَلَى الْمَيْمَنَةِ عَمْرو بن الْعَاصِ وَمَعَهُ شُرَحْبِيلَ بن حَسَنَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقيل: مُعَاذ بْن جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣- وَعَلَى الْمَيْسَرَةِ يَزِيد بْنَ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقيل:نفاثة بن أسامة الكناني.

٤ - وَعَلَى الطَّلَائِعِ قباث بنَ أَشْيَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥ - وَعَلَى الْخَيَّالَةِ خَالِد بن الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ الْمُشِيرُ فِي الْحَرْبِ الَّذِي يَصْدُرُ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَنْ رَأْيِهِ.

٦ - وزاد ابن إسحاق فقال على الرجالة هاشم بن عتبة بن أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧- وَعَلَى الْأَقْبَاضِ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٨- وَالْقَاضِي يَوْمَئِذٍ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٩ - وَقَاصُّهُمُ الَّذِي يَعِظُهُمْ وَيَحُثُّهُمْ عَلَى الْقِتَالِ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٠ - وَقَارِئُهُم الَّذِي يَدُورُ عَلَى النَّاسِ فَيَقْرَأُ سُورَةَ الْأَنْفَالِ وَآيَاتِ الْجِهَادِ الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

ثانيًا الروم: جيش الروم أربعون ومائتا ألف(٢٤٠،٠٠٠): ثمانون ألف مسلسل بالحديد والحبال، وثمانون ألف فارس، وثمانون ألف راجل.وَقِيلَ بَلْ كَانَ الَّذِينَ تَسَلْسَلُوا كُلُّ عَشَرَةٍ فِي سِلْسِلَةٍ لِئَلَّا يَفِرُّوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا. وعلى الناس تذارق أخو هرقل، وعلى المقدمة جرجة، وعلى المجنبتين ماهان والدراقص، وعلى البحر القيقلان .

٦-سبب المعركة : إرادة نشر الإسلام وتحويل الناس من عبادة العباد إلى عبادة

رب العباد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ،ورفض الروم للإسلام أو الجزية واختيارهم الحرب. وقد جاء عَنِ ابْنِ عُمَرَ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ** .متفق عليه.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- قُتِلَ فِي هَذَا الْيَوْمِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةُ آلَافٍ مِنْهُمْ عِكْرِمَةُ وَابْنُهُ عَمْرٌو، وَسَلَمَةُ بْنُ هِشَامٍ، وَعَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ، وَأَبَانُ بْنُ سَعِيدٍ، وَضِرَارُ بْنُ الْأَزْوَرِ، وَهِشَامُ بْنُ الْعَاصِ وَعَمْرُو بْنُ الطُّفَيْلِ بْنِ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ.

٢- «لَمَّا رَأَى الْمُسْلِمُونَ خَيْلَ الرُّومِ تَوَجَّهَتْ لِلْهَرَبِ، أَفْرَجُوا لَهَا، فَذَهَبَتْ فَتَفَرَّقَتْ فِي الْبِلادِ، وَأَقْبَلَ خَالِدٌ وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى الرَّجْلِ فَفَضُّوهُمْ، فَكَأَنَّمَا هُدِمَ بِهِمْ حَائِطٌ، فَاقْتَحِمُوا فِي خَنْدَقِهِمْ، فَاقْتَحَمَهُ عَلَيْهِمْ فَعَمَدُوا إِلَى الْوَاقُوصَةِ، حَتَّى هَوَى فِيهَا الْمُقْتَرِنُونَ وَغَيْرُهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ من المقترنين للقتال هوى به من خشعت نَفْسُهُ، فَيَهْوِي الْوَاحِدُ بِالْعَشْرَةِ لا يُطِيقُونَهُ، كُلَّمَا هَوَى اثْنَانِ كَانَتِ الْبَقِيَّةُ أَضْعَفَ، **فَتَهَافَتَ فِي الْوَاقُوصَةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ أَلْفٍ**، ثَمَانُونَ أَلْفَ مُقْتَرِنٍ وَأَرْبَعُونَ أَلْفَ مُطْلَقٍ، سِوَى مَنْ قُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ مِنَ الْخَيْلِ وَالرَّجْلِ»وكان خالد قتل هو وخيالته ستة آلاف فالله أعلم بمن عداهم. [«تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري»(٣/ ٤٠٠)].

٣- أما الغنيمة فقد أخذ المسلمون كل ما خلفه الروم وكَانَ سَهْمُ الْفَارِسِ يومئذ ألفًا وخمسمائة أما بعد المعركة فما بعد مملكة الروم التي ورثوها من غنيمة.

٤- أما التحول التاريخي الحاصل بها فإنها كانت بوابة لفتح بلاد الشام كلها الأردن وسوريا وفلسطين ولبنان، وكذلك لفتح مصر وهكذا ليبيا وكذلك بلاد المغرب كلها وهي تونس وكانوا يسمونها إفريقية والجزائر والمغرب وموريتانيا ثم بلاد الأندلس بل وصل المسلمون سنة ١١٤هـ إلى جنوب فرنسا وذلك أن هرقل

لما رحل عن الشام انساح المسلمون في هذه البلدان على مراحل كما هو معلوم في خلافة عمر ثم عثمان ثم بعدهم وهكذا أخذوا بعض بلاد الروم فيما يسمى الآن بتركيا وكم دخلت من أمم في دين الإسلام ولله الحمد والمنة فرضي الله عن هؤلاء الأبطال وقادتهم وخلفائهم وأرضاهم،نتقرب بحبهم وتسطير مآثرهم إلى الله سبحانه كم ليلة قاسوا بردها وكم من يوم عانوا من بأسه كم غزوا وهم جياع وكم صبروا وهم قلّة ولكن ما عند الله لا يضيع. وإليك التلخيص التالي:

❋ فتح دمشق وبقية مدن الشام [من سنة١٣-١٥هـ]: تقدمت الجيوش الإسلامية بقيادة أبي عبيدة ومعه خالد نحو مدن الشام، فاستولت على فحل بيسان ثم دمشق فحمص، وبعدها قنسرين وقيسارية والبقاع وبعلبك. ثم فتحوا أجنادين. ومدن الجزيرة (الرها ونصيبين) وغيرها.

❋ فتح بيت المقدس عام ١٥هـ:حاصرت الجيوش الإسلامية بيت المقدس، فطلب حكامها أن يقدم عليهم عمر بنفسه ليستسلموا له، فقدم إلى الشام، فسلموا له مفتاح بيت المقدس، وصالحهم على الجزية، وصلى بالمسلمين في المسجد الأقصى. وتم فتح حلب ومنبج وإنطاكية وحران والرها وباقي المدن صلحًا.

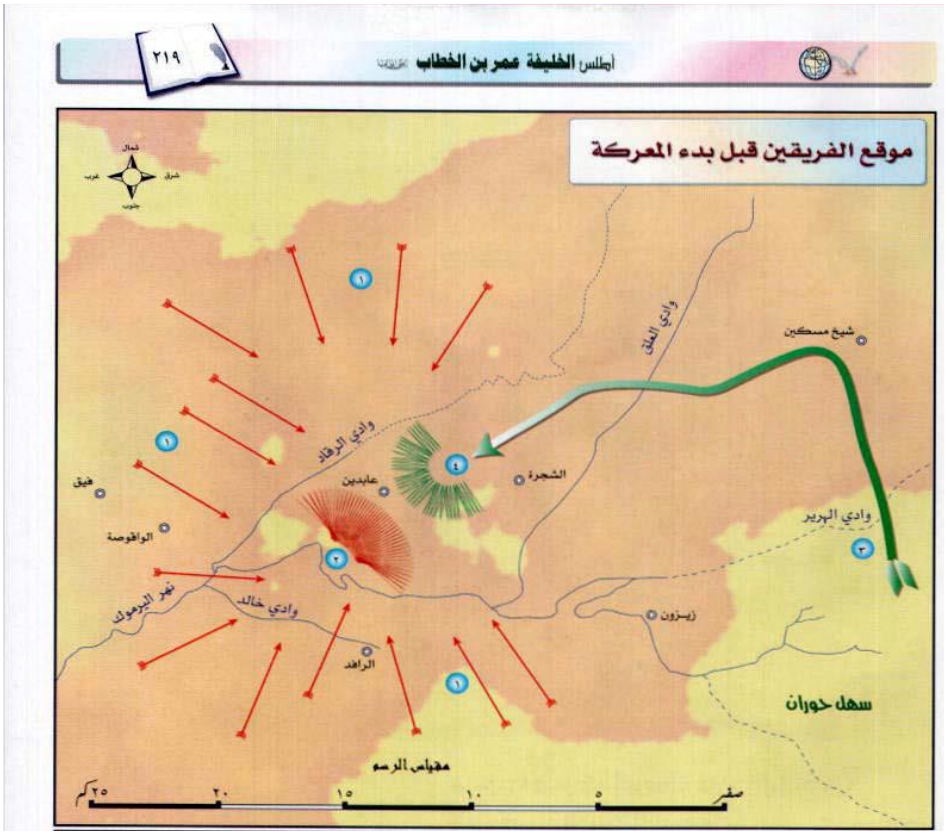
❋ فتح سواحل بلاد الشام: تولى معاوية بن أبي سفيان فتح المدن الساحلية بأمر أبي عبيدة، ففتح صور وصيدا وبيروت وطرابلس. بذا أصبحت بلاد الشام كلها بيد المسلمين وتم طرد الروم منها. وهكذا تم فتح سوريا وفلسطين.

❋ فتح مصر ٢٠ هـ: كان لا بد من الزحف لفتح مصر، بعد فتح سوريا وفلسطين، فهي كانت خاضعة للروم، ولن يستقر الأمر للمسلمين إذا لم يتم فتحها، فكان ذلك. لما فتح عمرو بن العاص فلسطين، استأذن من عمر أن يفتح مصر، فوافق فسار إليها، وعرض الإسلام أو الجزية أو القتال (كما يفعل المسلمون قبل كل قتال) نشب القتال، وانتصر المسلمون، وفُرِضت الجزية عليهم، ثم تقدم المسلمون، وفتحوا الإسكندرية (مقر المقوقس) وكانت عاصمة مصر، وبنوا هناك

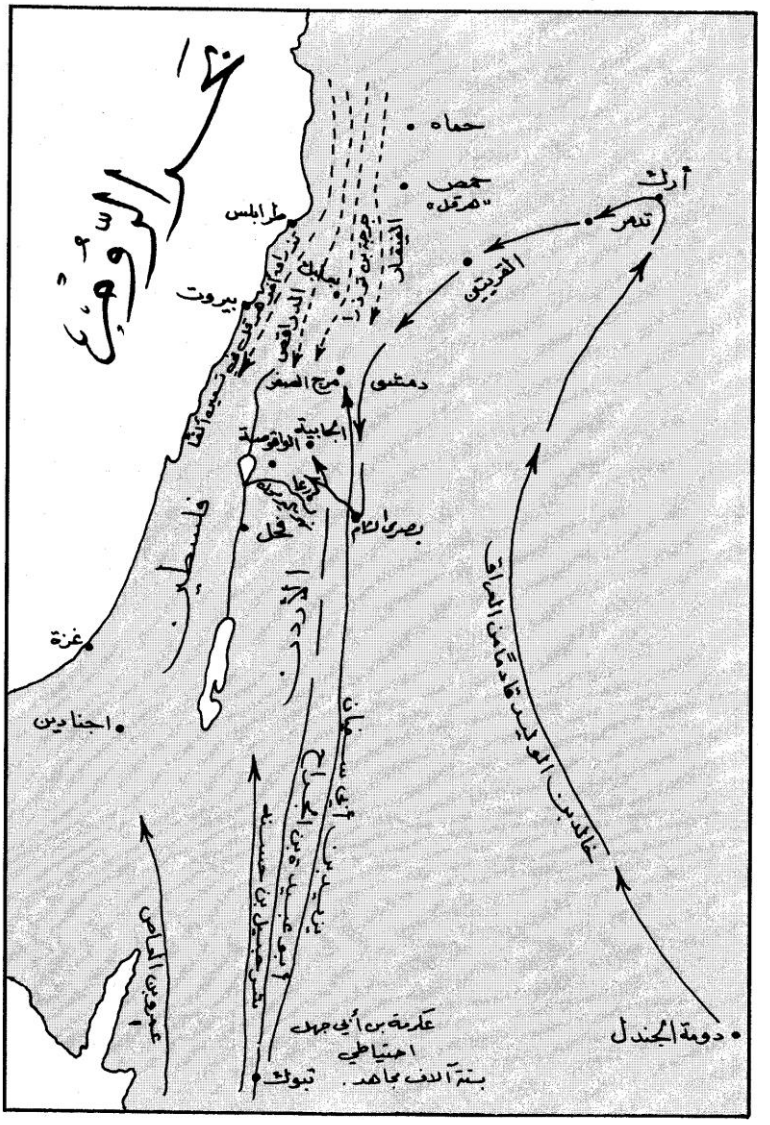
مدينة الفسطاس (مكان خيمة عمرو بن العاص). وفتحوا بقية المدن وفرضوا الجزية عليها، وهكذا أصبحت مصر تابعة للخلافة الإسلامية.

* فتح برقة (ليبيا)[سنة ٢٢هـ]: ثم سار عمرو بن العاص غربًا وفتح برقة ثم زويلة، فطرابلس وصبراته وشروس، ومنعه عمر أن يتقدم أكثر من ذلك غربًا.[١]

٨- خريطة موقعة اليرموك: من كتاب التاريخ الإسلامي، وأطلس عمر.



(١) موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر (ص١١١/١١٢).


حماه
حمص
هرقله
أرك
تدمر
القريتين
طرابلس
بيروت
دمشق
مرج الصفر
الجابية
فحل
بصرى الشام
فلسطين
غزة
اجنادين
خالد بن الوليد قادماً من العراق
دومة الجندل
عكرمة بن أبي جهل
احتياطي
بنية الف مجاهد
تبوك


٢٢٥
أطلس الخليفة عمر بن الخطاب
أطلسمون يتتبعون فلول الجيش الرومي بعد اليرموك
شمال
شرق
غرب
جنوب
منبج
حلب
أنطاكيا
نهر الفرات
البحر الأبيض المتوسط
البحر الكبير (بحر الروم)
اللاذقية
جبلة
نهر العاصي
حماة
طرطوس
حمص
تدمر
نموذج لبعض أدوات الجيش الروماني
بادية الشام
بعلبك
بيروت
معلولا
دمشق
درعا
١ فرار القوات الرومية من أرض المعركة بعد هزيمتها القاسية في معركة اليرموك .
٢ القوات الإسلامية تطارد فلول الجيش الرومي المنهزم .
٣ خالد بن الوليد يتوجه بمجموعة من الجيش الإسلامي نحو حمص .
٤ هرقل يتلقى في أنطاكيا خبر هزيمة الجيش الرومي ويقرر بعدها ترك الأراضي السورية .
مقياس الرسم
كم



المعركة السابعة من معارك الإسلام الفاصلة: القادسية

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : سَنَةُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ اسْتَهَلَّتْ هَذِهِ السَّنَةُ وَالْخَلِيفَةُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَحُثُّ النَّاسَ وَيُحَرِّضُهُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْعِرَاقِ، وَذَلِكَ لِمَا بَلَغَهُ مِنْ قَتْلِ أَبِي عُبَيْدٍ يَوْمَ الْجِسْرِ، وَانْتِظَامِ شمل الفرس، واجتماع أمرهم على يزجرد الَّذِي أَقَامُوهُ مِنْ بَيْتِ الْمُلْكِ، وَنَقْضِ أَهْلِ الذِّمَّةِ بِالْعِرَاقِ عُهُودَهُمْ، وَنَبْذِهِمُ الْمَوَاثِيقَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، وَآذَوُا الْمُسْلِمِينَ وَأَخْرَجُوا الْعُمَّالَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ. وَقَدْ كَتَبَ عُمَرُ إِلَى مَنْ هُنَالِكَ مِنَ الْجَيْشِ أَنْ يَتَبَرَّزُوا مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ إِلَى أَطْرَافِ الْبِلَادِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَرَكِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنَ الْمُحَرَّمِ هَذِهِ السَّنَةَ فِي الْجُيُوشِ مِنَ الْمَدِينَةِ فَنَزَلَ عَلَى مَاءٍ يُقَالُ لَهُ صِرَارٌ، فَعَسْكَرَ بِهِ عَازِمًا عَلَى غَزْوِ الْعِرَاقِ بِنَفْسِهِ وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ وَسَادَاتِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. ثُمَّ عَقَدَ مَجْلِسًا لِاسْتِشَارَةِ الصَّحَابَةِ فِيمَا عَزَمَ عَلَيْهِ، وَنُودِيَ إِنَّ الصَّلَاةَ جَامِعَةٌ، وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَدِمَ مِنَ الْمَدِينَةِ، ثم استشارهم فكلهم وافقوه عَلَى الذَّهَابِ إِلَى الْعِرَاقِ، إِلَّا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ قَالَ لَهُ: إِنِّي أَخْشَى إن كسرت أن تضعف المسلمين فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تبعث رجلاً وترجع أنت إلى المدينة فَأَرْفَأَ [1] عُمَرُ وَالنَّاسُ عِنْدَ ذَلِكَ وَاسْتَصْوَبُوا رَأْيَ ابْنِ عَوْفٍ. فَقَالَ عُمَرُ: فَمَنْ تَرَى أَنْ نَبْعَثَ إِلَى الْعِرَاقِ؟ فَقَالَ: قَدْ وَجَدْتُهُ. قَالَ وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ الْأَسَدُ فِي بَرَاثِنِهِ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ الزُّهْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) فأرفأ بمعنى جنح.

بعْث سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ووصية أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له

فَاسْتَجَادَ قَوْلَهُ وَأَرْسَلَ إِلَى سَعْدٍ فَأَمَّرَهُ عَلَى الْعِرَاقِ وَأَوْصَاهُ فَقَالَ: يَا سَعْدَ بن وُهَيْبٍ لَا يَغُرَّنَّكَ مِنَ اللَّهِ إِنْ قِيلَ خَالُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبُهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَبٌ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، فَالنَّاسُ شَرِيفُهُمْ وَوَضِيعُهُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ سَوَاءٌ، اللَّهُ رَبُّهُمْ وَهُمْ عِبَادُهُ، يَتَفَاضَلُونَ بِالْعَافِيَةِ وَيُدْرِكُونَ مَا عِنْدَ اللَّهِ بِالطَّاعَةِ، فَانْظُرِ الْأَمْرَ الَّذِي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُنْذُ بعث إلى أن فارقنا عليه فَالْزَمْهُ، فَإِنَّهُ الْأَمْرُ. هَذِهِ عِظَتِي إِيَّاكَ. وَلَمَّا أَرَادَ فِرَاقَهُ قَالَ لَهُ: إِنَّكَ سَتُقْدِمُ عَلَى أَمْرٍ شَدِيدٍ، فَالصَّبْرَ الصَّبْرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ وَنَابَكَ، تُجْمَعْ لَكَ خَشْيَةُ اللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ خَشْيَةَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ فِي أَمْرَيْنِ، فِي طَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ، وَإِنَّمَا طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ بِبُغْضِ الدُّنْيَا وَحُبِّ الْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا عِصْيَانُ مَنْ عَصَاهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَبُغْضِ الْآخِرَةِ. وَلِلْقُلُوبِ حقائق ينشئها الله إنشاء، منها السر وَمِنْهَا الْعَلَانِيَةُ، فَأَمَّا الْعَلَانِيَةُ فَأَنْ يَكُونَ حَامِدُهُ وَذَامُّهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً، وَأَمَّا السِّرُّ فَيُعْرَفُ بِظُهُورِ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ، وَبِمَحَبَّةِ الناس، فَلَا تَزْهَدْ فِي التَّحَبُّبِ فَإِنَّ النَّبِيِّينَ قَدْ سَأَلُوا مَحَبَّتَهُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا حَبَّبَهُ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا بَغَّضَهُ، فَاعْتَبِرْ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ اللَّهِ بِمَنْزِلَتِكَ عِنْدَ النَّاسِ.

عدد من خرج مع سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المدينة

قَالُوا: فَسَارَ سَعْدٌ نَحْوَ الْعِرَاقِ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَأَلْفٍ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ، وَقِيلَ فِي سِتَّةِ آلَافٍ. وَشَيَّعَهُمْ عُمَرُ مِنْ صِرَارٍ إِلَى الْأَعْوَصِ وَقَامَ عُمَرُ فِي النَّاسِ خَطِيبًا هُنَالِكَ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا ضَرَبَ لَكُمُ الْأَمْثَالَ، وَصَرَفَ لَكُمُ الْقَوْلَ لتحيي الْقُلُوبَ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ مَيِّتَةٌ فِي صُدُورِهَا حَتَّى يحييها الله، من علم شيئًا فلينفع بِهِ، فَإِنَّ لِلْعَدْلِ أَمَارَاتٌ وَتَبَاشِيرُ، فَأَمَّا الْأَمَارَاتُ فَالْحَيَاءُ وَالسَّخَاءُ وَالْهَيْنُ وَاللَّيْنُ. وَأَمَّا التَّبَاشِيرُ فَالرَّحْمَةُ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ أَمرٍ بَابًا، وَيَسَّرَ لِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحًا،

فَبَابُ الْعَدْلِ الِاعْتِبَارُ، وَمِفْتَاحُهُ الزهد، والاعتبار ذكر الموت والاستعداد بتقديم الأموال وَالزُّهْدُ أَخْذُ الْحَقِّ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ قِبَلَهُ حَقٌّ وَالِاكْتِفَاءُ بِمَا يَكْفِيهِ مِنَ الْكَفَافِ، فَإِنَّ لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء. إِنِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَحَدٌ، فَأَنْهُوا شَكَاتَكُمْ إِلَيْنَا، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِلَى مَنْ يُبَلِّغُنَاهَا نَأْخُذْ لَهُ الْحَقَّ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ. ثُمَّ سَارَ سَعْدٌ إِلَى الْعِرَاقِ، وَرَجَعَ عُمَرُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

وفاة المثنى أمير العراق رحمه الله

وَلَمَّا انْتَهَى سَعْدٌ إِلَى نَهْرِ زَرُودَ، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَجْتَمِعَ بِالْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ إِلَّا الْيَسِيرُ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا مُشْتَاقٌ إِلَى صاحبه، انتقض جرح المثنى بين حَارِثَةَ الَّذِي كَانَ جُرِحَهُ يَوْمَ الْجِسْرِ فَمَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْجَيْشِ بَشِيرَ بْنَ الْخَصَاصِيَةِ. وَلَمَّا بَلَغَ سَعْدًا مَوْتُهُ تَرَحَّمَ عَلَيْهِ.

قائد المعركة وعدد الجيش الإسلامي ودقة ترتيبه، ورسائل عمر

وَلَمَّا وَصَلَ سَعْدٌ إِلَى مَحَلَّةِ الْجُيُوشِ انْتَهَتْ إِلَيْهِ رِيَاسَتُهَا وَإِمْرَتُهَا، وَلَمْ يَبْقَ بِالْعِرَاقِ أَمِيرٌ مِنْ سَادَاتِ الْعَرَبِ إِلَّا تَحْتَ أَمْرِهِ، وَأَمَدَّهُ عُمَرُ بِأَمْدَادٍ أُخَرَ حَتَّى اجْتَمَعَ مَعَهُ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ [قريبًا من عشرين ألفًا: ثمانية آلاف جيش المثنى سَبْعَة آلَافٍ أَوْ ثَمَانِيَة آلَافٍ مع سعد ثم من تبعهم من المدد على أصح تقدير]. وَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ لَأَزْمِيَنَّ مُلُوكَ الْعَجَمِ بِمُلُوكِ الْعَرَبِ.

الرسالة الأولى: وَكَتَبَ إِلَى سَعْدٍ أَنْ يَجْعَلَ الْأُمَرَاءَ عَلَى الْقَبَائِلِ، وَالْعُرَفَاءَ عَلَى كُلِّ عَشَرَةٍ عَرِيفًا عَلَى الْجُيُوشِ، وَأَنْ يُوَاعِدَهُمْ إِلَى الْقَادِسِيَّةِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ سَعْدٌ، عَرَّفَ الْعُرَفَاءَ، وَأَمَّرَ عَلَى الْقَبَائِلِ، وَوَلَّى عَلَى الطَّلَائِعِ، وَالْمُقَدِّمَاتِ، وَالْمُجَنِّبَاتِ وَالسَّاقَاتِ، وَالرَّجَّالَةِ، وَالرُّكْبَانِ، كَمَا أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ.

١- وَجَعَلَ عُمَرُ عَلَى قَضَاءِ النَّاسِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ رَبِيعَةَ الْبَاهِلِيَّ ذَا النون ، وجعل إليه الأقباض وقسمة الفيء.

٢- وجعل داعية الناس وقاصهم سلمان الْفَارِسِيَّ.

٣- وَجَعَلَ الْكَاتِبَ زِيَادَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ.

عدد الصحابة و أبنائهم رضي الله عنهم في القادسية

قَالُوا: وَكَانَ فِي هَذَا الْجَيْشِ كُلِّهُ مِنَ الصحابة ثلاثمائة وَبِضْعَةَ عَشَرَ صَحَابِيًّا، مِنْهُمْ بِضْعَةٌ وَسَبْعُونَ بَدْرِيًّا، وَكَانَ فِيهِ سَبْعُمِائَةٍ مِنْ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

الرسالة الثانية: وَبَعَثَ عُمَرُ كِتَابَهُ إِلَى سَعْدٍ يَأْمُرُهُ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى الْقَادِسِيَّةِ، وَالْقَادِسِيَّةُ بَابُ فَارِسَ في الجاهلية، وأن يكون بَيْنَ الْحَجَرِ وَالْمَدَرِ، وَأَنْ يَأْخُذَ الطُّرُقَ وَالْمَسَالِكَ عَلَى فَارِسَ، وَأَنْ يَبْدُرُوهُمْ بِالضَّرْبِ وَالشِّدَّةِ، وَلَا يَهُولَنَّكَ كَثْرَةُ عَدَدِهِم وعُدَدِهِم، فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَدَعَةٌ مكرة، وإن أنتم صبرتم وأحسنتم وَنَوَيْتُمُ الْأَمَانَةَ رَجَوْتُ أَنْ تُنْصَرُوا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ لَهُمْ شَمْلُهُمْ أَبَدًا إِلَّا أَنْ يَجْتَمِعُوا، وَلَيْسَتْ مَعَهُمْ قُلُوبُهُمْ. وَإِنْ كَانَتِ الْأُخْرَى فَارْجِعُوا إِلَى مَا وَرَاءَكُمْ حَتَّى تَصِلُوا إِلَى الْحَجَرِ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرَأُ، وَإِنَّهُمْ عَنْهُ أَجْبَنُ وَبِهِ أَجْهَلُ، حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِالْفَتْحِ عَلَيْهِمْ وَيَرُدَّ لَكُمُ الْكَرَةَ. وَأَمَرَهُ بِمُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ وَمَوْعِظَةِ جَيْشِهِ، وَأَمَرَهُمْ بِالنِّيَّةِ الْحَسَنَةِ وَالصَّبْرِ فَإِنَّ النَّصْرَ يَأْتِي منَ اللَّهِ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، وَالْأَجْرَ عَلَى قَدْرِ الْحِسْبَةِ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، وَأَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَاكْتُبْ إِلَيَّ بِجَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ وَتَفَاصِيلِهَا، وَكَيْفَ تَنْزِلُونَ وَأَيْنَ يَكُونُ مِنْكُمْ عَدُوُّكُمْ، وَاجْعَلْنِي بِكُتُبِكَ إِلَيَّ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ، وَاجْعَلْنِي مِنْ أَمْرِكُمْ عَلَى الجلية، وخف الله وارجه ولا تدل بشيء، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ تَوَكَّلَ لِهَذَا الْأَمْرِ بِمَا لَا خُلْفَ لَهُ، فَاحْذَرْ أَنْ يَصْرِفَهُ عَنْكَ وَيَسْتَبْدِلَ بِكُمْ غَيْرَكُمْ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ سَعْدٌ يَصِفُ لَهُ كَيْفِيَّةَ تِلْكَ الْمَنَازِلِ وَالْأَرَاضِي بِحَيْثُ كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهَا، وَكَتَبَ إِلَيْهِ يُخْبِرُهُ بِأَنَّ الْفُرْسَ قَدْ جَرَّدُوا لِحَرْبِهِ رُسْتُمَ وَأَمْثَالَهُ، فَهُمْ يَطْلُبُونَنَا وَنَحْنُ نَطْلُبُهُمْ، وَأَمْرُ اللَّهِ بَعْدُ مَاضٍ، وَقَضَاؤُهُ مسلم، إِلَى مَا قَدَّرَ لَنَا وَعَلَيْنَا، فَنَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرَ الْقَضَاءِ وَخَيْرَ الْقَدْرِ فِي عَافِيَةٍ.

الرسالة الثالثة: وَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكَ وَفَهِمْتُهُ، فَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ

وَمَنَحَكَ اللَّهُ أَدْبَارَهُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ أُلْقِيَ فِي رُوْعِي أَنَّكُمْ سَتَهْزِمُونَهُمْ فَلَا تَشُكَّنَّ فِي ذَلِكَ، فَإِذَا هَزَمْتَهُمْ فَلَا تَنْزِعْ عَنْهُمْ حَتَّى تَقْتَحِمَ عَلَيْهِمُ الْمَدَائِنَ فَإِنَّهُ خَرَابُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَجَعَلَ عُمَرُ يَدْعُو لِسَعْدٍ خَاصَّةً وَلَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً.

أول النصر

وَلَمَّا بَلَغَ سَعْدٌ العُذيب اعترض للمسلمين جيش للفرس مع شيرزاد بن أراذويه، فَغَنِمُوا مِمَّا مَعَهُ شَيْئًا كَثِيرًا وَوَقَعَ مِنْهُمْ مَوْقِعًا كَبِيرًا، فَخَمَّسَهَا سَعْدٌ وَقَسَمَ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِهَا فِي النَّاسِ وَاسْتَبْشَرَ النَّاسُ بِذَلِكَ وَفَرِحُوا، وَتَفَاءَلُوا، وَأَفْرَدَ سَعْدٌ سَرِيَّةً تَكُونُ حِيَاطَةً لِمَنْ مَعَهُمْ مِنَ الْحَرِيمِ، عَلَى هَذِهِ السَّرِيَّةِ غَالِبُ بْنُ عبد الله الليثي.

ثُمَّ سَارَ سَعْدٌ فَنَزَلَ الْقَادِسِيَّةَ، وَبَثَّ سَرَايَاهُ، وَأَقَامَ بِهَا شَهْرًا لَمْ يَرَ أَحَدًا مِنَ الْفُرْسِ، فَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ بِذَلِكَ، وَالسَّرَايَا تَأْتِي بِالْمِيرَةِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَعَجَّتْ رعايا الفرس من أطراف بلادهم إلى يزدجرد من الذي يلقون من المسلمين من النهب والسبي. وَقَالُوا: إِنْ لَمْ تُنْجِدُونَا وَإِلَّا أَعْطَيْنَا مَا بِأَيْدِينَا وَسَلَّمْنَا إِلَيْهِمُ الْحُصُونَ.

دعوة يزدجرد قبل خروج رستم إلى القادسية

كَانَ سَعْدٌ قَدْ بَعَثَ طَائِفَةً مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى كِسْرَى يَدْعُونَهُ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ الْوَقْعَةِ فَاسْتَأْذَنُوا عَلَى كِسْرَى فَأَذِنَ لَهُمْ، وَخَرَجَ أَهْلُ الْبَلَدِ يَنْظُرُونَ إِلَى أَشْكَالِهِمْ وَأَرْدِيَتِهِمْ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ وَسِيَاطِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ، وَالنِّعَالِ فِي أَرْجُلِهِمْ، وَخُيُولِهِمُ الضَّعِيفَةِ، وَخَبْطِهَا الأرض بأرجلها. وجعلوا يتعجبون منها غَايَةَ الْعَجَبِ كَيْفَ مِثْلُ هَؤُلَاءِ يَقْهَرُونَ جُيُوشَهُمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهَا وعُدَدِها. وَلَمَّا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الْمَلِكِ يَزْدَجِرْدَ أَذِنَ لَهُمْ وَأَجْلَسَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَكَانَ مُتَكَبِّرًا قَلِيلَ الْأَدَبِ، ثُمَّ جَعَلَ يَسْأَلُهُمْ عَنْ مَلَابِسِهِمْ هَذِهِ مَا اسْمُهَا؟ عَنِ الْأَرْدِيَةِ، وَالنِّعَالِ، وَالسِّيَاطِ ثُمَّ كُلَّمَا قَالُوا لَهُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ تَفَاءَلَ فَرَدَّ اللَّهُ فَأْلَهُ عَلَى رَأْسِهِ. ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: مَا الَّذِي أَقْدَمَكُمْ هَذِهِ الْبِلَادَ؟ أَظَنَنْتُمْ أَنَّا لَمَّا تَشَاغَلْنَا بِأَنْفُسِنَا اجْتَرَأْتُمْ عَلَيْنَا؟ فَقَالَ لَهُ النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنٍ: إِنَّ اللَّهَ رَحِمَنَا فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا يَدُلُّنَا عَلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُنَا بِهِ، وَيُعَرِّفُنَا الشَّرَّ وَيَنْهَانَا عَنْهُ، وَوَعَدَنَا عَلَى إِجَابَتِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ. فَلَمْ يَدْعُ إِلَى ذَلِكَ قَبِيلَةً إِلَّا صَارُوا فِرْقَتَيْنِ فِرْقَةً تُقَارِبُهُ وَفِرْقَةً تُبَاعِدُهُ، وَلَا يَدْخُلُ معه في دينه إلا الخواص، فمكث كذلك مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ أُمِرَ أن ينهد إِلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْعَرَبِ وَيَبْدَأَ بِهِمْ، فَفَعَلَ فَدَخَلُوا مَعَهُ جَمِيعًا عَلَى وَجْهَيْنِ مَكْرُوهٍ عليه فاغتبط، وطائع إياه فَازْدَادَ. فَعَرَفْنَا جَمِيعًا فَضْلَ مَا جَاءَ بِهِ عَلَى الَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالضِّيقِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَبْدَأَ بِمَنْ يَلِينَا مِنَ الْأُمَمِ فَنَدْعُوَهُمْ إِلَى الْإِنْصَافِ، فَنَحْنُ نَدْعُوكُمْ إِلَى دِينِنَا وهو دين الإسلام حَسَّنَ الْحَسَنَ وَقَبَّحَ الْقَبِيحَ كُلَّهُ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَأَمْرٌ مِنَ الشَّرِّ هُوَ أَهْوَنُ مِنْ آخَرَ شَرٍّ مِنْهُ الجزية، فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَالْمُنَاجَزَةُ. وَإِنْ أجبتم إلى ديننا خلفنا فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَمْنَاكُمْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْ تَحْكُمُوا بِأَحْكَامِهِ وَنَرْجِعَ عَنْكُمْ، وَشَأْنُكُمْ وَبِلَادَكُمْ، وَإِنِ أتيتمونا بِالْجِزْيَةِ قَبِلْنَا وَمَنَعْنَاكُمْ وَإِلَّا قَاتَلْنَاكُمْ. قَالَ فتكلَّمَ يَزْدَجِرْدُ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أُمَّةً كَانَتْ أَشْقَى وَلَا أَقَلَّ عَدَدًا وَلَا أَسْوَأَ ذَاتِ بَيْنٍ مِنْكُمْ، قَدْ كُنَّا نُوَكِّلُ بكم قرى الضواحي ليكفوناكم، لَا تَغْزُوكُمْ فَارِسُ وَلَا تَطْمَعُونَ أَنْ تَقُومُوا لَهُمْ. فَإِنْ كَانَ عَدَدُكُمْ كَثُرَ فَلَا يُغْرُنَّكُمْ مِنَّا، وَإِنْ كَانَ الْجَهْدُ دَعَاكُمْ فَرَضْنَا لَكُمْ قُوتًا إِلَى خِصْبِكُمْ وَأَكْرَمْنَا وُجُوهَكُمْ وَكَسَوْنَاكُمْ وَمَلَّكْنَا عَلَيْكُمْ مَلِكًا يَرْفُقُ بِكُمْ. فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ فَقَامَ المغيرة بن شعبة [1] فقال: أيها الملك إن هؤلاء رؤس الْعَرَبِ وَوُجُوهُهُمْ، وَهُمْ أَشْرَافٌ يَسْتَحْيُونَ مِنَ الْأَشْرَافِ، وَإِنَّمَا يُكْرِمُ الْأَشْرَافَ الْأَشْرَافُ، وَيُعَظِّمُ حُقُوقَ الْأَشْرَافِ الْأَشْرَافُ،وَلَيْسَ كُلُّ مَا أُرْسِلُوا لَهُ جَمَعُوهُ لَكَ، وَلَا كُلُّ مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ أَجَابُوكَ عليه، وَقَدْ أَحْسَنُوا وَلَا يُحْسِنُ بِمِثْلِهِمْ إِلَّا ذَلِكَ، فَجَاوِبْنِي فَأَكُونَ أَنَا الَّذِي أُبَلِّغُكَ وَيَشْهَدُونَ عَلَى ذَلِكَ. إِنَّكَ قَدْ وَصَفْتَنَا صِفَةً لَمْ تَكُنْ بِهَا عَالِمًا، فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ سُوءِ الْحَالِ فَمَا كَانَ أَسْوَأَ حَالًا مِنَّا، وَأَمَّا جُوعُنَا فَلَمْ يَكُنْ يُشْبِهُ الْجُوعَ، كُنَّا نَأْكُلُ الْخَنَافِسَ

---

(١) في الطبري والكامل: المغيرة بن زرار بن النباش، وكان أحد الوفد الذين أرسلهم سعد إلى يزدجرد. انظر حاشية «البداية والنهاية ط إحياء التراث» (٧/ ٤٩).

وَالْجِعْلَانَ وَالْعَقَارِبَ وَالْحَيَّاتِ، وَنَرَى ذَلِكَ طَعَامَنَا، وَأَمَّا الْمَنَازِلُ فَإِنَّمَا هِيَ ظَهْرُ الْأَرْضِ، وَلَا نَلْبَسُ إِلَّا مَا غَزَلْنَا مِنْ أَوْبَارِ الْإِبِلِ وَأَشْعَارِ الْغَنَمِ. دِينُنَا أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُنَا بَعْضًا، وأن يبغي بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَدْفِنُ ابْنَتَهُ وَهِيَ حَيَّةٌ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ طعامه، وكانت حَالُنَا قَبْلَ الْيَوْمِ عَلَى مَا ذَكَرْتُ لَكَ فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَجُلًا مَعْرُوفًا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَنَعْرِفُ وَجْهَهُ وَمَوْلِدَهُ، فَأَرْضُهُ خَيْرُ أَرْضِنَا، وَحَسَبُهُ خَيْرُ أَحْسَابِنَا، وَبَيْتُهُ خَيْرُ بُيُوتِنَا، وَقَبِيلَتُهُ خَيْرُ قَبَائِلِنَا، وَهُوَ نَفْسُهُ كَانَ خَيْرُنَا فِي الْحَالِ الَّتِي كَانَ فِيهَا أَصْدَقَنَا وَأَحْلَمَنَا، فَدَعَانَا إِلَى أمر فلم يجبه أحد أول ترب كان له الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِهِ، فَقَالَ وَقُلْنَا، وَصَدَقَ وَكَذَبْنَا، وَزَادَ وَنَقَصْنَا، فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا إِلَّا كَانَ، فَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِنَا التَّصْدِيقَ لَهُ وَاتِّبَاعَهُ، فَصَارَ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَمَا قَالَ لَنَا فَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ، وَمَا أَمَرَنَا فَهُوَ أَمْرُ اللَّهِ، فَقَالَ لَنَا إِنَّ رَبَّكُمْ يَقُولُ: أَنَا اللَّهُ وَحْدِي لَا شَرِيكَ لِي كنت إذ لم يكن شيء وكل شيء هالك إلا وجهي، وأنا خلقت كل شيء وإلي يصير كل شيء، وَإِنَّ رَحْمَتِي أَدْرَكَتْكُمْ فَبَعَثْتُ إِلَيْكُمْ هَذَا الرَّجُلَ لِأَدُلَّكُمْ عَلَى السَّبِيلِ الَّتِي أُنْجِيكُمْ بِهَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ عَذَابِي، وَلِأُحِلَّكُمْ دَارِي دَارَ السَّلَامِ. فَنَشْهَدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ الْحَقِّ، وَقَالَ مَنْ تَابَعَكُمْ عَلَى هَذَا فَلَهُ مالكم وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْكُمْ، وَمَنْ أبي فَاعْرِضُوا عَلَيْهِ الْجِزْيَةَ ثُمَّ امْنَعُوهُ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ، وَمَنْ أبي فَقَاتِلُوهُ فَأَنَا الْحَكَمُ بَيْنَكُمْ، فَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ أَدْخَلْتُهُ جَنَّتِي، وَمَنْ بَقِيَ مِنْكُمْ أَعْقَبْتُهُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُ. فَاخْتَرْ إِنْ شِئْتَ الْجِزْيَةَ وَأَنْتَ صَاغِرٌ، وَإِنْ شِئْتَ فَالسَّيْفَ،: أو تسلم فتنجي نفسك. فقال يزدجرد: أتستقبلني بِمِثْلِ هَذَا؟ فَقَالَ: مَا اسْتَقْبَلْتُ إِلَّا مَنْ كَلَّمَنِي، وَلَوْ كَلَّمَنِي غَيْرُكَ لَمْ أَسْتَقْبِلْكَ بِهِ. فَقَالَ: لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَقَتَلْتُكُمْ، لا شيء لَكُمْ عِنْدِي. وَقَالَ ائْتُونِي بِوَقْرٍ مِنْ تُرَابٍ فاحملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ أَبْيَاتِ الْمَدَائِنِ. ارْجِعُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ فَأَعْلِمُوهُ أَنِّي مُرْسِلٌ إِلَيْهِ رُسْتُمَ حَتَّى يَدْفِنَهُ وَجُنْدَهُ فِي خَنْدَقِ الْقَادِسِيَّةِ وَيُنَكِّلَ بِهِ وَبِكُمْ مِنْ بَعْدُ، ثُمَّ أُورِدُهُ بِلَادَكُمْ حَتَّى أَشْغَلَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ بِأَشَدَّ مِمَّا نَالَكُمْ مِنْ سَابُورَ. ثُمَّ قَالَ: مَنْ أَشْرَفُكُمْ؟ فَسَكَتَ

الْقَوْمُ فَقَالَ عَاصِمُ بْنُ عَمْرٍو وَافْتَاتَ لِيَأْخُذَ التُّرَابَ أَنَا أَشْرَفُهُمْ، أَنَا سَيِّدُ هَؤُلَاءِ فَحَمِّلْنِيهِ، فَقَالَ: أكذلك؟ قَالُوا: نَعَمْ. فَحَمَلَهُ عَلَى عُنُقِهِ فَخَرَجَ بِهِ مِنَ الْإِيوَانِ وَالدَّارِ حَتَّى أَتَى رَاحِلَتَهُ فَحَمَلَهُ عليها ثم انجذب في السير ليأتوا بِهِ سَعْدًا وَسَبَقَهُمْ عَاصِمٌ فَمَرَّ بِبَابِ قُدَيْسٍ فطواه وقال بَشِّرُوا الْأَمِيرَ بِالظَّفَرِ، ظَفِرْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ مَضَى حَتَّى جَعَلَ التُّرَابَ فِي الْحِجْرِ ثُمَّ رَجَعَ فَدَخَلَ عَلَى سَعْدٍ فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ.فَقَالَ: أَبْشِرُوا فَقَدْ وَاللَّهِ أَعْطَانَا اللَّهُ أَقَالِيدَ مُلْكِهِمْ، وَتَفَاءَلُوا بِذَلِكَ أَخْذَ بِلَادِهِمْ. ثُمَّ لَمْ يَزَلْ أَمْرُ الصَّحَابَةِ يَزْدَادُ فِي كُلِّ يَوْمٍ عُلُوًّا وَشَرَفًا وَرِفْعَةً، وَيَنْحَطُّ أَمْرَ الْفُرْسِ سُفْلًا وَذُلًّا وَوَهَنًا. وجاء رُسْتُمُ إِلَى الْمَلِكِ يَسْأَلُهُ عَنْ حَالِ مَنْ رَأَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ؟ فَذَكَرَ لَهُ عَقْلَهُمْ وَفَصَاحَتَهُمْ وَحِدَّةَ جَوَابِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَرُومُونَ أَمْرًا يُوشِكُ أَنْ يُدْرِكُوهُ. وَذَكَرَ مَا أَمَرَ بِهِ أَشْرَفَهُمْ مِنْ حَمْلِ التُّرَابِ وَأَنَّهُ اسْتَحْمَقَ أَشْرَفَهُمْ فِي حَمْلِهِ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ، وَلَوْ شَاءَ اتَّقَى بِغَيْرِهِ وَأَنَا لَا أشعر. فقال له رستم: إنه ليس أحمق، وَلَيْسَ هُوَ بِأَشْرَفِهِمْ، إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَفْتَدِيَ قَوْمَهُ بِنَفْسِهِ وَلَكِنْ وَاللَّهِ ذَهَبُوا بِمَفَاتِيحِ أَرْضِنَا وَكَانَ رُسْتُمُ مُنَجِّمًا، ثُمَّ أَرْسَلَ رَجُلًا وَرَاءَهُمْ وَقَالَ: إِنْ أَدْرَكَ التُّرَابَ فَرَدَّهُ تَدَارَكْنَا أَمْرَنَا، وَإِنْ ذَهَبُوا بِهِ إِلَى أَمِيرِهِمْ غَلَبُونَا عَلَى أَرْضِنَا قَالَ: فَسَاقَ وَرَاءَهُمْ فَلَمْ يُدْرِكْهُمْ بَلْ سَبَقُوهُ إِلَى سَعْدٍ بِالتُّرَابِ وَسَاءَ ذَلِكَ فَارِسَ وَغَضِبُوا مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْغَضَبِ وَاسْتَهْجَنُوا رَأْيَ الملك.

وَاجْتَمَعَ رَأْيُ الْفُرْسِ عَلَى إِرْسَالِ رُسْتُمَ إِلَيْهِمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ يَزْدَجِرْدُ فَأَمَّرَهُ عَلَى الْجَيْشِ فَاسْتَعْفَى رُسْتُمُ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِرَأْيٍ فِي الْحَرْبِ، إِنَّ إِرْسَالَ الْجُيُوشِ بَعْدَ الْجُيُوشِ أَشَدُّ عَلَى الْعَرَبِ مِنْ أَنْ يَكْسِرُوا جَيْشًا كَثِيفًا مَرَّةً وَاحِدَةً. فَأَبِي الْمَلِكُ إِلَّا ذَلِكَ، فَتَجَهَّزَ رُسْتُمُ لِلْخُرُوجِ. ثُمَّ بَعَثَ سَعْدٌ كَاشِفًا إِلَى الْحِيرَةِ وَإِلَى صَلُوبَا فَأَتَاهُ الْخَبَرُ بِأَنَّ الْمَلِكَ قَدْ أَمَّرَ عَلَى الْحَرْبِ رُسْتُمَ بْنَ الْفَرُّخْزَاذِ الْأَرْمَنِيَّ، وَأَمَدَهُ بِالْعَسَاكِرِ.

الرسالة الرابعة: فَكَتَبَ سَعْدٌ إِلَى عُمَرَ بِذَلِكَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: لَا يَكْرَبَنَّكَ مَا يَأْتِيكَ عَنْهُمْ، وَلَا مَا يَأْتُونَكَ بِهِ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَابْعَثْ إِلَيْهِ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالرَّأْيِ وَالْجَلَدِ يَدْعُونَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ دُعَاءَهُمْ تَوْهِينًا لَهُمْ وَفَلْجًا عَلَيْهِمْ، وَاكْتُبْ إِلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ. وَلَمَّا اقْتَرَبَ رُسْتُمُ بِجُيُوشِهِ وَعَسْكَرَ بِسَابَاطَ كَتَبَ سَعْدٌ إِلَى عُمَرَ يَقُولُ: إِنَّ رُسْتُمَ قَدْ عَسْكَرَ بِسَابَاطَ وَجَرَّ الْخُيُولَ والفيول وزحف علينا بها، وليس شيء أَهَمَّ عِنْدِي، وَلَا أَكْثَرَ ذِكْرًا مِنِّي لِمَا أَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ عَلَيْهِ مِنَ الِاسْتِعَانَةِ وَالتَّوَكُّلِ.

عدد جيش الفرس وترتيبهم

وَعَبَّأَ رُسْتُمُ جيشه وهو قائدهم الأكبر

١- فَجَعَلَ عَلَى الْمُقَدِّمَةِ الْجَالِنُوسَ

٢- وَعَلَى الْمَيْمَنَةِ الْهُرْمُزَانَ

٣- وَعَلَى الْمَيْسَرَةِ مِهْرَانَ بْنَ بَهْرَامَ

٤- وَعَلَى السَّاقَةِ الْبَنْدَرَانَ ، فَالْجَيْشُ كُلُّهُ [سِتُّونَ] أَلْفًا ،وَكَانَ مَعَهُ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ فِيلًا مِنْهَا فِيلٌ أَبْيَضُ كَانَ لِسَابُورَ، فَهُوَ أَعْظَمُهَا وَأَقْدَمُهَا، وَكَانَتِ الْفِيَلَةُ تَأْلَفُهُ.

الدعوة قبل القتال

ثُمَّ بَعَثَ سَعْدٌ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّادَاتِ مِنْهُمُ النُّعْمَانُ بن مقرن، وفرات بن حيان ، وَحَنْظَلَةُ بْنُ الرَّبِيعِ التَّمِيمِيُّ، وَعُطَارِدُ بْنُ حَاجِبٍ، وَالْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، وَعَمْرُو بن معديكرب [١] يَدْعُونَ رُسْتُمَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَقَالَ لَهُمْ رُسْتُمُ:

---

(١) زاد الطبري: بسر بن أبي رهم وجملة بن جوية الكناني وعدي بن سهيل والمغيرة بن زرارة بن النباش بن حبيب والحارث بن حسان وعاصم بن عمرو والمعنى بن حارثة. أما ابن الأعثم فزاد:طليحة بن خويلد الأسدي وجرير بن عبد الله البجلي والمغيرة بن شعبة الثقفي وعاصم بن عمرو التميمي وشرحبيل بن السمط الكندي والمنذر بن حسان الضبي وإبراهيم بن حارثة الشيباني.انظر حاشية «البداية والنهاية ط إحياء التراث» (٧/ ٤٥) وانظر الكامل (٢ / ٤٥٦).

مَا أَقْدَمَكُمْ؟ فَقَالُوا: جِئْنَا لِمَوْعُودِ اللَّهِ إِيَّانَا، أَخْذِ بِلَادِكُمْ وَسَبْيِ نِسَائِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ وَأَخْذِ أَمْوَالِكُمْ، فَنَحْنُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ ذَلِكَ. وَقَدْ رَأَى رُسْتُمُ فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ مَلَكًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فَخَتَمَ عَلَى سِلَاحِ الْفُرْسِ كُلِّهِ وَدَفَعَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَفَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عُمَرَ.

كيف يخاطب العدو عند حضور القتال

قَالَ أَبُو وَائِلٍ: جَاءَ سَعْدٌ حَتَّى نَزَلَ الْقَادِسِيَّةَ وَمَعَهُ النَّاسُ فَمَا أَدْرِي لَعَلَّنَا أَنْ لَا نَزِيدَ عَلَى سَبْعَةِ آلَافٍ أَوْ ثَمَانِيَةِ آلَافٍ ، بَيْنَ ذَلِكَ ، وَالْمُشْرِكُونَ سِتُّونَ أَلْفًا أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ فَقَالُوا لَا يَدَ لَكُمْ وَلَا قُوَّةَ وَلَا سِلَاحَ، مَا جَاءَ بِكُمْ؟ ارْجِعُوا. قَالَ: قُلْنَا مَا نَحْنُ بِرَاجِعِينَ، فَكَانُوا يَضْحَكُونَ مِنْ نَبْلِنَا وَيَقُولُونَ دُوكْ يُشَبِّهُونَهَا بِالْمَغَازِلِ. فَلَمَّا أَبَيْنَا عَلَيْهِمْ أن نرجع قالوا: ابْعَثُوا إِلَيْنَا رَجُلًا عَاقِلًا يُخْبِرُنَا بِالَّذِي جَاءَ بِكُمْ مِنْ بِلَادِكُمْ. فَقَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، أَنَا: فَعَبَرَ إِلَيْهِمْ فَقَعَدَ مَعَ رُسْتُمَ عَلَى السَّرِيرِ فَنَخَرُوا وَصَاحُوا، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَمْ يَزِدْنِي رِفْعَةً وَلَمْ يُنْقِصْ صَاحِبَكُمْ. فقال رُسْتُمُ: صَدَقَ، مَا جَاءَ بِكُمْ؟ فَقَالَ: إِنَّا كُنَّا قَوْمًا فِي شَرٍّ وَضَلَالَةٍ، فَبَعَثَ اللَّهُ إلينا نَبِيًّا فَهَدَانَا اللَّهُ بِهِ وَرَزَقَنَا عَلَى يَدَيْهِ، فكان فيما رزقنا حبة تنبت في هذا الْبَلَدِ، فَلَمَّا أَكَلْنَاهَا وَأَطْعَمْنَاهَا أَهْلِينَا قَالُوا: لَا صَبْرَ لَنَا عَنْهَا، أَنْزِلُونَا هَذِهِ الْأَرْضَ حَتَّى نأكل من هذه الحبة. فقال رستم: إذا نَقْتُلُكُمْ. قَالَ إِنْ قَتَلْتُمُونَا دَخَلْنَا الْجَنَّةَ، وَإِنْ قتلناكم دخلتم النار وأديتم الجزية. قال: فلما قال وأديتم الْجِزْيَةَ نَخَرُوا وَصَاحُوا وَقَالُوا: لَا صُلْحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ. فَقَالَ الْمُغِيرَةُ: تَعْبُرُونَ إِلَيْنَا أَوْ نَعْبُرُ إِلَيْكُمْ؟ فَقَالَ رُسْتُمُ: بَلْ نَعْبُرُ إِلَيْكُمْ، فَاسْتَأْخَرَ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى عَبَرُوا فَحَمَلُوا عَلَيْهِمْ فَهَزَمُوهُمْ[1].

فصل: كَانَتْ وَقْعَةُ الْقَادِسِيَّةِ وَقْعَةٌ عَظِيمَةٌ لَمْ يَكُنْ بِالْعِرَاقِ أَعْجَبُ مِنْهَا:

وَذَلِكَ أَنَّه لَمَّا تَوَاجَهَ الصَّفَّانِ كَانَ سَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ أَصَابَهُ عِرْقُ النَّسَا، وَدَمَامِلُ

---

(١) **قصة صحيحة:** أخرجها ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٤٤٣٦).

فِي جَسَدِهِ، فَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ الرُّكُوبَ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي قَصْرٍ مُتَّكِئٍ عَلَى صَدْرِهِ فَوْقَ وِسَادَةٍ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْجَيْشِ وَيُدَبِّرُ أَمْرَهُ.

١- وَقَدْ جَعَلَ أَمْرَ الْحَرْبِ إِلَى خَالِدِ بْنِ عُرْفُطَةَ.

٢- وَجَعَلَ عَلَى الْمَيْمَنَةِ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيَّ.

٣- وَعَلَى الميسرة قيس بن مَكْشُوحٍ ، وَكَانَ قَيْسٌ وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَدْ قَدِمَا عَلَى سَعْدٍ مَدَدًا مِنْ عِنْدِ أَبِي عبيدة من الشام بعدما شَهِدَا وَقْعَةَ الْيَرْمُوكِ.

٤- وحامل اللواء ابن مكتوم الأعمى، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ : كَانَ عَلَى ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ دِرْعٌ سَابِغٌ (١)، وَمَعَهُ رَايَةٌ سَوْدَاءُ (٢).

فَصَلَّى سَعْدٌ بِالنَّاسِ الظُّهْرَ، ثُمَّ خَطَبَ النَّاسَ فَوَعَظَهُمْ وَحَثَّهُمْ وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة الأنبياء:١٠٥].

وَقَرَأَ الْقُرَّاءُ آيَاتِ الْجِهَادِ وَسُوَرَهُ، ثُمَّ كَبَّرَ سَعْدٌ أَرْبَعًا، ثُمَّ حَمَلُوا بَعْدَ الرَّابِعَةِ، فَاقْتَتَلُوا حَتَّى كَانَ اللَّيْلُ، فَتَحَاجَزُوا، وَقَدْ قُتِلَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بَشَرٌ كَثِيرٌ، ثُمَّ أَصْبَحُوا إِلَى مَوَاقِفِهِمْ، فَاقْتَتَلُوا يَوْمَهُمْ ذَلِكَ وَعَامَّةَ لَيْلَتِهِمْ، ثُمَّ أَصْبَحُوا كَمَا أَمْسَوْا عَلَى مَوَاقِفِهِمْ، فَاقْتَتَلُوا حَتَّى أَمْسَوْا، ثُمَّ اقْتَتَلُوا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ كَذَلِكَ، وَأَمْسَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ تُسَمَّى لَيْلَةَ الْهَرِيرِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ اقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، وَقَدْ قَاسَوْا مِنَ الْفِيَلَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْخُيُولِ الْعَرَبِيَّةِ بِسَبَبِ نُفْرَتِهَا مِنْهَا، أَمْرًا بَلِيغًا، وَقَدْ أَبَادَ الصَّحَابَةُ الْفِيَلَةَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَقَلَعُوا عُيُونَهَا، وَأَبْلَى جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّجْعَانِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ مِثْلُ طُلَيْحَةَ الْأَسَدِيِّ، وَعَمْرِو بْنِ مَعْدِيكَرِبَ، وَالْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو، وَجَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ، وَضِرَارِ بْنِ الْخَطَّابِ، وَخَالِدِ بْنِ عُرْفُطَةَ وَأَشْكَالِهِمْ وَأَضْرَابِهِمْ، فَلَمَّا كَانَ

---

(١) **قصة صحيحة:** أخرجها ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٤٤٦٤).

(٢) **صحيح:** أخرجه ابن حجر في "المطالب العالية" (١٦ / ٣٨٩) (٤٠٣٤) بسند صحيح وله متابعات عند عبد الرزاق في تفسيره (٣٤٩٤) (٣/ ٣٩٢) وعند أبي يعلى (٣١١٠).

وَقْتُ الزَّوَالِ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ - وَيُسَمَّى يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ، وَكَانَ يَوْمَ الِإثْنَيْنِ مِنَ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ، - هَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَرَفَعَتْ خِيَامَ الْفُرْسِ عَنْ أَمَاكِنِهَا، وَأَلْقَتْ سَرِيرَ رُسْتُمَ الَّذِي هُوَ مَنْصُوبٌ لَهُ، فَبَادَرَ فَرَكِبَ بِغَلَّتِهِ وَهَرَبَ، وَانْهَزَمَتِ الْفُرْسُ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ - عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ، وَلَحِقَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي أَقْفَائِهِمْ.

وَكَانَ أبو مِحْجَنٍ فِي الْقَصْرِ مَسْجُونٌ عَلَى الشَّرَابِ كَانَ قَدْ حُدَّ فِيهِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً، يُقَالُ سَبْعَ مَرَّاتٍ، فأمر به سعد فقيد وأودع في الْقَصْرَ فَلَمَّا رَأَى الْخُيُولَ تَجُولُ حَوْلَ حِمَى الْقَصْرِ وَكَانَ مِنَ الشُّجْعَانِ الْأَبْطَالِ قَالَ:

كَفَى حزنـًا أن تـدحم الخيـل ❁❁❁ وأترك مشـــدوداً علي وثـاقيـا
إذا قمت عناني الحديد وغلقت ❁❁❁ مَصَارِيعُ مِنْ دُونِي تَصُمُّ الْمُنَادِيَا
وَقَـدْ كُنْـتُ ذَا مَـالٍ كَثِيرٍ وَإِخْوَةٍ ❁❁❁ وَقَـدْ تَرَكُونِي مُفْرَدًا لا أخـاليـا
ولله عـهـد لا أخـيـس بـعـهـده ❁❁❁ لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

ثُمَّ سَأَلَ مِنْ زَبْرَاءَ أُمِّ وَلَدِ سَعْدٍ أَنْ تُطْلِقَهُ وَتُعِيرَهُ فَرَسَ سَعْدٍ، وَحَلَفَ لَهَا أَنَّهُ يَرْجِعُ آخِرَ النَّهَارِ فَيَضَعُ رِجْلَهُ فِي الْقَيْدِ فَأَطْلَقَتْهُ، وَرَكِبَ فَرَسَ سَعْدٍ وَخَرَجَ فَقَاتَلَ قِتَالًا شَدِيدًا، وَجَعَلَ سَعْدٌ يَنْظُرُ إِلَى فَرَسِهِ فَيَعْرِفُهَا وَيُنْكِرُهَا وَيُشَبِّهُهُ بِأَبِي مِحْجَنٍ وَلَكِنْ يَشُكُّ لِظَنِّهِ أَنَّهُ فِي الْقَصْرِ مُوثَقٌ، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ النَّهَارِ رَجَعَ فَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي قَيْدِهَا وَنَزَلَ سَعْدٌ فَوَجَدَ فَرَسَهُ يَعْرِقُ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَذَكَرُوا لَهُ قِصَّةَ أَبِي مِحْجَنٍ فَرْضِيَ عَنْهُ وَأَطْلَقَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.(١)

وعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ الْبَجَلِيِّ - وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ الْقَادِسِيَّةَ - قَالَ: كَانَ مَعَنَا رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ فَلَحِقَ بِالْفُرْسِ مُرْتَدًّا، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ بَأْسَ النَّاسِ فِي الْجَانِبِ الَّذِي فِيهِ بَجِيلَةُ. قَالَ: وَكُنَّا رُبُعَ النَّاسِ، قَالَ: فَوَجَّهُوا إِلَيْنَا سِتَّةَ عَشَرَ فِيلًا، وَجَعَلُوا يُلْقُونَ

(١) **قصة أبي محجن صحيحة:** أخرجها سعيد بن منصور في "سننه" (٢٥٠٢) وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٤٤٣٥)وعبد الرزاق في "مصنفه" (١٧٠٧٧) وبعض الروايات تبين بعضًا.

تَحْتَ أَرْجُلِ خُيُولِنَا حَسَكَ الحديد، ويرشقوننا بالنشاب، فلكأنه المطر، وقربوا خيولهم بعضها إلى بعض لئلا ينفروا. قال: وكان عمرو بن معد يكرب الزُّبَيْدِيُّ يَمُرُّ بِنَا فَيَقُولُ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، كُونُوا أُسُودًا فَإِنَّمَا الْفَارِسِيُّ تَيْسٌ [بَعْدَ أَنْ يُلْقِي نَيْزَكَهُ] قَالَ: وَكَانَ فِيهِمْ أُسْوَارٌ لَا تَكَادُ تَسْقُطُ لَهُ نُشَّابَةٌ، فَقُلْنَا لَهُ يَا أَبَا ثَوْرٍ اتَّقِ ذَاكَ الْفَارِسِيَّ ; فَإِنَّهُ لَا تَسْقُطُ لَهُ نُشَّابَةٌ، فَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ، وَرَمَاهُ الْفَارِسِيُّ بِنُشَّابَةٍ فَأَصَابَ تُرْسَهُ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ عَمْرٌو فَاعْتَنَقَهُ فَذَبَحَهُ فَاسْتَلَبَهُ سُوَارَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ، وَمِنْطَقَةً مِنْ ذَهَبٍ، وَيَلْمَقًا مِنْ دِيبَاجٍ[1].

ملاحقة الفرس حين فرّوا

أدرك المسلمون رستمًا فقتله الله على أيديهم وَكَانَ الَّذِي قَتَلَهُ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ هِلَالُ بْنُ عُلَّفَةَ التَّيْمِيُّ ، رَمَاهُ رُسْتُمُ بِنُشَّابَةٍ فَأَصَابَ قَدَمَهُ وَحَمَلَ عَلَيْهِ هِلَالٌ فَقَتَلَهُ وَاحْتَزَّ رَأْسَهُ وَوَلَّتِ الْفُرْسُ فَأَتْبَعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ يُقَتِّلُونَهُمْ فَأَدْرَكُوهُمْ فِي مَكَانٍ قَدْ نَزَلُوا فِيهِ وَاطْمَأَنُّوا، فَبَيْنَمَا هُمْ سُكَارَى قَدْ شَرِبُوا وَلَعِبُوا إِذْ هَجَمَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فَقَتَلُوا مِنْهُمْ مقتلة عظيمة، وقتل هنالك الجالينوس[مُقَدَّم الطَّلَائِعِ الْفَارِسِيَّةِ]، قَتَلَهُ زُهْرَةُ بْنُ حَوِيَّةَ التَّمِيمِيُّ.

ثُمَّ سَارُوا خَلْفَهُمْ فَكُلَّمَا تَوَاجَهَ الْفَرِيقَانِ نَصَرَ اللَّهُ حِزْبَ الرَّحْمَنِ، وَخَذَلَ حِزْبَ الشَّيْطَانِ وَعَبَدَةَ النِّيرَانِ، وَاحْتَازَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا يَعْجَزُ عَنْ حَصْرِهِ مِيزَانٌ وَقَبَّانٌ، حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَنْ يُقَايِضُ بَيْضَاءَ بِصَفْرَاءَ لِكَثْرَةِ مَا غَنِمُوا مِنَ الْفُرْسَانِ. وَلَمْ يَزَالُوا يَتْبَعُونَهُمْ حَتَّى جَازُوا الْفُرَاتَ وَرَاءَهُمْ وَفَتَحُوا الْمَدَائِنَ وَجَلُولَاءَ عَلَى مَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَبِهِ الثِّقَةُ.

[قَالَ حَنَش بْن الْحَارِثِ: سَمِعْتُ أَبِي يَذْكُرُ قَالَ : لَمَّا قَدِمْنَا مِنَ الْيَمَنِ ، نَزَلْنَا

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن كثير بسند حسن هنا وأخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (٢٦٩١) وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣١٣٢٣) و (٣٣١٤١) و (٣٤٢٦٨) و (٣٤٤٣٢) والطبراني في "الكبير" (٩٨) بأسانيد صحيحة.

الْمَدِينَةَ فَخَرَجَ عَلَيْنَا عُمَرُ فَطَافَ فِي النَّخَعِ وَنَظَرَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ النَّخَعِ ، إِنِّي أَرَى السَّرْوَ فِيكُمْ مُتَرَبِّعًا ، فَعَلَيْكُمْ بِالْعِرَاقِ وَجُمُوعِ فَارِسَ ، فَقُلْنَا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا بَلِ الشَّامُ نُرِيدُ الْهِجْرَةَ إِلَيْهَا ، قَالَ : لَا ، بَلِ الْعِرَاقُ ، فَإِنِّي قَدْ رَضِيتُهَا لَكُمْ ، قَالَ : حَتَّى قَالَ بَعْضُنَا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، قَالَ : فَلَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، عَلَيْكُمْ بِالْعِرَاقِ ، قَالَ : فِيهَا جُمُوعُ الْعَجَمِ وَنَحْنُ أَلْفَانِ وَخَمْسُ مِائَةٍ ، قَالَ : فَأَتَيْنَا الْقَادِسِيَّةَ فَقُتِلَ مِنَ النَّخَعِ وَاحِدٌ[١] ، وَكَذَا وَكَذَا رَجُلًا مِنْ سَائِرِ النَّاسِ ثَمَانُونَ ، فَقَالَ عُمَرُ : مَا شَأْنُ النَّخَعِ ، أُصِيبُوا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ النَّاسِ ، أَفَرَّ النَّاسُ عَنْهُمْ ؟ قَالُوا : لَا ، بَلْ وَلُوا عُظْمَ الْأَمْرِ وَحْدَهُمْ .][٢]

وممن حضر القادسية سَعْدُ بْنُ عُبَيْدٍ وَكَانَ يُدْعَى فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ الْقَارِئَ ، وَكَانَ لَقِيَ عَدُوًّا فَانْهَزَمَ مِنْهُمْ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : هَلْ لَكَ فِي الشَّامِ لَعَلَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَيْكَ ، قَالَ : لَا إِلَّا الَّذِينَ فَرَرْتُ مِنْهُمْ ، قَالَ : فَخَطَبَهُمْ بِالْقَادِسِيَّةِ فَقَالَ : " إِنَّا لَاقُو الْعَدُوِّ إِنْ شَاءَ اللهُ غَدًا ، وَإِنَّا مُسْتَشْهَدُونَ ، فَلَا تَغْسِلُوا عَنَّا دَمًا ، وَلَا نُكَفَّنُ إِلَّا فِي ثَوْبٍ كَانَ عَلَيْنَا " [٣]. فاستشهد بها.

وَقال أبوعُثْمَانَ النَّهْدِيَّ غَزَوْتُ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ غَزَوَاتٍ ، شَهِدْتُ فَتْحَ الْقَادِسِيَّةِ وَجَلُولَاءَ وَتُسْتَرَ وَنَهَاوَنْدَ وَالْيَرْمُوكَ وَأَذْرَبِيجَانَ وَمِهْرَانَ وَرُسْتُمَ[٤].

عدد قتلى الفرس قبحهم الله وعدد قتلى المسلمين عليهم رحمة الله

قُتِلَ يَوْمَئِذٍ [من الْفُرْس] فِي الْمَعْرَكَةِ عَشَرَةَ آلَافٍ، وَقُتِلَ قَبْلَ ذَلِكَ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، [فكان مجموع القتلى عشرين ألفًا] وَقُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَمَا قَبْلَهِ

---

(١) ذكر الحافظ الحديث في الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ١٩٦) وفيه فقتل منا كثير، ومن سائر الناس قليل. وهو الأنسب.

(٢) **حسن:** أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٤٤٤٨) ، و(٣٤٤٤٩).

(٣) **صحيح:** أخرجه عبد الرزاق في "مصنفه" (٦٦٤٢) وابن أبي شيبة في "مصنفه (١١١٠٦).

(٤) **صحيح:** أخرجه ابن أبي شيبة (٢٤٨٦٦) وأورده ابن حجر في "المطالب العالية" (٤٠٨٩).

مِنَ الْأَيَّامِ أَلْفَانِ وَخَمْسُمِائَةٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وَقَدْ غَنِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ وَقْعَةِ الْقَادِسِيَّةِ هَذِهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالسِّلَاحِ مَا لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ كَثْرَةً، فَحُصِّلَتِ الْغَنَائِمُ بَعْدَ صَرْفِ الْأَسْلَابِ، وَخُمِّسَتْ وَبُعِثَ بِالْخُمُسِ وَالْبِشَارَةِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ سَعْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ بِهِ قُرُوحٌ وَعِرْقُ النَّسَا، فَمَنَعَهُ مِنْ شُهُودِ الْقِتَالِ لَكِنَّهُ جَالِسٌ فِي رَأْسِ الْقَصْرِ يَنْظُرُ فِي مَصَالِحِ الْجَيْشِ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ لَا يُغْلِقُ عَلَيْهِ بَابَ الْقَصْرِ لِشَجَاعَتِهِ، وَلَوْ فَرَّ النَّاسُ لَأَخَذَتْهُ الْفُرْسُ قَبْضًا بِالْيَدِ، لَا يَمْتَنِعُ مِنْهُمْ.

رسالة البشارة بالنصر

وَقَدْ كَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسْتَخْبِرُ عَنْ أَمْرِ الْقَادِسِيَّةِ كُلَّ مَنْ لَقِيَهُ مِنَ الرُّكْبَانِ، وَيَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى نَاحِيَةِ الْعِرَاقِ يَسْتَنْشِقُ الْخَبَرَ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ إِذَا هُوَ بِرَاكِبٍ يَلُوحُ مِنْ بُعْدٍ، فَاسْتَقْبَلَهُ عُمَرُ فَاسْتَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ: فَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْقَادِسِيَّةِ وَغَنِمُوا غَنَائِمَ كَثِيرَةً وَجَعَلَ يُحَدِّثُهُ وَهُوَ لَا يعرف عمر وعمر ماش؟ تَحْتَ رَاحِلَتِهِ، فَلَمَّا اقْتَرَبَا مِنَ الْمَدِينَةِ جَعَلَ النَّاسُ يُحَيُّونَ عُمَرَ بِالْإِمَارَةِ فَعَرَفَ الرَّجُلُ عُمَرَ فَقَالَ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلَّا أَعْلَمْتَنِي أَنَّكَ الْخَلِيفَةُ؟ فَقَالَ لَا حَرَجَ عَلَيْكَ يَا أَخِي. وَكَتَبَ سَعْدٌ إِلَى عُمَرَ يُخْبِرُهُ بِالْفَتْحِ وَبِعِدَّةِ مَنْ قَتَلُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ،وَبِعِدَّةِ مَنْ قُتِلَ من المسلمين، بعث بِالْكِتَابِ مَعَ سَعْدِ بْنِ عُمَيْلَةَ الْفَزَارِيِّ وَصُورَتُهُ " أَمَّابَعْدُ: فَإِنَّ اللَّهَ نَصَرَنَا عَلَى أَهْلِ فارس ومنحناهم سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ دِينِهِمْ، بَعْدَ قِتَالٍ طَوِيلٍ، وَزِلْزَالٍ شَدِيدٍ، وَقَدْ لَقُوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مِثْلَ زُهَائِهَا، فَلَمْ يَنْفَعْهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ، بَلْ سُلِبُوهُ وَنَقَلَهُ عَنْهُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَتْبَعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْأَنْهَارِ، وعلى طفوف الْآجَامِ، وَفِي الْفِجَاجِ. وَأُصِيبَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَعْدُ بْنُ عُبَيْدٍ الْقَارِّيُّ (١)وَفُلَانٌ، وَرِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّهُ بِهِمْ عَالِمٌ كَانُوا

(١) في الطبري: القارئ، وفي فتوح البلدان: الأنصاري واغتم عمر لمصابه وقال: لقد كاد قتله ينغض

يُدَوُّونَ بِالْقُرْآنِ إِذَا جَنَّ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، وَهُمْ آسَادٌ فِي النَّهَارِ لَا تُشْبِهُهُمُ الْأُسُودُ، وَلَمْ يُفَضُلْ مَنْ مَضَى مِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ إِلَّا بِفَضْلِ الشَّهَادَةِ إِذَا لَمْ تُكْتَبْ لَهُمْ. فَيُقَالُ إِنَّ عُمَرَ قَرَأَ هَذِهِ الْبِشَارَةَ عَلَى النَّاسِ فَوْقَ الْمِنْبَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. ثُمَّ قَالَ عُمَرُ لِلنَّاسِ: إِنِّي حَرِيصٌ عَلَى أَنْ لَا أَرَى حَاجَةً إِلَّا سَدَدْتُهَا، مَا اتَّسَعَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ، فَإِذَا عَجَزَ ذَلِكَ عَنَّا تَأَسَّيْنَا فِي عَيْشِنَا حَتَّى نَسْتَوِيَ فِي الْكَفَافِ، وَلَوَدِدْتُ أَنَّكُمْ عَلِمْتُمْ مِنْ نَفْسِي مِثْلَ الَّذِي وَقَعَ فِيهَا لَكُمْ، وَلَسْتُ مُعْلِمَكُمْ إِلَّا بِالْعَمَلِ، إِنِّي وَاللَّهِ لَسْتُ بِمَلِكٍ فَأَسْتَعْبِدَكُمْ، وَلَكِنِّي عَبْدُ اللَّهِ عَرَضَ عَلَيَّ الْأَمَانَةَ فَإِنْ أَبَيْتُهَا وَرَدَدْتُهَا عَلَيْكُمْ وَاتَّبَعْتُكُمْ حَتَّى تَشْبَعُوا فِي بُيُوتِكُمْ وَتَرْوَوْا سَعِدْتُ بِكُمْ، وإن أنا حملتها واستتبعتكم إِلَى بَيْتِي شَقِيتُ بِكُمْ، فَفَرِحْتُ قَلِيلًا وَحَزِنْتُ طَوِيلًا، فَبَقِيتُ لَا أُقَالُ وَلَا أُرَدُّ فَأُسْتَعْتَبَ .

قَالُوا: وَكَانَتِ الْعَرَبُ مِنَ الْعُذَيْبِ إِلَى عَدَنِ أَبْيَنَ، يَتَرَبَّصُونَ وَقْعَةَ الْقَادِسِيَّةِ هَذِهِ، يَرَوْنَ أَنَّ ثَبَاتَ مُلْكِهِمْ وَزَوَالَهُ بِهَا، وَقَدْ بَعَثَ أَهْلُ كُلِّ بَلْدَةٍ قَاصِدًا يَكْشِفُ مَا يَكُونُ مِنْ خَبَرِهِمْ، فَلَمَّا كَانَ مَا كَانَ مِنَ الْفَتْحِ سَبَقَتِ الْجِنُّ بِالْبِشَارَةِ إِلَى أَقْصَى الْبِلَادِ قَبْلَ رُسُلِ الْإِنْسِ فَسُمِعَتِ امْرَأَةٌ لَيْلًا بِصَنْعَاءَ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَهِيَ تَقُولُ:

فَحُيِّيتِ عَنَّا عكرمَ ابْنَةَ خَالِدٍ ❁❁❁ وَمَا خير زاد بالقليل المصردِ

وحييت عني الشمس عند طلوعها ❁❁❁ وحييت عني كل تاج مفرَّدِ

وَحَيَّتْكِ عَنِّي عُصْبَةٌ نَخَعِيَّةٌ ❁❁❁ حِسَانُ الْوُجُوهِ آمَنُوا بِمُحَمَّدِ

أَقَامُوا لِكِسْرَىٰ يَضْرِبُونَ جُنُودَهُ ❁❁❁ بِكُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ

إِذَا ثَوَّبَ الدَّاعِي أَنَاخُوا بكلكلٍ ❁❁❁ مِنَ الْمَوْتِ مُسْوَدِّ الْغَيَاطِلِ أَجْرَدِ

قَالُوا: وَسَمِعَ أَهْلُ الْيَمَامَةِ مُجْتَازًا يُغَنِّي بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ:

وجدنا الأكرمين بني تميم ❁❁❁ غداة الروع أكثرهم رجالا

علي هذا الفتح(٢ / ٣٢٦). « وهو أبو زيد الأنصاريّ الأوسيّ الّذي جمع القرآن» [«الإصابة في تمييز الصحابة» (٣/ ٥٧)] بتصرف.

هموا ســـاروا بـأرعن مكفهر ❁❁❁ إلـى لـجـب يـرونـهـم رِعَـالَا
بُحُورٌ لِلْأَكَـاسِـــرِ مِنْ رِجَـالٍ ❁❁❁ كَأُسْـدِ الْغَابِ تَحْسَـبُهُمْ جِبَالَا
تَرَكْنَ لَهُمْ بِقَـادِسَ عِزَّ فَخْرٍ ❁❁❁ وَبِـالْـخَـيْـفَـيْـنِ أَيَّـامًـا طِـوَالَا
مُـقَـطَّـعَـةً أَكُـفُّـهُـمُ وَسُـــوقٌ ❁❁❁ بِمُرْدٍ حَيْـثُ قَـابَلَـتِ الرَّجَّـالَا

قَالُوا: وَسُمِعَ ذَلِكَ فِي سَائِرِ بِلَادِ الْعَرَبِ، وَقَدْ كَانَتْ بِلَادُ الْعِرَاقِ بِكمالها الَّتِي فَتَحَهَا خَالِدٌ نَقَضَتِ الْعُهُودَ وَالذِّمَمَ وَالْمَوَاثِيقَ الَّتِي كَانُوا أَعْطَوْهَا خَالِدًا، سِوَى أَهْلِ بَانِقْيَا وبرسما، وَأَهْلِ أُلِيس الْآخِرَةِ ثُمَّ عَادَ الْجَمِيعُ بَعْدَ هذه الوقعة الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا، وَادَّعَوْا أَنَّ الْفُرْسَ أَجْبَرُوهُمْ عَلَى نقض الْعُهُودِ، وَأَخَذُوا مِنْهُمُ الْخَرَاجَ وَغَيْرَ ذَلِكَ. فَصَدَّقُوهُمْ فِي ذَلِكَ تَأَلُّفًا لِقُلُوبِهِمْ.

مواصلة المسير حتى سقوط عاصمة الفرس (المدائن)

١ - قَالَ الشعبي رحمه الله: إِنَّ عُمَرَ بَعَثَ عُتْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ إِلَى أرض البصرة في ثلاثمائة وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وَسَارَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَعْرَابِ مَا كَمَّلَ مَعَهُ خَمْسمِائَةٍ، فَنَزَلَهَا فِي رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ، وَالْبَصْرَةُ يَوْمَئِذٍ تُدْعَى أَرْضَ الْهِنْدِ فِيهَا حِجَارَةٌ بِيضٌ خَشِنَةٌ، وَجَعَلَ يرتاد لهم منزلاً حتى جاؤا حيال الجسر الصغير فإذا فيه حلفاً وَقَصَبٌ نَابِتٌ، فَنَزَلُوا. فَرَكِبَ إِلَيْهِمْ صَاحِبُ الْفُرَاتِ فِي أَرْبَعَةِ آلَافِ أُسْوَارٍ، فَالْتَقَاهُ عُتْبَةُ بَعْدَمَا زالت الشمس، وأمر الصحابة فَحَمَلُوا عَلَيْهِمْ فَقَتَلُوا الْفُرْسَ عَنْ آخِرِهِمْ، وَأَسَرُوا صَاحِبَ الْفُرَاتِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَفِي سَنَةَ خَمْسَ عَشْرَةَ- كَانَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَفَارِسَ وَقَعَاتٌ. وَذَلِكَ حِينَ بَعَثَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ يَأْمُرُهُ بِالْمَسِيرِ إِلَى الْمَدَائِنِ، وَأَنْ يُخَلِّفَ النِّسَاءَ وَالْعِيَالَ بِالْعَقِيقِ فِي خَيْلٍ كثيرة كثيفة.

فلما تفرغ سعد من الْقَادِسِيَّةِ

٢ - بَعَثَ عَلَى الْمُقَدِّمَةِ زُهْرَةَ بْنَ حَوِيَّةَ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِالْأُمَرَاءِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، ثُمَّ سَارَ فِي الْجُيُوشِ وَقَدْ جَعَلَ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَلَى خِلَافَتِهِ مَكَانَ خَالِدِ بْنِ عُرْفُطَةَ، وَجَعَلَ خَالِدًا هَذَا عَلَى السَّاقَةِ، فَسَارُوا فِي خُيُولٍ عَظِيمَةٍ، وَسِلَاحٍ كَثِيرٍ،

وَذَلِكَ لِأَيَّامٍ بَقِينَ مِنْ شَوَّالٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، فَنَزَلُوا الْكُوفَةَ وَارْتَحَلَ زُهْرَةُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ نَحْوَ الْمَدَائِنِ، فَلَقِيَهُ بِهَا بُصْبُهْرَى فِي جَيْشٍ مِنْ فَارِسَ فَهَزَمَهُمْ زُهْرَةُ.

٣- وَذَهَبَتِ الْفُرْسُ فِي هَزِيمَتِهِمْ إِلَى بَابِلَ وَبِهَا جَمْعٌ كَثِيرٌ مِمَّنِ انْهَزَمَ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ قَدْ جَعَلُوا عَلَيْهِمُ الْفَيْرُزَانَ، فَبَعَثَ زُهْرَةُ إِلَى سَعْدٍ فَأَعْلَمَهُ بِاجْتِمَاعِ الْمُنْهَزِمِينَ بِبَابِلَ، فَسَارَ سَعْدٌ بِالْجُيُوشِ إِلَى بَابِلَ، فَتَقَابَلَ هُوَ وَالْفَيْرُزَانُ عِنْدَ بَابِلَ فَهَزَمَهُمْ كَأَسْرَعِ مِنْ لَفَّةِ الرِّدَاءِ، وَانْهَزَمُوا بَيْنَ يَدَيْهِ فِرْقَتَيْنِ فَفِرْقَةٌ ذَهَبَتْ إِلَى الْمَدَائِنِ، وَأُخْرَى سَارَتْ إِلَى نَهَاوَنْدَ.

٤- وَأَقَامَ سَعْدٌ بِبَابِلَ أَيَّامًا ثُمَّ سَارَ مِنْهَا نَحْوَ الْمَدَائِنِ فَلَقُوا جَمْعًا آخَرَ مِنَ الْفُرْسِ فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا وَبَارَزُوا أَمِيرَ الْفُرْسِ، وَهُوَ شَهْرِيَارُ، فَبَرَزَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَالُ له نائل الْأَعْرَجِيُّ أَبُو نُبَاتَةَ مِنْ شُجْعَانِ بَنِي تَمِيمٍ، فَتَجَاوَلَا سَاعَةً بِالرِّمَاحِ، ثُمَّ أَلْقَيَاهَا فَانْتَضَيَا سَيْفَيْهِمَا وَتَصَاوَلَا بِهِمَا، ثُمَّ تَعَانَقَا وَسَقَطَا عَنْ فَرَسَيْهِمَا إِلَى الْأَرْضِ، فَوَقَعَ شَهْرِيَارُ عَلَى صَدْرِ أَبِي نُبَاتَةَ، وَأَخْرَجَ خِنْجَرًا لِيَذْبَحَهُ بِهَا، فَوَقَعَتْ أُصْبُعُهُ فِي فَمِ أَبِي نُبَاتَةَ فَقَضَمَهَا حَتَّى شَغَلَهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَأَخَذَ الْخِنْجَرَ فَذَبَحَ شَهْرِيَارَ بِهَا وأخذ فَرَسَهُ وَسِوَارَيْهِ وَسَلَبَهُ، وَانْكَشَفَ أَصْحَابُهُ فَهُزِمُوا، وَذَلِكَ بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ كُوثَى. وَزَارَ الْمَكَانَ الَّذِي حُبِسَ فِيهِ الْخَلِيلُ وَصَلَّى عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَرَأَ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٠].

٥- وقعة نهر شير

قَالُوا: ثُمَّ قَدَّمَ سَعْدٌ زُهْرَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ من كوثى إلى نهر شير فَمَضَى إِلَى الْمُقَدِّمَةِ وَقَدْ تَلَقَّاهُ شِيرْزَاذُ إِلَى سَابَاطَ بِالصُّلْحِ وَالْجِزْيَةِ فَبَعَثَهُ إِلَى سَعْدٍ فَأَمْضَاهُ، وَوَصَلَ سَعْدٌ بِالْجُنُودِ إِلَى مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ مظلم ساباط، فوجدوا هنالك كَتَائِبَ كَثِيرَةً لِكِسْرَى يُسَمُّونَهَا بُورَانَ، وَهُمْ يُقْسِمُونَ كُلَّ يَوْمٍ لَا يَزُولُ مُلْكُ فَارِسَ مَا عِشْنَا، وَمَعَهُمْ أَسَدٌ كَبِيرٌ لِكِسْرَى يُقَالُ لَهُ الْمُقَرَّطُ، قَدْ أَرْصَدُوهُ فِي طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ ابْنُ أَخِي

سَعْدٍ، وَهُوَ هَاشِمُ بْنُ عُتْبَةَ، فَقَتَلَ الْأَسَدَ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ وَسُمِّيَ يَوْمَئِذٍ سَيْفُهُ الْمُتِينَ وَقَبَّلَ سَعْدٌ يَوْمَئِذٍ رَأْسَ هَاشِمٍ، وَقَبَّلَ هَاشِمٌ قَدَمَ سَعْدٍ. وَحَمَلَ هَاشِمٌ عَلَى الْفُرْسِ فَأَزَاهُمْ عَنْ أَمَاكِنِهِمْ وَهَزَمَهُمْ وَهُوَ يَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة إبراهيم:٤٤]. فلما كان الليل ارتحل المسلمون ونزلوا نهر شير فَجَعَلُوا كُلَّمَا وَقَفُوا كَبَّرُوا وَكَذَلِكَ حَتَّى كَانَ آخِرُهُمْ مَعَ سَعْدٍ فَأَقَامُوا بِهَا شَهْرَيْنِ وَدَخَلُوا فِي الثَّالِثِ وَفَرَغَتِ السَّنَةُ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ سِتَّ عَشْرَةَ

٦- اسْتَهَلَّتْ هَذِهِ السَّنَةُ وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ مُنَازِلٌ مَدِينَةَ بَهُرَسِيرَ، وَهِيَ إِحْدَى مَدِينَتَيْ كِسْرَى مِمَّا يَلِي دِجْلَةَ مِنَ الْغَرْبِ، وَكَانَ قُدُومُ سَعْدٍ إِلَيْهَا فِي ذِي الْحِجَّةِ مِنْ سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ، وَاسْتَهَلَّتْ هَذِهِ السَّنَةُ وَهُوَ نَازِلٌ عِنْدَهَا، وَقَدْ بَعَثَ السَّرَايَا وَالْخُيُولَ فِي كُلِّ وَجْهٍ، فَلَمْ يَجِدُوا وَاحِدًا مِنَ الْجُنْدِ، بَلْ جَمَعُوا مِنَ الْفَلَّاحِينَ مِائَةَ الْفٍ، فَحُبِسُوا حَتَّى كَتَبَ إِلَى عُمَرَ مَا يَفْعَلُ بِهِمْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: إِنَّ مَنْ كَانَ مِنَ الْفَلَّاحِينَ لَمْ يُعِنْ عَلَيْكُمْ، وَهُوَ مُقِيمٌ بِبَلَدِهِ، فَهُوَ أَمَانُهُ، وَمَنْ هَرَبَ فَأَدْرَكْتُمُوهُ فَشَأْنُكُمْ بِهِ. فَأَطْلَقَهُمْ سَعْدٌ بَعْدَمَا دَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَبَوْا إِلَّا الْجِزْيَةَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ غَرْبِيِّ دِجْلَةَ إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ أَحَدٌ مِنَ الْفَلَّاحِينَ إِلَّا تَحْتَ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ. وَامْتَنَعَتْ بَهُرَسِيرَ مِنْ سَعْدٍ أَشَدَّ الِامْتِنَاعِ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْهِمْ سَعْدٌ سَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، أَوِ الْجِزْيَةِ أَوِ الْمُقَاتَلَةِ، فَأَبَوْا إِلَّا الْمُقَاتَلَةَ وَالْعِصْيَانَ، وَنَصَبُوا الْمَجَانِيقَ وَالدَّبَّابَاتِ، وَأَمَرَ سَعْدٌ بِعَمَلِ الْمَجَانِيقِ، فَعُمِلَتْ عِشْرُونَ مَنْجَنِيقًا، وَنُصِبَتْ عَلَى بَهُرَسِيرَ، وَاشْتَدَّ الْحِصَارُ وَكَانَ أَهْلُ بَهُرَسِيرَ يَخْرُجُونَ فَيُقَاتِلُونَ قِتَالًا شَدِيدًا، وَيَحْلِفُونَ أَنْ لَا يَفِرُّوا أَبَدًا، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ، وَهَزَمَهُمْ زُهْرَةُ بْنُ حَوِيَّةَ بَعْدَ مَا أَصَابَهُ سَهْمٌ، وَقَتَلَ بَعْدَ مُصَابِهِ بِهِ كَثِيرًا مِنَ الْفُرْسِ، وَفَرُّوا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَجَئُوا إِلَى بَلَدِهِمْ، فَكَانُوا يُحَاصَرُونَ فِيهِ أَشَدَّ الْحِصَارِ، وَقَدِ انْحَصَرَ أَهْلُ الْبَلَدِ حَتَّى أَكَلُوا الْكِلَابَ وَالسَّنَانِيرَ، فَنَادَى سَعْدٌ فِي النَّاسِ وَنَهَدَ بِهِمْ إِلَى الْبَلَدِ، وَالْمَجَانِيقُ تَضْرِبُ فِي الْبَلَدِ،

فَنَادَى رَجُلٌ مِنَ الْبَلَدِ بِالْأَمَانِ فَأَمَّنُوهُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا بِالْبَلَدِ أَحَدٌ. فَتَسَوَّرَ النَّاسُ السُّورَ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا أَحَدًا إِلَّا قَدْ هَرَبُوا إِلَى الْمَدَائِنِ جَازُوا فِي السُّفُنِ مِنْهَا إِلَيْهَا، وَبَيْنَهُمَا دِجْلَةُ، وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْهَا جِدًّا. وَذَلِكَ فِي شَهْرِ صَفَرٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ. وَلَمَّا دَخَلَ الْمُسْلِمُونَ بَهُرَسِيرَ فِي اللَّيْلِ، لَاحَ لَهُمُ الْقَصْرُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْمَدَائِنِ وَهُوَ قَصْرُ الْمَلِكِ الَّذِي ذَكَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ ، أَنَّهُ سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِهِ، وَذَلِكَ قُرَيْبَ الصَّبَاحِ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ رَآهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أَبْيَضُ كِسْرَى، هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَنَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ فَتَابَعُوا التَّكْبِيرَ إِلَى الصُّبْحِ.

٧- ذِكْرُ فَتْحِ الْمَدَائِنِ الَّتِي هِيَ مُسْتَقَرُّ مُلْكِ كِسْرَى

لَمَّا فَتَحَ سَعْدٌ بَهُرَسِيرَ وَاسْتَقَرَّ بِهَا، وَذَلِكَ فِي صَفَرٍ، لَمْ يَجِدْ فِيهَا أَحَدًا وَلَا شَيْئًا مِمَّا يُغْنَمُ، بَلْ قَدْ تَحَوَّلُوا بِكَمَالِهِمْ إِلَى الْمَدَائِنِ وَرَكِبُوا السُّفُنَ، وَضَمُّوا السُّفُنَ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَجِدْ سَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، شَيْئًا مِنَ السُّفُنِ، وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ تَحْصِيلُ شَيْءٍ مِنْهَا بِالْكُلِّيَّةِ، وَقَدْ زَادَتْ دِجْلَةُ زِيَادَةً عَظِيمَةً، وَاسْوَدَّ مَاؤُهَا، وَرَمَتْ بِالزَّبَدِ مِنْ كَثْرَةِ الْمَاءِ بِهَا، وَأُخْبِرَ سَعْدٌ، بِأَنَّ كِسْرَى يَزْدَجِرْدَ عَازِمٌ عَلَى أَخْذِ الْأَمْوَالِ وَالْأَمْتِعَةِ مِنَ الْمَدَائِنِ إِلَى حُلْوَانَ وَأَنَّكَ إِنْ لَمْ تُدْرِكْهُ قَبْلَ ثَلَاثٍ، فَاتَ عَلَيْكَ وَتَفَارَطَ الْأَمْرُ، فَخَطَبَ سَعْدٌ الْمُسْلِمِينَ عَلَى شَاطِئِ دِجْلَةَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: إِنَّ عَدُوَّكُمْ قَدِ اعْتَصَمَ مِنْكُمْ بِهَذَا الْبَحْرِ ; فَلَا تَخْلُصُونَ إِلَيْهِ مَعَهُ، وَهُمْ يَخْلُصُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا شَاءُوا فَيُنَاوِشُونَكُمْ فِي سُفُنِهِمْ، وَلَيْسَ وَرَاءَكُمْ شَيْءٌ تَخَافُونَ أَنْ تُؤْتَوْا مِنْهُ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ تُبَادِرُوا جِهَادَ الْعَدُوِّ بِنِيَّاتِكُمْ قَبْلَ أَنْ تَحْصُرَكُمُ الدُّنْيَا، أَلَا إِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى قَطْعِ هَذَا الْبَحْرِ إِلَيْهِمْ. فَقَالُوا جَمِيعًا: عَزَمَ اللَّهُ لَنَا وَلَكَ عَلَى الرُّشْدِ، فَافْعَلْ. فَعِنْدَ ذَلِكَ نَدَبَ سَعْدٌ النَّاسَ إِلَى الْعُبُورِ، وَيَقُولُ: مَنْ يَبْدَأُ فَيَحْمِي لَنَا الْفِرَاضَ - يَعْنِي ثُغْرَةَ الْمَخَاضَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى - لِيَجُوزَ النَّاسُ إِلَيْهِمْ آمِنِينَ. فَانْتَدَبَ عَاصِمُ بْنُ عَمْرٍو وَذَوُو الْبَأْسِ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنْ سِتِّمِائَةٍ، فَأَمَّرَ سَعْدٌ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ عَمْرٍو، فَوَقَفُوا عَلَى حَافَّةِ

دِجْلَةَ، فَقَالَ عَاصِمٌ: مَنْ يَنْتَدِبُ مَعِي لِنَكُونَ قَبْلَ النَّاسِ دُخُولًا فِي هَذَا الْبَحْرِ، فَنَحْمِيَ الْفِرَاضَ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ؟ فَانْتَدَبَ لَهُ سِتُّونَ مِنَ الشُّجْعَانِ الْمَذْكُورِينَ، وَالْأَعَاجِمُ وُقُوفٌ صُفُوفًا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ؟ فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ أَحْجَمَ النَّاسُ عَنِ الْخَوْضِ فِي دِجْلَةَ، فَقَالَ: أَتَخَافُونَ مِنْ هَذِهِ النُّطْفَةِ؟ ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [سورة آل عمران:١٤٥]. ثُمَّ أَقْحَمَ فَرَسَهُ فِيهَا وَاقْتَحَمَ النَّاسُ، وَقَدِ افْتَرَقَ السِّتُّونَ فِرْقَتَيْنِ: أَصْحَابُ الْخَيْلِ الذُّكُورِ، وَأَصْحَابُ الْخَيْلِ الْإِنَاثِ، فَلَمَّا رَآهُمُ الْفُرْسُ يَطْفُونَ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ قَالُوا: دِيوَانَا دِيوَانَا. يَقُولُونَ: مَجَانِينُ مَجَانِينُ. ثُمَّ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا تُقَاتِلُونَ إِنْسًا بَلْ تُقَاتِلُونَ جِنًّا. ثُمَّ أَرْسَلُوا فُرْسَانًا مِنْهُمْ فِي الْمَاءِ يَلْتَقُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ لِيَمْنَعُوهُمْ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَاءِ، فَأَمَرَ عَاصِمُ بْنُ عَمْرٍو أَصْحَابَهُ أَنْ يَشْرَعُوا لَهُمُ الرِّمَاحَ وَيَتَوَخَّوُا الْأَعْيُنَ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِالْفُرْسِ فَقَلَعُوا عُيُونَ خُيُولِهِمْ، فَرَجَعُوا أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ لَا يَمْلِكُونَ كَفَّ خُيُولِهِمْ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الْمَاءِ، وَاتَّبَعَهُمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ فَسَاقُوا وَرَاءَهُمْ حَتَّى طَرَدُوهُمْ عَنِ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وَوَقَفُوا عَلَى حَافَّةِ الدِّجْلَةِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وَنَزَلَ بَقِيَّةُ أَصْحَابِ عَاصِمٍ مِنِ السِّتِّمِائَةِ فِي دِجْلَةَ، فَخَاضُوهَا، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، فَقَاتَلُوا مَعَ أَصْحَابِهِمْ حَتَّى نَفَوُا الْفُرْسَ عَنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ.

تسمية الكتائب

وَكَانُوا يُسَمُّونَ الْكَتِيبَةَ الْأُولَى كَتِيبَةَ الْأَهْوَالِ، وَأَمِيرُهَا عَاصِمُ بْنُ عَمْرٍو، وَالْكَتِيبَةَ الثَّانِيَةَ الْكَتِيبَةَ الْخَرْسَاءَ، وَأَمِيرُهَا الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو. وَهَذَا كُلُّهُ وَسَعْدٌ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْظُرُونَ إِلَى مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ الْفُرْسَانُ بِالْفُرْسِ، وَسَعْدٌ وَاقِفٌ عَلَى شَاطِئِ دِجْلَةَ. ثُمَّ نَزَلَ سَعْدٌ بِبَقِيَّةِ الْجَيْشِ، وَذَلِكَ حِينَ نَظَرُوا إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ وَقَدْ تَحَصَّنَ بِمَنْ حَصَلَ فِيهِ مِنَ الْفُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ أَمَرَ سَعْدٌ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ دُخُولِ الْمَاءِ أَنْ

يَقُولُوا: نَسْتَعِينُ بِاللَّهِ، وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. ثُمَّ اقْتَحَمَ بِفَرَسِهِ دِجْلَةَ، وَاقْتَحَمَ النَّاسُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ فَسَارُوا فِيهَا كَأَنَّمَا يَسِيرُونَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، حَتَّى مَلَأُوا مَا بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ، فَلَا يُرَى وَجْهُ الْمَاءِ مِنَ الْفُرْسَانِ وَالرَّجَّالَةِ، وَجَعَلَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ كَمَا يَتَحَدَّثُونَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ؛ وَذَلِكَ لِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ وَالْأَمْنِ، وَالْوُثُوقِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَوَعْدِهِ وَنَصْرِهِ، وَتَأْيِيدِهِ، وَلِأَنَّ أَمِيرَهُمْ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ أَحَدُ الْعَشَرَةِ الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَقَدْ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ، وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ، وَدَعَا لَهُ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَجِبْ دَعْوَتَهُ وَسَدِّدْ رَمْيَتَهُ**»(١) وَالْمَقْطُوعُ بِهِ أَنَّ سَعْدًا دَعَا لِجَيْشِهِ هَذَا فِي هَذَا الْيَوْمِ بِالسَّلَامَةِ وَالنَّصْرِ، وَقَدْ رَمَى بِهِمْ فِي هَذَا الْيَمِّ، فَسَدَّدَهُمُ اللَّهُ وَسَلَّمَهُمْ، فَلَمْ يُفْقَدْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، غَيْرَ أَنَّ رَجُلًا وَاحِدًا يُقَالُ لَهُ: غَرْقَدَةُ الْبَارِقِيُّ، ذَلَّ عَنْ فَرَسٍ لَهُ شَقْرَاءَ، فَأَخَذَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو بِلِجَامِهَا، وَأَخَذَ بِيَدِ الرَّجُلِ حَتَّى عَدَلَهُ عَلَى فَرَسِهِ، وَكَانَ مِنَ الشُّجْعَانِ، فَقَالَ: عَجَزَ النِّسَاءُ أَنْ يَلِدْنَ مِثْلَ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو. وَلَمْ يُعْدَمْ لِلْمُسْلِمِينَ شَيْءٌ مِنْ أَمْتِعَتِهِمْ غَيْرَ قَدَحٍ مِنْ خَشَبٍ لِرَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: مَالِكُ بْنُ عَامِرٍ. كَانَتْ عَلَاقَتُهُ رَثَّةً، فَأَخَذَهُ الْمَوْجُ، فَدَعَا صَاحِبُهُ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِنْ بَيْنِهِمْ يَذْهَبُ مَتَاعِي. فَرَدَّهُ الْمَوْجُ إِلَى الْجَانِبِ الَّذِي يَقْصِدُونَهُ، فَأَخَذَهُ النَّاسُ ثُمَّ رَدُّوهُ عَلَى صَاحِبِهِ بِعَيْنِهِ. وَكَانَ الْفَرَسُ إِذَا أَعْيَا وَهُوَ فِي الْمَاءِ، يُقَيِّضُ اللَّهُ لَهُ مِثْلَ النَّشْزِ الْمُرْتَفِعِ، فَيَقِفُ عَلَيْهِ فَيَسْتَرِيحُ، وَحَتَّى إِنَّ بَعْضَ الْخَيْلِ لَيَسِيرُ وَمَا يَصِلُ الْمَاءُ إِلَى حِزَامِهَا، وَكَانَ يَوْمًا عَظِيمًا، وَأَمْرًا هَائِلًا، وَخَطْبًا جَلِيلًا، وَخَارِقًا بَاهِرًا،

---

(١) **صحيح:** أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (٦٩٩٠) والبزار (١٢١٨) عَنْ قَيْسِ بن أبي حازم قَالَ: سَمِعْتُ سَعْدًا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ استجبْ لَهُ إذا دعاك – يعني سعداً**». وصححه الإمام الألباني في ((المشكاة)) (٦١١٦). والتعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (١٠/ ١٠٧). وصححه الإمام الوادعي في الصحيح المسند (١/ ٣١٧) (٣٦٧).

وَمُعْجِزَةً لِرَسُولِ اللَّهِ، ﷺ ، خَلَقَهَا اللَّهُ لِأَصْحَابِهِ، لَمْ يُرَ مِثْلُهَا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ، وَلَا فِي بُقْعَةٍ مِنَ الْبِقَاعِ سِوَى قَضِيَّةِ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ بَلْ هَذَا أَجَلُّ وَأَعْظَمُ ; فَإِنَّ هَذَا الْجَيْشَ كَانَ أَضْعَافَ ذَلِكَ. قَالُوا: وَكَانَ الَّذِي يُسَايِرُ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ فِي الْمَاءِ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ فَجَعَلَ سَعْدٌ يَقُولُ: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَاللَّهِ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ وَلِيَّهُ، وَلَيُظْهِرَنَّ اللَّهُ دِينَهُ، وَلَيَهْزِمَنَّ اللَّهُ عَدُوَّهُ، إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَيْشِ بَغْيٌ أَوْ ذُنُوبٌ تَغْلِبُ الْحَسَنَاتِ. فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ الْإِسْلَامَ جَدِيدٌ، ذُلِّلَتْ لَهُمْ وَاللَّهِ الْبُحُورُ، كَمَا ذُلِّلَ لَهُمُ الْبَرُّ، أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ لَيَخْرُجُنَّ مِنْهُ أَفْوَاجًا كَمَا دَخَلُوا أَفْوَاجًا فَخَرَجُوا مِنْهُ كَمَا قَالَ سَلْمَانُ، لَمْ يَغْرَقْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَلَمْ يَفْقِدُوا شَيْئًا.

٨- دخول المدائن ، ومقدار الغنائم

وَلَمَّا اسْتَقَلَّ الْمُسْلِمُونَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، خَرَجَتِ الْخُيُولُ تَنْفُضُ أَعْرَافَهَا صَاهِلَةً، فَسَاقُوا وَرَاءَ الْأَعَاجِمِ حَتَّى دَخَلُوا الْمَدَائِنَ فَلَمْ يَجِدُوا بِهَا أَحَدًا، بَلْ قَدْ أَخَذَ كِسْرَى أَهْلَهُ وَمَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَمْتِعَةِ وَالْحَوَاصِلِ، وَتَرَكُوا مَا عَجَزُوا عَنْهُ مِنَ الْأَنْعَامِ، وَالثِّيَابِ، وَالْمَتَاعِ، وَالْآنِيَةِ، وَالْأَلْطَافِ، وَالْأَدْهَانِ، مَا لَا يُدْرَى قِيمَتُهُ. وَكَانَ فِي خِزَانَةِ كِسْرَى ثَلَاثَةُ آلَافِ أَلْفِ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَأَخَذُوا مِنْ ذَلِكَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، وَتَرَكُوا مَا عَجَزُوا عَنْهُ، وَهُوَ مِقْدَارُ النِّصْفِ مِنْ ذَلِكَ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ. **فَكَانَ** أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ الْمَدَائِنَ كَتِيبَةُ الْأَهْوَالِ، ثُمَّ الْكَتِيبَةُ الْخَرْسَاءُ، فَأَخَذُوا فِي سِكَكِهَا لَا يَلْقَوْنَ أَحَدًا وَلَا يَخْشَوْنَهُ، غَيْرَ الْقَصْرِ الْأَبْيَضِ، فَفِيهِ مُقَاتِلَةٌ، وَهُوَ مُحَصَّنٌ. فَلَمَّا جَاءَ سَعْدٌ بِالْجَيْشِ، دَعَا أَهْلَ الْقَصْرِ الْأَبْيَضِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، عَلَى لِسَانِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ نَزَلُوا مِنْهُ، وَسَكَنَهُ سَعْدٌ وَاتَّخَذَ الْإِيوَانَ مُصَلًّى، وَحِينَ دَخَلَهُ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى :﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدُّخَانِ ٢٥ - ٢٨] . ثُمَّ تَقَدَّمَ إِلَى صَدْرِهِ فَصَلَّى ثَمَانِ رَكَعَاتٍ صَلَاةَ الْفَتْحِ، وَأَنَّهُ جَمَّعَ بِالْإِيوَانِ، فِي صَفَرٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، فَكَانَتْ أَوَّلَ جُمُعَةٍ جُمِعَتْ بِالْعِرَاقِ ; وَذَلِكَ لِأَنَّ سَعْدًا نَوَى الْإِقَامَةَ

بِهَا، وَبَعَثَ إِلَى الْعِيَالَاتِ فَأَنْزَلَهُمْ دُورَ الْمَدَائِنِ وَاسْتَوْطَنُوهَا، حَتَّى فَتَحُوا جَلُولَاءَ وَتَكْرِيتَ وَالْمَوْصِلَ، ثُمَّ تَحَوَّلُوا إِلَى الْكُوفَةِ بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَرْسَلَ السَّرَايَا فِي إِثْرِ كِسْرَى يَزْدَجِرْدَ، فَلَحِقَ بِهِمْ طَائِفَةٌ فَقَتَلُوهُمْ وَشَرَّدُوهُمْ، وَاسْتَلَبُوا مِنْهُمْ أَمْوَالًا عَظِيمَةً، أَكْثَرُهَا مِنْ مَلَابِسِ كِسْرَى وَتَاجِهِ وَحُلِيِّهِ. وَشَرَعَ سَعْدٌ فِي تَحْصِيلِ مَا هُنَالِكَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْحَوَاصِلِ وَالتُّحَفِ، مِمَّا لَا يُقَوَّمُ وَلَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ ; كَثْرَةً وَعَظَمَةً. وَقَدْ رُوِّينَا أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ تَمَاثِيلُ مِنْ جِصٍّ، فَنَظَرَ سَعْدٌ إِلَى أَحَدِهَا وَإِذَا هُوَ يُشِيرُ بِأُصْبُعِهِ إِلَى مَكَانٍ، فَقَالَ سَعْدٌ: إِنَّ هَذَا لَمْ يُوضَعْ هَكَذَا سُدًى. فَأَخَذُوا مَا يُسَامِتُ أُصْبُعَهُ، فَوَجَدُوا قُبَالَتَهَا كَنْزًا عَظِيمًا مِنْ كُنُوزِ الْأَكَاسِرَةِ الْأَوَائِلِ، فَأَخْرَجُوا مِنْهُ أَمْوَالًا عَظِيمَةً جَزِيلَةً، وَحَوَاصِلَ بَاهِرَةً، وَتُحَفًا فَاخِرَةً. وَاسْتَحْوَذَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَا هُنَالِكَ أَجْمَعَ، مِمَّا لَمْ يَرَ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا أَعْجَبَ مِنْهُ. وَكَانَ فِي جُمْلَةِ ذَلِكَ تَاجُ كِسْرَى وَهُوَ مُكَلَّلٌ بِالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ الَّتِي تُحَيِّرُ الْأَبْصَارَ، وَمِنْطَقَتُهُ كَذَلِكَ، وَسَيْفُهُ وَسِوَارَاهُ وَقَبَاؤُهُ، وَبِسَاطُ إِيوَانِهِ، وَكَانَ مُرَبَّعًا، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي مِثْلِهَا، مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَالْبِسَاطُ مِثْلُهُ سَوَاءٌ، وَهُوَ مَنْسُوجٌ بِالذَّهَبِ وَاللَّآلِئِ وَالْجَوَاهِرِ الثَّمِينَةِ، وَفِيهِ مُصَوَّرُ جَمِيعِ مَمَالِكِ كِسْرَى ; بِلَادُهُ بِأَنْهَارِهَا وَقِلَاعِهَا وَأَقَالِيمِهَا وَكُورِهَا، وَصِفَةُ الزُّرُوعِ وَالْأَشْجَارِ الَّتِي فِي بِلَادِهِ. فَكَانَ إِذَا جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ مَمْلَكَتِهِ، وَدَخَلَ تَحْتَ تَاجِهِ، وَتَاجُهُ مُعَلَّقٌ بِسَلَاسِلِ الذَّهَبِ ; لِأَنَّهُ كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقِلَّهُ عَلَى رَأْسِهِ لِثِقَلِهِ، بَلْ كَانَ يَجِيءُ فَيَجْلِسُ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُدْخِلُ رَأْسَهُ تَحْتَ التَّاجِ، وَالسَّلَاسِلُ الذَّهَبُ تَحْمِلُهُ عَنْهُ، وَهُوَ يَسْتُرُهُ حَالَ لُبْسِهِ، فَإِذَا رُفِعَ الْحِجَابُ عَنْهُ، خَرَّتْ لَهُ الْأُمَرَاءُ سُجُودًا، وَعَلَيْهِ الْمِنْطَقَةُ وَالسِّوَارَانِ وَالسَّيْفُ وَالْقَبَاءُ الْمُرَصَّعُ بِالْجَوَاهِرِ، فَيَنْظُرُ فِي الْبُلْدَانِ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، فَيَسْأَلُ عَنْهَا، وَمَنْ فِيهَا مِنَ النُّوَّابِ، وَهَلْ حَدَثَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْأَحْدَاثِ؟ فَيُخْبِرُهُ بِذَلِكَ وُلَاةُ الْأُمُورِ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الْأُخْرَى، وَهَكَذَا حَتَّى يَسْأَلَ عَنْ أَحْوَالِ بِلَادِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، لَا يُهْمِلُ أَمْرَ الْمَمْلَكَةِ، وَقَدْ وَضَعُوا هَذَا الْبِسَاطَ بَيْنَ يَدَيْهِ، تَذْكَارًا

لَهُ بِشَأْنِ الْمَمَالِكِ، وَهُوَ اصْطِلَاحٌ جَيِّدٌ مِنْهُمْ فِي أَمْرِ السِّيَاسَةِ. فَلَمَّا جَاءَ قَدَرُ اللَّهِ، زَالَتْ تِلْكَ الْأَيْدِي عَنْ تِلْكَ الْمَمَالِكِ وَالْأَرَاضِي، وَتَسَلَّمَهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَيْدِيهِمْ قَسْرًا، وَكَسَرُوا شَوْكَتَهُمْ عَنْهَا، وَأَخَذُوهَا بِأَمْرِ اللَّهِ صَافِيَةً ضَافِيَةً، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَقَدْ جَعَلَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ عَلَى الْأَقْبَاضِ عَمْرَو بْنَ عَمْرِو بْنِ مُقَرِّنٍ، فَكَانَ أَوَّلُ مَا حَصَّلَ مَا كَانَ فِي الْقَصْرِ الْأَبْيَضِ، وَمَنَازِلِ كِسْرَى، وَسَائِرِ دُورِ الْمَدَائِنِ وَمَا كَانَ بِالْإِيوَانِ مِمَّا ذَكَرْنَا، وَمَا يَفِدُ مِنَ السَّرَايَا الَّذِينَ فِي صُحْبَةِ زُهْرَةَ بْنِ حَوِيَّةَ، وَكَانَ فِيمَا رَدَّ زُهْرَةُ بَغْلٌ كَانَ قَدْ أَدْرَكَهُ وأخذه مِنَ الْفُرْسِ،وَكَانَتْ تَحُوطُهُ بِالسُّيُوفِ، فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْهُمْ، وَقَالَ: إِنَّ لِهَذَا لَشَأْنًا. فَرَدَّهُ إِلَى الْأَقْبَاضِ، وَإِذَا عَلَيْهِ سَفَطَانِ فِيهِمَا ثِيَابُ كِسْرَى وَحُلِيُّهُ، وَلُبْسُهُ الَّذِي كَانَ يَلْبَسُهُ عَلَى السَّرِيرِ كَمَا ذَكَرْنَا، وَبَغْلٌ آخَرُ عَلَيْهِ تَاجُهُ الَّذِي ذَكَرْنَا فِي سَفَطَيْنِ أَيْضًا، رُدَّا مِنَ الطَّرِيقِ مِمَّا اسْتَلَبَهُ أَصْحَابُ السَّرَايَا. وَكَانَ فِيمَا رَدَّتِ السَّرَايَا أَمْوَالٌ عَظِيمَةٌ وَفِيهَا أَكْثَرُ أَثَاثِ كِسْرَى، وَأَمْتِعَتُهُ وَالْأَشْيَاءُ النَّفِيسَةُ الَّتِي اسْتَصْحَبُوهَا مَعَهُمْ، فَلَحِقَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فَاسْتَلَبُوهَا مِنْهُمْ. وَلَمْ تَقْدِرِ الْفُرْسُ عَلَى حَمْلِ الْبِسَاطِ لِثِقَلِهِ عَلَيْهِمْ، وَلَا حَمْلِ الْأَمْوَالِ لِكَثْرَتِهَا ; فَإِنَّهُ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَجِيئُونَ بَعْضَ تِلْكَ الدُّورِ فَيَجِدُونَ الْبَيْتَ مَلَآنًا إِلَى أَعْلَاهُ مِنْ أَوَانِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَيَجِدُونَ مِنَ الْكَافُورِ شَيْئًا كَثِيرًا، فَيَحْسَبُونَهُ مِلْحًا، وَرُبَّمَا اسْتَعْمَلَهُ بَعْضُهُمْ فِي الْعَجِينِ فَوَجَدُوهُ مُرًّا، حَتَّى تَبَيَّنُوا أَمْرَهُ. فَتَحَصَّلَ الْفَيْءُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَشَرَعَ سَعْدٌ فَخَمَّسَهُ، وَأَمَرَ سَلْمَانَ بْنَ رَبِيعَةَ الْبَاهِلِيَّ فَقَسَمَ الْأَرْبَعَةَ الْأَخْمَاسَ بَيْنَ الْغَانِمِينَ، فَحَصَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفُرْسَانِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا، وَكَانُوا كُلُّهُمْ فُرْسَانًا، وَمَعَ بَعْضِهِمْ جَنَائِبُ. وَاسْتَوْهَبَ سَعْدٌ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِ الْبِسَاطِ وَلُبْسَ كِسْرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ; لِيَبْعَثَهُ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالْمُسْلِمِينَ بِالْمَدِينَةِ لِيَنْظُرُوا إِلَيْهِ، وَيَتَعَجَّبُوا مِنْهُ، فَطَيَّبُوا لَهُ ذَلِكَ وَأَذِنُوا فِيهِ، فَبَعَثَهُ سَعْدٌ إِلَى عُمَرَ مَعَ الْخُمْسِ مَعَ بَشِيرِ بْنِ الْخَصَاصِيَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ الَّذِي بَشَّرَ بِالْفَتْحِ قَبْلَهُ حُلَيْسُ بْنُ فُلَانٍ الْأَسَدِيُّ، فَرُوِّينَا أَنَّ عُمَرَ لَمَّا نَظَرَ إِلَى ذَلِكَ قَالَ: إِنَّ قَوْمًا أَدَّوْا هَذَا لَأُمَنَاءُ. فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: إِنَّكَ عَفَفْتَ فَعَفَّتْ

رَعِيَّتُكَ، وَلَوْ رَتَعْتَ لَرَتَعَتْ. ثُمَّ قَسَّمَ عُمَرُ ذَلِكَ فِي الْمُسْلِمِينَ، فَأَصَابَ عَلِيًّا قِطْعَةٌ مِنَ الْبِسَاطِ فَبَاعَهَا بِعِشْرِينَ أَلْفًا.

وقَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ مَنَعْتَ هَذَا رَسُولَكَ وَنَبِيَّكَ، وَكَانَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنِّي، وَأَكْرَمَ عَلَيْكَ مِنِّي، وَمَنَعْتَهُ أَبَا بَكْرٍ، وَكَانَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنِّي وَأَكْرَمَ عَلَيْكَ مِنِّي، وَأَعْطَيْتَنِيهِ، فَأَعُوذُ بِكَ أَنْ تَكُونَ أَعْطَيْتَنِيهِ لِتَمْكُرَ بِي. ثُمَّ بَكَى حَتَّى رَحِمَهُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ. ثُمَّ قَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ لَمَا بِعْتَهُ ثُمَّ قَسَّمْتَهُ قَبْلَ أَنْ تُمْسِيَ. وَذُكِرَ أَنَّ عُمَرَ حِينَ مَلَكَ تِلْكَ الْمَلَابِسَ وَالْجَوَاهِرَ، جِيءَ بِسَيْفِ كِسْرَى وَمَعَهُ عِدَّةُ سُيُوفٍ ; مِنْهَا سَيْفُ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ نَائِبِ كِسْرَى عَلَى الْحِيرَةِ وَأَنَّ عُمَرَ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ سَيْفَ كِسْرَى فِيمَا يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ قَوْمًا أَدَّوْا هَذَا لَذَوُوا أَمَانَةٍ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ كِسْرَى لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ تَشَاغَلَ بِمَا أُوتِيَ عَنْ آخِرَتِهِ، فَجَمَعَ لِزَوْجِ امْرَأَتِهِ أَوْ زَوْجِ ابْنَتِهِ، وَلَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ، وَلَوْ قَدَّمَ لِنَفْسِهِ وَوَضَعَ الْفُضُولَ مَوَاضِعَهَا لَحَصَلَ لَهُ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ أَبُو بُجَيْدٍ نَافِعُ بْنُ الْأَسْوَدِ، فِي ذَلِكَ:

وَأَمَلْنَا عَلَى الْمَدَائِنِ خَيْلًا ❁❁❁ بَحْرُهَا مِثْلُ بَرِّهِنَّ أَرِيضَا

فَانْتَشَلْنَا خَزَائِنَ الْمَرْءِ كِسْرَى ❁❁❁ يَوْمَ وَلَّوْا وَحَاصَ مِنَّا جَرِيضَا

(ملخص معركة القادسية وفتح المدائن الفاصلة)

١- اسم المعركة : القادسية.

٢- مكان المعركة : القادسية موضع شرقي نهر الفرات جنوبي الكوفة، على سيف الصحراء، جرت فيه معركة القادسية. [«تعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير» (١/ ٢٣٠)].

٣- تاريخ المعركة: استمرت هذه المعركة أربعة أيام والرابع هو يَوْمُ الِإثْنَيْنِ مِنَ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ من الهجرة(١٤هـ).

٤- الفريقان المتقاتلان :

١- **المسلمون:** بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبقيادة سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- **الفرس:** بأمر الملك يزدجرد وبقيادة رستم.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتها وطريقة ترتيبها:

١- القائد العام للجيش هو سعد بن أبي وقاص

٢- جَعَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى قَضَاءِ النَّاسِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ رَبِيعَةَ الْبَاهِلِيَّ ذَا النون ، وجعل إليه الأقباض وقسمة الفيء.

٣- وجعل داعية الناس وقاصهم سلمان الْفَارِسِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- وَجَعَلَ الْكَاتِبَ زِيَادَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولَمَّا تَوَاجَهَ الصَّفَّانِ كَانَ سَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ أَصَابَهُ عِرْقُ النَّسَا، وَدَمَامِلُ فِي جَسَدِهِ، فَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ الرُّكُوبَ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي قَصْرٍ مُتَّكِئٍ عَلَى صَدْرِهِ فَوْقَ وِسَادَةٍ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْجَيْشِ وَيُدَبِّرُ أَمْرَهُ.

٥- وَقَدْ جَعَلَ أَمْرَ الْحَرْبِ إِلَى خَالِدِ بْنِ عُرْفُطَةَ

٦- وَجَعَلَ عَلَى الْمَيْمَنَةِ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧- وَعَلَى الميسرة قيس بن مَكْشُوحٍ المرادي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٨- وَأَفْرَدَ سَعْدٌ سَرِيَّةً تَكُونُ حِيَاطَةً لِمَنْ مَعَهُمْ مِنَ الْحَرِيمِ، عَلَى هَذِهِ السَّرِيَّةِ غَالِبُ بْنُ عبد الله الليثي.

١٠- وكانت الراية مع عبد الله بن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

١١- وجعل على القبائل عرفاء وعلى كل عشرة رجل.

اجْتَمَعَ مَعَ سعد يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ قريبًا من عشرين ألفًا: ثمانية آلاف جيش المثنى سَبْعَة آلَافٍ أَوْ ثَمَانِيَة آلَافٍ مع سعد ثم من تبعهم من المدد على أصح تقدير.

---

(١) **حسن:** أخرجه أحمد (١٢٥٣٨) وغيره عن أنس.

ثانيًا الفرس: عَبَّأَ رُسْتُمُ جيشه وهو قائدهم العام

١- فَجَعَلَ عَلَى الْمُقَدِّمَةِ الْجَالِنُوسَ

٢- وَعَلَى الْمَيْمَنَةِ الْهُرْمُزَانَ

٣- وَعَلَى الْمَيْسَرَةِ مِهْرَانَ بْنَ بَهْرَامَ

٤- وَعَلَى السَّاقَةِ الْبَنْدَرَانَ

فكَان جيْشُ رُسْتُمُ كُلُّهُ [سِتُّونَ] أَلْفًا على أصح الروايات (٦٠,٠٠٠)، وَكَانَ مَعَهُ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ فِيلًا مِنْهَا فِيلٌ أَبْيَضُ كَانَ لِسَابُورَ، فَهُوَ أَعْظَمُهَا وَأَقْدَمُهَا، وَكَانَتِ الْفِيلَةُ تَأْلَفُهُ.

٦- سبب المعركة: اجتماع الفرس على يزجرد الَّذِي أَقَامُوهُ مِنْ بَيْتِ الْمُلْكِ،واتفاقهم على حرب المسلمين، وَنَقْضِ أَهْلِ الذِّمَّةِ بِالْعِرَاقِ عُهُودَهُمْ، وَنَبْذِهِمُ الْمَوَاثِيقَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ لخالد والمثنى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَآذَوُا الْمُسْلِمِينَ وَأَخْرَجُوا الْعُمَّالَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الأيام الأربعة أَلْفَانِ وَخَمْسُمِائَةٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

٢- مجموع قتلى الفرس في أيام المعركة عشرين ألفًا.

٣- كَانَتِ الْعَرَبُ مِنَ الْعُذَيْبِ إِلَى عَدَنِ أَبْيَنَ، يَتَرَبَّصُونَ وَقْعَةَ الْقَادِسِيَّةَ هَذِهِ، يَرَوْنَ أَنَّ ثَبَاتَ مُلْكِهِمْ وَزَوَالَهُ بِهَا بعد تقدير الله، وَقَدْ بَعَثَ أَهْلُ كُلِّ بَلْدَةٍ قَاصِدًا يَكْشِفُ مَا يَكُونُ مِنْ خَبَرِهِمْ.

٤- كَانَتْ بِلَادُ الْعِرَاقِ بكمالها الَّتِي فَتَحَهَا خَالِدٌ نَقَضَتِ الْعُهُودَ وَالذِّمَمَ وَالْمَوَاثِيقَ الَّتِي كَانُوا أَعْطَوْهَا خَالِدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سِوَى أَهْلِ بَانِقْيَا وبرسما، وَأَهْلِ أُلَيس الْآخِرَةِ ثُمَّ عَادَ الْجَمِيعُ بَعْدَ هذه الوقعة ، وَادَّعَوْا أَنَّ الْفُرْسَ أَجْبَرُوهُمْ عَلَى نقض الْعُهُودِ.

٥- مما فتح بعد القادسية سوى من عاد إلى عهده الأول وأدى الجزية البصرة ، و الْكُوفَة ، وبَابِل، وكُوثَى، وسَابَاط ، ومَدِينَة بَهُرَسِيرَ، وَهِيَ إِحْدَى مَدِينَتَيْ كِسْرَى مِمَّا يَلِي دِجْلَةَ مِنَ الْغَرْبِ ، والْمَدَائِن،وهي عاصمة الفرس وانهارت مملكة المستكبرين على الإسلام وسكن المجاهدون دُورَ الْمَدَائِنِ وَاسْتَوْطَنُوهَا، حَتَّى فَتَحُوا جَلُولَاءَ وَتَكْرِيتَ وَالْمَوْصِلَ، ثُمَّ تَحَوَّلُوا إِلَى الْكُوفَةِ بَعْدَ ذَلِكَ.

وجَلُولَاء هي المدينة التي فرَّ إليها يزدجرد، وتجمع معه الفرس هناك، فتحصنوا بها، فتقدم إليها المسلمون وفتحوها، وانتصروا انتصارًا عظيمًا، ولم تقل غنائمها عن المدائن.

ثم فتح المسلمون حلوان، تكريت، الموصل، ماسبذان، الأهواز، تستر، السوس، جنديسابور.

وقبض المسلمون على الهرمزان وهو من أكابر الأمراء وأرسلوه إلى عمر مع الغنائم.

وفتح المسلمون إصطخر ١٧هـ حيث سار إليها العلاء بن الحضرمي (والي البحرين) بحرًا بدون إذن الخليفة، وحقق بعض الانتصار فحاصرهم الفرس، أرسل عمر مددًا، فتحقق الانتصار الرائع، وفتحت المدينة [وكان ذلك سببًا لمعركة نهاوند التالية][1].

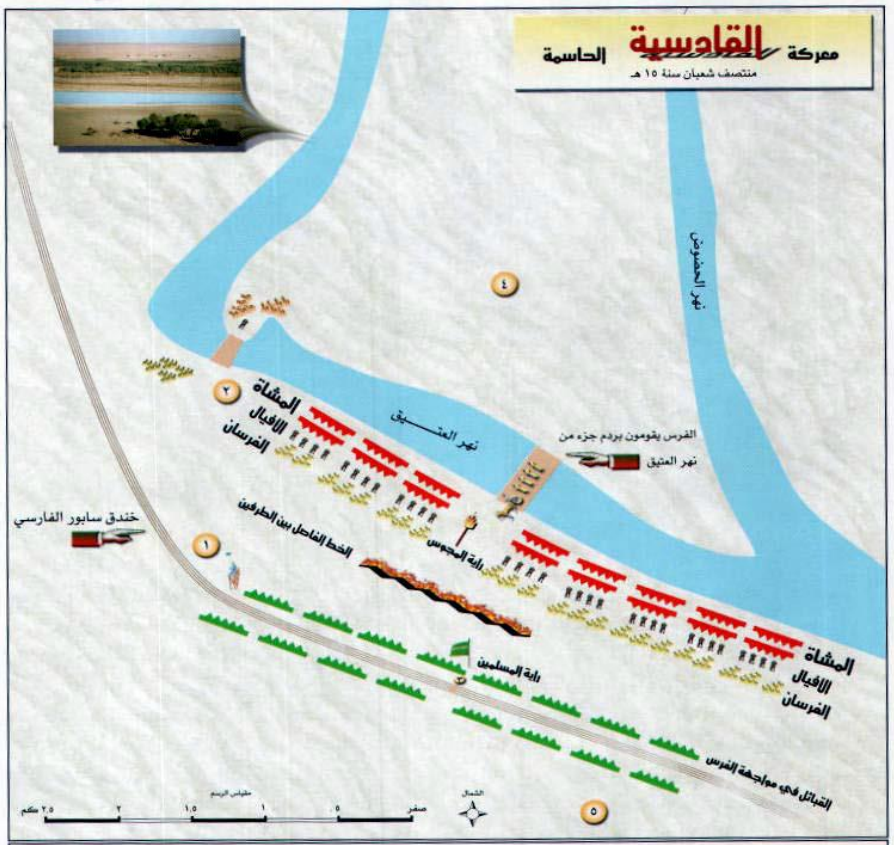
٦- كانت معركة القادسية الخالدة الفاصلة الحاسمة بابًا فُتح أمام المسلمين للجهاد في المشرق فكم دخل في الإسلام من خلق الله البداية لخالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والمثنى بن حارثة في فتح العراق ثم لسعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم استمر الجهاد حتى أدى ملك الصين الجزية للمسلمين زمن قتيبة بن مسلم الباهلي وانظر خريطة مابين القادسية إلى الصين والروس وما كان في تلك الجهات فرضي الله عنهم وأرضاهم كم

(١) موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر (ص١١٥).

أحرزوا من أجر وكم نشروا من فضيلة فهؤلاء قدوة المسلمين وشرف المفاخرين ؛ وسّعوا رقعة الإسلام وما توسعوا في تشييد الحطام، بعد أن رجع سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من العراق انطلق يرعى إبله غير متبجح، ومات خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم يترك ميراثًا وهو غير ممتن ولا متأرجح واستشهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مديونًا غير متفسح وهكذا بقيتهم مع كثرة ما غنموه ، وذلك لأن المال كان يؤخذ من حلِّه ويوضع في محلِّه.

٧- أما الغنائم فشيء عظيم جدًا ويكفي أن تعلم أنها إحدى أكبر مملكتي زمانها سلبت أموالها ، وزالت آمالها، فكانت بداية الغنائم من الغارات التي شنها المسلمون قبل القادسية ثم من القادسية ثم من المدن التي تلتها ثم ما غنموه من عاصمة الفرس وهذا أشرف رزق لنبينا ﷺ ولأمته وهو القائل ﷺ : **جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**. وتفصيل ذلك أو بعضه ذكره ابن كثير رحمه الله تعالى في أصل القصة وإعادته هنا يخرج عن المقصود من الاختصار فارجع إليه.

٨- خريطة: موقعة القادسية من كتاب أطلس الخليفة عمر:



١ معسكر الجيش الإسلامي في القادسية بقيادة القائد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

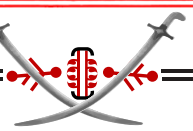
٢ معسكر الجيش الفارسي (المجوسي) بقيادة رستم الأرمني .

٣ مكان القيادة الإسلامية بالقرب من حصن قديس .

٤ مكان الإمدادات الفارسية للمقاتلين الفرس .

٥ مكان الإمدادات الإسلامية للمقاتلين المسلمين في المعركة .


٨٥
أطلس الخليفة عمر بن الخطاب
تحركات القائد سعد بن ابي وقاص بعد القادسية
الامبراطورية الساسانية
المدائن
نهر سير
صرصر
نهر دجلة
٥
ساباط
نهر الفرات
المسيب
دير كعب
كوثي
٤
سورا
بابل
كربلاء
كيش
٣
العراق
بُرس
خندق سابور الثاني
٢
دلبات
عيون الرهبان
النجف
الحيرة
صِنّين
١
القادسية
العُذيب
١ أقام المسلمون في القادسية شهرين بعد المعركة انتظاراً لما يأمر به الخليفة عمر . ثم وردت عليهم مكاتبة الفاروق تأمرهم بالسير إلى المدائن .
٢ نزل المسلمون على بُرس فلقوا بها جمعاً من الفرس بقيادة بصبهري ، فهزمهم المسلمون فهربوا نحو بابل وبها بقايا المنهزمين في القادسية . ولما هزم بصبهري وعلم بذلك دهقان برس، قدم على زهرة قائد هذه العملية لاجئاً وعارضاً عليه العون، وأخبر عن الفرس الذين اجتمعوا في بابل تأكيداً لحسن النية . فتوجه المسلمون إليهم .
٣ بقايا الفرس تفر من ملاقاة المسلمين؛ الهرمزان إلى الأهواز والفيرزان إلى نهاوند ، والنخيرجان ومهران إلى بهر سير .
٤ سعد يمكث أياماً بكوثي، ثم يقدم زهرة إلى بهرسير .
٥ بلغ سعد بهرسير، فلما نزل عليها وأغلقت أبوابها بث خيوله فأغارت على من ليس له عهد فيما بين دجلة والفرات .
مقياس الرسم
صفر ١٠ ٢٠ ٣٠ ٥٠ ٤٠ كلم



المعركة الثامنة من معارك الإسلام الفاصلة: (نهاوند)

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في :[«البداية والنهاية ط هجر» (١٠/ ١١١- ١٢٦)].

«ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ فَفِيهَا كَانَتْ وَقْعَةُ نَهَاوَنْدَ وَفَتْحُهَا عَلَى الْمَشْهُورِ، وَهِيَ وَقْعَةٌ عَظِيمَةٌ جِدًّا لَهَا شَأْنٌ رَفِيعٌ وَنَبَأٌ عَجِيبٌ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُسَمُّونَهَا فَتْحَ الْفُتُوحِ[1].

وَكَانَ الَّذِي هَاجَ هَذِهِ الْوَقْعَةَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا افْتَتَحُوا الْأَهْوَازَ، وَمَنَعُوا جَيْشَ الْعَلَاءِ مِنْ أَيْدِيهِمْ،[وذلك أن الفرس حاصروه فأنقذه المسلمون] وَاسْتَوْلَوْا عَلَى دَارِ الْمُلْكِ الْقَدِيمِ مِنْ إِصْطَخْرَ مَعَ مَا حَازُوا مِنْ دَارِ مَمْلَكَتِهِمْ حَدِيثًا، وَهِيَ الْمَدَائِنُ وَأَخَذُوا تِلْكَ الْمَدَائِنَ وَالْأَقَالِيمَ وَالْكُوَرَ وَالْبُلْدَانَ الْكَثِيرَةَ، فَحَمُوا عِنْدَ ذَلِكَ، وَاسْتَجَاشَهُمْ يَزْدَجِرْدُ الَّذِي تَقَهْقَرَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، حَتَّى صَارَ إِلَى أَصْبَهَانَ مُبْعَدًا طَرِيدًا، لَكِنَّهُ فِي أُسْرَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ، فَكَتَبَ إِلَى نَاحِيَةِ نَهَاوَنْدَ وَمَا وَالَاهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْبُلْدَانِ، فَتَجَمَّعُوا وَتَرَاسَلُوا حَتَّى كَمُلَ لَهُمْ مِنَ الْجُنُودِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ.

عدد جيش الفرس في هذه المعركة وقائدهم فيها

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ أَهْلَ فَارِسَ اجْتَمَعُوا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ بِأَرْضِ نَهَاوَنْدَ حَتَّى اجْتَمَعَ مِنْهُمْ مِائَةُ أَلْفٍ وَخَمْسُونَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ [منهم أربعون ألفًا جيش عامل كسرى على نهاوند فاجتمعوا]،وَعَلَيْهِمُ الْفَيْرُزَانُ، وَيُقَالُ: بُنْدَارٌ. وَيُقَالُ: ذُو الْحَاجِبِ. وَتَذَامَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا الَّذِي جَاءَ الْعَرَبَ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِبِلَادِنَا، وَلَا أَبُو بَكْرٍ الَّذِي قَامَ بَعْدَهُ تَعَرَّضَ لَنَا فِي دَارِ مُلْكِنَا، وَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ هَذَا لَمَّا طَالَ مُلْكُهُ انْتَهَكَ

---

(١) هنا زاد ابن كثير رحمه الله تعالى : قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: كَانَتْ وَقْعَةُ نَهَاوَنْدَ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ. [وقيل]: كَانَتْ فِي سَنَةِ سَبْعَ عَشْرَةَ. وَقِيلَ: فِي سَنَةِ تِسْعَ عَشْرَةَ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

حُرْمَتَنَا وَأَخَذَ بِلَادَنَا، وَلَمْ يَكْفِهِ ذَلِكَ حَتَّى أَغْزَانَا فِي عُقْرِ دَارِنَا، وَأَخَذَ بَيْتَ الْمُلْكَةِ، وَلَيْسَ بِمُنْتَهٍ حَتَّى يُخْرِجَكُمْ مِنْ بِلَادِكُمْ. فَتَعَاهَدُوا وَتَعَاقَدُوا عَلَى أَنْ يَقْصِدُوا الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ ثُمَّ يَشْغَلُوا عُمَرَ عَنْ بِلَادِهِ، وَتَوَاثَقُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَكَتَبُوا بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا. وشَافَهَ سَعْدٌ عُمَرَ بِمَا تَمَالَئُوا عَلَيْهِ وَقَصَدُوا إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ قَدِ اجْتَمَعَ مِنْهُمْ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ أَلْفًا. وَجَاءَ كِتَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِتْبَانَ مِنَ الْكُوفَةِ إِلَى عُمَرَ مَعَ قَرِيبِ بْنِ ظَفَرٍ الْعَبْدِيِّ، بِأَنَّهُمْ قَدِ اجْتَمَعُوا، وَهُمْ مُتَحَرِّقُونَ مُتَذَامِرُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَأَنَّ الْمَصْلَحَةَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ نَقْصِدَهُمْ فَنُعَالِجَهُمْ عَمَّا هَمُّوا بِهِ وَعَزَمُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمَسِيرِ إِلَى بِلَادِنَا. فَقَالَ عُمَرُ لِحَامِلِ الْكِتَابِ: مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: قَرِيبٌ. قَالَ: ابْنُ مَنْ؟ قَالَ: ابْنُ ظَفَرٍ. فَتَفَاءَلَ عُمَرُ بِذَلِكَ، وَقَالَ: ظَفَرٌ قَرِيبٌ. ثُمَّ أَمَرَ فَنُودِيَ: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ. فَاجْتَمَعَ النَّاسُ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ لِذَلِكَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، فَتَفَاءَلَ عُمَرُ أَيْضًا بِسَعْدٍ، فَصَعِدَ عُمَرُ الْمِنْبَرَ حَتَّى اجْتَمَعَ النَّاسُ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْأَيَّامِ، أَلَا وَإِنِّي قَدْ هَمَمْتُ بِأَمْرٍ فَاسْمَعُوا وَأَجِيبُوا وَأَوْجِزُوا، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَسِيرَ بِمَنْ قِبَلِي حَتَّى أَنْزِلَ مَنْزِلًا وَسَطًا بَيْنَ هَذَيْنَ الْمِصْرَيْنِ فَأَسْتَنْفِرَ النَّاسَ، ثُمَّ أَكُونَ لَهُمْ رِدْءًا حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. فَقَامَ عُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي رِجَالٍ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ، فَتَكَلَّمَ كُلٌّ مِنْهُمْ بِانْفِرَادِهِ فَأَحْسَنَ وَأَجَادَ، وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ لَا يَسِيرَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَلَكِنْ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ وَيَحْضُرُهُمْ بِرَأْيِهِ وَدُعَائِهِ. وَكَانَ مِنْ كَلَامِ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنْ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرَةٍ وَلَا قِلَّةٍ، هُوَ دِينُهُ الَّذِي أَظْهَرَ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَزَّ، وَأَمَدَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، فَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ، وَمَكَانُكَ مِنْهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ وَيُمْسِكُهُ، فَإِذَا انْحَلَّ تَفَرَّقَ مَا فِيهِ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَدًا، وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلًا فَهُمْ كَثِيرٌ عَزِيزٌ بِالْإِسْلَامِ، فَأَقِمْ مَكَانَكَ وَاكْتُبْ

إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ فَهُمْ أَعْلَامُ الْعَرَبِ وَرُؤَسَاؤُهُمْ، فَلْيَذْهَبْ مِنْهُمُ الثُّلُثَانِ وَيُقِيمُ الثُّلُثُ، وَاكْتُبْ إِلَى أَهْلِ الْبَصْرَةِ يَمُدُّونَهُمْ أَيْضًا. وَكَانَ عُثْمَانُ قَدْ أَشَارَ فِي كَلَامِهِ بِأَنْ يَمُدَّهُمْ فِي جُيُوشٍ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ وَالشَّامِ. وَوَافَقَ عُمَرُ عَلَى الذَّهَابِ بِنَفْسِهِ إِلَى مَا بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ. فَرَدَّ عَلِيٌّ عَلَى عُثْمَانَ فِي مُوَافَقَتِهِ عَلَى الذَّهَابِ إِلَى مَا بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَرَدَّ رَأْيَ عُثْمَانَ فِيمَا أَشَارَ بِهِ مِن اسْتِمْدَادِ أَهْلِ الشَّامِ خَوْفًا عَلَى بِلَادِهِمْ - إِذَا قَلَّ جُيُوشُهَا - مِنَ الرُّومِ، وَمِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ خَوْفًا عَلَى بِلَادِهِمْ مِنَ الْحَبَشَةِ. فَأَعْجَبَ عُمَرَ قَوْلُ عَلِيٍّ وَسُرَّ بِهِ - وَكَانَ عُمَرُ إِذَا اسْتَشَارَ أَحَدًا لَا يُبْرِمُ أَمْرًا حَتَّى يُشَاوِرَ الْعَبَّاسَ - فَلَمَّا أَعْجَبَهُ كَلَامُ الصَّحَابَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ، عَرَضَهُ عَلَى الْعَبَّاسِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَفِّضْ عَلَيْكَ، فَإِنَّمَا اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ الْفُرْسُ لِنِقْمَةٍ. يَعْنِي: تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ.

[واستشار عمر الهرمزان فقال : أما إذ فُتَّني بِنَفْسِكَ فَانْصَحْ لِي وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: تَكَلَّمْ لَا بَأْسَ فأمَّنه فَقَالَ الْهُرْمُزَانُ: نَعَمْ إِنَّ فَارِسَ. الْيَوْمَ. رَأْسٌ وَجَنَاحَانِ قَالَ: فَأَيْنَ الرَّأْسُ قَالَ: بِنَهَاوَنْدَ مَعَ بَنْذَاذِقَانَ فَإِنَّ مَعَهُ أَسَاوِرَةَ كِسْرَى وَأَهْلَ أَصْفَهَانَ أصفهان. قال: فأين الجناحان؟ فذكر الهرمزان مكانا نسيته[1].

واستشاره في الفرس والروم فَقَالَ : إِنِّي مُسْتَشِيرُكَ فِي مَغَازِيَّ هَذِهِ ، قَالَ : نَعَمْ ، مَثَلُهَا وَمَثَلُ مَنْ فِيهَا مِنَ النَّاسِ مِنْ عَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ مَثَلُ طَائِرٍ لَهُ رَأْسٌ وَلَهُ جَنَاحَانِ وَلَهُ رِجْلَانِ ، فَإِنْ كُسِرَ أَحَدُ الْجَنَاحَيْنِ نَهَضَتِ الرِّجْلَانِ بِجَنَاحٍ وَالرَّأْسُ ، فَإِنْ كُسِرَ الْجَنَاحُ الْآخَرُ نَهَضَتِ الرِّجْلَانِ وَالرَّأْسُ ، وَإِنْ شُدِخَ الرَّأْسُ ذَهَبَتِ الرِّجْلَانِ وَالْجَنَاحَانِ وَالرَّأْسُ ، فَالرَّأْسُ كِسْرَى ، وَالْجَنَاحُ قَيْصَرُ ، وَالْجَنَاحُ الْآخَرُ فَارِسُ ، فَمُرِ

(١) أخرجه ابن حبان في "صحيحه" برقم: (٤٧٥٦) برقم: (٤٧٥٧) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٢٦). وفي: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٧/ ١٣٦).

الْمُسْلِمِينَ فَلْيَنْفِرُوا إِلَى كِسْرَى فَنَدَبَ عُمَرُ الناس].[١]

قائد جيش المسلمين في هذه المعركة

ثُمَّ قَالَ عُمَرُ أَشِيرُوا عَلَيَّ بِمَنْ أُوَلِّيهِ أَمْرَ الْحَرْبِ، وَلْيَكُنْ عِرَاقِيًّا. فَقَالُوا: أَنْتَ أَبْصَرُ بِجُنْدِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَأُوَلِّيَنَّ رَجُلًا يَكُونُ أَوَّلَ الْأَسِنَّةِ إِذَا لَقِيَهَا غَدًا. قَالُوا: مَنْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنٍ. فَقَالُوا: هُوَ لَهَا. وَكَانَ النُّعْمَانُ قَدْ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ وَهُوَ نَائِبٌ عَلَى كَسْكَرَ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَعْزِلَهُ عَنْهَا وَيُوَلِّيَهُ قِتَالَ أَهْلِ نَهَاوَنْدَ، فَلِهَذَا أَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ وَعَيَّنَهُ لَهُ. ثُمَّ كَتَبَ عُمَرُ إِلَى حُذَيْفَةَ أَنْ يَسِيرَ مِنَ الْكُوفَةِ بِجُنُودٍ مِنْهَا، وَكَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى أَنْ يَسِيرَ بِجُنُودِ الْبَصْرَةِ، وَكَتَبَ إِلَى النُّعْمَانِ - وَكَانَ بِالْبَصْرَةِ - أَنْ يَسِيرَ بِمَنْ هُنَاكَ مِنَ الْجُنُودِ إِلَى نَهَاوَنْدَ، وَإِذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ فَكُلُّ أَمِيرٍ عَلَى جَيْشِهِ، وَالْأَمِيرُ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنٍ، فَإِذَا قُتِلَ فَحُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، فَإِذَا قُتِلَ فَجَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَإِذَا قُتِلَ فَقَيْسُ بْنُ مَكْشُوحٍ، فَإِنْ قُتِلَ قَيْسٌ فَفُلَانٌ ثُمَّ فُلَانٌ. حَتَّى عَدَّ سَبْعَةً، أَحَدُهُمُ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ. وَصُورَةُ الْكِتَابِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ، سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ جُمُوعًا مِنَ الْأَعَاجِمِ كَثِيرَةً قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ بِمَدِينَةِ نَهَاوَنْدَ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَسِرْ بِأَمْرِ اللَّهِ وَبِعَوْنِ اللَّهِ وَبِنَصْرِ اللَّهِ، وَبِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تُوطِئْهُمْ وَعْرًا فَتُؤْذِيَهُمْ، وَلَا تَمْنَعْهُمْ حَقَّهُمْ فَتُكَفِّرَهُمْ، وَلَا تُدْخِلْهُمْ غَيْضَةً، فَإِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ، فَسِرْ فِي وَجْهِكَ ذَلِكَ حَتَّى تَأْتِيَ مَاهَ، فَإِنِّي قَدْ كَتَبْتُ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ أَنْ يُوَافُوكَ بِهَا، فَإِذَا اجْتَمَعَ إِلَيْكَ جُنُودُكَ فَسِرْ إِلَى الْفَيْرُزَانِ وَمَنْ يَجْتَمِعُ مَعَهُ مِنَ الْأَعَاجِمِ مِنْ أَهْلِ فَارِسَ وَغَيْرِهِمْ، وَاسْتَنْصِرُوا اللَّهَ، وَأَكْثِرُوا مِنْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٩).

وَكَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى نَائِبِ الْكُوفَةِ – عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ – أَنْ يُعَيِّنَ جَيْشًا وَيَبْعَثَهُمْ إِلَى نَهَاوَنْدَ، وَلْيَكُنِ الْأَمِيرَ عَلَيْهِمْ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ، وَوَلِّ السَّائِبَ بْنَ الْأَقْرَعِ قَسْمَ الْغَنَائِمِ. فَسَارَ حُذَيْفَةُ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ نَحْوَ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ لِيُوَافُوهُ بِمَاهَ، وَسَارَ مَعَ حُذَيْفَةَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ أُمَرَاءِ الْعِرَاقِ، وَقَدْ أَرْصَدَ فِي كُلِّ كُورَةٍ مَا يَكْفِيهَا مِنَ الْمُقَاتِلَةِ، وَجَعَلَ الْحَرَسَ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَاحْتَاطُوا احْتِيَاطًا عَظِيمًا، ثُمَّ انْتَهَوْا إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ حَيْثُ اتَّعَدُوا، فَدَفَعَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ إِلَى النُّعْمَانِ كِتَابَ عُمَرَ، وَفِيهِ الْأَمْرُ لَهُ بِمَا يَعْتَمِدُهُ فِي هَذِهِ الْوَقْعَةِ.

عدد جيش المسلمين في نهاوند وترتيبهم

كَمُلَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ فِي ثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُقَاتِلَةِ.فِيهِمْ مِنْ سَادَاتِ الصَّحَابَةِ وَرُءُوسِ الْعَرَبِ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَجَمٌّ غَفِيرٌ؛ مِنْهُمُ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَحُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ،وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ الزُّبَيْدِيُّ، وَطُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الْأَسَدِيُّ، وَقَيْسُ بْنُ مَكْشُوحٍ الْمُرَادِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَارَ النَّاسُ نَحْوَ نَهَاوَنْدَ، وَبَعَثَ النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْأَمِيرُ بَيْنَ يَدَيْهِ طَلِيعَةً ثَلَاثَةً؛ وَهُمْ: طُلَيْحَةُ، وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ الزُّبَيْدِيُّ، وَعَمْرُو بْنُ أَبِي سَلْمَى، وَيُقَالُ لَهُ: عَمْرُو بْنُ ثُبَيٍّ أَيْضًا، لِيَكْشِفُوا لَهُ خَبَرَ الْقَوْمِ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ. فَسَارَتِ الطَّلِيعَةُ يَوْمًا وَلَيْلَةً فَرَجَعَ عَمْرُو بْنُ ثُبَيٍّ، فَقِيلَ لَهُ: مَا رَجَعَكَ؟ فَقَالَ: كُنْتُ فِي أَرْضِ الْعَجَمِ، وَقَتَلَتْ أَرْضٌ جَاهِلَهَا، وَقَتَلَ أَرْضًا عَالِمُهَا. ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَهُ عَمْرُو بْنُ مَعْدِيكَرِبَ، وَقَالَ: لَمْ نَرَ أَحَدًا، وَخِفْتُ أَنْ يُؤْخَذَ عَلَيْنَا بِالطَّرِيقِ. وَنَفَذَ طُلَيْحَةُ وَلَمْ يَحْفِلْ بِرُجُوعِهِمَا، فَسَارَ بَعْدَ ذَلِكَ نَحْوًا مِنْ بِضْعَةَ عَشَرَ فَرْسَخًا حَتَّى انْتَهَى إِلَى نَهَاوَنْدَ وَدَخَلَ فِي الْعَجَمِ وَعَلِمَ مِنْ أَخْبَارِهِمْ مَا أَحَبَّ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النُّعْمَانِ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَهَاوَنْدَ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ. فَسَارَ النُّعْمَانُ عَلَى تَعْبِئَتِهِ.

١ – وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ نُعَيْمُ بْنُ مُقَرِّنٍ

٢- ٣- وَعَلَى الْمُجَنَّبَتَيْنِ حُذَيْفَةُ وَسُوَيْدُ بْنُ مُقَرِّنٍ

٤- وَعَلَى الْمُجَرَّدَةِ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو

٥- وَعَلَى السَّاقَةِ مُجَاشِعُ بْنُ مَسْعُودٍ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْفُرْسِ وَعَلَيْهِمُ الْفَيْرُزَانُ، وَمَعَهُ مِنَ الْجَيْشِ كُلُّ مَنْ غَابَ عَنِ الْقَادِسِيَّةِ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَهُوَ فِي مِائَةٍ وَخَمْسِينَ أَلْفًا. فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ كَبَّرَ النُّعْمَانُ وَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ، فَزُلْزِلَتِ الْأَعَاجِمُ وَرُعِبُوا مِنْ ذَلِكَ رُعْبًا شَدِيدًا، ثُمَّ أَمَرَ النُّعْمَانُ بِحَطِّ الْأَثْقَالِ وَهُوَ وَاقِفٌ، فَحَطَّ النَّاسُ أَثْقَالَهُمْ، وَتَرَكُوا رِحَالَهُمْ، وَضَرَبُوا خِيَامَهُمْ وَقُبَابَهُمْ، وَضُرِبَتْ خَيْمَةٌ لِلنُّعْمَانِ عَظِيمَةٌ، وَكَانَ الَّذِينَ ضَرَبُوا أَرْبَعَةَ عَشَرَ مِنْ أَشْرَافِ الْجَيْشِ؛ وَهُمْ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، وَعُتْبَةُ بْنُ عَمْرٍو، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، وَبَشِيرُ بْنُ الْخَصَاصِيَةِ، وَحَنْظَلَةُ الْكَاتِبُ، وَابْنُ الْهَوْبَرِ، وَرِبْعِيُّ بْنُ عَامِرٍ، وَعَامِرُ بْنُ مَطَرٍ، وَجَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحِمْيَرِيُّ، وَجَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ، وَالْأَقْرَعُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحِمْيَرِيُّ، وَالْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ الْكِنْدِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ قَيْسٍ الْهَمْدَانِيُّ، وَوَائِلُ بْنُ حُجْرٍ، فَلَمْ يُرَ بِالْعِرَاقِ خَيْمَةٌ عَظِيمَةٌ أَعْظَمَ مِنْ بِنَاءِ هَذِهِ الْخَيْمَةِ.

الأيام التي كانت فيها المعركة

وَحِينَ حَطُّوا الْأَثْقَالَ أَمَرَ النُّعْمَانُ بِالْقِتَالِ، وَكَانَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، فَاقْتَتَلُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالَّذِي بَعْدَهُ وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ انْحَجَزُوا فِي حِصْنِهِمْ، وَحَاصَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فَأَقَامُوا عَلَيْهِمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَالْأَعَاجِمُ يَخْرُجُونَ إِذَا أَرَادُوا وَيَرْجِعُونَ إِلَى حُصُونِهِمْ إِذَا أَرَادُوا.

كيف تكون مخاطبة العدو في الحرب والتشاور قبل القتال

[فَلَمَّا اجْتَمَعُوا بِنَهَاوَنْدَ جَمِيعًا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ بَنْذَاذِقَانُ [بندار] الْعِلْجُ أَنْ أَرْسِلُوا إِلَيْنَا يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ رَجُلًا مِنْكُمْ نُكَلِّمُهُ، فَاخْتَارَ النَّاسُ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ، قَالَ جُبَيْرُ بْنُ حَيَّةَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ رَجُلٌ طَوِيلٌ، أَشْعَرُ أَعْوَرُ، فَأَتَاهُ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَيْنَا سَأَلْنَاهُ،

فَقَالَ لَنَا : إِنِّي وَجَدْتُ الْعِلْجَ قَدِ اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ فِي أَيِّ شَيْءٍ تَأْذَنُونَ لِهَذَا الْعَرَبِيِّ أَبِشَارَتِنَا وَبَهْجَتِنَا وَمُلْكِنَا أَوْ نَتَقَشَّفُ لَهُ ، فَنُزَهِّدُهُ عَمَّا فِي أَيْدِينَا ؟ فَقَالُوا : بَلْ نَأْذَنُ لَهُ بِأَفْضَلِ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّارَةِ وَالْعِدَّةِ ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُمْ رَأَيْتُ تِلْكَ الْحِرَابَ ، وَالدَّرَقَ يَلْتَمِعُ مِنْهُ الْبَصَرُ ، وَرَأَيْتُهُمْ قِيَامًا عَلَى رَأْسِهِ ، وَإِذَا هُوَ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ ، وَعَلَى رَأْسِهِ التَّاجُ ، فَمَضَيْتُ كَمَا أَنَا ، وَنَكَسْتُ رَأْسِي لِأَقْعُدَ مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ ، قَالَ : فَدُفِعْتُ وَنُهِرْتُ ، فَقُلْتُ : إِنَّ الرُّسُلَ لَا يُفْعَلُ بِهِمْ هَذَا ، فَقَالُوا لِي : إِنَّمَا أَنْتَ كَلْبٌ أَتَقْعُدُ مَعَ الْمَلِكِ ؟ فَقُلْتُ : لَأَنَا أَشْرَفُ فِي قَوْمِي مِنْ هَذَا فِيكُمْ ، قَالَ : فَانْتَهَرَنِي ، وَقَالَ : اجْلِسْ ، فَجَلَسْتُ ، فَتُرْجِمَ لِي قَوْلُهُ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ أَطْوَلَ النَّاسِ جُوعًا ، وَأَعْظَمَ النَّاسِ شَقَاءً ، وَأَقْذَرَ النَّاسِ قَذَرًا ، وَأَبْعَدَ النَّاسِ دَارًا ، وَأَبْعَدَهُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ، وَمَا كَانَ مَنَعَنِي أَنْ آمُرَ هَؤُلَاءِ الْأَسَاوِرَةَ حَوْلِي أَنْ يَنْتَظِمُوكُمْ بِالنُّشَّابِ ، إِلَّا تَنَجُّسًا بِجِيفَكُمْ ؛ لِأَنَّكُمْ أَرْجَاسٌ ، فَإِنْ تَذْهَبُوا نُخَلِّي عَنْكُمْ ، وَإِنْ تَأْبَوْا نُرِكُمْ مَصَارِعَكُمْ .

قَالَ الْمُغِيرَةُ : فَحَمِدْتُ اللهَ وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ ، وَقُلْتُ : وَاللهِ مَا أَخْطَأْتَ مِنْ صِفَتِنَا وَنَعْتِنَا شَيْئًا ، إِنْ كُنَّا لَأَبْعَدَ النَّاسِ دَارًا ، وَأَشَدَّ النَّاسِ جُوعًا ، وَأَعْظَمَ النَّاسِ شَقَاءً ، وَأَبْعَدَ النَّاسِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا ، فَوَعَدَنَا النَّصْرَ فِي الدُّنْيَا وَالْجَنَّةَ فِي الْآخِرَةِ ، فَلَمْ نَزَلْ نَتَعَرَّفُ مِنْ رَبِّنَا - مُذْ جَاءَنَا رَسُولُهُ ﷺ الْفَلْجَ وَالنَّصْرَ حَتَّى أَتَيْنَاكُمْ ، وَإِنَّا وَاللهِ نَرَى لَكُمْ مُلْكًا وَعَيْشًا لَا نَرْجِعُ إِلَى ذَلِكَ الشَّقَاءِ أَبَدًا ، حَتَّى نَغْلِبَكُمْ عَلَى مَا فِي أَيْدِيكُمْ ، أَوْ نُقْتَلَ فِي أَرْضِكُمْ ، فَقَالَ : أَمَّا الْأَعْوَرُ ، فَقَدْ صَدَقَكُمُ الَّذِي فِي نَفْسِهِ ، فَقُمْتُ مِنْ عِنْدِهِ ، وَقَدْ وَاللهِ أَرْعَبْتُ الْعِلْجَ جُهْدِي .] (١).

فَلَمَّا طَالَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ هَذَا الْحَالُ وَاسْتَمَرَّ، جَمَعَ النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنٍ أَهْلَ الرَّأْيِ مِنَ الْجَيْشِ، وَاشْتَوَرُوا فِي ذَلِكَ، وَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِمْ حَتَّى يَتَوَاجَهُوا هُمْ

---

(١) صححه الألباني في الصحيحة (٢٨٢٦) وقال أخرجه ابن جرير في " التاريخ " (٢ / ٢٣٣ - ٢٣٥) وابن حبان (١٧١٢ -الموارد).اهـ **قلت**: وأصل الحديث في البخاري (٣١٥٩).

وَالْمُشْرِكُونَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ. فتكَلَّمَ عَمْرُو بْنُ أَبِي سُلْمَى أَوَّلًا - وَهُوَ أَسُنُّ مَنْ كَانَ هُنَاكَ - فَقَالَ: إِنَّ بَقَاءَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ أَضَرُّ عَلَيْهِمْ مِنَ الَّذِي يَطْلُبُهُ مِنْهُمْ وَأَبْقَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ. فَرَدَّ الْجَمِيعُ عَلَيْهِ وَقَالُوا: إِنَّا لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ إِظْهَارِ دِينِنَا، وَإِنْجَازِ مَوْعُودِ اللَّهِ لَنَا. وَتَكَلَّمَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ فَقَالَ: نَاهِدْهُمْ وَكَاثِرْهُمْ وَلَا تَخَفْهُمْ. فَرَدُّوا جَمِيعًا عَلَيْهِ وَقَالُوا: إِنَّمَا يُنَاطِحُ بِنَا الْجُدْرَانَ، وَالْجُدْرَانُ أَعْوَانٌ لَهُمْ عَلَيْنَا. وَتَكَلَّمَ طُلَيْحَةُ الْأَسَدِيُّ فَقَالَ: إِنَّهُمَا لَمْ يُصِيبَا، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَبْعَثَ سَرِيَّةً فَتَحْدِقَ بِهِمْ وَيُنَاوِشُوهُمْ بِالْقِتَالِ وَيُحْمِشُوهُمْ، فَإِذَا بَرَزُوا إِلَيْهِمْ فَلْيَفِرُّوا إِلَيْنَا هِرَابًا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَإِذَا اسْتَطْرَدُوا وَرَاءَهُمْ وَانْتَهَوْا إِلَيْنَا، عَزَمْنَا أَيْضًا عَلَى الْفِرَارِ كُلُّنَا، فَإِنَّهُمْ حِينَئِذٍ لَا يَشُكُّونَ فِي الْهَزِيمَةِ فَيَخْرُجُونَ مِنْ حُصُونِهِمْ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ، فَإِذَا تَكَامَلَ خُرُوجُهُمْ رَجَعْنَا إِلَيْهِمْ فَجَالَدْنَاهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنَنَا. فَاسْتَجَادَ النَّاسُ هَذَا الرَّأْيَ. وَأَمَّرَ النُّعْمَانُ عَلَى الْمُجَرَّدَةِ الْقَعْقَاعَ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الْبَلَدِ فَيُحَاصِرُوهُمْ وَحْدَهُمْ وَيَهْرُبُوا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إِذَا بَرَزُوا إِلَيْهِمْ. فَفَعَلَ الْقَعْقَاعُ ذَلِكَ، فَلَمَّا بَرَزُوا مِنْ حُصُونِهِمْ نَكَصَ الْقَعْقَاعُ بِمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ نَكَصَ، ثُمَّ نَكَصَ، فَاغْتَنَمَهَا الْأَعَاجِمُ، فَفَعَلُوا مَا ظَنَّ طُلَيْحَةُ، وَقَالُوا: هِيَ هِيَ. فَخَرَجُوا بِأَجْمَعِهِمْ وَلَمْ يَبْقَ بِالْبَلَدِ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ إِلَّا مَنْ يَحْفَظُ لَهُمُ الْأَبْوَابَ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْجَيْشِ، وَالنُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى تَعْبِئَتِهِ، وَذَلِكَ فِي صَدْرِ نَهَارِ جُمُعَةٍ، فَعَزَمَ النَّاسُ عَلَى مُصَادَمَتِهِمْ، فَنَهَاهُمُ النُّعْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَمَرَهُمْ أَنْ لَا يُقَاتِلُوا حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ، وَتَهُبَّ الْأَرْوَاحُ، وَيَنْزِلَ النَّصْرُ، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَفْعَلُ. (١) وَأَلَحَّ النَّاسُ عَلَى النُّعْمَانِ فِي الْحَمْلَةِ، فَلَمْ يَفْعَلْ ،وَكَانَ رَجُلًا ثَابِتًا.

وبدأت المعركة

لَمَّا كَانَ الزَّوَالُ، صَلَّى النعمان بِالْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ رَكِبَ بِرْذَوْنًا لَهُ أَحْوَى قَرِيبًا مِنَ

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٠).

الْأَرْضِ، فَجَعَلَ يَقِفُ عَلَى كُلِّ رَايَةٍ وَيَحُثُّهُمْ عَلَى الصَّبْرِ وَيَأْمُرُهُمْ بِالثَّبَاتِ، وَيُقَدِّمُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ يُكَبِّرُ الْأُولَى فَيَتَأَهَّبُ النَّاسُ لِلْحَمْلَةِ، وَيُكَبِّرُ الثَّانِيَةَ فَلَا يَبْقَى لِأَحَدٍ أُهْبَةٌ، ثُمَّ الثَّالِثَةَ وَمَعَهَا الْحَمْلَةُ الصَّادِقَةُ. ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَوْقِفِهِ، [ثُمَّ قَالَ النُّعْمَانُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَقَرَّ عَيْنِي الْيَوْمَ بِفَتْحٍ يَكُونُ فِيهِ عِزُّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَذُلُّ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ ، ثُمَّ اخْتِمْ لِي عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ بِالشَّهَادَةِ ، ثُمَّ قَالَ : أَمِّنُوا يَرْحَمُكُمُ اللهُ ، فَأَمَّنَّا وَبَكَى وَبَكَيْنَا .] (١) وقال: قُتِلْتُ فَلَا تَلُوُوا عَلَيَّ.

وَتَعَبَّتِ الْفُرْسُ تَعْبِئَةً عَظِيمَةً، وَاصْطَفُّوا صُفُوفًا هَائِلَةً، فِي عَدَدٍ وَعُدَدٍ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ، وَقَدْ تَغَلْغَلَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَأَلْقَوْا حَسَكَ الْحَدِيدِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ حَتَّى لَا يُمْكِنَهُمُ الْهَرَبُ وَلَا الْفِرَارُ وَلَا التَّحَيُّزُ. ثُمَّ إِنَّ النُّعْمَانَ بْنَ مُقَرِّنٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَبَّرَ الْأُولَى وَهَزَّ الرَّايَةَ فَتَأَهَّبَ النَّاسُ لِلْحَمْلَةِ، ثُمَّ كَبَّرَ الثَّانِيَةَ وَهَزَّ الرَّايَةَ فَتَأَهَّبُوا أَيْضًا، ثُمَّ كَبَّرَ الثَّالِثَةَ وَحَمَلَ وَحَمَلَ النَّاسُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَجَعَلَتْ رَايَةُ النُّعْمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَنْقَضُّ نَحْوَ الْفُرْسِ كَانْقِضَاضِ الْعُقَابِ عَلَى الْفَرِيسَةِ حَتَّى تُصَافِحُوا بِالسُّيُوفِ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا لَمْ يُعْهَدْ مِثْلُهُ فِي مَوْقِفٍ مِنَ الْمَوَاقِفِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَلَا سَمِعَ السَّامِعُونَ بِوَقْعَةٍ مِثْلِهَا.

عدد القتلى من الفرس

قُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَا بَيْنَ الزَّوَالِ إِلَى الظَّلَامِ مِنَ الْقَتْلَى مَا طَبَّقَ وَجْهَ الْأَرْضِ دَمًا، بِحَيْثُ إِنَّ الدَّوَابَّ كَانَتْ تَطْبَعُ فِيهِ، حَتَّى قِيلَ: إِنَّ الْأَمِيرَ النُّعْمَانَ بْنَ مُقَرِّنٍ زَلَقَ بِهِ حِصَانُهُ فِي ذَلِكَ الدَّمِ، فَوَقَعَ وَجَاءَهُ سَهْمٌ فِي خَاصِرَتِهِ [وَقَالَ : سَجُّونِي ثَوْبًا وَأَقْبِلُوا عَلَى عَدُوِّكُمْ ، وَلَا أَهُولَنَّكُمْ] وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ سِوَى أَخِيهِ سُوَيْدٍ، وَقِيلَ: نُعَيْمٍ، [وقيل:معقل] غَطَّاهُ بِثَوْبِهِ، وَأَخْفَى مَوْتَهُ، وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَى حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ. فَأَقَامَ حُذَيْفَةُ أَخَاهُ نُعَيْمًا مَكَانَهُ، وَأَمَرَ بِكَتْمِ مَوْتِهِ حَتَّى يَنْفَصِلَ الْحَالُ، لِئَلَّا يَنْهَزِمَ النَّاسُ.

قال معقل بن يسار: "وَوَقَعَ ذُو [الْجَنَاحَيْنِ] مِنْ بَغْلَتِهِ الشَّهْبَاءِ ، فَانْشَقَّ بَطْنُهُ ،

(١) هذا قطعة من الحديث المتقدم في استشارة الهرمزان وهو في الصحيحة (٢٨٢٦).

وَفتَحَ اللهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَأَتَيْتُ النُّعْمَانَ وَبِهِ رَمَقٌ ، فَأَتَيْتُهُ بِمَاءٍ فَجَعَلْتُ أَصُبُّهُ عَلَى وَجْهِهِ أَغْسِلُ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهِ ، فَقَالَ : مَنْ هَذَا ؟ فَقُلْتُ : مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ ، فَقَالَ : مَا فَعَلَ النَّاسُ ؟ فَقُلْتُ : فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلهِ اكْتُبُوا بِذَلِكَ إِلَى عُمَرَ وَفَاضَتْ نَفْسُهُ "(١)

فَلَمَّا أَظْلَمَ اللَّيْلُ انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ مُدْبِرِينَ وَتَبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ - وَكَانَ الْكُفَّارُ قَدْ قَرَنُوا مِنْهُمْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا بِالسَّلَاسِلِ وَحَفَرُوا حَوْلَهُمْ خَنْدَقًا، فَلَمَّا انْهَزَمُوا وَقَعُوا فِي الْخَنْدَقِ وَفِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ نَحْوَ مِائَةِ أَلْفٍ - وَجَعَلُوا يَتَسَاقَطُونَ فِي أَوْدِيَةِ بِلَادِهِمْ، فَهَلَكَ مِنْهُمْ بَشَرٌ كَثِيرٌ نَحْوَ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، سِوَى مَنْ قُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ إِلَّا الشَّرِيدُ. وَكَانَ الْفَيْرُزَانُ قَدْ صُرِعَ فِي الْمَعْرَكَةِ فَانْفَلَتَ وَانْهَزَمَ، وَاتَّبَعَهُ نُعَيْمُ بْنُ مُقَرِّنٍ، وَقَدَّمَ الْقَعْقَاعَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَصَدَ الْفَيْرُزَانُ هَمَذَانَ، فَلَحِقَهُ الْقَعْقَاعُ وَأَدْرَكَهُ عِنْدَ ثَنِيَّةِ هَمَذَانَ، وَقَدْ أَقْبَلَ مِنْهَا بِغَالٌ كَثِيرٌ وَحُمُرٌ تَحْمِلُ عَسَلًا، فَلَمْ يَسْتَطِعِ الْفَيْرُزَانُ صُعُودَهَا مِنْهُمْ، وَذَلِكَ لِحِينِهِ فَتَرَجَّلَ وَتَوَقَّلَ فِي الْجَبَلِ فَأَتْبَعَهُ الْقَعْقَاعُ حَتَّى قَتَلَهُ. وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَئِذٍ: إِنَّ لِلَّهِ جُنُودًا مِنْ عَسَلٍ. ثُمَّ غَنِمُوا ذَلِكَ الْعَسَلَ وَمَا خَالَطَهُ مِنَ الْأَحْمَالِ. وَسُمِّيَتْ تِلْكَ الثَّنِيَّةُ ثَنِيَّةَ الْعَسَلِ ثُمَّ لَحِقَ الْقَعْقَاعُ بَقِيَّةَ الْمُنْهَزِمِينَ مِنْهُمْ إِلَى هَمَذَانَ، وَحَاصَرَهَا وَحَوَى مَا حَوْلَهَا، فَنَزَلَ إِلَيْهِ صَاحِبُهَا - وَهُوَ خُسْرَوْ شُنُومُ - فَصَالَحَهُ عَلَيْهَا. ثُمَّ رَجَعَ الْقَعْقَاعُ إِلَى حُذَيْفَةَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ دَخَلُوا بَعْدَ الْوَقْعَةِ نَهَاوَنْدَ عَنْوَةً، وَقَدْ جَمَعُوا الْأَسْلَابَ وَالْمَغَانِمَ إِلَى صَاحِبِ الْأَقْبَاضِ وَهُوَ السَّائِبُ بْنُ الْأَقْرَعِ. وَلَمَّا سَمِعَ أَهْلُ مَاهَ بِخَبَرِ أَهْلِ هَمَذَانَ، بَعَثُوا إِلَى حُذَيْفَةَ وَأَخَذُوا لَهُمْ مِنْهُ الْأَمَانَ. وَجَاءَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: الْهِرْبَذُ - وَهُوَ صَاحِبُ نَارِهِمْ - فَسَأَلَ مِنْ حُذَيْفَةَ الْأَمَانَ وَيَدْفَعُ إِلَيْهِمْ وَدِيعَةً عِنْدَهُ لِكِسْرَى ادَّخَرَهَا لِنَوَائِبِ الزَّمَانِ، فَأَمَّنَهُ حُذَيْفَةُ، وَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ بِسَفَطَيْنِ مَمْلُوءَتَيْنِ جَوْهَرًا ثَمِينًا لَا يُقَوَّمُ، غَيْرَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ

---

(١) **صحيح**: أخرجه الحاكم في "مستدركه" برقم: (٥٣١٥) .

لَمْ يَعْبَئُوا بِهِ، وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى بَعْثِهِ لِعُمَرَ خَاصَّةً، وَأَرْسَلُوهُ صُحْبَةَ الْأَخْمَاسِ وَالسَّبْيِ، صُحْبَةَ السَّائِبِ بْنِ الْأَقْرَعِ، وَأَرْسَلَ قَبْلَهُ بِالْفَتْحِ مَعَ طَرِيفِ بْنِ سَهْمٍ، ثُمَّ قَسَمَ حُذَيْفَةُ بَقِيَّةَ الْغَنِيمَةِ فِي الْغَانِمِينَ، وَرَضَخَ وَنَفَلَ لِذَوِي النَّجَدَاتِ، وَقَسَمَ لِمَنْ كَانَ قَدْ أَرْصَدَ مِنَ الْجُيُوشِ لِحِفْظِ ظُهُورِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَمَنْ كَانَ رِدْءًا لَهُمْ، وَمَنْسُوبًا إِلَيْهِمْ.

وَأَمَّا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ كَانَ يَدْعُو اللَّهَ لَيْلًا وَنَهَارًا لَهُمْ، دُعَاءَ الْحَوَامِلِ الْمُقْرِبَاتِ، وَابْتِهَالَ ذَوِي الضَّرُورَاتِ، وَقَدِ اسْتَبْطَأَ الْخَبَرَ عَنْهُمْ، فَبَيْنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ظَاهِرَ الْمَدِينَةِ إِذَا هُوَ بِرَاكِبٍ، فَسَأَلَهُ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلَ؟ فَقَالَ: مِنْ نَهَاوَنْدَ. فَقَالَ: مَا فَعَلَ النَّاسُ؟ قَالَ: فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَقُتِلَ الْأَمِيرُ، وَغَنِمَ الْمُسْلِمُونَ غَنِيمَةً عَظِيمَةً، أَصَابَ الْفَارِسُ سِتَّةَ آلَافٍ، وَالرَّاجِلُ أَلْفَانِ. ثُمَّ فَاتَهُ وَقَدِمَ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْمَدِينَةَ، فَأَخْبَرَهُ النَّاسُ وَشَاعَ الْخَبَرُ حَتَّى بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَطَلَبَهُ فَسَأَلَهُ عَمَّنْ أَخْبَرَهُ، فَقَالَ: رَاكِبٌ. فَقَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَجِئْنِي، وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ مِنَ الْجِنِّ، وَهُوَ بَرِيدُهُمْ[1].

ثُمَّ قَدِمَ طَرِيفٌ بِالْفَتْحِ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَيَّامٍ، وَلَيْسَ مَعَهُ سِوَى الْفَتْحِ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَمَّنْ قَتَلَ النُّعْمَانَ فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ عِلْمٌ، حَتَّى قَدِمَ الَّذِينَ مَعَهُمُ الْأَخْمَاسُ فَأَخْبَرُوا بِالْأَمْرِ عَلَى جَلِيَّتِهِ، فَإِذَا ذَلِكَ الْجِنِّيُّ قَدْ شَهِدَ الْوَقْعَةَ وَرَجَعَ سَرِيعًا إِلَى قَوْمِهِ نَذِيرًا.

وعَنْ مُدْرِكِ بْنِ عَوْفٍ الْأَحْمَسِيِّ قَالَ : بَيْنَا أَنَا عِنْدَ عُمَرَ إِذْ أَتَاهُ رَسُولُ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنِ النَّاسِ ، قَالَ : فَذَكَرُوا عِنْدَ عُمَرَ مَنْ أُصِيبَ يَوْمَ نَهَاوَنْدَ ، فَقَالُوا : قُتِلَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَآخَرُونَ لَا نَعْرِفُهُمْ ، فَقَالَ عُمَرُ : لَكِنَّ اللهَ يَعْرِفُهُمْ [أو قيل وَآخَرُونَ مِنْ أَفْنَادِ النَّاسِ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وجَعَلَ عُمَرُ يَبْكِي وَيَقُولُ: وَمَا ضَرَّهُمْ أَنْ لَا يَعْرِفَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ!وَقَدْ أَكْرَمَهُمْ بِالشَّهَادَةِ، وَمَا يَصْنَعُونَ بِمَعْرِفَةِ عُمَرَ]، قَالُوا : وَرَجُلٌ شَرَى نَفْسَهُ - يَعْنُونَ عَوْفَ بْنَ أَبِي حَيَّةَ أَبَا شُبَيْلٍ الْأَحْمَسِيَّ - فَقَالَ مُدْرِكُ بْنُ عَوْفٍ : ذَاكَ وَاللهِ خَالِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، يَزْعُمُ النَّاسُ أَنَّهُ

---

(١) **حسن:** أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٤٧٩) عن أبي عاصم كليب بن شهاب.

أَلْقَى بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَقَالَ عُمَرُ: كَذَبَ أُولَئِكَ، وَلَكِنَّهُ مِنَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْآخِرَةَ بِالدُّنْيَا (١). وَلَمَّا أُخْبِرَ عُمَر بِمَقْتَلِ النُّعْمَانِ بَكَى، ثُمَّ أَمَرَ بِقِسْمَةِ الْخُمْسِ عَلَى عَادَتِهِ، وَحُمِلَتْ ذَانِكَ السَّفَطَانِ إِلَى مَنْزِلِ عُمَرَ، وَرَجَعَتِ الرُّسُلُ. فَلَمَّا أَصْبَحَ عُمَرُ طَلَبَهُمْ فَلَمْ يَجِدْهُمْ، فَأَرْسَلَ فِي إِثْرِهِمُ الْبُرُدَ فَمَا لَحِقَهُمُ الْبَرِيدُ إِلَّا بِالْكُوفَةِ(٢).

قَالَ السَّائِبُ بْنُ الْأَقْرَعِ: فَلَمَّا أَنَخْتُ بَعِيرِي بِالْكُوفَةِ، أَنَاخَ الْبَرِيدُ بَعِيرَهُ عَلَى عُرْقُوبِ بَعِيرِي، وَقَالَ: أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقُلْتُ: لِمَاذَا؟ فَقَالَ: لَا أَدْرِي. فَرَجَعْنَا عَلَى إِثْرِنَا حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَيْهِ. قَالَ: مَالِي وَلَكَ يَا ابْنَ أُمِّ السَّائِبِ، بَلْ مَا لِابْنِ أُمِّ السَّائِبِ وَمَالِي. قَالَ: فَقُلْتُ: وَمَا ذَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ وَيْحَكَ، وَاللَّهِ إِنْ هُوَ إِلَّا أَنْ نِمْتُ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي خَرَجْتَ فِيهَا، فَبَاتَتْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ تَسْحَبُنِي إِلَى ذَيْنِكَ السَّفَطَيْنِ وَهُمَا يَشْتَعِلَانِ نَارًا، يَقُولُونَ: لَنَكْوِيَنَّكَ بِهِمَا. فَأَقُولُ: إِنِّي سَأَقْسِمُهُمَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. فَاذْهَبْ بِهِمَا لَا أَبَا لَكَ فَبِعْهُمَا فَاقْسِمْهُمَا فِي أُعْطِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَرْزَاقِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا وُهِبُوا وَلَمْ تَدْرِ أَنْتَ مَعَهُمْ. قَالَ السَّائِبُ: فَأَخَذْتُهُمَا حَتَّى جِئْتُ بِهِمَا مَسْجِدَ الْكُوفَةِ وَغَشِيَتْنِي التُّجَّارُ، فَابْتَاعَهُمَا مِنِّي عَمْرُو بْنُ حُرَيْثٍ الْمَخْزُومِيُّ بِأَلْفَيْ أَلْفٍ، ثُمَّ خَرَجَ بِهِمَا إِلَى أَرْضِ الْأَعَاجِمِ فَبَاعَهُمَا بِأَرْبَعَةِ آلَافِ أَلْفٍ، فَمَا زَالَ أَكْثَرَ أَهْلِ الْكُوفَةِ مَالًا بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَسَمَ ثَمَنَهُمَا بَيْنَ الْغَانِمِينَ، فَنَالَ كُلَّ فَارِسٍ أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ مِنْ ثَمَنِ السَّفَطَيْنِ.

قَالَ الشَّعْبِيُّ: وَحَصَلَ لِلْفَارِسِ مِنْ أَصْلِ الْغَنِيمَةِ سِتَّةُ آلَافٍ، وَلِلرَّاجِلِ أَلْفَانِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٤٨١) سوى ما بين المعوكفين وهو صحيح به.

(٢) ذكر الألباني بعض معركة نهاوند في الصحيحة (٢٨٢٦) بنحو ما ذُكر هنا، وليس بتمامه أوله استشارة الهرمزان.

حقد الفُرس

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: لَمَّا قُدِمَ بِسَبْيِ نَهَاوَنْدَ إِلَى الْمَدِينَةِ جَعَلَ أَبُو لُؤْلُؤَةَ - فَيْرُوزُ غُلَامُ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ - لَا يَلْقَى مِنْهُمْ صَغِيرًا إِلَّا مَسَحَ رَأْسَهُ وَبَكَى، وَقَالَ: أَكَلَ عُمَرُ كَبِدِي. وَكَانَ أَصْلُ أَبِي لُؤْلُؤَةَ مِنْ نَهَاوَنْدَ فَأَسَرَتْهُ الرُّومُ أَيَّامَ فَارِسَ وَأَسَرَهُ الْمُسْلِمُونَ بَعْدُ، فَنُسِبَ إِلَى حَيْثُ سُبِيَ.

نهاية دولة الفرس وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده

قَالُوا: وَلَمْ تَقُمْ لِلْأَعَاجِمِ بَعْدَ هَذِهِ الْوَقْعَةِ قَائِمَةٌ. وأتحف عمر الذين أبلوا فيها بألفين تَشْرِيفًا لَهُمْ وَإِظْهَارًا لِشَأْنِهِمْ وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ افْتَتَحَ الْمُسْلِمُونَ أَيْضًا بَعْدَ نَهَاوَنْدَ مَدِينَةَ جَيٍّ - وَهِيَ مَدِينَةُ أَصْبَهَانَ - بَعْدَ قِتَالٍ كَثِيرٍ وَأُمُورٍ طَوِيلَةٍ، فَصَالَحُوا الْمُسْلِمِينَ، وَكَتَبَ لَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ كِتَابَ أَمَانٍ وَصُلْحٍ، وَفَرَّ مِنْهُمْ ثَلَاثُونَ نَفَرًا إِلَى كِرْمَانَ لَمْ يُصَالِحُوا الْمُسْلِمِينَ. وَفِيهَا افْتَتَحَ أَبُو مُوسَى قُمَّ وَقَاشَانَ، وَافْتَتَحَ سُهَيْلُ بْنُ عَدِيٍّ مَدِينَةَ كِرْمَانَ.

(ملخص معركة نهاوند الفاصلة)

١ - اسم المعركة : نهاوند وتسمى فتح الفتوح.

٢- مكان المعركة : «نهاوند وهي مدينة عظيمة، تقع شرقي مدينة همذان» [«تعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير» (٢/ ٣٦٥):].

٣- تاريخ المعركة: سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ للهجرة.

٤ - الفريقان المتقاتلان :

١ - المسلمون: بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبقيادة النعمان بن مقرِّن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢ - الفرس: بأمر الملك يزدجرد.وبقيادة الْفَيْرُزَانُ، وَيُقَالُ: بُنْدَارٌ. وَيُقَالُ: ذُو الْحَاجِبِ.

٥ - عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما:

أولًا المسلمون: كان عدد جَيْش الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُقَاتِلَةِ.

وطَلِيعَة المسلمين ثَلَاثَة؛ وَهُمْ: طُلَيْحَةُ، وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ الزُّبَيْدِيُّ، وَعَمْرُو بْنُ أَبِي سَلْمَى وَيُقَالُ لَهُ: عَمْرُو بْنُ ثُبَيٍّ، فَسَارَ النُّعْمَانُ عَلَى تَعْبِئَتِهِ التي أمر بها عمر :

١- فكانت القيادة العامة إلى النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنْ قُتِلَ النُّعْمَانُ فَحُذَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنْ قُتِلَ فَنُعَيْمُ بْنُ مُقَرِّنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ نُعَيْمُ بْنُ مُقَرِّنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣- ٤- وَعَلَى الْمُجَنَّبَتَيْنِ حُذَيْفَةُ وَسُوَيْدُ بْنُ مُقَرِّنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٥- وَعَلَى الْمُجَرَّدَةِ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦- وَعَلَى السَّاقَةِ مُجَاشِعُ بْنُ مَسْعُودٍ.

٧- وعلى قَسْمِ الْغَنَائِمِ السَّائِبُ بْنَ الْأَقْرَعِ.

ثانيًا الفرس: عددهم مِائَةٌ وَخَمْسُونَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ(١٥٠,٠٠٠)،وَعَلَيْهِمُ الْفَيْرُزَانُ، وَيُقَالُ: بُنْدَارٌ. وَيُقَالُ: ذُو الْحَاجِبِ. .

٦- سبب المعركة : كَانَ الَّذِي هَاجَ هَذِهِ الْوَقْعَةَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا افْتَتَحُوا الْأَهْوَازَ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى دَارِ الْمُلْكِ الْقَدِيمِ مِنْ إِصْطَخْرَ مَعَ مَا حَازُوا مِنْ دَارِ مَمْلَكَتِهِمْ حَدِيثًا، وَهِيَ الْمَدَائِنُ وَأَخَذُوا تِلْكَ الْمَدَائِنَ وَالْأَقَالِيمَ وَالْكُوَرَ وَالْبُلْدَانَ الْكَثِيرَةَ، فَحَمُوا عِنْدَ ذَلِكَ، وَاسْتَجَاشَهُمْ يَزْدَجِرْدُ الَّذِي تَقَهْقَرَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، حَتَّى صَارَ إِلَى أَصْبَهَانَ مُبْعَدًا طَرِيدًا، لَكِنَّهُ فِي أُسْرَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ، فَكَتَبَ إِلَى نَاحِيَةِ نَهَاوَنْدَ وَمَا وَالَاهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْبُلْدَانِ، فَتَجَمَّعُوا وَتَرَاسَلُوا حَتَّى كَمُلَ لَهُمْ مِنَ الْجُنُودِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ ، فأمّر عمرُ النعمان بن مقرن على حربهم.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- بدأت المعركة بعد الظهر فقُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَا بَيْنَ الزَّوَالِ إِلَى الظَّلَامِ مِنَ الْقَتْلَى مَا طَبَّقَ وَجْهَ الْأَرْضِ دَمًا، بِحَيْثُ إِنَّ الدَّوَابَّ كَانَتْ تَطْبَعُ فِيهِ فَلَمَّا أَظْلَمَ اللَّيْلُ انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ مُدْبِرِينَ وَتَبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ - وَكَانَ الْكُفَّارُ قَدْ قَرَنُوا مِنْهُمْ ثَلَاثِينَ

أَلْفًا بِالسَّلَاسِلِ وَحَفَرُوا حَوْلَهُمْ خَنْدَقًا، فَلَمَّا انْهَزَمُوا وَقَعُوا فِي الْخَنْدَقِ وَفِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ نَحْوَ مِائَةِ أَلْفٍ - وَجَعَلُوا يَتَسَاقَطُونَ فِي أَوْدِيَةِ بِلَادِهِمْ، فَهَلَكَ مِنْهُمْ بَشَرٌ كَثِيرٌ نَحْوَ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، سِوَى مَنْ قُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ إِلَّا الشَّرِيدُ، وَكَانَ الْفَيْرُزَانُ أَمِيرُهُمْ قَدْ انْفَلَتَ وَانْهَزَمَ فَلَحِقَهُ الْقَعْقَاعُ وَأَدْرَكَهُ عِنْدَ ثَنِيَّةِ هَمَذَانَ فَقَتَلَهُ.

٢- فَتَحَ اللَّهُ عَلَى المسلمين، وَغَنِموا غَنِيمَةً عَظِيمَةً، أَصَابَ الْفَارِسُ سِتَّةَ آلَافٍ، وَالرَّاجِلُ أَلْفَانِ. ، وَجَاءَ رجُل من المجوس بِسَفَطَيْنِ مَمْلُوءَتَيْنِ جَوْهَرًا ثَمِينًا لَا يُقَوَّمُ، كانت وَدِيعَةً عِنْدَهُ لِكِسْرَى ادَّخَرَهَا لِنَوَائِبِ الزَّمَانِ، غَيْرَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَعْبَئُوا بِهِ، وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى بَعْثِهِ لِعُمَرَ خَاصَّةً لكنه أمر به فبيع ثُمَّ قُسِمَ ثَمَنُهَا بَيْنَ الْغَانِمِينَ، فَنَالَ كُلُّ فَارِسٍ أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ مِنْ ثَمَنِ السَّفَطَيْنِ. وأتحف عمر الذين أبلوا فيها بألفين تَشْرِيفًا لَهُمْ وَإِظْهَارًا لِشَأْنِهِمْ.

٣- فتحت نَهَاوَنْد ، وصَالَحَ أَهْل هَمَذَانَ، وأَهْلُ مَاهَ، ثمَ صالح أهل مَدِينَة جَيٍّ - وَهِيَ مَدِينَةُ أَصْبَهَانَ،وافْتَتَحَ أَبُو مُوسَى قُمَّ وَقَاشَانَ، وهذه المعركة امتداد لمعركة القادسية فراجعها.

كان عمر يرفض انسياح المسلمين في فارس الواسعة، خوفًا عليهم من الضياع حتى أقنعه الأحنف بن قيس بذلك. بعدها انساحت الجيوش الإسلامية على أرض فارس فحصل ما يلي:

١ - فتح نعيم بن مقرن همذان ثم الري (طهران)، وصالح أهل (جرجان) وطبرستان، ووصل إلى بعض بلاد أذربيجان.

٢ - فتح سراقة بن عمرو باب الأبواب (دربند) على سواحل بحر الخزر الغربية.

٣ - فتح الأحنف بن قيس بلاد خراسان.

٤ - فتح عثمان بن أبي العاص بقية إصطخر وشيراز وأرمينيا.

٥ - فتح عاصم بن عمرو التميمي سجستان.

٦ - فتح سهيل بن عدي كرمان.

٧ - فتح الحكيم التغلبي مكران.

٨ - وفتح عتبة بن فرقد شمال غرب بلاد فارس.

وهكذا قضي على الإمبراطورية الفارسية من على الوجود. يخيل للإنسان كأن الجزيرة العربية تحولت إلى جيش يجاهد في سبيل الله لنشر الإسلام في بقاع الأرض.

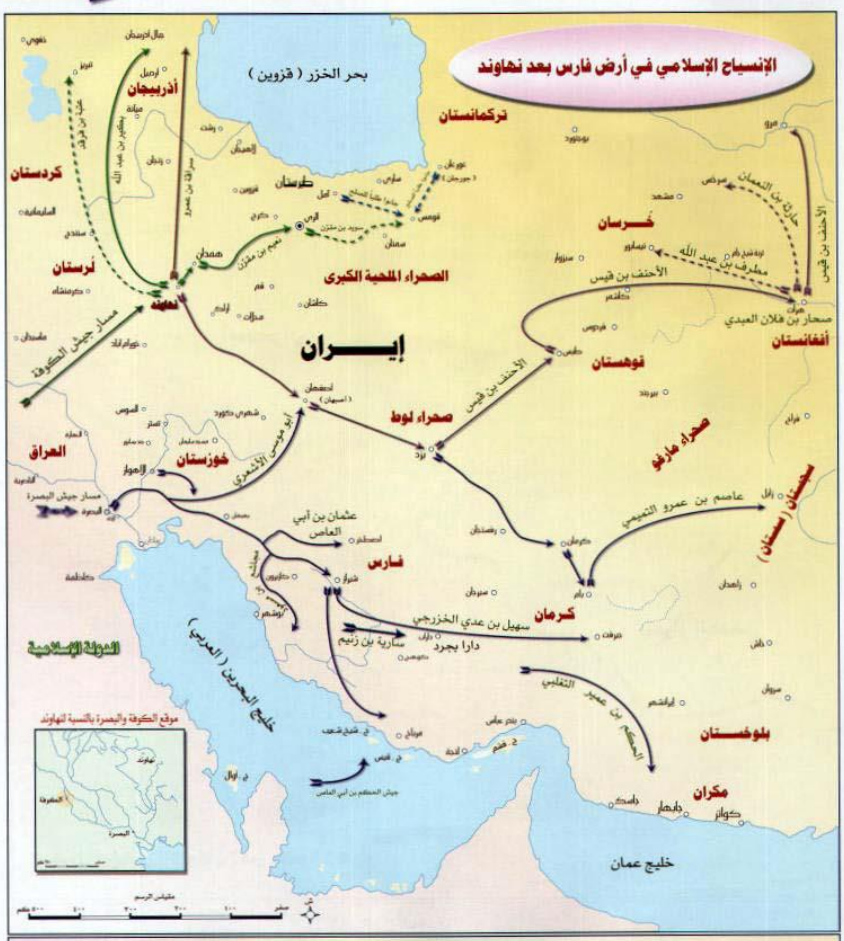
ملاحظة: هكذا سقطت فارس عسكريًا، ولكنهم ظلوا يصارعون الإسلام فكريًا، وكان ذلك من أهم أسباب ضعف العالم الإسلامي. - فهم كان سبب الانحراف في بعض الاتجاهات الشيعية، وهم وراء معظم الحركات الهدامة التي أرادت تدمير الإسلام مثل حركات الزنادقة والزنج والقرامطة وسنباذ والمقنع المروزي وبابك الخُرَّمي وغيرهم[1]

٤ - لَمْ تَقُمْ للفرس بَعْدَ هَذِهِ الْوَقْعَةِ قَائِمَةٌ.

٨- خريطة: موقعة نهاوند:

(١) موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر (ص١١٦/١١٧) نقلًا عن موسوعة التاريخ الإسلامي/د. أحمد شلبي،(١/ ٤٠٢).


أطلس الخليفة
عمر بن الخطاب
رضي الله عنه
الإمبراطورية
الساسانية
نهاوند
العراق الأوسط
نهر دجلة
ماه
تشتر
الكوفة
الدولة الإسلامية
نهر الفرات
العراق الجنوبي
البصرة
الأبلة
تحرك المسلمين نحو نهاوند لملاقاة الجيش الفارسي
إلى المدينة النبوية



قال الطبري : وفي هذه السنة أمر عمر جيوش العراق بطلب جيوش فارس حيث كانت؛ وأمر بعض من كان بالبصرة من جنود المسلمين وعمالها بالمسير إلى أرض فارس وكرمان وإصبهان، وبعض مَنْ كان منهم بناحية الكوفة وماهاتها إلى أصبهان وأذربيجان والريّ ... ولما أتى عمر انبعاث الجنود والسياههم أقرّ عمّاراً بعمله، وقرأ قول الله عزّ وجلّ: (ونريدُ أنْ نَمُنَّ على الذين استُضْعِفوا في الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أئمّةً وَنَجْعلَهُمُ الوارِثِينَ) . القصص: ٥ . تاريخ الأمم والملوك ، مج ٢ ، ص ٥٣٠ ـ ٥٣١ .



المعركة التاسعة من معارك الإسلام الفاصلة: (ذات الصواري)

تمهيد بين يدي المعركة

لما ولي عبدالله بن سعد بن أبي السرح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولاية مصر من قبل عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ كتب إليه أن الروم الذين لا يزالون يسيطرون على شمال إفريقيا يغيرون على حدود «مصر» الغربية، ولابد من مواجهتهم قبل أن يتجرءوا ويهاجموا مصر نفسها، فاقتنع عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أن استشار كبار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأذن له بتجريد حملات عسكرية لردعهم وكف عدوانهم، كما أرسل إليه جيشًا من المدينة مددًا، يضم عددًا من الصحابة كابن عباس، وعبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وفي سنة (٢٧هـ) انطلق جيش المسلمين بقيادة عبدالله بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وتوغل غربًا حتى وصل إلى «قرطاجنة» عاصمة إقليم «تونس» في ذلك الوقت، ودارت عدة معارك بين المسلمين وبين ملكها «جريجوار» أو «جرجير»، انتهت بانتصار المسلمين وقتل الملك «جريجوار» على يد عبدالله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. ولم تكن تلك الحملة تهدف إلى الاستقرار، بل إلى ردع العدوان، ولذا اكتفى عبدالله بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعقد معاهدات صلح مع زعماء تلك البلاد تعهدوا فيها بدفع مبلغ كبير. وبعد عودة عبدالله بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مصر، قام بفتح بلاد النوبة جنوبًا سنة (٣١هـ)، وعلى الرغم من أنها لم تخضع بلاد «النوبة» للمسلمين، فإنها انتهت بعقد صلح بين الطرفين، اتفقا فيه على تبادل التجارة والمنافع.

نشأة الأسطول الإسلامى:

يُعد إنشاء الأسطول الحربي الإسلامي من أعظم الإنجازات التى تمت في عهد

أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فبعد الفتوحات الإسلامية في مصر، والشام وجد المسلمون أنفسهم قد سيطروا على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط، الذى كان يُعرَف وقتئذٍ ببحر الروم، لأن سيطرتهم عليه كانت كاملة، ولم تنازعهم في ذلك دولة أخرى؛ ولذا كان المسلمون في حاجة إلى قوة بحرية تمكنهم من الحفاظ على شواطئهم ضد هجمات الأسطول البيزنطي. وكان أول من تنبه إلى ذلك معاوية ابن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا والي الشام؛ لأنه اضطلع بفتح سواحل الشام، مثل: «صور»، و «عكا»، و «صيدا»، و «بيروت» منذ عهد الخليفتين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وواجه صعوبات كثيرة في فتح تلك المدن، لقوة تحصينها من ناحية، وتوالى الإمدادات التي تأتيها من البحر من ناحية أخرى، كما أنها كانت محطات للأساطيل البيزنطية. ولما أدرك معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه بدون قوة بحرية إسلامية فلن يتمكن من الدفاع عن كل الساحل الشامي، فعرض الأمر على الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مصورًا له حجم الخطر بقوله:يا أمير المؤمنين، هناك قرية من قرى الروم - يقصد جزيرة قبرص - في عرض البحر، تتخذها أساطيلهم قاعدة للعدوان علينا، وهذه القرية قريبة من حدودنا إلى درجة أن أهل «حمص» - من مدن الشام - يسمعون نباح كلابها وصياح دجاجها، فأذن لنا ببناء أسطول حربي بحري»، لكن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفض ذلك رفضًا قاطعًا؛ لخوفه على المسلمين من أهوال البحار، وأن الوقت لا يزال مبكرًا للدخول في هذا المجال، وقال لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «لمسلم واحد أحب إلى مما حوت الروم»، يقصد أن سلامة المسلمين عنده مقدمة على أي شيء آخر، وطلب من معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يستعيض عن ذلك بتقوية حصون السواحل، فامتثل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكنه لم يفقد الأمل في تحقيق ما يصبو إليه.

بناء الأسطول:

بادر معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعد تولى عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخلافة سنة (٢٤ هـ) إلى عرض مشروعه القديم عليه، الذى يقضى بإنشاء أسطول بحري، لكن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفض في البداية، وذكره بما دار بينه وبين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذلك الشأن، وأنه حريص على سلامة المسلمين كحرص عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قبل لكن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألح عليه إلحاحًا شديدًا، وكان أجرأ عليه من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يكف عن المحاولة حتى ظفر منه بالإذن، وكان إذنًا مشروطًا، بألا يُكره أحدًا من الجنود على العمل في الأسطول [فقال: لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيرهم، فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه]. بدأ «معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يعمل على الفور في بناء الأسطول، متعاونًا مع عبدالله بن سعد بن أبي السرح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، والي مصر، ومستثمرًا كل الإمكانات المتاحة والصالحة لصناعة السفن في مصر والشام، حيث كانت في مصر دور قديمة لصناعة السفن، وعدد كبير من العمال المهرة المدربين، وأشجار «السنط» التى تصلح لعمل الصواري وضلوع السفن، وكانت الشام تتمتع بكثير من المواد اللازمة مثل أخشاب الصنوبر،والبلوط، والعرعر، وأدى هذا التعاون بين «مصر» والشام إلى بروز الأسطول الإسلامي وظهوره.

فتح جزيرة قبرص سنة (٢٨هـ):

كان أول عمل بحري ناجح قام به الأسطول الإسلامي، هو فتح «جزيرة قبرص» التى كانت تهدد شواطئ المسلمين باستمرار لقربها منها من ناحية، وباعتبارها محطة مهمة من محطات الأساطيل البيزنطية من ناحية أخرى. وقد غزاها معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة (٢٨هـ)، أى بعد أربع سنوات فقط من بناء الأسطول الإسلامى، وهى مدة ليست بالطويلة لإنشاء أسطول بحري، وكانت الغزوة مشتركة أسهمت فيها قوات الشام، وقوات مصر بقيادة عبدالله بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

ونزلوا قبرص واستولوا عليها، فعرض أهلها الصلح، فقبل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واشترط لعقده عدة شروط: أن يدفع أهل قبرص جزية سنوية، مقدارها سبعة آلاف دينار. وأن يُعلموا المسلمين بأية تحركات عدائية من جانب الروم ضد سواحلهم.وأن يقف أهل قبرص على الحياد، إذا نشبت حرب بين المسلمين والروم، ولكن لا يمنعون المسلمين من المرور بجزيرتهم إذا احتاجوا إلى ذلك. ولم يلتزم أهل قبرص بما تعاهدوا عليه في الصلح، مما جعل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعاود غزو الجزيرة مرة أخرى سنة (٣٣هـ) ويضمها إلى دولة الخلافة، وينقل إليها اثني عشر ألفًا من المسلمين من أهل الشام، وأسكنهم فيها، وبني لهم الدور والمساجد(١).

وغزو قبرص هذا قد بشر به نبينا ﷺ وبيَّن فضيلة ذلك الجيش: فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ إِلَى قُبَاءٍ يَدْخُلُ عَلَى أُمِّ حَرَامٍ بِنْتِ مِلْحَانَ فَتُطْعِمُهُ ، وَكَانَتْ تَحْتَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ، فَدَخَلَ يَوْمًا فَأَطْعَمَتْهُ فَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ يَضْحَكُ ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: مَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: **«نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ ، يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ مُلُوكًا عَلَى الْأَسِرَّةِ أَوْ قَالَ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ»** ، شَكَّ إِسْحَاقُ ، قُلْتُ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ ، فَدَعَا ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ يَضْحَكُ ، فَقُلْتُ: مَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ ، مُلُوكًا عَلَى الْأَسِرَّةِ أَوْ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ»** ، فَقُلْتُ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ؟ قَالَ: **«أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ»** فَرَكِبَتِ الْبَحْرَ زَمَانَ مُعَاوِيَةَ ، فَصُرِعَتْ عَنْ دَابَّتِهَا حِينَ خَرَجَتْ مِنَ الْبَحْرِ فَهَلَكَتْ(٢).

وفي لفظ: أَوَّلَ مَا رَكِبَ الْمُسْلِمُونَ الْبَحْرَ مَعَ مُعَاوِيَةَ. قال الحافظ ابن حجر:

---

(١) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (١/ ١١٦-١١٨).
(٢) أخرجه البخاري(٦٢٨٢) ومسلم (١٩١٢).

كَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ(١).

وشهد للأولين بأنهم وجبت لهم الجنة، وللذين بعدهم بالمغفرة وكان على الجيش الثاني يزيد بن معاوية فقال: «**أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ الْبَحْرَ قَدْ أَوْجَبُوا**» . قَالَتْ أُمُّ حَرَامٍ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا فِيهِمْ قَالَ : «**أَنْتِ فِيهِمْ**» . ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَهُمْ**» . فَقُلْتُ : أَنَا فِيهِمْ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ : «**لَا**»(٢).

وَكَانَتْ غَزْوَةُ يَزِيدَ الْمَذْكُورَةُ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ وَفِي تِلْكَ الْغُزَاة مَاتَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ فَأَوْصَى أَنْ يُدْفَنَ عِنْدَ بَابِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَأَنْ يُعْفَى قَبْرُهُ فَفُعِلَ بِهِ ذَلِكَ(٣).

السبب الحقيقي لذل الأمم:

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ ، قَالَ : لَمَّا فُتِحَتْ مَدَائِنُ قُبْرُسَ ، وَقَعَ النَّاسُ يَقْتَسِمُونَ السَّبْيَ ، وَيُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ وَيَبْكِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَتَنَحَّى أَبُو الدَّرْدَاءِ ، ثُمَّ احْتَبَى بِحَمَائِلِ سَيْفِهِ ، فَجَعَلَ يَبْكِي ، فَأَتَاهُ جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ ؟ أَتَبْكِي فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ ؟ وَأَذَلَّ فِيهِ الْكُفْرَ وَأَهْلَهُ ، فَضَرَبَ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « **ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا جُبَيْرُ بْنَ نُفَيْرٍ ، مَا أَهْوَنَ الْخَلْقَ عَلَى اللهِ إِذَا تَرَكُوا أَمْرَهُ ، بَيْنَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى النَّاسِ ، لَهُمُ الْمُلْكُ حَتَّى تَرَكُوا أَمْرَ اللهِ ، فَصَارُوا إِلَى مَا تَرَى ، وَإِنَّهُ إِذَا سُلِّطَ السِّبَاءُ عَلَى قَوْمٍ فَقَدْ خَرَجُوا مِنْ عَيْنِ اللهِ ، لَيْسَ لِلهِ بِهِمْ حَاجَةٌ**»(٤).

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٦/ ١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٢٤).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٦/ ١٠٣) ؛ولهذا على المسلم أن لا يتألى على الله عز وجل في حق يزيد وإن كان قد حصل منه هنات وهنات.

(٤) صحيح: أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٦٦٠).

مكان معركة ذات الصواري (وهي معركة بحرية)

أثار بروز الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط حفيظة «قسطنطين الثاني» الإمبراطور البيزنطي، وجعله يفكر في القضاء على الأسطول الإسلامى وتحطيمه، قبل أن تكتمل قوته، ويزداد خطره، وحتى تظل السيطرة على البحر المتوسط للأسطول البيزنطي وحده دون غيره، فعبأ الإمبراطور قواته البحرية كلها، واتجه بها قاصدًا سواحل الشام، وهو لا يراوده شك في قدرته على تدمير السفن الإسلامية؛ لحداثة نشأتها، وقلة خبرة رجالها، لكن المسلمين استعدوا لهذا اللقاء جيدًا وتعاون الأسطولان في مصر والشام، لرد هذا العدوان، وأسندت قيادتها إلى عبدالله بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والي مصر. والتقى الأسطولان الإسلامى والبيزنطي الذي كان بقيادة الإمبراطور نفسه في «البحر المتوسط»، عند فونيكة"-في جنوب أنطاكية-[وغرب الإسكندرية] بالقرب من مدينة مرسي مطروح(١)

وأمام ساحلها جرت معركة ذات الصواري هذه.«وتذكر المصادر أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "أمير مصر" خرج بأسطوله البحري من "رشيد" قاصدًا أسطول الروم، وفي الوقت نفسه خرج "بسر بن أبي أرطأة" -وهو أحد قادة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بأسطوله من "صور"، وتلاقى الاثنان في البحر »(٢).

تاريخ المعركة

قال ابن كثير رحمه الله(٣): «ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ فَفِيهَا كَانَتْ غَزْوَةُ الصَّوَارِي [وقيل]: كَانَتْ غَزْوَةُ الصَّوَارِي سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ. وَمُلَخَّصُ ذَلِكَ، أَنَّ الشَّامَ كَانَ قَدْ جُمِعَ نِيَابَتُهُ لِمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لِسَنَتَيْنِ مَضَتَا مِنْ خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ أَحْرَزَهُ غَايَةَ الْحِفْظِ وَحَمَى حَوْزَتَهُ، وَمَعَ هَذَا لَهُ فِي كُلِّ

(١) انظر ذات الصواري لشوقي أبو خليل (ص٦٤).
(٢) «موجز عن الفتوحات الإسلامية» (ص٢٥).
(٣) «البداية والنهاية ط هجر» (١٠/ ٢٣٧).

سَنَةِ غَزْوَةٌ فِي بِلَادِ الرُّومِ فِي زَمَنِ الصَّيْفِ وَهَذَا يُسَمُّونَ هَذِهِ الْغَزْوَةَ الصَّائِفَةَ فَيَقْتُلُونَ خَلْقًا وَيَأْسِرُونَ آخَرِينَ، وَيَفْتَحُونَ حُصُونًا، وَيَغْنَمُونَ أَمْوَالًا، وَيُرْعِبُونَ الْأَعْدَاءَ.

سبب المعركة وسبب تسميتها بذات الصواري

لَمَّا أَصَابَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ أَصَابَ مِنَ الْفِرِنْجِ وَالْبَرْبَرِ بِبِلَادِ إِفْرِيقِيَّةَ«وقتلوا مَن قتلوه بها، وسَبَوْا وغَنموا الغنائمَ، وكان خُمسُها خمسَ مئة ألف دينار، ومن السَّبْي والخُيولِ والمتاعِ والكُراعِ والسلاح وغيره ما لا يُحَدُّ، وهلك خلق من عظماء الروم، فَتَّ ذلك في عَضُدِ الروم وقالوا: ما بعد هذا الأمر إلّا مركزُ عِزِّنا، ودارُ مُلْكِنا، وهي القُسْطنطينيةُ»[1] فَحَمِيَتِ الرُّومُ وَاجْتَمَعَتْ عَلَى قُسْطَنْطِينَ بْنِ هِرَقْلَ، وَسَارُوا إِلَى الْمُسْلِمِينَ فِي جَمْعٍ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ مُنْذُ كَانَ الْإِسْلَامُ خَرَجُوا فِي خَمْسِمِائَةِ مَرْكَبٍ، وَقَصَدُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ فِي أَصْحَابِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِبِلَادِ الْمَغْرِبِ.فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ بَاتَ الرُّومُ يُقَسْقِسُونَ وَيُصَلِّبُونَ، وَبَاتَ الْمُسْلِمُونَ يَقْرَءُونَ وَيُصَلُّونَ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا صَفَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ أَصْحَابَهُ صُفُوفًا فِي الْمَرَاكِبِ، وَأَمَرَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ. قَالَ [مالك بن أوس بن الحَدَثان]: فَأَقْبَلُوا إِلَيْنَا فِي أَمْرٍ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ مِنْ كَثْرَةِ الْمَرَاكِبِ، وَتَعْدَادِ صَوَارِيهَا، وَكَانَتِ الرِّيحُ لَهُمْ وَعَلَيْنَا فَأَرْسَيْنَا ثُمَّ سَكَنَتِ الرِّيحُ عَنَّا، فَقُلْنَا لَهُمْ إِنْ شِئْتُمْ خَرَجْنَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمَاتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا وَمِنْكُمْ. قَالَ: فَنَخِرُوا نَخِرَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ وَقَالُوا: الْمَاءَ الْمَاءَ. قَالَ: فَدَنَوْنَا مِنْهُمْ وَرَبَطْنَا سُفُنَنَا بِسُفُنِهِمْ. ثُمَّ اجْتَلَدْنَا وَإِيَّاهُمْ بِالسُّيُوفِ يَثِبُ الرِّجَالُ عَلَى الرِّجَالِ بِالسُّيُوفِ وَالْخَنَاجِرِ، وَضَرَبَتِ الْأَمْوَاجُ فِي عُيُونِ تِلْكَ السُّفُنِ حَتَّى أَجْأَتْهَا إِلَى السَّاحِلِ، وَأَلْقَتِ الْأَمْوَاجُ جُثَثَ الرِّجَالِ إِلَى السَّاحِلِ حَتَّى صَارَتْ مِثْلَ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ، وَغَلَبَ الدَّمُ عَلَى لَوْنِ الْمَاءِ، وَصَبَرَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَئِذٍ صَبْرًا لَمْ يُعْهَدْ مِثْلُهُ قَطُّ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ بَشَرٌ كَثِيرٌ وَمِنَ الرُّومِ أَضْعَافُ ذَلِكَ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ نَصْرَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،

(١) «مرآة الزمان في تواريخ الأعيان» (٥/ ٤٧٨).

«قال يزيد بن أبي حبيب: وكانت السفن إذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال، فقرن مركب عبد الله يومئذ وهو الأمير بمركب من مراكب العدو، فكاد مركب العدو يجر مركب عبد الله إليهم، فقام علقمة بن يزيد العطيفي وكان في المركب مع عبد الله فضرب السلسلة بسيفه فقطعها»(١). «وكان الإمبراطور البيزنطي الذي قاد المعركة [قبل ربط السفن] قد نفّذ بنفسه خطة ذكية، لإنهاك المسلمين بأن دفعهم لرمي البيزنطيين بالسهام، والقسي حتى نفدت ذخيرتهم، ولم يحاول الاقتراب بسفنه من السفن الإسلامية، فاضطر المسلمون بقذفهم بالرماح والحجارة، عند هذه المرحلة من أحداث المعركة اطمأن الإمبراطور البيزنطي على سلامة وضعه العسكري، وظن أن الانتصار بات من نصيبه، وأن البيزنطيين لن يحتاجوا إلا إلى هجمة واحدة حتى يحطموا الأسطول الإسلامي، وردد قوله: "غَلَبت الروم"، لكن المسلمين غيروا خطة القتال عندما نفدت ذخيرتهم، فربطوا سفنهم إلى بعضها، واصطفوا على ظهورها متسلحين بالسيوف والخناجر، وقذفوا السفن البيزنطية بالخطاطيف، والكلاليب وجذبوها إليهم، وبذلك تحولت ظهور السفن إلى ميدان قتال، فحولوا بذلك المعركة البحرية إلى معركة أقرب ما تكون إلى المعارك البرية، وأمام هذا التغيير السريع والمفاجئ في سير المعركة، ارتبكت القيادة البيزنطية، وفقدت السيطرة على عوامل الانتصار، بل أيقن الإمبراطور حينئذ بالهزيمة»(٢) فَهَرَبَ وَجَيْشُهُ ،وَقَدْ قَلُّوا جِدًّا، وَبِهِ جِرَاحَاتٌ شَدِيدَةٌ كَثِيرَةٌ مَكَثَ حِينًا يُدَاوَى مِنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ «وهلك أكثر رجاله ونجا في مركب فوقع في جزيرة صقلية من بلاد إفريقية فقتله جرجيق ملكها تشاؤمًا به لإهلاكه النصرانية،وسميت هذه الغزاة

(١) «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله - ﷺ - والثلاثة الخلفاء» (٢/ ٣٦٨).
(٢) «تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية» (ص٣٨٣).

ذات الصواري لكثرة المراكب وصواريها، وهي الأدقال[١] وَأَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ بِذَاتِ الصَّوَارِي أَيَّامًا، ثُمَّ رَجَعَ مُؤَيَّدًا مَنْصُورًا مُظَفَّرًا.

ترجمة قائد جيش المسلمين في هذه المعركة

[هو]«عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ، أَحَدُ كُتَّابِ الْوَحْيِ، أَسْلَمَ قَدِيمًا وَكَتَبَ الْوَحْيَ، ثُمَّ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْإِسْلَامِ عَامَ الْفَتْحِ، وَاسْتَأْمَنَ لَهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ، - وَكَانَ أَخَاهُ لِأُمِّهِ - وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَقَدْ وَلَّاهُ عُثْمَانُ نِيَابَةَ مِصْرَ بَعْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، فَغَزَا إِفْرِيقِيَّةَ وَبِلَادَ النُّوبَةِ، وَغَزَا ذَاتَ الصَّوَارِي مَعَ الرُّومِ فِي الْبَحْرِ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ مَا صَبَغَ وَجْهَ الْمَاءِ مِنَ الدِّمَاءِ[٢]وقال الذهبي في [«تاريخ الإسلام ت بشار» (٢/ ٢٩٧)]«عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ القُرَشيّ العامريّ، أَبُو يحيى، [المتوفى: ٣٦ هـ] أخو عثمان من الرّضاعة له صُحْبَة، لمّا مات عثمان اعتزل الفتنة. وجاء من مصر إلى الرَّمْلَةِ، فتُوُفّي بها. وكان صاحب مَيْمَنة عَمْرو بن العاص في حُرُوبه. وكان بطلًا شجاعًا مذكورًا حسُن إسلامُه وبلاؤه. وَقَالَ اللَّيث بن سعد: إنّه كان محمود السيرة، وإنه غزا إفريقية، وقتل جرير صاحبها، ولمّا احتضر قَالَ: اللَّهُمّ اجعلْ آخر عملي صلاة الصُّبحْ، فلمّا طلع الفجرُ توضّأ وصلّى، فلمّا ذهب يسلِّم عن يساره فاضت نفسه».

(ملخص معركة ذات الصواري الفاصلة)

١- اسم المعركة : ذات الصواري.

٢- مكان المعركة : التقى الأسطولان الإسلامي والبيزنطي «البحر المتوسط»، عند فونيكة "-في جنوب أنطاكية-[وغرب الإسكندرية] بالقرب من مدينة مرسي مطروح ، وأمام ساحلها جرت معركة ذات الصواري هذه.

٣- تاريخ المعركة: كانت في "شهر محرم سنة ٣٤ هـ ، وقيل في سنة ٣١هـ.

---

(١) «التنبيه والإشراف» (١/ ١٣٥).

(٢) «البداية والنهاية ط هجر» (١٠/ ٦٤٩).

٤- الفريقان المتقاتلان :

١- **المسلمون:** في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وبقيادة: عبد الله بن سعد بن أبي سرح "أمير مصر" رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

٢- **نصارى الروم:**بقيادة ملك الروم قُسْطَنْطِينَ بْنِ هِرَقْلَ.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما:

١- **المسلمون:** مراكب المسلمين يومئذ مائتا مركب ونيّف.

عبد الله بن سعد بن أبي سرح "أمير مصر" رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

وبُسْر بن أبي أرطاة على أهل الشام.

٢- **نصارى الروم:** خَرَجُوا فِي خَمْسِمِائَةِ مَرْكَبٍ.

٦- سبب المعركة:

١- لَمَّا أَصَابَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مَنْ أَصَابَ مِنَ الْفِرِنْجِ وَالْبَرْبَرِ بِبِلَادِ إِفْرِيقِيَّةَ وهلك خلق من عظماء الروم، فَتَّ ذلك في عَضُدِ الروم وقالوا:ما بعد هذا الأمر إلّا مركزُ عِزِّنا، ودارُ مُلْكِنا، وهي القُسْطنطينيةُ؛فحَمِيَتِ الرُّومُ وَاجْتَمَعَتْ عَلَى قُسْطَنْطِينَ بْنِ هِرَقْلَ، وَسَارُوا إِلَى الْمُسْلِمِينَ فِي جَمْعٍ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ مُنْذُ كَانَ الْإِسْلَامُ.

٢- أثار بروز الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط حفيظة قسطنطين الثاني الإمبراطور البيزنطي، وجعله يفكر في القضاء على الأسطول الإسلامي وتحطيمه، قبل أن تكتمل قوته، ويزداد خطره، وحتى تظل السيطرة على البحر المتوسط للأسطول البيزنطي وحده دون غيره.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- انتهت المعركة بسحق الأسطول البيزنطي وهَرَبَ قُسْطَنْطِينُ وَجَيْشُهُ المتبقي ،وَقَدْ قَلُّوا جِدًّا، وَبِهِ جِرَاحَاتٌ شَدِيدَةٌ كَثِيرَةٌ مَكَثَ حِينًا يُدَاوَى مِنْهَا بَعْدَ

ذَلِكَ ، وكان نجا في مركب فوقع في جزيرة صقلية من بلاد إفريقية فقتله جرجيق ملكها تشاؤمًا به لإهلاكه النصرانية.

٢- قيل في ترجمة عَبْد اللَّهِ بْن سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غَزَا ذَاتَ الصَّوَارِي مَعَ الرُّومِ فِي الْبَحْرِ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ مَا صَبَغَ وَجْهَ الْمَاءِ مِنَ الدِّمَاءِ.

٣- استولى المسلمون على بعض سفن الروم فأضافوها إلى أسطولهم.

٤- وكان من أهم نتائج هذه المعركة سيطرة الأسطول الإسلامي على البحر المتوسط. وكان للأسطول الحربي رجاله من ذوي الخبرة بشئون البحر والحروب البحرية، يتولى قيادتهم أمير البحر أو المقدم، وهو الذى يتولى رئاسة السفن الحربية، وإدارة المعركة. ويُراعَى في اختياره أن يكون حازمًا حذرًا متحليًا باليقظة والدراية بأحكام الحروب، والمعرفة بأمور البحر وبطبيعة السواحل والجزر. وقد أنتجت دور الصناعة التى أنشأها المسلمون عدة أنواع من السفن الحربية، أشهرها: **الشواني** وهى عبارة عن سفن حربية كبيرة تتميز بالطول وذات أبراج وقلاع تستعمل للدفاع والهجوم، **والأغربة** وهى مثل الشواني، وسمِّيت بهذا الاسم؛ لأن رأسها يشبه رأس الغراب وتسير بالقلع **والمجاديف، والحراقات** وتختص بقذف العدو بالأسلحة النارية،والبطس وتختص بنقل الجنود المحاربين، والأسلحة والذخيرة والمؤن [«موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (١٦/ ٢٩)].

٥- «أضاعت هذه المعركة آخر فرص البيزنطيين لاستعادة مواقعهم في بلاد الشام، ومصر حيث كان اعتمادهم على التفوق البحري» (١)

٦- أصبحت بلاد الروم يغزوها المسلمون باستمرار وأقل شيء في الصيف وتسمى الصائفة.

٧- عرفنا بهذا عزم أمير المؤمنين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الجهاد في سبيل الله وتحقيق

---

(١) «تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية» (ص٣٨٤).

هذه المهمة السامية وتأمين البحر للمسلمين وكانت حياته ما بين رد ما انتقض من البلدان التي فتحت زمن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وإضافة أرض جديدة يوحد الله تعالى فيها

كان عهده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مليئًا بالفتوحات تتمة لفتوحات عهد عمر، وكانت فتوحاته مستمرة برًّا وبحرًا، فمضى على سيرة عمر في الجهاد.

أولًا: الجبهة الغربية:

نقضت الإسكندرية عام ٢٥هـ فأخضعهم عمرو بن العاص.

أفريقية: سمح عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للجيوش بالانسياح في أفريقية، فسار عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فاجتاز طرابلس، والتقى بجيوش بيزنطة في سبيطلة، وحقق الانتصار عليهم عام ٢٧ هـ وبذلك انضم للدولة الإسلامية: برقة وطرابلس وغرب مصر وجزء من بلاد النوبة.

غزا معاوية بن أبي سفيان قبرص، وفتحها عام ٢٨ هـ ، وكان عمر قد رفض دخول المسلمين في البحر، وسمح عثمان بذلك.

❋ معركة ذات الصواري: أول معركة بحرية يخوضها المسلمون (فقد أصبح للمسلمين بحرية في عهد عثمان) وكانت ضد الروم على شواطئ ليكيا، وقاد المسلمين عبد الله بن أبي السرح وبسر بن أبي أرطأة من قبل معاوية بن أبي سفيان، وهزم فيها الروم شر هزيمة، وقتل قائدهم الإمبراطور قسطنطين.

غزا معاوية الروم ووصل إلى حدود عمورية (قرب أنقرة) عام ٣٣هـ.

الجبهة الشرقية:

وصل القائد عمير بن عثمان إلى فرغانة عام ٢٩هـ ، ووصل عبد الله الليثي إلى كابل، وعبيد الله التميمي إلى نهر السند، فتح سعد بن العاص جرجان.

انتفضت فارس، فأخضعها عبد الله بن عامر، فهرب يزدجرد إلى كرمان ثم خراسان حيث قتل هناك.

وأعيد فتح المناطق التي نقضت عهودها.

وهكذا فالفتوحات أيام عثمان واسعة، إذ أضيفت بلادٌ جديدة في أفريقيا، وقبرص، وأرمينيا، وبلاد السند وكابل وفرغانة، وبلخ وهراة، وتم إخضاع البلاد التي نقضت الصلح في فارس وخراسان وباب الأبواب[1].

(١) موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر (ص١٢١- ١٢٣).

٨- خريطة موقعة ذات الصواري:





المعركة العاشرة من معارك الإسلام الفاصلة: (النهروان)

تمهيد

إن من أعظم ما ابتُلي به المسلمون، فتنة الخوارج قوم يلوون أعناق الأدلة لتوافق أهواءهم ، ويجيدون إبراز الشعارات التي ظاهرها العدل، والإنصاف، وتحري الحق، واتباع الدليل، وبغض الكفار، ويتسترون تحت لباس الزهد ، وأردية التقشف ، والتقلل من الدنيا، والتعمق في العبادة، «**فتعْجِبُهُمْ أَنْفُسُهُمْ**» (١) فيخطئون الحق، ويحاربون أهله، ويحكمون على أهل الرشد بالضلالة، أصعب شيء عليهم الرجوع عن الباطل الذي خُيِّلَ إليهم أنه حق لقلة علمهم وسوء فهمهم والبعد عن معرفة وجه الحق وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة فاطر:٨]. ولما كانوا بهذا الوصف وأقبح انتقدوا على رسول ﷺ قسمته يوم حنين طلبًا للعدل المزعوم وقتلوا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لإنقاذ الرعية من ظلم الولاة وكذبوا، وخرجوا على علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمخالفته كتاب الله والحكم به زعموا ،ولقد كذبوا في كل ذلك وضلوا ضلالًا بعيدًا ولا تزال ترى هذا الصنف القبيح في كل زمان ،وقد شرف الله الخليفة الرابع أمير المؤمنين عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقتالهم وقتلهم وفضح أمرهم﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾

---

(١) هذه قطعة من حديث أَنَسٍ قَالَ : ذُكِرَ لِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ – وَلَمْ أَسْمَعْهُ مِنْهُ – : إِنَّ فِيكُمْ قَوْمًا يَعْبُدُونَ وَيَدْأَبُونَ ، حَتَّى يُعْجَبَ بِهِمُ النَّاسُ وَتُعْجِبَهُمْ نُفُوسُهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ . أخرجه أحمد (١٣٠٨٤) وصححه الإمام الوادعي في الصحيح المسند (٨٠) (١/ ٧٧).

[سورة الأنفال:٣٧]. ولذلك جعلت معركة النهروان من المعارك الفاصلة لأنها فصلت بين المسلمين ونَصرتِه حقًّا وبين الضُّلال الذين «**يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ**» وإليك تفاصيلها. قال ابن كثير رحمه الله تعالى[(١)]:

ذِكْرُ إِخْبَارِهِ ﷺ عَنْ خُرُوجِ الْخَوَارِجِ وَقِتَالِهِمْ وَعَلَامَاتِهِمْ بِالرَّجُلِ الْمُخَدَّجِ ذِي الثُّدَيَّةِ، فَوُجِدَ ذَلِكَ فِي خِلَافَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُقْسِمُ قَسمًا، أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اعْدِلْ. فَقَالَ: «**وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذْ لَمْ أَعْدَلْ، قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ**». فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ. فَقَالَ «**دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَنْظُرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى رِصَافِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى نَضِيِّهِ، وَهُوَ قِدْحُهُ، فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ، إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ**» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فَأُتِيَ بِهِ، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي نَعَتَهُ[(٢)].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ**»[(٣)].

---

(١) هذه المعركة ملخصة من كلام ابن كثير رحمه الله تعالى وبعضه من كلام غيره وستأتي الإحالة إلى جميع ذلك إن شاء الله تعالى.

(٢) متفق عليه خ(٣٦١٠)م (١٠٦٤).

(٣) متفق عليه خ : (٣٣٤٤)م (١٠٦٥).

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ يُسَيْرِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: سَأَلْتُ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ هَؤُلَاءِ الْخَوَارِجَ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ. وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ، وَفِي رِوَايَةٍ: نَحْوَ الْعِرَاقِ « **يَخْرُجُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ بِأَلْسِنَتِهِمْ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، مُحَلَّقَةٌ رُءُوسهمْ**».

وَفِي " الصَّحِيحَيْنِ " عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِّيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يُقَاتِلُ عَلَى تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ كَمَا قَاتَلْتُ عَلَى تَنْزِيلِهِ**» . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « **لَا** » . فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « **لَا، وَلَكِنْ خَاصِفُ النَّعْلِ** » . يَعْنِي عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» قَالَ : وَكَانَ أَعْطَى عَلِيًّا نَعْلَهُ يَخْصِفُهُ (١) .

قُلْتُ: الْأَخْبَارُ بِقِتَالِ الْخَوَارِجِ مُتَوَاتِرَةٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ; لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ طُرُقٍ تُفِيدُ الْقَطْعَ عِنْدَ أَئِمَّةِ هَذَا الشَّأْنِ، وَوُقُوعُ ذَلِكَ فِي زَمَانِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعْلُومٌ ضَرُورَةً لِأَهْلِ الْعِلْمِ قَاطِبَةً، وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ خُرُوجِهِمْ وَسَبَبُهُ وَمُنَاظَرَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَرُجُوعُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ إِلَيْهِ، فَسَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى (٢).

[ذِكْرُ خُرُوجِ الْخَوَارِجِ]

وَذَلِكَ أَنَّ الْأَشْعَثَ بْنَ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَّ عَلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ [الذي فيه الصلح بين علي ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعد معركة صفين]« بِسْمِ اللَّهِ

---

(١) **حسن**: أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (٦٩٣٧) والحاكم في "مستدركه" (٤٦٤٧) والنسائي في "الكبرى" (٨٤٨٨) وأحمد في "مسنده" (١١٤٣٠) وأبو يعلى في "مسنده" (١٠٨٦) وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٢٧٤٥) والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (٤٠٥٨) «وصححه الألباني رحمه الله تعالى في (الصحيحة) (٢٤٨٧)».

(٢) «البداية والنهاية ط إحياء التراث» (٦/ ٢٤٣).

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ; قَاضَى عَلِيٌّ عَلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ وَمَنْ مَعَهُمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَقَاضَى مُعَاوِيَةُ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَنَّا نَنْزِلُ عِنْدَ حُكْمِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ، وَنُحْيِي مَا أَحْيَا اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، وَنُمِيتُ مَا أَمَاتَ اللَّهُ، فَمَا وَجَدَ الْحَكَمَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ - وَهُمَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَمِلَا بِهِ وَمَا لَمْ يَجِدَا فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَالسُّنَّةُ الْعَادِلَةُ الْجَامِعَةُ غَيْرُ الْمُتَفَرِّقَةِ. ثُمَّ أَخَذَ الْحَكَمَانِ مِنْ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ وَمِنَ الْجُنْدَيْنِ مِنَ الْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ عَلَى أَنَّهُمَا آمِنَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمَا وَأَهْلِهِمَا، وَالْأُمَّةُ لَهُمَا أَنْصَارٌ عَلَى الَّذِي يَتَقَاضَيَانِ عَلَيْهِ وَيَتَّفِقَانِ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ كِلَيْهِمَا عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ أَنَّهُمْ عَلَى مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَأَجَّلَا الْقَضَاءَ إِلَى رَمَضَانَ، وَإِنْ أَحَبَّا أَنْ يُؤَخِّرَا ذَلِكَ عَلَى تَرَاضٍ مِنْهُمَا، وَكُتِبَ فِي يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ صَفَرٍ، سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ، عَلَى أَنْ يُوَافِيَ عَلِيٌّ وَمُعَاوِيَةُ مَوْضِعَ الْحَكَمَيْنِ بِدُومَةِ الْجُنْدَلِ فِي رَمَضَانَ، وَمَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْحَكَمَيْنِ أَرْبَعُمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعَا لِذَلِكَ اجْتَمَعَا مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ بِأَذْرُحَ»[وهذا هو التحكيم أي التحاكم إلى كتاب الله عز وجل ولا صحة لقصة رفع المصاحف على الرماح] فَقَامَ إِلَيْهِ عُرْوَةُ ابْنُ أُدَيَّةَ - وَهِيَ أُمُّهُ، وَهُوَ عُرْوَةُ بْنُ حُدَيْرِ مِنْ بَنِي رَبِيعَةَ بْنِ حَنْظَلَةَ، وَهُوَ أَخُو أَبِي بِلَالِ مِرْدَاسِ بْنِ حُدَيْرٍ - فَقَالَ: أَتُحَكِّمُونَ فِي دِينِ اللَّهِ الرِّجَالَ؟ ثُمَّ ضَرَبَ بِسَيْفِهِ عَجُزَ دَابَّةِ الْأَشْعَثِ، فَغَضِبَ الْأَشْعَثُ وَقَوْمُهُ، وَجَاءَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ وَجَمَاعَةٌ مِنْ رُؤَسَاءِ بَنِي تَمِيمٍ يَعْتَذِرُونَ إِلَى الْأَشْعَثِ مِنْ ذَلِكَ. وَتَفَرَّقَ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ مِنْ صِفِّينَ، فَرَجَعَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْكُوفَةِ عَلَى طَرِيقِ هِيتَ، وَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الشَّامِ بِأَصْحَابِهِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْكُوفَةَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: ذَهَبَ عَلِيٌّ وَرَجَعَ فِي غَيْرِ شَيْءٍ. فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَلَّذِينَ فَارَقْنَاهُمْ آنِفًا خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

أَخُوكَ الَّذِي إِنْ أَجْرَضَتْكَ مُلِمَّةٌ ❁ ❁ ❁ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَبْرَحْ لِبَثِّكَ وَاجِمَا

وَلَيْسَ أَخُوكَ بِالَّذِي إِنْ تَشَعَّبَتْ ❁ ❁ ❁ عَلَيْكَ الْأُمُورُ ظَلَّ يَلْحَاكَ لَائِمَا

ثُمَّ مَضَى فَجَعَلَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى دَخَلَ قَصْرَ الْإِمَارَةِ مِنَ الْكُوفَةِ، وَلَمَّا كَانَ قَدْ قَرُبَ مِنْ دُخُولِ الْكُوفَةِ انْخَزَلَ مَنْ جَيْشِهِ قَرِيبٌ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا وَهُمُ الْخَوَارِجُ، وَأَبَوْا أَنْ يُسَاكِنُوهُ فِي بَلَدِهِ، وَنَزَلُوا بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ: حَرُورَاءُ. وَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ أَشْيَاءَ فِيمَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ ارْتَكَبَهَا، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَنَاظَرَهُمْ، فَرَجَعَ أَكْثَرُهُمْ وَبَقِيَ بَقِيَّتُهُمْ، فَقَاتَلَهُمْ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَصْحَابُهُ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ وَتَفْصِيلُهُ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْخَوَارِجَ هُمُ الْمُشَارُ إِلَيْهِمْ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ ، قَالَ: **«تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ** - وَفِي رِوَايَةٍ: **«مِنَ الْمُسْلِمِينَ»** . وَفِي رِوَايَةٍ: **« مِنْ أُمَّتِي فَيَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ »**. وَهَذَا الْحَدِيثُ لَهُ طُرُقٌ مُتَعَدِّدَةٌ وَأَلْفَاظٌ كَثِيرَةٌ.

فَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ الْأَمْرُ طِبْقَ مَا أَخْبَرَ الرَّسُولُ، ﷺ ، وَفِيهِ الْحُكْمُ بِإِسْلَامِ الطَّائِفَتَيْنِ ؛ أَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ، لَا كَمَا يَزْعُمُهُ فِرْقَةُ الرَّافِضَةِ، أَهْلُ الْجَهْلِ وَالْجَوْرِ، مِنْ تَكْفِيرِهِمْ أَهْلَ الشَّامِ. وَفِيهِ أَنَّ أَصْحَابَ عَلِيٍّ أَدْنَى الطَّائِفَتَيْنِ إِلَى الْحَقِّ، وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ الْمُصِيبُ وَإِنْ كَانَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُجْتَهِدًا فِي قِتَالِهِ لَهُ وَقَدْ أَخْطَأَ، وَهُوَ مَأْجُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَلَكِنّ عَلِيًّا هُوَ الْإِمَامُ الْمُصِيبُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَلَهُ أَجْرَانِ كَمَا ثَبَتَ فِي " الصحيحين "، مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ ، قَالَ: **«إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦).

قصة مناظرة ابن عباس الخوارج[١]:

[أخرج] النسائي رحمه الله في "الخصائص" (ص ١٩٥): عن عَبْد اللهِ بْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : لَمَّا خَرَجَتِ الْحَرُورِيَّةُ اعْتَزَلُوا فِي دَارٍ ، وَكَانُوا سِتَّةَ آلَافٍ ، فَقُلْتُ لِعَلِيٍّ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبْرِدْ بِالصَّلَاةِ ؛ لَعَلِّي أُكَلِّمُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ ، قَالَ : إِنِّي أَخَافُهُمْ عَلَيْكَ ، قُلْتُ : كَلَّا ، فَلَبِسْتُ ، وَتَرَجَّلْتُ ، وَدَخَلْتُ عَلَيْهِمْ فِي دَارٍ نِصْفَ النَّهَارِ ، وَهُمْ يَأْكُلُونَ ، فَقَالُوا : مَرْحَبًا بِكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، فَمَا جَاءَ بِكَ ؟ قُلْتُ لَهُمْ : أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَمِنْ عِنْدِ ابْنِ عَمِّ النَّبِيِّ - ﷺ - وَصِهْرِهِ ، وَعَلَيْهِمْ نَزَلَ الْقُرْآنُ ، فَهُمْ أَعْلَمُ بِتَأْوِيلِهِ مِنْكُمْ ، وَلَيْسَ فِيكُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ؛ لِأُبْلِغَكُمْ مَا يَقُولُونَ ، وَأُبْلِغَهُمْ مَا تَقُولُونَ ، فَانْتَحَى لِي نَفَرٌ مِنْهُمْ ، قُلْتُ : هَاتُوا مَا نَقَمْتُمْ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَابْنِ عَمِّهِ ، قَالُوا : ثَلَاثٌ ، قُلْتُ : مَا هُنَّ ؟ قَالَ : أَمَّا إِحْدَاهُنَّ ، فَإِنَّهُ حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ اللهِ ، وَقَالَ اللهُ : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [سورة الأنعام:٥٧]. مَا شَأْنُ الرِّجَالِ وَالْحُكْمِ ؟ قُلْتُ : هَذِهِ وَاحِدَةٌ . قَالُوا : وَأَمَّا الثَّانِيَةُ ، فَإِنَّهُ قَاتَلَ ، وَلَمْ يَسْبِ ، وَلَمْ يَغْنَمْ ، إِنْ كَانُوا كُفَّارًا لَقَدْ حَلَّ سِبَاهُمْ ، وَلَئِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مَا حَلَّ سِبَاهُمْ وَلَا قِتَالُهُمْ . قُلْتُ : هَذِهِ ثِنْتَانِ ، فَمَا الثَّالِثَةُ ؟ - وَذَكَرَ كَلِمَةً مَعْنَاهَا - قَالُوا : مَحَى نَفْسَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ أَمِيرُ الْكَافِرِينَ ، قُلْتُ : هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ غَيْرُ هَذَا ؟ قَالُوا : حَسْبُنَا هَذَا ، قُلْتُ لَهُمْ : أَرَأَيْتُكُمْ إِنْ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مَا يَرُدُّ قَوْلَكُمْ أَتَرْجِعُونَ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قُلْتُ : أَمَّا قَوْلُكُمْ : حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ اللهِ ، فَإِنِّي أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِ اللهِ أَنْ قَدْ صَيَّرَ اللهُ حُكْمَهُ إِلَى الرِّجَالِ فِي ثَمَنِ رُبُعِ دِرْهَمٍ ، فَأَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَحْكُمُوا فِيهِ ، أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) هذا العنوان والحديث الذي تحته منقول من «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (١/ ٥٦٢) (٦٩٤)للإمام الوادعي رحمه الله تعالى وقال: هذا حديث حسنٌ

ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [سورة المائدة:٩٥].وَكَانَ مِنْ حُكْمِ اللهِ أَنَّهُ صَيَّرَهُ إِلَى الرِّجَالِ يَحْكُمُونَ فِيهِ ، وَلَوْ شَاءَ لَحَكَمَ فِيهِ ، فَجَازَ فِيهِ حُكْمُ الرِّجَالِ ، أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ ، أَحُكْمُ الرِّجَالِ فِي صَلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ وَحَقْنِ دِمَائِهِمْ أَفْضَلُ أَوْ فِي أَرْنَبٍ ؟ قَالُوا : بَلَى ، هَذَا أَفْضَلُ . وَفِي الْمَرْأَةِ وَزَوْجِهَا : ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [سورة النساء:٣٥]. فَنَشَدْتُكُمْ بِاللهِ ، حُكْمُ الرِّجَالِ فِي صَلَاحِ ذَاتِ [٤٨١/٧] بَيْنِهِمْ ، وَحَقْنِ دِمَائِهِمْ أَفْضَلُ مِنْ حُكْمِهِمْ فِي بُضْعِ امْرَأَةٍ ؟ خَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قُلْتُ : وَأَمَّا قَوْلُكُمْ : قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ ، أَفَتَسْبُونَ أُمَّكُمْ عَائِشَةَ ، تَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا تَسْتَحِلُّونَ مِنْ غَيْرِهَا ، وَهِيَ أُمُّكُمْ ؟ فَإِنْ قُلْتُمْ : إِنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْهَا مَا نَسْتَحِلُّ مِنْ غَيْرِهَا فَقَدْ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ قُلْتُمْ : لَيْسَتْ بِأُمِّنَا ، فَقَدْ كَفَرْتُمْ : ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [سورة الأحزاب:٦].، فَأَنْتُمْ بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ ، فَأْتُوا مِنْهَا بِمَخْرَجٍ ، أَفَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . وَأَمَّا مَحْيُ نَفْسِهِ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَنَا آتِيكُمْ بِمَا تَرْضَوْنَ . إِنَّ نَبِيَّ اللهِ - ﷺ - يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ صَالَحَ الْمُشْرِكِينَ ، فَقَالَ لِعَلِيٍّ : اكْتُبْ يَا عَلِيُّ : هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ . قَالُوا : لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا قَاتَلْنَاكَ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«امْحُ يَا عَلِيُّ ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ ، امْحُ يَا عَلِيُّ ، وَاكْتُبْ : هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ»**. وَاللهِ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ ، وَقَدْ مَحَى نَفْسَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ مَحْوُهُ نَفْسَهُ ذَلِكَ مَحَاهُ مِنَ النُّبُوَّةِ ، أَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، فَرَجَعَ مِنْهُمْ أَلْفَانِ ، وَخَرَجَ سَائِرُهُمْ ، فَقُتِلُوا عَلَى ضَلَالَتِهِمْ ، فَقَتَلَهُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُاه.

وفي رواية أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ لَبِسَ حُلَّةً لَمَّا خَرَجَ إِلَيْهِمْ، فَنَاظَرُوهُ فِي لُبْسِهِ إِيَّاهَا، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ

ٱلرِّزْقِۚ﴾ [سورة الأعراف:٣٢].

وعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عِيَاضِ بْنِ عَمْرٍو الْقَارِيِّ، قَالَ: جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ، فَدَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وَنَحْنُ عِنْدَهَا مَرْجِعَهُ مِنَ الْعِرَاقِ لَيَالِيَ قُتِلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَتْ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ شَدَّادٍ، هَلْ أَنْتَ صَادِقِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ؟ تُحَدِّثُنِي عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَ: وَمَا لِي لَا أَصْدُقُكِ. قَالَتْ: فَحَدِّثْنِي عَنْ قِصَّتِهِمْ. قَالَ: فَإِنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا كَاتَبَ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَحَكَمَ الْحَكَمَانِ، خَرَجَ عَلَيْهِ ثَمَانِيَةُ آلَافٍ مِنْ قُرَّاءِ النَّاسِ فَنَزَلُوا بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: حَرُورَاءُ. مِنْ جَانِبِ الْكُوفَةِ، وَأَنَّهُمْ عَتَبُوا عَلَيْهِ، فَقَالُوا: انْسَلَخْتَ مِنْ قَمِيصٍ أَلْبَسَكَهُ اللَّهُ، وَاسْمٍ سَمَّاكَ بِهِ اللَّهُ، ثُمَّ انْطَلَقْتَ فَحَكَّمْتَ فِي دِينِ اللَّهِ وَلَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ. فَلَمَّا أَنْ بَلَغَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا عَتَبُوا عَلَيْهِ وَفَارَقُوهُ عَلَيْهِ، فَأَمَرَ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ: أَنْ لَا يَدْخُلَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا رَجُلٌ قَدْ حَمَلَ الْقُرْآنَ. فَلَمَّا أَنِ امْتَلَأَتِ الدَّارُ مِنْ قُرَّاءِ النَّاسِ، دَعَا بِمُصْحَفٍ إِمَامٍ عَظِيمٍ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَصُكُّهُ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ: أَيُّهَا الْمُصْحَفُ، حَدِّثِ النَّاسِ! فَنَادَاهُ النَّاسُ فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَسْأَلُ عَنْهُ! إِنَّمَا هُوَ مِدَادٌ فِي وَرَقٍ، وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ بِمَا رُوِّينَا مِنْهُ، فَمَاذَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أَصْحَابُكُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ خَرَجُوا، بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ كِتَابُ اللَّهِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ فِي امْرَأَةٍ وَرَجُلٍ:﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [سورة النساء:٣٥]. فَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ، ﷺ، أَعْظَمُ دَمًا وَحُرْمَةً مِنَ امْرَأَةٍ وَرَجُلٍ، وَنَقِمُوا عَلَيَّ أَنْ كَاتَبْتُ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَقَدْ جَاءَنَا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ، بِالْحُدَيْبِيَةِ حِينَ صَالَحَ قَوْمَهُ قُرَيْشًا، فَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فَقَالَ سُهَيْلٌ: لَا أَكْتُبُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فَقَالَ: **«كَيْفَ نَكْتُبُ؟»**. فَقَالَ: اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ: " فَكَتَبَ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قُرَيْشًا. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى

فِي كِتَابِهِ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:٢١]. فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَخَرَجْتُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا تَوَسَّطْتُ عَسْكَرَهُمْ قَامَ ابْنُ الْكَوَّاءِ يَخْطُبُ النَّاسَ فَقَالَ: يَا حَمَلَةَ الْقُرْآنِ، هَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ فَأَنَا أَعْرِفُهُ، هَذَا مِمَّنْ يُخَاصِمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ بِمَا لَا يَعْرِفُهُ، هَذَا مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ وَفِي قَوْمِهِ ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[سورة الزخرف:٥٨].فَرُدُّوهُ إِلَى صَاحِبِهِ وَلَا تُوَاضِعُوهُ كِتَابَ اللَّهِ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَاللَّهِ لَنُوَاضِعَنَّهُ، فَإِنْ جَاءَ بِحَقٍّ نَعْرِفُهُ لَنَتَّبِعَنَّهُ، وَإِنْ جَاءَ بِبَاطِلٍ لَنُبَكِّتَنَّهُ بِبَاطِلِهِ. فَوَاضَعُوا عَبْدَ اللَّهِ الْكِتَابَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَرَجَعَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ آلَافٍ كُلُّهُمْ تَائِبٌ، فِيهِمُ ابْنُ الْكَوَّاءِ، حَتَّى أَدْخَلَهُمْ عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْكُوفَةَ، فَبَعَثَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى بَقِيَّتِهِمْ فَقَالَ: قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِنَا وَأَمْرِ النَّاسِ مَا قَدْ رَأَيْتُمْ، فَقِفُوا حَيْثُ شِئْتُمْ حَتَّى تَجْتَمِعَ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا تَسْفِكُوا دَمًا حَرَامًا، أَوْ تَقْطَعُوا سَبِيلًا، أَوْ تَظْلِمُوا ذِمَّةً، فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ فَقَدْ نَبَذْنَا إِلَيْكُمُ الْحَرْبَ عَلَى سَوَاءٍ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [سورة الأنفال:٥٨]. فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : يَا ابْنَ شَدَّادٍ فَقَتَلَهُمْ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا بَعَثَ إِلَيْهِمْ حَتَّى قَطَعُوا السَّبِيلَ، وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ، وَاسْتَحَلُّوا أَهْلَ الذِّمَّةِ. فَقَالَتْ: آللَّهِ؟ قَالَ: آللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ. قَالَتْ: فَمَا شَيْءٌ بَلَغَنِي عَنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ يَقُولُونَ: ذُو الثُّدَيِّ وَذُو الثُّدَيَّةِ؟ قَالَ: قَدْ رَأَيْتُهُ، وَقُمْتُ مَعَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَيْهِ فِي الْقَتْلَى، فَدَعَا النَّاسَ فَقَالَ: أَتَعْرِفُونَ هَذَا فَمَا أَكْثَرَ مَنْ جَاءَ يَقُولُ: قَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَسْجِدِ بَنِي فُلَانٍ يُصَلِّي وَيَقْرَأُ، وَرَأَيْتُهُ فِي مَسْجِدِ بَنِي فُلَانٍ يُصَلِّي. وَلَمْ يَأْتُوا فِيهِ بِثَبَتٍ يُعْرَفُ إِلَّا ذَلِكَ. قَالَتْ: فَمَا قَوْلُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ قَامَ عَلَيْهِ كَمَا يَزْعُمُ أَهْلُ الْعِرَاقِ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. قَالَتْ: هَلْ سَمِعْتَ مِنْهُ أَنَّهُ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ لَا. قَالَتْ: أَجَلْ، صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَرْحَمُ اللَّهُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِنَّهُ كَانَ لَا يَرَى شَيْئًا يُعْجِبُهُ إِلَّا قَالَ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

فَيَذْهَبُ أَهْلُ الْعِرَاقِ يَكْذِبُونَ عَلَيْهِ وَيَزِيدُونَ عَلَيْهِ فِي الْحَدِيثِ. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ(١) ، وَاخْتَارَهُ الضِّيَاءُ. فَفِي هَذَا السِّيَاقِ مَا يَقْتَضِي أَنَّ عِدَّتَهُمْ كَانَتْ ثَمَانِيَةَ آلَافٍ، لَكِنْ مِنَ الْقُرَّاءِ، وَقَدْ يَكُونُ وَاطَأَهُمْ عَلَى مَذْهَبِهِمْ آخَرُونَ مِنْ غَيْرِهِمْ حَتَّى بَلَغُوا اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، أَوْ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفًا، وَلَمَّا نَاظَرَهُمُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَجَعَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ آلَافٍ، وَبَقِيَ بَقِيَّتُهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ. وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ بِنَفْسِهِ إِلَى بَقِيَّتِهِمْ، فَلَمْ يَزَلْ يُنَاظِرُهُمْ حَتَّى رَجَعُوا مَعَهُ إِلَى الْكُوفَةِ، وَذَلِكَ يَوْمَ عِيدِ الْفِطْرِ أَوِ الْأَضْحَى - شَكَّ الرَّاوِي فِي ذَلِكَ - ثُمَّ جَعَلُوا بَعْدَ ذَلِكَ يُعَرِّضُونَ لَهُ فِي الْكَلَامِ، وَيُسْمِعُونَهُ شَتْمًا وَيَتَأَوَّلُونَ تَأْوِيلَ فِي أَقْوَالِهِ.

وقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الزمر: ٦٥]. فَقَرَأَ عَلِيٌّ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة الروم: ٦٠].

وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَمَا هُوَ يَخْطُبُ يَوْمًا إِذْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ فَقَالَ: يَا عَلِيُّ أَشْرَكْتَ فِي دِينِ اللَّهِ الرِّجَالَ وَلَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ. فَتُنَادُوا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ. فَجَعَلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: **هَذِهِ كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ**(٢).

[ذِكْرُ خُرُوجِ الْخَوَارِجِ مِنَ الْكُوفَةِ وَمُبَارَزَتِهِمْ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْعَدَاوَةِ وَالْمُخَالَفَةِ وَقِتَالِ عَلِيٍّ إِيَّاهُمْ وَمَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ].

لَمَّا بَعَثَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَبَا مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجَيْشِ إِلَى دُومَةِ الْجَنْدَلِ، اشْتَدَّ أَمْرُ الْخَوَارِجِ وَبَالَغُوا فِي النَّكِيرِ عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَصَرَّحُوا بِكُفْرِهِ، فَجَاءَ إِلَيْهِ رَجُلَانِ مِنْهُمْ، وَهُمَا زُرْعَةُ بْنُ الْبُرْجِ الطَّائِيُّ، وَحُرْقُوصُ بْنُ زُهَيْرٍ

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (٦٦٧).

(٢) «البداية والنهاية ط هجر»(١٠/ ٥٥٩ - ١٠/ ٥٧٠).

السَّعْدِيُّ، فَقَالَا: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ. فَقَالَ عَلِيٌّ: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ. فَقَالَ لَهُ حُرْقُوصُ: تُبْ إِلَى اللَّهِ مِنْ خَطِيئَتِكَ، وَارْجِعْ عَنْ قَضِيَّتِكَ، اذْهَبْ بِنَا إِلَى عَدُوِّنَا حَتَّى نُقَاتِلَهُمْ حَتَّى نَلْقَى رَبَّنَا. فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ كَتَبْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ كِتَابًا وَعُهُودًا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [سورة النحل:٩١]. فَقَالَ لَهُ حُرْقُوصُ: ذَلِكَ ذَنْبٌ يَنْبَغِي أَنْ تَتُوبَ مِنْهُ. فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا هُوَ بِذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ زُرْعَةُ بْنُ الْبُرْجِ: أَمَا وَاللَّهِ يَا عَلِيُّ لَئِنْ لَمْ تَدَعْ تَحْكِيمَ الرِّجَالِ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّكَ أَطْلُبُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَرِضْوَانَهُ. فَقَالَ لَهُ: تَبًّا لَكَ مَا أَشْقَاكَ! كَأَنِّي بِكَ قَتِيلًا تَسْفِي عَلَيْكَ الرِّيحُ. فَقَالَ: وَدِدْتُ أَنْ قَدْ كَانَ ذَلِكَ. فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ مُحِقًّا كَانَ فِي الْمَوْتِ تَعْزِيَةٌ عَنِ الدُّنْيَا، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ قَدِ اسْتَهْوَاكُمْ. فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ يُحَكِّمَانِ أَمْرَهُمَا، وَفَشَى فِيهِمْ ذَلِكَ، وَجَاهَرُوا بِهِ النَّاسَ، وَتَعَرَّضُوا لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خُطَبِهِ وَأَسْمَعُوهُ السَّبَّ وَالشَّتْمَ وَالتَّعْرِيضَ بِآيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَذَلِكَ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَامَ خَطِيبًا فِي بَعْضِ الْجُمَعِ فَذَكَرَ أَمْرَ الْخَوَارِجِ فَذَمَّهُ وَعَابَهُ. فَقَامَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ كُلٌّ يَقُولُ: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ. وَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ وَهُوَ وَاضِعٌ أُصْبُعَهُ فِي أُذُنَيْهِ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الزمر:٦٥]. فَجَعَلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقَلِّبُ يَدَيْهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: **حُكْمَ اللَّهِ نَنْتَظِرُ فِيكُمْ**. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ لَكُمْ عَلَيْنَا أَنْ لَا نَمْنَعَكُمْ مَسَاجِدَنَا مَا لَمْ تَخْرُجُوا عَلَيْنَا، وَلَا نَمْنَعَكُمْ نَصِيبَكُمْ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ مَا دَامَتْ أَيْدِيكُمْ مَعَ أَيْدِينَا، وَلَا نُقَاتِلَكُمْ حَتَّى تُقَاتِلُونَا.

بداية تفكير الخوارج بقتال المسلمين

وعَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي حُرَّةَ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ أَبَا مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِإِنْفَاذِ الْحُكُومَةِ، اجْتَمَعَ الْخَوَارِجُ فِي مَنْزِلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَهْبٍ الرَّاسِبِيِّ فَخَطَبَهُمْ خُطْبَةً بَلِيغَةً

زَهَّدَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَرَغَّبَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَالْجَنَّةِ، وَحَثَّهُمْ عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، ثُمَّ قَالَ: فَاخْرُجُوا بِنَا إِخْوَانَنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا، إِلَى جَانِبِ هَذَا السَّوَادِ إِلَى بَعْضِ كُوَرِ الْجِبَالِ، أَوْ بَعْضِ هَذِهِ الْمَدَائِنِ مُنْكِرِينَ لِهَذِهِ الْأَحْكَامِ الْجَائِرَةِ. ثُمَّ قَامَ حُرْقُوصُ بْنُ زُهَيْرٍ فَقَالَ بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ: إِنَّ الْمَتَاعَ بِهَذِهِ الدُّنْيَا قَلِيلٌ، وَإِنَّ الْفِرَاقَ لَهَا وَشِيكٌ، فَلَا تَدْعُونَّكُمْ زِينَتُهَا وَبَهْجَتُهَا إِلَى الْمُقَامِ بِهَا، وَلَا تَلْفِتَنَّكُمْ عَنْ طَلَبِ الْحَقِّ وَإِنْكَارِ الظُّلْمِ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ. فَقَالَ سِنَانُ بْنُ حَمْزَةَ الْأَسَدِيُّ: يَا قَوْمُ إِنَّ الرَّأْيَ مَا رَأَيْتُمْ، وَإِنَّ الْحَقَّ مَا ذَكَرْتُمْ، فَوَلُّوا أَمْرَكُمْ رَجُلًا مِنْكُمْ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَكُمْ مِنْ عِمَادٍ وَسِنَادٍ، وَمِنْ رَايَةٍ تَحُفُّونَ بِهَا وَتَرْجِعُونَ إِلَيْهَا. فَبَعَثُوا إِلَى زَيْدِ بْنِ حُصَيْنٍ الطَّائِيِّ - وَكَانَ مِنْ رُءُوسِهِمْ - فَعَرَضُوا عَلَيْهِ الْإِمَارَةَ عَلَيْهِمْ فَأَبَى، ثُمَّ عَرَضُوهَا عَلَى حُرْقُوصَ بْنَ زُهَيْرٍ فَأَبَى، ثُمَّ عَرَضُوهَا عَلَى حَمْزَةَ بْنِ سِنَانٍ فَأَبَى، ثُمَّ عَرَضُوهَا عَلَى شُرَيْحِ بْنِ أَوْفَى الْعَبْسِيِّ فَأَبَى، ثُمَّ عَرَضُوهَا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَهْبٍ الرَّاسِبِيِّ فَقَبِلَهَا، وَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَا أَقْبَلُهَا رَغْبَةً فِي الدُّنْيَا وَلَا أَدَعُهَا فَرَقًا مِنَ الْمَوْتِ. وَاجْتَمَعُوا أَيْضًا فِي بَيْتِ زَيْدِ بْنِ حُصَيْنٍ الطَّائِيِّ السِّنْبِسِيِّ فَخَطَبَهُمْ وَحَثَّهُمْ عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَلَا عَلَيْهِمْ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة ص:٢٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة المائدة:٤٤]. وَالَّتِي بَعْدَهَا وَبَعْدَهَا: الظَّالِمُونَ، الْفَاسِقُونَ [الْمَائِدَةِ: ٤٥، ٤٧]. ثُمَّ قَالَ: فَأَشْهَدُ عَلَى أَهْلِ دَعْوَتِنَا مِنْ أَهْلِ قِبْلَتِنَا أَنَّهُمْ قَدِ اتَّبَعُوا الْهَوَى، وَنَبَذُوا حُكْمَ الْكِتَابِ، وَجَارُوا فِي الْقَوْلِ وَالْأَعْمَالِ، وَأَنَّ جِهَادَهُمْ حَقٌّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: فَبَكَى رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَجَرَةَ السُّلَمِيُّ. ثُمَّ حَرَّضَ أُولَئِكَ عَلَى الْخُرُوجِ عَلَى النَّاسِ، وَقَالَ فِي كَلَامِهِ: اضْرِبُوا وُجُوهَهُمْ وَجِبَاهَهُمْ بِالسُّيُوفِ حَتَّى يُطَاعَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، فَإِنْ أَنْتُمْ ظَفِرْتُمْ

وَأُطِيعَ اللَّهُ كَمَا أَرَدْتُمْ، آتَاكُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الْمُطِيعِينَ لَهُ الْعَامِلِينَ بِأَمْرِهِ، وَإِنْ قُتِلْتُمْ فَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنَ الصَّبْرِ وَالْمَصِيرِ إِلَى اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ؟.

قُلْتُ[أي: ابن كثير]: **وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ مَنْ أَغْرَبَ أَشْكَالِ بَنِي آدَمَ**، فَسُبْحَانَ مَنْ نَوَّعَ خَلْقَهُ كَمَا أَرَادَ، وَسَبَقَ فِي قَدَرِهِ ذَلِكَ. وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي الْخَوَارِجِ: إِنَّهُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة الكهف:١٠٣-١٠٤]. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةَ الضُّلَّالَ، وَالْأَشْقِيَاءَ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، اجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَوَاطَئُوا عَلَى الْمَسِيرِ إِلَى الْمَدَائِنِ ; لِيَمْلِكُوهَا وَيَتَحَصَّنُوا بِهَا، ثُمَّ يَبْعَثُوا إِلَى إِخْوَانِهِمْ وَأَضْرَابِهِمْ - مِمَّنْ هُوَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَغَيْرِهَا - فَيُوَافُوهُمْ إِلَيْهَا، وَيَكُونُ اجْتِمَاعُهُمْ عَلَيْهَا. فَقَالَ لَهُمْ زَيْدُ بْنُ حُصَيْنٍ الطَّائِيُّ: إِنَّ الْمَدَائِنَ لَا تَقْدِرُونَ عَلَيْهَا، فَإِنَّ بِهَا جَيْشًا لَا تُطِيقُونَهُ وَسَيَمْنَعُوهَا مِنْكُمْ، وَلَكِنْ وَاعِدُوا إِخْوَانَكُمْ إِلَى جِسْرِ نَهْرِ جُوخَا، وَلَا تَخْرُجُوا مِنَ الْكُوفَةِ جَمَاعَاتٍ، وَلَكِنِ اخْرُجُوا وُحْدَانًا لِئَلَّا يَشْعُرُوا بِكُمْ. فَكَتَبُوا كِتَابًا عَامًّا إِلَى مَنْ هُوَ عَلَى مَذْهَبِهِمْ وَمَسْلَكِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَغَيْرِهَا، وَبَعَثُوا بِهِ إِلَيْهِمْ لِيُوَافُوهُمْ إِلَى النَّهْرِ، لِيَكُونُوا يَدًا وَاحِدَةً عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ خَرَجُوا يَتَسَلَّلُونَ وُحْدَانًا ; لِئَلَّا يَعْلَمَ أَحَدٌ بِهِمْ فَيَمْنَعُوهُمْ مِنَ الْخُرُوجِ فَخَرَجُوا مِنْ بَيْنِ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَالْأَعْمَامِ وَالْعَمَّاتِ وَفَارَقُوا سَائِرَ الْقَرَابَاتِ، يَعْتَقِدُونَ بِجَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ وَعَقْلِهِمْ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ يُرْضِي رَبَّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ وَالذُّنُوبِ الْمُوبِقَاتِ، وَالْعَظَائِمِ وَالْخَطِيئَاتِ، وَأَنَّهُ مِمَّا يُزَيِّنُهُ لَهُمْ إِبْلِيسُ وَأَنْفُسُهُمُ الَّتِي هِيَ بِالسُّوءِ أَمَّارَاتٌ. وَقَدْ تَدَارَكَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ بَعْضَ أَوْلَادِهِمْ وَقَرَابَاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ فَرَدُّوهُمْ وَوَبَّخُوهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنِ اسْتَمَرَّ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَحِقَ بِالْخَوَارِجِ فَخَسِرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَذَهَبَ الْبَاقُونَ إِلَى ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، وَوَافَى

إِلَيْهِمْ مَنْ كَاتَبُوهُ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَغَيْرِهَا، وَاجْتَمَعَ الْجَمِيعُ بِالنَّهْرَوَانِ، وَصَارَتْ لَهُمْ شَوْكَةٌ وَمَنَعَةٌ، وَهُمْ جُنْدٌ مُسْتَقِلُّونَ وَفِيهِمْ شَجَاعَةٌ وَثَبَاتٌ وَصَبْرٌ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّهُمْ مُتَقَرِّبُونَ بِذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ ; فَهُمْ قَوْمٌ لَا يُصْطَلَى لَهُمْ بِنَارٍ، وَلَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ بِثَأْرٍ، وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ.

ومما يدل على أن الخوارج لم ينفصلوا لأجل الحق : ما جاء عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا خَرَجَتِ الْخَوَارِجُ إِلَى النَّهْرَوَانِ ، قَامَ فِي النَّاسِ بِالْكُوفَةِ خَطِيبًا [حمد الله وأثنى عليه] ، ثُمَّ نَدَبَ النَّاسَ إِلَى الْخُرُوجِ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ وَالْجِهَادِ فِيهِمْ(١)، وَعَيَّنَ

---

(١) وذلك حين انقضى أمر التحكيم ولم يدخلوا في الطاعة وهذا المقام حصل فيه كذب على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وقد قال ابن العربي رحمه الله تعالى في : [«العواصم من القواصم ط دار الجيل» (ص١٧٩):] «إنما الذي روى الأئمة الثقات الأثبات أنهما لما اجتمعا للنظر في الأمر-في عصبة كريمة من الناس منهم ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ونحوه عزل [عمرو] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذكر الدارقطني بسنده إلى حصين بن المنذر : لما عزل عمرو معاوية "جاء حصين بن المنذر" فضرب فسطاطه قريبًا من فسطاط معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فبلغ معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأرسل "إلي" فقال: إنه بلغني عن هذا "أي عن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ " كذا وكذا ، فاذهب فانظر ما هذا الذي بلغني عنه، فأتيته فقلت: أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كيف صنعتما فيه؟ قال: قد قال الناس في ذلك ما قالوا، والله ما كان الأمر على ما قالوا، ولكن قلت لأبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: أرى أنه في النفر الذي توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، قلت: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ فقال: إن يستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغنِ عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما. قال: فكانت هي التي قتل معاوية منها نفسه. فهذا كان بدء الحديث ومنتهاه، فأعرضوا عن الغاوين، وازجروا العاوين، وعرجوا عن سبيل الناكثين، على سنن المهتدين، وأمسكوا الألسنة عن السابقين إلى الدين، إياكم أن تكونوا يوم القيامة من الهالكين بخصومة أصحاب رسول الله ﷺ ، فقد هلك من كان أصحاب النبي ﷺ خصمه، دعوا ما مضى، فقد قضى الله فيه ما قضى، وخذوا لأنفسكم الجد فيما يلزمكم اعتقادًا وعملًا، ولا تسترسلوا بألسنتكم فيما لا يعنيكم مع كل ماجن اتخذ الدين هملًا، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.» اهـ.

الخلاصة: أن الاتفاق كان على خلافة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلما رجع عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يريد تسليم قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أولًا، ثم الطاعة، فلم يتم الصلح؛لأن الخلاف

هُمْ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ يَخْرُجُونَ فِيهِ، وَكَتَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَالِي الْبَصْرَةِ يَسْتَنْفِرُ لَهُ النَّاسَ إِلَى الْخُرُوجِ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ. وَكَتَبَ إِلَى الْخَوَارِجِ يُعْلِمُهُمْ أَنَّهُ قَدْ عَزَمَ عَلَى الذَّهَابِ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ، فَهَلُمُّوا حَتَّى نَجْتَمِعَ عَلَى قِتَالِهِمْ، فَكَتَبُوا إِلَيْهِ: أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّكَ لَمْ تَغْضَبْ لِرَبِّكَ وَإِنَّمَا غَضِبْتَ لِنَفْسِكَ، وَإِنْ شَهِدَتْ عَلَى نَفْسِكَ بِالْكُفْرِ وَاسْتَقْبَلْتَ التَّوْبَةَ نَظَرْنَا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، وَإِلَّا فَقَدْ نَابَذْنَاكَ عَلَى سَوَاءٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾ [سورة الأنفال:٥٨]. فَلَمَّا قَرَأَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كِتَابَهُمْ يَئِسَ مِنْهُمْ وَعَزَمَ عَلَى الذَّهَابِ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ لِيُنَاجِزَهُمْ، وَخَرَجَ مِنَ الْكُوفَةِ إِلَى النُّخَيْلَةِ فِي عَسْكَرٍ كَثِيفٍ - خَمْسَةٍ وَسِتِّينَ

من أجل هذه القضية لا من أجل الخلافة وكان رأي علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الدخول في الطاعة أولًا = = ولذا عزم مجددًا على قتالهم.أما قصة خلع الخاتم ونسبة قلة الفهم إلى أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واستعمال عمرو للخديعة فلم يثبت ذلك إنما هو من دس الرافضة في التاريخ قاتلهم الله ، وما ذكرت لك هو قول أهل السنة كافة فاحفظ لسانك يا مسلم وطهر قلبك على أصحاب محمد ﷺ، ثم إن القليل من الناس من يعرف هذا الموقف الجميل لعمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهنا يجدر بنا ذكر وصف رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص إضافة لهذا الموقف فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**أَسْلَمَ النَّاسُ وَآمَنَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ**». [أخرجه الترمذي:٣٨٤٤. وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٨٨) (١٥٥)] .واستشهد له(١٥٦) بما أخرجه الإمام أحمد رحمه الله (٨٠٢٩):عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ «**ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام**».[حسنه الوادعي في الصحيح المسند (٢/ ٣٥٨)(١٣٤٤)] فرجل يشهد له ﷺ بالإيمان الذي يراد به هنا صلاح الباطن أليس من تصديقك لرسول الله ﷺ اعتقاد ذلك فيه وتبريء ساحته أم هؤلاء المبغضون للصحب عندك أصدق؟! ﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [سورة الكهف:٥٠].

وهكذا أذكر طرفًا مما يتعلق بأبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يزيح اتهامه بقلة الفهم أهمها أن النبي ﷺ بعثه إلى اليمن واليًا ومعلمًا. أفيبعث رسول الله ﷺ رجلًا لا يحسن التعامل وهو الذي قال لمعاذ مبينًا له حجم المسئولية «**إنك تقدم على قوم أهل كتاب**».وقال عن أهل اليمن «**والحكمة يمانية**» أتراه يرسل إليهم غير حكيم؟! لا شك أنه كان يرى فيه الأهلية ، وكذلك رأى فيه الخلفاء فاستعملوه قاضيًا ووالياً وتأمل تزكية العبقري عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعثنى الأشعريّ إلى عمر فقال لي عمر: كيف تركتَ الأشعريّ؟ فقلتُ له: تركتُه يُعَلّم النّاسَ القرآن، فقال: أما إنّه كَيّسٌ ولا تُسْمِعْها إيّاه. [أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبير (٢/ ٢٩٨ ط الخانجي) بسند صحيح] فبأي الترجمتين تأخذ أيها المسلم؟.

أَلْفًا - وَبَعَثَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ وَمِائَتَيْ فَارِسٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ مَعَ جَارِيَةَ بْنِ قُدَامَةَ أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ، وَمَعَ أَبِي الْأَسْوَدِ الدُّئَلِيِّ أَلْفٌ وَسَبْعُمِائَةٍ، فَكَمَلَ جَيْشُهُ فِي ثَمَانِيَةٍ وَسِتِّينَ أَلْفَ فَارِسٍ وَمِائَتَيْ فَارِسٍ.

صفة في الخوارج بها يعرفون في كل زمان

قَامَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي النَّاسِ خَطِيبًا فَحَثَّهُمْ عَلَى الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ عِنْدَ اللِّقَاءِ ; فَبَيْنَمَا هُوَ عَازِمٌ عَلَى غَزْوِ أَهْلِ الشَّامِ إِذْ بَلَغَهُ أَنَّ الْخَوَارِجَ قَدْ عَاثُوا فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ، وَقَطَعُوا السَّبِيلَ، وَاسْتَحَلُّوا الْمَحَارِمَ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ قَتَلُوهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَبَّابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ ، أَسَرُوهُ وَامْرَأَتَهُ مَعَهُ وَهِيَ حَامِلٌ فَقَالُوا لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَبَّابٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ . وَأَنْتُمْ قَدْ رَوَّعْتُمُونِي. فَقَالُوا: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، حَدِّثْنَا مَا سَمِعْتَ مِنْ أَبِيكَ. فَقَالَ: سَمِعْتُ أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ ، يَقُولُ: **«سَتَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي»** (قَالُوا: لِهَذَا الْحَدِيثِ سَأَلْنَاكَ، فَمَا تَقُولُ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ؟ فَأَثْنَى عَلَيْهِمَا خَيْرًا. قَالُوا: مَا تَقُولُ فِي عُثْمَانَ فِي أَوَّلِ خِلَافَتِهِ وَفِي آخِرِهَا؟ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ مُحِقًّا فِي أَوَّلِهَا وَفِي آخِرِهَا. قَالُوا: فَمَا تَقُولُ فِي عَلِيٍّ قَبْلَ التَّحْكِيمِ وَبَعْدَهُ؟ قَالَ: إِنَّهُ أَعْلَمُ بِاللَّهِ مِنْكُمْ، وَأَشَدُّ تَوَقِّيًا عَلَى دِينِهِ، وَأَنْفَذُ بَصِيرَةً. فَقَالُوا: إِنَّكَ تَتَّبِعُ الْهَوَى، وَتُوَالِي الرِّجَالَ عَلَى أَسْمَائِهَا لَا عَلَى أَفْعَالِهَا، وَاللَّهِ لَنَقْتُلَنَّكَ قَتْلَةً مَا قَتَلْنَاهَا أَحَدًا) [1] فَقَادُوهُ بِيَدِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ مَعَهُمْ إِذْ لَقِيَ بَعْضُهُمْ خِنْزِيرًا لِبَعْضِ أَهْلِ الذِّمَّةِ فَضَرَبَهُ بَعْضُهُمْ بِسَيْفِهِ فَشَقَّ جِلْدَهُ، فَقَالَ لَهُ آخَرُ: لِمَ فَعَلْتَ هَذَا وَهُوَ لِذِمِّيٍّ؟ فَذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ الذِّمِّيِّ فَاسْتَحَلَّهُ وَأَرْضَاهُ. وَبَيْنَمَا هُوَ مَعَهُمْ إِذْ سَقَطَتْ تَمْرَةٌ مِنْ نَخْلَةٍ فَأَخَذَهَا أَحَدُهُمْ فَأَلْقَاهَا فِي فَمِهِ، فَقَالَ لَهُ آخَرُ: بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلَا ثَمَنٍ؟ فَأَلْقَاهَا ذَاكَ مِنْ فَمِهِ، وَمَعَ هَذَا قَدَّمُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ خَبَّابٍ فَذَبَحُوهُ،

(١) ما بين القوسين من «الكامل في التاريخ» (٢/ ٦٩١).

وَجَاءُوا إِلَى امْرَأَتِهِ فَقَالَتْ: إِنِّي امْرَأَةٌ حُبْلَى أَلَا تَتَّقُونَ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ! فَذَبَحُوهَا وَبَقَرُوا بَطْنَهَا عَنْ وَلَدِهَا،(وَقَتَلُوا ثَلَاثَ نِسْوَةٍ مِنْ طَيِّءٍ، وَقَتَلُوا أُمَّ سِنَانٍ الصَّيْدَاوِيَّةَ) [1] فَلَمَّا بَلَغَ النَّاسَ هَذَا مِنْ صَنِيعِهِمْ، خَافُوا إِنْ هُمْ ذَهَبُوا إِلَى الشَّامِ وَاشْتَغَلُوا بِقِتَالٍ أَنْ يَخْلُفَهُمْ هَؤُلَاءِ فِي ذَرَارِيِّهِمْ وَدِيَارِهِمْ وَيَفْعَلُوا هَذَا الصَّنِيعَ، فَخَافُوا غَائِلَتَهُمْ، وَأَشَارُوا عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِأَنْ يَبْدَأَ بِهِمْ، ثُمَّ إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ سَارُوا مَعَهُ إِلَى الشَّامِ، وَالنَّاسُ آمِنُونَ مِنْ شَرِّهِمْ، فَاجْتَمَعَ الرَّأْيُ عَلَى هَذَا وَفِيهِ خِيرَةٌ عَظِيمَةٌ لَهُمْ وَلِأَهْلِ الشَّامِ أَيْضًا ; إِذْ لَوْ قَوِيَ هَؤُلَاءِ لَأَفْسَدُوا الْأَرْضَ كُلَّهَا عِرَاقًا وَشَامًا، وَلَمْ يَتْرُكُوا طِفْلًا وَلَا طِفْلَةً وَلَا رَجُلًا وَلَا امْرَأَةً ; لِأَنَّ النَّاسَ عِنْدَهُمْ قَدْ فَسَدُوا فَسَادًا لَا يُصْلِحُهُمْ إِلَّا الْقَتْلُ جُمْلَةً.

و اقتربت المعركة المشهود لأهلها بالخير من الله تعالى

أَرْسَلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَيْهِمُ الْحَارِثَ بْنَ مُرَّةَ الْعَبْدِيَّ، وَقَالَ لَهُ: اخْبُرْ لِي خَبَرَهُمْ، وَاعْلَمْ لِي أَمْرَهُمْ، وَاكْتُبْ إِلَيَّ بِهِ عَلَى الْجَلِيَّةِ. فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمُ الْحَارِثُ قَتَلُوهُ وَلَمْ يُنْظِرُوهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَارَ إِلَيْهِمْ وَتَرَكَ أَهْلَ الشَّامِ.

[ذِكْرُ مَسِيرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْخَوَارِجِ]

لَمَّا عَزَمَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجَيْشِ عَلَى الْبَدَاءَةِ بِالْخَوَارِجِ، نَادَى مُنَادِيهِ فِي النَّاسِ بِالرَّحِيلِ، فَعَبَرَ الْجِسْرَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ عِنْدِهِ، ثُمَّ سَلَكَ عَلَى دَيْرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، ثُمَّ دَيْرِ أَبِي مُوسَى، ثُمَّ عَلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ، فَلَقِيَهُ هُنَالِكَ مُنَجِّمٌ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِوَقْتٍ مِنَ النَّهَارِ يَسِيرُ فِيهِ وَلَا يَسِيرُ فِي غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ إِنْ سَارَ فِي غَيْرِهِ يُخْشَى عَلَيْهِ، فَخَالَفَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَسَارَ عَلَى خِلَافِ مَا قَالَ الْمُنَجِّمُ، وَقَالَ: نَسِيرُ ثِقَةً بِاللَّهِ، وَتَوَكُّلًا عَلَيْهِ، وَتَكْذِيبًا لِقَوْلِ الْمُنَجِّمِ. فَأَظْفَرَهُ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أُبَيِّنَ لِلنَّاسِ خَطَأَهُ وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ: إِنَّمَا ظَفِرَ لِكَوْنِهِ وَافَقَهُ فِيمَا أَشَارَ بِهِ، فَيُشْرِكُوا بِاللَّهِ غَيْرَهُ. وَسَلَكَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَاحِيَةَ الْأَنْبَارِ، وَبَعَثَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَيْسَ بْنَ

(١) ما بين القوسين من «الكامل في التاريخ» (٢/ ٦٩٢).

سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ الْمَدَائِنَ، وَأَنْ يَلْقَاهُ بِنَائِبِهَا سَعْدِ بْنِ مَسْعُودٍ - وَهُوَ أَخُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ - فِي جَيْشِ الْمَدَائِنِ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ هُنَالِكَ عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَبَعَثَ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنِ ادْفَعُوا إِلَيْنَا قَتَلَةَ إِخْوَانِنَا مِنْكُمْ لِنَقْتُلَهُمْ بِهِمْ، ثُمَّ إِنَّا تَارَكُوكُمْ وَذَاهِبُونَ عَنْكُمْ إِلَى الشَّامِ، ثُمَّ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُقْبِلَ بِقُلُوبِكُمْ، وَيَرُدَّكُمْ إِلَى خَيْرٍ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ يَقُولُونَ: كُلُّنَا قَتَلَ إِخْوَانَكُمْ، وَنَحْنُ مُسْتَحِلُّونَ دِمَاءَهُمْ وَدِمَاءَكُمْ. فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَوَعَظَهُمْ فِيمَا هُمْ مُرْتَكِبُوهُ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، وَالْخَطْبِ الْجَسِيمِ فَلَمْ يَنْفَعْ ذَلِكَ فِيهِمْ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ; أَنَّبَهُمْ وَوَبَّخَهُمْ، فَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِمْ، وَتَقَدَّمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَيْهِمْ، فَوَعَظَهُمْ وَخَوَّفَهُمْ وَحَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ وَتَهَدَّدَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ ، وَقَالَ:هَا أَنَا وَأَنْتُمْ فَارْجِعُوا إِلَى مَا خَرَجْتُمْ مِنْهُ، وَلَا تَرْكَبُوا مَحَارِمَ اللَّهِ فَإِنَّكُمْ قَدْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا تَقْتُلُونَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمِينَ، وَاللَّهِ لَوْ قَتَلْتُمْ عَلَيْهِ دَجَاجَةً لَكَانَ عَظِيمًا عِنْدَ اللَّهِ، فَكَيْفَ بِدِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ؟ ! فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ إِلَّا أَنْ تَبَادَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَنْ لَا تُخَاطِبُوهُمْ وَلَا تُكَلِّمُوهُمْ وَتَهَيَّئُوا لِلِقَاءِ الرَّبِّ، عَزَّ وَجَلَّ، الرَّوَاحَ الرَّوَاحَ إِلَى الْجَنَّةِ!.

[ترتيب جيش الخوارج قاتلهم الله]

وَتَقَدَّمُوا فَاصْطَفُّوا لِلْقِتَالِ، وَتَأَهَّبُوا لِلنِّزَالِ، فَجَعَلُوا

١-عَلَى مَيْمَنَتِهِمْ زَيْدَ بْنَ حُصَيْنٍ الطَّائِيَّ السِّنْبِسِيَّ.

٢- وَعَلَى الْمَيْسَرَةِ شُرَيْحَ بْنَ أَوْفَى.

٣- وَعَلَى خَيَّالَتِهِمْ حَمْزَةَ بْنَ سِنَانٍ.

٤- وَعَلَى الرَّجَّالَةِ حُرْقُوصَ بْنَ زُهَيْرٍ السَّعْدِيَّ، وَوَقَفُوا مُقَاتِلِينَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَصْحَابِهِ.

[ترتيب جيش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه]

وَجَعَلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

١- عَلَى مَيْمَنَتِهِ حُجْرَ بْنَ عَدِيٍّ.

٢- وَعَلَى الْمَيْسَرَةِ شَبَثَ بْنَ رِبْعِيٍّ أَوْ مَعْقِلَ بْنَ قَيْسٍ الرِّيَاحِيَّ.

٣- وَعَلَى خَيَّالَتِهِ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- وَعَلَى الرَّجَّالَةِ أَبَا قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- وَعَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ - وَكَانُوا سَبْعَمِائَةٍ - قَيْسَ بْنَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٦- وَأَمَرَ عَلِيٌّ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَرْفَعَ رَايَةَ أَمَانٍ لِلْخَوَارِجِ، وَيَقُولَ لَهُمْ: مَنْ جَاءَ إِلَى هَذِهِ الرَّايَةِ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنِ انْصَرَفَ إِلَى الْكُوفَةِ وَالْمَدَائِنِ فَهُوَ آمِنٌ، إِنَّهُ لَا حَاجَةَ لَنَا فِي دِمَائِكُمْ، إِلَّا فِي مَنْ قَتَلَ إِخْوَانَنَا. فَانْصَرَفَ مِنْهُمْ طَوَائِفُ كَثِيرُونَ، وَكَانُوا فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا أَلْفٌ - أَوْ أَقَلُّ - مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَهْبٍ الرَّاسِبِيِّ، فَزَحَفُوا إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَدَّمَ عَلِيٌّ بَيْنَ يَدَيْهِ الْخَيْلَ، وَقَدَّمَ مِنْهُمُ الرُّمَاةَ، وَصَفَّ الرَّجَّالَةَ وَرَاءَ الْخَيَّالَةِ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: كُفُّوا عَنْهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ. وَأَقْبَلَتِ الْخَوَارِجُ وَهُمْ يَقُولُونَ: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، الرَّوَاحَ الرَّوَاحَ إِلَى الْجَنَّةِ! فَحَمَلُوا عَلَى الْخَيَّالَةِ الَّذِينَ قَدَّمَهُمْ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَفَرَّقُوهُمْ حَتَّى أَخَذَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْخَيَّالَةِ إِلَى الْمَيْمَنَةِ، وَأُخْرَى إِلَى الْمَيْسَرَةِ، فَاسْتَقْبَلَتْهُمُ الرُّمَاةُ بِالنَّبْلِ، فَرَمَوْا وُجُوهَهُمْ، وَعَطَفَتْ عَلَيْهِمُ الْخَيَّالَةُ مِنَ الْمَيْمَنَةِ وَالْمَيْسَرَةِ، وَنَهَضَ إِلَيْهِمُ الرِّجَالُ بِالرِّمَاحِ وَالسُّيُوفِ، فَأَنَامُوا الْخَوَارِجَ، فَصَارُوا صَرْعَى تَحْتَ سَنَابِكِ الْخُيُولِ، وَقُتِلَ أُمَرَاؤُهُمْ ; عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ، وَحُرْقُوصُ بْنُ زُهَيْرٍ، وَشُرَيْحُ بْنُ أَوْفَى، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَجَرَةَ السُّلَمِيُّ، قَبَّحَهُمُ اللَّهُ.

قَالَ أَبُو أَيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: طَعَنْتُ رَجُلًا مِنَ الْخَوَارِجِ بِالرُّمْحِ، فَأَنْفَذْتُهُ مِنْ ظَهْرِهِ، وَقُلْتُ لَهُ: أَبْشِرْ يَا عَدُوَّ اللَّهِ بِالنَّارِ، فَقَالَ: سَتَعْلَمُ أَيُّنَا أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا. قَالُوا: وَلَمْ يُقْتَلْ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَّا سَبْعَةُ نَفَرٍ. وَجَعَلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَمْشِي بَيْنَ الْقَتْلَى

مِنْهُمْ وَيَقُولُ: **بُؤْسًا لَكُمْ، لَقَدْ ضَرَّكُمْ مَنْ غَرَّكُمْ**. فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ غَرَّهُمْ؟ قَالَ: الشَّيْطَانُ، وَأَنْفُسٌ بِالسُّوءِ أَمَّارَةٌ، غَرَّتْهُمْ بِالْأَمَانِيِّ، وَزَيَّنَتْ لَهُمُ الْمَعَاصِيَ، وَنَبَّأَتْهُمْ أَنَّهُمْ ظَاهِرُونَ. ثُمَّ أَمَرَ بِالْجَرْحَى مِنْ بَيْنِهِمْ فَإِذَا هُمْ أَرْبَعُمِائَةٍ، فَسَلَّمَهُمْ إِلَى قَبَائِلِهِمْ لِيُدَاوُوهُمْ.

وعَنْ لَاحِقٍ قَالَ: كَانَ الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّهْرَوَانِ أَرْبَعَةَ آلَافٍ فِي الْحَدِيدِ، فَرَكِبَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فَقَتَلُوهُمْ، وَلَمْ يَقْتُلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا تِسْعَةَ رَهْطٍ، وَإِنْ شِئْتَ فَاذْهَبْ إِلَى أَبِي بَرْزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ ذَلِكَ.

فهل من غنيمة

قَالَ الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ فِي كِتَابِ " الْخَوَارِجِ ": عَنِ النَّزَّالِ بْنِ سَبْرَةَ، أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يُخَمِّسْ مَا أَصَابَ مِنَ الْخَوَارِجِ يَوْمَ النَّهْرَوَانِ، وَلَكِنْ رَدَّهُ إِلَى أَهْلِيهِمْ كُلَّهُ، حَتَّى كَانَ آخِرَ ذَلِكَ مِرْجَلٌ أُتِيَ بِهِ فَرَدَّهُ.

وعن عَبْد الْمَلِكِ بْن أَبِي حُرَّةَ، أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ فِي طَلَبِ ذِي الثُّدَيَّةِ، وَمَعَهُ سُلَيْمَانُ بْنُ ثُمَامَةَ الْحَنَفِيُّ أَبُو جَبْرَةَ، وَالرَّيَّانُ بْنُ صَبْرَةَ بْنِ هَوْذَةَ، فَوَجَدَهُ الرَّيَّانُ فِي حُفْرَةٍ عَلَى جَانِبِ النَّهْرِ فِي أَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسِينَ قَتِيلًا، قَالَ: فَلَمَّا اسْتُخْرِجَ لَهُ نَظَرَ إِلَى عَضُدِهِ، فَإِذَا لَحْمٌ مُجْتَمِعٌ عَلَى مَنْكِبِهِ كَثَدْيِ الْمَرْأَةِ، لَهُ حَلَمَةٌ كَحَلَمَةِ الثَّدْيِ، عَلَيْهَا شَعَرَاتٌ سُودٌ، فَإِذَا مُدَّتِ امْتَدَّتْ حَتَّى تُحَاذِيَ يَدَهُ الْأُخْرَى، ثُمَّ تُتْرَكُ فَتَعُودُ إِلَى مَنْكِبِهِ كَثَدْيِ الْمَرْأَةِ. فَلَمَّا رَآهُ قَالَ عَلِيٌّ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ تَتَّكِلُوا عَلَى غَيْرِ الْعَمَلِ لَأَخْبَرْتُكُمْ بِمَا قَضَى اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِمَنْ قَاتَلَهُمْ مُسْتَبْصِرًا فِي قِتَالِهِمْ عَارِفًا لِلْحَقِّ.

وَقَالَ الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ فِي كِتَابِهِ فِي الْخَوَارِجِ: ، عَنْ نَافِعِ بْنِ مَسْلَمَةَ الْأَحْمَسِيِّ، قَالَ: كَانَ ذُو الثُّدَيَّةِ رَجُلًا مِنْ عُرَيْنَةَ مِنْ بَجِيلَةَ، وَكَانَ أَسْوَدَ شَدِيدَ السَّوَادِ، لَهُ رِيحٌ مُنْتِنَةٌ مَعْرُوفٌ فِي الْعَسْكَرِ، يُرَافِقُنَا عَلَى ذَلِكَ وَيُنَازِلُنَا وَنُنَازِلُهُ. وعَنِ الرَّيَّانِ بْنِ صِبْرَةَ الْحَنَفِيِّ قَالَ: شَهِدْنَا النَّهْرَوَانَ مَعَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا وَجَدَ الْمُخْدَجَ سَجَدَ سَجْدَةً

طَوِيلَةً شُكْرًا لِلَّهِ. وعَنْ حَبَّةَ الْعُرَنِيِّ قَالَ: لَمَّا قَتَلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَهْلَ النَّهْرَوَانِ، جَعَلَ النَّاسُ يَقُولُونَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي قَطَعَ دَابِرَهُمْ. فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَلَّا وَاللَّهِ إِنَّهُمْ لَفِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، فَإِذَا خَرَجُوا مِنْ بَيْنِ الشَّرَايِينِ فَقَلَّمَا يُقَاتِلُونَ أَحَدًا إِلَّا أَلِفُوا أَنْ يَظْهَرُوا عَلَيْهِ. قَالَ: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ الرَّاسِبِيُّ قَدْ قَحِلَتْ مَوَاضِعُ السُّجُودِ مِنْهُ مِنْ شِدَّةِ اجْتِهَادِهِ وَكَثْرَةِ سُجُودِهِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: ذُو الْمُنْقَبَاتِ. وَرَوَى الْهَيْثَمُ عَنْ بَعْضِ الْخَوَارِجِ أَنَّهُ قَالَ: مَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ مِنْ بَغْضَتِهِ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُسَمِّيهِ إِلَّا الْجَاحِدَ.

وعَنْ حَكِيمِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ: سُئِلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ أَهْلِ النَّهْرَوَانِ أَمُشْرِكُونَ هُمْ؟ فَقَالَ: مِنَ الشِّرْكِ فَرُّوا. قِيلَ: أَفَمُنَافِقُونَ هُمْ؟ قَالَ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا. فَقِيلَ: فَمَا هُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: إِخْوَانُنَا بَغَوْا عَلَيْنَا فَقَاتَلْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ عَلَيْنَا.

فَصْلٌ (مَا دَارَ بَيْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَصْحَابِهِ بَعْدَ فَرَاغِهِمْ مِنْ قِتَالِ الْخَوَارِجِ)

ذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا نَكَلَ أَهْلُ الْعِرَاقِ عَنِ الذَّهَابِ مَعَهُ إِلَى الشَّامِ خَطَبَهُمْ، فَوَبَّخَهُمْ وَأَنَّبَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ وَتَهَدَّدَهُمْ وَتَلَا عَلَيْهِمْ فِي الْجِهَادِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ مِنْ سُوَرٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَحَثَّهُمْ عَلَى الْمَسِيرِ إِلَى عَدُوِّهِمْ فَتَأَبَّوْا عَلَى ذَلِكَ، وَخَالَفُوهُ وَلَمْ يُوَافِقُوهُ، وَاسْتَمَرُّوا فِي بِلَادِهِمْ، وَانْصَرَفُوا عَنْهُ هَاهُنَا. قِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ بِسَبَبِ قَتْلِهِ الْخَوَارِجَ ; لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَرَابَاتِهِمْ وَإِخْوَانَهُمْ، وَيَرَوْنَهُمْ أَفْضَلَهُمْ وَخَيْرَهُمْ ; لِعِبَادَتِهِمْ وَقِرَاءَتِهِمْ، فَتَثَاقَلُوا عَنْهُ وَهَجَرُوهُ، فَدَخَلَ عَلِيٌّ الْكُوفَةَ فِي حَالَةٍ اللَّهُ بِهَا عَلِيمٌ(١).

فَصْلٌ (قِتَالُ عَلِيٍّ الْخَوَارِجَ يَوْمَ النَّهْرَوَانِ كَانَ سَنَةَ ثمان وَثَلَاثِينَ)

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَكْثَرُ أَهْلِ السِّيَرِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ. وَصَحَّحَهُ قُلْتُ: وَهُوَ الْأَشْبَهُ (٢).

---

(١) «البداية والنهاية ط هجر (١٠/ ٥٧٧ - ١٠/ ٦٤٣).

(٢) «البداية والنهاية ط هجر»(٩/ ١٩٨ - ١٠/ ٦٤٧)

وَلِنَذْكُرِ الْآنَ مَا وَرَدَ فِيهِمْ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

الْحَدِيثُ الْأَوَّلُ: عَنْ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَوَاهُ عَنْهُ زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ، وَسُوَيْدُ بْنُ غَفَلَةَ، وَطَارِقُ بْنُ زِيَادٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ، وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَافِعٍ، وَعَبِيدَةُ بْنُ عَمْرٍو السَّلْمَانِيُّ، وَكُلَيْبٌ أَبُو عَاصِمٍ، وَأَبُو كَثِيرٍ، وَأَبُو مَرْيَمَ، وَأَبُو مُوسَى، وَأَبُو وَائِلٍ، وَأَبُو الْوَضِيءِ، فَهَذِهِ اثْنَا عَشْرَةَ طَرِيقًا إِلَيْهِ، سَتَرَاهَا، وَمِثْلُ هَذَا يَبْلُغُ حَدَّ التَّوَاتُرِ.

الطَّرِيقُ الْأُولَى: عن زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ الْجُهَنِيُّ، أَنَّهُ كَانَ فِي الْجَيْشِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِينَ سَارُوا إِلَى الْخَوَارِجِ، فَقَالَ عَلِيٌّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ، يَقُولُ: **«يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»**. لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ، ﷺ، لَاتَّكَلُوا عَلَى الْعَمَلِ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ لَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ، عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ، عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ، «فَتَذْهَبُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ وَتَتْرُكُونَ هَؤُلَاءِ يَخْلُفُونَكُمْ فِي ذَرَارِيِّكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ، وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ النَّاسِ، فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ».

قَالَ سَلَمَةُ: فَنَزَّلَنِي زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ مَنْزِلًا مَنْزِلًا، حَتَّى قَالَ: مَرَرْنَا عَلَى قَنْطَرَةٍ. فَلَمَّا الْتَقَيْنَا، وَعَلَى الْخَوَارِجِ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ الرَّاسِبِيُّ، فَقَالَ لَهُمْ: أَلْقُوا الرِّمَاحَ، وَسُلُّوا سُيُوفَكُمْ مِنْ جُفُونِهَا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَاشِدُوكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَرُورَاءَ. فَرَجَعُوا فَوَحَّشُوا بِرِمَاحِهِمْ، وَسَلُّوا السُّيُوفَ، فَشَجَرَهُمُ النَّاسُ بِرِمَاحِهِمْ. قَالَ: وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَمَا أُصِيبَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إِلَّا رَجُلَانِ، قَالَ عَلِيٌّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْتَمِسُوا فِيهِمُ الْمُخْدَجَ. فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَقَامَ عَلِيٌّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِنَفْسِهِ

حَتَّى أَتَى نَاسًا قَدْ قُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَقَالَ: أَخِّرُوهُمْ. فَوَجَدُوهُ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ، فَكَبَّرَ، قَالَ: صَدَقَ اللَّهُ، وَبَلَّغَ رَسُولُهُ. قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ عَبِيدَةُ السَّلْمَانِيُّ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، آللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَسَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ ؟ فَقَالَ: إِي وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَاسْتَحْلَفَهُ ثَلَاثًا، وَهُوَ يَحْلِفُ لَهُ(١).

الطَرِيقُ الثانية: عَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ، فَلَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ، وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ، يَقُولُ: **«يَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ; فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ»** (٢).

طَرِيقٌ أُخْرَى: عَنْ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ قَالَ: سَارَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّهْرَوَانِ - وَخَرَجْنَا مَعَهُ - فَقَتَلَ الْخَوَارِجَ، فَقَالَ: اطْلُبُوا الْمُخْدَجَ ; فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ، قَالَ: **«سَيَجِيءُ قَوْمٌ يَتَكَلَّمُونَ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ لَا تُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، سِيمَاهُمْ، أَوْ فِيهِمْ، رَجُلٌ أَسْوَدُ مُخْدَجُ الْيَدِ، فِي يَدِهِ شَعَرَاتٌ سُودٌ. إِنْ كَانَ فِيهِمْ فَقَدْ قَتَلْتُمْ شَرَّ النَّاسِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ فَقَدْ قَتَلْتُمْ خَيْرَ النَّاسِ»** . فَبَكَيْنَا. قَالَ: ثُمَّ إِنَّا وَجَدْنَا الْمُخْدَجَ. قَالَ: فَخَرَرْنَا سُجُودًا، وَخَرَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَاجِدًا مَعَنَا. (٣)

[ما تسمعه من الخوارج في الانتصار للدين هو (كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ)]

طَرِيقٌ أُخْرَى: عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ; مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ، أَنَّ

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٦).

(٢) متفق عليه: خ(٣٦١١)م(١٠٦٦).

(٣) **حسن لغيره:** أخرجه أحمد (١٢٧١).

الْحَرُورِيَّةَ لَمَّا خَرَجَتْ، وَهُوَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالُوا: لَا حَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ. قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ ، وَصَفَ نَاسًا، إِنِّي لَأَعْرِفُ صِفَتَهُمْ فِي هَؤُلَاءِ «**يَقُولُونَ الْحَقَّ بِأَلْسِنَتِهِمْ لَا يَجُوزُ هَذَا مِنْهُمْ، وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ، مِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْهِ، مِنْهُمْ أَسْوَدُ إِحْدَى يَدَيْهِ طُبْيُ شَاةٍ، أَوْ حَلَمَةُ ثَدْيٍ**». فَلَمَّا قَتَلَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: انْظُرُوا. فَنَظَرُوا فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا، فَقَالَ: ارْجِعُوا فَوَاللَّهِ مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِبْتُ. مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ وَجَدُوهُ فِي خَرِبَةٍ، فَأَتَوْا بِهِ حَتَّى وَضَعُوهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ: وَأَنَا حَاضِرُ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَقَوْلِ عَلِيٍّ فِيهِمْ تَفَرَّدَ بِهِ مُسْلِمٌ. (١).

الطَرِيق [الثالثة]: عَنْ عَبِيدَةَ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذُكِرَ الْخَوَارِجُ، فَقَالَ: فِيهِمْ مُخْدَجُ الْيَدِ، أَوْ مَثْدُونُ الْيَدِ، أَوْ قَالَ: مَوْدُنُ الْيَدِ، لَوْلَا أَنْ تَبْطَرُوا لَحَدَّثْتُكُمْ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ يَقْتُلُونَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ، ﷺ . قَالَ عَبِيدَةُ: قُلْتُ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ مُحَمَّدٍ، ﷺ . قَالَ: إِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، إِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، إِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. (٢).

الطَرِيق [الرابعة]: عن عَاصِمُ بْنُ كُلَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، إِذْ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابُ السَّفَرِ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَى عَلِيٍّ وَهُوَ يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَشُغِلَ عَنْهُ فَقَالَ عَلِيٌّ: إِنِّي دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ ، وَعِنْدَهُ عَائِشَةُ فَقَالَ لِي: « **كَيْفَ أَنْتَ وَقَوْمُ كَذَا وَكَذَا؟** » . **فَقُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَقَالَ: « قَوْمٌ يَخْرُجُونَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فِيهِمْ رَجُلٌ مُخْدَجُ الْيَدِ، كَأَنَّ يَدَهُ ثَدْيُ حَبَشِيَّةٍ**» . أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ، هَلْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّهُ فِيهِمْ؟(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٦٦).

(٣) **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (١٣٩٦).

الطَرِيق [الخامسة]:قَالَ أَبُو جُحَيْفَةَ: قَالَ عَلِيٌّ حِينَ فَرَغْنَا مِنَ الْحَرُورِيَّةِ: إِنَّ فِيهِمْ رَجُلًا مُخْدَجًا لَيْسَ فِي عَضُدِهِ عَظْمٌ، ثُمَّ عَضُدُهُ كَحَلَمَةِ الثَّدْيِ ; عَلَيْهَا شَعَرَاتٌ - طِوَالٌ عُقْفٌ. فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ، قَالَ: فَمَا رَأَيْتُ عَلِيًّا جَزِعَ جَزَعًا أَشَدَّ مِنْ جَزَعِهِ يَوْمَئِذٍ. فَقَالُوا: مَا نَجِدُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: وَيْلَكُمْ، مَا اسْمُ هَذَا الْمَكَانِ؟ قَالُوا: النَهْرَوَانُ. قَالَ: كَذَبْتُمْ إِنَّهُ لَفِيهِمْ. فَثَوَّرْنَا الْقَتْلَى فَلَمْ نَجِدْهُ، فَعُدْنَا إِلَيْهِ، فَقُلْنَا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا وَجَدْنَاهُ. قَالَ: مَا اسْمُ هَذَا الْمَكَانِ؟ قُلْنَا: النَّهْرَوَانُ. قَالَ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَكَذَبْتُمْ، إِنَّهُ لَفِيهِمْ، فَالْتَمِسُوهُ. فَالْتَمَسْنَاهُ فَوَجَدْنَاهُ فِي سَاقِيَةٍ، فَجِئْنَا بِهِ فَنَظَرْتُ إِلَى عَضُدِهِ ; لَيْسَ فِيهَا عَظْمٌ، وَعَلَيْهَا كَحَلَمَةِ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، عَلَيْهَا شَعَرَاتٌ طِوَالٌ عُقْفٌ [(١)].

الطَرِيق [السادسة]: عن أَبِي كَثِيرٍ مَوْلَى الْأَنْصَارِ قَالَ: كُنْتُ مَعَ سَيِّدِي مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ قُتِلَ أَهْلُ النَّهْرَوَانِ، فَكَأَنَّ النَّاسَ وَجَدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ قَتْلِهِمْ، فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ، قَدْ حَدَّثَنَا بِأَقْوَامٍ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لَا يَرْجِعُونَ فِيهِ أَبَدًا، حَتَّى يَرْجِعَ السَّهْمُ عَلَى فُوقِهِ، وَإِنَّ آيَةَ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا أَسْوَدَ مُخْدَجَ الْيَدِ، إِحْدَى يَدَيْهِ كَثَدْيِ الْمَرْأَةِ، لَهَا حَلَمَةٌ كَحَلَمَةِ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، حَوْلَهُ سَبْعُ هَلَبَاتٍ، فَالْتَمِسُوهُ فَإِنِّي أُرَاهُ فِيهِمْ. فَالْتَمَسُوهُ، فَوَجَدُوهُ إِلَى شَفِيرِ النَّهْرِ تَحْتَ الْقَتْلَى، فَأَخْرَجُوهُ فَكَبَّرَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَإِنَّهُ لَمُتَقَلِّدٌ قَوْسًا لَهُ عَرَبِيَّةً، فَأَخَذَهَا بِيَدِهِ، فَجَعَلَ يَطْعَنُ بِهَا فِي مُخْدَجَتِهِ وَيَقُولُ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَكَبَّرَ النَّاسُ حِينَ رَأَوْهُ وَاسْتَبْشَرُوا، وَذَهَبَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَجِدُونَ. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ [(٢)].

الطَرِيق [السابعة]: عن عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ، قَالَ:

«إِنَّ قَوْمًا يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ

---

(١) **صحيح** : «السنة لعبد الله بن أحمد» (٢/ ٦٣١).
(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (٦٨٣).

تَرَاقِيَهُمْ، طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ وَقَتَلُوهُ، عَلَامَتُهُمْ رَجُلٌ مُخْدَجُ الْيَدِ» .(١)

وَأخرج أَبُو دَاوُدَ فِي " سُنَنِهِ ": عَنْ أَبِي مَرْيَمَ قَالَ: إِنْ كَانَ ذَاكَ الْمُخْدَجُ لَمَعَنَا يَوْمَئِذٍ فِي الْمَسْجِدِ، نُجَالِسُهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَكَانَ فَقِيرًا، وَرَأَيْتُهُ مَعَ الْمَسَاكِينِ يَشْهَدُ طَعَامَ عَلِيٍّ مَعَ النَّاسِ، وَقَدْ كَسَوْتُهُ بُرْنُسًا لِي. قَالَ أَبُو مَرْيَمَ: وَكَانَ الْمُخْدَجُ يُسَمَّى نَافِعًا ذَا الثُّدَيَّةِ، وَكَانَ فِي يَدِهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، عَلَى رَأْسِهِ حَلَمَةٌ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ، عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ مِثْلُ سَبَالَةِ السِّنَّوْرِ.

الطَرِيق [الثامنة]:أخرجها الْبَزَّارُ: عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ قَالَ: قُلْتُ لِشَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ - يَعْنِي أَبَا وَائِلٍ: حَدِّثْنِي عَنْ ذِي الثُّدَيَّةِ. قَالَ: لَمَّا قَاتَلْنَاهُمْ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اطْلُبُوا رَجُلًا عَلَامَتُهُ كَذَا وَكَذَا. فَطَلَبْنَاهُ فَلَمْ نَجِدْهُ، فَبَكَى عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ: اطْلُبُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِبْتُ. قَالَ: فَطَلَبْنَاهُ فَلَمْ نَجِدْهُ، فَبَكَى وَقَالَ: اطْلُبُوهُ فَوَاللَّهِ مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِبْتُ. قَالَ: فَطَلَبْنَاهُ فَلَمْ نَجِدْهُ قَالَ: وَرَكِبَ بَغْلَتَهُ الشَّهْبَاءَ، فَطَلَبْنَاهُ فَوَجَدْنَاهُ تَحْتَ بَرْدِيٍّ، فَلَمَّا رَآهُ سَجَدَ. ثُمَّ قَالَ الْبَزَّارُ: لَا نَعْلَمُ رَوَى حَبِيبٌ عَنْ شَقِيقٍ، عَنْ عَلِيٍّ إِلَّا هَذَا الْحَدِيثَ(٢).

الطَرِيق [التاسعة]: أخرجها عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ: عَنْ أَبِي الْوَضِيءِ قَالَ: شَهِدْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ قُتِلَ أَهْلُ النَّهْرَوَانِ، قَالَ: الْتَمِسُوا الْمُخْدَجَ. فَطَلَبُوهُ فِي الْقَتْلَى، فَقَالُوا: لَيْسَ نَجِدُهُ. فَقَالَ: ارْجِعُوا فَالْتَمِسُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِبْتُ. فَرَجَعُوا فَطَلَبُوهُ، فَرَدَّدَ ذَلِكَ مِرَارًا، كُلُّ ذَلِكَ يَحْلِفُ بِاللَّهِ: مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِبْتُ. فَانْطَلَقُوا فَوَجَدُوهُ تَحْتَ الْقَتْلَى فِي طِينٍ، فَاسْتَخْرَجُوهُ، فَجِيءَ بِهِ، فَقَالَ أَبُو الْوَضِيءِ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ: حَبَشِيٌّ عَلَيْهِ ثَدْيٌ قَدْ طَبَّقَ إِحْدَى يَدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، عَلَيْهَا شَعَرَاتٌ مِثْلُ

---

(١) **حسن لغيره:** أخرجه أحمد(١٣٠٢).

(٢) **إسناده حسن:** أخرجه البزار في [«مسنده البحر الزخار» (٢/ ١٨٦):]«٥٦٤».

شَعَرَاتٍ تَكُونُ عَلَى ذَنَبِ الْيَرْبُوعِ [١].

وَأخرج عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ أَيْضًا: أَنَّ أَبَا الْوَضِيءِ عَبَّادًا قَالَ: كُنَّا عَامِدِينَ إِلَى الْكُوفَةِ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا بَلَغْنَا مَسِيرَةَ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ مِنْ حَرُورَاءَ، شَذَّ مِنَّا نَاسٌ كَثِيرٌ، فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لِعَلِيٍّ فَقَالَ: لَا يَهُولَنَّكُمْ أَمْرُهُمْ، فَإِنَّهُمْ سَيَرْجِعُونَ. فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطُولِهِ قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ: إِنَّ خَلِيلِي أَخْبَرَنِي أَنَّ قَائِدَ هَؤُلَاءِ رَجُلٌ مُخْدَجُ الْيَدِ، عَلَى حَلَمَةِ ثَدْيِهِ شَعَرَاتٌ كَأَنَّهُنَّ ذَنَبُ الْيَرْبُوعِ. فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَأَتَيْنَاهُ فَقُلْنَا: إِنَّا لَمْ نَجِدْهُ فَقَالَ: فَالْتَمِسُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِبْتُ - ثَلَاثًا. فَقُلْنَا: لَمْ نَجِدْهُ. فَجَاءَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَ يَقُولُ: اقْلِبُوا ذَا، اقْلِبُوا ذَا، حَتَّى جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ فَقَالَ: هُوَ ذَا. فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا يَأْتِيكُمْ أَحَدٌ يُخْبِرُكُمْ مَنْ أَبُوهُ؟ فَجَعَلَ النَّاسُ يَقُولُونَ: هَذَا مَالِكٌ، هَذَا مَالِكٌ. فَيَقُولُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ابْنُ مَنْ هُوَ؟[٢].

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذِهِ طُرُقٌ مُتَوَاتِرَةٌ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذْ قَدْ رُوِيَ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ، عَنْ جَمَاعَةٍ مُتَبَايِنَةٍ لَا يُمْكِنُ تَوَاطُؤُهُمْ عَلَى الْكَذِبِ، فَأَصْلُ الْقِصَّةِ مَحْفُوظٌ - وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الْأَلْفَاظِ وَقَعَ فِيهَا اخْتِلَافٌ بَيْنَ الرُّوَاةِ، وَلَكِنَّ مَعْنَاهَا وَأَصْلَهَا الَّذِي تَوَاطَأَتِ الرِّوَايَاتُ عَلَيْهِ صَحِيحٌ لَا يُشَكُّ فِيهِ - عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ رَوَاهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ عَنْ صِفَةِ الْخَوَارِجِ، وَصِفَةِ ذِي الثُّدَيَّةِ الَّذِي هُوَ عَلَامَةٌ عَلَيْهِمْ. [٣]

وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ غَيْرِ عَلِيٍّ كَمَا سَتَرَاهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ.

فَقَدْ رَوَاهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ; مِنْهُمْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَرَافِعُ بْنُ

---

(١) صحيح: «أخرجه أحمد» (٢/ ٩٣)«(١١٧٩).

(٢) **صحيح:** أخرجه أحمد (٢/ ٩٧)(١١٨٩).

(٣) حذفت بعض الطرق المكررة والأحاديث التي فيها كلام وفي ما ذكر كفاية.

عَمْرٍو الْغِفَارِيُّ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَأَبُو سَعِيدٍ سَعْدُ بْنُ مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ الْأَنْصَارِيُّ، وَسَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَأَبُو ذَرٍّ، وَعَائِشَةُ - أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَقَدْ قَدَّمْنَا حَدِيثَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِطُرُقِهِ ; لِأَنَّهُ أَحَدُ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ، وَأَحَدُ الْعَشَرَةِ الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَأَحَدُ أَصْحَابِ الشُّورَى، وَصَاحِبُ الْقِصَّةِ، وَلْنَذْكُرْ بَعْدَهُ حَدِيثَ ابْنِ مَسْعُودٍ ; لِتَقَدُّمِ وَفَاتِهِ عَلَى وَقْعَةِ الْخَوَارِجِ.

الْحَدِيثُ الثَّانِي: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **«يَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، أَحْدَاثٌ - أَوْ قَالَ: حُدَثَاءُ - الْأَسْنَانِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ النَّاسِ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، لَا يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَمَنْ أَدْرَكَهُمْ فَلْيَقْتُلْهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا عِنْدَ اللَّهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ»** . أخرجه أَحْمَدُ[1] ابْنُ مَسْعُودٍ مَاتَ قَبْلَ ظُهُورِ الْخَوَارِجِ بِنَحْوٍ مَنْ خَمْسِ سِنِينَ، فَحَدِيثُهُ فِي ذَلِكَ مِنْ أَقْوَى الِاعْتِضَادِ.

الحديث الثالث والرابع : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ: **«سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي اخْتِلَافٌ وَفُرْقَةٌ ; قَوْمٌ يُحْسِنُونَ الْقِيلَ وَيُسِيئُونَ الْفِعْلَ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يَرْجِعُونَ حَتَّى يَرْتَدَّ السَّهْمُ عَلَى فُوقِهِ، هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ، طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ وَقَتَلُوهُ، يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَلَيْسُوا مِنْهُ فِي شَيْءٍ، مَنْ قَاتَلَهُمْ كَانَ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْهُمْ**

---

(١) **صحيح لغيره:** أخرجه أحمد(٤/ ٥٢)]«(٣٨٣١) وهو في الصحيح المسند (١/ ٦٤٧) (٨٣٩).

". قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا سِيمَاهُمْ؟ **قَالَ: « التَّحْلِيقُ»** أخرجه أحمد(١).

الْحَدِيثُ الخامس: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ، عَامَ الْجِعْرَانَةِ وَهُوَ يَقْسِمُ فِضَّةً فِي ثَوْبِ بِلَالٍ لِلنَّاسِ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ. فَقَالَ: **« وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدَلْ؟ ! لَقَدْ خِبْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ »** . فَقَالَ: عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَقْتُلْ هَذَا الْمُنَافِقَ. فَقَالَ: **« مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، أَوْ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ»** . (٢)

الْحَدِيثُ السَّادِسُ : أخرجه الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: «بَعَثَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ بِالْيَمَنِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ، بِذُهَيْبَةٍ فِي تُرْبَتِهَا، فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ، بَيْنَ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيِّ - ثُمَّ أَحَدِ بَنِي مُجَاشِعٍ - وَبَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ الْفَزَارِيِّ، وَبَيْنَ عَلْقَمَةَ بْنِ عُلَاثَةَ الْعَامِرِيِّ - ثُمَّ أَحَدِ بَنِي كِلَابٍ - وَبَيْنَ زَيْدِ الْخَيْرِ الطَّائِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - ثُمَّ أَحَدِ بَنِي نَبْهَانَ - قَالَ: فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ وَالْأَنْصَارُ، قَالُوا: يُعْطِي صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا؟ قَالَ: **« إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ »** . قَالَ: فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، نَاتِئُ الْجَبِينِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اتَّقِ اللَّهَ. فَقَالَ: **« مَنْ يُطِيعُ اللَّهَ إِذَا عَصَيْتُهُ! يَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَلَا تَأْمَنُونِي؟ ! »** . قَالَ: فَسَأَلَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ قَتْلَهُ النَّبِيَّ، ﷺ، - أُرَاهُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَمَنَعَهُ، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ: **« إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ**

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢١/ ٥١ ط الرسالة):] قال محققوا المسند:«إسناده عن أنس صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، وقتادة لم يسمع من أبي سعيد الخدري =وسلف بنحوه في مسند أبي سعيد الخدري برقم (١١٠١٨) من طريق أبي نضرة، عنه. **قلت**: وحديثه فيهم بنحوه في الصحيحين.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٦٣) وهذا لفظ أحمد في مسنده :(١٤٨٠٤).

الْإِسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ، لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ» . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. (١) ثُمَّ رَوَاهُ أَحْمَدُ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَفِيهِ الْجَزْمُ بِأَنَّ خَالِدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ أَنْ يَقْتُلَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، وَلَا يُنَافِي سُؤَالَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِهِ وَنَسْلِهِ ; لِأَنَّ الْخَوَارِجَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا لَمْ يَكُونُوا مِنْ سُلَالَةِ هَذَا، بَلْ وَلَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْهُمْ مِنْ نَسْلِهِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ: « مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا » . أَيْ مِنْ شَكْلِهِ وَعَلَى صِفَتِهِ فِعْلًا وَقَوْلًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَهَذَا الشَّكْلُ وَهَذِهِ الصِّفَةُ كَثِيرَةٌ فِي النَّاسِ جِدًّا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَكُلِّ مَكَانٍ، فِي قُرَّاءِ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِمْ، لِمَنْ تَأَمَّلَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَهَذَا الرَّجُلُ الْمَذْكُورُ هُوَ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيُّ، وَسَمَّاهُ بَعْضُهُمْ: حُرْقُوصًا. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ ، يَقْسِمُ قَسَمًا إِذْ جَاءَهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيُّ فَقَالَ: اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: « **وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟** » . فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَأْذَنُ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ؟ فَقَالَ: **دَعْهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَيَنْظُرُ فِي قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِي نَضِيِّهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِي رِصَافِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِي نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى يَدَيْهِ - أَوْ قَالَ: إِحْدَى ثَدْيَيْهِ - مِثْلَ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلَ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ النَّاسِ»** فَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [سورة التوبة:٥٨]. قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيًّا حِينَ قَتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ جِيءَ بِالرَّجُلِ عَلَى النَّعْتِ الَّذِي نَعَتَ رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ . أخرجه أحمد وَ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، فَذَكَرَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ ، وَأَنِّي شَهِدْتُ عَلِيًّا حِينَ قَتَلَهُمْ

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤) وهذا المذكور لفظ أحمد(١١٨٢٧).

فَالْتُمِسَ فِي الْقَتْلَى فَوُجِدَ عَلَى النَّعْتِ الَّذِي نَعَتَهُ رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ . وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١).

الْحَدِيثُ السابع: رَوَاهُ مُسْلِمٌ، عَنْ يُسَيْرِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: سَأَلْتُ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ ، يَذْكُرُ الْخَوَارِجَ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ **«قَوْمٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ بِأَلْسِنَتِهِمْ لَا يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»**.

عَنْ أُسَيْرِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ، ﷺ ، قَالَ: **«يَتِيهُ قَوْمٌ قِبَلَ الْمَشْرِقِ مُحَلَّقَةٌ رُءُوسُهُمْ»** (٢).

الْحَدِيثُ الثامن: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ ، قال: **«ينشأ نشءٌ يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج قرن قُطِعَ» ، قال ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلما خرج قرن قطع » أكثر من عشرين مرة حتى يخرج في عِراضهم الدَّجالُ»** (٣).

الْحَدِيثُ التاسع والعاشر: عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ : **«إِنَّ بَعْدِي مِنْ أُمَّتِي - أَوْ سَيَكُونُ بَعْدِي مِنْ أُمَّتِي - قَوْمٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَلَاقِيمَهُمْ، يَخْرُجُونَ مِنَ الدِّينِ، كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يَعُودُونَ فِيهِ، هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ»** قَالَ عبدالله بنُ الصَّامِتِ: فَلَقِيتُ رَافِعَ بْنَ عَمْرٍو الْغِفَارِيَّ أَخَا الْحَكَمِ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قُلْتُ: مَا حَدِيثٌ سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي ذَرٍّ كَذَا كَذَا؟ فَقَالَ: وَأَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ (٤).

وَإِنَّمَا أَوْرَدْنَا هَذِهِ الطُّرُقَ كُلَّهَا ; لِيَعْلَمَ الْوَاقِفُ عَلَيْهَا أَنْ ذَلِكَ حَقٌّ وَصِدْقٌ وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ دَلَالَاتِ النُّبُوَّةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ (٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠) ومسلم (١٠٦٤)وهذا المذكور لفظ أحمد(١١٥٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٣٤) ومسلم (١٠٦٨)واللفظ له.

(٣) **حسن:** أخرجه ابن ماجه (١٧٤).

(٤) أخرجه مُسْلِم(١٠٦٧).

(٥) «البداية والنهاية ط هجر»(٩/ ١٩٨) (٩/ ٢٠٨)بتصرف.

(ملخص معركة النهروان الفاصلة)

١- اسم المعركة : معركة النهروان.

٢- مكان المعركة : النهروان وهي «منطقة، بين بغداد وواسط، يجري فيها نهر يدعى باسمها ويصب في نهر دجلة.» [«تعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير» (١/ ٢٦٧)] .

٣- تاريخ المعركة: أكثر أهل السير على أنها سنة (٣٨هـ) وقيل سنة (٣٧هـ)

٤- الفريقان المتقاتلان :

١- أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه من المسلمين.

٢- الخوارج قبحهم الله بقيادة عبد الله بن وهب الراسبي.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما :

١- جيش أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثَمَانِيَةٌ وَسِتُّونَ أَلْفًا وَمِائَتَا فَارِسٍ (٦٨٢٠٠). وهذا الجيش كان معدًّا للشام فَبَيْنَمَا هُوَ عَازِمٌ عَلَى غَزْوِ أَهْلِ الشَّامِ إِذْ بَلَغَهُ أَنَّ الْخَوَارِجَ قَدْ عَاثُوا فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ، وَقَطَعُوا السَّبِيلَ، وَاسْتَحَلُّوا الْمَحَارِمَ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ قَتَلُوهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَبَّابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدأ بهم.

جَعَلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

١- عَلَى مَيْمَنَتِهِ حُجْرَ بْنَ عَدِيٍّ.

٢- وَعَلَى الْمَيْسَرَةِ شَبَثَ بْنَ رِبْعِيٍّ أَوْ مَعْقِلَ بْنَ قَيْسٍ الرِّيَاحِيَّ.

٣- وَعَلَى خَيَّالَتِهِ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- وَعَلَى الرَّجَّالَةِ أَبَا قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- وَعَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ - وَكَانُوا سَبْعَمِائَةٍ - قَيْسَ بْنَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٦- وَأَمَرَ عَلِيٌّ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَرْفَعَ رَايَةَ أَمَانٍ لِلْخَوَارِجِ، وَيَقُولَ لَهُمْ: مَنْ جَاءَ إِلَى هَذِهِ الرَّايَةِ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنِ انْصَرَفَ إِلَى الْكُوفَةِ وَالْمَدَائِنِ فَهُوَ

آمِنٌ، إِنَّهُ لَا حَاجَةَ لَنَا فِي دِمَائِكُمْ، إِلَّا فِي مَنْ قَتَلَ إِخْوَانَنَا. فَانْصَرَفَ مِنْهُمْ طَوَائِفُ كَثِيرُونَ، وَكَانُوا فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا أَلْفٌ - أَوْ أَقَلُّ - مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَهْبٍ الرَّاسِبِيِّ.

٢- جيش الخوارج: كانوا أربعة آلاف فلما رأوا الجد آل أمرهم إلى ألف مقاتل (١٠٠٠).

١-عَلَى مَيْمَنَتِهِمْ زَيْدَ بْنَ حُصَيْنٍ الطَّائِيَّ السِّنْبِسِيَّ.

٢- وَعَلَى الْمَيْسَرَةِ شُرَيْحَ بْنَ أَوْفَى.

٣- وَعَلَى خَيَّالَتِهِمْ حَمْزَةَ بْنَ سِنَانٍ.

٤- وَعَلَى الرَّجَّالَةِ حُرْقُوصَ بْنَ زُهَيْرٍ السَّعْدِيَّ.

٦- سبب المعركة : «بعد أن اتفق فريق علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفريق معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على التحكيم بعد القتال الذي دار في صفين وعاد كل فريق إلى مكانه الأول سار علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عائدًا إلى الكوفة وفي الطريق انحازت جماعة ممن لم يكونوا راضين عن التحكيم وكانوا يرون أن التحكيم فقط لكتاب الله لا للرجال فانصرفوا إلى حروراء وبدؤوا يبثون هذه الفكرة خارجين على علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منابذين له فأرسل إليهم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الرسل يناقشونهم لعلهم يثوبون للحق وكان من أولئك الرسل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وعاد على يديه قرابة الألفي رجل ثم سار علي بنفسه إليهم وحاججهم فرجعوا إلى الكوفة ولكنهم بقوا يقولون لا حكم إلى لله وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول كلمة حق أريد بها باطل ثم لما أراد علي الخروج للشام بعد فشل التحكيم بدأ الخوارج بالفساد فقتلوا عبدالله بن خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مع نسوة أخريات فأرسل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إليهم رسولًا فقتلوه مما اضطر عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للعودة إليهم ومقاتلتهم فطلب منهم تسليم قتلة عبدالله فأبوا وتمردوا وبدؤوا القتال فحاربهم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأبادهم في النهروان إلا اليسير الذين

بقوا بعد ذلك في الكوفة والبصرة ينشرون أفكارهم وهم متسترون»[(١)]

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- قتلى الفريقين :

❋ قتل من جيش علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تسعة رجال فقط عليهم رحمة الله، وقيل: رجلان فقط.

❋ وقتل من الخوارج نحو ألف ، وَقُتِلَ أُمَرَاؤُهُمْ ; عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ، وَحُرْقُوصُ بْنُ زُهَيْرٍ، وَشُرَيْحُ بْنُ أَوْفَى، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَجَرَةَ السُّلَمِيُّ، قَبَّحَهُمُ اللَّهُ.

٢- وقع ما أخبر به رسول الله ﷺ عنهم من صفاتهم وأعمالهم بأنهم:

١- حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ

٢- سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ

٣- يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ

٤- يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ

٥- لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ

٦- يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ

٧- دعواهم ظاهرها الحق وتناسب رأي من لا يفهم الصواب ومنها: قول ذي الخويصرة «يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ» وقولهم لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [سورة الأنعام:٥٧]. ولذلك أجابهم : **كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ**. وقال: «**يَقُولُونَ الْحَقَّ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، لَا يَجُوزُ هَذَا مِنْهُمْ وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ**» .

٨- ظاهرهم الصلاح ولذا اعتبرت استقامة المرء على منهج السلف أصلًا للتفريق بين أهل الحق والأدعياء ؛ لأن الخوارج «**قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ**

---

(١) [«الموسوعة التاريخية - الدرر السنية» (١/ ٢٠٦)].

صَلَاتِهِمْ»

وقال: يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ ».

٩- يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ ،

١٠-لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ .

١١- غالبًا ينتشرون عند انشغال المسلمين أو اختلافهم ، أو عند انهيار الدول «يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ» .

١٢- من ترسخت فيه أهواؤهم لا يوفق للتوبة غالبًا: « يَخْرُجُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ» .

١٣- هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ»

١٤- يذكرون الناس بما هم أحوج إليه: «اتَّقِ اللهَ يَا عَلِيُّ ، فَإِنَّكَ مَيِّتٌ»

١٥- قال سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيهم :« وَلَكِنَّ الْخَوَارِجَ هُمُ الْفَاسِقُونَ { الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }.

١٦- ولما رفعوا أصواتهم على العلم وأهله قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْخَوَارِجُ كِلَابُ النَّارِ» فإذا انتقد أولهم رَسُول اللهِ ﷺ ولم يستجيبوا لأمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وادعوا أنهم أعرف بالصواب منه فلا تعجب بعد ذلك من عدم قبولهم من أهل العلم بعدهم.

١٧- يبررون خروجهم على ولاة الأمر بأنهم ظلمة فهم لا يعملون بحديث أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لَا ، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ ، لَا ، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ ، أَلَا مَنْ وُلِّيَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ ، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ» ونحوه : قَالَ :عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى حَدَّثَنَا

رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ كِلَابُ النَّارِ ، قَالَ : قُلْتُ : الْأَزَارِقَةُ وَحْدَهُمْ أَوِ الْخَوَارِجُ كُلُّهَا ؟ قَالَ : بَلِ الْخَوَارِجُ كُلُّهَا ، قَالَ : قُلْتُ : فَإِنَّ السُّلْطَانَ يَظْلِمُ النَّاسَ وَيَفْعَلُ بِهِمْ وَيَفْعَلُ بِهِمْ ، قَالَ : فَتَنَاوَلَ يَدِي فَغَمَزَهَا غَمْزَةً شَدِيدَةً ، وَقَالَ : وَيْحَكَ يَا ابْنَ جُمْهَانَ عَلَيْكَ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ. وابن جمهان رجل من الصالحين إنما حكى قولهم.

١٨- اختيار أبشع القتل للخصم كما تقدم أنهم قالوا لعبد الله بن خباب وَاللَّهِ لَنَقْتُلَنَّكَ قَتْلَةً مَا قَتَلْنَاهَا أَحَدًا.

١٩- لا يرجى منهم خير للمسلمين وإنما يعرضون أنفسهم للهلاك :«كلما خرج قرن قطع » أكثر من عشرين مرة حتى يخرج في عِراضهم الدَّجالُ»

٢٠- يشتركون مع غيرهم من أهل الأهواء في التمسك بالشبه وعدم التفهم للأدلة : عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [سورة آل عمران:٧]. قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ [(١)].

٣- بقتال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لهم لا يبقى المسلم العاقل مغترًّا بمن سار على نهجهم في أزمنتنا هذه وهذا من أهم ما ننبه عليه ومن أهم ما يجعلها معركة فاصلة ، فإنهم شغلوا عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن مواصلة الفتوحات وكذلك في كل زمان هم يحولون بين المسلمين وبين نشر الحق بتصرفاتهم الرعناء وأفعالهم الشنعاء، وتلك صفاتهم التي ذكرها رَسُول اللهِ ﷺ أمامك فلا تخدعن بهم، واعلم أن الدين إنما

(١) أخرجه البخاري برقم: (٤٥٤٧) ومسلم برقم: (٢٦٦٥).

ينصر بالحق لا بالحماس الفارغ.

٤- علم أن ضعف الإسلام وعدم انتشاره من أسبابه اختلاف الناس على أمرائهم ونبذهم الأدلة وراء ظهورهم وأخذهم بالاستحسانات ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٨- خريطة موقعة النهروان:





المعركة الحادية عشرة: معركة وادي لكة وفتح الأندلس

* **تمهيد :** معركة وادي لكة أو موقعة شذونة في بلاد الأندلس و«الأندلس أو شبه جزيرة أيبريا هي الجزء الجنوبي الغربي من قارّة أوربا،وتشمل في الوقت الحاضر دولتي إسبانيا و البرتغال»(١)

كان المسلمون بقيادة طارق بن زياد البربري رحمه الله تعالى(٢) ثم لحقه موسى بن نصير رحمه الله في سنة ٩٣هـ وهو الذي بعثه(٣) ونصارى الأسبان«القوط»ومن معهم بقيادة : الملك الأذرينوق ويقال له : رذريق ورذريك.

* **سبب فتح الأندلس :** قال ابن الأثير رحمه الله تعالى في [«الكامل في التاريخ» (٤/ ٣٩ - ٤٣)](٤):«كَانَتْ عَادَةُ مُلُوكِ الْأَنْدَلُسِ أَنَّهُمْ يَبْعَثُونَ أَوْلَادَهُمُ الذُّكُورَ وَالْإِنَاثَ إِلَى مَدِينَةِ طُلَيْطِلَةَ يَكُونُونَ فِي خِدْمَةِ الْمَلِكِ، لَا يَخْدُمُهُ غَيْرُهُمْ يَتَأَدَّبُونَ بِذَلِكَ، فَإِذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ أَنْكَحَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَتَوَلَّى تَجْهِيزَهُمْ، فَلَمَّا وَلِيَ رُذَرِيقُ أَرْسَلَ

---

(١) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٢/ ١٠٦).

(٢) «هو طارق بن زياد بن عبد الله طارق بن زياد النَّفْزاويّ البربريّ من إفْرِيقِيَّة مولى لموسى بن نُصَيْر من سبي البربر أسلم والد طارق أيام عُقْبة بن نافع الفِهْريّ ويبدو أنّ جدّ طارق، وهو عبد الله، كان مسلماً، بدليل اسمه العربي الإسلاميّ، مما يدلّ على أن طارقاً ولد في بيت إسلامي وترعرع في هذا البيت وشبّ في مجتمع إسلاميّ [«قادة فتح الأندلس» (١/ ٢١٦):] «كان [طارق] رجلًا طويلًا أشقر وكان طارق جنديًا عظيمًا ظهر في غزوات المغرب بفائق شجاعته وبراعته، وقدر موسى مواهبه ومقدرته واختاره لحكم طنجة وما يليها، وهي يومئذ أخطر بقاع المغرب الأقصى وأشدها اضطربا، ثم اختاره لفتح الأندلس» «دولة الإسلام في الأندلس» (١/ ٤١).

(٣) مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ اللَّخْمِيُّ مَوْلَاهُمْ وَكَانَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ هَذَا ذَا رَأْيٍ وَتَدْبِيرٍ وَحَزْمٍ وَخِبْرَةٍ بِالْحَرْبِ، وسنذكر نبذة عنه في آخر هذه المعركة إن شاء الله تعالى.

(٤) هذا المرجع هو الأصل في مادة هذه الغزوة وما عدا ذلك نحيل إليه إن شاء الله تعالى.

إِلَيْهِ يُولْيَانُ، وَهُوَ صَاحِبُ الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ وَسَبْتَةَ وَغَيْرِهِمَا، ابْنَةً لَهُ، فَاسْتَحْسَنَهَا رُذَرِيقُ وَافْتَضَّهَا، فَكَتَبَتْ إِلَى أَبِيهَا، فَأَغْضَبَهُ ذَلِكَ، فَكَتَبَ إِلَى مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ عَامِلِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَى إِفْرِيقِيَّةَ بِالطَّاعَةِ، وَاسْتَدْعَاهُ إِلَيْهِ، فَسَارَ إِلَيْهِ فَأَدْخَلَهُ يُولْيَانُ مَدَائِنَهُ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ الْعُهُودَ لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ بِمَا يَرْضَى بِهِ، ثُمَّ وَصَفَ لَهُ الْأَنْدَلُسَ وَدَعَاهُ إِلَيْهَا،[وحسنها لهم لينتقم بهم] وَذَلِكَ آخِرُ سِنَةِ تِسْعِينَ. «وكان ميناء سبته هو أقرب المدن إليها، وكان حاكمها هو الكونت يوليان [هذا]» [(١)].

فَكَتَبَ مُوسَى إِلَى الْوَلِيدِ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ يُولْيَانُ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْوَلِيدُ: خُضْهَا بِالسَّرَايَا، وَلَا تُغَرِّرْ بِالْمُسْلِمِينَ فِي بَحْرٍ شَدِيدِ الْأَهْوَالِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُوسَى: إِنَّهُ لَيْسَ بِبَحْرٍ مُتَّسِعٍ، وَإِنَّمَا هُوَ خَلِيجٌ يَبِينُ مَا وَرَاءَهُ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْوَلِيدُ أَنِ اخْتَبِرْهَا بِالسَّرَايَا، وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا حَكَيْتَ».

تمهيد بين يدي الفتح

«بَعَثَ موسى رَجُلًا مِنْ مَوَالِيهِ يُقَالُ لَهُ طَرِيفٌ[(٢)] فِي أَرْبَعِمِائَةِ رَجُلٍ وَمَعَهُمْ مِائَةُ فَرَسٍ، فَسَارَ فِي أَرْبَعِ سَفَائِنَ، فَخَرَجَ فِي جَزِيرَةٍ بِالْأَنْدَلُسِ، فَسُمِّيَتْ جَزِيرَةُ طَرِيفٍ لِنُزُولِهِ فِيهَا، ثُمَّ أَغَارَ عَلَى الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ، فَأَصَابَ غَنِيمَةً كَثِيرَةً، وَرَجَعَ سَالِمًا فِي رَمَضَانَ سَنَةَ إِحْدَى وَتِسْعِينَ؛ فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ تَسَارَعُوا إِلَى الْغَزْوِ.

ثُمَّ إِنَّ مُوسَى دَعَا مَوْلًى لَهُ كَانَ عَلَى مُقَدِّمَاتِ جُيُوشِهِ يُقَالُ لَهُ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ، فَبَعَثَهُ فِي سَبْعَةِ آلَافٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَكْثَرُهُمُ الْبَرْبَرُ وَالْمُوَالِي وَأَقَلُّهُمُ الْعَرَبُ، فَسَارُوا فِي الْبَحْرِ«وعبر المضيق الذى يفصل بين الساحل المغربي والساحل الأندلسي» [(٣)] وَقَصَدَ إِلَى جَبَلٍ مُنِيفٍ، وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالْبَرِّ فَنَزَلَهُ، فَسُمِّيَ الْجَبَلُ جَبَلَ طَارِقٍ إِلَى الْيَوْمِ وَكَانَ

---

(١) «الموسوعة التاريخية – الدرر السنية» (١/ ٣٣٧).

(٢) هو«طريف بن مالك" الملقب بأبي زرعة، وهو مسلم بربري، ويقال إنه من أصل عربي ينتسب إلى قبيلة "معافر" أو "نخع" اليمنية » «موجز عن الفتوحات الإسلامية» (ص٩٤).

(٣) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٢/ ١٠٦).

حُلُولُ طَارِقٍ فِيهِ فِي رَجَبٍ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ. وَلَمَّا رَكِبَ طَارِقٌ الْبَحْرَ غَلَبَتْهُ عَيْنُهُ، فَرَأَى النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ قَدْ تَقَلَّدُوا السُّيُوفَ وَتَنَكَّبُوا الْقِسِيَّ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: يَا طَارِقُ تَقَدَّمْ لِشَأْنِكَ. وَأَمَرَهُ بِالرِّفْقِ بِالْمُسْلِمِينَ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، فَنَظَرَ طَارِقٌ فَرَأَى النَّبِيَّ ﷺ، وَأَصْحَابَهُ قَدْ دَخَلُوا الْأَنْدَلُسَ أَمَامَهُ، فَاسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ مُسْتَبْشِرًا، وَبَشَّرَ أَصْحَابَهُ، وَقَوِيَتْ نَفْسُهُ، وَلَمْ يَشُكَّ فِي الظَّفَرِ.«وتجمع المسلمون عند الجبل وأقام طارق بتلك المنطقة عدة أيام، بنى خلالها سورًا أحاط بجيوشه سمَّاه «سور العرب»، كما أقام قاعدة عسكرية بجوار الجبل على الساحل؛ لحماية ظهره في حالة اضطراره إلى الانسحاب، وهي مدينة الجزيرة الخضراء، أو جزيرة «أم حكيم»، نسبة إلى جارية كان طارق قد حملها معه، ثم تركها في هذا المكان، وهذا الميناء يسهل اتصاله بميناء «سبتة» المغربي،على حين يصعب اتصاله بإسبانيا لوجود مرتفعات بينهما، ولم يكتفِ طارق بذلك، بل أقام قاعدة أمامية أخرى وبنى حصنًا، وطلب من«يوليان» ومن معه من الجند حراسة هذا الموضع وحمايته من كل هجوم منتظر. ثم واصل «طارق» السير جنوبًا حتى بلغ الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة، ومشى في محاذاته، وعبر نهرًا صغيرًا يسمى «وادى لكة»، وأقام معسكره في منطقة واسعة يحدها من الشرق «وادى لكة»، ومن الغرب «وادى البرباط»، وهى منطقة سهلية واسعة تكثر فيها المدن، مثل: «قادش» على البحر، وإلى جوارها من الداخل مدينة «شريش»، وفي الشمال على الطريق إلى قرطبة مدينة شذونة (سيدونيا)، وفي ذلك السهل الواسع أخذ طارق ينظم قواته ويرتب لمعركته انتظارًا للقاء القوط[1].

وَلَمَّا بَلَغَ رُذَرِيقُ غَزْوَ طَارِقٍ بِلَادَهُ عَظُمَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَكَانَ غَائِبًا فِي غَزَاةٍ له، فَرَجَعَ مِنْهَا وَطَارِقٌ قَدْ دَخَلَ بِلَادَهُ، فَجَمَعَ لَهُ جَمْعًا يُقَالُ بَلَغَ مِائَةَ أَلْفٍ، فَلَمَّا بَلَغَ طَارِقًا الْخَبَرُ

(١) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٧/ ٣).

كَتَبَ إِلَى مُوسَى يَسْتَمِدُّهُ وَيُخْبِرُهُ بِمَا فَتَحَ، وَأَنَّهُ زَحَفَ إِلَيْهِ مَلِكُ الْأَنْدَلُسِ بِمَا لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِخَمْسَةِ آلَافٍ«مقاتلٍ معظمهم من العرب»(١) فَتَكَامَلَ الْمُسْلِمُونَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، وَمَعَهُمْ يُولْيَانُ يَدُلُّهُمْ عَلَى عَوْرَةِ الْبِلَادِ، وَيَتَجَسَّسُ لَهُمُ الْأَخْبَارَ. فَأَتَاهُمْ رُذَرِيقُ فِي جُنْدِهِ، فَالْتَقَوْا عَلَى نَهْرِ لَكَّةَ مِنْ أَعْمَالِ شَذُونَةَ«جنوب غربي إسبانيا»(٢) [يَوْم الْأَحَد] لِلَيْلَتَيْنِ بَقِيَتَا مِنْ رَمَضَانَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ، وَاتَّصَلَتِ الْحَرْبُ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ «إِلَى يَوْم الْأَحَد لخمس خلون من شَوَّال ثمَّ هزم الله الْمُشْركين فَقتل مِنْهُم خلق عَظِيم أَقَامَت عظامهم ملبّسة لتِلْك الأَرْض دهرًا طَوِيلا»(٣) ولم يكن بالمغرب مقتلة قطّ أكثر منها(٤) وَكَانَ عَلَى مَيْمَنَة رُذَرِيق وَمَيْسَرَتِهِ وَلَدَا الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ«إيفا وسيزبوت »(٥) وَغَيْرُهُمَا مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ، وَاتَّفَقُوا عَلَى الْهَزِيمَةِ بُغْضًا لِرُذَرِيقَ، وَقَالُوا: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ إِذَا امْتَلَأَتْ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ عَادُوا إِلَى بِلَادِهِمْ وَبَقِيَ الْمُلْكُ لَنَا. فَانْهَزَمُوا وَهَزَمَ اللَّهُ رُذَرِيقَ وَمَنْ مَعَهُ، وَغَرِقَ فِي النَّهْرِ، [وقيل]: «فر من أرض المعركة، وتبعه المسلمون حتى أدركوه وقتلوه بالقرب من بلدة لورقة»(٦).

ماذا بعد المعركة

* سَارَ طَارِقٌ«فاتجه إلى الشمال»(٧) إِلَى مَدِينَةِ **إِسْتِجَةَ** مُتَّبِعًا لَهُمْ، فَلَقِيَهُ أَهْلُهَا وَمَعَهُمْ مِنَ الْمُنْهَزِمِينَ خَلْقٌ كَثِيرٌ، فَقَاتَلُوهُ قِتَالًا شَدِيدًا، ثُمَّ انْهَزَمَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ، وَلَمْ يَلْقَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَهَا حَرْبًا مِثْلَهَا. وَنَزَلَ طَارِقٌ عَلَى عَيْنٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَدِينَةِ إِسْتِجَةَ أَرْبَعَةُ أَمْيَالٍ، فَسُمِّيَتْ عَيْنُ طَارِقٍ إِلَى الْآنِ وَلَمَّا سَمِعَتِ الْقُوطُ بِهَاتَيْنِ الْهَزِيمَتَيْنِ قَذَفَ

---

(١) «الموسوعة التاريخية – الدرر السنية» (١/ ٣٣٧).
(٢) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٧/ ٤).
(٣) «الحلة السيراء» (٢/ ٣٣٣).
(٤) «فتوح مصر والمغرب» (ص٢٣٥).
(٥) «دولة الإسلام في الأندلس» (١/ ٤٤).
(٦) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٧/ ٤).
(٧) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٧/ ٤).

اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ يَفْعَلُ فِعْلَ طَرِيفٍ، فَهَرَبُوا إِلَى **طُلَيْطِلَةَ** «وكانت تبعد عن أرض المعركة بنحو ستمائة كيلومتر، وكلها جبال ووديان ومضايق عسيرة» (١) ولَمَّا دَخَلُوا إِسْتِجَةَ ، وَأَخْلَوْا مَدَائِنَ الْأَنْدَلُسِ قَالَ لَهُ يُولْيَانُ: قَدْ فَرَغْتَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ، فَفَرِّقْ جُيُوشَكَ وَسِرْ أَنْتَ إِلَى طُلَيْطِلَةَ. فَفَرَّقَ جُيُوشَهُ مِنْ مَدِينَةِ إِسْتِجَةَ.

* فبَعَثَ جَيْشًا إِلَى **قُرْطُبَةَ** «مع مغيث الرومي غلام الوليد بن عبد الملك [في سبعمائة فارس] وكان على خيل طارق»(٢) «ففتحها وكانت آنئذ معسكرًا رومانيًا قديمًا يقع على ضفة نهر الوادي الكبير وعندها بُنيت قنطرة حجرية على النهروأثبت «طارق» بهذا التصرف أنه على خبرة واسعة بشئون الحرب وفنون القتال، لأن السيطرة على هذه القنطرة تيسّر له طريق العود»(٣).

* وبَعَثَ جَيْشًا إِلَى **غَرْنَاطَةَ**، [وَجَيْشًا إلى **إلبيرة**]وَجَيْشًا إِلَى **مَالِقَةَ**، وَجَيْشًا إِلَى **تُدْمِيرَ**، وَسَارَ هُوَ وَمُعْظَمُ الْجَيْشِ إِلَى جَيَّانَ يُرِيدُ **طُلَيْطِلَةَ**. فَلَمَّا بَلَغَ طُلَيْطِلَةَ وَجَدَهَا خَالِيَةً، وَقَدْ لَحِقَ مَنْ كَانَ بِهَا بِمَدِينَةٍ خَلْفَ الْجَبَلِ يُقَالُ لَهَا: مَايَةَ. فَأَمَّا الْجَيْشُ الَّذِي سَارَ إِلَى قُرْطُبَةَ فَإِنَّهُمْ دَهَّمْ رَاعٍ عَلَى ثَغْرَةٍ فِي سُورِهَا، فَدَخَلُوا مِنْهَا الْبَلَدَ وَمَلَكُوهُ.

* وَأَمَّا الَّذِينَ قَصَدُوا شرقًا إلى تُدْمِيرَ فَلَقِيَهُمْ صَاحِبُهَا، وَاسْمُهُ تُدْمِيرُ وَبِهِ سُمِّيَتْ، وَكَانَ اسْمُهَا أَرْوَيُولَةَ،«وهي ولاية **مرسية**»(٤)وَكَانَ مَعَهُ جَيْشٌ كَثِيفٌ، فَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا، ثُمَّ انْهَزَمَ فَقُتِلَ مِنْ أَصْحَابِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، فَأَمَرَ تُدْمِيرُ النِّسَاءَ، فَلَبِسْنَ السِّلَاحَ، ثُمَّ صَالَحَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهَا، وَفَتَحَ سَائِرُ الْجُيُوشِ مَا قَصَدُوا إِلَيْهِ مِنَ الْبِلَادِ.

---

(١) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٧/ ٤).
(٢) «فتوح مصر والمغرب» (ص٢٣٤).
(٣) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٧/ ٤).
(٤) «دولة الإسلام في الأندلس» (١/ ٥٠).

* وَأَمَّا طَارِقٌ، فَلَمَّا رَأَى طُلَيْطِلَةَ فَارِغَةً ضَمَّ إِلَيْهَا الْيَهُودَ، وَتَرَكَ مَعَهُمْ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِهِ،«وكان القوط قد فروا منها نحو الشمال بأموالهم وآثار قديسيهم» (١)

* وَسَارَ هُوَ إِلَى وَادِي الْحِجَارَةِ، فَقَطَعَ الْجَبَلَ مِنْ فَجٍّ فِيهِ، فَسُمِّيَ بِفَجِّ طَارِقٍ إِلَى الْيَوْمِ. وَانْتَهَى إِلَى مَدِينَةٍ خَلْفَ الْجَبَلِ تُسَمَّى مَدِينَةَ الْمَائِدَةِ«بقلعة يقال لها فراس، مسيرة يومين من طليطلة، وعلى القلعة ابن أخت للذريق، فبعث إليه طارق بأمانه وأمان أهل بيته، فنزل إليه فأمّنه ووفّى له»(٢) وَفِيهَا وَجَدَ مَائِدَةَ مِنْ زَبَرْجَدٍ خُضْرٍ، حَافَّاتُهَا وَأَرْجُلُهَا مِنْهَا مُكَلَّلَةٌ بِاللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ وَالْيَاقُوتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَكَانَ لَهَا ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ رِجْلًا.«فقوّمت المائدة بمائتى ألف دينار لما فيها من الجوهر، وأخذ طارق ما كان عنده من الجوهر والسلاح والذهب والفضّة والآنية، وأصاب سوى ذلك من الأموال ما لم ير مثله، فحوى ذلك كلّه(٣)».

* ثُمَّ مَضَى إِلَى مَدِينَةِ **مَايَةَ**، فَغَنِمَ مِنْهَا وَرَجَعَ إِلَى طُلَيْطِلَةَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ. وَقِيلَ: اقْتَحَمَ أَرْضَ **جِلِّيقِيَّةَ**، فَخَرَقَهَا حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَدِينَةِ **إِسْتَرْقَةَ** «[هكذا] تابع طارق زحفه شمالًا، فاخترق **قشتالة** ثم **ليون** في وهاد ومفاوز صعبة، وطارد فلول القوط حتى **إسترقة**؛ فلجأت إلى قاصية **جليقية** واعتصمت بجبالها الشامخة. وعبر طارق جبال **أشتوريش (أستورياس)** واستمر في سيره حتى أشرف على **ثغر خيخون** الواقع على خليج **بسكونية (غسقونية)** فكان خاتمة زحفه ونهاية فتوحاته، ورده عباب المحيط عن التقدم فعاد إلى طليطلة حيث تلقى أوامر موسى بوقف الفتح.وكان ذلك لعام فقط من عبوره إلى إسبانيا»(٤) فلما انْصَرَفَ إِلَى طُلَيْطِلَةَ وَافَتْهُ جُيُوشُهُ الَّتِي وَجَّهَهَا مِنْ إِسْتِجَةَ بَعْدَ فَرَاغِهِمْ مِنْ فَتْحِ تِلْكَ الْمُدُنِ الَّتِي سَيَّرَهُمْ إِلَيْهَا.

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (١/ ٥١).
(٢) «فتوح مصر والمغرب» (ص٢٣٤).
(٣) «فتوح مصر والمغرب» (ص٢٣٥).
(٤) «دولة الإسلام في الأندلس» (١/ ٥١).

* وَدَخَلَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ الْأَنْدَلُسَ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ فِي جَمْعٍ كَثِيرٍ «قوامه ثمانية عشر ألفاً»(١) ، فَلَمَّا عَبَرَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَنَزَلَ الْجَزِيرَةَ الْخَضْرَاءَ ، فَقَالَ لَهُ الْأَدِلَّاءُ: نَحْنُ نَدُلُّكَ عَلَى طَرِيقٍ ، وَمَدَائِنَ لَمْ تُفْتَحْ بَعْدُ، وَوَعَدَهُ يُولْيَانُ بِفَتْحٍ عَظِيمٍ، فَسُرَّ بِذَلِكَ،فَسَارُوا بِهِ إِلَى مَدِينَةِ **ابْنِ السُّلَيْمِ(شذونة)** فَافْتَتَحَهَا عَنْوَةً.

* ثُمَّ سَارَ إِلَى مَدِينَةِ **قَرْمُونَةَ**، وَهِيَ أَحْصَنُ مُدُنِ الْأَنْدَلُسِ، فَقَدِمَ إِلَيْهَا يُولْيَانُ وَخَاصَّتُهُ، فَأَتَوْهُمْ عَلَى حَالِ الْمُنْهَزِمِينَ مَعَهُمُ السِّلَاحُ، فَأَدْخَلُوهُمْ مَدِينَتَهُمْ، فَأَرْسَلَ مُوسَى إِلَيْهِمُ الْخَيْلَ، فَفَتَحُوهَا لَهُمْ لَيْلًا، فَدَخَلَهَا الْمُسْلِمُونَ وَمَلَكُوهَا.

* ثُمَّ سَارَ مُوسَى إِلَى **إِشْبِيلِيَّةَ**، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ مَدَائِنِ الْأَنْدَلُسِ بُنْيَانًا وَأَعَزِّهَا آثَارًا، فَحَصَرَهَا أَشْهُرًا، وَفَتَحَهَا وَهَرَبَ مَنْ بِهَا، فَأَنْزَلَهَا مُوسَى الْيَهُودَ، وَسَارَ إِلَى مَدِينَةٍ مَارِدَةَ فَحَصَرَهَا، وَقَدْ كَانَ أَهْلُهَا خَرَجُوا إِلَيْهِ فَقَاتَلُوهُ قِتَالًا شَدِيدًا، فَكَمِنَ لَهُمْ مُوسَى لَيْلًا فِي مَقَاطِعِ الصَّخْرِ، فَلَمْ يَرَهُمُ الْكُفَّارُ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا زَحَفَ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجُوا إِلَى الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَادَتِهِمْ، فَخَرَجُوا عَلَيْهِمْ مِنَ الْكَمِينِ وَأَحْدَقُوا بِهِمْ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَلَدِ، وَقَتَلُوهُمْ قَتْلًا ذَرِيعًا، وَنَجَا مَنْ نَجَا مِنْهُمْ، فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ، وَكَانَتْ حَصِينَةً، فَحَصَرَهُمْ بِهَا أَشْهُرًا، وَقَاتَلَهُمْ، وَزَحَفَ إِلَيْهِمْ بِدَبَّابَةٍ عَمِلَهَا وَنَقَبُوا سُورَهَا، فَخَرَجَ أَهْلُهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَتَلُوهُمْ عِنْدَ الْبُرْجِ، فَسُمِّيَ بُرْجَ الشُّهَدَاءِ إِلَى الْيَوْمِ، ثُمَّ افْتَتَحَهَا آخِرَ رَمَضَانَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ يَوْمَ الْفِطْرِ صُلْحًا عَلَى أَنَّ جَمِيعَ أَمْوَالِ الْقَتْلَى يَوْمَ الْكَمِينِ وَأَمْوَالَ الْهَارِبِينَ إِلَى جِلِّيقِيَّةَ وَأَمْوَالَ الْكَنَائِسِ وَحُلِيَّهَا لِلْمُسْلِمِينَ.ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ إِشْبِيلِيَّةَ اجْتَمَعُوا وَقَصَدُوهَا، فَقَتَلُوا مَنْ بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَسَيَّرَ مُوسَى إِلَيْهَا ابْنَهُ عَبْدَ الْعَزِيزِ بِجَيْشٍ، فَحَصَرَهَا وَمَلَكَهَا عَنْوَةً، وَقَتَلَ مَنْ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، وَسَارَ عَنْهَا إِلَى **لَبْلَة** «في الغرب، وهى الآن مدينة برتغالية **وَبَاجَةَ**، و «**أكشونبة**» وهى تكوِّن النصف الجنوبي من البرتغال الآن، ثم وصل المسلمون إلى

(١) «الموسوعة التاريخية – الدرر السنية» (١/ ٣٣٧).

ساحل المحيط الأطلسي من تلك الناحية وَعَادَوا إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ»[١].

* وَسَارَ مُوسَى مِنْ مَدِينَةِ **مَارِدَةَ** فِي شَوَّالٍ يُرِيدُ طُلَيْطِلَةَ، فَخَرَجَ طَارِقٌ إِلَيْهِ فَلَقِيَهُ، فَلَمَّا أَبْصَرَهُ نَزَلَ إِلَيْهِ، وَوَبَّخَهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خِلَافِهِ، «فترضّاه، وقال له: إنما أنا مولاك، وهذا الفتح لك، فجمع موسى من الأموال ما لا يقدر على صفته، ودفع طارق كلّ ما كان غنم إليه[٢]» [حين] سَارَ بِهِ إِلَى مَدِينَةِ طُلَيْطِلَةَ،وأَتَاهُ بِالْمَائِدَةَ وَقَدِ انْتَزَعَ رِجْلًا مِنْ أَرْجُلِهَا، فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي، كَذَلِكَ وَجَدْتُهَا، فَعَمِلَ عِوَضَهَا مِنْ ذَهَبٍ[٣].

* وَسَارَ مُوسَى إِلَى **سَرَقُسْطَةَ** وَمَدَائِنِهَا، فَافْتَتَحَهَا وَأَوْغَلَ فِي بِلَادِ الْفِرِنْجِ ثم أرسل رسولين هما «علي بن رباح اللخمي»، و «مغيث الرومي» إلى الخليفة «الوليد بن عبد الملك» يحملان إليه نبأ الفتح العظيم، وطرفًا من الذخائر والتحف التى غنمها المسلمون وسَرَقُسْطَةَ ناحية الشمال الشرقي وهي مفتاح منطقة «وادي أبرة» كلها ونجح في الاستيلاء عليها، ثم قام «حنش بن عبدالله الصنعاني» وهو من التابعين الذى قدموا في جيش «موسى بن نصير» قام باختطاط جامع سرقسطة، الذى أصبح واحدًا من أكبر مساجد الأندلس.

* ثم فتح «موسى» مدينة **«وشقة»**، وأتبعها فتح مدينة **«لاردة»** سالكًا بجيشه الطريق الرومانى الكبير «المبلط» المسمى بالطريق القيصري «ثم اتفق القائدان العظيمان على استكمال فتح «الأندلس»، فاتجه كل منهما إلى ناحية فأخذ «طارق بن زياد» طريقه إلى الشمال الشرقي، فواصل طارق السير مع الطريق القيصري، على حين سار موسى في اتجاه الشمال الغربي، حتى وصل إلى خليج بسكاي عند «**خيخون**».وقد نجح «طارق» في إخضاع منطقة «**أراجون**»، ثم اتجه غربًا ليلحق

---

(١) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٧/ ٥- ٦).
(٢) «فتوح مصر والمغرب» (ص٢٣٥).
(٣) وكان طارق قد خبأها ولم يظهرها إلا بين يدي الخليفة.

بموسى، فاستولى على بعض الحصون، ونجح الاثنان في غضون عامين من (٩٣ - ٩٥هـ) في فتح معظم «شبه الجزيرة الأيبرية»، عدا منطقة جبلية في أقصى الشمال الغربي، استعصت عليهم، أو لم يحفلوا بها، ولم يدروا أنها ستكون فيما بعد البؤرة التي ستنمو فيها المقاومة النصرانية، وهي شراذم يسيرة اجتمعت حول زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايو، ولجأت إلى قاصية جليقية، وبدأ موسى بن نصير في ممارسة عمله، باعتباره أول مسلم يحكم قطرًا أوربيًّا، فأمر بضرب عملة إسلامية، مكتوب على أحد وجهيها شهادة أن لا إله إلا الله، وعلى الوجه الآخر ضربت في إسبانيا [١].

[ولما] رَجَعَ [موسى من سرقسطة] وَافَاهُ رَسُولُ الْوَلِيدِ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَأْمُرُهُ بِالْخُرُوجِ عَنِ الْأَنْدَلُسِ وَالْقُفُولِ إِلَيْهِ فَسَاءَهُ ذَلِكَ وَمَطَلَ الرَّسُولَ، وَهُوَ يَقْصِدُ بِلَادَ الْعَدُوِّ ، يَقْتُلُ، وَيَسْبِي، وَيَهْدِمُ الْكَنَائِسَ، وَيُكَسِّرُ النَّوَاقِيسَ، حَتَّى بَلَغَ صَخْرَةَ بِلَايْ عَلَى الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ، وَهُوَ فِي قُوَّةٍ وَظُهُورٍ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ رَسُولٌ آخَرُ لِلْوَلِيدِ يَسْتَحِثُّهُ، وَأَخَذَ بِعِنَانِ بَغْلَتِهِ وَأَخْرَجَهُ، وَكَانَ مُوَافَاةُ الرَّسُولِ بِمَدِينَةٍ لَكَّ بِجِلِّيقِيَّةَ، وَخَرَجَ عَلَى الْفَجِّ الْمَعْرُوفِ بِفَجِّ مُوسَى، وَوَافَاهُ طَارِقٌ مِنَ الثَّغْرِ الْأَعْلَى، فَأَقْفَلَهُ مَعَهُ وَمَضَيَا جَمِيعًا «واتخذا إشبيلية عاصمة للمسلمين؛ لموقعها وقربها من البحر»[٢].

قدر الله وما شاء فعل

«فكر القائد الجريء [موسى بن نصير] في أن يخترق بجيشه جميع أوربا غازياً فاتحًا، وأن يصل إلى الشام من طريق قسطنطينية، وأن يفتتح في طريقه أمم النصرانية والفرنجة كلها. وهو ما يجمله ابن خلدون في تلك العبارة القوية: "وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس، ويخوض مابينها من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم، مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار

(١) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٢/ ١٠٧)و(٧/ ٦) ودولة الإسلام في الأندلس (١/ ٥٤).
(٢) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٧/ ٧).

الخلافة ". وكان موسى يقدر تنفيذ مشروعه العظيم بجيش ضخم يقتحم البرنيه، يؤيده من البحر أسطول قوي، فيبدأ بافتتاح مملكة الفرنج ثم يقصد إلى مملكة اللومبارد في شمالي إيطاليا، فيخترقها فاتحًا إلى رومة قاعدة النصرانية، فيفتتحها ويقضي فيها على كرسي النصرانية. ويتابع سيره بعدئذ شرقاً إلى سهول الدانواب مثخنًا في القبائل الجرمانية التي تسيطر على ضفافه، ثم يخترق أراضي الدولة البيزنطية حتى قسطنطينية فيستولي عليها، ثم يعبر إلى آسيا الصغرى قاصدًا إلى دمشق فيصل بذلك أملاك الخلافة الإسلامية فيما بين المشرق والمغرب من طريق الشمال، كما اتصلت من طريق الجنوب ولكن كتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى يحذره من التوغل بالمسلمين في دروب مجهولة، ويأمره بالعود، فارتد موسى آسفًا ولم يبق من النصارى سوى شراذم يسيرة اجتمعت حول زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايو، ولجأت إلى قاصية جليقية وبينما كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها، إذ وصله الكتاب الآخر من دمشق يستدعيه وطارقًا، ويأمرهما بتعجيل العودة ولعل أقوى البواعث التي حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما نمى إليه من خلاف موسى وطارق، وخوفه أن ينتهي هذا الخلاف، بتفرق كلمة المسلمين ونكبتهم في تلك الأقطار الجديدة المجهولة التي افتتحوها. أو لعله خوف الوليد أن يفكر موسى بما عرف من دهائه، في الاستقلال بذلك الملك الجديد النائي، وهو أفضل تعليل يقبله النقد الحديث ويرجحه. وربما كان من هذه البواعث أيضًا ما بلغ الوليد عن وفرة الأموال والتحف التي اغتنمت من الأندلس، وخوفه أن تمتد إليها يد التبديد. ومهما كانت العوامل التي دفعت، الوليد إلى استدعاء فاتحي الأندلس، فلا ريب أنه كان خطرًا على مستقبل الإسلام في إسبانيا. ذلك أن هذه الشراذم النصرانية الصغيرة التي نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقية، لم تلبث أن نمت وقويت، وكانت منشأ المملكة النصرانية التي قامت في الشمال، ولبثت قرونا تكافح دولة

الإسلام في إسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها»[١].

«وكان المسلمون لمّا رأوهم قالوا: ثلاثون علجًا ما عسى أن يكون أمرهم واحتقروهم ثم بلغ أمرهم إلى أمر عظيم»[٢].

سعة مملكة لذريق التي صارت للمسلمين وذكر بعض ما غنموه فيها.

«كان لذريق يملك ألفي ميل من الساحل إلى ما وراء ذلك، وأصاب الناس غنائم كثيرة من الذهب والفضّة. قالوا: إن كانت الطنفسة لتوجد منسوجة بقضبان الذهب تنظم السلسلة من الذهب باللؤلؤ والياقوت والزّبرجد، وكان البربر ربما وجدوها فلا يستطيعون حملها حتى يأتوا بالفأس، فيضرب وسطها، فيأخذ أحدهما نصفها والآخر نصفها لأنفسهم، وتسير معهم جماعة والناس مشتغلون بغير ذلك.

وكتب موسى بن نصير حين فتح الأندلس إلى [الوليد بن] عبد الملك: إنها ليست بالفتوح، ولكنّه الحشر»[٣]« وأَرْسَلَ إِلى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَرْبَعِينَ أَلْفَ رَأْسٍ من السبي وَهِيَ خُمُسُ مَا غَنِمَ، وَلَمْ يُسْمَعْ فِي الْإِسْلَامِ بِمِثْلِ سَبَايَا مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ»[٤] وَاسْتَخْلَفَ مُوسَى عَلَى الْأَنْدَلُسِ ابْنَهُ عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنَ مُوسَى، فَلَمَّا عَبَرَ الْبَحْرَ إِلَى سَبْتَهَ اسْتَخْلَفَ عَلَيْهَا وَعَلَى طَنْجَةَ وَمَا وَالَاهُمَا ابْنَهُ عَبْدَ الْمَلِكِ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى إِفْرِيقِيَّةَ وَأَعْمَالِهَا ابْنَهُ الْكَبِيرَ عَبْدَ اللَّهِ، وَسَارَ إِلَى الشَّامِ، وَحَمَلَ الْأَمْوَالَ الَّتِي غُنِمَتْ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَالذَّخَائِرَ وَالْمَائِدَةَ، وَمَعَهُ ثَلَاثُونَ أَلْفَ بِكْرٍ مِنْ بَنَاتِ مُلُوكِ الْقُوطِ وَأَعْيَانِهِمْ، وَمِنْ نَفِيسِ الْجَوْهَرِ وَالْأَمْتِعَةِ مَا لَا يُحْصَى فَهَذَا الْقَدْرُ كَافٍ فِي فَتْحِ الْأَنْدَلُسِ» «وَكَانَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ هَذَا ذَا رَأْيٍ وَتَدْبِيرٍ وَحَزْمٍ وَخِبْرَةٍ بِالْحَرْبِ فَافْتَتَحَ بِلَادًا كَثِيرَةً. وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ افْتَتَحَ بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ، وَهِيَ بِلَادٌ ذَاتُ مُدُنٍ وَقُرًى وَرِيفٍ،

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (١/ ٥٣- ٥٥) بتصرف.وابن خلدون (٤ / ١١٧).

(٢) «تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس» (ص٤٨).

(٣) «فتوح مصر والمغرب» (ص٢٣٦).

(٤) «البداية والنهاية ط إحياء التراث» (٩/ ١٩٦) بتصرف يسير.

فَسَبَى مِنْهَا وَمِنْ غَيْرِهَا خَلْقًا كَثِيرًا، وَغَنِمَ أَمْوَالًا جَزِيلَةً، مِنَ الذَّهَبِ وَالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ شَيْئًا لَا يُحْصَى وَلَا يُعَدُّ، وَأَمَّا الْآلَاتُ وَالْمَتَاعُ وَالدَّوَابُّ فَشَيْءٌ لَا يُدْرَى مَا هُوَ، وَسَبَى مِنَ الْغِلْمَانِ الْحِسَانِ وَالنِّسَاءِ الْحِسَانِ شَيْئًا كَثِيرًا، حَتَّى قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَسْبِ أَحَدٌ مِثْلَهُ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَأَسْلَمَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ عَلَى يَدَيْهِ، وَبَثَّ فِيهِمُ الدِّينَ وَالْقُرْآنَ، وَكَانَ إِذَا سَارَ إِلَى مَكَانٍ، تُحْمَلُ الْأَمْوَالُ مَعَهُ عَلَى الْعَجَلِ لِكَثْرَتِهَا وَعَجْزِ الدَّوَابِّ عَنْهَا قِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا فَتَحَ الْأَنْدَلُسَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: ابْعَثْ مَعِي رِجَالًا حَتَّى أَدُلَّكَ عَلَى كَنْزٍ عَظِيمٍ، فَبَعَثَ مَعَهُ رِجَالًا فَأَتَى بِهِمْ إِلَى مَكَانٍ، فَقَالَ: احْفِرُوا. فَحَفَرُوا فَأَفْضَى بِهِمُ الْحَفْرُ إِلَى قَاعَةٍ عَظِيمَةٍ ذَاتِ لَوَاوِينَ حَسَنَةٍ، فَوَجَدُوا هُنَاكَ مِنَ الْيَوَاقِيتِ وَالْجَوَاهِرِ وَالزَّبَرْجَدِ مَا أَبْهَتَهُمْ، وَأَمَّا الذَّهَبُ فَشَيْءٌ لَا يُعَبَّرُ عَنْهُ، وَوَجَدُوا فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ الطَّنَافِسَ، الطِّنْفِسَةُ مِنْهَا مَنْسُوجَةٌ بِقُضْبَانِ الذَّهَبِ، مَنْظُومَةٌ بِاللُّؤْلُؤِ الْغَالِي الْمُفْتَخِرِ، وَالطِّنْفِسَةُ مَنْظُومَةٌ بِالْجَوْهَرِ الْمُثَمَّنِ، وَالْيَوَاقِيتِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا نَظِيرٌ فِي شَكْلِهَا»[(١)].

«كانت وسق مائة عجلة وأربع عشرة عجلة وفيها المائدة وكانت من ذهب يشوبه شيء من فضة مطوفة بثلاثة أطواق: طوق ياقوت وطوق زبرجد وطوق جوهر وحملت يوماً على بغل عظيم أفره وأقوى ما وجد فما بلغ المرحلة حتى تفسخت قوائمه. قال الليث بن سعد: لم يسمع بمثل سبايا موسى بن نصير في الإسلام»[(٢)].

نتائج هذه المعركة وهذا الفتح العظيم

«استمر الإسلام في «الأندلس» زهاء ثمانية قرون، شاد المسلمون خلالها حضارة عظيمة، جعلت منها البقعة الوحيدة المضيئة في القارة الأوربية كلها، التى كانت تعيش عصورًا مظلمة وتحيا حياة متخلِّفة»[(٣)] وتحقق قول رَسُولُ اللهِ ﷺ: **إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا**

---

(١) «البداية والنهاية ط هجر» (١٢/ ٦٢٥).

(٢) «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» (١/ ٤٣).

(٣) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٢/ ١٠٧-١٠٨).

زُوِيَ لِي مِنْهَا.

وبهذا نكون قد فرغنا مما يتعلق بفتح الأندلس أعادها الله للإسلام وجميع معاقل المسلمين المسلوبة. ورحم الله أولئك الفاتحين ، وجعلنا الله وإياهم ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [سورة النساء:٦٩].

ملخص معركة وادي لكة الفاصلة وفتح الأندلس

١- اسم المعركة :معركة وادي لكة أو موقعة شذونة من بلاد الأندلس و«الأندلس أو شبه جزيرة أيبريا هي الجزء الجنوبي الغربي من قارّة أوربا،وتشمل في الوقت الحاضر دولتي إسبانيا و البرتغال»[(١)].

٢- مكان المعركة : عَلَى نَهْرِ لَكَّةَ مِنْ أَعْمَالِ مدينة شَذُونَةَ. «جنوب غربي إسبانيا»

٣- تاريخ المعركة: يَوْم الْأَحَد في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢هـ، وَاتَّصَلَتِ الْحَرْبُ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ إِلَى يَوْم الْأَحَد لخمس خلون من شَوَّال ثمَّ هزم الله الْمُشْركين.

٤- الفريقان المتقاتلان :

١- المسلمون: بقيادة طارق بن زياد البربري رحمه الله تعالى ثم لحقه موسى بن نصير رحمه الله في سنة ٩٣هـ وكان هو الذي بعثه .

٢- نصارى الأسبان«القوط»ومن معهم بقيادة : الملك الأذرينوق ويقال له : رذريق ورذريك.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما :

١- الجيش الإسلامي اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا.

* مكث موسى بن نصير رحمه الله نحو عشر سنوات ينشر تعاليم الإسلام حتى رسخ في قلوب البربر ثم أرسلهم للجهاد فكان منهم الفاتحون الذين شاركوا العرب في هذا الفتح المبارك.

٢- جيش النصارى مِائَةَ أَلْفٍ.وَكَانَ عَلَى مَيْمَنَتِهِ وَمَيْسَرَتِهِ وَلَدَا الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ قَبْلَ لذريق وهما إيفا وسيزبوت.

٦- سبب المعركة : ظلم الملك لذريق النصراني لشعبه من يهود، وقوط ،

(١) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٢/ ١٠٦).

وتعديه على أموالهم وأعراضهم جعلهم يفكرون بالخلاص منه وكان مما حصل أنه اغتصب بنت حاكم سبتة وهو نصراني أيضًا فذكر البلد للمسلمين وكانوا يرغبون في نشر الإسلام هناك وتخليص العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد فجاء طلب الكونت يوليان في حينه المناسب، فغزاهم المسلمون.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- هزم الله الْمُشْرِكين فَقتل مِنْهُم خلق عَظِيم أَقَامَت عظامهم ملبّسة لتِلْك الأَرْض دهرًا طَوِيلًا ولم يكن بالمغرب مقتلة قطّ أكثر منها،انْهَزَمُوا وَهَزَمَ اللَّهُ رُذَرِيقَ وَمَنْ مَعَهُ، وَغَرِقَ فِي النَّهْرِ، وقيل: فر من أرض المعركة، وتبعه المسلمون حتى أدركوه وقتلوه بالقرب من بلدة لورقة، وقتل من المسلمين ثلاثة آلاف والله أعلم.

٢- وغنم الإسلام فيها ملك إسبانيا كله، بدءًا من **شذونة**، ثم **إستجة** ، ثم **قرطبة ومالقة وغرناطة وإلبيرة ومرسية، و قشتالة وطليطلة**، وتقدم طارق حت بلغ **خليج بسكونية** (غسقونية) فكان خاتمة زحفه ونهاية فتوحاته، ورده عباب المحيط عن التقدم، وأخذ موسى بن نصير **قَرْمونة**، و**إشبيلية**،و**ماردة**،وأخذا معًا **أراجون وسرقسطة وطركونة (تارجونا) وبرشلونة** ،ثم أخذ موسى بن نصير **ولاية لانجدوك** أو **سبتمانيا** واستولى على **قرقشونة** (كاركاسون) **وأربونة** (ناربون). ثم نفذ إلى مملكة الفرنج وغزا وادي الرون (**رذونة**) حتى **مدينة لوطون أو لوذون (ليون)**[1] وهنا فكر القائد الجريء في أن يخترق بجيشه جميع أوربا غازيًا فاتحًا، وأن يصل إلى الشام من طريق قسطنطينية، وأن يفتتح في طريقه أمم النصرانية والفرنجة كلها ولكن وصلت رسل الخليفة الوليد تأمره بالرجوع خوفًا على المسلمين.

٤- وأَرْسَلَ موسى إِلى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَرْبَعِينَ أَلْفَ رَأْسٍ من السبي وَهِيَ خُمُسُ مَا غَنِمَ، وَلَمْ يُسْمَعْ فِي الْإِسْلَامِ بِمِثْلِ سَبَايَا مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ.

---

(١) لانجدوك وقرقشونة وأربونة وليون مدن فرنسية تقع جنوب فرنسا.

٥- «استمر الإسلام في «الأندلس» زهاء ثمانية قرون من (٩٢هـ إلى ٢/ ربيع الأولى ٨٩٧هـ)شاد المسلمون خلالها حضارة عظيمة، جعلت منها البقعة الوحيدة المضيئة في القارة الأوربية كلها، التى كانت تعيش عصورًا مظلمة وتحيا حياة متخلِّفة»[١] فلا أطيل بذكر نتائج هذا الفتح العظيم إنما أقول عمارة تلك البلاد بالإسلام وشعائر الدين هذه الأزمان المتطاولة ودخول أمة من الناس في دين الله تعالى وإقامة شعيرة الجهاد وانتشار العلم وكثرة العلماء في تلك البلاد وما يتفرع عن هذا ونحوه من نتائج هذا الفتح المبارك وهذا هو الذي بشر به رسول الله ﷺ بما جاء عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**. [أخرجه مسلم :٢٨٨٩].

نبذة عن الفتوحات في عصر خليفة المسلمين الوليد بن عبد الملك

حدثت فتوحات واسعة وعظيمة جدًا، واتسمت بامتدادها على مختلف الجبهات، في الشرق والغرب والأندلس وفرنسا.

الجبهة الغربية:

في بلاد الروم وصل القائد مسلمة بن عبد الملك إلى عمورية (أنقرة) وهرقله ففتحها سنة ٨٩ هـ، ووصل المسلمون إلى خليج القسطنطينية، وغزوا أذربيجان وكان السكان ينقضون مرة بعد مرة، فكثرت الغزوات في تلك الجهات عام ٩٣ هـ.

في البحر المتوسط: فتح المسلمون جزيرة صقلية وميورقة سنة ٨٩ هـ.

في أفريقية: وطَّد موسى بن نصير الفتوحات هناك. ثم عمل على نشر الإسلام بين البربر.

فتح الأندلس: ، وصل طارق بن زياد وموسى بن نصير إلى جبال البرانس، وأخضعا كل تلك المناطق ما عدا جليقية سنة ٩٢ - ٩٣هـ.

الجبهة الشرقية (بلاد الترك):

---

(١) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٢/ ١٠٧-١٠٨).

في بلاد ما وراء النهر: اشتهر هناك القائد قتيبة بن مسلم الباهلي، فتح مدينة بيكند سنة ٨٧ هـ وغزا بلاد الصغد ونسف وكش عام ٨٩ هـ وفتح بخارى في ٩١ هـ ثم فتح الطالقان والفارياب وبلخ. ثم سمرقند عام٩٣هـ غزا بلاد الشاش وفرغانة حتى بلغ خوقند عام ٩٤ هـ وفتح كابل في ٩٤ هـ أيضًا فتح مدينة كاشغر (في تركستان الشرقية) عام ٩٦ هـ ، استطاع هذا القائد العظيم أن يمد فتوحاته إلى كل البلاد الواقعة بين النهرين(سيحون وجيحون) (وهذا يشمل معظم مساحة الاتحاد السوفيتي السابق وبلاد أفغانستان) ثم واصل حتى دخل الصين. وفرض الجزية على ملكها. إلى هنا توقف قتيبة شرقًا.

أخضع قتيبة مناطق شاسعة جدًا، تجاوزت مساحتها ٤ ملايين كيلو متر مربع تمتد من أواسط بلاد القفقاس إلى جنوب بحر الخزر، ثم تمتد شمالا لتتعمق في آسيا الوسطى، وتصل شرقًا إلى أواسط تركستان الشرقية، ثم تتجه غربًا نحو كابل (أفغانستان، سجستان).

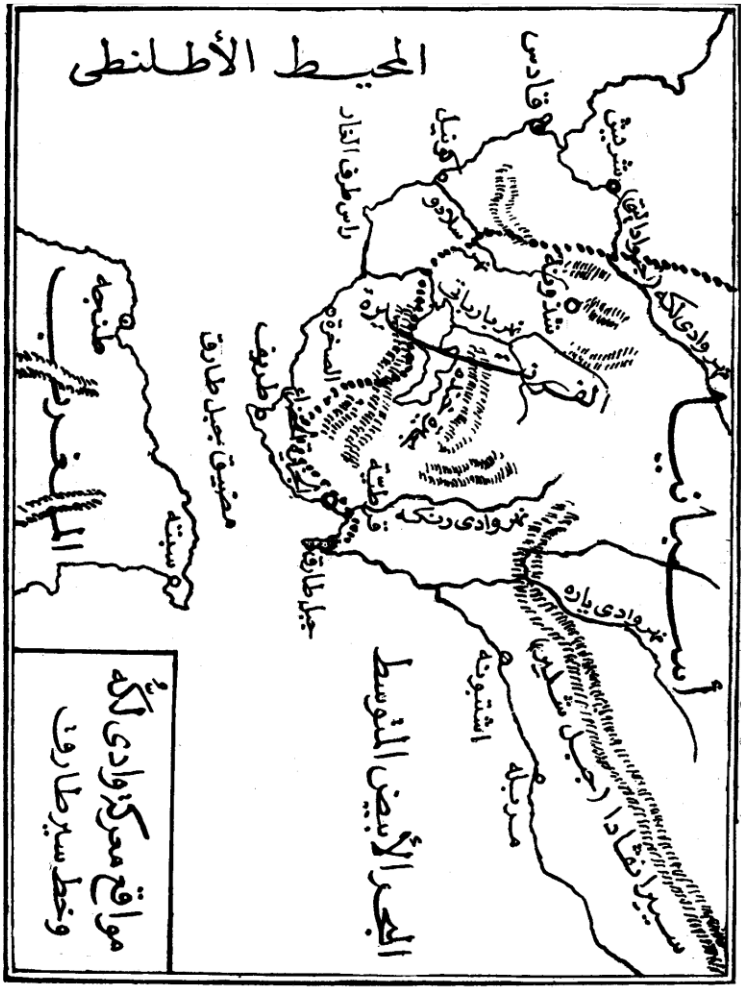
في بلاد السند: (بلاد السند تكون معظم دولة باكستان حاليًا) أرسل الحجاج جيشًا ضخمًا إلى هذه البلاد بقيادة القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفي (ابن أخيه)، من تحقيق انتصارات ضخمة هناك وقتل داهر ملك السند، واحتل بلاد السند في الفترة ٩٠ – ٩٤ هـ ، فكانت تلك من أعظم الفتوحات.

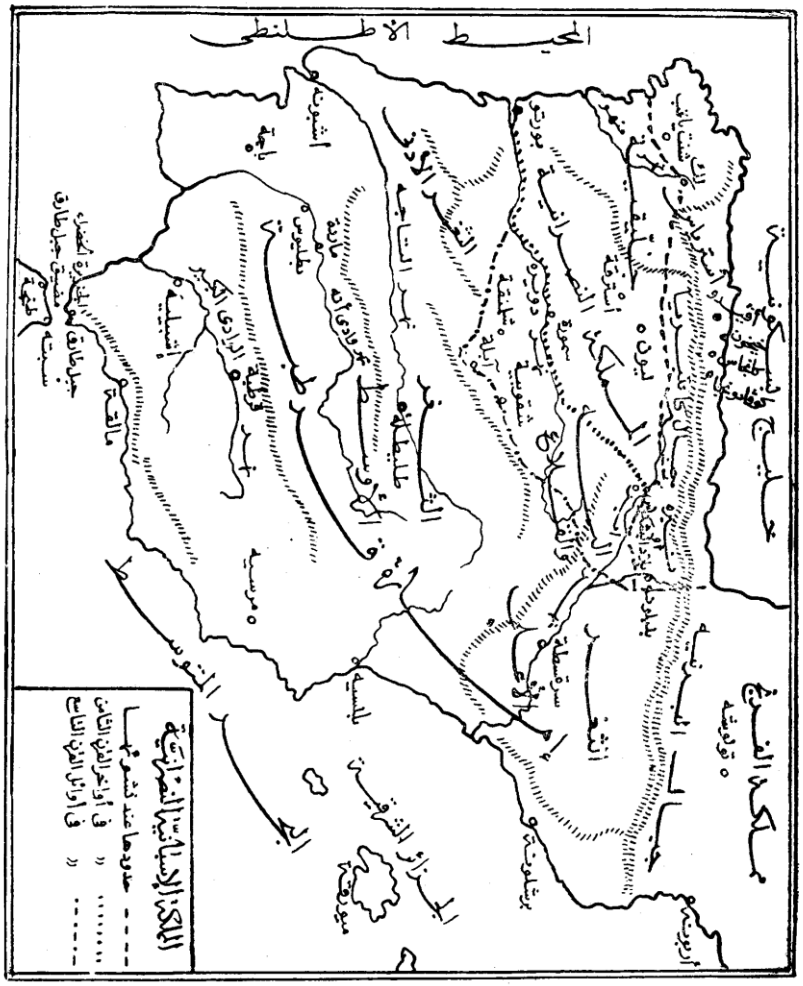
فبلغت الدولة الإسلامية في هذا العهد أقصى اتساع لها عبر التاريخ. وتُوفي الوليد ابن عبد الملك رحمه الله تعالى عام ٩٦ هـ، ودامت خلافته عشر سنوات.[(١)]

---

(١) موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر (ص١٥٨/١٦٠) نقلًا عن العهد الأموي/محمود شاكر، ص(٢٢٧).

٨- خريطة: موقعة وادي لكة: من كتاب دولة الإسلام في الأندلس.




المحيط الأطلنطي
مملكة الفرنج
بواتييه
جليقية
أشتورية
مملكة البشكنس
بنبلونة
مملكة النصرانية بوريق
سرقسطة
برشلونة
أربونة
الثغر الأدنى
الثغر الأوسط
الثغر الأعلى
مرسية
بلنسية
إشبيلية
مالقة
البحر المتوسط
الجزائر الشرقية
ميورقة
المالك الإسبانية النصرانية
حدودها عند تشوفها
في أواخر القرن الثامن
في أوائل القرن التاسع



المعركة الثانية عشرة: ملاذ كرد أو الزهوة

تمهيد

بطل هذه المعركة هو السلطان ألْب أَرَسْلَان بن جَغْرِي بك بن سَلْجُوق بن تُقَاق بن سَلْجُوق، وله ولكُلِّ واحدٍ من آبائه اسْم آخر بالعَرَبِيَّة، واسْمُه بالعَرَبِيَّة: مُحَمَّد بن دَاوُد بن مِيْكائِيل بن سُلَيمان، أبو شُجَاع بلغَ ما لم يبْلغُ أحد من المُلُوك، وكان مَلِكًا عَادِلًا مَهِيْبًا مُطَاعًا[1] وقبل الدخول في ذكر أحداث المعركة نقدم صورة لدولة السلاجقة التي أنقذ الله تعالى بها الخلافة العباسية من الدولة البويهية الشيعية.

كانت السيطرة الحقيقية(في هذه الحقبة من الزمان) للسلاجقة الذين يعودون في أصولهم إلى الغزمن الترك، ويدينون بالإسلام، ويأخذون طريق أهل السنة والجماعة ، ويرجع أول أمرهم إلى سلجوق بن تقاق الذي هرب من بلاد الترك خوفًا على نفسه من سلطان الترك الذي أوغرت صدره زوجته لما رأت من محبة الناس لسلجوق وطاعتهم له.

ولما دخل سلجوق بلاد المسلمين اعتنق الإسلام مع جماعته بل بدأ يغير على بلاد الترك الذين كانوا لا يزالون على الكفر، وكانوا إذا ما هاجمهم غاز ورأوا أنهم لا طاقة لهم به دخلوا المفاوز وتحصنوا بالرمال فلا يصل إليهم أحد. وكان سلجوق إذا دخل ضمها إلى بلاد الإسلام.

استعان السامانيون بسلجوق في رد غارات الترك على بلادهم، فأرسل إليهم

---

(١) بغية الطلب فى تاريخ حلب لابن العديم المتوفى: (٦٦٠هـ)(٤/ ٥٦١ ت الرواضية).

قوة بإمرة ابنه أرسلان الذي استطاع أن يسترد من الترك ما أخذوه من بلاد السامانيين. وتوفي سلجوق بعد أن بلغ من العمر سبعًا ومائة سنة. كما قتل ابنه ميكائيل وهو يغزو في بلاد الكفر من الأتراك، وكان لميكائيل هذا ولدان برزا من بعده هما طغرك بك محمد، وداود جعفر بك، ودانت لهما جماعتهما بالطاعة والولاء، وانتقلا بمن معهم نحو صحاري بخارى حيث أقاموا هناك فخافهما أميرها فساروا إلى بلاد بوغراخان ملك التركستان ولم يلبث أن وقع الخلاف بينه وبينهما فسجن الملك (بوغراخان) طغرل بك غير أن داود قد داهم بمن معه بوغراخان وأنقذ أخاه طغرل بك ومن ثم انتقلوا إلى بلاد الدولة السامانية حيث استقروا هناك، غير أن الدولة السامانية قد كانت في أواخر عهدها، وكانت تبرز قوة جديدة هي قوة الغزنويين وقد اصطدموا معهم، وانتهى الصدام بأسر أرسلان بن سلجوق عم طغرل بك، ثم حدث صلح بين السلاجقة والغزنويين بحيث تولى زعماء السلاجقة إمرة بعض المدن والمناطق، وطلب أبناء الأخ من الغزنويين إطلاق سراح عمهم أرسلان بن سلجوق . زالت الدولة السامانية عام ٣٩٥هـ، ودخل الغزنويون خراسان على حين دخل إيلك خان بلاد ما وراء النهر، ورجع الخلاف مرة أخرى بين الغزنويين والسلاجقة فتمكن طغرل بك أن يستولي على مرو عام ٤٢٩هـ، وذكر اسمه في خطبة الجمعة باسم ملك الملوك، ثم استولى على نيسابور عام ٤٣٢هـ وعلى جرجان وطبرستان عام ٤٣٣هـ، كما ضم كرمان وبلاد الديلم إليه في العام نفسه، ثم استولى على خوارزم عام ٤٣٤هـ، وانتقل الصراع فأصبح مع البويهيين، فدخل طغرل بك أصبهان عام ٤٣٨هـ ثم تم الاتفاق معهم. انتقل طغرل بك إلى الصراع مع الروم فاتجه إلى ديار بكر، وقاتل الروم، وانتصر عليهم، وعقد هدنة معهم واشترط بناء مسجد في القسطنطينية فأقيم، وأقيمت فيه الصلاة، وخطب لطغرل بك فيه.

تقاسم السلاجقة البلاد الواسعة التي بحوزتهم فيما بينهم، واختير طغرل بك ملكًا عليهم جميعًا ولم يكن له أولاد، واتخذ مدينة الري حاضرة له، وقد اختير ابن أخيه **ألب أرسلان** بن داود ليكون مع عمه طغرل بك مساعدًا له، ونتيجة ما قدم طغرل به من خدمات، ونتيجة مراسلاته مع الخليفة فقد ذكر اسمه في الخطبة وعلى السكة قبل السلطان البويهي الملك الرحيم، ثم استأذن طغرل بك الخليفة القائم ودخل مدينة بغداد عام ٤٤٧هـ، وطلب الخليفة القائم من السلطان البويهي الملك الرحيم أن يتع ويخضع لطغرل بك، وبذا انتهى عهد البويهيين وجاء دور السلاجقة.

واتجه طغرل بك إلى الري فمرض في الطريق ثم توفي عام ٤٥٥هـ بعد أن وصل إلى الري. وكان وزيره عميد الملك منصور بن محمد أبي نصر الكندري. كان طغرل بك عاقلًا حليمًا من أشد الناس احتمالًا وأكثرهم كتمانًا لسره، وكان يحافظ على الصلاة، ويصوم يومي الإثنين والخميس.وكان يلبس الثياب البيض، وكان كريما".

وكان طغرل بك قد أوصى بمن بعده لابن أخيه سليمان بن داود وقد جلس على كرسي السلطنة بمساعدة الوزير الكندري، غير أن أخاه ألب أرسلان بن داود قد ثار عليه وانتصر عليه وتسلم السلطة وقبض على الوزير الكندري وأرسله إلى مرو حيث سجن فيها ثم قتل عام ٤٥٧هـ.

ولعل أهم حدث خلد ذكر ألب أرسلان انتصاره الحاسم على الروم في ملاذكرت، [الذي نحن بصدده] وكان جيش الروم يزيد على مائتي ألف ويضم الروم، والروس، والكرج، والأرمن، والخزر، والفرنجة وكثيرًا من القبائل الغزية التي لا تزال على كفرها، وكان وزيره نظام الملك أبو الحسن علي بن إسحاق [وكان من خيار الوزراء محبًا للإسلام مقربًا للعلماء رحمه الله] .

واستمر سلطان السلاجقة حتى سيطر على مناطق نفوذهم الخوارزميون عام ٥٩٠هـ، واستمر ذلك حتى جاء المغول، ثم دخل هولاكو بغداد عام٦٥٦هـ فزال

سلطان الدولة العباسية [١].

ملاذ كرد وقائد الروم فيها وقوام جيشه ومدى استعدادهم [٢]

دَخَلَتْ سَنَةُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَفِيهَا أَقْبَلَ مَلِكُ الرُّومِ أَرْمَانُوسُ فِي جَحَافِلَ أَمْثَالِ الْجِبَالِ مِنَ الرُّومِ وَالْكُرْجِ وَالْفِرِنْجِ وَعُدَدٍ عَظِيمَةٍ وَتَجَمُّلٍ هَائِلٍ، وَمَعَهُ خَمْسَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفًا مِنَ الْبَطَارِقَةِ مَعَ كُلِّ بِطْرِيقٍ مَا بَيْنَ أَلْفَيْ فَارِسٍ إِلَى خَمْسِمِائَةِ فَارِسٍ، وَمَعَهُ مِنَ الْفِرِنْجِ خَمْسَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفًا، وَمِنَ الْغُزِّ الَّذِينَ يَكُونُونَ وَرَاءَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا، وَمَعَهُ مِائَةُ أَلْفِ نَقَّابٍ وَحَفَّارٍ، وَأَلْفُ رَوَزْجَارِيٍّ، وَمَعَهُ أَرْبَعُمِائَةِ عَجَلَةٍ تَحْمِلُ النِّعَالَ وَالْمَسَامِيرَ، وَأَلْفَا عَجَلَةٍ تَحْمِلُ السِّلَاحَ وَالسُّرُوجَ وَالْعَرَّادَاتِ وَالْمَجَانِيقَ، مِنْهَا مَنْجَنِيقٌ يُمِدُّهُ أَلْفٌ وَمِائَتَا رَجُلٍ وَمِنْ عَزْمِهِ - قَبَّحَهُ اللَّهُ تَعَالَى - أَنْ يَجْتَثَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، وَقَدْ أَقْطَعَ بَطَارِقَتَهُ الْبِلَادَ حَتَّى بَغْدَادَ وَاسْتَوْصَى نَائِبَهَا بِالْخَلِيفَةِ خَيْرًا فَقَالَ لَهُ: ارْفُقْ بِذَلِكَ الشَّيْخِ فَإِنَّهُ صَاحِبُنَا، ثُمَّ إِذَا اسْتَوْسَقَتْ مَمَالِكُ الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ لَهُمْ مَالُوا عَلَى الشَّامِ وَأَهْلِهِ مَيْلَةً وَاحِدَةً فَاسْتَعَادُوهُ مِنْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتَنْقَذُوهُ فِيمَا يَزْعُمُونَ، وَالْقَدَرُ يَقُولُ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الحجر:٧٢]. «فَوَصَلَ إِلَى مَلَازْكَرْدَ مِنْ أَعْمَالِ خِلَاطٍ. فَبَلَغَ السُّلْطَانَ أَلْب أَرْسَلَانَ الْخَبَرُ. وَهُوَ بِمَدِينَةِ خُوَيَّ مِنْ أَذَرْبِيجَانَ، قَدْ عَادَ مِنْ حَلَبَ. وَسَمِعَ مَا هُوَ مَلِكُ الرُّومِ فِيهِ مِنْ كَثْرَةِ الْجُمُوعِ، فَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ جَمْعِ الْعَسَاكِرِ لِبُعْدِهَا وَقُرْبِ الْعَدُوِّ، فَسَيَّرَ الْأَثْقَالَ مَعَ زَوْجَتِهِ وَنِظَامِ الْمُلْكِ إِلَى هَمَذَانَ، وَسَارَ هُوَ فِيمَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْعَسَاكِرِ. وَجَدَّ فِي السَّيْرِ وَقَالَ لَهُمْ: **إِنِّي أُقَاتِلُ مُحْتَسِبًا صَابِرًا، فَإِنْ سَلِمْتُ فَنِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ كَانَتِ الشَّهَادَةُ فَإِنَّ ابْنِي مَلِكْشَاهْ وَلِيُّ عَهْدِي**، وَسَارُوا».

---

(١) التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر (٦/ ٢١١-٢١٤) باختصار.

(٢) هذه المعركة ملخصة مدمجة من «الكامل في التاريخ» (٨/٢٢٣- ٢٢٥) و«البداية والنهاية ط هجر» (١٦/ ٢٥-٢٧).

قائد جيش المسلمين في هذه المعركة وعدد جيشه

الْتَقَاهُ السُّلْطَانُ أَلْبُ أَرْسَلَانَ فِي جَيْشِهِ وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ الرَّهْوَةُ فِي يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ لِخَمْسٍ بَقِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ، وَخَافَ مِنْ كَثْرَةِ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا قَارَبَ الْعَدُوَّ جَعَلَ لَهُ مُقَدِّمَةً، فَصَادَفَتْ مُقَدِّمَتُهُ، عِنْدَ خِلَاطٍ، مُقَدِّمَ الرُّوسِيَّةِ فِي نَحْوِ عَشَرَةِ آلَافٍ مِنَ الرُّومِ، فَاقْتَتَلُوا، فَانْهَزَمَتِ الرُّوسِيَّةُ، وَأُسِرَ مُقَدِّمُهُمْ، وَحُمِلَ إِلَى السُّلْطَانِ، فَجَدَعَ أَنْفَهُ، وَأَنْفَذَ بِالسَّلَبِ إِلَى نِظَامِ الْمُلْكِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُرْسِلَهُ إِلَى بَغْدَاد، فَلَمَّا تَقَارَبَ الْعَسْكَرَانِ أَرْسَلَ السُّلْطَانُ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ يَطْلُبُ مِنْهُ الْمُهَادَنَةَ، فَقَالَ: لَا هُدْنَةَ إِلَّا بِالرَّيِّ، فَانْزَعَجَ السُّلْطَانُ لِذَلِكَ.

ثمرة وجود العلماء مع المجاهدين في سبيل الله عزوجل

فَقَالَ لَهُ إِمَامُهُ وَفَقِيهُهُ أَبُو نَصْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْبُخَارِيُّ الْحَنَفِيُّ: إِنَّكَ تُقَاتِلُ عَنْ دِينٍ وَعَدَ اللَّهُ بِنَصْرِهِ وَإِظْهَارِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ كَتَبَ بِاسْمِكَ هَذَا الْفَتْحَ، فَالْقَهُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، بَعْدَ الزَّوَالِ، فِي السَّاعَةِ الَّتِي تَكُونُ الْخُطَبَاءُ عَلَى الْمَنَابِرِ، فَإِنَّهُمْ يَدْعُونَ لِلْمُجَاهِدِينَ بِالنَّصْرِ، وَالدُّعَاءُ مَقْرُونٌ بِالْإِجَابَةِ»فَلَمَّا تَوَاجَهَ الْفِئَتَانِ نَزَلَ السُّلْطَانُ عَنْ فَرَسِهِ، وَسَجَدَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَرَّغَ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ وَدَعَا اللَّهَ وَاسْتَنْصَرَهُ، فَأَنْزَلَ نَصْرَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ «لَمَّا كَانَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ صَلَّى بِهِمْ [الفقيه أبو نصر]، وَبَكَى السُّلْطَانُ، فَبَكَى النَّاسُ لِبُكَائِهِ، وَدَعَا وَدَعَوْا مَعَهُ وَقَالَ لَهُمْ: مَنْ أَرَادَ الِانْصِرَافَ فَلْيَنْصَرِفْ، فَمَا هَاهُنَا سُلْطَانٌ يَأْمُرُ وَيَنْهَى، وَأَلْقَى الْقَوْسَ وَالنِّشَابَ، وَأَخَذَ السَّيْفَ وَالدَّبُّوسَ، وَعَقَدَ ذَنَبَ فَرَسِهِ بِيَدِهِ، وَفَعَلَ عَسْكَرُهُ مِثْلَهُ، وَلَبِسَ الْبَيَاضَ، وَتَحَنَّطَ، وَقَالَ: إِنْ قُتِلْتُ فَهَذَا كَفَنِي. وَزَحَفَ إِلَى الرُّومِ وَزَحَفُوا إِلَيْهِ، فَلَمَّا قَارَبَهُمْ تَرَجَّلَ وَعَفَّرَ وَجْهَهُ عَلَى التُّرَابِ، وَبَكَى، وَأَكْثَرَ الدُّعَاءَ، ثُمَّ رَكِبَ وَحَمَلَ، وَحَمَلَتِ الْعَسَاكِرُ مَعَهُ، فَحَصَلَ الْمُسْلِمُونَ فِي وَسَطِهِمْ وَحَجَزَ الْغُبَارُ بَيْنَهُمْ، فَقَتَلَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِمْ كَيْفَ شَاءُوا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ نَصْرَهُ عَلَيْهِمْ، فَانْهَزَمَ الرُّومُ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ مَا لَا يُحْصَى، حَتَّى امْتَلَأَتِ الْأَرْضُ بِجُثَثِ الْقَتْلَى»«وقدر

عدد القتلى بمائة وخمسين ألفاً، أي أن كل مسلم قد قتل عشرة من الروم»[1] مَنَحَهُمْ اللهُ أَكْتَافَ الْمُشْرِكِينَ فَقَتَلُوا مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا لَا يُحْصَوْنَ كَثْرَةً، وَأُسِرَ مَلِكُهُمْ أَرْمَانُوسُ، أَسَرَهُ غُلَامٌ رُومِيٌّ، فَأَمَّرَهُ السُّلْطَانُ، وَأَعْطَاهُ شَيْئًا كَثِيرًا وَقَدْ كَانَ هَذَا الْغُلَامُ عُرِضَ عَلَى نِظَامِ الْمُلْكِ الْوَزِيرِ فِي جُمْلَةِ تَقْدِمَةٍ، فَلَمْ يَقْبَلْهُ فَقَالَ لَهُ سَيِّدُهُ: إِنَّهُ..وَإِنَّهُ..يُثْنِي عَلَيْهِ فَرَدَّهُ، وَقَالَ كَهَيْئَةِ الْمُسْتَهْزِئِ بِهِ: لَعَلَّهُ يَجِيئُنَا بِمَلِكِ الرُّومِ أَرْمَانُوسَ أَسِيرًا، فَوَقَعَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.«واستشرحه[السلطان] الحال فقال: قصدته وما أعرفه وحوله عشرة صبيان من الخدم، فقال لي أحدهم: لا تقتله فإنه الملك فأسرته وحملته».

رُقِيٌّ لم يتربَ عليه النصارى فلم يتوقعه ملكهم

لَمَّا أُوقِفَ أَرْمَانُوسُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ ضَرَبَهُ بِيَدِهِ ثَلَاثَ مَقَارِعَ، وَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَنَا الْأَسِيرُ بَيْنَ يَدَيْكَ مَاذَا كُنْتَ تَفْعَلُ؟ قَالَ: كُلَّ قَبِيحٍ. قَالَ فَمَا ظَنُّكَ بِي؟ قَالَ: تَقْتُلُنِي أَوْ تُشَهِّرُنِي فِي بِلَادِكَ، فَأَمَّا الْعَفْوُ وَأَخْذُ الْفِدَاءِ فَبَعِيدٌ، فَقَالَ: مَا عَزَمْتُ عَلَى غَيْرِ الْعَفْوِ وَالْفِدَاءِ، فَافْتَدَى نَفْسَهُ مِنْهُ بِأَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ وَخَمْسِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، وَأَنْ يُطْلِقَ كُلَّ أَسِيرٍ فِي بِلَادِ الرُّومِ، وَعَلَى هُدْنَةٍ خَمْسِينَ سَنَةً، يَحْمِلُ فِيهَا عَنْ كُلِّ يَوْمٍ أَلْفَ دِينَارٍ، وَقَامَ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ فَسَقَاهُ شَرْبَةً مِنْ مَاءٍ، وَقَبَّلَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَإِلَى نَحْوِ جِهَةِ الْخَلِيفَةِ إِجْلَالًا وَإِكْرَامًا فَأَطْلَقَ لَهُ الْمَلِكُ عَشَرَةَ آلَافِ دِينَارٍ لِيَتَجَهَّزَ بِهَا، وَأَطْلَقَ مَعَهُ جَمَاعَةً مِنَ الْبَطَارِقَةِ وَمِنْ أَصْحَابِهِ، وَشَيَّعَهُ فَرْسَخًا، وَأَرْسَلَ مَعَهُ جَيْشًا يُحِيطُونَهُ وَيَحْفَظُونَهُ إِلَى بِلَادِهِ، وَمَعَهُمْ رَايَةٌ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. «وَأَمَّا الرُّومُ فَلَمَّا بَلَغَهُمْ خَبَرُ الْوَقْعَةِ وَثَبَ مِيخَائِيلُ عَلَى الْمَمْلَكَةِ فَمَلَكَ الْبِلَادَ، فَلَمَّا وَصَلَ أَرْمَانُوسُ الْمَلِكُ إِلَى قَلْعَةِ دُوقِيَّةَ بَلَغَهُ الْخَبَرُ، فَلَبِسَ الصُّوفَ وَأَظْهَرَ الزُّهْدَ، وَأَرْسَلَ إِلَى مِيخَائِيلَ يُعَرِّفُهُ مَا تَقَرَّرَ مِنَ السُّلْطَانِ، وَقَالَ: إِنْ شِئْتَ أَنْ

---

(١) «سلسلة علو الهمة – المقدم» (١٣/ ١١).

تَفْعَلَ مَا اسْتَقَرَّ، وَإِنْ شِئْتَ أَمْسَكْتَ، فَأَجَابَهُ مِيخَائِيلُ بِإِيثَارِ مَا اسْتَقَرَّ، وَطَلَبَ وَسَاطَتَهُ، وَسُؤَالَ السُّلْطَانِ فِي ذَلِكَ. وَجَمَعَ أَرْمَانُوسُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْمَالِ فَكَانَ مِائَتَيْ أَلْفِ دِينَارٍ، فَأَرْسَلَهُ إِلَى السُّلْطَانِ، وَطَبَقَ ذَهَبٍ عَلَيْهِ جَوَاهِرُ بِتِسْعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَحَلَفَ لَهُ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّ أَرْمَانُوسُ اسْتَوْلَى عَلَى أَعْمَالِ الْأَرْمَنِ وَبِلَادِهِمْ «ثُمَّ اسْتَضَافَ مَلِكَ الْأَرْمَنِ فَأَخَذَهُ فَكَحَلَهُ، وَأَرْسَلَهُ إِلَى السُّلْطَانِ فَأَعْلَمَهُ بِذَلِكَ يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِهِ»وهذا الفتح في الإسلام كان عجبًا لا نظير له، فإن القوم اجتمعوا ليزيلوا الإسلام وأهله، وكان ملك الروم قد حدثته نفسه بالمسير إلى السلطان ولوالي الري، وأقطع البطارقة البلاد الإسلامية وقال لمن أقطعه بغداد: لا تتعرض لذلك الشيخ الصالح، فإنه صديقنا- يعني الخليفة- وكانت البطارقة تقول: لا بد أن نشتو بالري ونصيف بالعراق، ونأخذ في عودنا بلاد الشام فأهلكهم الله تعالى بالعدد القليل والزمن اليسير وله الحمد والمنة «وَمَدَحَ الشُّعَرَاءُ السُّلْطَانَ، وَذَكَرُوا هَذَا الْفَتْحَ، فَأَكْثَرُوا»[1].

(١) هذه المعركة ملخصة مدمجة من «الكامل في التاريخ» (٨/٢٢٣- ٢٢٥) و«البداية والنهاية ط هجر» (١٦/ ٢٥-٢٧) و«المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (١٦/ ١٢٥).

(ملخص معركة ملاذ كرد الفاصلة)

١- اسم المعركة : ملاذ كرد ،أو الزهوة.

٢- مكان المعركة : الزهوة أو الرهوة ومعظم أهل التاريخ يسمونها ملاذ كرد وهي بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم.في شرقي تركيا اليوم على مقربة من بحيرة (وان).

٣- تاريخ المعركة: سنة (٤٦٣هـ)في يوم الجمعة ٢٧من (ذي القعدة).

٤- الفريقان المتقاتلان :

١- المسلمون: بقيادة السلطان ألب أرسلان السلجوقي رحمه الله تعالى، وفي خلافة القائم بأمر الله العباسي رحمه الله.

٢- نصارى الروم: بقيادة ملك الروم أرمانوس.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما:

١- الجيش الإسلامي : **العدد:** قال ابن كثير رحمه الله تعالى :(فَالْتَقَاهُ السُّلْطَانُ أَلْبُ أَرْسَلَانَ فِي جَيْشِهِ وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا).

* **شارك فيها من أهل العلم:** أَبُو نَصْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْبُخَارِيّ الْحَنَفِيّ

* **خطة المعركة:** لما رأى السلطان قلّة جنده وحّد اتجاه جيشه إلى القلب حيث ملك الروم والبطارقة ، فإذا سقطوا انهار جيشهم فأتم الله تعالى له ما قصد.

٢- جيش الروم يقدر بثلاثمائة ألف جندي.

٦- سبب المعركة : لمّا هيأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ السلاجقة وهم من الترك وكانوا على السنة كان أحب الأعمال إليهم الجهاد في سبيل الله كان مما حصل أنهم دخلوا أصبهان عام (٤٤٢هـ) وأسروا بعض ملوك الروم فراسلهم امبراطور القسطنطينية في مفاداة الملك فشرطوا عليه عمارة مسجد في القسطنطينية وتم ذلك وخطب فيه ثم أكثر السلاجقة الغارة على بلاد الروم وغنموا منها كثيرًا فغضب لذلك ملك

الروم أرمانوس الذي اعتاد ركود الدولة البويهية التي لقيت حتفها على يد الدولة السلجوقية المجاهدة فخرجت الروم للقتال بعددهم الهائل وقد وُزِّعت بينهم بلاد الإسلام كلها كأنهم قد ضمنوا النصر فأمكن الله منهم، وهزمهم بعدد قليل ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾ [سورة آل عمران:١٢٦].

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- هزم الله الروم ووقع ملكهم بنفسه في الأسر وقدر عدد القتلى بمائة وخمسين ألفًا.

٢- «كانت بلاد الأناضول (آسيا الصغرى) من أملاك الإمبراطورية البيزنطية (رومانيا الشرقية) قبل الإسلام. وصلت الفتوحات الإسلامية إلى أجزائها الشرقية، من أطراف أرمينيا وحتى ذرا جبال طوروس. وعجز المسلمون منذ عام ٥٠ هـ أيام معاوية عن فتح القسطنطينية. وتكرر الغزو مرات عديدة بلا نتيجة. وبعد معركة ملاذكرد عام ٤٦٣ هـ والتي انتصر فيها السلاجقة انتصارًا مبينًا على الروم انساحوا في بلاد الأناضول وكونوا لهم إمارات، أبرزها إمارات سلاجقة الروم»[(١)].

٣- تمكن السلاجقة من زحزحة دولة بني بويه الشيعية التي نشرت كثيرًا من البدع والضلالات وتمكنوا من القضاء على القرامطة في البحرين وكذلك على كثير من الفاطميين وفي الوقت نفسه انتصروا على البيزنطيين، ووقفوا في وجه الصليبيين.

٤- حفظ الله بهم هيبة الخلافة العباسية في الحين الذي استهان بها فيه أعداؤها.

٥- «انتصر السلاجقة المسلمون بقيادة آلب أرسلان انتصارًا عظيمًا، وسيطروا على آسيا الصغرى، فضموا إلى ديار الإسلام مساحة تزيد على ٤٠٠ ألف كم٢. وطرد سلطان الروم من آسيا نهائيًا.

٦- تعد هذه المعركة نقطة تحول في التاريخ الإسلامي بصفة عامة وتاريخ غربي

---

(١) «موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر» (ص٣١٨) نقلًا عن الدولة العباسية الثانية/محمود شاكر، ص(٣٦). التاريخ الإسلامي/د. أحمد شلبي، ص(٣٨).

آسيا بصفة خاصة، لأنها يسرت القضاء على نفوذ الروم في أكثر أجزاء آسيا الصغرى[(١)]».

٧- لم تكن هذه الانتصارات عسكرية [فحسب] كما يتوهم بعضهم وإنما كانت انتصارت فكرية [ودينية] إذ انتشر السلاجقة في آسيا الصغرى عقب معركة ملاذ كرت وضموا إلى الإسلام مساحة تزيد على ٤٠٠ ألف كم٢، وعم الإسلام تلك الجهات منذ ذلك الوقت ولم يكن قد دخلها أبدًا من قبل وبعد سنوات من هذه المعركة أي في عام ٤٦٩هـ استطاع المرابطون في المغرب أن يفتحوا عاصمة امبراطورية غانا (كومبي صالح)وأن ينشروا الإسلام في جميع البلاد وبذا تكون ديار الإسلام قد امتدت في إفريقية على مساحة جديدة تقرب من نصف مليون كيلو متر مربع وفي الوقت نفسه فقد اتسعت ديار الإسلام في الجنوب الشرقي إذ نشر الغوريون الإسلام في الهند وفتحوا مساحات واسعة من شمال تلك البلاد ووصلوا إلى بلاد البنغال وذلك في عام ٥٧٩هـ وبذا فإن هذه المرحلة كانت مرحلة امتداد وتوسع أيضًا ولم تكن مرحلة جمود وتوقف كما يتصور كثير من الناس ممن يقرؤون التاريخ الإسلامي على عجالة ويتوقفون عند نهاية العصر العباسي الأول ويجملون العصر العباسي الثاني بكلمات تدل على الضعف والتوقف والتفكك.[(٢)]

---

(١) «موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر» (ص٢١١).

(٢) «التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر رحمه الله» (٦/ ٣٦٠).

٨- خريطة: موقعة ملاذ كرد:





المعركة الثالثة عشرة من معارك الإسلام الفاصلة:الزلاقة

تمهيد

بعد ما ضعفت الدولة الأموية في الأندلس وانفرد العامريون بالسلطة بدأ أمراء الطوائف يستقلون بالإمارات التي يحكمونها، فعرفوا بملوك الطوائف وانقسموا إلى أكثر من ٢٠ دويلة. وكان هذا العصر مليء بالاضطراب والفوضى والفتن والتناحر والأنانية. **أهم هذه الدويلات:**

١- **الدولة الزيرية:** في غرناطة ٤٠٣ - ٤٨٣ هـ وهم بربر.

٢- **الدولة الحمودية:** التي تنقلت بين قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء في الفترة ٤٠٧ - ٤٥٠ هـ وهم شيعة ينتسبون إلى إدريس (من سلالة الحسن بن علي).

٣- **الدولة الهودية:** في سرقسطة ٤١٠ - ٥٣٦ هـ وهم عرب.

٤- **الدولة العامرية:** في بلنسية ٤١٢ - ٤٧٨ هـ وهم من موالي بني عامر.

٥- **الدولة العبادية:** في أشبيلية ٤١٤ - ٤٨٤ هـ وهم عرب من بني لخم، وهي أشهر وأقوى هذه الدول، وأبرز حكامها المعتمد بن عباد.

٦- **دولة بني الأفطس:** في بطليوس ٤٢١ - ٤٨٧ هـ.

٧- **الدولة الجهورية:** في قرطبة ٤٢٢ - ٤٦١ هـ ، وقد قضى عليها بنو عباد.

٨- **دولة ذي النون:** في طليطلة ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ وهم بربر.

وكانت هذه الدويلات ضعيفة ومتفرقة ومتناحرة، ولم يتوان بعضهم عن أن يستنجد بملوك الفرنجة ضد إخوانه المسلمين. ودام أمرهم قرابة مائة سنة استطاع في أواخرها ملوك الأسبان أن يجمعوا كلمتهم، فأخذوا يبتلعون هذه الإمارات،

حتى بلغوا أشبيلية (أكبر الممالك الإسلامية بالأندلس)، فطلب حاكمها المعتمد بن عباد النجدة من يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين في المغرب، فقدم يوسف، وهزم النصارى، ومحا ملوك الطوائف ووحد الأندلس، فأصبحت جزءًا من دولة المرابطين .

دولة المرابطين في المغرب والأندلس٤٤٨ - ٥٤١ هـ:

وهم بربر أبناء صحراء من قبيلة لمتونة وهي فرع من صنهاجة، سموا بالمرابطين لأنهم تتلمذوا على يد عبد الله بن ياسين في الرباط الذي أنشأه للدرس والعبادة في صحراء المغرب. وكانوا يعرفون (بالملثمين) أيضًا. تولى أبو بكر بن عمر اللمتوني تنظيمهم والجهاد بهم، ففتح السوس والمصامدة، وكان معه في الجيش ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي ارتفع شأنه، فاضطر أبو بكر أن يتنازل له عن السلطة.

وهو أول ملك بربري حكم المغرب (وكان جيشه خليطًا من جميع قبائل المغرب) ويقال أنه كان أعظم الحكام المسلمين في عصره.

انضمام الأندلس إلى المرابطين:

استنجد به المعتمد بن عباد حاكم أشبيليه في الأندلس ضد النصارى الأسبان، فزحف من فوره، والتقى بالنصارى بقيادة ملكهم الفونس السادس وهزمهم شر هزيمة في معركة الزلاقة الشهيرة عام ٤٧٩ هـ [التي نحن بصددها]. استولى بعدها على كل الأندلس،فوحدها وأزال ملوك الطوائف الضعفاء، فأصبحت الأندلس ضمن دولة المرابطين. وامتدت دولته في المغرب من تونس شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، ومن البحر المتوسط شمالًا إلى حدود السودان جنوبًا، اختط مدينة مراكش، وجعلهاعاصمة مملكته[١].

(١) موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر (ص٢٤٤-٢٤٦).

معركة الزلاقة وسبب وقوعها:

قال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري في كتابه [«صفة جزيرة أندلس» (ص٨٣- ٩٥] بطحاء الزلاقة من إقليم بطليوس من غرب الأندلس، فيها كانت الوقيعة الشهيرة للمسلمين على الطاغية عظيم الجلالقة إذ فونش بن فرذلند عهيد المعتمد محمد بن عباد وكان ذلك في الثاني عشر من رجب سنة (٤٧٩هـ).

وكان السبب في ذلك فساد الصلح المنقعد بين الطاغية وبين المعتمد؛ فإن المعتمد اشتغل عن أداء الضريبة في الوقت الذي صارت عادته يؤديها فيه، بغزو ابن صمادح صاحب المرية، واستنفاده ما في يديه بسبب ذلك، فتأخر لأجل ذلك أداء الإتاوة عن وقتها، فاستشاط الطاغية غضباً، وتشطط فطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة، وأمعن في التجني، فسأل في دخول امرأته القمطيجة إلى جامع قرطبة لتلد فيه من حملٍ كان بها، حيث أشار إليه بذلك القسيسون والأساقفة، لمكان كنيسةٍ كانت في الجانب الغربي منه، ومعظمةٍ عندهم، عمل المسلمون عليها الجامع الأعظم؛ وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بمدينة الزهراء غربي مدينة قرطبة، فتختلف منها إلى الجامع المذكور، حتى تكون تلك الولادة بين طيب نسيم الزهراء، وفضيلة ذلك الموضع الموصوف من الجامع، وزعم أن الأطباء، أشاروا عليه بالولادة في الزهراء، كما أشار عليه القسيسون بالجامع، وسفر بذلك بينهما يهودي [يدعى ابن شاليب]، وكان وزيرًا لابن فرذلند، فتكلم بين يدي المعتمد ببعض ما جاء به من عند صاحبه، فأيأسه ابن عباد من جميع ذلك، فأغلظ له اليهودي في القول، وشافهه بما لم يحتمل.

كيف يكون الرد عندما يُتعرض للمقدسات و دور العلماء

أخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه، فأنزلها على رأس اليهودي، فألقى دماغه في

حلقه، وأمر به فصلب منكوسًا بقرطبة.

واستفتى ابن عباد الفقهاء لما سكت عنه الغضب، عن حكم ما فعله باليهودي، فبادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك، لتعدي الرسول حدود الرسالة إلى ما يستوجب له القتل، إذ ليس له أن يفعل ما فعل؛ وقال للفقهاء حين خرجوا: إنما بادرت بالفتوى خوفًا أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو، وعسى الله أن يجعل في عزيمته للمسلمين فرجاً! بلغ الفنش ما صنع ابن عباد، فأقسم بآلهته ليغزونه بإشبيلية، ويحصره في قصره؛ فجرد جيشين جعل على أحدهما كلباً من مساعير كلابه وأمره أن يسير على كورة باجة من غرب الأندلس، ويغير على تلك التخوم والجهات، ثم يمر على لبلة إلى إشبيلية، وجعل موعده إياه طريانة للاجتماع معه؛ ثم زحف ابن فرذلند بنفسه في جيش آخر عرمرم، فسلك طريقًا غير طريق صاحبه، وكلاهما عاث في بلاد المسلمين وخرب ودمر، حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الأعظم، قبالة قصر ابن عباد.

نحن لا نقبل الازدراء والاحتقار

وفي أيام مقامه هناك كتب إلى ابن عباد زاريًا عليه: كثر بطول مقامي في مجلسي الذبان، واشتد عليَّ الحر، فألقِ من قصرك بمروحةٍ أروح بها على نفسي، وأطرد بها الذباب عني! فوقّع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة: **قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية**[1]**، في أيدي الجيوش المرابطية، تروح منك لا تروح عليك، إن شاء الله!** فلما ترجم لا بن فرذلند توقيع ابن عباد في الجواب، أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببالٍ. وفشا في بلاد الأندلس خبر توقيع ابن عباد، وما أظهر من العزيمة على إجازة الصحراويين والاستظهار بهم على ابن فرذلند، فاستبشر الناس، وفتحت لهم أبواب الآمال، وانفرد ابن عباد

(١) يعني الدرق اللمطية: وهي تروس منسوبة إلى لمطة في بلاد البربر.

بتدبير ما عزم عليه من مداخلة يوسف بن تاشفين، ورأت ملوك الطوائف بالأندلس ما عزم عليه من ذلك[وكانوا ثلاثة عشر ملكاً في الأندلس]، فمنهم من كتب إليه، ومنهم من شافهه. كلهم يحذره سوء عاقبة ذلك، وقالوا له: الملك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمدٍ واحدٍ!.

حماية الدين قبل حماية المصالح

فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلاً: **رعي الجمال خير من رعى الخنازير!** أي أن كونه مأكولاً لابن تاشفين أسيرًا يرعى جماله في الصحراء، خير من كونه ممزقاً لابن فرذلند، أسيرًا يرعى خنازيره في قشتالة؛ وكان مشهورًا برزانة الاعتقاد. فاعترض الرشيد [أبو الحسن عبيد الله (ولي عهد المعتمد)] على رأيه وقال له: "يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا، ويبدد شملنا"، فقال المعتمد لولده: **"أي بني والله لا يسمع عني أبدًا أني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى، فتقوم اللعنة علي في الإسلام؛ مثلما قامت على غيري. حرز الجمال عندي والله خير من حرز الخنازير"**.وانتهى الرشيد بأن فوض لأبيه الرأي فيما يحب عمله،[1] وقال لعذاله ولوامه: يا قوم أنا من أمري على حالتين، حالة يقين وحالة شكٍ، ولا بد لي من إحداهما؛ أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى ابن فرذلند ففي الممكن أن يفيا لي ويبقيا عليَّ، ويمكن ألا يفعلا؛ فهذه حالة الشك. وأما حالة اليقين، فهي أني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضي الله، وإن استندت إلى ابن فرذلند أسخطت الله، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأي شيء أدع ما يرضى الله وآتي ما يسخطه! وحينئذ أقصر أصحابه عن لومه. وذلك لما حصل للمسلمين من ضرر من الصليبيين ومنها سقوط طليطلة في يد ملك قشتالة في صفر سنة ٤٧٨هـ وحصل من الشدائد ما الله به عليم. فلما عزم خاطب جاريه المتوكل عمر بن محمد

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٢/ ٧٨).

صاحب بطليوس، وعبد الله بن حبوس ابن ماكسن الصنهاجي صاحب غرناطة، يأمرهما أن يبعث إليه كل واحدٍ منهما قاضي حضرته، ففعلا؛ ثم استحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم، وكان أعقل أهل زمانه؛ فلما اجتمع القضاة عنده بإشبيلية، أضاف إليهم وزيره أبا بكر ابن زيدون، وعرفهم أربعتهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين، «وهم أبو بكر عبيد الله بن أدهم قاضي قرطبة، وأبو إسحاق بن مُقانا قاضي بطليوس، وأبو جعفر القليعي قاضي غرناطة، وأبو بكر بن زيدون قاضي إشبيلية» (١)، وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف، وترغيبه في الجهاد؛ وأسند إلى ابن زيدون ما لا بد منه في تلك السفارة، من إبرام العقود السلطانية. وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس، مستعطفين، مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته، ووزراء دولته، فيستمع إليهم، ويصغي لقولهم، وترق نفسه لهم؛ فما عبرت رسل ابن عباد البحر إلا ورسل يوسف بالمرصاد؛ وقد آذن صاحب سبتة بقصده الغزو، وتشوقه إلى نصرة أهل الإسلام بالأندلس، وسأله أن يخلي الجيوش تجوز في المجاز؛ فتعذر عليه، فشكاه يوسف إلى الفقهاء، فأفتوا أجمعين بما لا يسر صاحب سبتة. ولما انتهت الرسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم، وأكرم مثواهم، [فلبىّ النّداء وقال: **"أنا أوّل منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا بنفسي"**] (٢) وجددوا الفتوى في حق صاحب سبتة، واتصل ذلك بابن عباد، فوجه من إشبيلية أسطولاً نحو صاحب سبتة، فانتظمت في سلك يوسف، ثم جرت بينه وبين الرسل مراوضات، ثم انصرفت الرسل.

[و أقبل الأسد]

ثم عبر يوسف البحر عبورًا هنيئًا، حتى أتى الجزيرة الخضراء «وكان أول ما

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٢/ ٣١٧).
(٢) «الزلاقة معركة من معارك الإسلام الحاسمة في الأندلس» (١٨٣).

عبر من جيشه قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة، عبرت إلى ثغر الجزيرة الخضراء، ثم أخذت الجيوش المرابطية تعبر تباعاً، حتى تم عبورها جميعاً إلى شبه الجزيرة.وفي يوم الخميس منتصف ربيع الأولى ٤٧٩هـ عبر البطل الشيخ في بقية قواته. وما كادت السفن العابرة تمخر عباب المضيق، حتى اضطرب البحر وتعالت الأمواج، فنهض الزعيم المرابطي حسبما يحدث عن نفسه وسط سفينته، وبسط يديه بالدعاء نحو السماء قائلا: " اللّهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا خيرة للمسلمين، فسهل علينا جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه ". ثم يقول لنا، إنه ما كاد يتم كلامه حتى " سهل الله المركب، وقرب المطلب ". وشاء ربك أن تعبر السفن المرابطية، في ريح طيبة وبحر هادىء، وأن تصل إلى ثغر الجزيرة في سلام»[1] ففتحوا له، وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات، وجعلوا سماطًا أقاموا فيه سوقًا، جلبوا عليه من عندهم من سائر المرافق، وأذنوا للغزاة في دخول البلد، والتصرف فيها، فامتلأت المساجد والرحبات بضعفاء المطوعين وتواصوا بهم خيراً. فلما عبر يوسف وجميع الجيوش، انزعج إلى إشبيلية على أحسن الهيئات، جيشاً بعد جيش، وأميراً بعد أمير، وقبيلاً بعد قبيل؛ وبعث المعتمد ابنه إلى لقاء يوسف، وأمر عمار البلاد بجلب الأقوات والضيافات، ورأى يوسف من ذلك ما سره ونشطه، وتواردت الجيوش مع أمرائها في إشبيلية، وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارسٍ ووجوه أصحابه، فأتى محلة يوسف فركض نحو القوم وركضوا نحوه، فبرز إليه يوسف وحده، والتقيا منفردين، وتصافحا وتعانقا، وأظهر كل واحدٍ منهما المودة والخلوص، فشكرا نعم الله، وتواصيا بالصبر والرحمة، وبشرا نفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر، وتضرعا إلى الله تعالى في أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه، مقربًا إليه وافترقا؛ فعاد

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٢/ ٣١٩).

يوسف لمحلته، ورجع ابن عباد إلى جهته، ولحق بابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحفٍ وألطافٍ، وأوسع بها محلة ابن تاشفين. وباتوا تلك الليلة. فلما صلوا الصبح ركب الجميع؛ وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم إلى إشبيلية، ففعل، ورأى الناس من عزة سلطانه ما سرهم؛ ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر وأعان وخرج وأخرج؛ وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف بكل صقع من أصقاعه، رابطوا وصابروا. «وكانت أنباء عبور المرابطين إلى شبه الجزيرة، قد وصلت إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة، وهو محاصر لسرقسطة، وذلك في (جمادى الأولى سنة ٤٧٩هـ)، فترك الحصار على عجل وتنفس مخنق المستعين بن هود صاحب سرقسطة»[1] ولما تحقق ابن فرذلند جواز يوسف، استنفر جميع أهل بلاده وما يليها، وما وراءها، «فبعث ألفونسو إلى سانشو راميرز ملك أراجون يستدعيه لإنجاده، وكان يومئذ قائماً بحصار طرطوشة، وبعث كذلك إلى أمراء ما وراء البرنية، وحشد كل ما استطاع حشده من قوات جليقية وأشتوريش وبسكونية (نافار)، واستدعى قائده ألبار هانيس بقواته من بلنسية، وتقاطر إليه سيل من الفرسان المتطوعة من جنوبي فرنسا وإيطاليا» ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم، فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة وما يليهم مالا يحصى عدده؛ وجعل يصغي على أبناء المسلمين متغيظًا على ابن عباد جافيًا ذلك عليه، متوعدًا له. وجواسيس كل فريقٍ مترددون بين الجميع، وبعث ابن فرذلند إلى ابن عباد: إن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده، وخاض البحور، وأنا أكفيه العناء فيما بقي، ولا أكلفكم تعبًا، أمضي إليكم، وألقاكم في بلادكم، رفقًا بكم، وتوفيرًا عليكم. وقال لأهل وده ووزرائه: إني رأيت إن أمكنتهم من الدخول إلى بلادي، فناجزوني بين جدرها، وربما كانت الدائرة على، فيكتسحون البلاد، ويحصدون من فيها في

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٢/ ٣٢١ – ٣٢٢) وهكذا الذي يليه.

غداةٍ؛ لكن أجعل يومهم معي في حوز بلادهم، فإن كانت علي اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبةٍ أخرى، فيكون في ذلك صون لبلادي، وجبر لمكاسري! وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أنا أن يكون منهم في وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها! ثم برز بالمختار من أنجاد جموعه على باب دربه، وترك بقية جموعه خلفه.

ترتيب الجيشين وعددهما

«واستقرت الجيوش النصرانية، في مكان يبعد نحو ثلاثة أميال عن المعسكر الإسلامي، يفصل بينها وبين المسلمين فرع وادي يانة الممتد شمالا في اتجاه نهر " التاجُه " والذي يسمى اليوم " جريرو ". وجعل ألفونسو على مقدمة جيشه، قائده ألبار هانيس، وكانت تتألف في معظمها من جنود أراجون، والمتطوعة. وأما الجيش الإسلامي، فيقدره البعض بثمانية وأربعين ألفاً، والبعض الآخر بعشرين ألفاً،[وقيل ثلاثون ألفًا سبعة آلاف منهم من المرابطين].«كان الجيش الإسلامي، ينقسم إلى وحدتين كبيرتين:

* **قوات الأندلس وتنقسم إلى ثلاثة أقسام:**

١- المقدمة ويقودها المعتمد بن عباد

٢- ويقود منها المتوكل بن الأفطس قوات الميمنة

٣- ويشغل أهل شرقي الأندلس الميسرة

* **وأما القوات المرابطية، فكانت تحتل المؤخرة، وتنقسم إلى قسمين:**

١- يضم الأول فرسان البربر من سائر القبائل، ويتولى قيادته داود بن عائشة أبرع قواد البربر.

٢- ويتولى يوسف قيادة الجيش الاحتياطي المؤلف من نخبة أنجاده المرابطين من لمتونة وصنهاجة وغيرهما من القبائل البربرية.وهذا أيضًا **ينقسم إلى قسمين:**

١- قسم بقيادة سير بن أبي بكر اللمتوني

٢- وقسم هو خاصة النخبة وأقوى الجيش بأسًا مع الأمير يوسف بن تاشفين ولبث الجيشان الخصيمان، كل منهما تجاه الآخر لا يفصلهما سوى النهر»«انتهت الجيوش الإسلامية المتحدة في سيرها إلى سهل يقع شمالي بطليوس على مقربة من حدود البرتغال الحالية، ويمتد مصعداً نحو قورية، وتسميه الرواية العربية بالزلاقة»[1] وقال ابن فرذلند حين نظر إلى ما اختاره من جموعه:بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء، فالمقلل يقول: كان هؤلاء المختارون من أجناده أربعين ألف دراع، ولا بد لمن هذه صفته أن يتبعه واحد أو اثنان،[فيصير مجموعهم مائة ألف أو أكثر]. واتفق الكل أن عدة المسلمين كانت أقل من عدة المشركين. ورأى ابن فرذلند في نومه كأنه راكب على فيلٍ، فضرب نقيرة طبلٍ فهالته رؤياه، وسأل عنها القسوس والرهبان فلم يجبه أحد! ودس يهودياً إلى من يعلم تأويلها من المسلمين، فدل على عابر فقصها عليه، ونسبها إلى نفسه، فقال له العابر: كذبت! ما هذه الرويا لك، ولا بد أن تخبرني من صاحبها وإلا لم أعبرها لك! فقال له: اكتم، ذلك هو الفنش بن فرذلند! فقال العابر: قد علمت أنها رؤياه ولا ينبغي أن تكون لغيره، وهي تدل على بلاء عظيمٍ، ومصيبةٍ فادحة، تؤذن بصلبه عما قريب، أما الفيل فقد قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [سورة الفيل: ١].السورة، وأما ضرب النقيرة فقد قال الله تعالى: فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذٍ يوم عسير الآية؛ فانصرف اليهودي إلى ابن فرذلند وجمجم له وذكر له ما وافق خاطره ولم يفسرها له. ثم خرج ابن فرذلند ووفق على الدروب، ومال بجيوشه إلى الجهة الغربية من بلاد الأندلس، وجعل المعتمد ابنه عبد الله على مقدمته، وسار وهو يتفاءل لنفسه، مكملاً البيت المشهور من الكامل:

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٢/ ٣٢٢- ٣٢١) مع زيادة.

لا بد من فرج قريب ❁❁❁ يأتيك بالعجب العجيب
غزو عليك مبارك ❁❁❁ سيعود بالفتح القريب
لله سعدك إنه ❁❁❁ نكس على دين الصليب
لا بد من يوم يكو ❁❁❁ ن أخًا له يوم القليب

وخرج إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد فلقيهم بما يجب من الأقوات والضيافات، وبذل مجهوده، ولما ازدلف بعضهم إلى بعضٍ، أذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكايد ابن فرذلند، إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد، وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قيل إن الرجل من الصحراويين كان يخرج عن طرق محلاتهم لبعض شأنه، أو لقضاء حاجته، فيجد ابن عباد بنفسه مطيفًا بالمحلة بعد ترتيب الكراديس من خيلٍ على أفواه طرق محلاتهم؛ فلا يكاد الخارج منهم من المحلة يخطئ إذ ذاك من لقاء ابن عباد لكثرة تطوافه عليهم.

الدعوة قبل القتال

وكتب يوسف إلى ابن فرذلند يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو يأذن بحربه فامتلأ غيظًا وعتا وطغا وراجعه بما يدل على شقائه، «ومما جاء فيه: **" بلغنا يا أدفونش، أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال** ".فاستشاط ألفونسو لذلك الخطاب غضباً، ورد على أمير المسلمين بكتاب غليظ يفيض بالوعيد، فاكتفى يوسف بأن رد إليه كتابه ممهورًا بتلك العبارة، " الذي يكون ستراه "»[1]وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا صلبهم، ونشروا أناجيلهم، وخرجوا يتبايعون على الموت؛ ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما، وقام الفقهاء والعباد يعظون الناس ويحضونهم على الصبر، ويحذرونهم

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٢/ ٣٢٣).

الفرار؛ وجاءهم الطلائع بخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم، وهو يوم الأربعاء فأصبح المسلمون قد أخذوا مصافهم، فكع ابن فرذلند ورجع إلى إعمال الخديعة، ورجع الناس إلى محلاتهم، وباتوا ليلتهم، ثم أصبح يوم الخميس فأخذ ابن فرذلند في إعمال الحيلة، فبعث لابن عباد يقول: غدًا يوم الجمعة وهو عيدكم، وبعده الأحد وهو عيدنا فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت! فعرف المعتمد بذلك يوسف، فقال: نعم! فقال له المعتمد: هذه خديعة من ابن فرذلند! إنما يريد غدر المسلمين! فلا تطمئن إليه، وليكن الناس على استعدادٍ له طول يوم الجمعة كل النهار! وبات الناس ليلتهم على أهبةٍ واحتراسٍ بجميع المحلات، خائفين من كيد العدو، وبعد مضي جزءٍ من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي وكان في محلة ابن عباد فرحاً مسروراً، يقول إنه رأى النبي ﷺ فبشره بالفتح والشهادة له في صبيحة غدٍ [وهو يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ] وتأهب ودعا ودهن رأسه وتطيب، وانتهى ذلك إلى ابن عباد، فبعث إلى يوسف فخبره بها تحقيقًا لما توقعه من غدر ابن فرذلند، فحذِروا أجمعين، ولم ينفع ابن فرذلند ما حاوله من الغدر. ثم جاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد، يخبران أنهما أشرفا على محلة ابن فرذلند وسمعا ضوضاء الجيوش، واضطراب الأسلحة. ثم تلاحق بقية الطلائع محققين بتحرك ابن فرذلند، ثم جاءت الجواسيس من داخل محلة ابن فرذلند يقولون: استرقنا السمع الساعة فسمعنا ابن فرذلند يقول لأصحابه: ابن عباد مسعر هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون، وإن كانوا أهل حفاظٍ وذوي بصائر في الجهاد، فهم غير عارفين بهذه البلاد، وإنما قادهم ابن عباد، فاقصدوه واهجموا عليه، واصبروا، فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة! وعند ذلك بعث ابن عباد كاتبه أبا بكر بن القصيرة إلى يوسف يعرفه بإقبال ابن فرذلند، ويستحث نصرته، فمضى ابن القصيرة يطوي المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين، فعرفه بجلية الأمر، فقال

له: قل له إني سأقرب منك إن شاء الله تعالى. وأمر يوسف بعض قواده أن يمضي بكتيبةٍ رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها ناراً، ما دام ابن فرذلند مشتغلاً مع ابن عباد. وانصرف ابن القصيرة إلى المعتمد، فلم يصله إلا وقد غشيته جنود ابن فرذلند، فصدمها ابن عباد صدمةً قطعت آماله، ولم ينكشف له، فحميت الحرب بينهما، ومال ابن فرذلند على المعتمد بجموعه، وأحاطوا به من كل جهةٍ ،«فهجمت مقدمة القشتاليين والأرجونيين التي يقودها ألبارهانيس، على مقدمة المسلمين المؤلفة من القوات الأندلسية»[1] فاستحر القتل فيهم وصبر ابن عبادٍ صبرًا لم يعهد مثله لأحد، واستبطأ يوسف وهو يلاحظ طريقه، وعضته الحرب، واشتد البلاء، وأبطأ عليه الصحراويون، وساءت ظنون أصحابه، وانكشف بعضهم، وفيهم ابنه عبد الله، وأثخن ابن عباد جراحات، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته، حتى وصلت إلى صدغيه، وجرحت يمنى يديه، وطعن في أحد جانبيه، وعقرت تحته ثلاثة أفراس، كلما هلك واحد قدم له آخر، وهو يقاسي حياض الموت، ويضرب يميناً وشمالاً، وتذكر في تلك الحالة ابناً له صغيراً، كان مغرماً به، تركه بأشبيلية عليلاً، اسمه العلاء، وكنيته أبو هاشم، فقال " متقارب":

أبا هاشم هشمتني الشفار ❁❁❁ ولله صبري لذاك الأوار

ذكرت شخيصك تحت العجاج ❁❁❁ فلم يثنني ذكره للفرار

ثم كان أول من وافى ابن عباد، من قواد ابن تاشفين، داود بن عائشة، وكان بطلًا شهمًا، فنفس بمجيئه عن ابن عباد.

ثم «دفع يوسف بقوات البربر التي يقودها أبرع قواده، وهو سير بن أبي بكر اللمتوني لإنجاد الأندلسيين والمرابطين معاً، ونفذ بقواته إلى قلب النصارى بشدة، وسرعان ما تغير وجه المعركة، واسترد الأندلسيون والمرابطون ثباتهم، وعاد

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٢/ ٣٢٤).

الفارون إلى صفوفهم. واضطرمت المعركة في هذا الجناح رائعة، ترجح بها كفة المسلمين، "فلما أبصره ابن فرذلند وجه أشكولته إليه، وقصده بمعظم جنوده، وقد كان عمل حساب ذلك من أول النهار، وأعد له هذه الأشكولة، وهي معظم جنوده" وكان ألفونسو، في ذلك الوقت قد تقدم في هجومه، حتى صار أمام خيام المرابطين، واقتحم الخندق الذي يحميها، ولكن حدث في نفس الوقت، أن لجأ يوسف إلى خطة مبتكرة، إذ تقدم في قواته الاحتياطية من لمتونة وصنهاجة، وتجاوز النصارى المهاجمين، وقصد إلى المعسكر النصراني ذاته،وهاجمه بشدة، وكانت تحرسه قوة ضعيفة، ففتك بها، ووثب إلى مؤخرة القشتاليين، وأثخن فيهم من الوراء وطبوله تضرب حول جيشه فيشق دويها الفضاء، ثم أضرم النار في محلة القشتاليين، فارتفعت ألسنتها في الهواء، فلما علم ألفونسو بما حل بمعسكره، ارتد من فوره لينقذ محلته من الهلاك، فاصطدم بمؤخرة المرابطين، ووقعت بين قوات العاهلين معركة هائلة، مزقت فيها صفوف القشتاليين ولم يستطع الملك النصراني أن يصل إلى محلته إلا بعد خسائر فادحة، وهنالك استؤنفت المعركة، ويوسف فوق فرسه يصول ويجول، ويحث جنده على الثبات، ويرغبهم في الاستشهاد، ومن جهة أخرى فقد عمد المرابطون إلى القتال في صفوف متراصة متناسقة ثابتة، وهي أيضاً خطة جديدة لهم في القتال، ولم يكن للفرسان النصارى عهد بمثلها، إذ كانوا معتادين على القتال الفردي. ومن ثم فقد ألفوا أنفسهم بالرغم من تفوقهم في السلاح، عاجزين عن مناهضة هذه الصفوف المتراصة.

واشتد هجوم المرابطين في نفس الوقت بقيادة سير بن أبي بكر على مقدمة القشتاليين التي يقودها ألبارهانيس، واستردت جيوش الأندلس كل إقدامها وشجاعتها، وكثر القتل من الجانبين في صفوف القشتاليين»[1] وانتظم شمل ابن

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٢/ ٣٢٤).

عباد، ووجد ريح الظفر، وتباشر بالنصر، ثم صدقوا جميعًا الحملة، فتزلزلت الأرض بحوافر خيلهم، وأظلم النهار بالعجاج والغبار، وخاضت الخيل في الدماء، وصبر الفريقان صبرًا عظيمًا؛ ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف وحمل معه حملةً نزل معها النصر، وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين، فصدقوا الحملة.

«وكانت الضربة الأخيرة أن دفع يوسف بحرسه الأسود، وقوامه أربعة آلاف مقاتل إلى قلب المعمعة، واستطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة، وأن يطعنه بخنجره في فخذه طعنة نافذة. وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب»[1] فانكشف الطاغية، وفر هاربًا منهزمًا، وقد طعن في إحدى ركبتيه طعنةً بقي أثرها بقية عمره، فكان يخمع منها، فلجأ إلى تلٍ كان يلي محلته في نحو الخمسمائة فارس كلهم مكلوم، وأباد القتل والأسر من عداهم من أصحابهم، وعمل المسلمون بعد ذلك من رؤوسهم صوامع يؤذنون عليها، وابن فرذلند ينظر إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة، فلا يرى إلا نكالًا محيطًا به وبأصحابه. وأقبل ابن عباد على يوسف فصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه، وشكر يوسف مقامه، وحسن بلائه وجميل صبره، وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهزامهم عنه فقال: هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك! ولما انحاز الطاغية بشرذمته، جعل ابن عبادٍ يحرض على اتباع الطاغية، وقطع دابره، فأتى ابن تاشفين واعتذر بأن قال: لو اتبعناه اليوم لقي في طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين إلينا منصرفين، فيهلكهم؛ بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع إلينا أصحابنا، ويجتمعوا بنا، ثم نرجع إليه فنحسم داءه،وابن عباد يرغب في استعجال إهلاكه ويقول: إن فر أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه! ويوسف مصر على الامتناع من ذلك.

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٢/ ٣٢٥).

بقية الجيش العرمرم

ولما جاء الليل تسلل ابن فرذلند وهو لا يلوي على شيء، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحدًا بعد واحدٍ من أثر جراحهم، فلم يدخل طليطلة إلا في دون المائة.

رسالة التبشير بالنصر

وكتب ابن عباد إلى ابنه بإشبيلية: كتابي هذا من المحلة يوم الجمعة من رجب وقد أعز الله الدين، ونصر المسلمين، وفتح لهم الفتح المبين؛ وأذاق المشركين العذاب الأليم، والخطب الجسيم؛ فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه الهزيمة العظيمة، والمسرة الكبيرة، هزيمة إذ فونش أصلاه الله نكال الجحيم، ولا أعدمه الوبال العظيم. بعد إتيان النهب على محلاته، واستئصال القتل في جميع أبطاله وأجناده، وحماته وقواده. حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها، فلله الحمد على جميل صنعه، ولم يصبني بحمد الله تعالى إلا جراحات يسيرة ألمت، لكنها قرحت بعد ذلك، وغنمت وظفرت. «وكتب يوسف بأنباء الواقعة و بالفتح إلى بلاد العدوة (المغرب)، وكتب رسالته المسهبة عن الموقعة وأوصافها إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية، وهي التي أشرنا إليها فيما تقدم غير مرة. وتجاوبت أصداء النصر في سائر مدن المغرب وإفريقية، وعم الفرح والبشر سائر الناس، فأخرجوا الصدقات، وأعتقوا الرقاب»[1]ولما فرغ يوسف من وقيعة يوم الجمعة، تواردت عليه أبناء من قبل السفن، فلم يجد معها بدًا من سرعة الكرة، فانصرف إلى إشبيلية، فأراح بظاهرها ثلاثة أيام، ونهض نحو بلاده، ومشى ابن عباد معه يومًا وليلةً. فعزم عليه يوسف في الرجوع، وكانت جراحاته تثعب وتورم كلم رأسه، فرجع وأمر ابنه بالمسير بين يديه إلى فرضه المجاز حتى يعبر البحر إلى بلده. ولما دخل ابن عباد إشبيلية جلس للناس وهنى بالفتح، وقرأت القراء، وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوه. قال عبد الجليل بن وهبون: حضرت ذلك اليوم، وأعددت

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٢/ ٣٢٨).

قصيدة أنشده إياها، فقرأ القارئ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ۝٤٠﴾ [سورة التوبة: ٤٠]. " فقلت: بعدًا لي ولشعري! والله ما أبقت لي هذه الآية معنًى أحضره إليه، وأقوم به. وطار ذكر ابن عباد بهذه الوقيعة، وشهر مجده، ومالت إليه القلوب، وسالمه ملوك الطوائف، وخاطبوه جميعًا بالتهنئة، ولم يزل ملحوظًا معظمًا.

ما ذكر من شأن الغنيمة

يشير يوسف في رسالته بالفتح إلى المعز بن باديس، إلى وفرة الغنائم من الخيل والبغال والحمير والثياب والأوباريقول لنا إن الفارس الواحد كان يربط معه خمسة أفراس أو أزيد[1].

ذكر عدد الشهداء رحمهم الله تعالى

قال صاحب روض القرطاس إن المسلمين لم يخسروا في المعركة سوى نحو ثلاثة آلاف قُتل من أكابر المرابطين نحو العشرين فاستشهد في ذلك اليوم جماعة من أعيان الناس، كابن رميلة المتقدم الذكر وقاضي مراكش أبي مروان عبد الملك المصمودي وغيرهما.

خاتمة جليلة المعنى

قال مؤلف هذا الكتاب رحمة الله تعالى عليه: (صفة جزيرة الأندلس) قد خالفت بشرح هذه الوقيعة شرط الاختصار لحلاوة الظفر في وقت نزول الهموم، ووقوعها في الزمن الخامل، والله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء وهو المستعان!

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٢/ ٣٢٥).

(ملخص معركة الزلاقة الفاصلة)

١- اسم المعركة : الزلاقة.

٢- مكان المعركة : كانت المعركة في سهل يقع على قيد ثلاثة مراحل من شمال بطليوس إلى يسار نهر جريرو، أحد أفرع وادي يانة غرب الأندلس على مقربة من حدود البرتغال الحالية، ويمتد مصعداً نحو قورية،وتسميه الرواية العربية بالزلاقة.

٣- تاريخ المعركة: قيل في الثاني عشر من رجب (١٢/رجب/٤٧٩هـ)وقيل في أوئل رمضان من العام نفسه.

٤- الفريقان المتقاتلان :

١- المسلمون: بقيادة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني و الملك أبو القاسم المعتمد بن عباد رحمة الله عليهما.

٢- النصارى: بقيادة ملك النصارى الفونس السادس ملك قشتالة.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما:

١- كان عدد الجيش الإسلامي ثلاثون ألف سبعة آلاف منهم من المرابطين.

كان الجيش الإسلامي، ينقسم إلى وحدتين كبيرتين:

*** قوات الأندلس وتنقسم إلى ثلاثة أقسام:**

١- المقدمة ويقودها المعتمد بن عباد

٢- ويقود منها المتوكل بن الأفطس قوات الميمنة

٣- ويشغل أهل شرقي الأندلس الميسرة

*** وأما القوات المرابطية، فكانت تحتل المؤخرة، وتنقسم إلى قسمين:**

١- يضم الأول فرسان البربر من سائر القبائل، ويتولى قيادته داود بن عائشة أبرع قواد البربر.

٢- ويتولى يوسف قيادة الجيش الاحتياطي المؤلف من نخبة أنجاده المرابطين من لمتونة وصنهاجة وغيرهما من القبائل البربرية.وهذا أيضًا **ينقسم إلى قسمين:**

١ – قسم بقيادة سير بن أبي بكر اللمتوني

٢ – وقسم هو خاصة النخبة وأقوى الجيش بأسًا مع الأمير يوسف بن تاشفين

❊ **شارك فيها من أهل العلم:** الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي وغيره.

٢ – الصليبيون :

❊ كانوا أربعين ألف من المختارين ومن كان هذا حاله فلا بد أن يكون له تابع أو تابعان ،فيصير مجموعهم نحو مائة ألف إلى مائة وعشرين ألفًا.

❊ وجعل ألفونسو على مقدمة جيشه، قائده ألبار هانيس، وكانت تتألف في معظمها من جنود أراجون، والمتطوعة.

❊ ومن أبرز القادة الذين مع ألفونسو :سانشو راميرز ملك أراجون.

٦ – سبب المعركة :

١ – كان السبب في ذلك فساد الصلح المنعقد بين الطاغية وبين المعتمد؛ فإن المعتمد اشتغل عن أداء الضريبة في الوقت الذي صارت عادته يؤديها فيه، بغزو ابن صمادح صاحب المرية، واستنفاده ما في يديه بسبب ذلك، فتأخر لأجل ذلك أداء الإتاوة عن وقتها، فاستشاط الطاغية غضباً، وتشطط فطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة، وأمعن في التجني، فسأل في دخول امرأته إلى جامع قرطبة لتلد فيه من حملٍ كان بها، حيث أشار إليه بذلك القسيسون والأساقفة، لمكان كنيسةٍ كانت في الجانب الغربي منه، ومعظمةٍ عندهم، عمل المسلمون عليها الجامع الأعظم؛ وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بمدينة الزهراء غربي مدينة قرطبة، فتختلف منها إلى الجامع المذكور، حتى تكون تلك الولادة بين طيب نسيم الزهراء، وفضيلة ذلك الموضع الموصوف من الجامع، وزعم أن الأطباء، أشاروا عليه بالولادة في الزهراء.

٢ – الاختلاف بين المسلمين والاقتتال فيما بينهم.

٣- الاستعانة بالنصارى في حروبهم مع بعضهم بدون نظر في العواقب مما جرأ النصارى على المطالبة بحصون وقلاع ومدن وجزية وماكانوا يحلمون بها.

٤- التقصير في حق رب العالمين سبحانه وتعالى والتجرؤ على معصيته ففشا في بلاد الأندلس آنذاك شرب الخمر والاستماع للمغنيات وهذان يوصلان إلى الفاحشة بأيسر السبل وسفك الدماء من أجل الملك وغير هذا من المخالفات.

٥- الانشغال بالدنيا وبالرفاهية عن الجهاد وعن كثير من مقاصد الدين ولذلك قدم عليهم يوسف بن تاشفين مرتين فلما رأى تثاقلهم في المرة الثانية مع كثرة العدد والعُدد أضافها إلى حكم دولة المرابطين.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- «قد كان يوم الزلاّقة من أيام الإسلام المشهودة في انتصاره على النصرانية. ومن الواضح أن لقاء الإسلام والنصرانية في سهول الزلاقة، إنما هو صفحة من سيرة الحروب الصليبية التي كانت إسبانيا أول مهاد لها. والتي اضطرمت بعد ذلك بقليل في المشرق، في الوقت الذي كانت تضطرم فيه في إسبانيا. فموقعة الزلاقة تعني في الواقع أكثر من هزيمة لملك قشتالة، وأكثر من ظفر للمرابطين وحلفائهم الطوائف إن تصرف ألفونسو ملك قشتالة عقب الموقعة، ليؤكد هذا المعنى الصليبي، الذي ينطوي عليه لقاء الزلاقة. فهو قد شعر بأن ذلك التحالف بين الإسلام في إفريقية والأندلس، يوشك أن يقضي على إسبانيا النصرانية ومن ثم فقد بعث برسله وكتبه إلى الملوك والأمراء النصارى فيما وراء البرنيه، يهيب بهم ويحذرهم من الخطر الداهم، وينذرهم بأنهم إذا لم يتداركوه بالعون، فإنه سوف يضطر إلى الصلح مع المسلمين، وسوف يتركهم أحراراً في عبور البرنيه»[«دولة الإسلام في الأندلس» (٢/ ٣٣٠)].

٢- انتصار المسلمين على أعدائهم بعون الله ثم بالتعاون واجتماع الكلمة ضد أعداء الدين.

٣- التخفيف على المدن المحاصرة في الأندلس مثل سرقسطة التي لم يترك الفونسو حصارها إلى حين سمع بقدوم المرابطين.

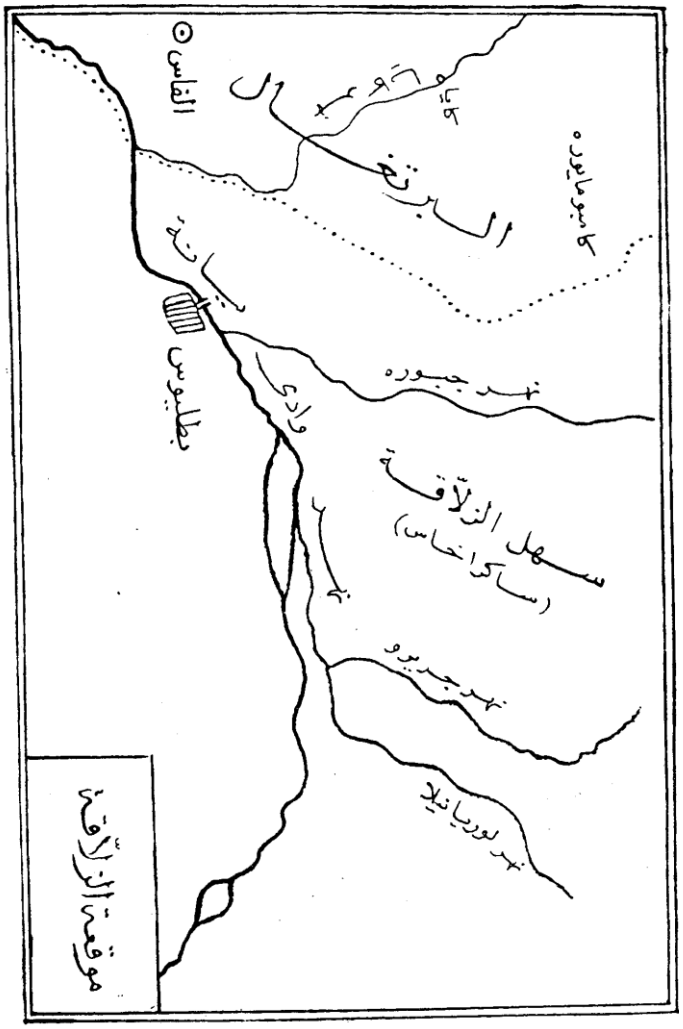
٤- العلم بأن الكفار لا يهابون المسلمين المتناحرين والمختلفين، وإنما يهابون المستمسكين بالدين المظهرين تعاليمه فالمرابطون سموا بذلك لأنهم كانوا يطلبون العلم في رباط الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي الذي رباهم على حب الإسلام والمسارعة في نشره والغيرة عليه ومحاربة من عاداه وحاربه.

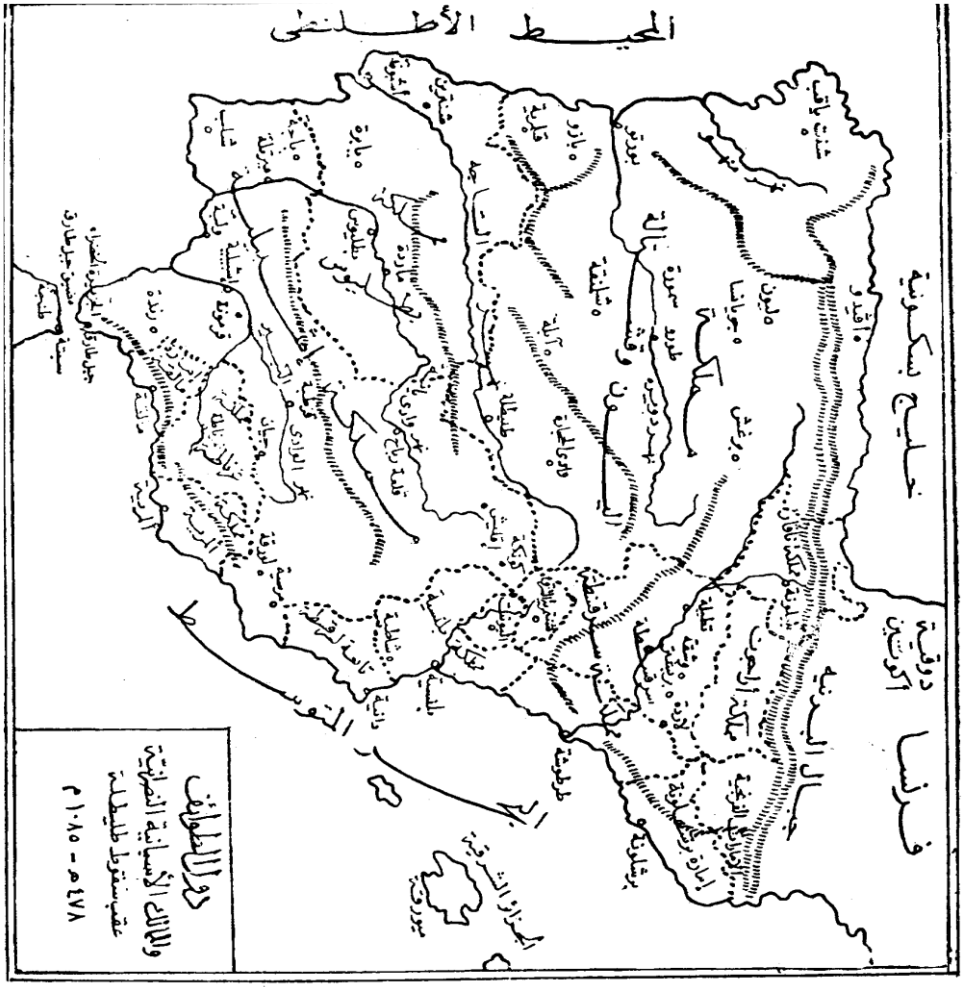
٥- ذهب جيش الصليبيين الذي جمعه ملك قشتالة في يوم واحد وهكذا على مدى الأزمان يصنع الله بهم كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الأنفال:٣٦].

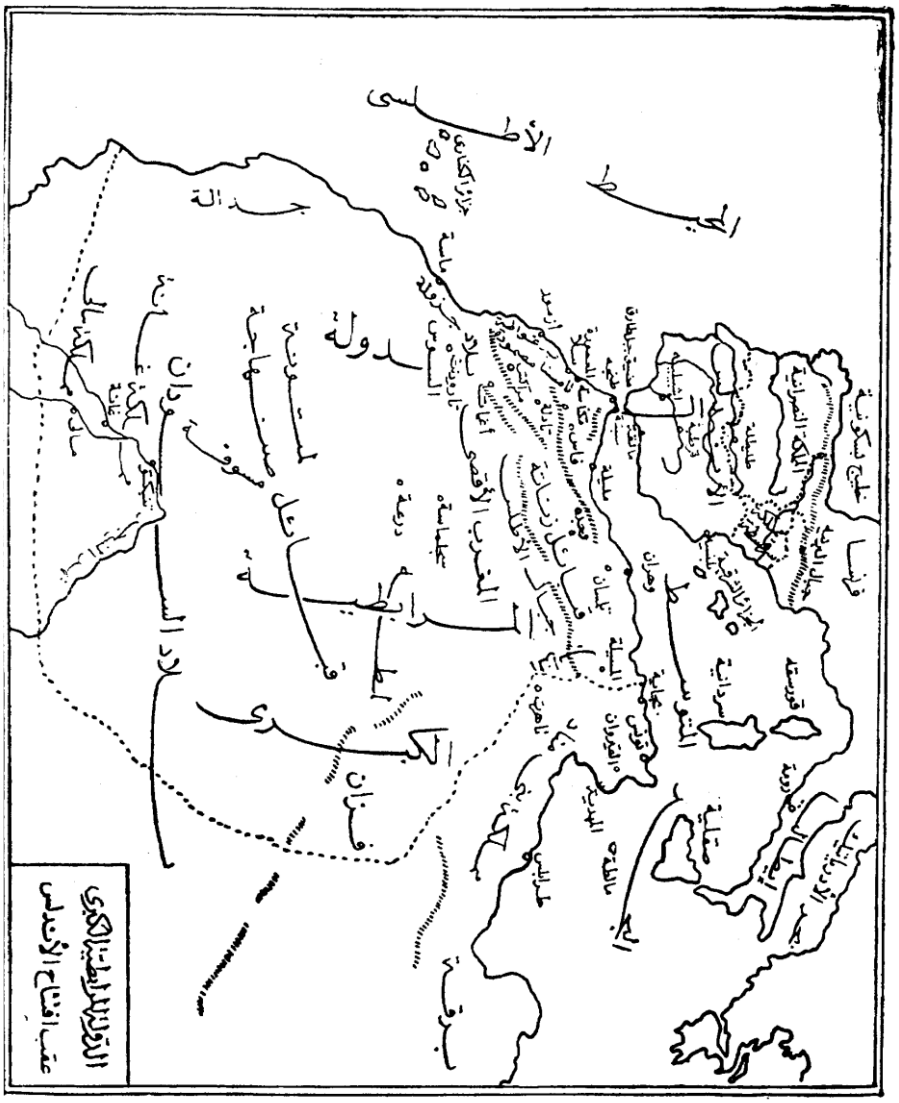
٦- «قد استطاع المرابطون على وجه العموم حتى أواخر عهدهم، الذي استطال بالأندلس زهاء خمسين عاماً، أن يحافظوا على رقعة الوطن الأندلسي، ولم يصدع من كفاحهم ضد النصارى، سوى قيام الثورة عليهم في مختلف القواعد، عند ظهور الموحدين وعبورهم إلى الأندلس» [«دولة الإسلام في الأندلس» (٣/ ٢٧)] وكان من الشروط التي اشترطها يوسف على ولده وولي عهده علي، فيما يختص بالدفاع عن الأندلس، هو ألاّ يعين في مناصب الحكام والقضاة في الولايات والحصون والمدن إلا المرابطين من قبيلة لمتونة، وأن ينشىء بها جيشاً مرابطياً ثابتاً، قوامه سبعة عشر ألف فارس، توزع على مختلف القواعد، فيرابط منها بإشبيلية سبعة آلاف، وبقرطبة ألف، وبغرناطة ألف، وفي شرقي الأندلس أربعة آلاف، وتوزع الأربعة آلاف الباقية على الثغور والحصون المتاخمة لأراضي العدو. هذا ويحسن أن يعهد إلى الأندلسيين بحراسة الحدود النصرانية، فهم أكثر خبرة بأحوال النصارى، وأكثر دربة على قتالهم من المرابطين [«دولة الإسلام في الأندلس» (٣/ ٤٦)].

٧- لما مات يوسف خلفه ابنه علي بن يوسف، فواصل جهاد والده وانتصر على نصارى الأسبان في موقعة أقليش عام ٥٠٢ هـ وهي أعظم موقعة بعد موقعة الزلاقة بعد ذلك أخذت الدولة تضعف وتضمحل، حتى قضى عليها الموحدون سنة ٥٤١هـ. [موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر (ص٢٤٦)]

٨- خريطة موقعة الزلاّقة: من كتاب دولة الإسلام في الأندلس:




المحيط الأطلنطى
خليج بسكونية
فرنسا
دوقية أكوتين
جبال البرنيه
مملكة نافار
مملكة أرجون
مملكة قشتالة
مملكة ليون
مملكة البرتغال
بحر الروم
بحر القسطنطينية
دول الطوائف والممالك الإسبانية النصرانية عقب سقوط طليطلة ١٠٨٥ م - ٤٧٨ هـ


الأطلسي
المحيط
خليج بسكونية
فرنسا
جبال البرانس
الأندلس
طليطلة
قرطبة
سرقسطة
سردانية
المتوسط
صقلية
مالطة
البحر
برقة
طرابلس
قابس
القيروان
تونس
بجاية
تلمسان
وهران
فاس
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
الدولة المستونية
الدولة الحفصية
بلاد السودان
الرابطة الكبرى
الدولة الزيانية
الدولة المرينية
الدولة العبدلية
الدولة الزيانية
الدولة الحفص



المعركة الرابعة عشرة من معارك الإسلام الفاصلة: حطين

مقدمة توضح الحملات الصليبية السبع وهي من ٤٨٩ - ٦٩٢ هـ

[كانت معركة حطين من المعارك التي خاضها المسلمون ضد الصليبيين وحملاتهم المجرمة على بلاد الإسلام] وهي الحملات التي وجهها النصارى في أوروبا إلى الشرق الأوسط للاستيلاء على بيت المقدس، وكان البابا هو الذي يثير الحماس ويدعو للقتال.

أسباب الحملات الصليبية:

١- أخذت تسميتها من الصليب دلالة على أن الدِّين كان من أهم أسبابها.

٢- رغبة البابوية الصليبية بالقضاء على الإسلام.

٣- أسباب تجارية: الرغبة في امتلاك موانئ على البحر المتوسط لربط تجارتهم بالشرق.

٤- انتشار الحروب والمجاعات والأمراض والإقطاع في أوروبا جعلهم يبحثون عن أرض غنية.

٥- انحلال وضعف وتفرق الجبهة الإسلامية.

٦- انتقامًا لهزيمة البيزنطيين المروعة في معركة ملاذكرد سنة ٤٦٣ هـ.

* قدمت الحملة الأولى ٤٨٩ هـ [وكانت الحملة موزعة على ثلاثة حشود فأما الحشد الأول] فتصدى لهم السلاجقة وأفنوهم.[وأما الثاني والثالث] تتابع قدومهم من أوربا حتى استطاعوا الاستيلاء على بيت المقدس [يوم الجمعة ٢٢/شعبان ٤٩٢هـ وكان بيد العبيديين الباطنية قبحهم الله]وأخذوا معظم بلاد

الشام عام ٤٩٣ هـ فارتكبوا مجزرة أليمة وحشية، حيث أبادوا جميع سكان القدس من المسلمين [وكانوا سبعين ألفًا] وكذا أبادوا اليهود وخوارج النصارى، واستولوا على جميع ممتلكاتهم، وأقاموا الإمارات التالية الرها، أنطاكية، بيت المقدس، طرابلس. ثم تتالت الحملات من أوروبا، وأشهرها وأهمها الحملات السبع. في هذه الفترة حصلت الحملات الصليبية الأوروبية الحاقدة على بلاد المسلمين (الأندلس، الشام، مصر)، واحتلوا بلاد الشام،فبرزت دول في هذه المرحلة كان لها أثر كبير في محاربة الصليبيين، كدولة المرابطين ثم الموحدين (في المغرب والأندلس)، والدولة الزنكية ثم الأيوبية (في مصر والشام)، وسيأتي الحديث عن [بعضها] (١).فنبدأ مستعينين بالله فنقول:

تمهيد بذكر ترجمة بطل المعركة رحمه الله:

قال الذهبي «صَلَاحُ الدِّيْنِ السُّلْطَانُ الكَبِيْرُ، المَلِكُ النَّاصِرُ، صَلَاحُ الدِّيْنِ، أَبُو المُظَفَّرِ يُوْسُفُ ابْنُ الأَمِيْرِ نَجْمِ الدِّيْنِ أَيُّوْبَ بنِ شَاذِي بنِ مَرْوَانَ بنِ يَعْقُوْبَ الدُّوِيْنِيُّ ، ثُمَّ التِّكرِيتِيُّ المَوْلِد وُلِدَ فِي: سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِيْنَ وَخَمْسِمائَةٍ إِذْ أَبُوْهُ نَجْم الدِّيْنِ مُتَوَلِّي تِكرِيتَ نِيَابَةً.وَدُوِيْنُ: بُليدَة بِطرف أَذْرَبِيْجَان مِنْ جِهَةِ أَرَان وَالكَرَجِ، أهلهَا أَكرَادٌ هَذَبَانِيَّة.وَكَانَ نُوْر الدِّيْنِ قَدْ أَمَّرَه، وَبعثَه فِي عَسْكَره مَعَ عَمّه أَسَد الدِّيْنِ شِيرْكُوْه، فَحكم شِيرْكُوْه عَلَى مِصْرَ، فَمَا لَبِثَ أَنْ تُوُفِّيَ [٥٦٤هـ]، فَقَامَ بَعْدَهُ صَلَاح الدِّيْنِ، وَدَانت لَهُ العَسَاكِر، وَقهر بنِي عُبَيْد، وَمحَا دَوْلَتهُم،[سنة ٥٦٧هـ] وَاسْتَوْلَى عَلَى قَصْر القَاهِرَة بِمَا حوَى مِنَ الأَمتعَة وَالنَّفَائِس،وَخلَا القَصْر مِنْ أَهْلِهِ وَذخَائِره، وَأَقَامَ الدعوَة العَبَّاسِيَّة.وَكَانَ خليقاً لِلإِمَارَة، مَهِيْباً، شُجَاعاً، حَازِماً، مُجَاهِداً، كَثِيْر الغَزْو، عَالِي الهِمَّة، كَانَتْ دَوْلَته نَيِّفاً وَعِشْرِيْنَ سَنَةً.وَتَمَلَّكَ بَعْدَ نُوْر الدِّيْنِ،[في شوال سنة

(١) موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر (ص٢١٤/٢١٥)و (ص٢١٢)، وانظر ملخص معركة المنصورة للتعرف على أهم معلومات حول الحملات الصليبية.

٥٦٩هـ] وَاتَسَعت بلَاده.وَمنذ تسلطَنَ، طَلّق الخَمْر وَاللَّذَات، وَأَنشَأَ سوراً عَلَى القَاهِرَة وَمِصْر[١].

وحدة المسلمين قبل الجهاد:

كان لنجاح «صلاح الدين» في التغلب على الفتن الداخلية التي واجهته منذ أن أصبح وزيرًا بمصر، وارتداد الحملة الصليبية إلى «دمياط» سنة (٥٦٤هـ) أكبر الأثر في ذيوع اسمه في أرجاء العالم الإسلامى، ونظر إليه الناس نظرة إجلال، واعتبروه أحد القادة العظماء؛ لوقوفه في وجه الصليبيين، ونجاحه في فتح«اليمن»،ونجاحه في القضاء على حركة الشاعر «عمارة اليمن»، الذى طالما مدح الفاطميين وأيامهم، واعتبر الأيوبيين مغتصبين للعرش الفاطمي، فعمل على إعادة الحكم للفاطميين، ودعا عددًا كبيرًا من الجند، وانضم إليه المناصرون وبقايا الفاطميين، وأصبحت حركته خطرًا يهدد دولة الأيوبيين الوليدة، إلا أن «صلاح الدين» تمكن من إفشالها، وقبض على قادتها وقد أثرت وفاة «نور الدين محمود» على دولته في بلاد الشام، وقام تنازع شديد بين الأمراء على مَن يعتلي العرش، وانتهى الأمر بتولية «إسماعيل بن نور الدين» عرش أبيه وهو مايزال في الحادية عشرة منْ عمره، فوقع فريسة للصراع بين الأمراء، وضاعت بذلك هيبة الدولة النورية وقوتها، وبدت عليها مظاهر التفكك والضعف لدرجة أن أحد الأمراء لم يقو على مواجهة الفرنجة وقتالهم، فعمل على مهادنتهم واسترضائهم بالمال؛ ليأمن شرهم ويتجنب مواجهتهم.كان «صلاح الدين» متابعًا للأحداث التي تجري في العالم الإسلامي من حوله، فقرر التدخل في شؤون «الشام» وضمه إلى «مصر» كي يحول دون وقوعه غنيمة في أيدي الصليبيين، وليحمي «مصر» والإمارات الإسلامية من أي خطر يهددها، وجعل هدفه توحيد صفوف المسلمين وقوتهم في جبهة واحدة؛ ليتمكنوا من صد

(١) «سير أعلام النبلاء – ط الرسالة» (٢١/ ٢٧٨).

الصليبيين وحصرهم بين شِقَّى الرحى في الجزيرة والشام من جهة، وفي «مصر» من جهة أخرى، وانتظر «صلاح الدين» الفرصة لتحقيق ذلك حتى واتته الفرصة حين استنجد به بعض أمراء «دمشق»، فسار إلى الشام وتمكن دون قتال من السيطرة والاستيلاء على «دمشق» سنة(٥٧٠هـ)، ثم على «حمص» و «حماة»، وحال الملك «الصالح إسماعيل» دون دخوله إلى «حلب»، فقرر «صلاح الدين» حصارها فاستنجد أهالى «حلب» بأعداء الدولة، واضطر «صلاح الدين» إلى فك الحصار عن «حلب»، واستولى على «بعلبك» ليحمي جيشه من الخلف، ثم عاد ثانية لحصار «حلب»، وأعلن استقلاله، وحذف اسم«الصالح إسماعيل» من الخطبة، واتصل بالخليفة العباسي، فمنحه لقب سلطان.بعد حصول «صلاح الدين» على لقب السلطان استقل عن أسرة «نورالدين»، وأصبح حاكم «مصر» الرسمي، وقوي مركزه باستيلائه على «منبج» و «إعزاز»، وشدد حصاره على «حلب»، وعزلها عن جيرانها حتى طلب «الصالح إسماعيل» الصلح، فوافق «صلاح الدين»؛ لأن هدفه كان وحدة المسلمين وحماية بلادهم.تُوفي صاحب «الموصل» سنة (٥٧٨هـ)، ومن بعده تُوفي «الصالح إسماعيل»، فعاد الانقسام ثانية من أجل الوصول إلى كرسي الحكم،فزحف «صلاح الدين» إلى الشام في سنة (٥٧٨هـ)، وانضمت إليه بعض المدن دون قتال، واستولى على «حلب»، وبذا أصبح شمال الشام كله تحت سيطرته، ولم يعد أمامه سوى مدينة «الموصل» التي سعى حاكمها إلى التصالح مع «صلاح الدين»، وتعهد بإرسال المساعدات الحربية إذا طُلب منه ذلك، فخضعت بذلك جميع الإمارات الإسلامية الشامية تحت سلطان «صلاح الدين»، وتمكن من توحيد كلمة المسلمين تمهيدًا للنضال ضد الصليبيين. ظل «صلاح الدين» يعمل على توحيد العالم الإسلامى مدة عشر سنوات في الفترة من سنة (٥٧٢هـ) إلى سنة (٥٨٢هـ)، حتى تحقق له ما أراد، واستعد لمواجهة الصليبيين المتربصين بالعالم الإسلامي، ثم تصدَّى لهم، فسجل التاريخ أبرز صور البطولة، وأسمى درجات

الفداء والجهاد ضد هؤلاء المغتصبين، وكان من أبرز هذه المعارك واقعة حِطِّين الآتي ذكرها [١].

بين يدي المعركة الكبرى ذِكْرُ حَصْرِ صَلَاحِ الدِّينِ الْكَرَكَ

قال ابن الأثير – رحمه الله في [«الكامل في التاريخ» (١٠/ ٢٠ -١٠/ ٢٧)] ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَة(٥٨٣هـ) فِي هَذِهِ السَّنَةِ كَتَبَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ يَسْتَنْفِرُ النَّاسَ لِلْجِهَادِ، وَكَتَبَ إِلَى الْمَوْصِلِ وَدِيَارِ الْجَزِيرَةِ وَإِرْبِلَ وَغَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الشَّرْقِ، وَإِلَى مِصْرَ وَسَائِرِ بِلَادِ الشَّامِ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجِهَادِ، وَيَحُثُّهُمْ عَلَيْهِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِالتَّجَهُّزِ لَهُ بِغَايَةِ الْإِمْكَانِ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ دِمَشْقَ، أَوَاخِرَ الْمُحَرَّمِ، فِي عَسْكَرِهَا الْخَاصِّ، فَسَارَ إِلَى رَأْسِ الْمَاءِ، وَتَلَاحَقَتْ بِهِ الْعَسَاكِرُ الشَّامِيَّةُ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَعَلَ عَلَيْهِمْ وَلَدَهُ الْمَلِكَ الْأَفْضَلَ عَلِيًّا لِيَجْتَمِعَ إِلَيْهِ مَنْ يَرِدُ إِلَيْهِ مِنْهَا، وَسَارَ هُوَ إِلَى بُصْرَى، جَرِيدَةً. وَكَانَ سَبَبُ مَسِيرِهِ وَقَصْدِهِ إِلَيْهَا أَنَّهُ أَتَتْهُ الْأَخْبَارُ أَنَّ الْبِرِنْسَ أَرْنَاطَ، صَاحِبَ الْكَرَكِ، يُرِيدُ أَنْ يَقْصِدَ الْحُجَّاجَ لِيَأْخُذَهُمْ مِنْ طَرِيقِهِمْ، وَأَظْهَرَ أَنَّهُ إِذَا فَرَغَ مِنْ أَخْذِ الْحُجَّاجِ يَرْجِعُ إِلَى طَرِيقِ الْعَسْكَرِ الْمِصْرِيِّ يَصُدُّهُمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ، فَسَارَ إِلَى بُصْرَى لِيَمْنَعَ الْبِرِنْسَ أَرْنَاطَ مِنْ طَلَبِ الْحُجَّاجِ، وَيَلْزَمَ بَلَدَهُ خَوْفًا عَلَيْهِ. وَكَانَ مِنَ الْحُجَّاجِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَقَارِبِهِ مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ لَاجِينَ، وَهُوَ ابْنُ أُخْتِ صَلَاحِ الدِّينِ، وَغَيْرُهُ، فَلَمَّا سَمِعَ أَرْنَاطُ بِقُرْبِ صَلَاحِ الدِّينِ مِنْ بَلَدِهِ لَمْ يُفَارِقْهُ، وَانْقَطَعَ عَمَّا طَمِعَ فِيهِ، فَوَصَلَ الْحُجَّاجُ سَالِمِينَ.«وكان أرناط هذا اللعين كافراً جباراً شديداً وكانت قد اجتازت به قافلة من مصر [سوى هذه]حين كان بين المسلمين وبينهم هدنة فغدرها وأخذها ونكل بهم وعذبهم وأسكنهم المطامير والحبوس الحرجة وذكروا له حديث الهدنة فقال قولوا لمحمدكم يخلصكم فلما بلغ

---

(١) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٥/ ٥١).

صَلَاح الدِّينِ رحمه الله ذلك عنه نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه»[١].

فَلَمَّا وَصَل الحجاج وَفَرَغَ مِنْ جِهَتِهِمْ سَارَ إِلَى الْكَرَكِ فَحَصَرَهُ وَضَيَّقَ عَلَيْهِ وَانْتَظَرَ وُصُولَ الْعَسْكَرِ الْمِصْرِيِّ، فَوَصَلُوا إِلَيْهِ عَلَى الْكَرَكِ، وَبَثَّ سَرَايَاهُ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وِلَايَةِ الْكَرَكِ وَالشَّوْبَكِ وَغَيْرِهِمَا، فَنَهَبُوا وَخَرَّبُوا وَأَحْرَقُوا، وَالْبِرِنْسُ مَحْصُورٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَنْعِ عَنْ بَلَدِهِ. وَسَائِرُ الْفِرِنْجِ قَدْ لَزِمُوا طَرَفَ بِلَادِهِمْ، خَوْفًا مِنَ الْعَسْكَرِ الَّذِي مَعَ وَلَدِهِ الْأَفْضَلِ، فَتَمَكَّنَ مِنَ الْحَصْرِ وَالنَّهْبِ وَالتَّحْرِيقِ وَالتَّخْرِيبِ.

ذِكْرُ الْغَارَةِ عَلَى بَلَدِ عَكَّا

أَرْسَلَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى وَلَدِهِ الْأَفْضَلِ يَأْمُرُهُ أَنْ يُرْسِلَ قِطْعَةً صَالِحَةً مِنَ الْجَيْشِ إِلَى بَلَدِ عَكَّا يَنْهَبُونَهُ وَيُخَرِّبُونَهُ، فَسَيَّرَ مُظَفَّرَ الدِّينِ كَوْكَبْرِيَّ بْنَ زَيْنِ الدِّينِ، وَهُوَ صَاحِبُ حَرَّانَ وَالرُّهَا، وَأَضَافَ إِلَيْهِ قَايْمَازَ النَّجْمِيَّ وَدِلْدِرْمَ الْيَارُوقِيَّ - وَهُمَا مِنْ أَكَابِرِ الْأُمَرَاءِ - وَغَيْرَهُمَا فَسَارُوا لَيْلًا، وَصَبَّحُوا صَفُّورِيَّةَ أَوَاخِرَ صَفَرٍ. فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الْفِرِنْجُ فِي جَمْعٍ مِنَ الدَّاوِيَّةِ وَالِاسْبِتَارِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا، فَالْتَقَوْا هُنَاكَ، وَجَرَتْ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ تَشِيبُ لَهَا الْمَفَارِقُ السُّودُ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى نَصْرَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَانْهَزَمَ الْفِرِنْجُ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ، وَأُسِرَ الْبَاقُونَ، وَفِيمَنْ قُتِلَ مُقَدَّمُ الِاسْبِتَارِيَّةِ، وَكَانَ مِنْ فُرْسَانِ الْفِرِنْجِ الْمَشْهُورِينَ، وَلَهُ الْنكايَاتُ الْعَظِيمَةُ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَنَهَبَ الْمُسْلِمُونَ مَا جَاوَرَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ، وَغَنِمُوا وَسَبَوْا، وَعَادُوا سَالِمِينَ، وَكَانَ عَوْدُهُمْ عَلَى طَبَرِيَّةَ، وَبِهَا الْقُمُّصُ، فَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ، فَكَانَ فَتْحًا كَبِيرًا، فَإِنَّ الدَّاوِيَّةَ وَالِاسْبِتَارِيَّةَ هُمْ جَمْرَةُ الْفِرِنْجِ، وَسُيِّرَتِ الْبَشَائِرُ إِلَى الْبِلَادِ بِذَلِكَ.

ذِكْرُ عَوْدِ صَلَاحِ الدِّينِ إِلَى عَسْكَرِهِ ، وَدُخُولِهِ إِلَى الْفِرِنْجِ

لَمَّا أَتَتْ صَلَاحَ الدِّينِ الْبِشَارَةُ بِهَزِيمَةِ الِاسْبِتَارِيَّةِ وَالدَّاوِيَّةِ، وَقَتْلِ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، وَأَسْرِ مَنْ أُسِرَ، عَادَ عَنِ الْكَرَكِ إِلَى الْعَسْكَرِ الَّذِي مَعَ وَلَدِهِ الْمَلِكِ الْأَفْضَلِ، وَقَدْ تَلَاحَقَتْ سَائِرُ الْأَمْدَادِ وَالْعَسَاكِرِ، وَاجْتَمَعَ بِهِمْ، وَسَارُوا جَمِيعًا.

---

(١) «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين الأيوبي» (ص٦٩).

عدد جيش المسلمين ، وترتيبهم

وَعَرَضَ الْعَسْكَرَ، فَبَلَغَتْ عِدَّتُهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ فَارِسٍ مِمَّنْ لَهُ الْأَقْطَاعُ وَالْجَامَكِيَّةُ، سِوَى الْمُتَطَوِّعَةِ، فَعَبَّأَ عَسْكَرَهُ.

١- قَلْبًا

٢- ٣- وَجَنَاحَيْنِ، مَيْمَنَةً وَمَيْسَرَةً

٤- وجاليشية وهم الرماة

٥- وَسَاقَةً، وَعَرَفَ كُلٌّ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ وَمَوْقَفَهُ، وَأَمَرَهُ بِمُلَازَمَتِهِ. وَسَارَ عَلَى تَعْبِئَةٍ، فَنَزَلَ بِالْأُقْحُوَانَةِ بِقُرْبِ طَبَرِيَّةَ، وَكَانَ الْقُمُّصُ قَدِ انْتَمَى إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ، كَمَا ذَكَرْنَا، وَكُتُبُهُ مُتَّصِلَةٌ إِلَيْهِ يَعِدُهُ النُّصْرَةَ، وَيُمَنِّيهِ الْمُعَاضَدَةَ، ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾[سورة النساء:١٢٠].فَلَمَّا رَأَى الْفِرِنْجُ اجْتِمَاعَ الْعَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتَصْمِيمَ الْعَزْمِ عَلَى قَصْدِ بِلَادِهِمْ، أَرْسَلُوا إِلَى الْقُمُّصِ الْبَطْرَكَ وَالْقُسُوسَ وَالرُّهْبَانَ، وَكَثِيرًا مِنَ الْفُرْسَانِ، فَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ انْتِمَاءَهُ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ، وَقَالُوا لَهُ: لَا شَكَّ أَنَّكَ أَسْلَمْتَ، وَإِلَّا لَمْ تَصْبِرْ عَلَى مَا فَعَلَ الْمُسْلِمُونَ أَمْسِ بِالْفِرِنْجِ، يُقَتِّلُونَ الدَّاوِيَّةَ وَالِاسْبِتَارِيَّةَ، وَيَأْسِرُونَهُمْ، وَيَجْتَازُونَ بِهِمْ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ لَا تُنْكِرُ ذَلِكَ وَلَا تَمْنَعُ عَنْهُ. وَوَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ عَسْكَرِ طَبَرِيَّةَ وَطَرَابُلُسَ، وَتَهَدَّدَهُ الْبَطْرَكُ أَنَّهُ يُحَرِّمُهُ، وَيَفْسَخُ نِكَاحَ زَوْجَتِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّهْدِيدِ. فَلَمَّا رَأَى الْقُمُّصُ شِدَّةَ الْأَمْرِ عَلَيْهِ خَافَ، فَاعْتَذَرَ وَتَنَصَّلَ وَتَابَ، فَقَبِلُوا عُذْرَهُ، وَغَفَرُوا زَلَّتَهُ، وَطَلَبُوا مِنْهُ الْمُوَافَقَةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَالْمُؤَازَرَةَ عَلَى حِفْظِ بِلَادِهِمْ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى الْمُصَالَحَةِ وَالِانْضِمَامِ إِلَيْهِمْ، وَالِاجْتِمَاعِ مَعَهُمْ. وَسَارَ مَعَهُمْ إِلَى مَلِكِ الْفِرِنْجِ، وَاجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُمْ بَعْدَ فُرْقَتِهِمْ، وَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَجَمَعُوا فَارِسَهُمْ وَرَاجِلَهُمْ، ثُمَّ سَارُوا مَنْ عَكَّا إِلَى صَفُّورِيَّةَ، وَهُمْ يُقَدِّمُونَ رِجْلًا وَيُؤَخِّرُونَ أُخْرَى، قَدْ مُلِئَتْ قُلُوبُهُمْ رُعْبًا. وكان صَلَاح الدِّينِ رحمه الله وضع خطة لاستدراجهم بعيدًا

عن معاقلهم وحصونهم.

المشورة قبل القتال وخطة صلاح الدين رحمه الله ،وذِكْرُفَتْحِ طَبَرِيَّةَ

لَمَّا اجْتَمَعَ الْفِرِنْجُ وَسَارُوا إِلَى صَفُّورِيَّةَ، جَمَعَ صَلَاحُ الدِّينِ أُمَرَاءَهُ وَوُزَرَاءَهُ وَاسْتَشَارَهُمْ، فَأَشَارَ أَكْثَرُهُمْ عَلَيْهِ بِتَرْكِ اللِّقَاءِ وَأَنْ يُضْعِفَ الْفِرِنْجَ بِشَنِّ الْغَارَاتِ، وَإِخْرَابِ الْوِلَايَاتِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ.فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أُمَرَائِهِ: الرَّأْيُ عِنْدِي أَنَّنَا نَجُوسُ بِلَادَهُمْ، وَنَنْهَبُ، وَنُخَرِّبُ، وَنُحَرِّقُ، وَنَسْبِي، فَإِنْ وَقَفَ أَحَدٌ مِنَ الْعَسْكَرِ الْفِرِنْجِ بَيْنَ أَيْدِينَا لَقِينَاهُ، فَإِنَّ النَّاسَ بِالْمَشْرِقِ يَلْعَنُونَنَا وَيَقُولُونَ تَرَكَ قِتَالَ الْكُفَّارِ، وَأَقْبَلَ يُرِيدُ قِتَالَ الْمُسْلِمِينَ، فالرَّأْيُ أَنْ نَفْعَلَ فِعْلًا نُعْذَرُ فِيهِ وَنَكُفُّ الْأَلْسِنَةَ عَنَّا. فَقَالَ صَلَاحُ الدِّينِ: الرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ نَلْقَى بِجَمْعِ الْمُسْلِمِينَ جَمْعَ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ الْأُمُورَ لَا تَجْرِي بِحُكْمِ الْإِنْسَانِ، وَلَا نَعْلَمُ قَدْرَ الْبَاقِي مِنْ أَعْمَارِنَا، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ نُفَرِّقَ هَذَا الْجَمْعَ إِلَّا بَعْدَ الْجِدِّ بِالْجِهَادِ. ثُمَّ رَحَلَ مِنَ الْأُقْحُوَانَةِ الْيَوْمَ الْخَامِسَ مِنْ نُزُولِهِ بِهَا، وَهُوَ يَوْمُ الْخَمِيسِ لِسَبْعٍ بَقِينَ مِنْ رَبِيعٍ الْآخِرِ، فَسَارَ حَتَّى خَلَّفَ طَبَرِيَّةَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَصَعِدَ جَبَلَهَا، وَتَقَدَّمَ حَتَّى قَارَبَ الْفِرِنْجَ، فَلَمْ يَرَ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَلَا فَارَقُوا خِيَامَهُمْ، فَنَزَلَ وَأَمَرَ الْعَسْكَرَ بِالنُّزُولِ. فَلَمَّا جَنَّهُ اللَّيْلُ جَعَلَ فِي مُقَابِلِ الْفِرِنْجِ مَنْ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْقِتَالِ، وَنَزَلَ جَرِيدَةَ إِلَى طَبَرِيَّةَ وَقَاتَلَهَا، وَنَقَبَ بَعْضَ أَبْرَاجِهَا، وَأَخَذَ الْمَدِينَةَ عَنْوَةً فِي لَيْلَةٍ، وَلَجَأَ مَنْ بِهَا إِلَى الْقَلْعَةِ الَّتِي لَهَا، فَامْتَنَعُوا بِهَا، وَفِيهَا صَاحِبَتُهَا، وَمَعَهَا أَوْلَادُهَا، فَنَهَبَ الْمَدِينَةَ وَأَحْرَقَهَا.[وهو يريد بذلك المصلحتين فتح هذه المدن واستفزاز الفرنج ليخرجوا إليه من حصونهم ومدنهم] فَلَمَّا سَمِعَ الْفِرِنْجُ نُزُولَ صَلَاحِ الدِّينِ إِلَى طَبَرِيَّةَ وَمُلْكَهُ الْمَدِينَةَ، وَأَخْذَ مَا فِيهَا، وَإِحْرَاقَهَا، وَإِحْرَاقَ مَا تَخَلَّفَ مِمَّا لَا يُحْمَلُ، اجْتَمَعُوا لِلْمَشُورَةِ، فَأَشَارَ بَعْضُهُمْ بِالتَّقَدُّمِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَقِتَالِهِمْ، وَمَنْعِهِمْ عَنْ طَبَرِيَّةَ. فَقَالَ الْقُمُّصُ: إِنَّ طَبَرِيَّةَ لِي وَلِزَوْجَتِي، وَقَدْ فَعَلَ صَلَاحُ الدِّينِ بِالْمَدِينَةِ مَا فَعَلَ، وَبَقِيَ الْقَلْعَةُ، وَفِيهَا زَوْجَتِي، وَقَدْ رَضِيتُ أَنْ يَأْخُذَ الْقَلْعَةَ وَزَوْجَتِي وَمَا لَنَا بِهَا وَيَعُودَ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَسَاكِرَ الْإِسْلَامِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا

الْعَسْكَرِ الَّذِي مَعَ صَلَاحِ الدِّينِ كَثْرَةً وَقُوَّةً، وَإِذَا أَخَذَ طَبَرِيَّةَ لَا يُمْكِنُهُ الْمُقَامُ بِهَا، فَمَتَى فَارَقَهَا وَعَادَ عَنْهَا أَخَذْنَاهَا، وَإِنْ أَقَامَ بِهَا لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمُقَامِ بِهَا إِلَّا بِجَمِيعِ عَسَاكِرِهِ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الصَّبْرِ طُولَ الزَّمَانِ عَنْ أَوْطَانِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ فَيُضْطَرُّ إِلَى تَرْكِهَا، وَنَفْتَكُّ مَنْ أُسِرَ مِنَّا. فَقَالَ لَهُ بِرِنْسُ أَرْنَاطُ، صَاحِبُ الْكَرَكِ: قَدْ أَطَلْتَ فِي التَّخْوِيفِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا شَكَّ أَنَّكَ تُرِيدُهُمْ، وَتَمِيلُ إِلَيْهِمْ، وَإِلَّا مَا كُنْتَ تَقُولُ هَذَا، وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّهُمْ كَثِيرُونَ، فَإِنَّ النَّارَ لَا يَضُرُّهَا كَثْرَةُ الْحَطَبِ. فَقَالَ: أَنَا وَاحِدٌ مِنْكُمْ إِنْ تَقَدَّمْتُمْ تَقَدَّمْتُ، وَإِنْ تَأَخَّرْتُمْ تَأَخَّرْتُ، وَسَتَرَوْنَ مَا يَكُونُ فَقَوِيَ عَزْمُهُمْ عَلَى التَّقَدُّمِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَقِتَالِهِمْ، فَرَحَلُوا مِنْ مُعَسْكَرِهِمُ الَّذِي لَزِمُوهُ، وَقَرُبُوا مِنْ عَسَاكِرِ الْإِسْلَامِ، فَلَمَّا سَمِعَ صَلَاحُ الدِّينِ بِذَلِكَ عَادَ عَنْ طَبَرِيَّةَ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ، وَإِنَّمَا كَانَ قَصْدُهُ بِمُحَاصَرَةِ طَبَرِيَّةَ أَنْ يُفَارِقَ الْفِرِنْجُ مَكَانَهُمْ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ قِتَالِهِمْ.«ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية لم يأخذهم الصبر دون إجابة الحمية فرحلوا من وقتهم وساعتهم، وقصدوا طبرية للدفع عنها، فأخبرت الطلائع الإسلامية الأمراء بحركة الإفرنج، فسيروا إلى السلطان من عرّفه ذلك، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها ولحق العسكر هو ومن معه، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وذلك في أواخر الخميس الثاني والعشرين، وحال الليل بين الفئتين، فتبايتا على مصاف شاكي السلاح إلى صبيحة الجمعة في الثالث والعشرين، فركب العسكران وتصادما، وعملت الجاليشية وتحركت الأطلاب، والتحم القتال، واشتد الأمر، وذلك بأرض قرية تسمى اللوبيا، وضاق الخناق بالقوم هذا وهم سائرون [نحو طبرية] كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون.لما لحقهم من العطش وقد أيقنوا بالويل والثبور. وأحست أنفسهم أنهم في غد زوّار القبور. ولم يزل الحرب يلتحم. والفارس مع قرنه يصطدم. حتى لم يبق إلاّ الظفر. ووقع الوبال على من كفر. فحال بينهما الليل وظلامه، وجرى في ذلك اليوم من

الوقائع العظيمة، والأمور الجسيمة، ما لم يحك عمّن تقدم، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة وقد أقعده التعب عن النهوض. وشغله النصب عن الحبو فضلًا عن الركوض»[1] وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ نَزَلُوا عَلَى الْمَاءِ، وَالزَّمَانُ قَيْظٌ شَدِيدُ الْحَرِّ، فَوَجَدَ الْفِرِنْجُ الْعَطَشَ، وَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ الْوُصُولِ إِلَى ذَلِكَ الْمَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانُوا قَدْ أَفْنَوْا مَا هُنَاكَ مِنْ مَاءِ الصَّهَارِيجِ وَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ الرُّجُوعِ خَوْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَبَقُوا عَلَى حَالِهِمْ إِلَى الْغَدِ، وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ، وَقَدْ أَخَذَ الْعَطَشُ مِنْهُمْ. وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَبَاتُوا يُحَرِّضُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَقَدْ وَجَدُوا رِيحَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ، وَكُلَّمَا رَأَوْا حَالَ الْفِرِنْجِ خِلَافَ عَادَتِهِمْ مِمَّا رَكِبَهُمْ مِنَ الْخِذْلَانِ، زَادَ طَمَعُهُمْ وَجُرْأَتُهُمْ، فَأَكْثَرُوا التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ طُولَ لَيْلَتِهِمْ، وَرَتَّبَ السُّلْطَانُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الْجَالَيْشِيَّةَ، وَفَرَّقَ فِيهِمُ النُّشَّابَ.

ذِكْرُ انْهِزَامِ الْفِرِنْجِ بِحِطِّينَ

أَصْبَحَ صَلَاحُ الدِّينِ وَالْمُسْلِمُونَ يَوْمَ السَّبْتِ لِخَمْسٍ بَقِينَ مِنْ رَبِيعٍ الْآخَرِ، فَرَكِبُوا وَتَقَدَّمُوا إِلَى الْفِرِنْجِ، وَدَنَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، إِلَّا أَنَّ الْفِرِنْجَ قَدِ اشْتَدَّ بِهِمُ الْعَطَشُ وَانْخَذَلُوا «فطلب كل من الفريقين مقامه، وعلمت كل طائفة أن المكسورة بينهما مدحورة الجنس معدومة النفس. وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد القوم وأن لا ينجيهم إلاّ الله تعالى، وكان الله قدّر نصر المؤمنين ويسّره. وأجراه على وفق ما قدّره. فحملت الأطلاب الإسلامية من الجوانب وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين.»[2] فَاقْتَتَلُوا، وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ، وَصَبَرَ الْفَرِيقَانِ، وَرَمَى جَالَيْشِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ النُّشَّابِ مَا كَانَ كَالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ، فَقَتَلُوا مِنْ خُيُولِ الْفِرِنْجِ كَثِيرًا. هَذَا الْقِتَالُ بَيْنَهُمْ، وَالْفِرِنْجُ قَدْ جَمَعُوا نُفُوسَهُمْ بِرَاجِلِهِمْ وَهُمْ يُقَاتِلُونَ سَائِرِينَ، نَحْوَ طَبَرِيَّةَ،

---

(١) «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين الأيوبي» (ص١٢٧).

(٢) «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين الأيوبي» (ص١٢٨).

لَعَلَّهُمْ يَرِدُونَ الْمَاءَ. فَلَمَّا عَلِمَ صَلَاحُ الدِّينِ مَقْصِدَهُمْ صَدَّهُمْ عَنْ مُرَادِهِمْ، وَوَقَفَ بِالْعَسْكَرِ فِي وُجُوهِهِمْ، وَطَافَ بِنَفْسِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ يُحَرِّضُهُمْ، وَيَأْمُرُهُمْ بِمَا يُصْلِحُهُمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ، وَالنَّاسُ يَأْتَمِرُونَ لِقَوْلِهِ، وَيَقِفُونَ عِنْدَ نَهْيِهِ. فَحَمَلَ مَمْلُوكٌ مِنْ مَمَالِيكِهِ الصِّبْيَانِ حَمْلَةً مُنْكَرَةً عَلَى صَفِّ الْفِرِنْجِ، فَقَاتَلَ قِتَالًا عَجِبَ مِنْهُ النَّاسُ. ثُمَّ تَكَاثَرَ الْفِرِنْجُ عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ، فَحِينَ قُتِلَ حَمَلَ الْمُسْلِمُونَ حَمْلَةً مُنْكَرَةً فَضَعْضَعُوا الْكُفَّارَ وَقَتَلُوا مِنْهُمْ كَثِيرًا. فَلَمَّا رَأَى الْقُمُّصُ شِدَّةَ الْأَمْرِ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِالْمُسْلِمِينَ، فَاتَّفَقَ هُوَ وَجَمَاعَتُهُ وَحَمَلُوا عَلَى مَنْ يَلِيهِمْ، وَكَانَ الْمُقَدَّمُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ، تَقِيَّ الدِّينِ عُمَرَ ابْنَ أَخِي صَلَاحِ الدِّينِ، فَلَمَّا رَأَى حَمْلَةَ الْفِرِنْجِ حَمْلَةَ مَكْرُوبٍ، عَلِمَ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوُقُوفِ فِي وُجُوهِهِمْ. فَأَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَفْتَحُوا لَهُمْ طَرِيقًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَفَعَلُوا فَخَرَجَ الْقُمُّصُ وَأَصْحَابُهُ ثُمَّ الْتَأَمَ الصَّفُّ. وَكَانَ بَعْضُ الْمُتَطَوِّعَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدِ أَلْقَى فِي تِلْكَ الْأَرْضِ نَارًا، وَكَانَ الْحَشِيشُ كَثِيرًا فَاحْتَرَقَ، وَكَانَتِ الرِّيحُ عَلَى الْفِرِنْجِ فَحَمَلَتْ حَرَّ النَّارِ وَالدُّخَانَ إِلَيْهِمْ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمُ الْعَطَشُ، وَحَرُّ الزَّمَانِ، وَحَرُّ النَّارِ، وَالدُّخَانُ، وَحَرُّ الْقِتَالِ. فَلَمَّا انْهَزَمَ الْقُمُّصُ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَكَادُوا يَسْتَسْلِمُونَ، ثُمَّ عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَا يُنْجِيهِمْ مِنَ الْمَوْتِ إِلَّا الْإِقْدَامُ عَلَيْهِ، فَحَمَلُوا حَمَلَاتٍ مُتَدَارَكَةً كَادُوا يُزِيلُونَ [بِهَا] الْمُسْلِمِينَ، عَلَى كَثْرَتِهِمْ، عَنْ مَوَاقِفِهِمْ لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ بِهِمْ. إِلَّا أَنَّ الْفِرِنْجَ لَا يَحْمِلُونَ حَمْلَةً فَيَرْجِعُونَ إِلَّا وَقَدْ قُتِلَ مِنْهُمْ، فَوَهَنُوا لِذَلِكَ وَهْنًا عَظِيمًا، فَأَحَاطَ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ إِحَاطَةَ الدَّائِرَةِ بِقُطْرِهَا«وانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها واحد»[1]فَارْتَفَعَ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْفِرِنْجِ إِلَى تَلٍّ بِنَاحِيَةِ حِطِّينَ، وَأَرَادُوا أَنْ يَنْصِبُوا خِيَامَهُمْ، وَيَحْمُوا نُفُوسَهُمْ بِهِ، فَاشْتَدَّ الْقِتَالُ عَلَيْهِمْ مِنْ سَائِرِ الْجِهَاتِ، وَمَنَعُوهُمْ عَمَّا أَرَادُوا، وَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ نَصْبِ خَيْمَةٍ غَيْرِ خَيْمَةِ مَلِكِهِمْ. وَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ صَلِيبَهُمُ الْأَعْظَمَ الَّذِي يُسَمُّونَهُ صَلِيبَ

(١) «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين الأيوبي» (ص١٢٩).

الصَّلَبُوتِ، فَكَانَ أَخْذُهُ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ عَلَيْهِمْ، وَأَيْقَنُوا بَعْدَهُ بِالْقَتْلِ وَالْهَلَاكِ. هَذَا وَالْقَتْلُ وَالْأَسْرُ يَعْمَلَانِ فِي فُرْسَانِهِمْ وَرِجَالَتِهِمْ، فَبَقِيَ الْمَلِكُ عَلَى التَّلِّ فِي مِقْدَارِ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ فَارِسًا مِنَ الْفُرْسَانِ الْمَشْهُورِينَ وَالشُّجْعَانِ الْمَذْكُورِينَ. فَحُكِيَ لِي عَنِ الْمَلِكِ الْأَفْضَلِ - وَلَدِ صَلَاحِ الدِّينِ - قَالَ: كُنْتُ إِلَى جَانِبِ أَبِي فِي ذَلِكَ الْمَصَافِّ، وَهُوَ أَوَّلُ مَصَافٍّ شَاهَدْتُهُ، فَلَمَّا صَارَ مَلِكُ الْفِرِنْجِ عَلَى التَّلِّ فِي تِلْكَ الْجَمَاعَةِ حَمَلُوا حَمْلَةً مُنْكَرَةً عَلَى مَنْ بِإِزَائِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَلْحَقُوهُمْ بِوَالِدِي. قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ، وَقَدْ عَلَتْهُ كَآبَةٌ، وَارْبَدَّ لَوْنُهُ، وَأَمْسَكَ بِلِحْيَتِهِ، وَتَقَدَّمَ، وَهُوَ يَصِيحُ: كَذَبَ الشَّيْطَانُ، قَالَ: فَعَادَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْفِرِنْجِ، فَرَجَعُوا إِلَى التَّلِّ، فَلَمَّا رَأَيْتُ الْفِرِنْجَ قَدْ عَادُوا، وَالْمُسْلِمُونَ يَتْبَعُونَهُمْ، صِحْتُ مِنْ فَرَحِي: هَزَمْنَاهُمْ! فَعَادَ الْفِرِنْجُ فَحَمَلُوا حَمْلَةً ثَانِيَةً مِثْلَ الْأُولَى حَتَّى أَلْحَقُوا الْمُسْلِمِينَ بِوَالِدِي، وَفَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَ أَوَّلًا. وَعَطَفَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ فَأَلْحَقُوهُمْ بِالتَّلِّ، فَصِحْتُ أَنَا أَيْضًا: هَزَمْنَاهُمْ! فَالْتَفَتَ وَالِدِي إِلَيَّ وَقَالَ: اسْكُتْ! مَا نَهْزِمُهُمْ حَتَّى تَسْقُطَ تِلْكَ الْخَيْمَةُ،قَالَ: فَهُوَ يَقُولُ لِي، وَإِذَا الْخَيْمَةُ قَدْ سَقَطَتْ، فَنَزَلَ السُّلْطَانُ وَسَجَدَ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَبَكَى مِنْ فَرَحِهِ. وَكَانَ سَبَبُ سُقُوطِهَا أَنَّ الْفِرِنْجَ لَمَّا حَمَلُوا تِلْكَ الْحَمَلَاتِ ازْدَادُوا عَطَشًا، وَقَدْ كَانُوا يَرْجُونَ الْخَلَاصَ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْحَمَلَاتِ مِمَّا هُمْ فِيهِ، فَلَمَّا لَمْ يَجِدُوا إِلَى الْخَلَاصِ طَرِيقًا، نَزَلُوا عَنْ دَوَابِّهِمْ وَجَلَسُوا عَلَى الْأَرْضِ، فَصَعِدَ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهِمْ، فَأَلْقَوْا خَيْمَةَ الْمَلِكِ، وَأَسَرُوهُمْ عَلَى بَكْرَةِ أَبِيهِمْ، وَفِيهِمُ الْمَلِكُ جفري وَأَخُوهُ، وَالْبِرِنْسُ أَرْنَاطُ، صَاحِبُ الْكَرَكِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْفِرِنْجِ أَشَدُّ مِنْهُ عَدَاوَةً لِلْمُسْلِمِينَ. وَأَسَرُوا أَيْضًا صَاحِبَ جُبَيْلٍ، وَابْنَ هَنْفَرِي، وَمُقَدَّمَ الدَّاوِيَّةِ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرِنْجِ شَأْنًا، [ومقدم الأسبتار] وَأَسَرُوا أَيْضًا جَمَاعَةً مِنَ الدَّاوِيَّةِ، وَجَمَاعَةً مِنَ الِاسْبِتَارِيَّةِ، وَكَثُرَ الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ فِيهِمْ، فَكَانَ مَنْ يَرَى الْقَتْلَى لَا يَظُنُّ أَنَّهُمْ أَسَرُوا وَاحِدًا، وَمَنْ يَرَى الْأَسْرَى لَا يَظُنُّ أَنَّهُمْ قَتَلُوا أَحَدًا«وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفاً على نفسه، ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصاً واحداً معه طنب خيمة

فيه نيف وثلاثون أسيرًا أخذهم وحده لخذلان وقع عليهم »[١].

«وَبَاعَ بَعْضَهُمْ أَسِيرًا بِنَعْلٍ لَبِسَهَا فِي رِجْلِهِ، وَجَرَتْ أُمُورٌ لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهَا وَلَا وَقَعَتِ الْعُيُونُ عَلَى شَكْلِهَا، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ دَائِمًا حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا»[٢]وَمَا أُصِيبَ الْفِرِنْجُ، مُنْذُ خَرَجُوا إِلَى السَّاحِلِ، وَهُوَ سَنَةَ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ إِلَى الْآنَ، بِمِثْلِ هَذِهِ الْوَقْعَةِ.

فَلَمَّا فَرَغَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ نَزَلَ صَلَاحُ الدِّينِ فِي خَيْمَتِهِ، وَأُحْضِرُ مَلِكُ الْفِرِنْجِ عِنْدَهُ، وَبِرِنْسُ صَاحِبُ الْكَرَكِ، وَأَجْلَسَ الْمَلِكَ إِلَى جَانِبِهِ وَقَدْ أَهْلَكَهُ الْعَطَشُ، فَسَقَاهُ مَاءً مَثْلُوجًا، فَشَرِبَ، وَأَعْطَى فَضْلَهُ بِرِنْسَ صَاحِبَ الْكَرَكِ، فَشَرِبَ. فَقَالَ صَلَاحُ الدِّينِ: إِنَّ هَذَا الْمَلْعُونَ لَمْ يَشْرَبِ الْمَاءَ بِإِذْنِي فَيَنَالَ أَمَانِي، ثُمَّ كَلَّمَ الْبِرِنْسَ، وَقَرَّعَهُ بِذُنُوبِهِ، وَعَدَّدَ عَلَيْهِ غَدَرَاتِهِ"وقال له: ها أنا أنتصر لمحمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثم عرض عليه الإسلام، فلم يفعل"[٣] وَقَامَ إِلَيْهِ بِنَفْسِهِ فَضَرَبَ رَقَبَتَهُ، وَقَالَ: كُنْتُ نَذَرْتُ دَفْعَتَيْنِ أَنْ أَقْتُلَهُ إِنْ ظَفَرْتُ بِهِ: إِحْدَاهُمَا لَمَّا أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَالثَّانِيَةُ لَمَّا أَخَذَ الْقَفَلَ غَدْرًا، فَلَمَّا قَتَلَهُ وَسُحِبَ وَأُخْرِجَ ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُ الْمَلِكِ، فَسَكَّنَ جَأْشَهُ وَأَمَّنَهُ.«وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور، وأكمل حبور، ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له والتكبير والتهليل حتى طلع الصبح في يوم الأحد»[٤]وَأَمَّا الْقُمُّصُ، صَاحِبُ طَرَابُلُسَ، فَإِنَّهُ لَمَّا نَجَا مِنَ الْمَعْرَكَةِ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ، وَصَلَ إِلَى صُورَ، ثُمَّ قَصَدَ طَرَابُلُسَ، وَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا أَيَّامًا قَلَائِلَ حَتَّى مَاتَ غَيْظًا وَحَنَقًا مِمَّا جَرَى عَلَى الْفِرِنْجِ خَاصَّةً، وَعَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ عَامَّةً.

---

(١) «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين الأيوبي» (ص١٢٩).

(٢) «البداية والنهاية ط هجر» (١٦/ ٥٨١).

(٣) «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين الأيوبي» (ص١٢٩).

(٤) «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين الأيوبي» (ص١٢٩).

ذِكْرُ عَوْدِ صَلَاحِ الدِّينِ إِلَى طَبَرِيَّةَ، وَمُلْكِ قَلْعَتِهَا مَعَ الْمَدِينَةِ

لَمَّا فَرَغَ صَلَاحُ الدِّينِ مِنْ هَزِيمَةِ الْفِرِنْجِ أَقَامَ بِمَوْضِعِهِ بَاقِيَ يَوْمِهِ، وَأَصْبَحَ يَوْمَ الْأَحَدِ، فَعَادَ إِلَى طَبَرِيَّةَ وَنَازَلَهَا، فَأَرْسَلَتْ صَاحِبَتُهَا تَطْلُبُ الْأَمَانَ لَهَا وَلِأَوْلَادِهَا وَأَصْحَابِهَا وَمَالِهَا، فَأَجَابَهَا إِلَى ذَلِكَ، فَخَرَجَتْ بِالْجَمِيعِ، فَوَفَّى لَهَا، فَسَارَتْ آمِنَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِالْمَلِكِ وَجَمَاعَةٍ مِنْ أَعْيَانِ الْأَسْرَى فَأُرْسِلُوا إِلَى دِمَشْقَ، وَأَمَرَ بِمَنْ أُسِرَ مِنَ الدَّاوِيَّةِ وَالِاسْبِتَارِيَّةِ أَنْ يُجْمَعُوا لِيَقْتُلَهُمْ. ثُمَّ عَلِمَ أَنَّ مَنْ عِنْدَهُ أَسِيرٌ لَا يَسْمَحُ بِهِ لِمَا يَرْجُو مِنْ فِدَائِهِ، فَبَذَلَ فِي كُلِّ أَسِيرٍ مِنْ هَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ خَمْسِينَ دِينَارًا مِصْرِيَّةً، فَأُحْضِرَ عِنْدَهُ فِي الْحَالِ مِائَتَا أَسِيرٍ مِنْهُمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَضُرِبَتْ أَعْنَاقُهُمْ. وَإِنَّمَا خَصَّ هَؤُلَاءِ بِالْقَتْلِ لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ شَوْكَةً مِنْ جَمِيعِ الْفِرِنْجِ، فَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِمْ، وَكَتَبَ إِلَى نَائِبِهِ بِدِمَشْقَ لِيَقْتُلَ مَنْ دَخَلَ الْبَلَدَ مِنْهُمْ سَوَاءً كَانَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ. «وَأَرَاحَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذَيْنِ الْجِنْسَيْنِ الْخَبِيثَيْنِ، وَلَمْ يُسْلِمْ مِمَّنْ عُرِضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ إِلَّا الْقَلِيلُ، فَيُقَالُ: إِنَّهُ بَلَغَتِ الْقَتْلَى ثَلَاثِينَ أَلْفًا، وَكَذَلِكَ الْأُسَارَى كَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا، وَكَانَ جُمْلَةُ جَيْشِ الْفِرِنْجِ ثَلَاثَةً وَسِتِّينَ أَلْفًا، وَمَنْ سَلِمَ مِنْهُمْ - مَعَ قِلَّتِهِمْ - أَكْثَرُهُمْ جَرْحَى، فَمَاتُوا بِبِلَادِهِمْ بَعْدَ رُجُوعِهِمْ»[1].

أثر من ساحة المعركة

قال ابن الأثير رحمه الله: وَلَقَدِ اجْتَزْتُ بِمَوْضِعِ الْوَقْعَةِ بَعْدَهَا بِنَحْوِ سَنَةٍ، فَرَأَيْتُ الْأَرْضَ مَلْأَى مِنْ عِظَامِهِمْ تَبِينُ عَلَى الْبُعْدِ، مِنْهَا الْمُجْتَمِعُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَمِنْهَا الْمُفْتَرِقُ، هَذَا سِوَى مَا جَحَفَتْهُ السُّيُولُ، وَأَخَذَتْهُ السِّبَاعُ فِي تِلْكَ الْآكَامِ وَالْوِهَادِ. اهـ[2].

المواصلة إلى الفتح الأكبر

«ثم رحل طالبًا عكا، وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر، وقاتلها

---

(١) «البداية والنهاية ط هجر» (١٦/ ٥٨٢).

(٢) هنا انتهى كلام ابن الأثير رحمه الله.

يوم الخميس مستهل جمادى الأولى، فأخذ واستنقذ من كان فيها من الأسارى وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع والتجائر، فإنها كانت مظنة التجار، وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة وأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة وكان ذلك لخلوّها عن الرجل بالفتك والأسر، ولما استقرت قواعد عكا واقتسم الغانمون أموالها وأساراها سار يطلب تبتين فنزل عليها يوم الأحد ثاني عشر جمادى الأولى وهي قلعة منيعة فنصب عليها المجانيق وضيق عليها بالزحف الخناق، وكان بها رجال أبطال شديدون في دينهم فاحتاجوا إلى معاناة شديدة، ونصره الله عليهم، وتسلمها ثامن عشر عنوة، وأسر من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى صيدا فنزل عليها، ومن الغد تسلمها وأقام عليها بحيث قرر قاعدتها. ثم سار حتى أتى بيروت، فنازلها في الثاني والعشرين، فركب عليها القتال والزحف وضيق عليهم الأمر، حتى أخذها في التاسع والعشرين، وتسلم أصحابه حبيلا وهو على بيروت. ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها لأن العسكر كان قد تفرق في الساحل وذهب كل إنسان يأخذ لنفسه شيئًا وكانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب، وكان قد اجتمع في صور كل إفرنجي بقي في الساحل، فرأى قصد عسقلان لأن أمرها كان أيسر، ونازلها في السادس والعشرين من جمادى الآخرة، وتسلم في طريقه مواضع كثيرة كالرملة وبينا والدارون، وأقام عليها المنجنيقات، وقاتلها قتالًا شديداً، وتسلمها سلخ هذا الشهر وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبرين والنطرون بغير قتال، وحمان بين فتوح عسقلان، وأخذ الإفرنج لها من المسلمين خمسة وثلاثون سنة، فإنّ العدوّ ملكها في سبعة وعشرين من جمادى

الأخرى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.»[١]«وَكَانَ جُمْلَةُ مَا افْتَتَحَهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الْقَرِيبَةِ قَرِيبًا مِنْ خَمْسِينَ بَلَدًا كُلُّ بَلْدَةٍ لَهَا مُقَاتِلَةٌ وَقَلْعَةٌ وَمَنَعَةٌ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَغَنِمَ الْجَيْشُ وَالْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِ الْأَمَاكِنِ شَيْئًا كَثِيرًا، وَسَبَوْا شَيْئًا كَثِيرًا لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ، وَاسْتَبْشَرَ الْإِسْلَامُ وَأَهْلُهُ شَرْقًا وَغَرْبًا بِهَذَا النَّصْرِ الْعَظِيمِ وَالْفُتُوحَاتِ الْهَائِلَةِ. وَتَرَكَ السُّلْطَانُ جُيُوشَهُ تَرْتَعُ فِي هَذِهِ الْفُتُوحَاتِ وَالْغَنَائِمِ الْكَثِيرَةِ مُدَّةَ شُهُورٍ ; لِيَسْتَرِيحُوا وَيُجَمِّعُوا أَنْفُسَهُمْ وَخُيُولَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا لِفَتْحِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ الشَّرِيفِ، وَطَارَ فِي النَّاسِ أَنَّ السُّلْطَانَ عَزَمَ عَلَى فَتْحِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَقَصَدَهُ الْعُلَمَاءُ وَالصَّالِحُونَ وَالْمُتَطَوِّعَةُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، وَجَاءَ أَخُوهُ الْعَادِلُ بَعْدَ وَقْعَةِ حِطِّينَ وَفَتَحَ عَكَّا فَفَتَحَ بِنَفْسِهِ حُصُونًا كَثِيرَةً أَيْضًا، فَاجْتَمَعَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَمِنَ الْجُيُوشِ الْمُتَطَوِّعَةِ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَجَمٌّ غَفِيرٌ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَصَدَ السُّلْطَانُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ بِمَنْ مَعَهُ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ.

وَقَدِ امْتَدَحَ الشُّعَرَاءُ الْمَلِكَ صَلَاحَ الدِّينِ بِسَبَبِ وَقْعَةِ حِطِّينَ فَقَالُوا وَأَكْثَرُوا، وَأَطَابُوا وَأَطْنَبُوا، وَكَتَبَ إِلَيْهِ الْقَاضِي الْفَاضِلُ مِنْ دِمَشْقَ - وَكَانَ مُقِيمًا بِهَا لِمَرَضٍ نَالَهُ -: لِيَهْنَ الْمَوْلَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَقَامَ بِهِ الدِّينَ الْقَيِّمَ، وَأَنَّهُ كَمَا قِيلَ: أَصْبَحْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلِّ مُسْلِمٍ. وَأَنَّهُ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْهِ النِّعْمَتَيْنِ ; الْبَاطِنَةَ وَالظَّاهِرَةَ، وَأَوْرَثَهُ الْمُلْكَيْنِ ; مُلْكَ الدُّنْيَا وَمُلْكَ الْآخِرَةِ، كَتَبَ الْمَمْلُوكُ الْخِدْمَةَ، وَالرُّءُوسُ إِلَى الْآنِ لَمْ تُرْفَعْ مِنْ سُجُودِهَا، وَالدُّمُوعُ لَمْ تُمْسَحْ مِنْ خُدُودِهَا، وَكُلَّمَا فَكَّرَ الْمَمْلُوكُ أَنَّ الْبِيَعَ تَعُودُ وَهِيَ مَسَاجِدُ، وَالْمَكَانُ الَّذِي كَانَ يُقَالُ فِيهِ: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، يُقَالُ الْيَوْمَ فِيهِ: إِنَّهُ الْوَاحِدُ. جَدَّدَ لِلَّهِ شُكْرًا تَارَةً يَفِيضُ مِنْ لِسَانِهِ وَتَارَةً يَفِيضُ مِنْ أَجْفَانِهِ، وَجَزَى اللَّهُ يُوسُفَ خَيْرًا عَنْ إِخْرَاجِهِ مِنْ سِجْنِهِ، وَالْمَمَالِيكُ يَنْتَظِرُونَ أَمْرَ الْمَوْلَى، فَكُلُّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْحَمَّامَ بِدِمَشْقَ قَدْ عَوَّلَ عَلَى دُخُولِ حَمَّامِ طَبَرِيَّةَ.

---

(١) «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين الأيوبي» (ص١٢٩).

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانِ مِنْ لَبَنِ ❁❁❁ وَذَلِكَ الْفَتْحُ لَا عَمَّانَ وَالْيَمَنِ
وَذَلِكَ السَّيْفُ لَا سَيْفُ ابْنِ ذِي يَزَنِ

ثُمَّ قَالَ: وَلِلْأَلْسِنَةِ بَعْدُ فِي هَذَا الْفَتْحِ سَبْحٌ طَوِيلٌ وَقَوْلٌ جَلِيلٌ.

ذِكْرُ فَتْحِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ وَاسْتِنْقَاذِهِ بَعْدَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ سَنَةً

لَمَّا افْتَتَحَ السُّلْطَانُ مَا حَوْلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنَ الْأَمَاكِنِ الْمُبَارَكَةِ وَمَا يَقْرُبُ مِنْ تِلْكَ السَّوَاحِلِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا وَالْإِشَارَةُ إِلَيْهَا، أَمَرَ الْعَسَاكِرَ فَاجْتَمَعَتْ وَالْجُيُوشَ الْمُتَفَرِّقَةَ فِي الْبُلْدَانِ فَائْتَلَفَتْ، وَسَارَ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ الشَّرِيفِ يَوْمَ الْأَحَدِ، فِي الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ رَجَبٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ - أَعْنِي سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ - فَنَزَلَ غَرْبِيَّ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَقَدْ حَصَّنَتِ الْفِرِنْجُ، - لَعَنَهُمُ اللَّهُ - الْأَسْوَارَ بِالْمُقَاتِلَةِ، وَكَانُوا سِتِّينَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ، دُونَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [سورة الأنفال:٣٤]. وَكَانَ صَاحِبُ الْبَلَدِ يَوْمَئِذٍ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ: بَالِيَانُ بْنُ بَازِرَانَ. وَمَعَهُ مَنْ سَلِمَ مِنْ وَقْعَةِ حِطِّينَ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ، مِنَ الدَّاوِيَّةِ وَالْإِسْبِتَارِيَّةِ أَتْبَاعِ الشَّيْطَانِ، عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ أَجْمَعِينَ، فَأَقَامَ السُّلْطَانُ بِمَنْزِلِهِ الْمَذْكُورِ خَمْسَةَ أَيَّامٍ، وَسَلَّمَ إِلَى كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ جَيْشِهِ الْمَنْصُورِ نَاحِيَةً مِنْ أَبْرِجَةِ السُّورِ، ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ ; لِأَنَّهُ رَآهَا أَوْسَعَ وَأَنْسَبَ لِلْمَجَالِ، وَالْجِلَادِ وَالنِّزَالِ، وَقَاتَلَ الْفِرِنْجَ دُونَ الْبَلَدِ قِتَالًا هَائِلًا، وَبَذَلُوا فِي نُصْرَةِ قُمَامَةَ وَالْقِيَامَةِ بَذْلًا هَائِلًا، وَاسْتُشْهِدَ بَعْضُ أُمَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَحَنَقَ عِنْدَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ أُمَرَاءِ الْإِسْلَامِ، وَاجْتَهَدُوا فِي الْقِتَالِ بِكُلِّ خَطِّيٍّ وَحُسَامٍ، وَقَدْ نُصِبَتِ الْمَجَانِيقُ وَالْعَرَّادَاتُ، وَغَنَّتِ السُّيُوفُ وَعُمِلَتِ السَّمْهَرِيَّاتُ، وَالْعُيُونُ تَنْظُرُ إِلَى الصُّلْبَانِ وَهِيَ مَنْصُوبَةٌ فَوْقَ الْجُدْرَانِ، حَتَّى فَوْقَ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ قِبْلَةِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ مِنْ قَدِيمِ الْأَزْمَانِ، فَزَادَ ذَلِكَ أَهْلَ الْإِيمَانِ الْحَنَقَ الْكَثِيرَ وَشِدَّةَ التَّشْمِيرِ، فَوُجِدَ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ، فَبَادَرَ السُّلْطَانُ أَيَّدَهُ اللَّهُ بِأَصْحَابِهِ إِلَى الزَّاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ

مِنَ السُّورِ فَنَقَبَهَا وَعَلَّقَهَا وَحَشَاهَا بِالنِّيرَانِ وَأَحْرَقَهَا، فَسَقَطَ ذَلِكَ الْجَانِبُ، وَخَرَّ الْبُرْجُ بِرُمَّتِهِ، فَإِذَا هُوَ وَاجِبٌ، فَلَمَّا شَاهَدَ الْفِرِنْجُ ذَلِكَ الْحَادِثَ الْمُقْطِعَ، وَالْخَطْبَ الْمُؤْلِمَ لَهُمُ الْمُوجِعَ، قَصَدَ أَكَابِرُهُمُ السُّلْطَانَ وَتَشَفَّعُوا إِلَيْهِ بِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يُعْطِيَهُمُ الْأَمَانَ، فَامْتَنَعَ وَقَالَ: لَا أَفْتَحُهَا إِلَّا كَمَا افْتَتَحْتُمُوهَا عَنْوَةً، وَلَا أَتْرُكُ بِهَا أَحَدًا مِنَ النَّصَارَى إِلَّا قَتَلْتُهُ كَمَا قَتَلْتُمْ أَنْتُمْ مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَطَلَبَ صَاحِبُهَا بَالِيَانُ بْنُ بَازِرَانَ مِنَ السُّلْطَانِ الْأَمَانَ لِيَحْضُرَ عِنْدَهُ فَأَمَّنَهُ، فَلَمَّا حَضَرَ تَرَقَّقَ لَهُ، وَتَشَفَّعَ إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا أَمْكَنَهُ، فَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى الْأَمَانِ لَهُمْ، فَقَالُوا: لَئِنْ لَمْ تُعْطِنَا الْأَمَانَ رَجَعْنَا فَقَتَلْنَا كُلَّ أَسِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِأَيْدِينَا - وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ أَرْبَعَةِ آلَافٍ - وَقَتَلْنَا ذَرَارِينَا، وَخَرَّبْنَا الدُّورَ وَالْأَمَاكِنَ الْحَسَنَةَ، وَأَتْلَفْنَا مَا بِأَيْدِينَا مِنَ الْأَمْوَالِ، وَأَلْقَيْنَا قُبَّةَ الصَّخْرَةِ، وَلَا نُبْقِي مُمْكِنًا فِي إِتْلَافِ مَا نَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ نُقَاتِلُ قِتَالَ الْمَوْتِ، فَلَا يُقْتَلُ وَاحِدٌ مِنَّا حَتَّى يَقْتُلَ أَعْدَادًا مِنْكُمْ، فَمَاذَا تَرْتَجِي بَعْدَ هَذَا مِنَ الْخَيْرِ؟ فَلَمَّا سَمِعَ السُّلْطَانُ ذَلِكَ أَجَابَ إِلَى الصُّلْحِ، عَلَى أَنْ يَبْذُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ عَنْ نَفْسِهِ عَشْرَةَ دَنَانِيرَ، وَعَنِ الْمَرْأَةِ خَمْسَةَ دَنَانِيرَ، وَعَنْ كُلِّ صَغِيرٍ وَصَغِيرَةٍ دِينَارَيْنِ، وَمَنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ كَانَ أَسِيرًا لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ تَكُونَ الْغَلَّاتُ وَالْأَسْلِحَةُ وَالدُّورُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَيَتَحَوَّلُوا مِنْهَا إِلَى مَأْمَنِهِمْ وَهِيَ مَدِينَةُ صُورَ. فَكُتِبَ الصُّلْحُ عَلَى ذَلِكَ، وَمَنْ لَا يَبْذُلُ مَا شُرِطَ عَلَيْهِ إِلَى أَرْبَعِينَ يَوْمًا فَهُوَ أَسِيرٌ، فَكَانَ جُمْلَةُ مَنْ أُسِرَ بِهَذَا الشَّرْطِ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ إِنْسَانٍ ; مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ وَوِلْدَانٍ، وَدَخَلَ السُّلْطَانُ وَالْمُسْلِمُونَ الْبَلَدَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قُبَيْلَ وَقْتِ الصَّلَاةِ بِقَلِيلٍ، وَذَلِكَ يَوْمَ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ، وَلَمْ يَتَّفِقْ لِلْمُسْلِمِينَ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ يَوْمَئِذٍ، خِلَافًا لِمَنْ زَعَمَ أَنَّهَا أُقِيمَتْ يَوْمَئِذٍ، وَأَنَّ السُّلْطَانَ خَطَبَ بِنَفْسِهِ بِالسَّوَادِ يَوْمَئِذٍ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْجُمُعَةَ لَمْ يُمْكِنْ إِقَامَتُهَا يَوْمَئِذٍ لِضِيقِ الْوَقْتِ، وَإِنَّمَا أُقِيمَتْ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، وَكَانَ الْخَطِيبُ الْقَاضِي مُحْيِي الدِّينِ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ، الْقُرَشِيَّ بْنَ الزَّكِيِّ، كَمَا سَيَأْتِي قَرِيبًا. وَلَكِنْ نُظِّفَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى يَوْمَئِذٍ مِمَّا كَانَ فِيهِ مِنَ الصُّلْبَانِ وَالرُّهْبَانِ وَالْخَنَازِيرِ، وَخُرِّبَتْ دُورٌ لِلدَّاوِيَّةِ وَكَانُوا قَدْ بَنَوْهَا غَرْبِيَّ الْمِحْرَابِ

الْكَبِيرِ، وَاتَّخَذُوا الْمِحْرَابَ حَشًّا - لَعَنَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - فَنُظِّفَ الْمَسْجِدُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَأُعِيدَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي الْأَيَّامِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالدَّوْلَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَغُسِلَتِ الصَّخْرَةُ بِالْمَاءِ الطَّاهِرِ، وَأُعِيدَ غَسْلُهَا بِمَاءِ الْوَرْدِ الْفَاخِرِ، وَأُبْرِزَتْ لِلنَّاظِرِينَ، وَقَدْ كَانَتْ مَغْمُورَةً مَسْتُورَةً مَحْجُوبَةً عَنِ الزَّائِرِينَ، وَوُضِعَ الصَّلِيبُ الْمَنْصُوبُ عَنْ قُبَّتِهَا، وَعَادَتْ إِلَى حُرْمَتِهَا، وَقَدْ كَانَ الْفِرِنْجُ قَطَعُوا مِنْهَا قِطَعًا فَبَاعُوهَا إِلَى مُلُوكِ الْبُحُورِ بِزِنَتِهَا مِنَ الذَّهَبِ، فَتَعَذَّرَ اسْتِعَادَةُ مَا نَقَصَ مِنْهَا وَمَا ذَهَبَ.وَقُبِضَ مِنَ الْفِرِنْجِ مَا كَانُوا بَذَلُوهُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَأَطْلَقَ السُّلْطَانُ خَلْقًا مِنْهُمْ مِنْ بَنَاتِ الْمُلُوكِ بِمَنْ مَعَهُنَّ مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ، وَوَقَعَتِ الْمُسَامَحَةُ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ، وَشُفِعَ فِي أُنَاسٍ فَعُفِيَ عَنْهُمْ، وَفَرَّقَ السُّلْطَانُ جَمِيعَ مَا قَبَضَ مِنْهُمْ مِنَ الذَّهَبِ فِي الْعَسْكَرِ، وَلَمْ يَدَعْ مِنْهُ شَيْئًا مِمَّا يُقْتَنَى وَيُدَّخَرُ. وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ حَلِيمًا كَرِيمًا مِقْدَامًا شُجَاعًا رَحِيمًا، أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُجَدِّدَ رَحْمَتَهُ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُقْبِلَ بِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ إِلَيْهِ.

ذِكْرُ أَوَّلِ جُمُعَةٍ أُقِيمَتْ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ بَعْدَ فَتْحِهِ فِي الدَّوْلَةِ الصَّلَاحِيَّةِ

لَمَّا نُزِّهَ الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ مِمَّا كَانَ فِيهِ مِنَ الصُّلْبَانِ وَالنَّوَاقِيسِ، وَالرُّهْبَانِ وَالْخَنَازِيرِ وَالْقَسَاقِيسِ، وَدَخَلَهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ، وَنُودِيَ بِالْأَذَانِ وَهَرَبَ الشَّيْطَانُ وَقُرِئَ الْقُرْآنُ وَطَهُرَ الْمَكَانُ، فَكَانَ إِقَامَةُ أَوَّلِ جُمُعَةٍ فِيهِ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ مِنْ شَعْبَانَ، بَعْدَ يَوْمِ الْفَتْحِ بِثَمَانٍ، فَنُصِبَ الْمِنْبَرُ إِلَى جَانِبِ الْمِحْرَابِ الْمُطَهَّرِ، وَبُسِطَتِ الْبُسُطُ الرَّفِيعَةُ فِي تِلْكَ الْعِرَاصِ الْوَسِيعَةِ، وَعُلِّقَتِ الْقَنَادِيلُ وَتُلِيَ التَّنْزِيلُ عِوَضًا عَمَّا كَانَ يُقْرَأُ مِنَ التَّحْرِيفِ فِي الْإِنْجِيلِ، وَجَاءَ الْحَقُّ وَبَطَلَتْ تِلْكَ الْأَبَاطِيلُ، وَصُفَّتِ السَّجَّادَاتُ وَكَثُرَتِ السَّجَدَاتُ، وَتَنَوَّعَتِ الْعِبَادَاتُ، وَأُدِيمَتِ الدَّعَوَاتُ، وَنَزَلَتِ الْبَرَكَاتُ، وَانْجَلَتِ الْكُرُبَاتُ، وَأُقِيمَتِ الصَّلَوَاتُ، وَنَطَقَ الْأَذَانُ، وَخَرِسَ النَّاقُوسُ، وَحَضَرَ الْمُؤَذِّنُونَ وَغَابَ الْقُسُوسُ، وَطَابَتِ الْأَنْفَاسُ، وَاطْمَأَنَّتِ النُّفُوسُ، وَأَقْبَلَتِ السُّعُودُ وَأَدْبَرَتِ النُّحُوسُ، وَحَضَرَ الْعُبَّادُ وَالزُّهَّادُ وَالْأَبْدَالُ وَالْأَقْطَابُ وَالْأَوْتَادُ، وَعُبِدَ الْوَاحِدُ،

وَكَثُرَ الرَّاكِعُ وَالسَّاجِدُ، وَالْقَائِمُ وَالْقَاعِدُ، وَامْتَلَأَ الْجَامِعُ، وَسَالَتْ لِرِقَّةِ الْقُلُوبِ الْمَدَامِعُ، وَقَالَ النَّاسُ: هَذَا يَوْمٌ كَرِيمٌ وَفَضْلٌ عَظِيمٌ وَمَوْسِمٌ وَسِيمٌ، وَهَذَا يَوْمٌ تُجَابُ فِيهِ الدَّعَوَاتُ وَتُصَبُّ الْبَرَكَاتُ وَتَسِيلُ الْعَبَرَاتُ وَتُقَالُ الْعَثَرَاتُ، فَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُونَ لِلصَّلَاةِ وَقْتَ الزَّوَالِ، وَكَادَتِ الْقُلُوبُ تَطِيرُ مِنَ الْفَرَحِ بِتِلْكَ الْحَالِ، وَلَمْ يَكُنِ السُّلْطَانُ إِلَى تِلْكَ السَّاعَةِ عَيَّنَ خَطِيبًا، وَقَدْ تَهَيَّأَ لَهَا خَلْقٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ خَوْفًا أَنْ يَدَّعِيَ إِلَيْهَا أَحَدُهُمْ فَلَا يَكُونُ نَجِيبًا، فَبَرَزَ لِلْخُطَبَاءِ الْمَرْسُومُ السُّلْطَانِيُّ الصَّلَاحِيُّ، وَهُوَ فِي قُبَّةِ الصَّخْرَةِ الْغَرَّاءِ، أَنْ يَكُونَ الْقَاضِي مُحْيِي الدِّينِ بْنُ الزَّكِيِّ الْيَوْمَ خَطِيبًا، فَلَبِسَ الْخِلْعَةَ السَّوْدَاءَ وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، وَقَدْ كَسَاهُ اللَّهُ الْبَهَاءَ، وَأَكْرَمَهُ بِكَلِمَةِ التَّقْوَى وَأَعْطَاهُ السَّكِينَةَ وَالْوَقَارَ وَالسَّنَاءَ، فَخَطَبَ بِالنَّاسِ خُطْبَةً عَظِيمَةً سَنِيَّةً فَصِيحَةً بَلِيغَةً، ذَكَرَ فِيهَا شَرَفَ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَمَا وَرَدَ فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالتَّرْغِيبَاتِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالْأَمَارَاتِ، وَمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْحَاضِرِينَ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي تَعْدِلُ الْكَثِيرَ مِنَ الْقُرُبَاتِ، وَقَدْ أَوْرَدَهَا الشَّيْخُ شِهَابُ الدِّينِ أَبُو شَامَةَ فِي "الرَّوْضَتَيْنِ "بِطُولِهَا»[1] [فقال]:«وَذكرت الْخطْبَة الأولى وَيَد الفصاحة فِيهَا طولى افتتاحها بِهَذِهِ الْآيَات.﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الأنعام:٤٥ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [سورة الفاتحة:٢-٤]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [سورة الأنعام:١]. ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [سورة الإسراء:١١١]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [سورة الكهف:١]. ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ﴾ [سورة النمل:٥٩]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة فاطر:١].

وَالْخُطْبَة الْحَمد لله معز الْإِسْلَام بنصره ومذل الشّرك بقهره ومصرف الْأُمُور بأَمْره ومديم النعم بشكره ومستدرج الْكَافرين بمكره الَّذِي قدر الْأَيَّام دولًا بعدله

(١) «البداية والنهاية ط هجر» (١٦/ ٥٨٤- ٥٨٩).

وَجعل الْعَاقِبَة لِلْمُتقين بفضله وأفاء على عباده من ظله وَأظْهر دينه على الدّين كُله القاهر فَوق عباده فَلَا يمانع وَالظَّاهِر على خليقته فَلَا يُنَازع وَالْآمر بِمَا يَشَاء فَلَا يُرَاجع وَالْحَاكِم بِمَا يُرِيد فَلَا يدافع أَحْمَده على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه وَنَصره لأنصاره وتطهيره بَيته الْمُقَدّس من أدناس الشّرك وأوضاره حمد من استشعر الْحَمد بَاطِن سره وَظَاهر جهاره.

وَأشْهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ الْأَحَد الصَّمد الَّذِي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص:٢-٤].شَهَادَة من طهر بِالتَّوْحِيدِ قلبه وأرضى بِهِ ربه وَأشْهد أَن مُحَمَّدًا ﷺ عَبده وَرَسُوله رَافع الشَّك وداحض الشّرك وراحض الْإِفْك الَّذِي أسرِي بِهِ من الْمَسْجِد الْحَرَام إِلَى هَذَا الْمَسْجِد الْأَقْصَى وعرج بِهِ مِنْهُ إِلَى السَّمَوَات الْعلَا إِلَى سِدْرَة الْمُنْتَهى عِنْدهَا جنَّة المأوى مَا زاغ الْبَصَر وَمَا طَغى صلى الله عَلَيْهِ وعَلى خَلِيفَته أبي بكر الصّديق السَّابِق إِلَى الْإِيمَان وعَلى أَمِير الْمُؤمنِينَ عمر بن الْخطاب أول من رفع عَن هَذَا الْبَيْت شعار الصلبان وعَلى أَمِير الْمُؤمنِينَ عُثْمَان بن عَفَّان ذِي النورين جَامع الْقُرْآن وعَلى أَمِير الْمُؤمنِينَ عَليّ بن أبي طَالب مزلزل الشّرك ومكسر الْأَوْثَان وعَلى آله وَأَصْحَابه وَالتَّابِعِينَ لَهُم بِإِحْسَان.

أَيهَا النَّاس أَبْشِرُوا برضوان الله الَّذِي هُوَ الْغَايَة القصوى والدرجة الْعليا لما يسره الله على أَيْدِيكُم من اسْتِرْدَاد هَذِه الضَّالة من الْأمة الضَّالة وردهَا إِلَى مقرها من الْإِسْلَام بعد ابتذالها فِي أَيدي الْمُشْركين قَرِيبا من مئة عَام وتطهير هَذَا الْبَيْت الَّذِي أذن الله أَن يرفع وَأَن يذكر فِيهِ اسْمِهِ وإماطة الشّرك عَن طرقه بعد أَن أمتد عَلَيْهَا رواقه وَاسْتقر فِيهَا رسمه وَرفع قَوَاعِده بِالتَّوْحِيدِ فَإِنَّهُ بني عَلَيْهِ وبالتقوى فَإِنَّهُ أسس على التَّقْوَى من خَلفه وَمن بَين يَدَيْهِ فَهُوَ موطن أبيكم إِبْرَاهِيم ومعراج نَبِيكُم مُحَمَّد عَلَيْهِ السَّلَام وقبلتكم الَّتِي كُنْتُم تصلونَ إِلَيْهَا فِي ابْتِدَاء الْإِسْلَام وَهُوَ مقرّ

الْأَنْبِيَاء ومقصد الْأَوْلِيَاء ومفر الرُّسُل ومهبط الْوَحْي ومنزل تنزل الْأَمر وَالنَّهْي وَهُوَ فِي أَرض الْمَحْشَر وصعيد المنشر وَهُوَ فِي الأَرْض المقدسة الَّتِي ذكرهَا الله فِي كِتَابه الْمُبين وَهُوَ الْمَسْجِد الَّذِي صلى فِيهِ رَسُول الله ﷺ بِالْمَلَائِكَةِ المقربين وَهُوَ الْبَلَد الَّذِي بعث الله إِلَيْهِ عَبده وَرَسُوله وكلمته الَّتِي أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَم وروحه عِيسَى الَّذِي شرفه الله برسالته وَكَرمه بنبوته وَلم يزحزحه عَن رُتْبَة عبوديته فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [سورة النساء:١٧٢]. وَقَالَ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [سورة المائدة:١٧].وَهُوَ أول الْقبْلَتَيْنِ وَثَانِي المسجدين وثالث الْحَرَمَيْنِ(١) لَا تشد الرّحال بعد المسجدين إِلَّا إِلَيْهِ وَلَا تعقد الخناصر بعد الموطنين إِلَّا عَلَيْهِ وَلَوْلَا أَنكُمْ مِمَّن اخْتَارَهُ الله من عباده واصطفاه من سكان بِلَاده لما خصكم بِهَذِهِ الْفَضِيلَة الَّتِي لَا يجاريكم فِيهَا مجار وَلَا يباريكم فِي شرفها مبار فطوبى لكم من جَيش ظَهرت على أَيْدِيكُم المعجزات النَّبَوِيَّة والوقعات البدرية والعزمات الصديقية والفتوح العمرية والجيوش العثمانية والفتكات العلوية جددتم لِلْإِسْلَام أَيَّام الْقَادِسِيَّة والوقعات اليرموكية والمنازلات الْخَيْبَرِية والهجمات الخالدية فجزاكم الله عَن نبيه مُحَمَّد ﷺ أفضل الْجَزَاء وشكر لكم مَا بذلتموه من مهجكم فِي مقارعة الْأَعْدَاء وَتقبل مِنْكُم مَا تقربتم بِهِ إِلَيْهِ من مهراق الدِّمَاء وأثابكم الْجنَّة فَهِيَ دَار السُّعَدَاء فاقدروا رحمكم الله هَذِه النِّعْمَة حق قدرهَا وَقومُوا لله تَعَالَى بِوَاجِب شكرها فَلهُ النِّعْمَة عَلَيْكُم بتخصيصكم بِهَذِهِ النِّعْمَة وترشيحكم لهَذِهِ الْخدمَة فَهَذَا هُوَ الْفَتْح الَّذِي فتحت لَهُ أَبْوَاب السَّمَاء وتبلجت بأنواره وُجُوه الظلماء وابتهج بِهِ الْمَلَائِكَة المقربون وقر بِهِ عين الْأَنْبِيَاء والمرسلون فَمَاذَا عَلَيْكُم من النِّعْمَة بِأَن جعلكُمْ الْجَيْش الَّذِي يفتح عَلَيْهِ الْبَيْت الْمُقَدّس فِي آخر الزَّمَان والجند الَّذِي تقوم بسيوفهم بعد فَتْرَة من النُّبُوَّة أَعْلَام الْإِيمَان فيوشك أَن

(١) لا دليل على كونه ثالث الحرمين.

تكون التهاني بِهِ بَين أهل الخضراء أَكثر من التهاني بِهِ بَين أهل الغبراء أَلَيْسَ هُوَ الْبَيْت الَّذِي ذكره الله فِي كِتَابه وَنَصّ عَلَيْهِ فِي خطابه فَقَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [سورة الإسراء: ١].أَلَيْسَ هُوَ الْبَيْت الَّذِي عَظمته الْمُلُوك وأثنت عَلَيْهِ الرُّسُل وتليت فِيهِ الْكتب الْأَرْبَعَة الْمنزلَة من إِلَهكُم عز وَجل أَلَيْسَ هُوَ الْبَيْت الَّذِي أمسك الله عز وَجل الشَّمْس على يُوشَع لأَجله أَن تغرب وباعد بَين خطواتها ليتيسر فَتحه وَيقرب أَلَيْسَ هُوَ الْبَيْت الَّذِي أَمر الله مُوسَى أَن يَأْمر قومه باستنقاذه فَلم يجبهُ إِلَّا رجلَانِ وَغَضب عَلَيْهِم لأَجله فألقاهم فِي التيه عُقُوبَة للعصيان فاحمدوا الله الَّذِي أمضى عزائمكم لما نكلت عَنهُ بَنو إِسْرَائِيل وَقد فَضلهمْ على الْعَالمين ووفقكم لما خذل فِيهِ من كَانَ قبلكُمْ من الْأُمَم الماضين وَجمع لأَجله كلمتكم وَكَانَت شَتَّى وأغناكم بِمَا أمضته كَانَ وَقد عَن سَوف وَحَتَّى فليهنكم أَن الله قد ذكركُمْ بِهِ فِيمَن عِنْده وجعلكم بعد أَن كُنْتُم جُنُودا لأهويتكم جنده وشكركم الْمَلَائِكَة المنزلون على مَا أهديتم إِلَى هَذَا الْبَيْت من طيب التَّوْحِيد وَنشر التَّقْدِيس والتحميد وَمَا أمطتم عَن طرقهم فِيهِ من أَذَى الشّرك والتثليث والاعتقاد الْفَاجِر الْخَبيث فَالْآن يسْتَغْفر لكم أَمْلَاك السَّمَوَات وَتصلي عَلَيْكُم الصَّلَوَات المباركات.

فاحفظوا رحمكم الله هَذِه الموهبة فِيكُم واحرسوا هَذِه النِّعْمَة عنْدكُمْ بتقوى الله الَّتِي من تمسك بهَا سلم وَمن اعْتصمَ بعروتها نجا وعصم واحذروا من اتِّبَاع الْهوى وموافقة الردى وَرُجُوع الْقَهْقَرَى والنكول عَن العدى وخذوا فِي انتهاز الفرصة وَإِزَالَة مَا بَقِي من الغصة وَجَاهدُوا فِي الله حق جهاده وبيعوا عباد الله أَنفسكُم فِي رِضَاهُ إِذْ جعلكُمْ من عباده وَإِيَّاكُم أَن يستزلكم الشَّيْطَان وَأَن يتداخلكم الطغيان فيخيل لكم أَن هَذَا النَّصْر بسيوفكم الْحداد وبخيولكم الْجِيَاد وبجلادكم فِي مَوَاطِن الجلاد لَا وَالله ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الأنفال: ١٠].

واحذروا عباد الله بعد أَن شرفكم بِهَذَا الْفَتْح الْجَلِيل والمنح الجزيل وخصكم بِهَذَا الْفَتْح الْمُبين وأعلق أَيْدِيكُم بحبله المتين أَن تقترفوا كَبِيرًا من مناهيه وَأَن تَأْتُوا عَظِيمًا من مَعَاصيه فتكونوا كَالَّتِي نقضت غزلها من بعد قُوَّة أنكاثا وَالَّذِي آتيناه آيَاتنَا فانسلخ مِنْهَا فَأتبعهُ الشَّيْطَان فَكَانَ من الغاوين وَالْجِهَاد الْجِهَاد فَهُوَ من أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم انصروا الله ينصركم اذْكرُوا الله يذكركم اشكروا الله يزدكم ويشكركم جدوا فِي حسم الدَّاء وَقطع شأفة الْأَعْدَاء وتطهير بَقِيَّة الْأَرْض الَّتِي أغضبت الله وَرَسُوله واقطعوا فروع الْكفْر واجتثوا أُصُوله فقد نادت الْأَيَّام بالثارات الإسلامية وَالْمِلَّة المحمدية الله أكبر فتح الله وَنصر غلب الله وقهر أذلّ الله من كفروَاعْلَمُوا رحمكم الله أَن هَذِه فرْصَة فانتهزوها وفريسة فناجزوها ومهمة فأخرجوا لَهَا هممكم وبرّزوها وسيّروا إِلَيْهَا سَرَايَا عزماتكم وجهزوها فالأمور بأواخرها والمكاسب بذخائرها فقد أَظْفَرَكُم الله بِهَذَا الْعَدو المخذول وهم مثلكُمْ أَو يزيدُونَ فَكيف وَقد أضحى فِي قبالة الْوَاحِد مِنْهُم مِنْكُم عشرُون وَقد قَالَ الله تَعَالَى : ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ [سورة الأنفال:٦٥].أعاننا الله وَإِيَّاكُم على اتِّبَاع أوامره والازدجار بزواجره وأيدنا معشر الْمُسلمين بنصر من عِنْده﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ [سورة آل عمران:١٦٠].وَتَمام الْخطْبَة وَالْخطْبَة الثَّانِيَة قريب مِمَّا جرت بِهِ الْعَادة وَقَالَ بعد الدُّعَاء للخليفة اللَّهُمَّ وأدم سُلْطَان عَبدك الخاضع لهيبتك الشاكر لنعمتك الْمُعْتَرف بموهبتك سَيْفك الْقَاطِع وشهابك اللامع والمحامي عَن دينك المدافع والذاب عَن حَرمك المانع السَّيِّد الْأَجَل الْملك النَّاصِر جَامع كلمة الْإِيمَان وقامع عَبدة الصلبان صَلَاح الدُّنْيَا وَالدّين سُلْطَان الْإِسْلَام وَالْمُسْلِمين مطهر الْبَيْت الْمُقَدّس أبي المظفر يُوسُف بن أَيُّوب محيي دولة أَمِير الْمُؤمنِينَ.

اللَّهُمَّ عم بدولته البسيطة وَاجعَل ملائكتك برياته مُحِيطَة وَأحسن عَن الدّين

الحنيفي جزاءه واشكر عَن الْمِلَّة المحمدية عزمه ومضاءه.

اللَّهُمَّ أبق لِلْإِسْلَامِ مهجته ووق للْإِيمَان حوزته وانشر فِي الْمَشَارِق والمغارب دَعوته.

اللَّهُمَّ كَمَا فتحت على يَده الْبَيْت الْمُقَدّس بعد أَن ظنت الظنون وابتلي الْمُؤْمِنُونَ فافتح على يَده أداني الأَرْض وأقاصيها وَملكه صياصي الْكَفَرَة ونواصيها فَلَا تَلقاهُ مِنْهُم كَتِيبَة إِلَّا مزقها وَلَا جمَاعَة إِلَّا فرقها وَلَا طَائِفَة بعد طَائِفَة إِلَّا ألحقها بِمن سبقها.

اللَّهُمَّ اشكر عَن مُحَمَّد ﷺ سَعْيه وأنفذ فِي الْمَشَارِق والمغارب أمره وَنَهْيه اللَّهُمَّ وَأصْلح بِهِ أوساط الْبِلَاد وأطرافها وأرجاء الممالك وأكنافها.

اللَّهُمَّ ذلل بِهِ معاطس الْكفَّار وأرغم بِهِ أنوف الْفجار وانشر ذوائب ملكه على الْأَمْصَار وابث سَرَايَا جُنُوده فِي سبل الأقطار.

اللَّهُمَّ ثَبت الْملك فِيهِ وَفِي عقبه إِلَى يَوْم الدّين واحفظه فِي بنيه وَبني أَبِيه الْمُلُوك الميامين وَاشْدُدْ عضده ببقائهم واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم.

اللَّهُمَّ كَمَا أجريت على يَده فِي الْإِسْلَام هَذِه الْحَسَنَة الَّتِي تبقى على الْأَيَّام وتتخلد على مر الشُّهُور والأعوام فارزقه الْملك الأبدي الَّذِي لَا ينْفد فِي دَار الْمُتَّقِينَ وأجب دعاءه فِي قَوْله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [سورة النمل:١٩].ثمَّ دَعَا بِمَا جرت بِهِ الْعَادة »[1].

(١) «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» (٣/ ٣٨٤).

(ملخص معركة حطين الفاصلة)

١- اسم المعركة : حطين.

٢- مكان المعركة : «حطّين بين طبرية وعكّا»[«معجم البلدان» (٢/ ٢٧٤)] تبعد عن طبرية ثمانية كيلو متر وتقع في الشمال الغربي منها.وهي قرية فلسطينية أصبحت الآن كباقي مدن فلسطين تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي ردها الله على المسلمين وسائر البلدان المحتلة.

٣- تاريخ المعركة: يَوْمَ السَّبْتِ ٢٥/ رَبِيعٍ الْآخَرِة سنة ٥٨٣هـ)

٤- الفريقان المتقاتلان :

١- المسلمون: بقيادة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الأيوبي رحمه الله تعالى.في خلافة الناصر لدين الله أحمد بن الحسن العباسي رحمه الله.

٢- الصليبيون: بقيادة الملك غي ملك بيت المقدس.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتها وطريقة ترتيبها:

١- المسلمون: بَلَغَتْ عِدَّتُهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ فَارِسٍ مِمَّنْ لَهُ الْأَقْطَاعُ وَالْجَامَكِيَّةُ، سِوَى الْمُتَطَوِّعَةِ، فَعَبَّأَهم صلاح الدين رحمه الله تعالى كالتالي :

١- قَلْبًا

٢- ٣- وَجَنَاحَيْنِ، مَيْمَنَةً وَمَيْسَرَةً

٤- وجاليشية وهم الرماة.

٥- وَسَاقَةً.

وكان في هذا الجيش جماعة من الفقهاء والخطباء والعلماء.

خطة الحرب: كان عسكر المسلمين على سفوح هضاب حطين ينتظرون وصول الجيش الصليبى، ولما وصل الصليبيون طوَّق صلاح الدين بجيشه الهضبة التى تمركز عليها جيش الصليبيين،ومنع عنهم الماء، وأحرق المسلمون الأراضي المكسوة بالأشواك، وكانت الريح مواتية فحملت إليهم حر النار والدخان.وبدأ

جيش المسلمين بالهجوم، وقاتل الفرنجة ببسالة لا نظير لها، ولم يترك لهم المسلمون فرصة لالتقاط أنفاسهم، فهُزِم المشاة، وفرَّ قسم من الفرسان، وطوق المسلمون خيمة الملك غى، ودكوها، وأسروا الملك وجميع الأمراء والفرسان الصليبيين وعددًا كبيرًا من رجالاتهم وقادتهم.

٢- **الصليبيون:** على رأسهم الملك غي ملك بيت المقدس في خمسين ألف مقاتل ويقال له الْملك جفري وَهُوَ ملك السَّاحِل وسماه صاحب البرق الشامي (٣/ ١٦٥) ابْن بارزان بادوين. والأمير رينو دوشاتيون المعروف بأرناط صَاحب الكرك والشوبك والْقُمُّص صَاحِبُ طَرَابُلُسَ، وَابْن الهنفري وَابْن صَاحب طبرية ومقدم الداوية وَصَاحب جبيل ومقدم الإسبتار وكل معه جيش من المقاتلين وَكَانَ جُمْلَةُ جَيْشِ الْفِرِنْجِ ثَلَاثَةً وَسِتِّينَ أَلْفًا.

من هم الداوية والاسبتارية:

المرحلة الأولى: كان الصليبيون قد حصلوا من المسلمين منذ عام (٥٤٣هـ) على إذن ببناء مستشفى في بيت المقدس لإيواء الفقراء أو المرضى من الحجاج، الصليبيين إلى بيت المقدس **كهيئة الصليب الأحمر في أيامنا هذه**

المرحلة الثانية: نظم ريمند دوبي موظفي هذا المعهد تنظيمًا جديدًا فجعلهم هيئة دينية تكرس حياتها للطاعة، وحماية الصليبيين في فلسطين بالدفاع عنهم دفاعًا عسكريًا؛ ثم انقسموا إلى قسمين:

الأول :الاسبتارية اسم مختصر من فرسان المستشفى ومن ثم أصبح هؤلاء الفرسان فرسان مستشفى يوحنا

الثاني: الداوية وهم فرسان المعبد وذلك حين أن نذر هيدوه بايان وثمانية آخرون من فرسان الصليبيين أنفسهم للرهبنة، وخدمة المسيحيين العسكرية، وحصلوا من بلدوين الثاني على مسكن لهم بالقرب من الموضع الذي كان فيه هيكل

سليمان، وسرعان ما أطلق عليهم اسم فرسان المعبد. وكان الواحد من فرسان المستشفى يلبس مئزرًا أسود اللون، على كمه الأيسر صليب، أما الواحد من فرسان المعبد فكان يلبس مئزرًا أبيض على "حرملته" صليب أحمر. وكانت كلتا الطائفتين تكره الأخرى. وانتقل فرسان المستشفى وفرسان المعبد من تمريض الحجاج إلى الهجوم على حصون المسلمين؛ ومع أن فرسان المعبد لم يكونوا يزيدون على ثلثمائة، وأن فرسان المستشفى كانوا حوالي ١١٨٠، فقد كان لهم جميعًا شأن ظاهر في معارك الحروب الصليبية؛ وذاعت شهرتهم الحربية. لتربية الكنيسة لهم على بغض المسلمين وقامت الطائفتان بحملة واسعة لجمع المال، فتوالت عليهما الإعانات من الكنيسة والدولة، ومن الأغنياء والفقراء على السواء؛ بسبب نكايتهم في المسلمين فلم يحل القرن الثالث عشر حتى كانت كلتاهما تمتلك في أوربا ضياعًا واسعة تشمل أديرة، وقرى، وبلدانًا. وأدهشت كلتاهما الصليبيين والمسلمين بما أنشأت من الحصون الواسعة في بلاد الشام.

٦- سبب المعركة : غدر اللّعين أرناط صاحب الكَرَك، بقطع الطّريق عَلَى قافلةٍ كبيرة جاءت من مصر، فقتل وأسر، ثُمَّ شنّ الغارات عَلَى المسلمين، ونبذ العهد. وتعدى على كثير حرمات المسلمين ، وعزم على غزو مكة والمدينة ؛فتجهّز السّلطان صلاح الدّين لحربه، وطلب العساكر منَ البلاد، ونذر إن ظَفَرَ بِهِ ليقتلنّه، فأظفره الله به فقتله. اهـ من [«تاريخ الإسلام ت تدمري» (٤١/ ١٢)] مع زيادة.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- مَا أُصِيبَ الْفِرِنْجُ، مُنْذُ خَرَجُوا إِلَى بلاد الإسلام سَنَةَ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ إِلَى يوم حطين، بِمِثْلِ هَذِهِ الْوَقْعَةِ.

٢- كان في الأسرى الْمَلِكُ وَأَخُوهُ، وَالْبِرِنْسُ أَرْنَاطُ، صَاحِبُ الْكَرَكِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْفِرِنْجِ أَشَدُّ مِنْهُ عَدَاوَةً لِلْمُسْلِمِينَ. وَأَسَرُوا أَيْضًا صَاحِبَ جُبَيْلٍ، وَابْنَ هَنْفَرِي، وَمُقَدَّمَ الدَّاوِيَّةِ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرِنْجِ شَأْنًا، وَأَسَرُوا أَيْضًا جَمَاعَةً مِنَ الدَّاوِيَّةِ،

وَجَمَاعَةً مِنَ الِاسْبِتَارِيَّةِ.

٣- أَمَرَ صلاح الدين رحمه الله تعالى بِمَنْ أُسِرَ مِنَ الدَّاوِيَّةِ وَالِاسْبِتَارِيَّةِ فَأُحْضِرَ عِنْدَهُ فِي الْحَالِ مِائَتَا أَسِيرٍ مِنْهُمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَضُرِبَتْ أَعْنَاقُهُمْ. وَإِنَّمَا خَصَّ هَؤُلَاءِ بِالْقَتْلِ لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ شَوْكَةً مِنْ جَمِيعِ الْفِرِنْجِ، فَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِمْ، وَكَتَبَ إِلَى نَائِبِهِ بِدِمَشْقَ لِيَقْتُلَ مَنْ دَخَلَ الْبَلَدَ مِنْهُمْ سَوَاءً كَانَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ.

٤- قتل السلطانُ صلاحُ الدين رحمه الله تعالى الْبِرِنْسَ رينولد أَرْنَاطَ، صَاحِبَ الْكَرَكِ، الذي كان عازمًا على غزو الحرمين مكة والمدينة ، والذي كان أشد النصارى أذية للمسلمين.

٥- كانت المعركة قاصمة للممالك الصليبية هنالك ، وسببًا لفتح بيت المقدس، وهذا من أعظم ما تستحق به أن تكون معركة فاصلة، فبعد المعركة استسلمت «قلعة طبرية» وسلمت لصلاح الدين ، ثم تتابع -بعد ذلك - استسلام باقي المدن الساحلية التى تقع جنوب «عكا» وهى: «نابلس» و «الرملة»و «قيسارية» و «أرسوف» و «يافا» و «بيروت»، وكذا المدن الواقعة شمال «عكا» مثل: «الإسكندرونة»، وكلها حصلت على العهد بالأمان من «صلاح الدين» الذى لم يبق أمامه سوى أن يمضي في طريقه إلى «فلسطين»، فاستسلمت «عسقلان» له أثناء مروره بها، وحانت المواجهة الحاسمة لتحرير «بيت المقدس» فدخل بيت المقدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب من نفس العام، بعد أن استحله النصارى من سنة إحدى وتسعين وأربعمائة.

٦- ويصبح «صلاح الدين» ثاني القادة الفاتحين الذين دخلوا هذه المدينة بعد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذى فتحها الفتح الأول.

٧- «كان هذا الانتصار فاتحة خير على المسلمين، وبداية لسلسلة من الانتصارات على الصليبيين» [«موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٥/ ٥٣)].

٨- «لمّا أخذ صلاح الدين عكا أخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير وأعطى كل واحد منهم نفقة يصل بها إلى بلده وأهله» وأنقذ من الأسرى في بيت المقدس مثل ذلك [«النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» (ص٧٠)].

٨- خريطة موقعة حطين:





المعركة الخامسة عشرة من معارك الإسلام الفاصلة: الأرك

قال شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري السلاوي (المتوفى: ١٣١٥هـ) في كتابه: [«الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» (٢/ ١٨٥-٢/ ١٩٣)].

الْغَزْوَة الْكُبْرَى بالأرك من بِلَاد الأندلس

قَالَ ابْن خلكان كَانَ يَعْقُوب الْمَنْصُور رَحمَه الله قد خافه الفنش صَاحب طليطلة وَسَأَلَهُ الصُّلْح فَصَالحه إِلَى خمس سِنِين فَلَمَّا انْقَضتْ مُدَّة الْهُدْنَة وَلم يبْق مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيل خرجت طَائِفَة من الفرنج فِي جَيش كثيف إِلَى بِلَاد الْمُسلمين فنهبوا وَسبوا وعاثوا عيثًا فظيعًا فَانْتهى الْخَبَر إِلَى أَمِير الْمُؤمنِينَ يَعْقُوب الْمَنْصُور وَهُوَ بمراكش فتجهز لقصدهم فِي جَيش عَرَمْرَم من قبائل الْمُوَحِّدين وَالْعرب واحتفل فِي ذَلِك وَعبر الْبَحْر إِلَى الأندلس سنة إِحْدَى وَتِسْعين وَخَمْسمِائة واتصل بالفرنج عبوره إِلَيْهِم فَجمعُوا خلقًا كثيرًا من أَقْصَى بِلَادهمْ وأدانيها وَأَقْبلُوا نَحوه قَالَ ابْن خلكان وَقد رَأَيْت بِدِمَشْق جُزْء بِخَط الشَّيْخ الْحَافِظ تَاج الدّين عبد الله بن حموية السَّرخسِيّ وَكَانَ قد سَافر إِلَى مراكش وَأَقَام بهَا مُدَّة وَكتب فصولًا تتَعَلَّق بِتِلْكَ الدولة فَمن ذَلِك فصل يتَعَلَّق بِهَذِهِ الْوَقْعَة فَيَنْبَغِي ذكره هَهُنَا قَالَ لما انْقَضتْ الْهُدْنَة بَين أَمِير الْمُؤمنِينَ يَعْقُوب الْمَنْصُور وَبَين الأذفونش الفرنجي صَاحب غرب جَزِيرَة الأندلس وَقَاعِدَة مَمْلَكَته يَوْمئِذٍ طليطلة وَذَلِكَ فِي أَوَاخِر سنة تسعين وَخَمْسمِائة عزم يَعْقُوب الْمَنْصُور وَهُوَ يَوْمئِذٍ بمراكش على التَّوَجُّه إِلَى جَزِيرَة الأندلس لمحاربة الفرنج وَكتب إِلَى وُلَاة الْأَطْرَاف وقواد الجيوش بالحضور وَخرج إِلَى مَدِينَة سلا ليَكُون

اجْتِمَاع العساكر بظاهرها فاتفق أَنه مرض مَرضًا شَدِيدًا حَتَّى يئس مِنْهُ أطباؤه فتوقف الْحَال عَن تَدْبِير تِلْكَ الجيوش وَحمل يَعْقُوب الْمَنْصُور إِلَى مراكش وَهُوَ مَرِيض فطمع المجاورون لَهُ من الْعَرَب وَغَيرهم فِي الْبِلَاد وعاثوا فِيهَا وأغاروا على النواحي والأطراف وَكَذَلِكَ فعل الأذفونش فِيمَا يَلِيهِ من بِلَاد الْمُسلمين بالأندلس وَاقْتضى الْحَال تَفْرِقَة الجيوش الَّتِي جمعهَا يَعْقُوب الْمَنْصُور شرقًا وغربًا وَاشْتَغلُوا بالمدافعة والممانعة فَكثر طمع الأذفونش فِي الْبِلَاد.

رسائل العدو عندما يكون قويًا

وَبعث رَسُولًا إِلَى أَمِير الْمُؤمنِينَ يَعْقُوب الْمَنْصُور يهدد ويتوعد وَيطْلب بعض الْحُصُون المتاخمة لَهُ من بِلَاد الأندلس وَكتب إِلَيْهِ رِسَالَة من إنْشَاء وَزِير لَهُ من ضعفاء الْمُسلمين يعرف بِابْن الفخار[ويقال إنه يهودي] وَهِي بِاسْمِك اللَّهُمَّ فاطر السَّمَوَات وَالْأَرْض وَصلى الله على السَّيِّد الْمَسِيح روح الله وكلمته الرَّسُول الفصيح أما بعد : فَإِنَّهُ لَا يخفى على ذِي ذهن ثاقب وَلَا ذِي عقل لازب إِنَّك أَمِير الْمِلَّة الحنيفية كَمَا أَنِّي أَمِير الْمِلَّة النَّصْرَانِيَّة وَقد علمت الْآن مَا عَلَيْهِ رُؤَسَاء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال أَمر الرّعية وإخلادهم إِلَى الرَّاحَة وَأَنا أسومهم بِحكم الْقَهْر وخلاء الديار وأسبي الذَّرَارِي وأمثل بِالرِّجَالِ وَلَا عذر لَك فِي التَّخَلُّف عَن نَصرهم إِذا أمكنتك يَد الْقُدْرَة وَأَنْتُم تَزْعُمُونَ أَن الله فرض عَلَيْكُم قتال عشرَة منا بِوَاحِد مِنْكُم فَالْآن خفف الله عَنْكُم وَعلم أَن فِيكُم ضعفًا وَنحن الْآن نُقَاتِل عشرَة مِنْكُم بِوَاحِد منا لَا تَسْتَطِيعُونَ دفاعًا وَلَا تَمْلِكُونَ امتناعًا وَقد حُكيَ لي عَنْك أَنَّك أخذت فِي الاحتفال وأشرفت على ربوة الْقِتَال وتماطل نَفسك عَامًا بعد عَام تقدم رجلًا وتؤخر أُخْرَى فَلَا أَدْرِي أَكَانَ الْجُبْن قد أَبْطَأَ بك أم التَّكْذِيب بِمَا وعد رَبك ثمَّ قيل لي إِنَّك لَا تَجِد إِلَى جَوَاز الْبَحْر سَبِيلًا لعِلَّة لَا يسوغ لَك التقحم مَعهَا وَهَا أَنا أَقُول لَك مَا فِيهِ الرَّاحَة لَك وأعتذر لَك وعنك على أَن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرِّهَان وَترسل إِلَيّ جملَة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد

والمسطحات وأجوز بجملتي إِلَيْك فأقاتلك فِي أعز الْأَمَاكِن لديك فَإِن كَانَت لَك فغنيمة كَبِيرَة جلبت إِلَيْك وهدية عَظِيمَة مثلت بَين يَديك وَإِن كَانَت لي كَانَت يَدي الْعليا عَلَيْك واستحققت إِمَارَة الملتين وَالْحكم على البرين وَالله تَعَالَى يوفق للسعادة ويسهل الْإِرَادَة لَا رب غَيره وَلَا خير إِلَّا خَيره.

الجواب

فَلَمَّا وصل كِتَابه إِلَى أَمِير الْمُؤمنِينَ يَعْقُوب الْمَنْصُور مزقه وَكتب على ظهر قِطْعَة مِنْهُ وَكَانَ الْمَنْصُور يضْرب بِهِ الْمَثَل فِي حسن التوقيع كَمَا يَأْتِي فِي بَقِيَّة أخباره ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧﴾ [سورة النمل:٣٧]. ثمَّ كتب الْجَواب مَا ترى لَا مَا تسمع وَأنْشد متمثلًا:

وَلَا كتب إِلَّا المشـــــرفية والقنا ❁ ❁ ❁ وَلَا رسل إِلَّا بالْخَمِيس العرمرم

ثمَّ أَمر بالاستنفار واستدعاء الجيوش من الْأَمْصَار وَضرب السرادقات بِظَاهِر الْبَلَد من يَوْمه وَجمع العساكر وَسَار إِلَى الْبَحْر الْمَعْرُوف بزقاق سبتة يُرِيد الأندلس.

تاريخ المسير إلى القتال

وَقَالَ ابْن أبي زرع خرج أَمِير الْمُؤمنِينَ يَعْقُوب الْمَنْصُور من حَضْرَة مراكش يَوْم الْخَمِيس الثَّامِن عشر من جُمَادَى الأولى سنة إِحْدَى وَتِسْعين وَخَمْسمِائَة يولي السّير ويطوي المناهل وَلَا يلوي على فَارس وَلَا راجل والجيوش تتَابع فِي أَثَره من سَائِر الأقطار فَلَمَّا انْتهى إِلَى قصر الْمجَاز أَخذ فِي إِجَازَة الجيوش الْوَارِدَة عَلَيْهِ لَا يفرغ من طَائِفَة إِلَّا وَقد لحقت بهَا أُخْرَى فَأجَاز أَولًا قبائل الْعَرَب ثمَّ زناتة ثمَّ المصامدة ثمَّ غمارة ثمَّ المتطوعة من قبائل الْمغرب ثمَّ الأغزاز وَالرُّمَاة ثمَّ الموحدون ثمَّ العبيد ثمَّ أجَاز أَمِير الْمُؤمنِينَ فِي أَثَرهم فِي موكب عَظِيم من أَشْيَاخ الْمُوَحِّدين وَأهل النجدة والزعامة وَمَعَهُ فُقَهَاء الْمغرب وصلحاؤه وَاسْتقر بالجزيرة الخضراء بعد صَلَاة الْجُمُعَة الموفي عشْرين من رَجَب من السّنة الْمَذْكُورَة فَأَقَامَ بهَا يَوْمًا وَاحِدًا ثمَّ نَهَض

إِلَى الْعَدو قبل أَن تخمد قرائح الْمُجَاهدين وتضعف نياتهم فَسَار حَتَّى بَقِي بَينه وَبَين حصن الأرك الَّذِي كَانَ الْعَدو نازلًا بإزائه نَحْو مرحلَتَيْنِ فَنزل هُنَالك وَذَلِكَ يَوْم الْخَمِيس ثَالِث شعْبَان من السّنة فَجمع النَّاس ذَلِك الْيَوْم وفاوضهم ووعظهم ثمَّ اخْتصَّ أهل الأندلس بمزيد المشورة وَقَالَ لَهُم إِن جَمِيع من استشرته وَإِن كَانُوا أولي بَأْس وَمَعْرِفَة بِالْحَرْبِ لكِنهمْ لَا يعْرفُونَ من قتال الفرنج مَا تعرفونه أَنْتُم لتمرسكم بهم وتمرسهم بكم فأحالوه فِي الرَّأْي على الْقَائِد أبي عبد الله ابن صَنَادِيد فعول الْمَنْصُور رَحمَه الله فِي ذَلِك على رَأْيه وَقَالَ ابْن الْخَطِيب فِي رقم الْحلَل إِن أَمِير الْمُؤمنِينَ الْمَنْصُور رَحمَه الله عرض جَيْشه وَأخذ فِي تقريب الْقرب إِلَى الله تَعَالَى بَين يَدي جهاده فسرح السجون وأدر الأرزاق وَعين الصَّدقَات ورحل فَنزل الأرك وَقد خيمت بأحوازه محلات الْعَدو يضيق عَنْهَا المتسع.

من أدلة الصدق

وَقَامَ الْمَنْصُور بعد أَن اجْتمع النَّاس فتحلل من الْمُسلمين وَقَالَ أَيهَا النَّاس اغفروا لي فِيمَا عَسى أَن يكون صدر مني فبكى النَّاس وَقَالُوا مِنْكُم يطْلب الرضا والغفران وخطب الخطباء بَين يَدَيْهِ محرضين ومذكرين فنشط النَّاس وَطَابَتْ النُّفُوس وَمن الْغَد صدع الْمَنْصُور بالنداء وَأمر بِأخذ السِّلَاح والبروز إِلَى اللِّقَاء فَكَانَت التعبئة تَحت الْغَلَس وَحكى ابْن أبي زرع أَن الْمَنْصُور بَات تِلْكَ اللَّيْلَة عاكفًا بمصلاه على الرُّكُوع وَالسُّجُود وَإِنَّهُ أغفى إغفاءة فَرَأى ملكًا نزل من السَّمَاء فِي صُورَة بشر وَبِيَدِهِ راية خضراء وبشره بِالْفَتْح وأنشده فِي ذَلِك أبياتًا بقيت على ذكر الْمَنْصُور إِلَى أَن اسْتَيْقَظَ وقص رُؤْيَاهُ على وُجُوه الْجند فازداد النَّاس طمأنينة وبصيرة فَلَمَّا كَانَ يَوْم السبت خَامِس شعْبَان جلس الْمَنْصُور فِي قُبَّته الْحَمْرَاء الْمعدة للْجِهَاد.

القائد الأول بعد الأمير وترتيب المسلمين حسب البلدان ، والقبائل.

١- دَعَا بكبير وزرائه وهو الشَّيْخ أبو يحيى بن أبي حَفْص وَقدمه على ذَلِك الْجَيْش وَعقد لَهُ رايته وَقدمه بَين يَدَيْهِ فرفرفت على رَأسه الرَّايَات وَسَار فِي قبيلة

هنتاتة.

٢- وَبَين يَدَيْهِ الْقَائِد ابْن صَنَادِيد فِي جَيش الأندلس.

٣- ثمَّ عقد الْمَنْصُور لجرمون بن رياح على قبائل الْعَرَب.

٤- ولمنديل بن عبد الرَّحْمَن المغراوي على قبائل مغراوة.

٥- ولمحيو بن أبي بكر بن حمامة المريني جد الْمُلُوك المرينيين على قبائل بني مرين.

٦- ولجابر بن يُوسُف العَبْد الْوَادي على قبائل بني عبد الواد.

٧- ولعباس بن عَطِيَّة التوجيني على قبائل بني توجين.

٨- ولتلجين بن عَليّ على قبائل هسكورة وَسَائِر المصامدة.

٩- ولمحمد بن منغفاد على قبائل غمارة.

١٠-وَعقد للفقيه الصَّالح أبي خزر يخلف بن خزر الأوربي على المتطوعة وَقَالَ ابْن خلدون إِن الَّذِي كَانَ على المتطوعة يَوْمئِذٍ هُوَ الشَّيْخ أَبُو مُحَمَّد عبد الْوَاحِد بن أبي حَفْص وَالْكل إِلَى نظر الشَّيْخ أبي يحيى بن أبي حَفْص.

١١- وَبَقِي الْمَنْصُور رَحمَه الله فِي جَيش الْمُوَحِّدين وَالْعَبِيد وَأمر الشَّيْخ أَبَا يحيى بالرحيل والتقدم أَمَامه إِلَى جِهَة الْعَدو وَكَانَ الْمَنْصُور قد ضفر مَعَ ابْن صَنَادِيد من الرَّأْي أَن يبْقى هُوَ مُتَأَخِّرًا فِي الْمُوَحِّدين وَالْعَبِيد والحشم على مَسَافَة يخفى بهَا عَن أعين الْعَدو وَيقدم الشَّيْخ أَبَا يحيى بِبَعْض الرَّايَات فِي هَيْئَة السُّلْطَان فَيلقى الْعَدو فَإِن كَانَت للْمُسلمين فَهُوَ الْمَطْلُوب وَإِن كَانَت عَلَيْهِم كَانَ الْمَنْصُور ردءًا لَهُم ثمَّ يسْتَأْنف الْقِتَال مَعَ الْعَدو وَقد انفل حَده ولانت شوكته فَسَار الشَّيْخ أَبُو يحيى على هَذَا التَّرْتِيب وَابْن صَنَادِيد أَمَامه فِي فرسَان الأندلس وحماتها فَكَانَ الشَّيْخ أَبُو يحيى إِذا أقلع بجيشه عَن مَوضِع صباحًا خَلفه الْمَنْصُور فِيهِ بجيشه مسَاء حَتَّى أشرف الشَّيْخ أَبُو يحيى على جموع الفرنج وَهِي يَوْمئِذٍ إِلَى جنب حصن الأرك وَيُقَال الأركو بِزِيَادَة الْوَاو فِي آخِره قد ضربت أخبيتها على ربوة عالية ذَات مهاو وأحجار كبار قد

مَلَأت السهل والوعر وَنزل الشَّيْخ أَبُو يحيى بجيشه فِي الْبَسِيط ضحوة يَوْم الْأَرْبَعَاء التَّاسِع من شعْبَان سنة إِحْدَى وَتِسْعين وَخَمْسمِائَة وَعند ابْن خلكان أَن ذَلِك كَانَ يَوْم الْخَمِيس.

ترتيب الجيش الإسلامي في ساحة المعركة

فعبأ الشَّيْخ أَبُو يحيى عساكره تعبئة الْحَرْب وَعقد الرَّايَات لأمراء الْقَبَائِل وأوقف كل قَبيلَة فِي مركزها الَّذِي عين لَهَا فَجعل:

١- عَسْكَر الأندلس فِي الميمنة.

٢- وَجعل زناتة والمصامدة وَالْعرب وَسَائِر قبائل الْمغرب فِي المسيرة.

٣- وَجعل المتطوعة والأغزاز وَالرُّمَاة فِي الْمُقدمَة.

٤- وَبَقِي هُوَ فِي الْقلب فِي قَبيلَة هنتاتة.

الموعظة قبل القتال ثم المعركة

وَلما أَخذ النَّاس مراكزهم من حومة الْقِتَال خرج جرمون بن ريَاح يمشي فِي صُفُوف الْمُسلمين ويحضهم على الثَّبَات وَالصَّبْر، وبينما النَّاس على ذَلِك إِذْ انفصلت من جيوش الْعَدو كَتِيبَة عَظِيمَة من نَحْو عشرَة آلَاف فَارس كلهم مدجج فِي الْحَدِيد وَكَانَت هَذِه الكتيبة هِيَ شَوْكَة ذَلِك الْجَيْش وَحده كَانَ الفنش لَعنه الله قد انتخبهم وصلت أقسته عَلَيْهِم صَلَاة النَّصْر ورشوهم بِمَاء المعمودية وتحالفوا عِنْد الصلبان أَن لَا يبرحوا حَتَّى يقتلُوا الْمُسلمين أَو يهْلكُوا دونهم فَلَمَّا برزت هَذِه الكتيبة نَادَى مُنَادِي الشَّيْخ أبي يحيى معشر الْمُسلمين اثبتوا فِي مَصَافكُمْ وَأَخْلصُوا لله تَعَالَى نيتكم واذكروا الله عز وَجل فِي قُلُوبكُمْ وبرز عَامر الزعيم من أُمَرَاء الْعَرَب فحض النَّاس على الصَّبْر وثبتهم وحملت كَتِيبَة الْعَدو حَتَّى اندقت رماح الْمُسلمين فِي صُدُور خيلها أَو كَادَت ثمَّ تقهقرت قَلِيلًا ثمَّ عاودت الحملة فَكَانَت كالأولى ثمَّ تهيأت للحملة الثَّالِثَة فَدفعت حَتَّى خالطت صُفُوف الْمُسلمين وخلص الْبَعْض مِنْهَا إِلَى الشَّيْخ أبي يحيى يظنونه الْمَنْصُور فاستشهد رَحمَه الله بعد مَا أحسن الْبلَاء وَقَاتل قتالًا شَدِيدًا

وَاسْتشْهدَ مَعَه جمَاعَة من الْمُسلمين من هنتاتة والمتطوعة وَغَيرهم وَسمي بَنو الشَّيْخ أبي يحيى ببني الشَّهِيد وَعرفُوا بِهِ من يَوْمئِذٍ وأظلم الجو بالغبار واختلطت الرِّجَال بِالرِّجَالِ وَانْفَرَدَ كل قرن بقرنه وَأَقْبَلت الْعَرَب والمتطوعة فأحاطوا بالكتيبة الَّتِي دفعت إِلَى الشَّيْخ أبي يحيى.

عدد جيش النصارى

وزحفت زناتة والمصامدة وغمارة إِلَى الربوة الَّتِي فِيهَا الفنش وجموعه وَكَانَت على مَا قيل تنيف على ثَلَاثمِائَة ألف بَين فَارس وراجل فتوغل الْمُسلمُونَ فِي تِلْكَ الأوعار إِلَيْهِم وخالطوهم بهَا وَاشْتَدَّ الْقِتَال واستحر الْقَتْل فِي الكتيبة الَّتِي دفعت أَولًا وَانْقَضَت عَلَيْهِم الْعَرَب والمتطوعة وهنتاتة فطحنوهم طحنًا وانكسرت شَوْكَة الفنش بهلاكهم إِذْ كَانَ اعْتِمَاده ومعوله عَلَيْهِم وأسرعت خيل من الْعَرَب إِلَى أَمِير الْمُؤمنِينَ الْمَنْصُور فأعلموه بِأَن الله تَعَالَى قد فل شَوْكَة الْعَدو وأشرف على الانهزام فَعندهَا أَمر الْمَنْصُور بالرايات فَرفعت وَرفع الْمُسلمُونَ أَصْوَاتهم بِالتَّكْبِيرِ وتسابقوا لقِتَال الْعَدو وخفقت البنود وزحف أَمِير الْمُؤمنِينَ نَحْو المعركة فَلم يرع الفنش اللعين إِلَّا الرَّايَات قد أَقبلت تخفق من كل جِهَة وأصوات الْمُجَاهدين بِالتَّكْبِيرِ قد زلزلت الأَرْض فَقَالَ مَا هَذَا فَقيل هَذَا الْمَنْصُور قد أقبل فِي جَيْشه وَمَا قَاتلك سَائِر الْيَوْم إِلَّا طلائعه ومقدماته فقذف الله الرعب فِي قلبه وخشعت نفوس جموعه وزلزلت بهم الأَرْض زِلْزَالهَا فَولوا الأدبار لَا يلوون على شَيْء وأسعدهم يَوْمئِذٍ من وجد فِي فرسه بَقِيَّة تنجيه وأتبعهم الْمُسلمُونَ يقتلُون وَيَأْسِرُونَ وأحاط بَعضهم بحصن الْأَرَاك يظنون أَن الفنش قد تحصن بِهِ وَكَانَ عَدو الله قد دخل على بَاب وَخرج على آخر من النَّاحِيَة الْأُخْرَى [واستطاع أن يفر في نحو عشرين فارسًا من أصحابه، فسار تحت جنح الليل صوب طليطلة لا يلوي على شيء] (١)واقتحم

(١) [دولة الإسلام في الأندلس (٤/ ٢٠٨).

الْمُسلمُونَ الْحصن عنْوَة وأضرموا النيرَان فِي أبوابه واحتووا على جَمِيع مَا كَانَ فِيهِ وَفِي محلّة الْعَدو من الْأَمْوَال والذخائر وأنواع السِّلَاح الَّتِي تفوت الْحصْروقال ابْن خلدون كَانَ مُلُوك الفرنج الَّذين قَاتلُوا الْمَنْصُور يَوْمئِذٍ ثَلَاثَة ابْن أذفونش وَابْن الرند والبيبوج.

عدد الأسارى ، والقتلى من الصليبيين ، وتقريب مقدار الغنيمة

قَالَ واعتصم فَلّهم بحصن الأرك وَكَانُوا خَمْسَة آلَاف من زعمائهم[بقيادة دون ديجو لوبث دي بسكاية].[1] فاستنزلهم الْمَنْصُور على حكمه حَتَّى فودي بهم عَددهمْ من الْمُسلمين وَفِي القرطاس أَن عدد أُسَارَى الأرك كَانُوا أَرْبَعَة وَعشْرين ألفا فَمنّ عَلَيْهِم الْمَنْصُور وأطلقهم قَالَ فعز ذَلِك على جَمِيع الْمُوَحِّدين وَسَائِر الْمُسلمين وعدت للمنصور سقطة من سقطات الْمُلُوك وَقَالَ ابْن الْأَثِير كَانَت الدائرة يَوْم الأرك أَولًا على الْمُسلمين ثمَّ عَادَتْ على الفرنج وانهزموا أقبح هزيمَة وَكَانَ عدد من قتل من الفرنج أَزِيد من مائَة ألف [وقيل قتل في المعركة من النصارى زهاء ثلاثين ألفًا] وغنم الْمُسلمُونَ مِنْهُم شَيْئًا كثيرًا فَمن الْخيام مائَة ألف وَثَلَاثَة وَأَرْبَعُونَ ألفًا وَمن الْخَيل سِتَّة وَأَرْبَعُونَ ألفًا وَقيل ثَمَانُون ألفًا وَمن البغال مائَة ألف وَمن الْحمير أَرْبَعمِائَة ألف قَالَ فِي نفح الطّيب جَاءَ بهَا الْكفَّار لحمل أثقالهم لأَنهم لَا إبل لَهُم قَالَ وَأما الْجَوَاهِر وَالْأَمْوَال فَلَا تحصى وَبيع الْأَسير بدرهم وَالسيف بِنصْف دِرْهَم وَالْفرس بِخَمْسَة دَرَاهِم وَالْحمار بدرهم وَقسم الْمَنْصُور الْغَنَائِم بَين الْمُسلمين بِمُقْتَضى الشَّرْع. وَفِي كَامِل ابْن الْأَثِير أَن يَعْقُوب الْمَنْصُور رَحمَه الله نَادَى فِي عسكره من غنم شَيْئًا فَهُوَ لَهُ سوى السِّلَاح وأحصى مَا حمل إِلَيْهِ مِنْهُ فَكَانَ زِيَادَة على سبعين ألف لبس.

عدد قتلى المسلمين رحمهم الله

واسْتشْهدَ من الْمُسلمين نَحْو عشْرين ألفًا ثمَّ تقدم الْمَنْصُور بجيوشه إِلَى بِلَاد

---

(١) [دولة الإسلام في الأندلس (٤/ ٢٠٩).

الفرنج وَأخذ يخرب المدن والقرى وَيفتح الْحُصُون والمعاقل وَيقتل وَيَسْبِي ويأسر حَتَّى وصل إِلَى جبل سُلَيْمَان ثمَّ ثنى عنانه رَاجعًا وَقد امتلأت أَيدي الْمُسلمين من الْغَنَائِم وَلم يُعَارضهُ من الفرنج معَارض حَتَّى وصل إِلَى إشبيلية فاستقر بهَا.

وَأما الفنش فَإِنَّهُ لما انهزم وصل إِلَى طليطلة فِي أَسْوَأ حَال فحلق رَأسه ولحيته ونكس صليبه وَركب حمارًا وَأقسم أَن لَا يركب فرسا وَلَا بغلا وَلَا ينَام على فرَاش وَلَا يقرب النِّسَاء حَتَّى تنصر النَّصْرَانِيَّة فَجمع جموعًا عَظِيمَة وَبلغ الْخَبَر بذلك الى الْمَنْصُور فَبعث إِلَى بِلَاد الْمغرب مراكش وَغَيرهَا يستنفر النَّاس من غير إِكْرَاه فَأَتَاهُ من المتطوعة والمرتزقة جمع عَظِيم ثمَّ نَهَضَ إِلَى الفنش فَالْتَقوا فِي ربيع الأولى اثْنَتَيْنِ وَتِسْعين وَخَمْسمِائَة فَانْهَزَمَ الفرنج هزيمَة قبيحة وغنم الْمُسلمُونَ مَا مَعَهم من الْأَمْوَال وَالسِّلَاح وَالدَّوَاب وَغَيرهَا ، ثمَّ تقدم الْمَنْصُور إِلَى مَدِينَة طليطلة فحاصرها وقاتلها قتالًا شَدِيدًا وَقطع أشجارها وَشن الغارات على مَا حولهَا من الْبِلَاد وَفتح فِيهَا عدَّة حصون مثل قلعة رَبَاح ووادي الْحِجَارَة ومجريط وجبل سُلَيْمَان وأفليج وَكثير من أحواز طليطلة ثمَّ ارتحل عَن طليطلة إِلَى مَدِينَة طلمنكة فَدَخلهَا عنْوَة بِالسَّيْفِ فَقتل الْمُقَاتلَة وسبا النِّسَاء والذرية وغنم أموالها وَهدم أسوارها وأضرم النيرَان فِي جوانبها وَتركهَا قاعًا صفصفًا وثنى عنانه إِلَى إشبيلية فَدَخلهَا غرَّة صفر سنة ثَلَاث وَتِسْعين وَخَمْسمِائَة ثمَّ خرج الْمَنْصُور من إشبيلة غازيا بِلَاد ابْن أذفونش فَسَار حَتَّى احتل بِسَاحَة طليطلة وبلغه أَن صَاحب برشلونة قد أمد ابْن أذفونش بعساكره وَأَنَّهُمْ جَمِيعًا بحصن مجريط فَنَهَضَ إِلَيْهِم وَلما أطل عَلَيْهِم انفضت جموع ابْن أذفونش من قبل الْقِتَال ثمَّ انكفأ الْمَنْصُور رَاجعًا إِلَى إشبيلية.

وَفِي نفح الطّيب أَن يَعْقُوب الْمَنْصُور لما حاصر طليطلة وضيق عَلَيْهَا وَلم يبْق إِلَّا فتحهَا خرجت إِلَيْهِ وَالِدَة الأذفونش وَبنَاته ونساؤه وبكين بَين يَدَيْهِ وسألنه إِبْقَاء الْبَلَد عَلَيْهِنَّ فرق لَهُنَّ وَمنّ عَلَيْهِنَّ بِهِ ووهب لَهُنَّ من الْأَمْوَال والجواهر مَا جلّ

وردهن مكرمات وَعَفا بعد الْقُدْرَة وَالله تَعَالَى أعلم.

التبشير بالنصر وورود التهاني وإنشاد الشعر

أمر المنصور أن يكتب بالفتح إلى سائر جهات الأندلس والمغرب. وطلب إلى أبي الفضل بن طاهر ابن محشرة أن يتوخى في كتب الفتح غاية الإيجاز، وأن يكتبها على مثل كتب الصحابة في فتوحهم، فصدع أبو طاهر بالأمر. ورفع الشعراء قصائدهم إلى الخليفة كالعادة، ونظم أبو العباس الجراوي شاعر البلاط الموحدي، في الفتح قصيدة جاء فيها:

هو الفتح أعيى وصفه النظم والنثرا ❁❁❁ وعمت جميع المسلمين به البشرى
وأنجد في الدنيا وغار حديثه ❁❁❁ فراقت به حسنًا وطابت به نشرا
لقد أورد الأذفونش شيعته الردى ❁❁❁ وساقهم جهلا إلى البطشة الكبرى
حكى فعل إبليس بأصحابه الألى ❁❁❁ تبرأ منهم حين أوردهم بدرا
رأى الموت للأبطال حوليه ينتقي ❁❁❁ فطار إلى أقصى مصارعه ذعرا
ألوف غدت مأهولة بهم الفلا ❁❁❁ وأمست خلاء منهم دورهم قفرا
ودارت رحى الهيجا عليهم فأصبحوا ❁❁❁ هشيمًا طحينًا في مهب الصبا يذرا

وأنشد الشاعر الأندلسي المرسي، علي بن حزمون بين يدي الخليفة قصيدة، وقعت منه أجمل وقع، وهذا بعض ما جاء فيها: (١)

حيتك معطرة النفس ❁❁❁ نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومأتمهم ❁❁❁ إن الإسلام لفي عرس
أإمام الحق وناصره ❁❁❁ طهرت الأرض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى ❁❁❁ فدنا التوفيق لملتمس
ورفعت منار الدين على ❁❁❁ عُمد شُمٍّ وعلى أسس

(١) دولة الإسلام في الأندلس (٤/ ٢١٦).

ثمَّ اجْتمع مُلُوك الفرنج وَأَرْسلُوا يطْلبُونَ الصُّلْح فأجابهم إِلَيْهِ وصالحهم على مُدَّة خمس سِنِين بعد أَن كَانَ عَازِمًا على الِامْتِنَاع مرِيدًا لملازمة الْجِهَاد إِلَى أَن يفرغ مِنْهُم فَأَتَاهُ خبر عَليّ بن إِسْحَاق المسوفي الْمَعْرُوف بِابْن غانية وَأَنه دخل إفريقية وَأَرَادَ الِاسْتِيلَاء عَلَيْهَا ففت ذَلِك فِي عزمه وصالحهم على الْمدَّة الَّتِي ذكرنَا وَعقد على إشبيلية للسَّيِّد أبي زيد بن الْخَلِيفَة وعَلى مَدِينَة بطليوس للسَّيِّد أبي الرّبيع ابْن السَّيِّد أبي حَفْص وعَلى الْمغرب للسَّيِّد أبي عبد الله بن السَّيِّد أبي حَفْص ثمَّ عبر الْبَحْر إِلَى الْمغرب فوصل إِلَى مراكش فِي شعْبَان سنة أَربع وَتِسْعين وَخَمْسمِائَة.

(ملخص معركة الأرك الفاصلة)

١- اسم المعركة : الأرك.

٢- مكان المعركة : الأرك " وهي محلة صغيرة من أعمال قلعة رباح، تقع على مسافة أحد عشر كيلومترًا في غربي مدينة " ثيوداد ريال " الحديثة ، وتقوم فوق ربوة عالية، تمتد سفوحها حتى نهر وادي يانه، وكانت عندئذ هي نقطة الحدود بين قشتالة وأراضي المسلمين. ويبدو من أوصاف أدوار المعركة أن محلة الجيش القشتالي [الإسباني]، كانت تحتل مكانًا يتصل بمشارف ربوة الأرك، على مقربة من الحصن، ويمتد في اتجاه قرية بوبليتي، ويستند إلى الحصن، وإلى نهر وادي يانه، وأن المسلمين كانوا يحتلون البسيط الواقع قبالتهم في أسفل الوادي، وتستند محلتهم غربًا إلى يسار النهر [دولة الإسلام في الأندلس (٤/ ٢٠٠- ٢٠٤)].

٣- تاريخ المعركة: يَوْم الْأَرْبَعَاء التَّاسِع من شعْبَان سنة إِحْدَى وَتِسْعين وَخَمْسمِائَة وقيل : كَانَ يَوْم الْخَمِيس (٩/شعبان/٥٩١هـ).

٤- الفريقان المتقاتلان :

١- **المسلمون:** بقيادة السلطان المنصور أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي رحمه الله.

٢- **الصليبيون:** بقيادة الفونس الثامن ملك إسبانيا.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما:

أولًا المسلمون: عبأ الشَّيْخ أَبُو يحيى بن أبي حَفْص عساكره تعبئة الْحَرْب وَعقد الرَّايَات لأمراء الْقَبَائِل وأوقف كل قَبيلَة فِي مركزها الَّذِي عين لَهَا وذلك بأمر المنصور فَجعل:

١- عَسْكَر الأندلس فِي الميمنة.

٢- وَجعل زناتة والمصامدة وَالْعرب وَسَائِر قبائل الْمغرب فِي المسيرة.

٣- وَجعل المتطوعة والأغزاز وَالرُّمَاة فِي الْمُقدمَة.

٤- وَبَقِي هُوَ فِي الْقلب فِي قَبيلَة هنتاتة.

ثانيًا الصليبيون: كَانَ عددهم ينيف على ثَلَاثمِائَة ألف بَين فَارس وراجل.

وكَانَ مُلُوك الفرنج الَّذين قَاتلُوا الْمَنْصُور يَوْمئِذٍ ثَلَاثَة ابْن أذفونش وَابْن الرند والبيبوج.

٦- سبب المعركة : كان بين المسلمين والفرنج هدنة فَلَمَّا انْقَضتْ مُدَّة الْهُدْنَة وَلم يبْق مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيل خرجت طَائِفَة من الفرنج فِي جَيش كثيف إِلَى بِلَاد الْمُسلمين فنهبوا وَسبوا وعاثوا عيثًا فظيعًا وَبعث ملك الأسبان رَسُولًا إِلَى الأَمِير يَعْقُوب الْمَنْصُور يهدد ويتوعد وَيطْلب بعض الْحُصُون المتاخمة لَهُ من بِلَاد الأندلس وَكتب إِلَيْهِ رِسَالَة بذلك فَانْتهى الْخَبَر إِلَى أَمِير الْمُؤمنِينَ يَعْقُوب الْمَنْصُور وَهُوَ بمراكش فتجهز لقصدهم فِي جَيش عَرَمْرَم من قبائل الْمُوَحِّدين وَالْعرب واحتفل فِي ذَلِك وَعبر الْبَحْر إِلَى الأندلس واتصل بالفرنج عبوره إِلَيْهِم فَجمعُوا خلقًا كثيرًا من أَقْصَى بِلَادهمْ وأدانيها وَأَقْبلُوا فكانت معركة الأرك.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- اسْتشْهدَ من الْمُسلمين نَحْو عشْرين ألفًا، مع نصر مبين للمسلمين بفضل الله تعالى.

٢- ذكر صاحب كتاب القرطاس أَن عدد أُسَارَى الأرك كَانُوا أَرْبَعَة وَعشْرين ألفا فَمنّ عَلَيْهِم الْمَنْصُور وأطلقهم قَالَ فعز ذَلِك على جَمِيع الْمُوَحِّدين وَسَائِر الْمُسلمين وعدت للمنصور سقطة من سقطات الْمُلُوك.

٤- كَانَ عدد من قتل من الفرنج أَزِيد من مائَة ألف، وقيل زهاء ثلاثين ألفًا.

٥- غنم الْمُسلمُونَ مِنْهُم شَيْئًا كثيرًا فَمن الْخيام مائَة وَثَلَاثَة وَأَرْبَعُونَ ألفًا وَمن الْخَيل سِتَّة وَأَرْبَعُونَ ألفًا وَقيل ثَمَانُون ألفًا وَمن البغال مائَة ألف وَمن الْحمير أَرْبَعمِائَة ألف جَاءَ بهَا الْكفَّار لحمل أثقالهم لأَنهم لَا إبل لَهُم، وَأما الْجَوَاهِر وَالْأَمْوَال فَلَا

تحصى وَبيع الْأَسير بدرهم وَالسيف بِنصْف دِرْهَم وَالْفرس بِخَمْسَة دَرَاهِم وَالْحمار بدرهم السِّلَاح زِيَادَة على سبعين ألف لبس وَقسم الْمُنْصُور الْغَنَائِم بَين الْمُسلمين بِمُقْتَضى الشَّرْع.

٦- تقدم الْمُنْصُور بعد المعركة [بمدة] بجيوشه إِلَى بِلَاد الفرنج وَأخذ يخرب المدن والقرى وَيفتح الْحُصُون والمعاقل وَيقتل وَيَسْبِي ويأسر حَتَّى وصل إِلَى جبل سُلَيْمَان ثمَّ ثنى عنانه رَاجعًا وَقد امتلأت أَيدي الْمُسلمين من الْغَنَائِم وَلم يُعَارضهُ من الفرنج معَارض حَتَّى وصل الى إشبيلية فاستقر بهَا، ثم هزمهم في السنة التي تلتها، وفي السنة التي تلتها أيضًا كلما اجتمعوا فلّ الله جمعهم، ثم صالحوه على خمس سنين. ومما أخذوه قلعة رباح التي بقيت تحت الصليبيين نو نصف قرن.

٧- أن يعلم الكفار أن أمراء الإسلام يغارون على دينهم مهما حصل لهم من الضعف، فالدولة الموحدية على ما حصل منها من المخالفات قد يسر الله منها المنصور الذي جاهد الصليبيين وأوصى عند موته بجزيرة الأندلس [فقال للحضور بعد ذلك وعيناه تذرفان الدمع: **أوصيكم بتقوى الله تعالى، وبالأيتام واليتيمة. فسأله الشيخ أبو محمد عبد الواحد، يا سيدنا يا أمير المؤمنين، ومن الأيتام واليتيمة؟ قال اليتيمة جزيرة الأندلس. والأيتام سكانها المسلمون، وإياكم الغفلة فيما يصلح بها من تشييد أسوارها وحماية ثغورها، وتربية أجنادها وتوفير رعيتها، ولتعلموا أنه ليس في نفوسنا أعظم من همها، ونحن الآن قد استودعنا الله تعالى، وحسن نظركم فيها، فانظروا من المسلمين، وأجروا الشرائع على مناهجها**]. [دولة الإسلام في الأندلس (٤/ ٢٣٧)].

وهذا تلخيص حياة اليتيمة حاضنة المسلمين، وناشرة الدين

لقد مرت الأندلس، خلال تلك القرون بعدة عهود، تقلبت خلالها بين الضعف والقوة، وهذه العهود بإيجاز هي:

أ - عهد الفتح: استمر نحو أربع سنين: ٩٢ - ٩٥ هـ.

ب – عهد الولاة: من سنة ٩٥ هـ–١٣٨هـ ، ويعتبر قسم من المؤرخين عهد الفتح داخلاً في هذا العهد الذي ينتهي بقدوم عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨ هـ ،وقد حكم الأندلس في هذا العهد – الذي استمر نحو اثنتين وأربعين سنة – ١٩ والياً تقريباً، كانوا تابعين للخلافة في دمشق أو لولاية الشمال الإفريقي: (إفريقية والمغرب).

ج – عهد الإمارة: من سنة ١٣٨ هـ–٣١٦ هـ ،ويبدأ من قدوم عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، حتى إعلان الخلافة من قبل عبد الرحمن الناصر (الثالث) سنة ٣١٦ هـ، وقد أسس عبد الرحمن الداخل إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية، استمرت مائة وثمانٍ وسبعين سنة.

د – عهد الخلافة: من سنة ٣١٦ هـ إلى سنة ٤٢٢هـ ،ويبدأ منذ إعلان الخلافة حتى وفاة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ أو حتى الدولة العامرية في نهاية القرن الرابع الهجري (بداية القرن الحادي عشر الميلادي)، فكان عمر الخلافة نحو قرن من الزمان.

هـ – عهد الطوائف: من سنة ٤٠٠ هـ – ٤٨٤ هـ،وهو عهد دول أو ملوك الطوائف، التي سبقت أعوام الفوضى، وقد استمر هذا العهد نحو ثلاثة أرباع القرن، حتى دخول الأندلس سلطان المرابطين.

و– عهد المرابطين والموحِّدين: من سنة ٤٨٤ هـ – ٦٣٣هـ حيث دخلت الأندلس أولاً في دولة المرابطين التي تنتهي في حوالى ٥٤١ هـ أي أقل من نصف قرن وبعد مدة انضوت الأندلس لحكم الموحدين قرابة قرن من الزمان، ينتهي في حوالي سنة ٦٣٣ هـ ،ويمكن اعتبارهما عهدين مستقلين.

ز – مملكة غرناطة: من سنة ٦٣٥ هـ–٨٩٧ هـ حيث قامت دولة بني الأحمر واستمرت ما يزيد على قرنين ونصف القرن، حتى نهاية القرن التاسع الهجري

(الخامس عشر الميلادي) ويمثل سقوطها نهاية الحكم الإسلامي للأندلس وذهاب السلطان السياسي منها. وبقي ملايين من المسلمين، ولكنهم تحملوا عشرات السنوات الكثير من الاضطهاد وعمليات الإفناء التي أتت عليهم في النهاية قتلاً وتشريداً وإذابة، وكادت تأتي على كل ما خلفه المسلمون بأجناسهم من إنتاج حضاري رفيع شمل مختلف الميادين[1].

وأخيرًا مأساة الموريسكيّين أو العَرَب المتنصِّرين ٨٩٧ - ١٠١٨ هـ:

لما بقي كثير من المسلمين في الأندلس مقيمين على دينهم استدعي الكردينال خمينس إلى غرناطة ليعمل على تحقيق مهمة تنصير المسلمين، فوفد عليها في (٩٠٥ هـ). وقد فرض التنصير على المسلمين فرضًا. وكانت معظم أنواع التعذيب المعروفة في العصور الوسطى، تستعمل في محاكم التحقيق ومنها تعذيب الماء، وهو عبارة عن توثيق المتهم فوق أداة تشبه السلّم، وربط لساقيه وذراعيه إليها، مع خفض رأسه إلى أسفل، ثم توضع في فمه من زلعة جرعات كبيرة، وهو يكاد يختنق، وقد يصل ما يتجرعه إلى عدة لترات.

وتعذيب (الجاروكا)، وهو عبارة عن ربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه، ورفعه وخفضه معلقاً، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه.

وتعذيب الأسياخ المحمية للقدم، **والقوالب** المحمية للبطن والعجز، **وسحق** العظام بآلات ضاغطة، **وتمزيق** الأرجل، **وفسخ** الفك، وغيرها من الوسائل البربرية المثيرة. ولم يك ثمة حدود مرسومة لروعة التعذيب وآلامه، ولا يحضر التعذيب سوى الجلاّد والأحبار المحققون، والطبيب إذا اقتضى الأمر.

وكان يبلغ من عسف الديوان أحياناً، أن يبسط حكم الإرهاب في بعض

---

(١) قادة فتح الأندلس (١/ ١٦٠- ١٦٢).

المناطق، وهذا ما حدث في قرطبة على يد المحقق العام لوسيرو الذي يعتبر من أشدّ المحققين قسوة وإجراماً. ففي عهده ذاعت جرائم النهب واغتصاب البنات والزوجات.

وكان اليهود الذين تمتعوا عصورًا بالحرية والأمن، في ظل الحكم الإسلامي، أوّل ضحايا سياسة الإرهاق والمحو التي رسمتها إسبانيا الجديدة ،فلما سقطت غرناطة، وطويت بسقوطها صفحة الدولة الإسلامية في الأندلس، ووقع ملايين المسلمين في قبضة إسبانيا النصرانية، ولما أكره المسلمون على التنصير، واستحالت بقايا الأمة الأندلسية إلى طوائف الموريسكيين، ألفى ديوان التحقيق في هذا المجتمع النصراني المحدث أخصب ميدان لنشاطه، وغدت محاكم التحقيق يد الكنيسة القوية في تحقيق غايتها البعيدة،ولم يجد المسلمون الذين آثروا البقاء في الوطن القديم، وأُكرهوا على التنصر واعتناق الدين الجديد، ملاذًا أو عاصمًا من الاضطهاد والمطاردة؛ ذلك أن الموريسكيين أو العرب المتنصرين لبثوا دائمًا موضع البغض والريب، وأبت إسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها، أن تضمهم إلى حظيرتها، وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد، ولبثت تتوجَّس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم، وترى فيهم دائمًا منافقين مارقين وهكذا كانت السياسة الإسبانية، كما كانت الكنيسة الإسبانية، أبعد من أن تقنع بتنصير المسلمين الظاهري، وإنما كانت ترمي إلى إبادتهم، ومحو آثارهم ودينهم وحضارتهم، وكل ذكرياتهم.

والواقع أن الموريسكيين لبثوا بالرغم من تنصيرهم، نزولًا على حكم القوة والإرهاب، مخلصين في سرائرهم لدينهم الإسلامي، ولم تستطيع الكنيسة بالرغم من جهودها الفادحة أن تحملهم على الولاء لدين قاسوا في سبيل اعتناقه ضروبًا مروِّعة من الآلام النفسية والاضطهاد المضني، وإليك ما يقوله مؤرخ إسباني كتب

قريبًا عن ذلك العصر، وأدرك الموريسكيين، وعاش بينهم حينًا في غرناطة: "كانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد، فإذا ذهبوا إلى القدّاس أيام الآحاد، فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام، وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف. وفي يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة في منازلهم المغلقة، وفي أيام الآحاد يحتجبون ويعملون. وإذا عُمِّد أطفالهم عادوا فغسلوهم سرًا بالماء الحار، ويسمّون أولادهم بأسماء عربية، وفي حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقي البركة، تنزع ثيابها النصرانية، وترتدي الثياب العربية، ويقيمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية".

وقد انتهت إلينا وثيقة عربية هامة تلقي ضوءًا كبيرًا على أحوال الموريسكيين في ظل التنصير، وتعلقهم بدينهم الإسلامي، وكيف كانوا يتحيّلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفية، ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعذار الشرعية التي يمكن أن تسوِّغ مسلكهم، وتشفع لهم عند ربّهم، مما يرغمون عليه من اتباعه من الشعائر النصرانية. وهذه الوثيقة هي عبارة عن رسالة وجِّهت من أحد فقهاء المغرب إلى جماعة العرب المتنصِّرين ممن يسميهم: (الغرباء)، يقدم لهم بعض النصائح التي يعاون اتباعها على تنفيذ أحكام الإسلام خفية، وبطريق التورية والتستر. وتاريخ هذه الرسالة هو غرة رجب سنة (٩١٠ هـ) وإليك نص هذه الوثيقة: "الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا، إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر، مَن أجزل الله ثوابهم، فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله، من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جنّاته، وارثو سبيل السّلف الصالح، في تحمّل المشاق، وإن بلغت النفوس إلى النزاق، نسأل الله أن يلطف بنا، وأن يعيننا وإياكم على مراعات حقّه، بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، بعد السلام عليكم، من كاتبه إليكم، من عبيد الله أصغر

عبيده، وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عبيد الله تعالى أحمد بن بو جمعة المغراوي ثم الوهراني، كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلًا من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء، بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، ومؤكدًا عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به مَن بلغ من أولادكم إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى؛ فاعلموا أن الأصنام خشب منجور، وحجر جلمود، لا يضر ولا ينفع، وأن المُلك ملك الله ما اتّخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، فاعبدوه، واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عومًا في البحور، وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحًا بالأيدي للحيطان، فإن لم يكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلاّ أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به، فاقصدوا بالإيماء، نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله عليه السلام: فأتوا منه ما استطعتم. وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية، وانووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم، ومقصودكم الله، وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لا بنية استعماله، وإن كلفوا فيكم خنزيرًا فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه، وكذا إن أكرهوكم على محرَّم، وإن زوّجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم، فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وإنكم ناكرون لذلك في قلوبكم، ولو وجدتم قوّة لغيّرتموه. وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام،

فافعلوه منكرين بقلوبكم، ثم ليس لكم إلاّ رءوس أموالكم، وتتصدقون بالباقي، إن تبتم إلى الله تعالى، وإن أكرهوكم على كلمة الكفر، فإن أمكنكم التورية والألغاز فافعلوا، وإلاّ فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا: اشتموا محمدًا، فإنهم يقولون له: مُمَد، فاشتموا مُمَد، ناوين أنه الشيطان أو مُمَد يهود فكثير بهم اسمه، وإن قالوا: قولوا عيسى ابن الله، فقولوها إن أكرهوكم وانووا إسقاط مضاف، أي عبد الله مريم معبود بحق. وإن قالوا: قولوا المسيح ابن الله، فقولوها إكراهًا، وانووا بالإضافة للملك كبيت الله لا يلزم أن يسكنه أو يحلّ به، وإن قالوا: قولوا مريم زوجة له، فانووا بالضمير ابن عمها الذي تزوجها في بني إسرائيل ثم فارقها قبل البناء قاله السهيلي في تفسير المبهم من الرجال في القرآن، أو زوجها الله منه بقضائه وقدره وإن قالوا عيسى توفي بالصلب، فانووا بالتوفية والكمال والتشريف من هذه، وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره، وإظهار الثناء عليه بين الناس، وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلوّ، وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون، وأنا أسأل الله أن يزيل الكره للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهرًا بحول الله من غير محنة ولا وجلة، بل بصدمة الترك الكرام، ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به، ولا بد من جوابكم والسلام عليكم جميعًا. بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة، عرف الله خيره""يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى". [فلما ضاق الحال أراد الناس الهجرة] ولما شعرت السلطات بميل الموريسكيين إلى الهجرة، وفشت فيهم هذه الرغبة، صدر قرار في سنة (١٥٤١م) يحرّم عليهم تغيير مساكنهم، كما حرّم عليهم النزوح إلى بلنسية، التي كانت دائمًا طريقهم المفضّل إلى ركوب البحر، ثم صدر قرار بمنع الهجرة من أي الثغور إلاّ بترخيص ملكي نظير رسم فادح.

وقد عنيت السياسة الإسبانية منذ البداية بتجريد الموريسكيين من السلاح وصدر في سنة (١٥٢٦م) قانون يحرم على الموريسكيين التخاطب باللغة

العربية وارتداء الثياب العربية[إلا بضريبة]، واستعمال الحمامات، وإقامة الحفلات على الطريقة الإسلامية. وأجيز للموريسكيين استعمال اللغة والثياب القومية نظير تلك الضريبة، واستمر هذا المنح سارياً حتى عهد فيليب الثاني، وكان يُجمَع من هذه الضريبة مبلغ طائل.

ويحظر التحجّب على النساء الموريسكيّات، وعليهن أن يكشفن وجوههنّ، وأن يرتدين عند خروجهنّ، المعاطف والقبّعات.

ويجب أن تفتح المنازل أثناء الاحتفال، وفي أيام الجمعة وأيام الأعياد، ليستطيع القسس ورجال السلطة أن يروا ما يقع في داخلها من المظاهر والرسوم المحرمة.

ويحرم الخضاب بالحناء ويجب أخيرًا على الموريسكيين الذين يستخدمون العبيد السود، أن يقدّموا رخصهم باستخدامهم، للنظر فيما إذا كان حريًّا بأن يسمح لهم باستبقائهم.

بلغ اليأس بالموريسكيين ذروته، فتهامسوا على المقاومة، والذود عن أنفسهم إزاء هذا العسف المضني، أو الموت قبل أن تنطفئ في قلوبهم وضمائرهم، آخر جذوة من الكرامة والعزّة، وقبل أن تقطع آخر صلاتهم بالماضي المجيد والتراث العزيز، وكانت نفوسهم ما تزال تضطرم ببقية من شغف النضال والدفاع عن النفس، وكانوا يرون في المناطق الجبلية القريبة ملاذًا، ويؤملون أن يصلوا بالمقاومة إلى إلغاء هذا القانون الهمجي أو تخفيفه. وهنا يبدأ الصراع الأخير للموريسكيين وإسبانيا النصرانية، [وحصل جهاد ودفاع بين حين وآخر في أماكن متفرقة ولكنهم في نهاية المطاف أنهكوا وطفقوا يراسلون المسلمين في المغرب وغيرها برسائل تفيض حزنًا ومن رسائلهم إلى المسلمين] : "لقد غمرتنا الهموم، وأعداؤنا يحيطون بنا إحاطة النار المهلكة. إن مصائبنا لأعظم من أن تحتمل، ولقد كتبنا لكم في ليالٍ تفيض بالعذاب والدّمع، وفي قلوبنا قبس من الأمل، إذا كانت ثمة بقية من الأمل

في أعماق الروح المعذّب"[١].

وفي جمادى الثانية سنة ١٠١٨هـ أعلن قرار (مرسوم) النفي النهائي للموريسكيين أو العرب المتنصرين، فساد بينهم الروع والاضطراب، وإليك نصوص هذا القرار الشهير فى صحف المآسي والاستشهاد:

يبدأ القرار بالتنويه بخيانة الموريسكيين، واتصالهم بأعداء اسبانيا، وإخفاق كل الجهود التى بذلت لتنصيرهم، وضمان ولائهم، وما استقر عليه رأى الملك من نفيهم جميعاً إلى بلاد البربر (المغرب). وبناء على ذلك فإنه يجب على جميع. الموريسكيين من الجنسين، أن يرحلوا مع أولادهم، فى ظرف ثلاثة أيام من نشر هذا القرار، من المدن والقرى إلى الثغور التى يعينها لهم مأمورو الحكومة، والموت عقوبة المخالفين؛ وأن لهم أن يأخذوا من متاعهم ما يستطاع حمله على ظهورهم، وأن السفن قد أعدت لنقلهم إلى بلاد المغرب، وسوف تتكفل الحكومة بإطعامهم أثناء السفر، ولكن عليهم أن يأخذوا ما استطاعوا من المؤن، وأنه يجب عليهم أن يبقوا خلال مهلة الأيام الثلاثة فى أماكنهم رهن إشارة المأمورين، ومن وجد متجولًا بعد ذلك يكون عرضة للنهب والمحاكمة، أو الإعدام فى حالة المقاومة. وقد منح الملك السادة كل الأملاك العقارية والأمتعة الشخصية التى لم تحمل، فإذا عمد أحد إلى إخفاء الأمتعة أو دفنها، أو أضرم النار فى المنازل أو المحاصيل، عوقب جميع سكان الناحية بالموت. ونص القرار على استبقاء ستة فى المائة فقط من الموريسكيين للانتفاع بهم فى صون المنازل، والعناية بمعامل السكر، ومحصول الأرز، وتنظيم الرى، وإرشاد السكان الجدد، وهؤلاء يختارهم السادة، من بين الأسر الأكثر خبرة وأشد ولاء للنصرانية. أما الأطفال فإذا كانوا دون الرابعة، فإنه يسمح لهم بالبقاء إذا شاءوا ورضي آباؤهم أو أولياؤهم، وإذا كانوا دون السادسة،

---

(١) نقلته ملخصًا من كتاب قادة فتح الأندلس من (٢/ ٣٢٢) إلى (٢/ ٣٥١).

سمح لهم بالبقاء إذا كانوا من أبناء النصارى القدماء، (أعني من غير العرب المتنصرين)، وسمح كذلك بالبقاء لأمهم الموريسكية؛ فإذا كان الأب موريسكيًا والأم نصرانية أصيلة، نفي الأب وبقي الأولاد الذين دون السادسة مع أمهم.

كذلك يسمح بالبقاء للموريسكيين الذين أقاموا بين النصارى مدى عامين، ولم يختلطوا "بالجماعة" إذا زكاهم القسس. وحظر القرار إخفاء الهاربين أو حمايتهم.

ويعاقب المخالف بالأشغال الشاقة لمدة ستة أعوام. وأخيرًا نص على السماح لعشرة من الموريسكيين بالعودة عقب كل نقلة، لكى يشرحوا لإخوانهم كيف تم النقل إلى المغرب على أحسن حال.

وقع قرار النفى على الموريسكيين وقع الصاعقة، وسادهم الوجوم والذهول.

وكان عصر المقاومة قد ولى، ونهكت قواهم، ونضبت مواردهم. وكانت الحكومة الإسبانية قد اتخذت عدتها للطوارىء، وحشدت قواتها فى جميع الأنحاء الموريسكية، واجتمع زعماء الموريسكيين وفقهاؤهم فى بلنسية، وقرروا أنه لا أمل فى المقاومة وأنه لا مناص من الخضوع، واستقر الرأى على أن يرحلوا جميعاً، وألا يبقى منهم أحد، حتى ولا نسبة الستة فى المائة التى سمح ببقائها، وأن من بقي منهم اعتبر مرتدًا مارقًا. ومع ذلك فقد وقعت تأهبت بعض الجماعات المحتشدة في المناطق الجبلية للجهاد وللمقاومة، وعاثت فى الأنحاء المجاورة، ولكنها كانت فورة المحتضر، فأخمدت حركاتهم بسرعة وقتل منهم عدد جم.

وتظلم كثير من المدجنين من قرار النفي، وقالوا إنهم اعتنقوا النصرانية طوعًا قبل التنصير الإجباري، وغدوا نصارى وإسبانيين قبل كل شيء، فصدر الأمر إلى الأساقفة ببحث ظلامتهم، وأن يسمح بالبقاء لمن توفرت فيه منهم شروط الولاء والإخلاص.

أما الكثرة الساحقة من الموريسكيين فقد هرعت إلى اتخاذ أهبة الرحيل،

وأخذوا فى بيع ما تيسر بيعه من المتاع، وتدفقت السلع على الأسواق، من الماشية والحبوب والسكر والعسل والملابس والأثاث وغيرها، لتباع بأبخس الأثمان.

وبدىء بتنفيذ قرار النفي فى الجهات التى نشر فيها أولا، وهى أعمال بلنسية منذ أوائل أكتوبر (سنة١٦٠٩م) وخرجت أول شحنة من هذه الكتلة البشرية المعذبة على سفن الحكومة من ثغر دانية وبعض الثغور القريبة، وقدرت بثمانية وعشرين ألف نفس، حملوا إلى ثغر وهران فى الضفة الأخرى من البحر، وقد كان يومئذ بيد الإسبان، ثم نقلوا إلى تلمسان بحماية فرقة من الجند المرتزقة، وهناك استظلوا بحماية السلطان؛ وعاد البعض منهم إلى اسبانيا ليروى عن رحيل الراحلين، وكيف وصلوا فى أمن وسلام. ومع ذلك فقد آثر معظم المهاجرين السفر بأجر، على سفن غير التى عينتها الحكومة، لنقل المهاجرين وإطعامهم دون أجر، واضطرت الحكومة تلقاء ذلك، أن تستدعى عددًا كبيرًا من السفن الحرة، إلى مياه بلنسية، ورحل بهذه الطريقة من ثغر بلنسية زهاء خمسة عشر ألفا، معظمهم من الموسرين والمتوسطين؛ ورحل المنفيون من ثغر لقنت ، وهم يشكرون الله على العود إلى أرض الآباء والأجداد، ولما سئل فقيه من زعمائهم عن سبب اغتباطهم، أجاب بأنهم كثيراً ما سعوا إلى شراء قارب أو سرقته، للفرار إلى المغرب، مستهدفين لكثير من المخاطر، فكيف إذا عرضت لنا فرصة السفر الأمين مجانًا، لا ننتهزها للعود إلى أرض الأجداد، حيث نستظل بحماية سلطاننا، سلطان الترك، وهنالك نعيش أحرارًا مسلمين لا عبيداً كما كنا؟.

يقدر عدد المنفيين الموريسكيين بستمائة ألف، ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن عدد من نفي من الموريسكيين لا يمكن أن يتجاوز هذا القدر، وقد كان مجموعهم فى أواخر القرن السادس عشر لا يتجاوز ستمائة ألف حسبما قدمنا. ويقدر من هلك من الموريسكيين أو استرق منهم أثناء مأساة النفي بنحو مائة ألف نفس وقد عاد معظم الموريسكيين، الذين نفوا إلى إفريقية والمشرق، إلى الإسلام دين الآباء

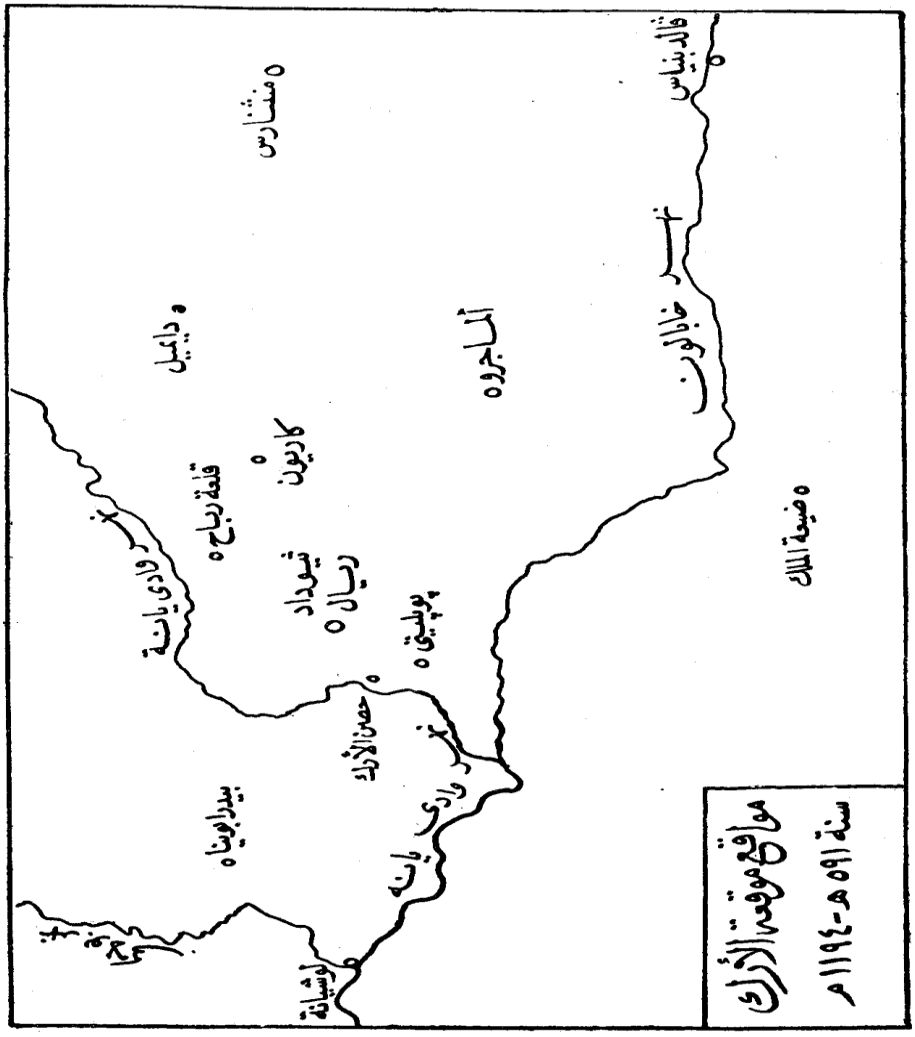
والأجداد، ولم تخمد مائة عام من التنصير المغصوب، والإرهاق المستمر جذوة الإسلام فى نفوسهم، وقد لبث على كر العصور متغلغلًا فى أعماق سرائرهم.

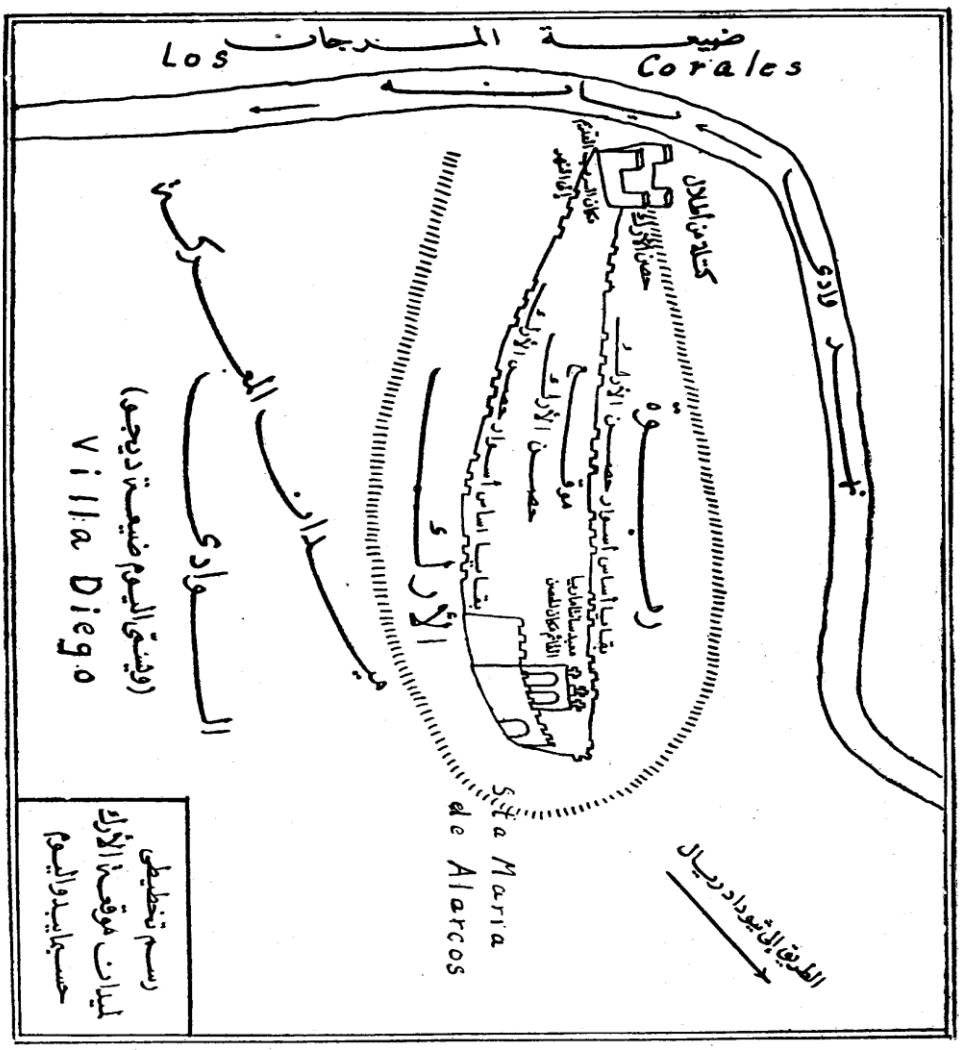
وبذلك ينتهى الفصل الأخير من مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين، وتطوى إلى الأبد صفحة شعب، من أنبل وأمجد شعوب التاريخ، وحضارة من أزهر الحضارات.

تلك هى المأساة التى استحالت فيها بقية الأمة الأندلسية بالتنصير المفروض، إلى طائفة جديدة، عرفت من ذلك التاريخ بالموريسكيين، أو المسلمين الأصاغر أو العرب المتنصرين ثم خرجوا كلهم سنة تسعة عشر وألف وقد صدر قرار النفي في جمادى الثانية سنة ١٠١٨ هـ، وتم إجلاء آخرهم سنة ١٠١٩ هـ [١].

(١) دولة الإسلام في الأندلس انظر من (٥/ ٣٠٥) (٥/ ٤٠٧).

٨- خريطة موقعة الأرك:




ضيعة المزجان
Los Corales
نهر وادي
كتلة من البلاد
رباط
الأرك
Santa Maria de Alarcos
الطريق إلى شلب ودار ريال
رسم تخطيطي
لميدان موقعة الأرك
حسبما يبدو اليوم



المعركة السادسة عشرة : معركة (المنصورة وفارسكور)

تمهيد بذكر سبب المعركة

عندما استولى الملك الصالح أيوب من الملك الكامل على السلطنة في مصر سنة ٦٣٧هـ، كانت له عداوة مع بقية بني أيوب بالشام خاصة عمه الملك الصالح إسماعيل الذي تحالف مع الصّليبيّين وتنازل لهم عن بعض البقاع منها طبرية وصيدا لمساعدته في حربه ضدّ الملك الصالح أيوب فلم يكن أمام الملك الصالح أيوب (صاحب مصر) إلا الاستعانة بالقبائل الخوارزمية من وراء الفرات سنة ٦٤٢هـ لمحاربة عسكر الشام المتحالف مع الفرنجة، وجرت معارك شديدة بين الفريقين انتصر فيها الملك الصالح أيوب على أعدائه جميعًا سنة ٦٤٢هـ، وأعاد بيت المقدس إلى السيادة الإسلامية كان استرجاع بيت المقدس من النصارى سببًا في قيام الحملة الصليبية السابعة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع سنة ٦٤٧هـ، ضدّ البلاد المصرية – التي كانت لها السيادة على الأماكن المقدسة – وقامت أساطيله الحربية باحتلال مدينة دمياط، ولما وصلت الأخبار بذلك إلى الملك الصالح أيوب أمر بإشهار النداء في مصر والقاهرة بالنفير عاماً، وخرج الملك الصالح بجيشه لصدّ زحف الصليبيين المتّجهين نحو القاهرة[1].

نزول الصليبيين دمياط للاحتلال، والرسائل بين الطرفين

قال المقريزي رحمه الله في [السلوك لمعرفة دول الملوك (١/ ٤٣٧- ٤٦٢)]: سنة سبع وَأَرْبَعين وسِتمِائَة فِيهَا قدم السُّلْطَان من دمشق وَهُوَ مَرِيض فِي محفة لما بلغه من حَرَكَة الفرنج. فَنزل بأشموم طناح فِي الْمحرم وَجمع فِي دمياط من الأقوات

(١) انظر حاشية كتاب تخجيل من حرّف التوراة والإنجيل (١/ ٢٠).

والأسلحة شَيْئا كثيرًا وَبعث إِلَى الْأَمِير حسام الدّين بن أبي علي نَائِبه بِالْقَاهِرَةِ أَن يُجهز الشواني من صناعَة مصر فشرع فِي تجهيزها وسيرها شَيْئًا بعد شَيْء. وَأمر السُّلْطَان الْأَمِير فَخر الدّين بن شيخ الشُّيُوخ أَن ينزل على جيزة دمياط بالعساكر ليصير فِي مُقَابلَة الفرنج إِذا قدمُوا فتحول الْأَمِير فَخر الدّين بالعساكر فَنزل بالجيزة تجاه دمياط وَصَارَ النّيل بَينه وَبَينهَا وَلم يقدر السُّلْطَان على الْحَرَكَة لمرضه وَنُودِيَ فِي مصر بالجهاد :وَفِي السَّاعَة الثَّانِيَة من يَوْم الْجُمُعَة لتسْع بَقينَ من صفر: وصلت مراكب الفرنج البحرية وفيهَا جموعهم الْعَظِيمَة صُحْبَة ريدافرنس- وَيُقَال لَهُ الفرنسيس واسْمه لويس ابْن لويس. والويس لقب بلغَة الفرنج مَعْنَاهُ ملك أفرنس - وَقد انْضَمَّ إِلَيْهِم فرنج السَّاحِل كُله فأرسوا فِي الْبَحْر بازاء الْمُسلمين. وسير ملك الفرنج إِلَى السُّلْطَان كتابًا نَصه بعد كلمة كفرهم: أما بعد: فَإِنَّهُ لم يخف عَنْك أَنِّي أَمِين الْأمة العيسوية كَمَا أَنِّي أَقُول أَنَّك أَمِين الْأمة المحمدية. وَإِنَّهُ غير خَافَ عَنْك أَن أهل جزائر الأندلس يحملون إِلَيْنَا الْأَمْوَال والهدايا وَنحن نسوقهم سوق الْبَقر ونقتل مِنْهُم الرجال ونرمل النِّسَاء ونستأسر الْبَنَات وَالصبيان ونخلي مِنْهُم الديار وَقد أبديت لَك مَا فِيهِ الْكِفَايَة ونحلت لَك النصح إِلَى النِّهَايَة فَلَو حَلَفت لي بِكُل الْأَيْمَان وَدخلت على القسوس والرهبان وحملت قدامي الشمع طَاعَة للصلبان مَا ردني ذَلِك عَن الْوُصُول إِلَيْك وقتلك فِي أعز الْبِقَاع عَلَيْك فَإِن كَانَت الْبِلَاد لي فيا هَدِيَّة حصلت فِي يَدي وَإِن كَانَت الْبِلَاد لَك وَالْغَلَبَة عَليّ فيدك الْعليا ممتدة إِلَيّ. وَقد عرفتك وحذرتك من عَسَاكِر قد حضرت فِي طَاعَتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الْحَصَى وهم مرسلون إِلَيْك بأسياف القضا. فَلَمَّا وصل الْكتاب إِلَى السُّلْطَان وَقُرِئَ عَلَيْهِ اغرورقت عَيناهُ بالدموع واسترجع. فَكتب الْجَواب بِخَط القَاضِي بهاء الدّين زُهَيْر بن مُحَمَّد كَاتب الْإِنْشَاء ونسخته بعد الْبَسْمَلَة وصلواته على سيدنَا مُحَمَّد رَسُول الله وَآله وَصَحبه أَجْمَعِينَ أما بعد: فَإِنَّهُ وصل كتابك وَأَنت تهدد فِيهِ بِكَثْرَة

جيوشك وَعدد أبطالك، فَنحْن أَرْبَاب السيوف، وَمَا قتل منا قرن إِلَّا جددناه وَلَا بغى علينا بَاغ إِلَّا دمرناه. فَلَو رَأَتْ عَيْنَاك - أَيهَا الْمَغْرُور - حد سُيُوفنَا وَعظم حروبنا وفتحنا مِنْكُم الْحُصُون والسواحل وأخرابنا مِنْكُم ديار الْأَوَاخِر والأوائل لَكَانَ لَك أَن تعض على أناملك بالندم ولابد أَن تزل بك الْقدَم فِي يَوْم أَوله لنا وَآخره عَلَيْك. فهنالك تسوء بك الظنون : ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [سورة الشعراء:٢٢٧].فَإِذا قَرَأت كتابي هَذَا فَكُن فِيهِ على أول سُورَة النَّحْل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[سورة النحل:١].وَكن على آخر سُورَة ص: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة ص:٨٨].ونعود إِلَى قَول الله تبَارك وَتَعَالَى وَهُوَ أصدق الْقَائِلين: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [سورة البقرة:٢٤٩].وَإِلَى قَول الْحُكَمَاء: إِن الْبَاغِي لَهُ مصرع وبغيك يصرعك وَإِلَى الْبلَاء يقلبك وَالسَّلَام.

بداية القتال، وطمع العدو في الانتصار

وَفِي يَوْم السبت: نزل الفرنج فِي الْبر الَّذِي عَسْكَر الْمُسلمين فِيهِ وَضربت للْملك الويس خيمة حَمْرَاء. فناوشهم الْمُسلمُونَ الْحَرْب وَاسْتشْهدَ يَوْمئِذٍ الْأَمِير نجم الدّين ابْن شيخ الْإِسْلَام وَكَانَ رجلًا صَالحًا ورتبه الْملك دَاوُد مَعَ الْملك الصَّالح نجم الدّين لما سجن بالكرك لمؤانسته وَمِمَّنْ اسْتشْهد أَيْضا الْأَمِير صارم الدّين أزبك الوزيري. فَلَمَّا أَمْسَى اللَّيْل رَحل الْأَمِير فَخر الدّين يُوسُف بن شيخ الشُّيُوخ بمن مَعَه من عَسَاكِر الْمُسلمين وَقطع بهم الجسر إِلَى الْجَانِب الشَّرْقِي الَّذِي فِيهِ مَدِينَة دمياط. وخلا الْبر الغربي للفرنج وَسَار فَخر الدّين بالعسكر يُرِيد أشموم طناح. فَلَمَّا رأى أهل دمياط رحيل الْعَسْكَر خرجُوا كأنما يُسْحَبُونَ على وُجُوههم طول اللَّيْل وَلم يبْق بِالْمَدِينَةِ أحد الْبَتَّةَ وَصَارَت دمياط فارغة من النَّاس جملَة. وفروا إِلَى أكوم مَعَ الْعَسْكَر وهم حُفَاة عُرَاة جِيَاع فُقَرَاء حيارى بِمن مَعَهم من الْأَطْفَال

والنِّسَاء وَسَارُوا إِلَى الْقَاهِرَة فنهبهم النَّاس فِي الطَّرِيق وَلم يبْق لَهُم مَا يعيشون بِهِ فعدت هَذِه الفعلة من الْأَمِير فَخر الدّين من أقبح مَا يشنع بِهِ. وَقد كَانَت دمياط فِي أَيَّام لملك الْكَامِل لما نازلها الفرنج أقل ذخائر وعدداً مِنْهَا فِي هَذِه النّوبَة وَمَعَ ذَلِك لم يقدر الفرنج على أَخذهَا إِلَّا بعد سنة عِنْدَمَا فني أَهلهَا بالوباء والجوع وَكَانَ فِيهَا هَذِه الْمرة أَيْضا جمَاعَة من شجعان بني كنَانَة فَلم يغن ذَلِك شَيْئا. وَأَصْبح الفرنج يَوْم الْأَحَد لسبع بَقينَ من صفر سائرين إِلَى مَدِينَة دمياط. فعندما رَأَوْا أَبْوَابهَا مفتحة وَلَا أحد يحميها خَشوا أَن تكون مكيدة فتمهلوا حَتَّى ظهر أَن نَاس قد فروا وتركوها. فَدَخَلُوا الْمَدِينَة بِغَيْر كلفة وَلَا مُؤنَة حِصَار واستولوا على مَا فِيهَا من الْآلَات الحربية والأسلحة الْعَظِيمَة وَالْعدَد الْكَثِيرَة والأقوات والأزواد والذخائر وَالْأَمْوَال والأمتعة وَغير ذَلِك صفواً عفوًا. وَبلغ ذَلِك أهل الْقَاهِرَة ومصر فأنزعج النَّاس انزعاجاً عَظِيما ويئسوا من بَقَاء كلمة الْإِسْلَام بديار مصر. لتملك الفرنج مَدِينَة دمياط وهزيمة العساكر وَقُوَّة الفرنج بِمَا صَار إِلَيْهِم من الْأَمْوَال والأزواد والأسلحة والحصن الْجَلِيل الَّذِي لَا يقدر على أَخذه بِقُوَّة مَعَ شدَّة مرض السُّلْطَان وَعدم حركته. وعندما وصلت العساكر إِلَى أشموم طناح وَمَعَهُمْ أهل دمياط اشْتَدَّ حنق السُّلْطَان على الكنانيين وَأمر بشنقهم فَقَالُوا: وَمَا ذنبنا إِذا كَانَت عساكره جَمِيعهم وأمراؤه هربوا وأحرقوا الزردخاناه فَأَي شَيْء نعمل نَحن فشنقوا لكَوْنهم خَرجُوا من الْمَدِينَة بِغَيْر إِذن حَتَّى تسلمها الفرنج فَكَانَت عدَّة من شنق زِيَادَة على خمسين أَمِيرا من الكنانيين. بعد أَن استفتى السُّلْطَان الْفُقَهَاء فأفتوا بِقَتْلِهِم. وَتغير السُّلْطَان على الْأَمِير فَخر الدّين بن شيخ الشُّيُوخ وَقَالَ: أما قدرتم تقفون سَاعَة بَين يَدي الفرنج. هَذَا وَمَا قتل مِنْكُم إِلَّا هَذَا الضَّيْف الشَّيْخ نجم الدّين. وَكَانَ الْوَقْت لَا يسع إِلَّا الصَّبْر والتغاضي وَقَامَت الشناعة من كل أحد على الْأَمِير فَخر الدّين فخاف كثير من الْأُمَرَاء وَغَيرهم سطوة السُّلْطَان وهموا بقتْله فَأَشَارَ عَلَيْهِم فَخر

الدّين بِالصبرِ حَتَّى يتَبَيَّن الأَمر.

وتغيرت الحال،وخرج الأبطال

وَلما وَقع مَا ذكر أمر السُّلْطَان بالرحيل إِلَى المنصورة وَحُمِل فِي حراقة حَتَّى أنزل بقصر المنصورة على بَحر النّيل فِي يَوْم الثُّلَاثَاء لخمس بَقينَ من صفر فشرع كل أحد من الْعَسْكَر فِي تَجْدِيد الْأَبْنِيَة للسُّكْنَى بالمنصورة ونصبت بالأسواق وأبراج السُّور الَّذِي على الْبَحْر وَستر بالستائر. وقدمت الشواني المصرية بِالْعدَدِ الْكَامِلَة والرجالة وَجَاءَت الْغُزَاة وَالرِّجَال من عوام النَّاس الَّذين يُرِيدُونَ الْجِهَاد من كل النواحي ووصلت عربان كَثِيرَة جدًا وَأخذُوا فِي الْغَارة على الفرنج ومناوشتهم. وحصن الفرنج أسوار دمياط وشحنوها بالمقاتلة. فَلَمَّا كَانَ يَوْم الِاثْنَيْنِ سلخ شهر ربيع الأولى: وصل إِلَى الْقَاهِرَة من أسرى الفرنج الَّذين تخطفهم الْعَرَب سِتَّة وَثَلَاثُونَ أَسِيرًا مِنْهُم فارسان وَفِي خَامِس شهر ربيع الآخر وصل سَبْعَة وَثَلَاثُونَ أَسِيرًا وَفِي سابعه وصل اثْنَان وَعِشْرُونَ أَسِيرًا وَفِي سادس عشره وصل خَمْسَة وَأَرْبَعُونَ أَسِيرًا مِنْهُم ثَلَاثَة من الخيالة. وَلما بلغ أهل دمشق أَخذ الفرنج لمدينة دمياط سَارُوا مِنْهَا وَأخذُوا صيداء من الفرنج بعد حِصَار وقتال فورد الْخَبَر بذلك لخمس بَقينَ من شهر ربيع الآخر فسر النَّاس بذلك. هَذَا والأسرى من الفرنج تصل فِي كل قَلِيل إِلَى الْقَاهِرَة وَوصل فِي ثامن عشر جُمَادَى الأولى خَمْسُونَ أَسِيرًا. وَمَعَ ذَلِك وَالْمَرَض يتزايد بالسلطان وَقواهُ خطّ حَتَّى وَقع بِأَمْر الْأَطِبَّاء من برئه وَسَار الْملك الأمجد حسن إِلَى الْملك الصَّالح نجم الدّين فوصل إِلَى الْعَسْكَر بالمنصورة يَوْم السبت لتسْع مضين من جُمَادَى الْآخِرَة وبشره بِأَنَّهُ هُوَ وَأَخُوهُ الظَّاهِر أخذا الكرك لَهُ فَأكْرمه السُّلْطَان وَأَعْطَاهُ مَالا كثيرًا وَفِي ثَالِث عشر شهر رَجَب: وصل إِلَى الْقَاهِرَة سَبْعَة وَأَرْبَعُونَ أَمِيرًا من الفرنج وَأحد عشر فَارِسًا مِنْهُم وظفر الْمُسلمُونَ بعد أَيَّام بمسطح للفرنج فِي الْبَحْر فِيهِ مقاتلة بِالْقربِ من نستراوة. فَلَمَّا كَانَ لَيْلَة الِاثْنَيْنِ نصف شعْبَان: مَاتَ السُّلْطَان الْملك الصَّالح بالمنصورة وَهُوَ فِي مُقَابلَة الفرنج عَن

أَربع وَأَرْبَعين سنة بَعْدَمَا عهد لوَلَده الْملك الْمُعظم تورانشاه وَحلف لَهُ فَخر الدّين بن الشَّيْخ ومحسن الطواشي وَمن يَثِق بِهِ وَبَعْدَمَا علّم قبل مَوته عشرَة آلَاف عَلامَة. يستعان بهَا فِي المكاتبات على كتمان مَوته حَتَّى يقدم ابْنه تورانشاه من حصن كيفا وَالْملك الصَّالح هُوَ الَّذِي أنشأ المماليك البحرية بديار مصر: وَذَلِكَ أَنه تفرق الأكراد وَغَيرهم من الْعَسْكَر عَنهُ حَتَّى لم يثبت مَعَه سوى مماليكه رعى لَهُم ذَلِك. فَلَمَّا استولى على مملكة مصر أَكثر من شِرَاء المماليك وجعلهم مُعظم عسكره وَقبض على الْأُمَرَاء الَّذين كَانُوا عِنْد أَبِيه وأخيه واعتقلهم وَأعْطى مماليكه الإمريات فصاروا بطانته والمحيطين بدهليزه وَسَمَّاهُمْ بالبحرية لسكناهم مَعَه فِي قلعة الرَّوْضَة على بَحر النّيل وَكَانَ ملكا شجاعاً حازماً مهيباً لشدَّة سطوته وفخامة مَعَ عزة النَّفس وعلو الهمة وَكَثْرَة الْحيَاء والعفة وطهارة عَن الْخَنَا وصيانة اللِّسَان من الْفُحْش فِي القَوْل والإعراض عَن الْهَزْل والعبث بِالْكُلِّيَّةِ وَشدَّة الْوَقار وَلُزُوم الصمت حَتَّى أَنه كَانَ إِذا خرج من عِنْد حرمه إِلَى مماليكه أخذتهم الرعدة عِنْدَمَا يشاهدونه خوفًا مِنْهُ وَلَا يبْقى أحد مِنْهُم مَعَ أحد. وَإِذا تكلم مَعَ أحد من خواصه كَانَ مَا يَقُوله كَلِمَات نزرة وَهُوَ فِي غَايَة الْوَقار وَتلك الْكَلِمَات لَا تكون إِلَّا فِي مُهِمّ عَظِيم من استشارة أَو تقدم بِأَمْر من الْأُمُور المهمة لَا يعدو حَدِيثه قطّ هَذَا النَّحْو وَلَا يَجْسُر أحد يتَكَلَّم بَين يَدَيْهِ إِلَّا جَوَابًا. وَمَا عرف أبدًا عَن أحد من خواصه أَن تكلم فِي مَجْلِسه ابْتِدَاء الْبَتَّةَ وَلَا أَنه جسر على شَفَاعَة وَلَا مشورة وَلَا ذكر نصيحة مَا لم يكن ذَلِك بابتداء من السُّلْطَان فَإِذا انْفَرد بِنَفسِهِ لَا يدنو مِنْهُ أحد. وَكَانَت الْقَصَص ترد إِلَيْهِ مَعَ الخدام فيوقع عَلَيْهَا وَيخرج بهَا الخدام إِلَى كَاتب الْإِنْشَاء وَلَا يسْتَقلّ أحد من أَرْبَاب الدولة بانفراد بِأَمْر بل يُرَاجع الْقَصَص مَعَ الخدام. وَمَعَ هَذِه الشهامة والمهابة لَا يرفع بَصَره إِلَى من يحادثه حَيَاء مِنْهُ وخفرًا وَلم يسمع مِنْهُ قطّ فِي حق أحد من خدمه لَفْظَة فحش وَأَكْثر مَا يَقُول إِذا شتم أحدًا: متخلف وَلَا يزِيد على هَذِه الْكَلِمَة وَلَا عرف

قطّ من النِّكَاح سوى زَوجته وجواريه. وَكَانَت الْبِلَاد فِي أَيَّامه آمِنَة مطمئنة والطرق سابلة إِلَّا أَنه كَانَ عَظِيم الْكبر زَائِد الترفع بلغ من كبره وترفعه أَن ابْنه الْملك المغيث عمر لما حَبسه الْملك الصَّالح إِسْمَاعِيل عِنْده لم يسْأَله فِيهِ وَلَا طلبه مِنْهُ حَتَّى مَاتَ فِي حَبسه. وَقيل إِنَّه لم يعْهَد إِلَى أحد بِالْملكِ بل قَالَ للأمير حسام الدّين بن أبي عَليّ: إِذا مت لَا تسلم الْبِلَاد إِلَّا للخليفة المستعصم بِاللَّه ليرى فِيهَا رَأْيه فَإِنَّهُ كَانَ يعرف مَا فِي وَلَده الْمُعظم تورانشاه من الهوج.

ماذا بعد موت السلطان نجم الدين أيوب

لَمَّا مَاتَ السُّلْطَان أحضرت زَوجته شجر الدّرّ الْأَمِير فَخر الدّين بن شيخ الشُّيُوخ والطواشي جمال الدّين محسن - وَكَانَ أقرب النَّاس إِلَى السُّلْطَان وَإِلَيْهِ الْقيام بِأَمْر مماليكه وحاشيته - وأعلمتهما بِمَوْت السُّلْطَان ووصتهما بكتمان مَوته خوفًا من الفرنج. وَكَانَ الْأَمِير فَخر الدّين عَاقِلًا مُدبرًا خليقًا بِالْملكِ جوادًا محبوبًا إِلَى النَّاس فاتفقا مَعَ شجر الدّرّ على الْقيام بتدبر المملكة إِلَى أَن يقدم الْملك الْمُعظم تورانشاه فأحضرت شجر الدّرّ الْأُمَرَاء الَّذين بالمعسكر وَقَالَت لَهُم: إِن السُّلْطَان قد رسم بِأَن تحلفُوا لَهُ ولابنه الْملك الْمُعظم غياث الدّين تورانشاه صَاحب حصن كيفا أَن يكون سُلْطَانا بعده وللأمير فَخر الدّين يُوسُف بن شيخ الشُّيُوخ بالتقدمة على العساكر وَالْقِيَام بالأتابكية وتدبير المملكة فَقَالُوا كلهم سمعًا وَطَاعَة ظنا أَن السُّلْطَان حَيّ وحلفوا بأسرهم وحلف سَائِر الأجناد والمماليك السُّلْطَانِيَّة. وَكتب على لِسَان السُّلْطَان إِلَى الْأَمِير حسام الدّين بن أبي عَليّ الهذباني بِالْقَاهِرَةِ أَن يحلف أكَابِر الدولة وأجنادها بِالْقَاهِرَةِ فَحَضَرَ إِلَى دَار الوزارة قَاضِي الْقَضَاء بدر الدّين يُوسُف بن الْحسن قَاضِي سنجار وَالْقَاضِي بهاء الدّين زُهَيْر بن مُحَمَّد كَاتب الْإِنْشَاء - وَكَانَ الْملك الصَّالح قد أبعده لأمر نقمه عَلَيْهِ - وحلّفا من حضر من الْأَعْيَان على مَا تقدم ذكره وَكَانَ ذَلِك فِي يَوْم الْخَمِيس ثامن عشر شعْبَان. واستدعى القَاضِي بهاء الدّين زُهَيْر من الْقَاهِرَة إِلَى المعسكر بالمنصورة. وَقَامَ الْأَمِير فَخر الدّين بتدبير المملكة

فَكَانَت الْكتب ترد من المعسكر وَعَلَيْهَا عَلامَة السُّلْطَان الْملك الصَّالح نجم الدّين أَيُّوب فَقيل إِنَّهَا كَانَت بِخَط خَادِم يُقَال لَهُ سُهَيْل وَلَا يشك من رَآهُ أَنه خطّ السُّلْطَان وَسَار من المعسكر الْفَارِس أقطاي وَهُوَ يَوْمئِذٍ رَأس المماليك البحرية لإحضار الْملك الْمُعظم من حصن كيفا وَبعث الْأَمِير حسام الدّين مُحَمَّد بن أبي عَليّ نَائِب السلطنة بِالْقَاهِرَةِ من عِنْده قَاصِدا من قبله أَيْضًا فَخرج الْمُعظم من حصن كيفا لَيْلَة السبت لإحدى عشرَة لَيْلَة مَضَت من شهر رَمَضَان فِي خمسين فَارِسًا من إِلْزَامه. وعدى الْفُرَات من عانة وسلك الْبَرِّيَّة فخاطر بِنَفسِهِ وَكَاد يهْلك من الْعَطش. هَذَا وَشَجر الدّرّ تدبر الْأُمُور حَتَّى لم يتَغَيَّر شَيْء وَصَارَ الدهليز السلطاني على حَاله والسماط فِي كل يَوْم يمد والأمراء تحضر الْخدمَة وَهِي تَقول: السُّلْطَان مَرِيض مَا يصل إِلَيْهِ أحد.

مناوشات أشبه بحرب الشوارع

وَأما الفرنج فَمَا هم إِلَّا أَن فَهموا أَن السُّلْطَان قد مَاتَ حَتَّى خَرجُوا من دمياط فارسهم وراجلهم ونزلوا على فارسكور وشوانيهم فِي بَحر النّيل تحاذيهم ورحلوا من فارسكور يَوْم الْخَمِيس لخمس بَقينَ من شعْبَان فوردِ فِي يَوْم الْجُمُعَة إِلَى الْقَاهِرَة من المعسكر كتاب فِيهِ حض النَّاس على الْجِهَاد أَوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [سورة التوبة:٤١]. وَكَانَ كتابًا بليغًا فِيهِ مواعظ جمة فقرئ على النَّاس فَوق مِنْبَر جَامع الْقَاهِرَة وَحصل عِنْد قِرَاءَته من الْبكاء والنحيب وارتفاع الْأَصْوَات بالضجيج مَا لَا يُوصف. وارتجت الْقَاهِرَة ومصر لِكَثْرَة انزعاج النَّاس وحركتهم للمسير فَخرج من الْبِلَاد والنواحي لجهاد الفرنج عَالم عَظِيم وَقد اشْتَدَّ كرب الْخَلَائق من تمكن الفرنج وقوتهم وَأَخذهم الْبِلَاد مَعَ موت السُّلْطَان. فَلَمَّا كَانَ يَوْم الثُّلَاثَاء أول يَوْم من شهر رَمَضَان: وَاقع الفرنج الْمُسلمين فاستشهد العلامي أَمِير

المجْلِس وَجَمَاعَة من الأجناد وَقتل من الفرنج عدَّة وَنزل الفرنج بشارمساح. وَفِي يَوْم الِاثْنَيْنِ سابعه: نزلُوا البرمون فَاشْتَدَّ الكرب وَعظم الْخطب لدنوهم وقربهم من المعسكر. وَفِي يَوْم الْأَحَد ثَالِث عشره وصلوا إِلَى طرف بر دمياط ونزلوا تجاه المنصورة وَصَارَ بَينهم وَبَين الْمُسلمين بَحر أشموم. وَكَانَ مُعظم عَسْكَر الْمُسلمين فِي المنصورة بِالْبرِّ الشَّرْقِي وَفِي الْبر الغربي أَوْلَاد الْملك النَّاصِر دَاوُد صَاحب الكرك: وهم الْملك الأمجد وَالْملك النَّاصِر وَالْملك الْمُعظم وَالْملك الأوحد فِي عدَّة من الْعَسْكَر وَكَانَ أَوْلَاد الْملك النَّاصِر دَاوُد الأكابر مِنْهُم والأصاغر الَّذين قدمُوا الْقَاهِرَة اثْنَي عشر ولدًا ذكرًا. وَكَانَ بِالْبرِّ الغربي أَيْضًا أَخُو الْملك النَّاصِر دَاوُد: وهما الْملك القاهر عبد الْملك وَالْملك المغيث عبد الْعَزِيز فاستقر الفرنج بمنزلتهم هَذِه وخندقوا عَلَيْهِم خَنْدَقًا وأداروا أسواراً وستروه بالستائر ونصبوا المجانيق ليرموا بهَا على معسكر الْمُسلمين وَنزلت شوانيهم بازائهم فِي بَحر النّيل ووقفت شواني الْمُسلمين بازاء المنصورة وَوَقع الْقِتَال بَين الْفَرِيقَيْنِ برًا وبحرًا. وَفِي يَوْم الْأَرْبَعَاء سادس عشره: قفز إِلَى الْمُسلمين سِتَّة خيالة وأخبروا بضائقة الفرنج وَفِي يَوْم عيد الْفطر: أسر كند كَبِير من الفرنج لَهُ قرَابَة من الْملك الويس. وَاسْتمرّ الْقِتَال وَمَا من يَوْم إِلَّا وَيقتل من الفرنج ويؤسر وَقد لقوا من عَامَّة الْمُسلمين نكاية عَظِيمَة وتخطفوا مِنْهُم وَقتلُوا كثيرًا وَكَانُوا إِذا شعروا بالفرنج ألقوا أنفسهم فِي المَاء وسبحوا إِلَى أَن يصيروا فِي بر الْمُسلمين. وَكَانُوا يتحيلون فِي خطفهم بِكُل حِيلَة حَتَّى أَن شخصًا أَخذ بطيخة أَدخل فِيهَا رَأسه وغطس فِي المَاء إِلَى أَن قرب من الفرنج فظنوه بطيخة فَمَا هُوَ إِلَّا أَن نزل أحدهم فِي المَاء ليتناولها إِذْ اختطفه الْمُسلم وعام بِهِ حَتَّى قدم بِهِ إِلَى الْمُسلمين. وَفِي يَوْم الْأَرْبَعَاء سَابِع شَوَّال: أَخذ الْمُسلمُونَ شينيًا فِيهِ نَحْو مِائَتي رجل من الفرنج وكند كَبِير. وَفِي يَوْم الْخَمِيس النّصْف مِنْهُ: ركب الفرنج والمسلمون فَدخل الْمُسلمُونَ إِلَيْهِم الْبر الَّذِي هم فِيهِ وقاتلوهم قتالاً شَدِيدًا قتل فِيهِ من الفرنج أَرْبَعُونَ فَارِسًا وَقتلت خيولهم. وَفِي يَوْم الْجُمُعَة تاليه: وصل الْقَاهِرَة

سَبْعَة وَستُّونَ أَسِير من الفرنج مِنْهُم ثَلَاثَة من أكَابِر الداوية. وَفِي يَوْم الْخَمِيس ثَانِي عشريه: أحرقت للفرنج مرمة عَظِيمَة فِي الْبَحْر وَاسْتظْهر عَلَيْهِم استظهاراً عَظِيمًا.

دور المنافقين، ثم معركة المنصورة بقيادة بيبرس في أزقة المدينة

وَمَا زَالَ الْأَمر على ذَلِك إِلَى أَن كَانَ يَوْم الثُّلَاثَاء خَامِس ذِي الْقعدَة دلّ بعض منافقي أهل الْإِسْلَام الفرنج على مَخَاض فِي بَحر أشمون فَلم يشْعر النَّاس إِلَّا والفرنج مَعَهم فِي المعسكر وَكَانَ الْأَمِير فَخر الدّين فِي الْحمام فَأَتَاهُ الصَّرِيخ بِأَن الفرنج قد هجموا على الْعَسْكَر فَخرج مدهوشًا وَركب فرسه فِي غير اعْتِدَاد وَلَا تحفظ وسَاق لينْظر الْخَبَر وَيَأْمُر النَّاس بالركوب وَلَيْسَ مَعَه سوى بعض مماليكه وأجناده فَلَقِيَهُ طلب الفرنج الحاوية وحملوا عَلَيْهِ ففر من كَانَ مَعَه وتركوه وَهُوَ يدافع عَن نَفسه فطعنه وَاحِد بِرُمْح فِي جنبه واعتورته السيوف من كل نَاحيَة. فَمَاتَ رَحمَه الله وَنزل الفرنج على جديلة وَكَانُوا ألفًا وَأَرْبَعمِائَة فَارس ومقدمهم أَخُو الْملك الويس. وَمَا هُوَ إِلَّا أَن قتل الْأَمِير فَخر الدّين وَإِذا بالفرنج اقتحموا على المنصورة فَتفرق النَّاس وانهزموا يَمِينًا وَشمَالًا وَكَادت الكسرة أَن تكون فَإِن الْملك الويس وصل بِنَفسِهِ إِلَى بَاب قصر السُّلْطَان إِلَّا أَن الله تدارك بِلُطْفِهِ وَأخرج إِلَى الفرنج الطَّائِفَة التركية الَّتِي تعرف بالبحرية والجمدارية وَفِيهِمْ ركن الدّين بيبرس البندقداري الَّذِي تسلطن بعد هَذِه الْأَيَّام فحملوا على الفرنج حَملَة زعزعوهم بهَا وأزاحوهم عَن بَاب الْقصر فَلَمَّا ولوا أخذتهم السيوف والدبابيس حَتَّى قتل مِنْهُم فِي هَذِه النّوبَة نَحْو ألف وَخَمْسمِائَة من أعيانهم وشجعانهم. وَكَانَت رجالة الفرنج قد أَتَوا الجسر ليعدوا مِنْهُ فلولا لطف الله لَكَانَ الْأَمر يتم لَهُم بتعديتهم الجسر. وَكَانَت المعركة بَين أَزِقَّة المنصورة فَانْهَزَمُوا إِلَى جديلة مَنْزِلَتهمْ وَقد حَال بَين الْفَرِيقَيْنِ اللَّيْل وأداروا عَلَيْهِم سوراً وخندقوا خَنْدَقًا. وَصَارَت مِنْهُم طَائِفَة فِي الْبر الشَّرْقِي ومعظمهم فِي الجزيرة الْمُتَّصِلَة بدمياط فَكَانَت هَذِه الْوَاقِعَة أول ابْتِدَاء النَّصْر

على الفرنج. وعندما هجم الفرنج على المعسكر سرح الطَّائِر بذلك إِلَى الْقَاهِرَة فانزعج النَّاس انزعاجاً عَظِيمًا وَقدم المنهزمون من السوقة والعسكر فَلم تغلق أَبْوَاب الْقَاهِرَة فِي لَيْلَة الْأَرْبَعَاء لتوارد المنهزمين. وَفِي صَبِيحَة يَوْم الْأَرْبَعَاء: وَقعت البطاقة تبشر بالنصرة على الفرنج فزينت الْقَاهِرَة وَضربت البشائر بقلعة الْجَبَل وَكثر فَرح النَّاس وسرورهم وَبَقِي الْعَسْكَر يدبر أمره شجر الدّرّ فَكَانَت مُدَّة تَدْبِير الْأَمِير فَخر الدّين يُوسُف بن شيخ الشُّيُوخ بعد موت الْملك الصَّالح لمملكة مصر خَمْسَة وَسبعين يَوْمًا، وَسَار السُّلْطَان من دمشق يَوْم الْأَرْبَعَاء سَابِع عشريه يُرِيد مصر، وعندما تَوَاتَرَتْ الْأَخْبَار فِي الْقَاهِرَة بقدوم السُّلْطَان خرج قَاضِي الْقُضَاة بدر الدّين السنجاري فَلَقِيَهُ بغزة وَقدم مَعَه وَخرج الْأَمِير حسام الدّين بن أبي عَليّ نَائِب السُّلْطَان إِلَى الصالحية فَلَقِيَهُ بهَا يَوْم السبت لأَرْبَع عشرَة لَيْلَة بقيت من ذِي الْقعدَة وَنزل السُّلْطَان الْمُعظم تورانشاه فِي قصر أَبِيه وَمِنْه يَوْمئِذٍ أعلن بِمَوْت الْملك الصَّالح نجم الدّين أَيُّوب وَلم يكن أحد قبل هَذَا الْيَوْم ينْطق بِمَوْتِهِ بل كَانَت الْأُمُور على حَالهَا - والدهليز الصَّالِحِي والسماط ومجيء الْأُمَرَاء للْخدمَة على مَا كَانَ عَلَيْهِ الْحَال فِي أَيَّام حَيَاته وَشَجر الدّرّ تدبر أُمُور الدولة كلهَا وَتقول: (" السُّلْطَان مَرِيض، مَا إِلَيْهِ وُصُول _ فَلم يتَغَيَّر عَلَيْهَا شيء إِلَى أَن إستقر الْملك الْمُعظم بالصالحية.) وَكَانَت الْمِيرَة ترد إِلَى الفرنج فِي مَنْزِلَتهمْ من دمياط فِي بَحر النّيل فَصنعَ الْمُسلمُونَ عدَّة مراكب وَحملُوهَا وَهِي مفصلة على الْجمال إِلَى بَحر الْمحلة وطرحوها فِيهِ وشحنوها بالمقاتلة وَكَانَت أَيَّام زِيَادَة النّيل فَلَمَّا جَاءَت مراكب الفرنج لبحر الْمحلة وَهَذِه المراكب مكمنة فِيهِ خرجت عَلَيْهَا بَغْتَة وقاتلتها وللحال قدم أسطول الْمُسلمين من جِهَة المنصورة فَأخذت مراكب الفرنج أخذًا وبيلًا وَكَانَت اثْنَين وَخمسين مركبًا وَقتل مِنْهَا وَأسر نَحْو ألف إفرنجي وغنم سَائِر مَا فِيهَا من الأزواد والأقوات وحملت الأسرى على الْجمال إِلَى الْعَسْكَر. فَانْقَطع المدد من دمياط عَن الفرنج وَوَقع الغلاء عِنْدهم وصاروا مَحْصُورين لَا يُطِيقُونَ الْمقَام وَلَا يقدرُونَ على الذّهاب

واستضرى الْمُسلمُونَ عَلَيْهِم وطمعوا فيهم. وَفِي أول ذِي الْحجَّة: أَخذ الفرنج من المراكب الَّتِي فِي بَحر الْمحلة سبع حراريق وَنَجَا من كَانَ فِيهَا من الْمُسلمين وصلت مراكب فِيهَا الْميرَة للفرنج فالتقت بهَا شواني الْمُسلمين عِنْد مَسْجِد النَّصْر فَأخذت شواني الْمُسلمين مِنْهَا اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ مركبًا مِنْهَا تسع شواني. فَاشْتَدَّ الغلاء عِنْد الفرنج وشرعوا فِي مراسلة السُّلْطَان يطْلبُونَ مِنْهُ الْهُدْنَة فَاجْتمع برسلهم الْأَمِير زين الدّين أَمِير جاندار وقاضي الْقُضَاة بدر الدّين السنجاري فسألوا أَن يسلمُوا دمياط ويأخذوا عوضا عَنْهَا مَدِينَة الْقُدس وَبَعض السَّاحِل فَلم يجابوا إِلَى ذَلِك. وَفِي يَوْم الْجُمُعَة لثلاث بَقينَ من ذِي الْحجَّة: أحرق الفرنج مَا عِنْدهم من الْخشب وأتلفوا مراكبهم ليفروا إِلَى دمياط وَخرجت السَّنَة وهم فِي مَنْزِلَتهمْ. .

عام جديد والحرب قائمة وفيها معركة فارسكور الفاصلة

فِي لَيْلَة الْأَرْبَعَاء ثَالِث الْمحرم (سنة ثَمَان وَأَرْبَعين وسِتمِائَة): رَحل الفرنج بأسرهم من مَنْزِلَتهمْ يُرِيدُونَ مَدِينَة دمياط وانحدرت مراكبهم فِي الْبَحْر قبالتهم. فَركب الْمُسلمُونَ أقفيتهم بعد أَن عدوا برهم واتبعوهم. فطلع صباح نَهَار يَوْم الْأَرْبَعَاء وَقد أحَاط بهم الْمُسلمُونَ وبلّوا فيهم سيوفهم واستولوا عَلَيْهِم قتلًا وأسرًا وَكَانَ مُعظم الْحَرْب فِي فارسكور فبلغت عدَّة الْقَتْلَى عشرَة آلَاف فِي قَول الْمقل وَثَلَاثِينَ ألفا فِي قَول المكثر. وَأسر من خيالة الفرنج ورجالتهم الْمُقَاتلَة وصناعهم وسوقتهم مَا يناهز مائَة ألف إِنْسَان وغنم الْمُسلمُونَ من الْخَيل وَالْبِغَال وَالْأَمْوَال مَا لَا يُحْصى كَثْرَة وَاسْتشْهدَ من الْمُسلمين نَحْو مائَة رجل وأبلت الطَّائِفَة البحرية - لاسيما ببرس البندقداري - فِي هَذِه النّوبَة بلَاء حسنًا وَبَان لَهُم أثر جميل. والتجأ الْملك الويس - وعدة من أكَابِر قومه - إِلَى تل الْمنية وطلبوا الْأمان فَأَمنَهُمْ الطواشي جمال الدّين محسن الصَّالِحِي ونزلوا على أَمَانه. وَأخذُوا إِلَى المنصورة فقيد الْملك الويس بِقَيْد من حَدِيد واعتقل فِي دَار القَاضِي فَخر الدّين إِبْرَاهِيم بن لُقْمَان كَاتب

الْإِنْشَاء الَّتِي كَانَ ينزل بهَا من المنصورة ووكل بحفظه الطواشي صبيح المعظمي واعتقل مَعَه أَخُوهُ وأجرى عَلَيْهِ راتب فِي كل يَوْم. وَتقدم أَمر الْملك الْمُعظم لسيف الدّين يُوسُف بن الطودي - أحد من وصل مَعَه من بِلَاد الشرق - بقتل الأسرى من الفرنج وَكَانَ سيف الدّين يخرج كل لَيْلَة مِنْهُم مَا بَين الثلاثمائة والأربعمائة وَيضْرب أَعْنَاقهم ويرميهم فِي الْبَحْر حَتَّى فنوا بأجمعهم.وَكتب إِلَى الْأَمِير جمال الدّين بن يغمور نَائِب دمشق كتابا بِخَطِّهِ نَصه: من وَلَده تورانشاه الْحَمد لله الَّذِي أذهب عَنَّا الْحزن : ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران:١٢٦]. ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾ [سورة الروم:٤]. ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [سورة الضحى:١١]. ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [سورة إبراهيم:٣٤]. نبشر الْمجْلس السَّامِي الجمالي بل نبشر الْمُسلمين كَافَّة بِمَا من الله بِهِ على الْمُسلمين من الظفر بعدو الدّين فَإِنَّهُ استفحل أمره واستحكم شَره ويئس الْعباد من الْبِلَاد والأهل وَالْأَوْلَاد فنودوا لَا تيأسوا من روح الله. وَلما كَانَ يَوْم الِاثْنَيْنِ مستهل السّنة الْمُبَارَكَة تمم الله على الْإِسْلَام بركتها فتحنا الخزائن وبذلنا الْأَمْوَال وفرقنا السِّلَاح وجمعنا العربان والمطّوعة وخلقاً لَا يعلمهُمْ إِلَّا الله فَجَاءُوا من كل فج عميق وَمَكَان سحيق. فَلَمَّا كَانَ لَيْلَة الْأَرْبَعَاء تركُوا خيامهم وَأَمْوَالهمْ وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين. وَمَا زَالَ السَّيْف يعْمل فِي أدبارهم عَامَّة اللَّيْل فيحل بهم الخزي وَالْوَيْل. فَلَمَّا أَصْبَحْنَا يَوْم الْأَرْبَعَاء قتلنَا مِنْهُم ثَلَاثِينَ ألفا غير من ألْقى نَفسه فِي اللجج وَأما الأسرى فَحدث عَن الْبَحْر وَلَا حرج. والتجأ الفرنسيس إِلَى الْمنية وَطلب الْأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته وجلاله وعظمته وَذكر كلَامًا طَوِيلًا. وَبعث الْمُعظم مَعَ الْكتاب غفارة الْملك الفرنسيس فلبسها الْأَمِير جمال الدّين بن يغمور وَهِي أشكرلاط أَحْمَر بِفَرْوٍ سنجاب فِيهَا بكلة ذهب فَقَالَ الشَّيْخ نجم الدّين بن إِسْرَائِيل: إِن غفارة الفرنسيس الَّتِي جَاءَت جباء لسَيِّد الْأُمَرَاء

كبياض القرطاس لوناً وَلَكِن صبغتها سُيُوفنَا بالدماء. وندب الْأَمِير حسام الدّين - مُحَمَّد بن أبي عَليّ للْكَلَام مَعَ الْملك الويس فِي تَسْلِيم فِي دمياط فَجرى بَينه وَبَين الْملك مفاوضات ومحاورات ومراجعات آلت إِلَى أَن وَقع الِاتِّفَاق على تَسْلِيمهَا من الفرنج وَأَن يخلى عَنهُ ليذْهب إِلَى بِلَاده بَعْدَمَا يُؤَدِّي نصف مَا عَلَيْهِ من المَال الْمُقَرّر. فَبعث الْملك ريدافرذس إِلَى من بهَا من الفرنج يَأْمُرهُم بتسليمها فَأَبَوا وعاودهم مرَارًا إِلَى أَن دخل الْعلم الإسلامي إِلَيْهَا فِي يَوْم الْجُمُعَة لثلاث مضين من صفر وَرفع على السُّور وأعلن بِكَلِمَة الْإِسْلَام وَشَهَادَة الْحق. فَكَانَت مُدَّة اسْتِيلَاء الفرنج عَلَيْهَا أحد عشر شهرًا وَتِسْعَة أَيَّام. وَأَفْرج عَن الْملك الويس بَعْدَمَا فدى نَفسه بأربعمائة ألف دِينَار وَأَفْرج عَن أَخِيه وَزَوجته وَمن بَقِي من أَصْحَابه وَسَائِر الأسرى الَّذين بِمصْر والقاهرة مِمَّن أسر فِي هَذِه الْوَاقِعَة وَمن أَيَّام الْعَادِل والكامل والصالح وَكَانَت عدتهمْ اثْنَي عشر ألف أَسِير وَمِائَة أَسِير وَعشر أُسَارَى وَسَارُوا إِلَى الْبر الغربي ثمَّ ركبُوا الْبَحْر فِي يَوْم السبت تاليه وأقلعوا إِلَى جِهَة عكا. فَقَالَ الصاحب جمال الدّين بن مطروح فِي ذَلِك:

قل للفرنسيس إِذا جِئْته ❁❁❁ مقَال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على مَا جرى ❁❁❁ من قتل عباد يسوع الْمَسِيح
أتيت مصرًا تبتغي ملكهَا ❁❁❁ تحسب أَن الزمر يَا طبل ريح
فساقك الْحيْن إِلَى أدهم ❁❁❁ ضَاقَ بِهِ عَن ناظريك الفسيح
وكل أَصْحَابك أودعتهم ❁❁❁ بِحسن تدبيرك بطن الضَّرِيح
سَبْعُونَ ألفا لَا يرى مِنْهُم ❁❁❁ إِلَّا قَتِيل أَو أَسِير جريح
إِن يكن الْبَاب بذا رَاضِيا ❁❁❁ فَرب غش قد أَتَى من نصيح
فاتخذوه كَاهِنًا إِنَّه ❁❁❁ أنصح من شقّ لكم أَو سطيح
وَقل لَهُم إِن أزمعوا عودة ❁❁❁ لأخذ ثأر أَو لفعل قَبِيح

دَار ابْن لُقْمَان على حَالهَا ❁❁❁ والقيد بَاقٍ والطواشي صبيح

وَلما استولى الْمُسلمُونَ على دمياط سَارَتْ البشائر إِلَى الْقَاهِرَة ومصر وَسَائِر الْأَعْمَال فَضربت البشائر وأعلن النَّاس بالسرور والفرح وعادت العساكر إِلَى الْقَاهِرَة فِي يَوْم الْخَمِيس تَاسِع صفر.

(ملخص معركتي المنصورة وفارسكور الفاصلة)

١- اسم المعركة : ١- المنصورة ٢- وفارسكور.

٢- مكان المعركة : في مدينة المنصورة، وقرية فارسكور في بلاد مصر.

٣- تاريخ المعركة: كان نزول الفرنج في دمياط يَوْم الْجُمُعَة لتسْع بَقينَ من صفر سنة ٦٤٧هـ ، ثم انتقل السلطان إلى المنصورة وبدأت الغارات على الفرنج فَلَمَّا كَانَ يَوْم الثُّلَاثَاء أول يَوْم من شهر رَمَضَان بدأ القتال في المنصورة ثم كانت معركة المنصورة يَوْم الثُّلَاثَاء خَامِس ذِي الْقعدَة٦٤٧هـ وَكَانَت المعركة بَين أَزِقَّة المنصورة. وفي نَهَار يَوْم الْأَرْبَعَاء من محرم سنة ٦٤٨هـ كانت معركة فارسكور.

٤- الفريقان المتقاتلان :

١- المسلمون: بقيادة الملك الصالح نجم الدين أيوب الأيوبي، ثم خلفه بعد موته ولده الْملك الْمُعظم تورانشاه.

٢- الصليبيون: بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع،وهذه الحملة الصليبية السابعة.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما :

أولًا المسلمون:

❁ مات السلطان نجم الدين قبل معركة المنصورة فباشر الناس القتال بقيادة ركن الدين بيبرس بعد أن قتل الْأَمِير فَخر الدّين يُوسُف في أول الهجوم.

❁ كانت هذه الحرب في خلافة المستعصم بالله العباسي رحم الله الجميع.

❁ اشترك في تعبئة الروح المعنوية الإمام العز بن عبد السلام وهو يومئذ ضرير.

❁ اشترك في هذه الحرب جيش نجم الدين وكان يقدر بعشرة آلاف والعربان

والمشايخ والفلاحون.

ثانيًا الصليبيون: قدم (لويس التاسع) يقود جيشًا قوامه ١١٠ آلاف مقاتل، مزودين بأحدث أنواع الأسلحة، في أحدث حملة صليبية،واشترك معهم بعض الفرنجة الذين كانوا في الشام.

٦- سبب المعركة : كان استرجاع بيت المقدس سنة(٦٤٢هـ) من النصارى على يد نجم الدين أيوب والقبائل الخوارزمية سببًا في قيام الحملة الصليبية السابعة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع سنة ٦٤٧هـ، ضدّ البلاد المصرية التي كانت لها السيادة على الأماكن المقدسة وقامت أساطيله الحربية باحتلال مدينة دمياط، ولما وصلت الأخبار بذلك إلى الملك الصالح أيوب أمر بإشهار النداء في مصر والقاهرة بالنفير عامًا فنصر الله تعالى المسلمين في المنصورة وفارسكور.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- استمرت الحرب سنة من محرم إلى محرم، وانتهت بنصر مبين للمسلمين.

٢- قتل في معركة المنصورة من الصليبيين ألف وَخَمْسمِائة من أعيانهم وشجعانهم، وَكَانَت الْمِيرَة ترد إِلَى الفرنج فِي مَنْزِلَتهمْ من دمياط فِي بَحر النّيل فَصنعَ الْمُسلمُونَ عدَّة مراكب وَحملُوهَا وَهِي مفصلة على الْجمال إِلَى بَحر الْمحلة وطرحوها فِيهِ وشحنوها بالمقاتلة فَلَمَّا جَاءَت مراكب الفرنج المراكب مكمنة فِيهِ خرجت عَلَيْهَا بَغْتَة وقاتلتها وللحال قدم أسطول الْمُسلمين من جِهَة المنصورة فَأخذت مراكب الفرنج أخذًا وبيلًا وَكَانَت اثْنَين وَخمسين مركبًا وَقتل مِنْهَا وَأسر نَحْو ألف إفرنجي وغنم سَائِر مَا فِيهَا من الأزواد والأقوات وحملت الأسرى على الْجمال إِلَى الْعَسْكَر. هذا ما حصل طيلة العام من الفتك بهذه الحملة الصليبية في أيام متفرقة وحوادث متعددة نقلناها في شرح المعركة.

٣- وفي معركة فارسكور بلغت عدَّة الْقَتْلَى عشرَة آلَاف فِي قَول الْمقل وَثَلَاثِينَ

ألفًا فِي قَول المكثر. وَأسر من الفرنج مَا يناهز مائَة ألف إِنْسَان وغنم الْمُسلمُونَ من الْخَيل وَالْبِغَال وَالْأَمْوَال مَا لَا يُحْصى كَثْرَة وَاسْتشْهدَ من الْمُسلمين نَحْو مائَة رجل ، ثم أمر السلطان بقتل جميع الأسرى وإلقائهم في البحر.

٤- أسر ملك فرنسا لويس التاسع ، وأخوه ، حتى سلّم دمياط ثم أَفْرج عَنه بَعْدَمَا فدى نَفسه بأربعمائة ألف دِينَار وَأَفْرج عَن أَخِيه وَزَوجته وَمن بَقِي من أَصْحَابه وَسَائِر الأسرى الَّذين بِمصْر والقاهرة مِمَّن أسر فِي هَذِه الْوَاقِعَة وَمن أَيَّام الْعَادِل والكامل والصالح وَكَانَت عدتهمْ اثْنَي عشر ألف أَسِير وَمِائَة أَسِير وَعشر أُسَارَى(١٢١١٠) غير من قتل بعد فارسكور وَسَارُوا إِلَى الْبر الغربي ثمَّ ركبُوا الْبَحْر وأقلعوا إِلَى جِهَة عكا.

٥- **وخلاصة الخلاصة:** أنه باءت الحملة الصليبية السابعة بالفشل، وهلك عامة من شارك فيها، وانتشر الحزن في أرجاء أوربا على إبادة هذا الجيش الكبير، وخسروا من الأموال الشيء الكثير الكثير في الإنفاق على الجنود ، وتجهيز السفن التي أصبح كثير منها غنيمة للمسلمين، وهكذا ما أدوه من المال مقابل الفداء ثم خرج لويس من مصر في أذل حال لم يحرز أرضًا ، ولم يحقق مطلوبًا، ومن هنا أخبر لويس من وراءه من البابوات الأرجاس أنه لاسبيل إلى هزيمة المسلمين مادام سلاحهم العقيدة ،وإذا كان هذا قد عرف أن سر انتصار المسلمين كان بدفاع الله تعالى عنهم ثم بحفاظهم على دينهم وغيرتهم عليه علينا أن نعرف انتصارنا يكون بتمسكنا بديننا على ما أراده الله تعالى لا على أهواء البشر وأن نترك الحماس الفارغ الذي يجعل الشخص يشتم علماء الحق وولاة الأمر ويخرج عن طاعتهم ،وفي الجانب الآخر ننظر إلى نجم الدين كيف أنشأ جيش المماليك قال المقريزي: [المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٣/٣٧٢- ٣٧٣)] أوّلها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان ونزله في طبقات جنسه وسلمه [لمختص] برسم الكتابة، فأوّل ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، وكانت كلّ

طائفة لها فقيه يحضر إليها كلّ يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرّن بآداب الشريعة، وملازمة الصلوات والأذكار، وكان الرسم إذ ذاك أن لا تجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شبّ الواحد من المماليك علّمه الفقيه شيئًا من الفقه، وأقرأه فيه مقدّمة، فإذا صار إلى سنّ البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك، فيتسلم كلّ طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه، وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدّثهم أو يدنو منهم، فينقل إذن إلى الخدمة ويتنقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتدّ ساعده في رماية النشاب، وحسن لعبه بالرمح، ومرن على ركوب الخيل، ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف، أو أديب شاعر، أو حاسب ماهر، هذا ولهم أزمّة من الخدّام، وأكابر من رءوس النوب يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافي، ويؤاخذونه أشدّ المؤاخذة، ويناقشونه على حركاته وسكناته، فإن عثر أحد من مؤدّبيه الذي يعلّمه القرآن، أو الطواشيّ الذي هو مسلّم إليه، أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنبًا، أو أخلّ برسم، أو ترك أدبًا من آداب الدين أو الدنيا، قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه، وبلغ من تأديبهم أن مقدّم المماليك كان إذا أتاه بعض مقدّمي الطباق في السحر، يشاور على مملوك أنه يغتسل من جنابة، فيبعث من يكشف عن سبب جنابته، إن كان من احتلام فينظر في سراويله، هل فيه جنابة أم لا، فإن لم يجد به جنابة جاءه الموت من كلّ مكان، فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك، وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل، ويردعون من جار أو تعدّى اهـ. هذا ونسأل الله سبحانه أن يرحم المجاهدين الذابين عن حياض الإسلام أينما كانوا.

الحروب الصليبية

هى سلسلة من الحروب شنَّها الصليبيون الأوربيون خلال القرنين (٦ و ٧ هـ) ؛ لاستعادة الأراضى المقدسة، وتُسمَّى - أيضًا - الحملات الصليبية، ويبلغ عددها تسع حملات، هي:

الحملة الصليبية الأولى (٤٨٩ هـ - ٤٩٣ هـ): بدأت هذه الحملةبكتائب شعبية من المشاة والنساء والأطفال، قادها بطرس الناسك، إلا أنها أُبيدت على أبواب مدينة نيقية على يد السلطان قلج أرسلان. أما الحملة العسكرية الأولى فكانت تتكون من نحو (٧٠٠) ألف مقاتل، وانطلقت بأربعة جيوش، واتفق القواد على أن يلتقوا فى القسطنطينية، واستولت هذه الجيوش على نيقية عاصمة السلجوقيين، ثم استولت على الرها وأنطاكية وبيت المقدس وعكا وطرابلس.

وهذه الحملة واجهتهم إمارة آل زنكي التي كانت من أحسن الإمارات صبرًا على الجهاد في سبيل الله تعالى ثم قدمت الحملة الثانية وكان إخراجها من القدس بعد حطين على يدي صلاح الدين رحمه الله سنة(٥٨٣هـ)

الحملة الصليبية الثانية: (٥٤١هـ - ٥٤٤هـ): دعا إليها سنت برناردلكيرفر بعد أن استولى عماد الدين زنكى على الرها، وكان عماد الدين زنكى يتزعم الدفاع عن الإسلام، ولكنه تُوفِّي قبل أن يطرد الصليبيين، وخلفه ابنه نور الدين زنكى، فقدمت الحملة الصليبية الثانية؛ لتتصدى له، ولكن هذه الحملة باءت بالفشل؛ لاحتدام الخلاف بين قادتها، ولاندحارها أمام السلجوقيين عند قونية.

الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٥ هـ - ٥٨٨هـ): قادها ثلاثة من أشهر ملوك أوربا، وهم: فريدرك بربوس إمبراطور ألمانيا، وفيليب أوغست ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا. وكان مصير هذه الحملة الفشل؛ بسبب غرق إمبراطور ألمانيا فى نهر السالف، وهو فى طريقه إلى الشرق؛ فتشتت جيشه، ثم نشب الخلاف بين ملك فرنسا وملك إنجلترا، وكان من نتائجه أن رحل ملك فرنسا راجعًا إلى

بلاده، وظل ريتشارد يقاتل صلاح الدين الأيوبي راغبًا فى إعادة بيت المقدس إلى الحكم الصليبي، ولكنه عجز عن ذلك، وتم توقيع صلح الرمل سنة (٥٨٨هـ) بين صلاح الدين وريتشارد.

الحملة الصليبية الرابعة (٥٩٨ – ٦٠٧هـ): وكانت موجهة أصلًا ضد مصر، وكان داعيتها فولوك دي توبي، وقد استجاب لدعوته كثير من الإقطاعيين والأشراف بفرنسا، ولكن كراهية الأوربيين للبيزنطيين جعلتهم يعتقدون أنه لن يكون بإمكانهم مقارعة المسلمين، إلا إذا أقاموا دولة لاتينية على أنقاض الدولة البيزنطية، فاتجهت الحملة نحو القسطنطينية، واحتلتها سنة (٦٠٧هـ) [ولم تحقق الحملة غايتها حيث عاد معظم أفرادها إلى أوطانهم بالغنائم التي أخذوها ولم يصل منهم إلى فلسطين إلا شرذمة قليلة لم تفعل شيئًا.] (١).

الحملة الصليبية الخامسة (٦١٥هـ – ٦١٨هـ): دعا إليها البابا هونوريوس الثالث، وكان هدفها الاستيلاء على مصر، واستولى الصليبيون خلالها على دمياط، ولكنهم لم يلبثوا أن أخلوها، وانتهت الحملة بالفشل.

الحملة الصليبية السادسة (٦٢٤هـ-٦٢٦هـ): قادها فريدرك الثاني إمبراطور ألمانيا، وكان زائرًا مسالمًا؛ فتفاهم مع المسلمين، وعقد معاهدة سنة (٦٢٦هـ) مع الملك الكامل سلطان مصر، وكان من شروطها: التخلِّي عن الناصرة وبيت لحم والقدس للصليبيين، واستمرت هذه المعاهدة إلى أن تُوفِّي الملك الكامل سنة (٦٣٧هـ) وخلفه ابنه الملك الصالح الذى أعلن الحرب على الصليبيين، واستعاد بيت المقدس إلى حوزة الإسلام سنة (٣/صفر/٦٤٢هـ) [وكان معه الجيش الخوارزمي كما أسلفنا في أول المعركة].

---

(١) الموسوعة التاريخية – الدرر السنية (٥/ ١٨٦) ومنها نقلت التاريخ الهجري بدلًا عن الميلادي المذكور في موسوعة سفير.

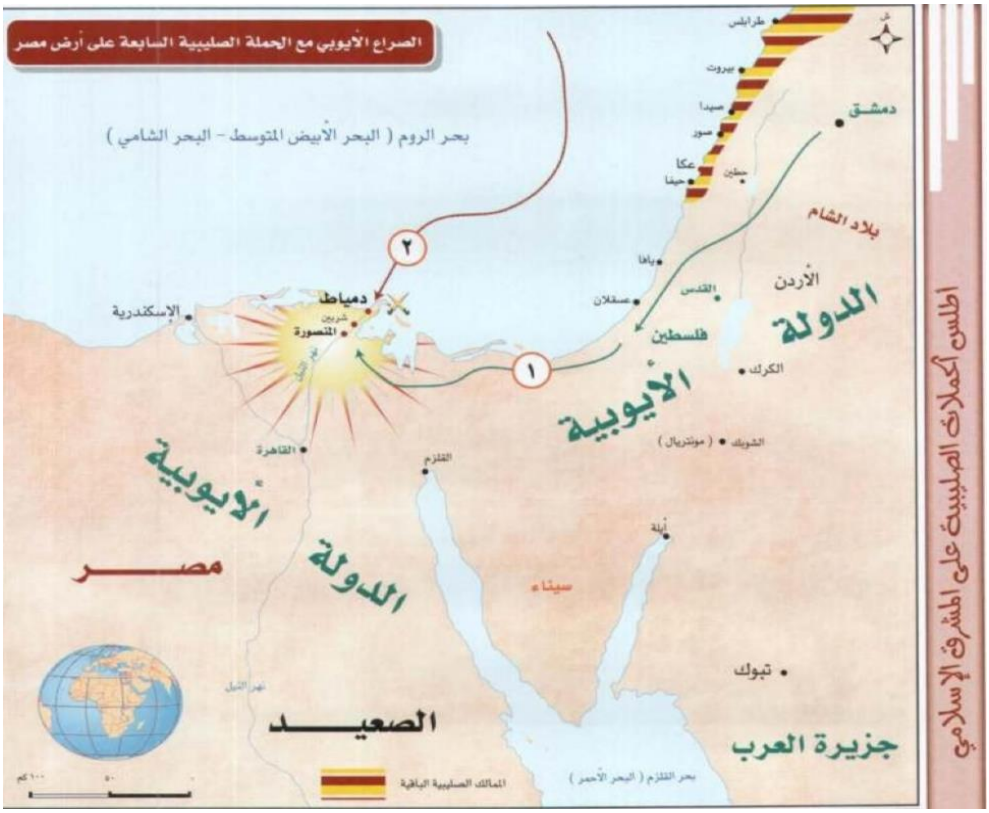
الحملة الصليبية السابعة (٦٤٧هـ - ٦٤٨هـ) وهي معركتنا هذه: تولى قيادتها لويس التاسع ملك فرنسا وتمكَّن من احتلال دمياط، وفى هذا الوقت تُوفِّى الملك الصالح، وقامت بالدفاع عن مصر امرأته شجرة الدر [وتورانشاه]، وفشلت حملة لويس، وأسر، ولم يُطلَق سراحه إلا بعد تعهده بمغادرة أرض مصر.

الحملة الصليبية الثامنة (٦٦٩هـ): قادها الملك لويس التاسع أيضًا؛ فأغار على تونس، ولكن وفاته حالت دون استمرارها.

الحملة الصليبية التاسعة (٦٧٠هـ- ٦٧١هـ): قادها الأمير إدوارد الأول، وكان نصيبها الفشل أيضًا، وتمكن المماليك من طرد الصليبيين من الشرق الأدنى[١].

(١) موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي (١٣/ ١٣٥-١٣٦).

٨- خريطة موقعة المنصورة وفارسكور:





المعركة السابعة عشرة من معارك الإسلام الفاصلة: (عين جالوت)

تمهيد بين يدي المعركة

أول ظهور للمغول كان سنة ٦٠٦هـ وأول خروج لهم إلى بلاد الإسلام سنة ٦١٧هـ وإليك ذكر شيء من صفتهم وجرائمهم قال ابن الأثير رحمه الله:

لَقَدْ بَقِيتُ عِدَّةَ سِنِينَ مُعْرِضًا عَنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ اسْتِعْظَامًا لَهَا، كَارِهًا لِذِكْرِهَا، فَأَنَا أُقَدِّمُ إِلَيْهِ رِجْلًا وَأُؤَخِّرُ أُخْرَى، فَمَنِ الَّذِي يَسْهُلُ عَلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ نَعْيَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ؟ وَمَنِ الَّذِي يَهُونُ عَلَيْهِ ذِكْرُ ذَلِكَ؟ فَيَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي، وَيَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ حُدُوثِهَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا، إِلَّا أَنَّنِي حَثَّنِي جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ عَلَى تَسْطِيرِهَا وَأَنَا مُتَوَقِّفٌ، ثُمَّ رَأَيْتُ أَنَّ تَرْكَ ذَلِكَ لَا يُجْدِي نَفْعًا، فَنَقُولُ: هَذَا الْفِعْلُ يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ الْحَادِثَةِ الْعُظْمَى، وَالْمُصِيبَةِ الْكُبْرَى الَّتِي عَقَّتِ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي عَنْ مِثْلِهَا، عَمَّتِ الْخَلَائِقَ، وَخَصَّتِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ الْعَالَمَ مُذْ خَلَقَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آدَمَ، إِلَى الْآنِ، لَمْ يُبْتَلَوْا بِمِثْلِهَا، لَكَانَ صَادِقًا، فَإِنَّ التَّوَارِيخَ لَمْ تَتَضَمَّنْ مَا يُقَارِبُهَا وَلَا مَا يُدَانِيهَا.

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَذْكُرُونَ مِنَ الْحَوَادِثِ مَا فَعَلَهُ بُخْتُ نَصَّرَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْقَتْلِ، وَتَخْرِيبِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَمَا الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا خَرَّبَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاعِينُ مِنَ الْبِلَادِ، الَّتِي كُلُّ مَدِينَةٍ مِنْهَا أَضْعَافُ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَمَا بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ قَتَلُوا، فَإِنَّ أَهْلَ مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ مِمَّنْ قُتِلُوا أَكْثَرُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَعَلَّ الْخَلْقَ لَا يَرَوْنَ مِثْلَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ إِلَى أَنْ يَنْقَرِضَ الْعَالَمُ، وَتَفْنَى الدُّنْيَا، إِلَّا يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ.

وَأَمَّا الدَّجَّالُ فَإِنَّهُ يُبْقِي عَلَى مَنِ اتَّبَعَهُ، وَيُهْلِكُ مَنْ خَالَفَهُ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ يُبْقُوا عَلَى

أَحَدٍ، بَلْ قَتَلُوا النِّسَاءَ وَالرِّجَالَ وَالْأَطْفَالَ، وَشَقُّوا بُطُونَ الْحَوَامِلِ، وَقَتَلُوا الْأَجِنَّةَ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ لِهَذِهِ الْحَادِثَةِ الَّتِي اسْتَطَارَ شَرَرُهَا، وَعَمَّ ضَرَرُهَا، وَسَارَتْ فِي الْبِلَادِ كَالسَّحَابِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَإِنَّ قَوْمًا خَرَجُوا مِنْ أَطْرَافِ الصِّينِ، فَقَصَدُوا بِلَادَ تُرْكِسْتَانَ مِثْلَ كَاشْغَرَ وَبِلَاسَاغُونَ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ مَا وَرَاءَ النَّهَرِ، مِثْلَ سَمَرْقَنْدَ وَبُخَارَى وَغَيْرِهِمَا، فَيَمْلِكُونَهَا، وَيَفْعَلُونَ بِأَهْلِهَا مَا نَذْكُرُهُ، ثُمَّ تَعْبُرُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ إِلَى خُرَاسَانَ، فَيَفْرَغُونَ مِنْهَا مُلْكًا، وَتَخْرِيبًا، وَقَتْلًا وَنَهْبًا، ثُمَّ يَتَجَاوَزُونَهَا إِلَى الرَّيِّ، وَهَمَذَانَ، وَبَلَدِ الْجَبَلِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْبِلَادِ إِلَى حَدِّ الْعِرَاقِ، ثُمَّ يَقْصِدُونَ بِلَادَ أَذْرَبِيجَانَ وَأَرَّانِيَّةَ، وَيُخَرِّبُونَهَا، وَيَقْتُلُونَ أَكْثَرَ أَهْلِهَا، وَلَمْ يَنْجُ إِلَّا الشَّرِيدُ النَّادِرُ فِي أَقَلَّ مِنْ سَنَةٍ، هَذَا مَا لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ ثُمَّ لَمَّا فَرَغُوا مِنْ أَذْرَبِيجَانَ وَأَرَّانِيَّةَ سَارُوا إِلَى دَرْبَنْدَ شِرْوَانَ فَمَلَكُوا مُدُنَهُ، وَلَمْ يَسْلَمْ غَيْرُ الْقَلْعَةِ الَّتِي بِهَا مَلِكُهُمْ، وَعَبَرُوا عِنْدَهَا إِلَى بَلَدِ اللَّانِ، وَاللِّكْزِ، وَمَنْ فِي ذَلِكَ الصُّقْعِ مِنَ الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَأَوْسَعُوهُمْ قَتْلًا، وَنَهْبًا، وَتَخْرِيبًا، ثُمَّ قَصَدُوا بِلَادَ قُفْجَاقَ، وَهُمْ مِنْ أَكْثَرِ التُّرْكِ عَدَدًا، فَقَتَلُوا كُلَّ مَنْ وَقَفَ لَهُمْ، فَهَرَبَ الْبَاقُونَ إِلَى الْغِيَاضِ وَرُءُوسِ الْجِبَالِ، وَفَارَقُوا بِلَادَهُمْ، وَاسْتَوْلَى هَؤُلَاءِ التَّتَرُ عَلَيْهَا، فَعَلُوا هَذَا فِي أَسْرَعِ زَمَانٍ، لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا بِمِقْدَارِ مَسِيرِهِمْ لَا غَيْرَ.

وَمَضَى طَائِفَةٌ أُخْرَى غَيْرُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ إِلَى غَزْنَةَ وَأَعْمَالِهَا، وَمَا يُجَاوِرُهَا مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ وَسِجِسْتَانَ وَكَرْمَانَ، فَفَعَلُوا فِيهِ مِثْلَ فِعْلِ هَؤُلَاءِ وَأَشَدَّ.

وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ فِي الْبِلَادِ الَّتِي لَمْ يَطْرُقُوهَا إِلَّا وَهُوَ خَائِفٌ يَتَوَقَّعُهُمْ، وَيَتَرَقَّبُ وُصُولَهُمْ إِلَيْهِ.

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى مِيرَةٍ وَمَدَدٍ يَأْتِيهِمْ، فَإِنَّهُمْ مَعَهُمُ الْأَغْنَامُ، وَالْبَقَرُ، وَالْخَيْلُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الدَّوَابِّ، يَأْكُلُونَ لُحُومَهَا لَا غَيْرَ، وَأَمَّا دَوَابُّهُمُ الَّتِي يَرْكَبُونَهَا فَإِنَّهَا تَحْفِرُ الْأَرْضَ بِحَوَافِرِهَا، وَتَأْكُلُ عُرُوقَ النَّبَاتِ لَا تَعْرِفُ الشَّعِيرَ، فَهُمْ إِذَا نَزَلُوا

مَنْزِلًا لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ خَارِجٍ.

وَأَمَّا دِيَانَتُهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا، وَلَا يُحَرِّمُونَ شَيْئًا، فَإِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ جَمِيعَ الدَّوَابِّ، حَتَّى الْكِلَابَ، وَالْخَنَازِيرَ، وَغَيْرَهَا، وَلَا يَعْرِفُونَ نِكَاحًا بَلِ الْمَرْأَةُ يَأْتِيهَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الرِّجَالِ، فَإِذَا جَاءَ الْوَلَدُ لَا يَعْرِفُ أَبَاهُ.

وَلَقَدْ بُلِيَ الْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمُونَ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ بِمَصَائِبَ لَمْ يُبْتَلَ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْأُمَمِ، مِنْهَا هَؤُلَاءِ التَّتَرُ، قَبَّحَهُمُ اللَّهُ، أَقْبَلُوا مِنَ الْمَشْرِقِ، فَفَعَلُوا الْأَفْعَالَ الَّتِي يَسْتَعْظِمُهَا كُلُّ مَنْ سَمِعَ بِهَا[1].

تصاعد خطر المغول في خلافة المستعصم بالله، وخرج قائدهم هولاكو - حفيد جنكيزخان - على رأس جيش يبلغ تعداده مائتى ألف قاصدًا العراق، وأرسل إلى الخليفة المستعصم يطالبه بالاستسلام والدخول في طاعته، لكن الخليفة أرسل بعض الهدايا إلى هولاكو. وقد وصل جيش هولاكو إلى بغداد في شهر (المحرم سنة ٦٥٦هـ) وأحاط بعاصمة الخلافة، وكان جيش بغداد قليل العدد لايبلغ عشرة آلاف فارس، بعد أن كان مائة ألف في عهد الخليفة المستنصر، ولم يصمد جيش بغداد طويلاً في مواجهة المغول، فاقتحمت قوات هولاكو بغداد في (١٠ من المحرم سنة٦٥٦هـ)، وقبض هولاكو على الخليفة المستعصم وأهل بيته، بتدبير من وزيره الخائن ابن العلقمي، [وكان رافضيًا] كما تم القبض على عدد كبير من علماء بغداد وأعيانها وأمرائها، وتم قتلهم جميعًا، واستمر القتال في بغداد أربعين يومًا، وبلغ عدد القتلى أكثر من مليون شخص، وكانت بلية لم يُصب الإسلام بمثلها. وهكذا أسقط المغول الخلافة العباسية في بغداد سنة (٦٥٦هـ)، بعد أكثر من خمسة قرون من قيامها سنة (١٣٢هـ)، وقد ظن المغول أن سقوط الخلافة العباسية قد مهد الطريق أمامهم لاكتساح العالم الإسلامى ولكن آمالهم تحطمت

(١) الكامل في التاريخ - ت تدمري (١٠/ ٣٣٥).

على صخرة الجهاد الباسل في معركة عين جالوت بفلسطين في رمضان سنة (٦٥٨هـ)،بقيادة سلطان مصر المملوكي قطز، مما مهد الطريق لإحياء الخلافة العباسية في مصر على يد السلطان الظاهر بيبرس سنة(٦٥٩هـ) .اهـ[١].

وبعد سقوط بغداد زحف التتار بقيادة هولاكو تجاه سوريا واحتلوا حلب، وقتلوا خمسين ألفًا من سكانها، ثم احتلوا حماة ودمشق وعقدوا معاهدة مع أنطاكية (على حدود الروم) للتحالف ضد المسلمين، ولم يكتفِ هولاكو بذلك، بل أرسل إلى ملك مصر يطلب منه التسليم، ويهدده بالقضاء على جيوش المسلمين كلها إن لم يُسرع بذلك، فقد رأى هولاكو أثر تهديداته بهذه الصورة على مقر الخلافة في بغداد، وظن أن يجد الصدى نفسه لدى حكام مصر، ويدخل مصر بسهولة ودون مقاومة مثلما دخل بغداد، إلا أن سيف الدين قطز أجبره على أن يفيق من أحلامه بصاعقة لم تكن متوقعة، فقد مزق رسالته وقتل رسله وعلق رءوسهم على مداخل القاهرة، وتوعده بالموت والهلاك إن لم يرحل عن هذه البلاد التى قتل من مسلميها ما لايُحصَى عدده، وجعل الدماء أنهارًا في بغداد والشام.اهـ[٢].

نص رسالة المغول إلى مصر والجواب عليها ومابعدها حتى النصر:

قال المقريزي في : [«السلوك لمعرفة دول الملوك» (١/ ٥١٤)] في ذكر سنة (٦٥٨هـ): «وفيهَا وصلت رسل هولاكو إِلَى مصر بِكِتَاب نَصه: من ملك الْمُلُوك شرقًا وغربًا القان الْأَعْظَم بِاسْمِك اللَّهُمَّ باسط الأَرْض وَرَافِع السَّمَاء يعلم الْملك المظفر قطز الَّذِي هُوَ من جنس المماليك الَّذين هربوا من سُيُوفنَا إِلَى هَذَا الإقليم يتنعمون بإنعامه وَيقْتلُونَ من كَانَ بسلطانه بعد ذَلِك. يعلم الْملك المظفر قطز وَسَائر أُمَرَاء دولته وَأهل مَمْلَكَته بالديار المصرية وَمَا حولهَا من الْأَعْمَال أَنا نَحن جند الله

(١) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٣/ ٩٤ -٩٥).
(٢) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٥/ ٨٧).

فِي أرضه خلقنَا من سخطه وسلطنا على من حل بِهِ غَضَبه. فلكم بِجَمِيعِ الْبِلَاد مُعْتَبر وَعَن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم وَأَسْلمُوا إِلَيْنَا أَمركُم قبل أَن ينْكَشف الغطاء فتندموا وَيعود عَلَيْكُم الْخَطَأ. فَنحْن مَا نرحم من بَكَى وَلَا نرق لمن شكى وَقد سَمِعْتُمْ أننا قد فتحنا الْبِلَاد وَطَهَّرْنَا الأَرْض من الْفساد وقتلنا مُعظم الْبِلَاد فَعَلَيْكُم بالهرب وعلينا بِالطَّلَبِ. فَأَي أَرض تؤيكم وَأي طَرِيق تنجيكم وَأي بِلَاد تحميكم. فَمَا من سُيُوفنَا خلاص وَلَا من مهابتنا مناص. فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال. فالحصون لدينا لَا تمنع والعساكر لقتالنا لَا تَنْفَع ودعاؤكم علينا لَا يسمع فَإِنَّكُم أكلْتُم الْحَرَام وَلَا تعفون عِنْد الْكَلَام وختتم العهود والأيمان وَفَشَا فِيكُم العقوق والعصيان. فأبشروا بالمذلة والهوان﴿ فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾ [سورة الأحقاف: ٢٠]. ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ [سورة الشعراء:٢٢٧].فَمن طلب حربنا نَدم وَمن قصد أماننا سلم. فَإِن أَنْتُم لشرطنا ولأمرنا أطعتم فلكم مَا لنا وَعَلَيْكُم مَا علينا وَإِن خالفتم هلكتم فَلَا تهلكوا نفوسكم بِأَيْدِيكُمْ. فقد حذر من أنذر وَقد ثَبت عنْدكُمْ أَن نَحن الْكَفَرَة وَقد ثَبت عندنَا أَنكُمْ الفجرة وَقد سلطنا عَلَيْكُم من لَهُ الْأُمُور الْمقدرَة وَالْأَحْكَام الْمُدبرَة فكثيركم عندنَا قَلِيل وعزيزكم عندنَا ذليل وَبِغير الإهانة لملوككم عندنَا سَبِيل. فَلَا تطيلوا الْخطاب وأسرعوا برد الْجَواب قبل أَن تضرم الْحَرْب نارها وترمى نحوكم شِرَارهَا فَلَا تَجِدُونَ منا جاهاً وَلَا عزا وَلَا كَافِيًا وَلَا حرْزًا. وتدهون منا بأعظم داهية وتصبح بِلَادكُمْ مِنْكُم خَالِيَة. فقد أنصفنا إِذْ راسلناكم وأيقظناكم إِذْ حذرناكم فَمَا بَقِي لنا مقصد سواكم. وَالسَّلَام علينا وَعَلَيْكُم وعَلى من أطَاع الْهدى وخشي عواقب الردى وأطاع الْملك الْأَعْلَى.[وهذه الرسالة يسوغها بعض الرافضة الذين رافقوا التتار من بلاد المشرق يدلون على عورات المسلمين قبحهم الله وأخزاهم ومن هؤلاء نصير الدين الطوسي] فَجمع قطز الْأُمَرَاء وَاتَّفَقُوا على قتل الرُّسُل

والمسير إِلَى الصالحية: فَقبض على الرُّسُل واعتقلوا وَشرع فِي تَحْلِيف من تخيره من الْأُمَرَاء وَأمر بِالْمَسِيرِ والأمراء غير راضين بِالْخُرُوجِ كَرَاهَة فِي لِقَاء التتر. فَلَمَّا كَانَ يَوْم الِاثْنَيْنِ خَامِس عشر شعْبَان: خرج الْملك المظفر بِجَمِيعِ عَسْكَر مصر وَمن انضم وَفِيه أحضر قطز رسل التتر وَكَانُوا أَرْبَعَة فوسط وَاحِدًا بسوق الْخَيل تَحت قلعة الْجَبَل ووسط آخر بِظَاهِر بَاب زويلة ووسط الثَّالِث ظَاهر بَاب النَّصْر ووسط الرَّابِع بالريدانية. وعلقت رُءُوسهم على بَاب زويلة وَهَذِه الرُّءُوس أول رُءُوس علقت على بَاب زويلة من التتار. وَأبقى الْملك المظفر على صبي من الرُّسُل وَجعله من جملَة مماليكه. وَسئل الشَّيْخ عز الدّين بن عبد السَّلَام: فِي أَخذ أَمْوَال الْعَامَّة ونفقتها فِي العساكر فَقَالَ: إِذا لم يبْق فِي بَيت المَال شَيْء أَو أنفقتم الحوائض الذَّهَب وَنَحْوهَا من الزِّينَة وساويتم الْعَامَّة فِي الملابس سوى آلَات الْحَرْب وَلم يبْق للجندي إِلَّا فرسه الَّتِي يركبهَا سَاغَ أَخذ شَيْء من أَمْوَال النَّاس فِي دفع الْأَعْدَاء. إِلَّا أَنه إِذا دهم الْعَدو وَجب على النَّاس كَافَّة دَفعه بِأَمْوَالِهِمْ وأنفسهم.

الاستعداد للجهاد

وَنُودِيَ فِي الْقَاهِرَة ومصر وَسَائِر إقليم مصر بِالْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَاد فِي سَبِيل الله ونصرة لدين رَسُول الله ﷺ. وَتقدم الْملك المظفر لسَائِر الْوُلَاة بإزعاج الأجناد فِي الْخُرُوج للسَّفر وَمن وجد مِنْهُم قد اختفى يضْرب بالمقارع. «وَكَانَ حِينَ سَاقَ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي خِدْمَتِهِ خَلْقٌ مِنْ كِبَارِ الْأُمَرَاءِ الْبَحْرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَمَعَهُ الْمَنْصُورُ صَاحِبُ حَمَاةَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ، فَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبِ حَمَاةَ يَقُولُ لَهُ: لَا تَتَعَنَّ بِمَدِّ سِمَاطٍ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، وَلْيَكُنْ مَعَ الْجُنْدِيِّ لُحَمَةٌ فِي سَوْلَقِهِ يَأْكُلُهَا، وَالْعَجَلَ الْعَجَلَ»[1] وَسَار حَتَّى نزل بالصالحية وتكامل عِنْده الْعَسْكَر فَطلب الْأُمَرَاء وَتكلم مَعَهم فِي الرحيل فَأَبَوا كلهم عَلَيْهِ وامتنعوا من الرحيل. فَقَالَ لَهُم: يَا أُمَرَاء الْمُسلمين

(١) «البداية والنهاية ط هجر» (١٧/ ٤١٢).

لكم زمَان تَأْكُلُونَ أَمْوَال بَيت المَال وَأَنْتُم للغزاة كَارِهُون وَأَنا مُتَوَجّه فَمن اخْتَار الْجِهَاد يصحبني وَمن لم يخْتَر ذَلِك يرجع إِلَى بَيته. فَإِن الله مطلع عَلَيْهِ وخطيئة حَرِيم الْمُسلمين فِي رِقَاب الْمُتَأَخِّرين. فَتكلم الْأُمَرَاء الَّذين تخيرهم وحلفهم فِي مُوَافَقَته على الْمسير فَلم يسع الْبَقِيَّة إِلَّا الْمُوَافقَة وانفض الْجمع. فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْل ركب السُّلْطَان وحرك كوساته وَقَالَ: أَنا أَلْقى التتار بنفسي فَلَمَّا رأى الْأُمَرَاء مسير السُّلْطَان سَارُوا على كره.

المسير للجهاد

وَأمر الْملك قطز الْأَمِير ركن الدّين بيبرس البندقداري أَن يتَقَدَّم فِي عَسْكَر ليعرف أَخْبَار التتر فَسَار بيبرس إِلَى غَزَّة وَبهَا جموع التتر فرحلوا عِنْد نُزُوله وَملك هُوَ غَزَّة ثمَّ نزل السُّلْطَان بالعساكر إِلَى غَزَّة وَأقَام بهَا يَوْمًا ثمَّ رَحل من طَرِيق السَّاحِل على مَدِينَة عكا وَبهَا يَوْمئِذٍ الفرنج فَخَرجُوا إِلَيْهِ بتقادم وَأَرَادُوا أَن يَسِيرُوا مَعَه نجدة فشكرهم وأخلع عَلَيْهِم واستحلفهم أَن يَكُونُوا لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ وَأقسم لَهُم أَنه مَتى تبعه مِنْهُم فَارس أَو راجل يُرِيد أَذَى عَسْكَر الْمُسلمين رَجَعَ وَقَاتلهمْ قبل أَن يلقى التتر. وَأمر الْملك المظفر بالأمراء فَجمعُوا وحضهم على قتال التتر وَذكرهمْ بِمَا وَقع بِأَهْل الأقاليم من الْقَتْل والسبي للحَرِيم وخوفهم وُقُوع مثل ذَلِك وحثهم على استنقاذ الشَّام من التتر ونصرة الْإِسْلَام وَالْمُسْلِمين وحذرهم عُقُوبَة الله. فضجوا بالبكاء وتحالفوا على الِاجْتِهَاد فِي قتال التتر ودفعهم عَن الْبِلَاد.

وَكَانَ كتبغا وبيدرا نَائِبا هولاكو لما بلغهما مسير العساكر المصرية جمعا من تفرق من التتر فِي بِلَاد الشَّام وسارا يُرِيدَان محاربة الْمُسلمين.

عدد جيش المغول في عين جالوت

«كان هولاكو قد رحل من حلب عائدًا إلى البلاد الشرقية. ورتّب في الشام أميرًا كبيرًا يسمّى كتبوغا ومعه عشرة آلاف فارس من العسكر [(١)]»اهـ. وقيل كانوا

(١) «تاريخ مختصر الدول» (١/ ٢٧٩).

عشرين ألفًا وكان رجوعه بسبب موت أخيه زعيم التتار منكو خان طمعًا في الملك بعده فلما بلغ تبريز وهي في إيران جاءه الخبر أنهم قد ملّكوا أخاه الآخر قوبيلاي خان فبقي في تبريز يتابع مايحصل في الشام حتى هلك لعنه الله سنة ٦٦٣هـ.

عدد جيش المسلمين

«كانت عدّة العساكر بالديار المصريّة أيّام الملك الكامل محمد وولده الملك الصالح أيّوب عشرة آلاف فارس»اهـ[١] فانضم إليهم في عين جالوت المتطوعة وبعض من قدم من الشام.

أول علامات النصر

لما أمر السُّلْطَان الْأَمِير ركن الدّين بيبرس البندقداري أَن يسير بِقِطْعَة من الْعَسْكَر سَار حَتَّى لَقِي طَلِيعَة التتر. فَكتب إِلَى السُّلْطَان يُعلمهُ بذلك. وَأخذ فِي مناوشتهم فَتَارَة يقدم وَتارَة يحجم إِلَى أَن وافاه السُّلْطَان على عين جالوت.

"وكان رُكن الدّين بيْبَرس البُنْدُقْداريّ شاليش المسلمين ، فحين طلع من التّل أشرف على التّتار نازلين، ووقعت العين في العين، وكان بينه وبين السّلطان مرحلة. فجهّز البريدية في طلب السّلطان وقلق وقال: **إنْ وَلَّينا كسرْنا الإسلام**. فجعلوا يقهقرون رؤوس خيلهم حتى نزلوا عن التل إلى خلف. وضربت التّتار حلقةً على التّلّ وتحيّز البُنْدُقْداري بعسكره فلم تمض ساعةٌ حتّى جاءته خمسمائة ملْبسة من أبطال الإسلام، ثمّ بعد ساعة أخرى لحِقَتها خمسمائة أخرى "[٢].

وهنا بدأ بيبرس بتنفيذ خطة استدراج المغول إلى المكان المناسب وساحة المعركة التي اتفق مع السلطان المظفر عليها وهي عين جالوت "وهي بلدة بفلسطين تقع بين بيسان [في غور الأردن] والنصرة في الجنوب الغربي من النصرة ونابلس [من

(١) «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» (٧/ ١٩٧).
(٢) « تاريخ الإسلام – ت بشار » (١٤/ ٦٨٧) للإمام الذهبي رحمه الله.

أعمال فلسطين] ، في موضع وافر المياه، تكتنفه الأحراش والأشجار" [١]. فدخلها المغول إعجابًا ببأسهم "فانتهز بيبرس الفرصة في مناوشتهم ليكون له اليد البيضاء عند الإسلام فلم يزل يستدرجهم تارة بالأقبال وتارة بالإحجام حتى وافى بهم إلى الملك المظفر على عين جالوت فكانت الوقعة التي أيد الله بها المسلمين على التتر وأخذ بها منهم ثأر أهل الوبر والمدر"[٢].

تاريخ يوم المعركة، وتفاصيلها

فَلَمَّا كَانَ يَوْم الْجُمُعَة الخَامِس والعشرين من شهر رَمَضَان سنة (٦٥٨هـ): التقى الْجَمْعَانِ وَفِي قُلُوب الْمُسلمين وهم عَظِيم من التتر وَذَلِكَ بعد طُلُوع الشَّمْس. وَقد امْتَلَأَ الْوَادي وَكثر صياح أهل الْقرى من الفلاحين وتتابع ضرب كوسات السُّلْطَان والأمراء فتحيز التتر إِلَى الْجَبَل فعندما اصطدم العسكران اضْطربَ جنَاح عَسْكَر السُّلْطَان [الأيسر] وانتفض طرف مِنْهُ فَألْقى الْملك المظفر عِنْد ذَلِك خوذته من على رَأسه إِلَى الأَرْض وصرخ بِأَعْلَى صَوته صرخة عَظِيمَة سَمعه مُعظم الْعَسْكَر: **وَا إسلاماه ثَلَاث مَرَّات يَا أَلله انصر عَبدك قطز على التتار** وَحمل بِنَفسِهِ وبمن مَعَه حَملَة صَادِقَة وَكَانَ قد تزلزل الْمُسلمُونَ زلزالاً شَدِيدا فأيده الله بنصره وَقتل كتبغا مقدم التتر «وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الَّذِي قَتَلَ كَتْبُغَا نُوينَ الْأَمِيرُ جَمَالُ الدِّينِ آقُوشُ الشَّمْسِيُّ»[٣] وَقتل بعده الْملك السعيد حسن بن الْعَزِيز وَكَانَ مَعَ التتر. وَانْهَزَمَ باقيهم ومنح الله ظُهُورهمْ الْمُسلمين يقتلُون وَيَأْسِرُونَ وأبلى الْأَمِير بيبرس أَيْضًا بلَاء حسنًا بَين يَدي السُّلْطَان. وَمِمَّا اتّفق فِي هَذِه الْوَقْعَة أَن الصَّبِي الَّذِي أبقاه السُّلْطَان من رسل التتر وأضافه إِلَى مماليكه كَانَ رَاكِبًا وَرَاءه حَال اللِّقَاء. فَلَمَّا التحم الْقِتَال فَوّق سَهْمه نَحْو

---

(١) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (١١/ ١٥٧) و «تعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير» (٢/ ١٦١).

(٢) « ذيل مرآة الزمان » (١/ ٣٦٦) لموسى اليونيني رحمه الله (ت٧٢٦هـ).

(٣) «البداية والنهاية ط هجر» (١٧/ ٤٠١).

السُّلْطَان فَبَصُر بِهِ بعض من كَانَ حوله فَأمْسك وَقتل مَكَانَهُ. وَقيل بل رمى الصَّبِي السُّلْطَان بسهمه فَلم يُخطئ فرسه وصرعه إِلَى الأَرْض وَصَارَ السُّلْطَان على قَدَمَيْهِ.

قال ابن كثير رحمه الله: «ذُكِرَ عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ بِالْمَعْرَكَةِ يَوْمَ عَيْنِ جَالُوتَ قُتِلَ جَوَادُهُ، وَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ مِنَ الْوَشَاقِيَّةِ الَّذِينَ مَعَهُمُ الْجَنَائِبُ، فَتَرَجَّلَ وَبَقِيَ وَاقِفًا كَذَلِكَ عَلَى الْأَرْضِ ثَابِتًا فِي مَحَلِّ الْمَعْرَكَةِ وَمَوْضِعِ السَّلْطَنَةِ مِنَ الْقَلْبِ، فَلَمَّا رَآهُ بَعْضُ الْأُمَرَاءِ تَرَجَّلَ عَنْ فَرَسِهِ، وَحَلَفَ عَلَى السُّلْطَانِ لِيَرْكَبَ، فَامْتَنَعَ السُّلْطَانُ وَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَحْرِمَ الْمُسْلِمِينَ نَفْعَكَ. وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى جَاءَتِ الْوَشَاقِيَّةُ فَرَكِبَ فَلَامَهُ بَعْضُ الْأُمَرَاءِ وَقَالَ: يَا خُونْدُ، لِمَ لَا رَكِبْتَ فَرَسَ فُلَانٍ؟ فَلَوْ كَانَ رَآكَ بَعْضُ الْأَعْدَاءِ لَقَتَلَكَ وَهَلَكَ الْإِسْلَامُ بِسَبَبِكَ. فَقَالَ: أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَرُوحُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الْإِسْلَامُ فَلَهُ رَبٌّ لَا يُضَيِّعُهُ، قَدْ قُتِلَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ - وَعَدَّدَ خَلْقًا مِنَ الْمُلُوكِ - فَلَمْ يُضَيِّعِ اللَّهُ الْإِسْلَامَ»[1].

الكرَّة الثانية

وَمر الْعَسْكَر فِي أثر التتر إِلَى قرب بيسان[2] فَرجع التتر وصافوا مصافًّا ثَانِيًا أعظم من الأول فَهَزَمَهُمْ الله وَقتل أكابرهم وعدة مِنْهُم. فَلَمَّا انْكَسَرَ التتار الكسرة الثَّانِيَة نزل السُّلْطَان عَن فرسه ومرغ وَجهه على الأَرْض وَقبلهَا وَصلى رَكْعَتَيْنِ شكرًا لله تَعَالَى ثمَّ ركب فَأقبل الْعَسْكَر وَقد امْتَلَأت أَيْديهم بالمغانم.

رسائل بشرى النصر

فورد الْخَبَر بانهزام التتر إِلَى دمشق لَيْلَة الْأَحَد سَابع عشرينه وحملت رَأس كتبغا مقدم التتار إِلَى الْقَاهِرَة ففر الزين الحافظي ونواب التتار من دمشق وتبعهم أَصْحَابهم فامتدت أَيدي أهل الضّيَاع إِلَيْهِم ونهبوهم فَكَانَت مُدَّة اسْتِيلَاء التتر على

---

(١) «البداية والنهاية ط هجر» (١٧/ ٤١١).

(٢) «وهي على بعد حوالي (٢٠) كيلو متر شمال شرق عين جالوت» ["التتار من البداية إلى عين جالوت".

دمشق سَبْعَة أشهر وَعشرَة أَيَّام. وَفِي يَوْم الْأَحَد الْمَذْكُور: نزل السُّلْطَان على طبرية وَكتب إِلَى دمشق يبشر النَّاس بِفَتْح الله لَهُ وخذلانه التتر وَهُوَ أول كتاب ورد مِنْهُ إِلَى دمشق فَلَمَّا ورد الْكتاب سر النَّاس بِهِ سُرُورًا كثيرًا وَبَادرُوا إِلَى دور النَّصَارَى فنهبوها وأخربوا مَا قدرُوا على تخريبه وهدموا كَنِيسَة اليعاقبة وكنيسة مَرْيَم وأحرقوها حَتَّى بَقِيَتَا كومًا وَقتلُوا عدَّة من النَّصَارَى واستتر باقيهم. وَذَلِكَ أَنهم فِي مُدَّة اسْتِيلَاء التتر هموا مرَارًا بالثورة على الْمُسلمين وخربوا مَسَاجِد ومآذن كَانَت بجوار كنائسهم وأعلنوا بِضَرْب الناقوس وركبوا بالصليب وَشَرِبُوا الْخمر فِي الطرقات ورشوه وَفِي ثامن عشرينه: نهب الْمُسلمُونَ الْيَهُود بِدِمَشْق حَتَّى لم يتْركُوا لَهُم شَيْئًا وأصبحت حوانيتهم بالأسواق دكًا فَقَامَ طَائِفَة من الأجناد حَتَّى كفوا النَّاس عَن حريق كنائسهم وَبُيُوتهمْ. وَفِيه ثار أهل دمشق بِجَمَاعَة من الْمُسلمين كَانُوا من أعوان التتار وقتلوهم وخربوا الدّور الْمُجَاورَة للكنائس وَقتلُوا جمَاعَة من الْمغل فَكَانَ أمرًا مهولًا. "وَقتلَتِ الْعَامَّةُ فِي وَسَطِ الْجَامِعِ شَيْخًا رَافِضِيًّا كَانَ مُصَانِعًا لِلتَّتَارِ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ يُقَالُ لَهُ: الْفَخْرُ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الْكَنْجِيُّ. كَانَ خَبِيثَ الطَّوِيَّةِ مَشْرِقِيًّا مُمَالِئًا لَهُمْ عَلَى أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ، قَبَّحَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَتَلُوا جَمَاعَةً مِثْلَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْمُمَالِئِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الأنعام:٤٥]. [(١)]". وذلك هو دأب الرافضة في معاونة الكافرين على المسلمين مع إجادة الدعايات البراقة التي يصدقها الطغام.

وَفِي تَاسِع عشرينه: وصل بكرَة النَّهَار الْأَمِير جمال الدّين المحمدي الصَّالِحِي بمرسوم الْملك المظفر قطز فنزل بدار السَّعَادَة وَأمن النَّاس ووطنهم. وَفِي يَوْم الْأَرْبَعَاء آخر شهر رَمَضَان: وصل الْملك المظفر إِلَى ظَاهر دمشق فخيم هُنَاكَ وَأَقَام إِلَى ثَانِي شَوَّال فَدخل إِلَى دمشق وَنزل بالقلعة.

---

(١) «البداية والنهاية ط هجر» (١٧/ ٤٠٢ ت التركي).

لكن الأسد الضاري لم ينته دوره

وجرد الْأَمِير ركن الدّين بيبرس إِلَى حمص وحلب فَقتل من التتر وَأسر كثيرًا وَعَاد إِلَى دمشق قال ابن كثير رحمه الله: «وَاتَّبَعَ الْأَمِيرُ رُكْنُ الدِّينِ بِيبَرْسُ الْبُنْدُقْدَارِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الشُّجْعَانِ التَّتَارَ يَقْتُلُونَهُمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ، إِلَى أَنْ وَصَلُوا خَلْفَهُمْ إِلَى حَلَبَ، وَهَرَبَ مَنْ بِدِمَشْقَ مِنْهُمْ، وَكَانَ هَرَبُهُمْ مِنْهَا يَوْمَ الْأَحَدِ السَّابِعَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ صَبِيحَةَ النَّصْرِ الَّذِي جَاءَتْ فِيهِ الْبِشَارَةُ بِالنُّصْرَةِ عَلَى عَيْنِ جَالُوتَ، فَتَبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ دِمَشْقَ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ وَيَنْهَبُونَ الْأَمْوَالَ فِيهِمْ، وَيَسْتَفِكُّونَ الْأُسَارَى مِنْ أَيْدِيهِمْ قَهْرًا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَنُ عَلَى جَبْرِهِ الْإِسْلَامَ، وَمُعَامَلَتِهِ إِيَّاهُمْ بِلُطْفِهِ الْحَسَنِ. وَجَاءَتْ بِذَلِكَ الْبِشَارَةُ السَّارَّةُ، فَجَاوَبَتْهَا الْبَشَائِرُ مِنَ الْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ وَفَرِحَ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمئِذٍ بِنَصْرِ اللَّهِ فَرَحًا شَدِيدًا، وَأَيَّدَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ تَأْيِيدًا، وَكُبِتَ أَعْدَاءُ اللَّهِ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ وَالْمُنَافِقُونَ، وَظَهَرَ دِينُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ، وَنَصَرَ اللَّهُ دِينَهُ وَنَبِيَّهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ»(١).

وَاسْتولى الْملك المظفر على سَائِر بِلَاد الشَّام كلهَا من الْفُرَات إِلَى حد مصر وأقطع الْأُمَرَاء الصالحية والمعزية وَأَصْحَابه بقطاعات الشَّام واستناب الْأَمِير علم الدّين سنجر الْحلَبِي فِي دمشق وَمَعَهُ الْأَمِير مجير الدّين أَبُو الهيجاء بن عِيسَى بن خشتر الأزكشي الْكرْدِي. وَبعث إِلَيْهِ الْملك الْأَشْرَف مُوسَى - صَاحب حمص ونائب هولاكو بِبِلَاد الشَّام - يطْلب الْأمان فَأَمنهُ. وَبعث السُّلْطَان أَيْضا بِالْملكِ المظفر عَلَاء الدّين عَليّ بن بدر الدّين لُؤْلُؤ صَاحب سنجار إِلَى حلب نَائِبا بهَا وأقطع أَعمالهَا بمناشره. وَأقر الْملك الْمَنْصُور على حماة وبارين وَأعَاد عَلَيْهِ المعرة - وَكَانَت بيد الحلبيين من سنة خمس وَثَلَاثِينَ وستمِائَة وَأخذ سلمية مِنْهُ وَأَعْطَاهَا الْأَمِير شرف الدّين عِيسَى بن مهنا بن مَانع أَمِير الْعَرَب. ورتب الْأَمِير شمس الدّين أقوش البرلي

(١) «البداية والنهاية ط هجر» (١٧/ ٤٠٢).

العزيزي أَمِيرًا بالسَّاحل وغزة وَمَعَهُ عدَّة من العزيزية - وَكَانَ قد فَارق النَّاصِر يُوسُف وَسَار إِلَى الْقَاهِرَة فَأكْرمه السُّلْطَان وَخرج مَعَه فَشهد وقْعَة عين جالوت وَأمر بشنق حُسَيْن الْكرْدِي الطبرادار فشنق من أجل أَنه دلّ على الْملك النَّاصِر. وثار عدَّة من الأوشاقية مماليك السُّلْطَان بالنصارى ونهبوا دُورهمْ وَكَانَ مَعَهم عدَّة من عوام دمشق فشنق مِنْهُم نَحْو الثَّلَاثِينَ نفسًا. وَأمر السُّلْطَان أَن يُقرر على نَصَارَى دمشق مائَة وَستُّونَ ألف دِرْهَم فجمعوها وحملت إِلَى السُّلْطَان بسفارة الْأَمِير فَارس الدّين أقطاي المستعرب أتابك الْعَسْكَر. وَأما التتر فَإِنَّهُم لما لحقهم الطّلب إِلَى أَرض حمص ألقوا مَا كَانَ مَعَهم من مَتَاع وَغَيره وأطلقوا الأسرى وعرجوا نَحْو طَرِيق السَّاحِل. فتخطف الْمُسلمُونَ مِنْهُم وَقتلُوا خلقا كثيرا وأسروا أَكثر. فَلَمَّا بلغ هولاكو كسرة عسكره وَقتل نَائِبه كتبغا عظم عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لم يكسر لَهُ عَسْكَر قبل ذَلِك .اهـ [١]

وعمل الشيخ شهاب الدين أبو شامة في ذلك شعراً فقال:

غلب التتار على البلاد فجاءهم ❁❁❁ من مصـــر تركي يجود بنفسه
بالشـــام بددهم وفرق شـــملهم ❁❁❁ ولكـل شـــيء آفة من جنســـه

ولبعض شعراء دمشق أيضاً: [٢]

هلك الكفر في الشـــآم جميعـًا ❁❁❁ واستجد الإسلام بعد دحوضه
بـالمليـك المظفر الملـك الأر ❁❁❁ وع سيف الإسلام عند نهوضه
مـلـك جـاءنـا بـعـزم وحـزم ❁❁❁ فـاعتززنـا بســمره وببيضـــه
أوجـب الله شـــكر ذاك علينـا ❁❁❁ دائمـًا مثل واجبات فروضـــه

(ملخص معركة عين جالوت الفاصلة)

١ - اسم المعركة : عين جالوت.

---

(١) «السلوك لمعرفة دول الملوك» (١/ ٥١٤- ١/ ٥١٨)] هذا هو سياق المقريزي رحمه الله لهذه المعركة مع زيادات أحلنا إليها.

(٢) «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٣٦٧).

٢- مكان المعركة : عين جالوت وهي بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين.

٣- تاريخ المعركة: كَانَت يَوْم الْجُمُعَة الخَامِس والعشرين من شهر رَمَضَان سنة (٦٥٨هـ).

٤- الفريقان المتقاتلان :

١- المسلمون : بقيادة السلطان المظفر سيف الدين قطز رحمه الله تعالى الذي لم يدم ملكه إلا أحد عشر شهرًا وثلاثة عشر يومًا ولكن رفع الله ذكره بخدمة دينه قال الذهبي: وَيُقَالُ: إِنَّهُ ابْنُ أُخْتِ خُوَارِزْم شَاه جَلَالِ الدِّيْنِ، وَإِنَّهُ حُرٌّ وَاسْمُهُ مَحْمُوْد بن مَمْدُوْدٍ. باعه المغول صغيرًا فجعله سبب زوالهم رحمه الله.

٢- المغول: بأمر هولاكو لعنه الله ، وبقيادة الأمير كَتْبُغَا نُوِينَ قبحه الله.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما:

أولًا المسلمون: كانت عدّة العساكر بالديار المصريّة أيّام الملك الكامل محمد وولده الملك الصالح أيّوب عشرة آلاف فارس، وانضم إليهم المتطوعة وبعض من قدم من الشام.

* شارك فيها من العلماء بالتوجيه والفتوى: الإمام العز بن عبد السلام رحمه الله

ثانيًا المغول: رحل هولاكو من حلب عائدًا إلى البلاد الشرقية، ورتّب في الشام أميرًا كبيرًا يسمّى كتبوغا ومعه عشرة آلاف فارس من العسكر ، وقيل كانوا عشرين ألفًا.

٦- سبب المعركة : طغيان المغول على بلاد الإسلام من أقاصي الشرق إلى الشام فأهلكهم الله تعالى على أيدي هؤلاء المجاهدين البررة رحمهم الله تعالى وأجزل لهم المثوبة.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- انتصر المسلمون بحمد الله تعالى نصرًا مبينًا، وأقبل الْعَسْكَر بعد المعركة وبعد مطاردة العدو وَقد امْتَلَأت أَيْديهم بالمغانم.

٢- بعد الانتصار لاحق المماليك المغول شمالًا، فألحقوا بهم هزيمة أخرى منكرة في قيسارية (بآسيا الصغرى) واستردوها منهم[١].

٣- قُتل كتبوغا قائد المغول في هذه المعركة وأكثر جيشه، ومن بقي منهم فرّ هاربًا حتى خرج من الشام، وكانت هذه المعركة سببًا لردعهم عن الشرِّ والفساد وسببًا لدخول كثير من التتر في الإسلام.

٤- انتهت سيطرة المغول على البلاد الشامية، وأراح الله منهم، وَاسْتولى الْملك المظفر على سَائِر بِلَاد الشَّام كلهَا من الْفُرَات إِلَى جَمِيع بلاد مصر.

٥- تفرغت دولة المماليك لقتال الصليبيين، حتى أخرجوهم من الشام كلها.

٦- صارت بلاد مصر الدرع الواقي لبلاد الإسلام بفضل الله عز وجل.

٧- بعد هذ النصر وفي سلطنة ركن الدين بيبرس استقدم الظاهر بيبرس (أحمد ابن الخليفة العباسي الظاهر) إلى القاهرة (وكان أحمد قد فر من بغداد بعد أن دمرها المغول). فبايعه الظاهر بالخلافة، ولقبه بالمستنصر عام ٦٥٩ هـ.

---

(١) موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر (ص٢٦٥).

٨- خريطة موقعة عين جالوت:





المعركة الفاصلة الثامنة عشرة : (فتح القسطنطينية)

تنبيه مهم: قبل الشروع في ذكر أحداث هذا الفتح المبارك اعلم أن فتح القسطنطينية سيتكرر مرة أخرى وعلى ذلك دلّت النصوص منها ما في صحيح مسلم (٢٨٩٧)كتاب الفتن وأشراط الساعة باب فِي فتح قسطنطينية وخروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : **لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ ، أَوْ بِدَابِقٍ فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ ، فَإِذَا تَصَافُّوا قَالَتِ الرُّومُ : خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ . فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ : لَا وَاللهِ ، لَا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا . فَيُقَاتِلُونَهُمْ ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا ، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللهِ ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ لَا يُفْتَنُونَ أَبَدًا ، فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ ، إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ : إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ ، فَيَخْرُجُونَ وَذَلِكَ بَاطِلٌ ، فَإِذَا جَاؤُوا الشَّأْمَ خَرَجَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ ، فَأَمَّهُمْ فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللهِ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ ، فَلَوْ تَرَكَهُ لَانْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللهُ بِيَدِهِ ، فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ** . فهذا دليل واضح لا مرية فيه أنه قبل الدجال وبمجرد رجوعهم يخرج ولذلك ينزل عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لقتله. وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : **سَمِعْتُمْ بِمَدِينَةٍ جَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَرِّ وَجَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَحْرِ** . قَالُوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ . قَالَ : **لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْزُوهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ بَنِي إِسْحَاقَ ، فَإِذَا جَاؤُوهَا نَزَلُوا فَلَمْ يُقَاتِلُوا بِسِلَاحٍ ، وَلَمْ يَرْمُوا بِسَهْمٍ ، قَالُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ ، فَيَسْقُطُ أَحَدُ جَانِبَيْهَا . قَالَ ثَوْرٌ : لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَالَ : الَّذِي**

فِي الْبَحْرِ . ثُمَّ يَقُولُوا الثَّانِيَةَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ ، فَيَسْقُطُ جَانِبُهَا الْآخَرُ ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّالِثَةَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ ، فَيُفَرَّجَ لَهُمْ فَيَدْخُلُوهَا فَيَغْنَمُوا ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْمَغَانِمَ إِذْ جَاءَهُمُ الصَّرِيخُ فَقَالَ : إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَرَجَ ، فَيَتْرُكُونَ كُلَّ شَيْءٍ وَيَرْجِعُونَ .[أخرجه مسلم (٢٩٢٠)] وهذه هي صفة مدينة القسطنطينية، ولم يفتحها محمد الفاتح بهذه الطريقة ، ولكن له أجر عظيم إن شاء الله تعالى بإحراز هذه البلاد للمسلمين وإلى شرح فتحه رحمه الله من كتاب [بين العقيدة والقيادة (ص٣٧٧) لمحمود شيت خطابْ] حيث قال: السلطان مُحَمَّد الفَاتح فَاتح القسطنطينيَّة.

*** أيامه الأولى:**

وُلِدَ محمد الفاتح في السادس والعشرين من شهر رجب سنة ثلاث وثلاثين وثمان مائة هجرية ، وتولَّى السلطنة مرَّتين في حياة والده مراد الثاني ، ولكنَّ أعداء الدولة العثمانية انتهزوا فرصة تخلِّي مراد الثاني عن العرش وتوليِّ ابنه محمد الفاتح البالغ من العمر إذ ذاك أربع عشرة سنة من عمره، فقرَّروا طرد الأتراك من أوروبا. وعاد مراد. الثاني إلى العرش، وهزم أعداءه الخارجيين، ثم عاد إلى خلوته متنازلاً عن العرش. ولكن جنود الانكشارية في (أدرنه) ثاروا وشغبوا وهاجوا، فعاد السلطان مراد الثاني ثانية إلى العرش وقضى على الفتنة الداخلية، وأعاد الأمور إلى نصابها.وفي الثالث من المحرَّم سنة خمس وخمسين وثمانمائة هجرية توفي السلطان مراد.وفي اليوم السادس عشر من محرَّم سنة خمس وخمسين وثمانمائة هجرية تولَّى محمد الفاتح عرش آبائه وأجداده وهو في الثانية والعشرين من عمره.لقد تدرَّب محمد الفاتح على إدارة الدولة عمليًا قبل وفاة والده: تدرَّب على نطاق محلّي، لأنَّه تولى إدارة مناطق من الدولة، فكان المسئول الأول عنها؛ وتدرَّب على نطاق الدولة كلها حين تولى السلطنة مرَّتين في حياة والده، فعرف كيف يتحمَّل المسئولية كاملةً في حياة والده، وأفاد من هذه التجارب العملية بعد وفاة أبيه، وعرف كيف يواجه

مشاكل الدولة والحكومة، وخبر الرجال وكشف مواطن الضعف والقوة فيهم. كما درس نظم الدول الداخلية وقدَّر مهمَّتها الخارجية ومشاكلها الدولية.

كما تدرَّب على القيادة العسكرية في حياة والده، إذ كان معه في المعارك التي خاضها في أواخر حياته، فتعلَّم من والده الذي كان قائدًا متميِّزًا أساليب إدارة القتال والسيطرة على القوات العسكرية في الميدان.

*** محاولات الفتح الأولى:**

ركَّز محمد الفاتح بعد تولِّيه السلطنة كلّ اهتمامه على فتح القسطنطينية، فكان أمر فتحها يشغل كلّ تفكيره ويسيطر على عقله وقلبه، فكأنَّه تولَّى منصبه لتحقيق هذا الهدف الحيويّ،ومن المعروف أنَّ المسلمين اهتمُّوا كثيرًا بفتح القسطنطينية منذ أيام الدولة الإسلامية الأولى، وقد حاول قسم من الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وسلاطين بني عثمان قبل محمد الفاتح أن يفتحوا القسطنطينية، ولكنَّ محاولاتهم لم يُكتَب لها النجاح، وقد ظلَّت القسطنطينية عشرة قرون معقلاً [للنصرانية]، لم تستسلم للغزاة الطامعين بها، وثبتت أمام تسعة وعشرين حصاراً، حتى فتحها محمد الفاتح فأصبحت معقلاً للمسلمين حتى اليوم.

كانت أول محاولة للمسلمين لفتح القسطنطينية في خلافة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ،وذلك في أواخر سنة اثنتين وثلاثين هجرية إذ قصدها جيشٌ بقيادة معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أمير الشام يومئذٍ، فاخترق آسيا الصغرى حتى ضفاف البسفور. كما قصدها أسطول إسلامي بقيادة بُسْر بن أبي أرطاة لدعم الجيش الإسلامي البرّي، فتحرَّك من (طرابلس الغرب) صوب القسطنطينية ولكن هذه المحاولة لم تنجح.

وفي سنة أربع وأربعين هجرية كانت الحملة الثانية في عهد معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ولكن هذه المحاولة لم تنجح أيضًا.

وفي سنة تسع وأربعين هجرية أعاد معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الكرَّة لفتح القسطنطينية،

فبعث جيشاً ضخماً بقيادة سفيان بن عوف ومعه يزيد بن معاوية وجماعة من أكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار منهم عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وأبو أيوب الأنصاري. وسار الأسطول الإسلامي بقيادة بُسر بن أبي أرطاة، واخترق مضيق الدردنيل دون مقاومة.واستمرَّ حصار المدينة برًّا وبحرًا سبعة أعوام دون جدوى، فانسحب المسلمون سنة ثمان وخمسين هجرية.

وفي سنة ست وتسعين هجرية تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك، فأعاد الكرَّة وانتدب أخاه مَسْلَمَة بن عبد الملك وأمره ألَاّ يبرح القسطنطينية حتى يفتحها أو يأتيه أمره. وسار مسلمة في أوائل سنة ثمان وتسعين هجرية مخترقًا هضاب الأناضول، وفتح عدَّة مدن وحصون للروم، ثم بدأ حصار القسطنطينية، فحاصرها ثانية في اليوم الثاني من محرَّم سنة تسع وتسعين هجرية، ولكن لم تمضِ أسابيع قلائل على حصارها حتى توفي سليمان بن عبد الملك في العاشر من صفر سنة تسع وتسعين هجرية، ودخل فصل الشتاء وكان شديد البرد، فانسحب مسلمة إلى ثغور الشام،ولم تحاول الخلافة بعد ذلك أن تعمل جادَّة لافتتاح القسطنطينية، وإن كانت جيوشها قد اقتربت بعد ذلك غير مرَّة من هذه العاصمة.

وقد وقعت أشهر هذه الغزوات أيام الخليفة المهدي من بني العباس، حيث سار ولده هارون الرشيد في صيف سنة خمس وستين ومئة هجرية غازيًا للدولة البيزنطية، فاخترق هضاب الأناضول حتى أشرف على ضفاف البسفور الآسيوية، وعسكر فوق تلال خريسوبوليس (أسكوتاري) في مواجهة القسطنطينية. وكان على عرش القياصرة يومئذٍ طفل هو قسطنطين السادس، ومقاليد الحكم بيد أمه الإمبراطورة إيريني (ريني)، فهزم المسلمون البيزنطيين هزيمةً نكراء، واضْطرَّت إيريني أن تعقد الصلح وأن تتعهَّد بدفع جزية سنوية للمسلمين.

وكانت أول محاولة للعثمانيين لفتح القسطنطينية في سنة ثمان وتسعين وسبعمئة

هجرية ولكن وصول تيمورلنك إلى حدود الدولة العثمانية الشرقية اضطر السلطان (بايزيد) على التخلِّي عن الحصار،وقد كانت القسطنطينية محطَّ أنظار العثمانيين ومعقد آمالهم، منذ بداية حكمهم، فأوصى السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانية خلفاءه بفتحها، فلم يوفق السلاطين بعد عثمان في تحقيق هدفهم، حتى جاء السلطان محمد الفاتح، فكتب الله له أن يكون فاتح هذه المدينة العظيمة، ومن يومها حمل لقب: الفاتح،وكما تعرَّضت القسطنطينية لمحاولات فتحها من المسلمين، تعرَّضت أيضًا عبر تاريخها الطويل لمحاولات غزوها من غير المسلمين، ولم تَسلَم حتى من الصليبيين؛ فقد تحوَّلت الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها الأصلي وهو غزو بلاد المسلمين، فاحتلَّت القسطنطينية سنة إحدى وستمائة هجرية ، ونهبت أملاكها ودمَّرت معالمها ومزَّقت أكبر دولة [نصرانية] في العصور الوسطى. ولكنّ البيزنطيين استطاعوا أن يستعيدوا عاصمتهم سنة ستين وستمئة هجرية بعد نصف قرن تقريبًا من الحكم اللاتيني وبعد كثير من التضحيات والخسائر بالأرواح والممتلكات وكثير من الجهد والعناء.

❋ أهمية القسطنطينية:

تحتل مدينة القسطنطينية موقعاً سوْقياً (استراتيجيًا) فريدًا، [حباه الله تعالى] بأهم عوامل الدفاع الطبيعية التي تساعد المدافعين عنها على الثبات. تحوطها من الشرق مياه البسفور، وتحدُّها من الغرب والجنوب مياه (المرمرة)، ويقسمها القرن الذهبي إلى قسمين عظيمين هما: (بيرا) وهو القسم الشمالي الشرقي، وإستانبول وهي المدينة البيزنطية الحقيقية. وتحتل إستانبول مثلثًا عظيمًا من المرتفعات الصخرية تشرف قاعدته على (المرمرة) وضلعه الأيمن على مياه القرن الذهبي والميناء، وكان كل من هذين الجانبين يحرسهما سور واحد. أما الضلع الثالث وطوله ستة أميال، فهو الجانب المتَّصل بأرض القارة الأوروبية، يحميه خط مزدوج من الأبراج والحصون المنيعة، وخندق عميق مزدوج، وفيه اثنا عشر بابًا، وفي كل زاوية

من زوايا المثلث الثلاث قلعة منيعة،وكانت مياه القرن الذهبي الذي يحمي ضلع المدينة الشمالي الشرقي، تغلق بسلسلة حديدية هائلة يمتد طرفاها عند مدخله بين سور (غلطه) وسور إستانبول. [وتبلغ مساحة المدينة (٥٥٦٥) كم٢.[١]] وهكذا تهيَّأت أسباب الدفاع المديد لهذه المدينة: أسباب طبيعية، وأسباب صناعية، مما جعلها موقعًا حصينًا وقلعةً آمنة، ومن الصعب على الغزاة احتلالها.

كما أنَّ هذه المدينة تحتلّ موقعاً فريداً في العالم، فهي تقع عند ملتقى القارَّتين آسيا وأوروبا.

وقد نوَّه نابليون[قبحه الله] بوجهٍ خاص بأهميّتها وخطورتها، فقال في شأنها: "لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها". وقد ذكر نابليون في مذكراته التي كتبها في منفاه بجزيرة (سانت هيلانا): أنه حاول عدَّة مرات الاتفاق مع روسيا على اقتسام الدولة العثمانية، ولكن وقعت القسطنطينية كل مرَّة عقبة كؤودًا دون الاتفاق، فقد كانت روسيا تلحّ في امتلاكها، ونابليون يصرّ على عدم تسليمها، إذ كانت هذه المدينة وحدها في نظره تساوي إمبراطورية كاملة، وهي بعد بمثابة مفتاح العالم، من استولى عليها استطاع أن يسيطر على العالم بأجمعه. وقد كان نابليون في أشد الحاجة إلى صداقة روسيا لمواجهة عدوَّته اللدود إنكلترا، ولكنَّه برغم ذلك لم يستطع أن يضحّيَ بالقسطنطينية، وقد أصبحت هذه المدينة ضرورية للعثمانيين بعد أن امتدَّ ملكهم فشمل مناطق آسيوية وأوروبية شاسعة، فكان لا بدَّ لهم من فتحها لتكون نقطة التقاء أملاكهم في أوروبا وآسيا من جهة، وليزيلوا من أمامهم حصنًا حصينًا يهدِّد وجودهم في عقر دارهم ويفصل أملاكهم إلى شطرين كبيرين، وكان وجودها بالنسبة للعثمانيين تحت سيطرة البيزنطيين نقطة ضعف في دولة بني عثمان، ومكمن خطر داهم عانوا منه

(١) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (١٦٢/١١).

الأمرَّين في تاريخهم الطويل.

❋ آخر الأباطرة:

أ) وحين تولَّى محمد الفاتح، كان على عرش بيزنطة قسطنطين الحادي عشر الذي اعتلى العرش سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة هجرية وهو في ريعان الشباب. وكان على يقين أن عاصمته مهددة بأفدح الأخطار، وأنَّ قواته ضعيفة بالنسبة لقوات العثمانيين، وأنَّ عليه أن يبذل قصارى جهده لاستقدام قوات من دول الغرب الصليبية لمعاونته في صدِّ العثمانيين دفاعًا عن القسطنطينية، وقد حاول الزواج بمارية الصربية [النصرانية] أرملة السلطان مراد الثاني والد محمد الفاتح، وذلك عقب عودتها إلى وطنها بعد وفاة زوجها، وكان محمد الفاتح يحترمها كثيرًا ويعرف لها مكانتها وقدرها، ففكَّر قسطنطين أنَّ زواجه بها قد يحميه من محمد الفاتح، ومؤمَّلًا من ورائه أن يكسب قوة والدها (جورج برانكوفتش) وعطف محمد الفاتح. ولكن هذه الفكرة تلاشت، لأن مارية اعتزلت الناس، وقبعت في أحد الأديرة،وحاول قسطنطين مصاهرة إمبراطور (طرابزون) وهو داوود كومنينوس كما أشار عليه رجال بلاطه، كما حاول مصاهرة ملك الكرج (جورجيا) علَّه يجد منه المساعدة في وقت الحاجة؛ لأنَّ الكرج بلاد بدوية، رجالها أشداء أقوياء، ولكن لم يتمّ هذا الزواج لنشوب الحرب بينه وبين العثمانيين.ويُقال أيضًا إن قسطنطين فكَّر في الزواج بابنة رئيس جمهورية البندقية (فينيسيا)، لكنه ما لبث أن عدل عنه خوفًا من الرأي العام الذي كان يتَّهمه بالميل إلى اللاتين. بيد أنَّ هذا العدول عن الزواج اعتبرته البندقية إهانة لها، فكان ذلك من أسباب تثاقلها عن نصرة قسطنطين حينما أحاطت به الأخطار واشتدَّ الحصار على القسطنطينية.

ب) ومن جهة أخرى لم ييأس قسطنطين من معونة الغرب، واعتقد أنَّ اشتداد الخطر على القسطنطينية وإحداق المسلمين بها سيحمل الغرب على المبادرة إلى نجدته ونصرته، فبعث إلى جميع ملوك الغرب وأمرائه يستصرخهم ويستغيث بهم،

كما بعث إلى البابا نقولا الخامس، يستنصره وينذره بأنه إذا سقطت القسطنطينية بيد العثمانيين فإنهم سيهاجمون بعد ذلك إيطاليا نفسها. وذكر قسطنطين قبوله لما اتفق عليه في مجمع فلورنسة الكنسي من أمر توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، واعتذر عمَّا كان من مسلك الروم تجاهه وتجاه توحيد الكنيستين. وكان قسطنطين في ذلك مثل من سبقه من الأباطرة، لم يقبل هذا الاتحاد إلا طمعًا في نيل المعونة من دول الغرب الكاثوليكية، أما في قرارة نفسه فلم يكن أقل عداءً من بطريرك الكنيسة الشرقية ومن الشعب البيزنطي للَاّتين ومذهبهم الديني وكل ما جاء من روما وذهبت محاولات قسطنطين سدى، كما كانت استغاثاته صرخة في واد.

❋ نقض العهد:

ومن المذهل حقّاً أن يتصرَّف قسطنطين تصُّرفًا أهوج، وهو يعرف عزم العثمانيين على فتح القسطنطينية، فقد استثار محمدًا الفاتح ونقض العهد الذي كان بينه وبين العثمانيين، فانتهز محمد الفاتح هذه الفرصة السانحة، وصمم علنًا على فتح القسطنطينية ذلك أن الفاتح عقب توليه السلطنة عقد السلام مع قسطنطين وغيره والحكَّام، ورضي أن يخصِّص راتبًا كبيرًا للأمير العثماني (أورخان) الذي كان معتقلاً في القسطنطينية. ويبدو أن قسطنطين أغراه هذا التسامح من جانب محمد الفاتح، فانتهز أول فرصة للغدر به، فإن محمدًا الفاتح لم يكد يجلس على عرش السلطنة، حتى ثار به إبراهيم أمير القرمان وأثار معه عدَّة أشخاص، زعم أنهم أبناء الأمراء القدامى لكرميان وإيدين ومنتشا، ودفعهم إلى هذه الأقاليم ليستولوا على ميراثهم. وبعث محمد الفاتح قوات لقتاله وسار هو في أثرهم. وفوجئ إبراهيم بهذا الزحف السريع، ووجد أنه أضعف من أن يناجز الجيش العثماني، فكفَّ عن القتال وتقدَّم إلى السلطان الفاتح بنفسه باكياً مستعطفاً، وتعهد أن يخرج معه في حملاته المقبلة، على أن يحتفظ بإمارته. ورقَّ الفاتح لبكائه، وقبل منه ما طلب، وعفا عما

كان منه. وانتهز قسطنطين زحف محمد الفاتح إلى آسيا الصغرى لقمع ثورة إبراهيم أمير القرمان، فبعث إليه وفدًا يطلب منه أن يدفع فورًا نفقات الأمير أورخان، ويدفعها مضاعفة، وإلا فإنه سيطلق سراح هذا الأمير ويثيره عليه ويمدّه بجيش من عنده ويجلسه على عرش السلطنة العثمانية!! ... ولا يبعد أن يكون ثمة تواطؤ وتآمر بين هذين الرجلين: إبراهيم وقسطنطين على الإيقاع بالفاتح والقضاء على دولته، وقد غرَّتهما حداثة سنه،ولا يبعد أن يكون قسطنطين قد أراد إظهار عضلاته حتى يخيف الفاتح ويختبر حقيقة نياته المبيَّتة،وذهب رسل قسطنطين إلى محمد الفاتح بآسيا الصغرى يحملون إليه الإنذار والوعيد، فلم يرَ السلطان الفاتح أن يقابل هذا العدو بمثله قبل الانتهاء من أمر أمير القرمان، وكان فوق ذلك بعيدًا عن مقرّ دولته بأدرنه في أوروبا، حتى لا يعمد قسطنطين إلى قطع خط الرجعة أو عرقلة خطوط مواصلاته وسد المسالك البحرية التي تربط بين جبهة القتال وقواعده لذلك أحسن مقابلة رسل قسطنطين ولايَنَهم في القول ووعدهم بالنظر في طلبهم، وما إن عاد السلطان إلى أدرنه، حتى أمر بإلغاء الراتب الذي خصّص لأورخان، وأخذ يعدُّ العُدَّة لحصار القسطنطينية والقضاء على هذه المدينة التي ما فتئت تهدد الدولة العثمانية من حين إلى حين لقد كان محمد الفاتح مع والده مراد الثاني في حرب الصليبيين، فشهد بنفسه الهلع الذي انتاب المسلمين عندما سمعوا بأنَّ جموع الصليبيين قد أحاطت بهم من البر والبحر، وسمع والده السلطان مراد قبل معركة (وارنه) يقسم: "لئن كشف الله عني هذا البلاء؛ لأزحفنَّ لساعتي إلى القسطنطينية"، وقد برَّ بيمينه فزحف إليها وحاصرها ولكن وسائله لم تعنه على فتحها. ولم يكن للسلطان مراد وهو شيخ كبير من العزم والقوة والمصابرة ما لابنه محمد، فكرَّر له قبل وفاته وصاة جدّه عثمان بفتح القسطنطينية، وأدرك السلطان الفاتح نفسه بأنه لن يستقر له أمن ولا طمأنينة ما بقيت القسطنطينية العاصمة الطبيعية لإمبراطوريته في يد أعدائه.

لقد عانى العثمانيون ما عانوا من الدولة البيزنطية، وحين عجزت بيزنطة عن منازلتهم في ميادين القتال، عمدت إلى منازلتهم بالدسّ والمكيدة والفتنة، فهي تارةً تثير عليهم أمراء آسيا في الشرق، وتارة تؤلّب عليهم أمراء الغرب، وتارة تحرّض عليهم هؤلاء وهؤلاء وتغريهم بقتال العثمانيين.

ولم ينسَ محمد الفاتح أنَّ بيزنطة هي التي حرَّضت تيمورلنك على قتال آبائه وأجداده، فسبَّبت ما نزل بالدولة العثمانية من نكبة وبلاء.

ولم ينسَ أنَّ القسطنطينية تفتح أبوابها لكل خارج على الدولة العثمانية، كما كانت تعتقل الأمراء (العثمانيين) وتحبسهم لديها، ثم تهدّد بهم السلاطين العثمانيين وتطلقهم في اللحظة المواتية، وتجر على الدولة العثمانية بذلك حربًا أهلية دامية.

وهو يعلم أنَّ طريق الاتصال بين الجزء الآسيوي من الدولة العثمانية والجزء الأوروبي منها تسيطر عليه القسطنطينية، وفي وسعها قطعه أو عرقلته، ولم يكن للعثمانيين أسطول يؤمّن لهم السيادة في بحر (مرمره)، وطالما هدَّدت القسطنطينية الجزء الأوروبي من الدولة العثمانية بالخطر الداهم، فكانت هذه المدينة شوكة في جسم الدولة العثمانية وخنجرًا مسمومًا لطعنها من الخلف في أخطر الظروف والأحوال كان لا بدَّ من وضع حدٍّ نهائي لمشكلة القسطنطينية، وكان أمر فتحه بالنسبة للدولة العثمانية قضية حياة أو موت.

ولكن السلطان الفاتح كان ملتزمًا بعهدٍ قطعهُ على نفسه في بداية حكمه لقسطنطين: أن يسالمه ولا يحاربه إذا التزم قسطنطين بهذا العهد. ونقض قسطنطين العهد، فتحلَّل محمد الفاتح من عهده، فندم قسطنطين ولات ساعة مندم، وشعر بما يعدّه الفاتح، فتملَّكه الفزع واستخذت قواه وكفَّ عن تهديداته، بعد فوات الأوان.

التمهيد للفتح:

كانت مجمل خطة محمد الفاتح لفتح القسطنطينية: عزلُها بقطع الاتصال بينها

وبين البلاد الأخرى، وتطويقها بقوات جسيمة، والتضييق عليها بالحصار المديد، ودكّ حصونها بالمدفعية، ثم القيام بهجوم وإدامة زخم الهجوم، حتى تستسلم المدينة، وقد توقَّع محمد الفاتح أن تهب أوروبا الصليبية لنجدة قسطنطين، فكان أول ما قام به الفاتح من استعدادات عقد اتفاقات سلمية مع البندقية والمجر والأفلاق والبوسنة وغيرها من الدول والإمارات، وعقد هدنة مع هونياد المجري لمدة ثلاث سنوات، وشرع في بناء قلعة منيعة على الشاطئ الأوروبي من البسفور بإزاء القلعة التي بناها بايزيد الأول على الشاطئ الآسيوي عند أضيق موضع من القناة، ليُحكِم بذلك إغلاق هذا الممر المائي ويحول دون وصول أي مساعدة قد تأتي من اتجاه البحر الأسود، وكانت القلعة الجديدة مواجهة لأسوار القسطنطينية وعلى بعد نحو خمسة أميال من تلك الأسوار، وقد استقدم الفاتح مواد البناء وآلاف العمال والبنّائين من جميع أنحاء ممالكه، واشترك بنفسه مع كبار رجال دولته والقضاة والفقهاء في أعمال البناء، فخلعوا ملابسهم الزاهية الثمينة وانتشروا بين العمال وزاحموهم بمناكبهم في نقل الأتربة والأحجار ومواد البناء.

وازدادت مخاوف قسطنطين واشتدَّ هلعه وتبخّر غروره، فلم يعد يطالب بمضاعفة نفقات الأمير أورخان، بل بعث إلى السلطان الفاتح يتضَّرع ويلتمس منه أن يكفّ عن بناء القلعة! وأجاب الفاتح رسل قسطنطين: "ليس فيما أقوم به ما يهدِّد مدينتكم، إنما هي أسباب الحيطة أَتَّخِذها لدولتي، وليس في ذلك أي نقض للعهد. إن لكم القسطنطينية بأسوارها، وليس لكم وراء ذلك من شيء! هل نسيتم ما انتاب والدي من الفزع عندما تحالف إمبراطوركم مع المجر وأراد منعه من عبور البحر إلى أوروبا، وسدَّت سفنه المضيق، فاضطرَّ مراد أن يستعين بالجنويين؟ لقد كنت حينذاك في أدرنه، وكنت لا أزال فتىً يافعًا، وقد ارتعد المسلمون من الخوف والفزع، وكنتم تسخرون منهم وتشتمون. لقد أقسم والدي في موقعة (وارنه) ليقيمنَّ قلعة هٰهنا على الشاطئ الأوروبي، وها أنذا أبرّ بيمينه وليس لكم الحق أو

القوة في منع ما أقوم به الآن في أرضي، فإنَّ كلا الشاطئين لي. أما الشاطئ الآسيوي فلأنه يسكنه المسلمون، وأما الشاطئ الأوروبي فلأنَّ الروم قد هجروه، وأنتم لا تقدرون على الدفاع عنه. اذهبوا إلى سيدكم وأخبروه أن السلطان العثماني الآن يختلف عن أجداده، فإنَّ لي عزمًا فوق عزمهم، وقوة فوق قوتهم انصرفوا الآن إلى دياركم بسلام، ووالله ما جاءني أحدٌ منكم بعد ذلك بمثل هذه الرسالة إلا قتلته" ولم تمضِ ثلاثة أشهر حتى تمَّ بناء هذه القلعة الضخمة الجبَّارة، في شكل مثلث سمك جدارها عشرون قدمًا، في كل زاوية منها برج ضخم مغطًّى بالرصاص سمكه اثنان وثلاثون قدمًا. ونصبت على الشاطئ مجانيق ومدافع ضخمة وقد صوَّبت أفواهها على القناة تمنع السفن من المرور، ومن ثمّ سمّيت هذه القلعة الجديدة: (بوغاز كسن) أي قاطع البوغاز، وعرفت بعد ذلك بـ (روملي حصار) أو قلعة الروملي، ووقفت أمام أختها القلعة التي بناها (بايزيد) على الشاطئ الآسيوي والتي تدعى: (كوزل حصار) أي القلعة الجميلة أو (أناطولي حصار) التي أمر الفاتح بترميمها وتقويتها، وقد تمَّ بناء هذه القلعة الجديدة في شعبان سنة ست وخمسين وثمانمائة هجرية كان الهدف من بناء هذه القلعة الجديدة إلى جانب سيطرتها على مدخل البسفور، أن تكون قاعدة عسكرية لعملياته الحربية في أوروبا ومستودعًا لمواد التموين وللأسلحة والذخيرة.

وتولىّ قيادة القلعة (فيروز آغا) وبإمرته أربعمائة من قوات الانكشارية، وكانت أوامر السلطان لهذه الحامية واضحة صريحة جازمة: ألَاّ يسمح لأية سفينة أجنبية بالمرور إلا بعد تفتيش دقيق ودفع الضريبة المقرَّرة، وإن أبت أن تطيع أطلقت عليها النيران وأغرقت.

وفي اليوم الثاني عشر من شعبان سنة ستٍ وخمسين وثمانمائة هجرية قصد الفاتح على رأس قسم من قواته تعدادها خمسين ألف جندي القسطنطينية ، ثم عاد

بعد ثلاثة أيام إلى (أدرنه)كان هدفه من هذه العملية: استطلاع أسوار وأبراج المدينة واختبار مدى قوتها واستعدادها،ومن المؤكَّد أنَّ الفاتح كانت لديه معلومات مفصَّلة عن الأسوار المحيطة بالقسطنطينية والأبراج الموجودة فيها، ولكنه أراد أن يكمل تلك المعلومات باستطلاعه الشخصي، وأن يؤثِّر في معنويات الروم ويبلبل أفكارهم، فلا يعرفون بصورة أكيدة: أيريد حقًا فتح المدينة، أم يريد تهديدهم، ومضى الفاتح يكمل معدَّاته للحصار، لأنَّه أدرك أنه سيكون حصارًا طويلاً شاقًّا، ولكي يتم عزل القسطنطينية ويحكم تطويقها.

بعث قائده (طرخان) في شهر شوال إلى (المورة) لمناجزة حاكمَيْها توماس وديمتريوس ومنعهما من مساعدة أخيهما قسطنطين إمبراطور القسطنطينية، كما أرسل فريقًا من قواته لتطهير المناطق المجاورة لهذه المدينة،وبذلك أكمل الفاتح الأقسام التمهيدية من خطة فتح القسطنطينية، ومن الواضح أنه كان معنيًّا باستكمال أدق الاستحضارات، فلا يترك ثغرة قد تؤدي إلى إخفاقه في فتح المدينة كما أخفق آباؤه وأجداده من قبل،وأقبل الشتاء، فاغتبط قسطنطين بذلك، وظن أنَّ البرد سيعوق الاستعدادات الحربية للعثمانيين، وبعث قسطنطين إلى الفاتح يحاول صرفه عما هو بسبيله، فقال الفاتح للرسل: "إذا كان إمبراطوركم يخشى الحرب، فليسلّم لي القسطنطينية، وأقسم أن جيشي لن يتعرَّض لأحد في نفسه أو ماله، ومَن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام، ومَن شاء رحل عنها وذهب لما أراد في أمن وسلام أيضًا". وأيقن قسطنطين ألَاّ مناص من الحرب، فحاول تخريب قلعة التي بناها الفاتح، ولكن العثمانيين تصدَّوا للروم وردُّوهم على أعقابهم، وحدثت بعد ذلك مناوشات بين العثمانيين والروم، كما نشب القتال في بعض القرى المجاورة للقسطنطينية بين الطرفين هلك فيه كثير من الروم، وأحكم الفاتح الطوق على القسطنطينية، فاشتدَّ الذعر بقسطنطين، وأمر بإغلاق أبواب المدينة، وقبض على جميع من فيها من رعايا العثمانيين، وكان فيهم قسمٌ من غلمان السلطان الفاتح،

فأطلق قسطنطين سراحهم وردَّهم إلى سيدهم وبعث معهم رسالة خطية إلى السلطان محمد يقول فيها: "لما كان من الجليّ أنّك تريد الحرب أكثر من السلام، ولما كنتُ غير مستطيع أن أقنعك بإخلاصي واستعدادي لأن أكون لك تابعًا، لذا فالأمر لله، وسأوجّه وجهي إلى الله، فإذا كانت إرادته تقضي بأن تصبح هذه المدينة مدينتك، فلا مردَّ لقضاء الله وقدره،وأما إذا ألهمك الرغبة في السلام، فسأكون سعيدًا ما بقيت، ومع ذلك فإني أعفيك من كلّ تعهداتك واتفاقاتك معي، وسأغلق أبواب هذه المدينة وأدافع عن شعبي إلى آخر قطرة من دمي ... ".

*** محاولات قسطنطين:**

وجدَّ قسطنطين في إصلاح أسوار المدينة وأبوابها وتكديس المواد التموينية والأسلحة والعتاد وإعداد قواته المسلحة للقتال، وبعث إلى الغرب مرة أخرى يستغيثه ويستنجده، وأعلن في رسالته للبابا أنه قد قبل ما قرَّره مجمع فلورنسة في توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وطلب إليه أن يرسل مَن ينفِّذ ذلك، واستعجله في إرسال المعونة والنجدة. ولم يكن موقف ملوك الغرب وأمرائه تجاه القسطنطينية في هذه المرة خيرًا من موقفهم من قبل، فقد شغلتهم منازعاتهم ومشاكلهم الخاصة عن تلبية استغاثة قسطنطين، وكان للاختلافات الطائفية بين الكنيستين الشرقية والغربية أثر في سكوت حكام الغرب عن نجدة البيزنطيين، ومع ذلك بدأت قوات رمزية بسيطة ترد إلى القسطنطينية، قد لا يكون لها أثر مادي على سير المعركة، ولكن كان لها أثر معنوي لا شكَّ فيه، خاصة في سكان المدينة الذين استبدَّ بهم الخوف والهلع من مصيرهم المرتقب فقد جاءت سفينتان من البندقية استطاعتا أن تمرقا إلى البسفور وتلقيا مراسيهما في القرن الذهبي.

وجاء الكاردينال (إيزيدور) مبعوث بابا روما ومعه مئتا مقاتل لنجدة المدينة ولإتمام توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وتبعته ثماني سفن من جزيرة (كريت)

تحمل النبيذ للمحاصَرين.

ثم جاء المغامر الجنوي (جون جستنيان) على سفينة محمَّلة بالمؤن والذخائر، ومعها سفينة أخرى، وكان معه سبعمائة مقاتل. وقد استقبله الإمبراطور استقبالًا رائعًا وعيَّنه قائدًا عامًا للقوات المدافعة عن القسطنطينية وصل القسطنطينية في ١٨ محرَّم سنة ٨٥٧ هـ وبدأ القائد العام الجديد ينظّم أمر الدفاع عن القسطنطينية، فوضع مدافعه الصغيرة على الأسوار، وقسَّم المدافعين على حسب شعوبهم وأجناسهم، وخصص لكلٍّ واجباته، وقام بتدريب الرهبان والمدنيين الذين يجهلون فنّ الحرب وليس لديهم من وسائلها إلا الحماسة لها، والرغبة في قتال المسلمين، لإنقاذ مدينتهم وسكانها والتضحية بأرواحهم فداءً لها.

وخصص الإمبراطور لجون جستنيان وأتباعه مهمة الدفاع عن النقط الخطيرة والأبواب المهمة، وكان جون مقاتلًا مغوارًا ذائع الصيت في الشجاعة والمهارة في فنون القتال، وقد جاء من تلقاء نفسه للدفاع عن القسطنطينية عندما علم بما حاق بها من خطر، فوعده قسطنطين بأن يكافئه بجزيرة من جزر الأرخبيل إذا ما صدَّ الأتراك ونجت القسطنطينية من أخطارهم.

لقد تمخَّضت دول أوروبا، فولدت نحو ألف مقاتل نجدة للقسطنطينية، وقرَّر قسطنطين الاعتماد على نفسه وعلى مناعة القسطنطينية للدفاع عنها، كما قرَّر وضع سلسلة لإغلاق ممر القرن الذهبي أمام السفن المعادية سد مدخل القرن الذهبي ، تبدأ من طرف المدينة الشمالي وتنتهي عند حي (غلطه)، تلك المدينة الجنوبية المستقلة التي ترك لسكانها أمر حمايتها عند طرفها الشمالي، وهذه السلسلة هي التي وقفت أمام الأسطول العثماني وعملت على حماية السفن البيزنطية التي تجمَّعت وراءها، وكان لها شأن كبير ودور هام في الدفاع عن المدينة المحاصَرة.

❋ إكمال الإعداد:

في خلال ذلك كان محمد الفاتح في عاصمته (أدرنه) يضاعف أهبته بعزم لا

يعرف الكلل، وكانت قواته المسلحة تحشد في العاصمة التي أصبحت معسكراً كبيراً، وقد تجمَّع فيها الجنود العثمانيون من آسيا وأوروبا من النظاميين والمجاهدين، وكانت حماسة الجيش العثماني للقتال عظيمة، وكان رجاله يعتقدون بأنهم يؤدُّون مهمة سامية في الحياة ويقومون بحرب مقدَّسة يبتغون من ورائها المثوبة من الله وينتظرون نصره، يشاركهم الشيوخ وعلماء الدين ويشدُّون أزرهم ويستثيرون روح الجهاد والتضحية في الجند.

وفي تلك الأثناء حضر إلى الفاتح المهندس المجري (أوربان) وهو أمهر صانع للمدافع في زمانه، وكان قد طاف ببعض بلدان أوروبا وعرض صناعته على بعض ملوكها، فلم يصغِ إليه أحد. وقصد هذا المهندس القسطنطينية ولبث هناك زمنًا يعرض خدماته على قسطنطين، غير أن الإمبراطور ضنَّ عليه بالمال، وفرَّ أوربان إلى محمد الفاتح الذي استقبله استقبالًا حسنًا، وبالغ في الحفاوة به، وفتح له أبواب خزائنه وغمره بالمال والعطايا، وعرف كيف يستغله أحسن استغلال، وسهَّل له كل الوسائل لإتمام إنتاج المدافع، ووضع تحت تصرفه ما طلبه من آلات وعمَّال فنيين، وسأله السلطان: "هل يمكنك أن تصنع مدافع أضخم من التي صنعتها حتى الآن"؟ وأجاب أوربان: "في استطاعتي أن أصنع لك مدفعاً يدكّ أسوار القسطنطينية ولو كانت في مناعة أسوار بابل، غير أني مهندس ولست جنديًا فلا أعرف أين توضع المدافع".فضحك محمد الفاتح وقال: "أنا الجنديّ ما عليك إلاّ أن تصنع المدافع التي أريدها، أما أين توضع وكيف تصوَّب، فدع ذلك لي".

وشرع أوربان في صنع المدافع، يعاونه في ذلك المهندسان التركيان صاربجة ومصلح الدين، ويشرف عليهم السلطان بنفسه،وبعد ثلاثة أشهر صنع المدافع التي طلبها منه الفاتح، وكان من بينها مدفع ضخم عملاق لم يُرَ مثله قطّ في ضخامته وكبر حجمه، يزن سبعمائة طن وتزن القنبلة الواحدة التي يطلقها هذا المدفع اثني

عشر ألف رطل، ويجرّه مئة ثور يساعدها مئة من الرجال الأشداء يزحفون به زحف السلحفاة. وعندما أُريد تجربته لأول مرة في أدرنه أنذر السلطان سكان المنطقة، فسمع دويّه على بعد ثلاثة عشر ميلاً، وسقطت قذيفته على بعد ميل، وغاصت في الأرض ستة أقدام. وقد قطع هذا المدفع الطريق من أدرنه إلى مربضه أمام أسوار القسطنطينية في شهرين، وهو طريق يقطع عادة في يومين!!.

وصنع أوربان إلى جانب هذا المدفع الضخم الذي دعوه بـ (المدفع السلطاني) لأنه سلطان المدافع، مدافع أخرى من عيارات مختلفة، فأصبحت بذلك قوة المدفعية العثمانية متفوّقة على قوى المدفعية كلها في العالم، وكان لهذا التفوُّق أثره الحاسم في فتح القسطنطينية وفي فتوح العثمانيين في أوروبا وغيرها في أيام محمد الفاتح وخلفائه من بعده ورأى السلطان الفاتح أنَّ الطريق إلى القسطنطينية من ناحية الدردنيل لا تزال مفتوحة، تدخل منها السفن المعادية وتخرج في حرية تامة، فأمر بالإسراع في بناء سفن جديدة وإصلاح السفن القديمة وحشدها في بحر مرمرة لمنع أي سفينة معادية من تموين القسطنطينية، وقد بلغ عدد هذه السفن على اختلاف أنواعها وأحجامها أربعمائة سفينة، كان المسلَّح منها تسليحاً تامًا اثنتي عشرة سفينة فقط.

وفي يوم الجمعة العشرين من شهر ربيع الأولى سبع وخمسين وثمانمائة هجرية كان الفاتح قد أتمَّ استعداداته العسكرية: طهَّر المنطقة المحيطة بالقسطنطينية من العدوّ وسيطر عليها وضمن عدم معاونة الدول الصليبية القريبة من القسطنطينية لها عند نشوب القتال، وكدَّس الأسلحة والعتاد والذخيرة والقضايا الإدارية وسيطر على المنافذ المائية للقسطنطينية، وحشد القوات المسلَّحة النظامية وغير النظامية، وحرَّض قوَّاته على القتال، وبثَّ فيهم روح الجهاد، ورفع معنوياتهم بالعقيدة الراسخة المستمدَّة من تعاليم الدين الحنيف.

الزحف:

زحف محمد الفاتح بجيشه إلى القسطنطينية، وما إن وصل إلى مشارف المدينة حتى خطبهم خطبة بليغة حثَّهم فيها على الجهاد وصدق القتال، وقرأ عليهم في ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المبشّرة بفتح القسطنطينية، وأبان لهم أي أجر يحوزون بفتحها الذي سيعزّ الإسلام ويرفع قدره بين الأمم. وكان في طليعة الجيش: الشيوخ والعلماء يتقدَّمهم الشيخ آق شمس الدين والمولى أحمد الكوراني والمولى خسرو والأشراف من آل بيت النبي ﷺ، وكان الجميع يدعون الله أن ينصر جيش المسلمين ويبيّض وجوه المقاتلين.

وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شهر ربيع الأولى سبع وخمسين وثمانمائة هجرية بلغ الجيش الإسلامي أمام أسوار القسطنطينية، وكان منظرًا من أروع ما روى التاريخ: جموع زاخرة من الجند بين مشاة وخيّالة ومدفعية وهندسة ... إلخ ... بأعلامهم الخفَّاقة المزهوة، وقوافل النقلية مثقلة بمواد التموين والعتاد والذخيرة. واختلطت صيحات الرجال بصهيل الخيل، [وعلا] التكبير، وكانت تعلو رءوس الناس عمائم بيض هي عمائم العلماء. ولما آن وقت صلاة الظهر نشر السلطان سجادته واستقبل القبلة وكبّر للصلاة وكبّر الجيش اللجب في صوت جهير رهيب وراء إمامه وقائده،وشرع السلطان بعد ذلك يتأهَّب لحصار القسطنطينية، فعبَّأ جنده ونظَّمه ووزَّع العدد والآلات، ووضع كل شيء في موضعه ونسَّقه تنسيقاً يدلّ على براعته الفائقة في الفنون العسكرية.

❋ الحصار

وفي اليوم التالي، يوم الجمعة السابع والعشرين من ربيع الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة هجرية بدأ حصار القسطنطينية.

ولكي ندرس خطة الفاتح في الحصار، لا بدَّ لنا من معرفة طبيعة المدينة

المحاصَرة وأبرز عوارضها الطبيعية والصناعية - بخاصة التي سيرد ذكرها في عمليات الحصار والفتح.

مدينة القسطنطينية مثلثة الشكل، جانب منها على بحر (مرمرة) وجانب على ميناء القرن الذهبي، ويمتدّ على طول كلٍّ منهما سور واحد. أما الجانب الثالث فيقع في الجهة الغربية ويصل المدينة بأوروبا وحوله خطان من الأسوار طولها أربعة أميال يمتدَّان من شاطئ بحر (مرمرة) إلى شاطئ القرن الذهبي، يبلغ ارتفاع السور الداخلي منهما نحو أربعين قدمًا، وقد دُعِمَ بأبراج طولها ستون قدمًا، والمسافة بين كلّ برج وآخر نحو مئة وثمانين قدمًا. ويبلغ ارتفاع السور الخارجي نحو خمسة وعشرين قدمًا، وقد حُصّن بأبراج شبيهة بأبراج السور الداخلي، وإن كانت أصغر حجمًا من الأولى قليلًا، وهذا السور الخارجي وحده كان من القوة والمناعة بحيث يكفي لحماية أي مدينة من مدن العصور الوسطى. وبين هذين السورين: الداخلي والخارجي؛ أرض مكشوفة متوسط عرضها نحو خمسين أو ستين قدمًا. ويقع أمام السور الخارجي سور ثالث ليس بذي خطر، يسهل اقتحامه ويمكن أن نطلق عليه: متراسًا، وبين السور الخارجي والمتراس أرض مكشوفة أيضًا، أمامها مباشرة خندق واسع يبلغ عرضه نحو ستين قدمًا، ويعتبر هذا الخندق الخط الدفاعي الأمامي عن القسطنطينية،وللسور الخارجي أبواب كثيرة، والتي جاء ذكرها في أثناء الحصار هي: باب (أدرنه)، وباب المدفع (طوب قبو) وكان القدماء يسمُّونه باب القدّيس رومانوس، والباب العسكري.لقد خُلقت القسطنطينية صالحة للدفاع عنها إلى أبعد الحدود برًّا وبحرًا، لذلك استعصى فتحها على الغزاة عبر القرون الطويلة،وعوارضها الطبيعية والصناعية، جعلت من الميسور الدفاع عنها بقوات صغيرة بالنسبة لقوات المهاجمين.

لذلك كانت مهمة محمد الفاتح في فتح القسطنطينية شاقة وعسيرة، فلا عجب أن يبذل ما بذله من جهود جبَّارة مضنية إعدادًا لقواته المسلَّحة البحرية والبريّة على

حدٍّ سواء، وفتح خزائنه على مصراعيها لإكمال استعداداته العسكرية، حتى ينهض بهذا الواجب الشاق العسير.

كانت خطة الفاتح لحصار المدينة تتلخَّص بتقسيم قوَّاته إلى ثلاثة أقسام:

أ) الميمنة، وتتألف من جنود الأناضول بقيادة إسحاق باشا ومحمود بك، وتمتدّ من بحر مرمرة أقصى جناحها الجنوبي إلى (طوب قبو).

ب) الميسرة، وتتألف من جنود أوروبا والمجاهدين والجنود غير النظاميين بقيادة (قره جه باشا)، وتمتدّ من ميناء القرن الذهبي أقصى جناحها الشمالي إلى باب (أدرنه) بمواجهة السور.

ج) القلب، ويتألف من جنود الانكشارية والجنود المختارة بقيادة محمد الفاتح، ويواجه الجزء الأوسط من السور الذي يمتد من (طوب قبو) إلى باب (أدرنه)، وهذا الجزء من السور يعتبر أضعف جزء فيه، إذ يقع في وادي (ليكوس)، وقد وجَّه إليه أشد الهجوم.

وقد أقام الفاتح مقرّ قيادته خلف القلب.

والواقع أن هذه الخطَّة مرنة جدّاً، إذ ولَّى كل قسم من أقسام جيشه قيادة خاصة به، وأعطى حرية العمل للقادة ضمن قواطعهم تطبيقًا للخطة العامة وتنفيذًا لتفاصيلها، ومع ذلك سيطر على زمام القيادة العليا، لتأمين التعاون الكامل بين قواته في الحصار.

ولكي يحرم القسطنطينية من معاونة الجنويين في حي (غلطه) أمر زغنوس باشا مع فرقته بالتعسكر على المرتفعات المشرفة على هذا الحي، لمراقبة الجنويين ومنعهم من إمداد المدينة المحاصَرة ومراقبة الشاطئ الشمالي من القرن الذهبي، وأمره الفاتح أن يقيم جسرًا عند نهاية الميناء لتسهيل الاتصال ونقل الجنود من إحدى الضفتين إلى الأخرى عند الحاجة، وليتمكن من الاشتراك في الهجوم على المدينة من

ناحية البر، وبذلك أصبحت فرقة زغنوس احتياطًا عامًا لقوات الفاتح بالإضافة إلى واجباتها الأخرى،ونصب السلطان أمام السور البري المدافع بالنسبة لمدياتها، فوضع ذات المدى القصير قريبة من الأسوار وحماها بالجنود والتحصينات، ووضع ذات المدى المتوسط خلفها، ووضع ذات المدى الطويل خلف المدافع الثانية، وبذلك رتَّب مدفعيته بالعمق، ووضع لها خطة مفصَّلة لقصف الأسوار. وكانت المدفعية العثمانية مؤلفة من أربع عشرة سرية مدفعية، وقد نصب المدفعية الضخمة منها مقابل باب رومانوس، ومنذ ذلك الوقت عرف هذا الباب باسم: (طوب قبو) أي: باب المدفع، وانتشرت السفن العثمانية في بحر (مرمرة) لمنع ما قد يأتي من السفن المعادية من الغرب لإنجاد القسطنطينية ومراقبة السور الواقع على بحر (مرمرة). وقد أمر السلطان قائد بحريته (بالطه أوغلي) بتطهير بحر (مرمرة) والاستيلاء على جزر الأمراء[١]، وقد استولى عليها بالطه أوغلي وانتشل منها المعتقلين والمسجونين من السجون والدهاليز المظلمة التي كانوا فيها وأطلق سراحهم، ثم وضع في هذه الجزر حاميات عثمانية، وخشي قسطنطين أن تقتحم هذه السفن ميناء القرن الذهبي وتحاصر المدينة من تلك الناحية، فقد كان السور القائم هناك أضعف الأسوار كلها، ومن هذا الجانب دخل الصليبيون القسطنطينية سنة إحدى وستمئة هجرية،فشدَّد الحراسة على هذا الميناء، كما أعدَّ قسطنطين كل ما استطاع إعداده من جند وعتاد ومواد تموينية لمقاومة هذا الحصار ومحاولة صدّه، ووزع جنوده على أسوار القسطنطينية، واتَّخذ هو مقرَّه جانب قلب الجيش العثماني ما بين باب (أدرنه) و (طوب قبو) ومعه القائد الجنوي (جستنيان) الذي ولّاه منصب قائد الدفاع العام كما ذكرنا سابقاً.

---

(١) تقع هذه الجزر في وسط بحر مرمرة، وكانت منفى لأباطرة الروم وأمرائهم، لذلك سمّيت بجزر الأمراء.

وقد اختلف المؤرخون في تقدير الجيش العثماني، فالمؤرخون البيزنطيون القدامى يبالغون في تقديره ويرفعونه إلى ثلاثمائة ألف مقاتل أو أربعمائة ألف مقاتل. ومن الواضح – كما قال (مازاس) –: "إنَّ هؤلاء المؤرخين يبالغون في تعداد الجيش العثماني بقصد تهوين شأن الهزيمة التي نزلت بالروم"وتهوين شأن النصر الذي أحرزه العثمانيون. ويقدِّر قسم من المؤرخين الغربيين الجيش العثماني بمائة وخمسين ألفاً أو مئة وستين ألفاً وهو تقدير أقرب إلى الاعتدال، وإليه ذهب قسم من المؤرخين العثمانيين أنفسهم.

أما المدافعون عن القسطنطينية، فقد اتفق الكتَّاب المعاصرون من الروم على وجه يشبه الإجماع على تقديرهم بثمانية آلاف مقاتل، ويكاد يُجمع المؤرخون الأوروبيون المحدثون على الأخذ بهذا التقدير، وقدَّروا أنَّ نصف هؤلاء المدافعين من الروم، والنصف الآخر من اللاتين.

أما مؤرخو الأتراك المحدثون، فيستبعدون هذا التقدير ويستقلُّونه ويرونه نوعًا من الاعتذار للروم عن هزيمتهم، وهم يعدُّون عدد المدافعين بما لا يقلّ عن ستين ألفًا،والواقع أن تقدير الروم عدد المدافعين بثمانية آلاف مقاتل ليس معقولاً، إذ شارك في الدفاع عن القسطنطينية حتى الرهبان والقسس وغيرهم من المدنيين دفاعًا عن دينهم أو حمية، كما أن المدينة المحاصَرة استوعبت كل الروم الذين أجلوا عن مدنهم وقراهم التي فتحها العثمانيون قبيل فتح القسطنطينية وتكدَّسوا داخل المدينة المحاصَرة.

فإذا قدَّرنا عدد الروم في القسطنطينية بما لا يقل عن نصف مليون نسمة، فإن الجيش المدافع عنها لا يقل عن خمسين ألف مقاتل، لأن القاعدة العسكرية تنصّ على أن القادرين على حمل السلاح من مجموع السكان يبلغ عشرة بالمئة.

والقاعدة العسكرية في قتال المدن، تنصّ على أن نسبة المهاجم إلى المدافع تكون

ثلاثين للمهاجم وواحدًا للمدافع، نظرًا لاحتماء المدافع بالحصون والقلاع والأسوار والأبنية والشوارع والمزارع والبساتين، فإذا قدَّرنا عدد المدافعين من الروم بما لا يقل عن خمسين ألف مقاتل، فإن انتصار العثمانيين عليهم وهم بين ثلاثمائة ألف مقاتل وأربعمئة ألف مقاتل يعتبر مفخرة للعثمانيين، لأن نسبة المهاجمين إلى المدافعين لا تزيد على ستة على واحد أو ثمانية على واحد في أكثر تقدير.

تلك هي الحقيقة، أما الدفاع عن هزيمة الروم بشتَّى المعاذير، فلا سند له نتيجة للدراسة العسكرية الفنية.

❋ المناوشات:

أخذت المدفعية العثمانية تقصف أسوار القسطنطينية ليلًا ونهارًا، وكان لاصطدام القنابل بالأسوار دويٌّ هائل يملأ نفوس سكان القسطنطينية رعبًا وهلعًا وبخاصة في ساعات الليل الهادئ البهيم، وقد أثَّر ذلك في معنويات المحاصَرين تأثيرًا سيئًا، واستبسل الفريقان، فكان المدافعون يبادرون فورًا إلى إصلاح ما يصيب الأسوار من عطب، بينما يندفع العثمانيون بين الحين والحين بكلّ بسالة وإقدام لاقتحام الأسوار، واستطاعت المدفعية العثمانية أن تهدّ جزءًا من السور الخارجي عند وادي (ليكوس)، فاندفع العثمانيون نحو الثغرة وتسلَّقوا السور بالسلالم، وقذف (جستنيان) بجميع جنوده المدرَّعين إلى موضع الثغرة، فاشتدَّ القتال بين الطرفين وانهمرت السهام والنبال من كل جانب حتى حل ظلام الليل، فأمر الفاتح رجاله بالانسحاب بعد أن استحصل على مزيد من المعلومات عن الروم.

وفي نفس ذلك اليوم، حاولت بعض السفن العثمانية تحطيم السلسلة القائمة على مدخل ميناء (القرن الذهبي) واقتحامه، ولكن سفن الروم والطليان التي كانت أكثر ارتفاعًا من السفن العثمانية الصغيرة القصيرة، استطاعت صبّ قنابلها ونيرانها على السفن العثمانية وصدّها بعد تكبيدها خسائر بالأرواح والسفن.

هذان النصران التعبويان في البرِّ والبحر، رفعا معنويات المدافعين عن القسطنطينية من جهة، وشحذا همم العثمانيين من جهة أخرى.

وفي صبيحة الجمعة أحد عشر من ربيع الأولى ظهرت في بحر (مرمرة) خمس سفن قادمة من الغرب تحمل الرجال والمعدَّات والمؤن: أربع منها بعث بها البابا وجنوا، والخامسة للأمبراطور، وكان سكان القسطنطينية يتوقَّعون وصول مثل هذا المدد ويترقَّبونه. وما إن علم الفاتح بأمر هذه السفن حتى ترك مقرَّه وأسرع على حصانه إلى شاطئ (غلطه) وأمر قائد بحريته (بالطه أوغلي) بملاقاة هذه السفن وقال له: "إما أن تستولي على هذه السفن وإما أن تغرقها، وإذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حيًّا"، وتحفَّز (بالطه أوغلي) في مجموعة من سفنه لملاقاتها وقتالها، ووقف السلطان مع رجاله على ساحل (غلطه) ينتظرون المعركة، ولكن سفن العثمانيين لم تقوَ على مصاولة السفن النصرانية الخمسة، لأن السفن العثمانية بنيت قبيل البدء في حصار القسطنطينية على عجل، فجاءت غير محكمة البناء ولا متقنة الصنع. ولم يكن هناك في السفن العثمانية غير ثماني عشرة سفينة كانت على شيء من القوة، أما سائر السفن فكانت لا تعدو أن تكون قوارب صغيرة مكشوفة مملوءة بالجند، ولم تكن مسلَّحة بالمدافع، ذلك أن العثمانيين كانوا حديثي العهد بالبحرية وأساليب قتالها، وكان الطليان في ذلك الحين سادة البحر بلا منازع. وكانت السفن النصرانية فوق ذلك محكمة البناء متفوِّقة بالحجم والقوة كاملة العدة والعتاد، وقد لبس رجالها الدروع والزرود، وأخذوا يطلقون قنابلهم ونيرانهم الفتَّاكة على القوارب العثمانية الصغيرة، وهي تحاول بمجاذيفها الخشبية مغالبة الريح الشديدة التي كانت تعوقها عن التقدُّم.

وسكنت الريح فجأة، فتوقَّفت السفن الخمس عن المسير وانكمشت أشرعتها، وكانت قد قاربت مدخل (القرن الذهبي).

وانتهز (بالطه أوغلي) هذه الفرصة، فانقضَّ بسفنه على السفن الخمس محاولًا إحراقها بالنار، ولكن سرعان ما يصبّ عليها الماء فيطفئها.

وعاود (بالطه أوغلي) الهجوم مرة بعد أخرى، حتى أصيبت إحدى عينيه. واحتدم القتال، واستقتل العثمانيون، وتساقط منهم عدد كبير من الشهداء.

وكان الفاتح على شاطئ (غلطه) يراقب المعركة بعين لا تطرف وهو لا يكاد يستقر فوق ظهر جواده، فلمَّا رأى ما حاق برجاله من قتل وسفنه من تدمير، لم يتمالك نفسه فاندفع نحو البحر حتى غاص جواده إلى صدره. وكانت السفن على مرمى حجر منه، وكان يلوّح لبالطه أوغلي بأعلى صوته: "يا قبطان ... ! يا قبطان ... ! " وكانت الشمس قد بدأت تغيب، وفجأة هبَّت الريح من الجنوب قوية فنشرت السفن الخمس أشرعتها ومرقت من بين السفن العثمانية بخفّة واندفاع وانفلتت إلى (القرن الذهبي)، حيث أنزلت السلسلة الضخمة، ثم شدَّها الروم مرة أخرى ووصلت السفن الخمس سالمة، وهكذا انتهت معركة (غلطه) البحرية بخسارة فادحة في السفن والبحارة العثمانيين، فخرج السلطان من الماء وقد ابتلَّت أطراف ثيابه وعلاها ماء البحر الممزوج بالدم، وعاد إلى معسكره وهو مُطرق في صمت رهيب.

أما سكان القسطنطينية فقد غمرتهم موجة من الفرح والاغتباط بما أحرزوه من نصر، وزاد أملهم وثقتهم في المستقبل، ولاح لهم أنهم سيهزِمون العثمانيين ويردُّونهم على أعقابهم عن أسوار القسطنطينية، أما السلطان فقد أنَّب (بالطه أوغلي) وعزله من منصبه وعيَّن مكانه حمزة باشا، كما استفاد الفاتح من مدفعيته، فضاعف قصفها للأسوار، في محاولة لرفع معنويات رجاله والتأثير في معنويات المدافعين عن القسطنطينية.

سفن البر:

أخذ السلطان يفكِّر في خطة تؤدي إلى إدخال سفنه في القرن الذهبي للسيطرة

على هذا الميناء وحصار القسطنطينية من أضعف جوانبها وإضعاف الدفاع عن السور البري وتشديد المراقبة على سكان مدينة (غلطه) من الجنويين الذين يعملون بوجهين: وجهٌ معه ووجهٌ مع أعدائه، ثم تسهيل المواصلات مع قاعدته في (روملي حصار).

وقد حاولت السفن العثمانية مرات عديدة تحطيم السلسلة الضخمة القائمة عند مدخل الميناء فلم توفَّق، وكان أحد طرفي السلسلة يقع في شاطئ (غلطه) مدينة الجنويين، وكانت العلاقة بينهم وبين السلطان علاقة سلام وإن كانوا يميلون بعواطفهم إلى الروم ويتمنَّون لهم النصر.

ولاحت للسلطان فكرة بارعة هي نقل السفن العثمانية من مرساها في (بشكطاش) إلى (القرن الذهبي)، وذلك بجرِّها على الطريق البرّي الواقع بين الميناءين مبتعدًا عن حيّ (غلطه) خوفًا على سفنه من الجنويين، كانت المسافة بين الميناءين نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضًا مبسوطة سهلة، بل كانت وهادًا وتلالًا.

وأمر الفاتح فعبّدت الأرض وسوِّيت، وأتى بألواح خشبية دُهنت بالزيت والشحم ورصفت على الطريق الممهَّد لها بطريقة تسهل انزلاق السفن عليها وجرّها، واختار السفن الخفيفة وأمر بتزليقها على هذه الألواح المدهونة فنشرت أشرعتها وجرّها العمّال فسارت وكأنَّها تجري على البحر.

وكان أصعب جزء من الطريق هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة، إلَاّ أنَّه بصفة عامة كانت السفن العثمانية صغيرة الحجم خفيفة الوزن نسبيًا وقد تمَّ للسلطان نقل السفن في ليلة واحدة، وكان مجموع ما نُقل في تلك الليلة سبعين سفينة نقلت من البسفور إلى القرن الذهبي عبر الطريق البرّي.

وقد صرف الفاتح أنظار الروم في القسطنطينية والجنويين في (غلطه) وهم أقرب الناس إلى اكتشاف نقل السفن، فقد نصب على الهضاب الواقعة خلف أسوار

(غلطه) كثيرًا من المدافع فقصفت ميناء (القرن الذهبي) بخاصة قصفًا مركّزًا طيلة اليوم ، وقد أصيبت إحدى سفن الروم فغرقت، كما احتمت بقية السفن بأسوار (غلطه). وفي نفس الوقت حاولت السفن العثمانية عدَّة مرَّات اقتحام السلسلة القائمة عند مدخل القرن الذهبي دون جدوى.

كما ضاعفت المدفعية القائمة تجاه السور البرّي للقسطنطينية قصفها الشديد ليلًا ونهارًا.

وقد نجحت هذه الخطة في صرف انتباه الروم والجنويين عما كان يجري من نقل السفن برًّا، لذلك لم يحاول أحد عرقلة نقلها بهجوم مضاد أو قصف بالمدفعية.

كانت هذه الخطة الجريئة الحصيفة مباغتة كاملة للروم، مع أن فكرة نقل السفن برًّا فكرة قديمة استخدمت في الماضي، ولكن تطبيقها وتنفيذها بهذه السرعة وبهذه الدقة وبهذا الكتمان جعلها مباغتة للروم أثَّرت في معنوياتهم أسوأ تأثير.

فقد استيقظ أهل القسطنطينية في الصباح على صيحات المسلمين: "الله أكبر ... الله أكبر"، عقب نزولهم في ميناء (القرن الذهبي)، وأطلُّوا من فوق أسوارهم ليروا تحت أعينهم سبعين سفينة عثمانية في الميناء برجالها ومعدَّاتها، فانتابهم الهلع والفزع وانهارت معنوياتهم انهيارًا شديدًا.

ودفعت السفن العثمانية إلى أعلى الميناء حيث الماء ضحضاح وتحميها القوات البرية العثمانية من الضفتين، فلا تجرؤ السفن المعادية الراسية في الميناء على الدنوّ منها، وأمر السلطان الفاتح بعد ذلك بأن يُبنى جسر عائم، فجمعت الصفائح والصناديق الخشبية وشُدّت ببعضها بالكلاليب والحبال الضخمة، وثبتت عليها ألواح من الخشب، ثم نُصبت عليها المدافع لقصف الجانب المواجه للميناء من أسوار القسطنطينية، فأصبحت سفن الروم في (القرن الذهبي) مطوَّقة من جانبين بالسفن العثمانية: من أعلى الميناء ومن خارجه أيضًا، وهي لا تكفُّ عن محاولة تحطيم السلسلة القائمة عند مدخله، فأصبحت السفن النصرانية بذلك في خوف

دائم وحذر شديد.

❋ القتال البحري:

واضطر قسطنطين أن يضع في جانب السور المشرف على ميناء (القرن الذهبي) عددًا مناسبًا من الجنود لحمايته ومراقبة السفن العثمانية. ثم دعا (جستنيان) وبعض كبار رجال الجيش واجتمع بهم في كنيسة (سانت ماري) وشاورهم في أمر السفن العثمانية التي استقرَّت في ميناء القرن الذهبي، فأجمع رأي المؤتمرين على وجوب التخلُّص منها وذلك بمباغتتها ليلًا وإحراقها وأخذ (جاكومو كوكو) من أهل البندقية على نفسه قيادة هذه الحملة التدميرية، فتسَّرب الخبر إلى الجنويين في (غلطه) فأبلغوه إلى السلطان الفاتح. وفي نفس الوقت أرسلوا وفدًا إلى المؤتمرين طالب قسطنطين بعدم الاستعجال في أمر خطير كهذا، وأن يشاركوهم في الحملة التدميرية بشرط أن تؤجَّل العملية يومًا واحدًا، ليكونوا يدًا واحدة على العثمانيين.

وقبل قسطنطين ما عرضه وفد الجنويين عليه، وتأجَّل تدمير السفن العثمانية إلى ليلة أخرى.

وفي يومٍ بعث الجنويون مرة أخرى إلى السلطان الفاتح يخبرونه بما تمّ بين المؤتمرين، فحشد الفاتح من فوره عددًا من الجند ومعهم المدافع والأسلحة الكافية لاقتناص السفن المعادية.

وفي الهزيع الأخير غادرت السفن النصرانية ميناء (غلطه) للانقضاض على السفن الإسلامية، وكان الليل حالك السواد، فلم تكد السفن النصرانية تقلع وتبدأ الإبحار حتى لمح بعضهم نارًا تُضاء في قمة برج (غلطه) كأنما تنذر العثمانيين بإقلاع السفن لتنفيذ الخطة التدميرية.

ومضت السفن النصرانية في سيرها، فلما قاربت الهدف أبى القائد البندقي إلا أن يكون له السبق في تدمير السفن العثمانية، فدلف بسفينته إلى الأمام. ولم تكد

تتقدَّم خطوات أخرى إلى الأمام باتجاه السفن العثمانية، حتى دهمتها قنبلة ضخمة أعقبتها قنبلة أخرى مماثلة ففلقتها وابتلعها اليمُّ في لمح البصر بمن فيها وما فيها. ولم تعلم السفن الأخرى في الظلام الدامس بما حل بسفينة (كوكو)، ولعلَّها اعتقدت أنه هو الذي أطلق قنابله على السفن العثمانية، فدلفت سفينة أخرى إلى الأمام، ولم تكد تتقدم بضع خطوات حتى دهمتها قنبلة شديدة الانفجار فحرقتها هي الأخرى. وأسرع رجالها إلى سدِّ الثلمة وعادوا بها مسرعين، وقد أوشكت على الغرق.

وفرَّت بقية السفن الرومية مذعورة بعد ملاحقتها بالقنابل، وأسر العثمانيون قسمًا من بحَّارة السفينة الغارقة وقتلوهم، فانتقم قسطنطين لذلك وعلَّق على أسوار القسطنطينية رءوس مائتين وستين من الأسرى العثمانيين.

وجهَّز قسطنطين حملة ثانية لحرق السفن العثمانية بقيادة (جستنيان)، ولكنها لم تكن أكثر حظًّا من سابقتها وأخفقت في مهمتها.

ولم يكن من الممكن أن تظلَّ السفن العثمانية والسفن الرومية قابعة في ميناء (القرن الذهبي) بغير صدام، فما لبث أن نشبت بينهما معارك محليَّة ومناوشات يومية، وكانت سجالًا بينهما.

وفي خلال ذلك لم تتوقف المدفعية العثمانية عن إطلاق قنابلها على أسوار القسطنطينية، بينما بذل المحاصَرون قصارى جهدهم لسدّ الثغرات وتطهير الخنادق من الأنقاض.

*** تضييق الخناق:**

بدأ سكان القسطنطينية منذ أوائل شهر يشعرون بتناقص المواد التموينية داخل المدينة المحاصَرة وخاصة الخبز والنبيذ، فاضطرَّ كثير من المقاتلين أن يغادروا مواقعهم للبحث عن غذائهم وغذاء عوائلهم، وهذا أخطر ما يصادفه المحاربون في أثناء القتال، لأن المحارب الذي لا يجد ما يطعمه لا يقوى على القتال: "الجندي يمشي على بطنه"، كما يقولون، ولأن المحارب تنهار معنوياته إذا علم أنَّ مَن يعول

لا يجدون ما يَطْعَمُون، وأمر قسطنطين بأن يحمل الزاد (الطعام) إلى المقاتلين في مواقعهم، لكي لا تستهدف الأسوار لمباغتة العثمانيين، كما أمر بتوفير الطعام لعوائل المقاتلين. وسأل قسطنطين البنادقة عن أسباب تخلُّف البندقية عن إرسال النجدة والمعونة إلى القسطنطينية تنفيذًا للاتفاق بينهما ،وفي أثناء هذه الظروف القاسية فكَّر قسطنطين في إرسال سفينة لحثَّ أسطول البندقية في بحر الأرخبيل على الإسراع لمعاونة القسطنطينية، ولكن هذه السفينة التي كانت تحمل آخر أمل للعاصمة البيزنطية لم تجد أسطول البندقية فعادت خائبة حزينة.

في ذلك الحين شنَّ العثمانيون هجومًا عنيفًا على أسوار القسطنطينية، فاشتدَّ الضيق والكرب والبلاء على المحصورين. وأشاروا خاصة على قسطنطين وفي مقدِّمتهم البطريرك وجستنيان بالخروج من القسطنطينية إلى بعض الأمكنة القريبة المجاورة، ويستنجد بنفسه مَن حوله من النصارى لعلَّهم يخفُّون إلى نجدته، ولكنه رفض هذا الرأي وعزم على البقاء في عاصمته حتى النهاية، وهذا يدلُّ على انهيار معنويات قادة المحاصَرين، فلو أن قسطنطين غادر القسطنطينية لغادرها رجاله وعلى رأسهم قادته، ولكن قراره على الثبات جعلهم يثبتون.

وبعث قسطنطين رسلًا آخرين إلى إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وسائر بلاد الإفرنج يحملون الكتب إلى أمرائها وملوكها تبيّن لهم الخطر المحدق بالقسطنطينية ووجوب المبادرة إلى إرسال المعونة والنجدة قبل فوات الأوان.

وعمد الفاتح إلى تشديد الخناق على القسطنطينية من ناحية السور القائم على ميناء (القرن الذهبي).

ولما رأى أنّ السفن الرومية الكبيرة القوية الراسية في الميناء والبالغ عددها نحو ثلاثين سفينة، قد عاقت سفنه الصغيرة الموجودة هناك عن تسديد ضرباتها إلى السور، كما وقفت حارسة قوية على السلسلة التي تسد مدخل الميناء، صمَّم على

إغراق هذه السفن بطريقة جدية، فنصب على الهضاب الواقعة خلف (غلطه) مدافع جديدة ضخمة أخذت تقصف الميناء بشدَّة، وقد أصابت إحدى القنابل سفينة جنوية تجارية فأغرقتها في الحال. وذعرت بقية السفن الرومية ولاذت بأسوار (غلطه)، فأصبحت بنجوة من قصف المدفعية العثمانية.

واشتكى الجنويون إلى الفاتح من إغراق سفنهم وهم على الحياد حريصون على السلام، وكان الفاتح يعرف حقيقة أمرهم وموقفهم من القتال الدائر بينه وبين أهل القسطنطينية، فأجاب بأنه كان يجهل جنسية السفينة المغرقة وكان يحسبها تابعة للعدو، ووعدهم بالتعويض العادل فيما بعد وظلَّت السفن العثمانية تهاجم ميناء (القرن الذهبي) مرة بعد مرة، كما ظل العثمانيون من ناحية البر يهاجمون السور مرة بعد مرة، وكان الفاتح يرى من إدامة زخم الهجوم برًا وبحرًا ليلًا ونهارًا إلى إنهاك قوى المحاصَرين ماديًا ومعنويًا، حتى أرهق أعصاب المحاصَرين وأصبحت نفوسهم مرهقة مكدودة تثور لأتفه الأسباب. ونتيجة لذلك تكرر النزاع في القسطنطينية بين البنادقة والجنويين، وكثيرًا ما انتهت تلك المنازعات إلى الاقتتال في شوارعها، فيهرع إليهم قسطنطين وقد أخضلت عيونه بالدمع يضرع إليهم ويناشدهم الله إلا كفوا عن هذا النزاع والشجار، وأن ينصرفوا إلى قتال عدوهم المشترك.

وعقد قسطنطين مؤتمرًا حربيًا، فاقترح أحد رجاله مباغتة العثمانيين بهجوم شديد يستهدف بالدرجة الأولى مخازن المؤن ومستودعات السلاح والعتاد، فإن ذلك حريٌّ بإحياء العزيمة وبعث الهمة في رجاله، ولكن صرف النظر عن تنفيذ هذه الخطة لاستحالة نجاحها.

وفيما هم مجتمعون جاءهم جندي وأخبرهم بأن العثمانيين شنُّوا هجومًا شديدًا باتجاه وادي (ليكوس)، فوثب قسطنطين على فرسه وانطلق به حُضرًا حتى وصل إلى موضع الهجوم حيث كان القتال لا يزال محتدمًا على أشده بين العثمانيين والروم.

وزج قسطنطين بقواته الاحتياطية لصد هجوم العثمانيين، وذهب كثير من الناس إلى الكنائس يصلُّون ويتضرَّعون حتى مطلع الفجر عندما بلغهم انسحاب العثمانيين إلى قواعدهم، وكان ذلك في يوم الجمعة الثاني من جمادى الأولى، وفي يوم الأحد الرابع من جمادى الأولى، نقل محمد الفاتح مدافعه من هضاب (غلطه) لتساعد المدفعية الموجودة عند باب (القدّيس رومانوس)، وليضاعف قصف أضعف نقطة في السور البري. وقد قاوم المدافعون مقاومةً باسلة، وسدُّوا الثغرات التي أحدثتها مدفعية العثمانيين في السور.

*** الحرب النفسية:**

إلى جانب هذه الهجمات التي قامت بها القوات العثمانية في البر والبحر، كان الفاتح يفاجئ عدوه من حين لآخر بفن جديد من فنون القتال والحصار وحرب الأعصاب،فقد سمع المحصورون من سكان القسطنطينية ذات ليلة ضربات شديدة تحت الأرض، أخذت تعلو وتقترب شيئًا فشيئًا كأنها تتلمَّس طريقًا للخروج، وحُمِل هذا الخبر إلى قسطنطين وقادته، فخفُّوا إلى مصدر الضربات، وهناك أدرك المهندسون الروم لأول وهلة أن العثمانيين يحفرون أنفاقًا خارج السور ليدخلوا المدينة من تحت الأرض، فأمر قسطنطين أن يحفر الروم نفقًا باتجاه نفق المسلمين إلى مسافة بعيدة، حتى إذا التقى النفقان خرج العثمانيون بدورهم من نفقهم لخوض معركة، خاضوها في أرض حددها لهم العدو. وكان العثمانيون لا يعلمون شيئًا عما يدبَّر لهم، فاستمروا يحفرون بعزم ودأب. وما إن وصلوا إلى الفجوة التي حفرها الروم حتى تملَّكهم الفرح وظنُّوا أنهم اهتدوا إلى سرداب خفي يوصل إلى المدينة، ولكن فرحهم لم يطل، فلم تكد أعينهم تلمح السماء، حتى صبَّ الروم عليهم الغاز والنفط والمواد الملتهبة، فمنهم من اختنق ومنهم من احترق، ومنهم من عاد أدراجه خائبًا، ولكن هذا الإخفاق لم يفتّ في عضد المسلمين،

فعاودوا حفر الأنفاق مرة بعد مرة في مواضع مختلفة من المنطقة الممتدة بين (أكرى قبو) وشاطئ (القرن الذهبي)، إذ كانت هذه المنطقة أصلح مكان للقيام بالحفر، وظلُّوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار، وأصاب الروم من جرَّاء ذلك خوف عظيم وفزع لا يوصف، حتى صاروا يتسمَّعون بين حين وحين إلى مواطئ أقدامهم، وكثيرًا ما كان يخيِّل إليهم الخوف أن الأرض ستنشق ويخرج منها الجنود العثمانيون، ولم يكن هذا العمل سهلًا هينًا، فإنَّ هذه الأنفاق التي حفرها العثمانيون قد أودت بحياة كثير منهم ماتوا اختناقًا واحتراقًا في باطن الأرض، كما وقع كثيرٌ منهم في أيدي الروم فقُطعت رؤوسهم وقُذف بها إلى معسكر السلطان.

ولم يكد سكان القسطنطينية يستفيقون من الدهشة التي انتابتهم من أنفاق العثمانيين التي حفروها تحت مدينتهم، حتى باغتهم الفاتح باختراع جديد من وسائل الحصار تفتقت عنه ألمعيته وعبقريته الفذة؛ فقد استيقظ أهل القسطنطينية صباح يوم الأحد الثاني عشر من جمادى الأولى ، فإذا بهم يرون أمامهم قلعة ضخمة شاهقة من الخشب أكثر ارتفاعًا وسموقًا من السور الخارجي، ذات ثلاث طبقات كسيت كلها بالجلود السميكة المبللة بالماء لئلا تؤثِّر فيها النار والنبال، وكان في كل طبقة منها عدد من الجنود يحملون القذائف ومختلف معدَّات القتال، وتحمل في أسفلها التراب والأحجار والأخشاب لردم الخنادق، وفي أعلاها سلالم من الحبال عصبت أطرافها كلاليب تلقى على أعلى السور فتنشب فيه ويمر عليها الجنود كالقنطرة أو الجسر، بينما النبالة يصوِّبون نبالهم على كل مَن يظهر رأسه من السور، ولم يكن بمقدور المدافعين عن المدينة نصب مدافعهم الكبيرة على الأسوار، لأن اهتزازها عند إطلاق القنابل منها قد يزلزل الأسوار ويهدّها.

وقد هال أهل القسطنطينية أمر هذه القلعة الجبَّارة، ووقف قسطنطين ومن معه من أهل المدينة ينظرون إليها في عجب ودهشة وفزع، وقد شهد المؤرخ البندقي (باربارو) الذي شهد هذه القلعة بنفسه فقال: "لو اجتمع نصارى

القسطنطينية على أن يصنعوا مثل هذه القلعة، لما صنعوها في شهر، وقد صنعها المسلمون في ليلة واحدة بل في أقل من أربع ساعات"، وأقيمت هذه القلعة الجبارة تجاه باب القديس رومانوس (طوب قبو) الذي يدافع عنه المغامر الإيطالي (جستنيان)، فلم يعد في إمكان المحاصَرين إصلاح الثغرات الخارجية التي تدكها المدفعية العثمانية طالما هذه القلعة واقفة بالمرصاد، بل أخذت القذائف الحجرية الضخمة تنهال من هذه القلعة نفسها فدكَّت أحد أبراج السور القريبة عند (طوب قبو). واندفع المسلمون نحو هذه الثغرة، واقتربت القلعة إلى السور، وتسلَّق قسم من الجنود العثمانيين السور بالسلالم، وحمي القتال واشتدَّ الخطر على المدينة.

ولاح لقسطنطين أن الهزيمة في هذه المعركة ستؤدي إلى كارثة قاصمة، فاستبسل هو ورجاله في القتال. وطلب إحضار مواد سريعة الالتهاب تحرق كلّ ما يصادفها ولا يطفئها الماء، وأخذ المدافعون يقذفون بهذه المواد الملتهبة قلعة العثمانيين، فما لبثت أن احترقت الجلود المبللة بالماء التي تكسو القلعة والتهمتها النار، وانتهت المعركة بتحطيم أربعة أبراج وامتلاء الخندق بالتراب والحجارة، وانسحب العثمانيون بعد حلول الظلام، ونظر الفاتح إلى قلعته الخشبية التي أصبحت كومة من الرماد، فابتسم قائلاً: "غداً نصنع أربعة منها".

لقد كان الفاتح يقاتل عدوه بأسلوبين: أسلوب الحرب الاعتيادية، وأسلوب الحرب النفسية، وكان بحق كتلة من النشاط والعزم والتصميم، ومثالًا حيًا للقيادة البارعة النادرة القادرة.

*** اليأس:**

أصبح سكان القسطنطينية في همّ دائم وقلق لا ينقطع، يتطلَّعون ذات اليمين وذات الشمال وإلى فوقهم وأسفلهم، لا يدرون أين يدهمهم الخطر والهلاك.

وبات الناس في القسطنطينية على مثل هذه الحال من الخطر والتخوُّف

والتوجُّس، لا يغمض لهم جفن ولا يستقرّ بهم مضجع فكان لذلك أثر في إرهاق أعصابهم ونهك قواهم وتوهين عزائمهم، ففتر نشاطهم وكلَّت أيديهم شيئًا فشيئًا عن سد الثغرات التي أخذت تتسع في عدة مواضع من السور.

وفي يوم الثلاثاء الرابع عشر من جمادى الأولى، عادت السفينة التي أرسلها قسطنطين إلى بحر الأرخبيل للتفتيش عن أسطول البندقية الذي كانت القسطنطينية تؤمل أن ينجدها في ساعة محنتها، فأدخل بحَّارتها على قسطنطين وأخبروه بأنهم جابوا بحر الأرخبيل عرضًا وطولًا ولم يلقوا سفينة واحدة من سفن البندقية، فاغرورقت عينا قسطنطين بالدموع. وانتشر هذا النبأ الأليم في أرجاء القسطنطينية، وانتشر معه الألم والحزن وخيبة الأمل، وهكذا قطع المحصورون كل أمل في مجيء النجدة من الغرب، ووضعوا كل أملهم في هذا السور الضخم العملاق الذي لم تنقطع مدفعية العثمانيين عن قصفه لحظة واحدة من ليل أو نهار، واستحوذ اليأس والقنوط على بطريرك القسطنطينية فاعتزل منصبه واختلى في أحد الأديرة.

وفي صبيحة يوم الأربعاء الخامس عشر من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة هجرية عقد مؤتمر في قصر الإمبراطور حضره قسطنطين ووكيل البطريرك وكبار رجال الجيش للتشاور والتداول، وكان يسود المؤتمر جوٌّ من التشاؤم واليأس، وارتسمت على وجه قسطنطين أمارات الجهد والإعياء. وجرت مناقشة الآراء، وأظهر وكيل البطريرك يأسه من إنقاذ المدينة، فاقترح على الإمبراطور أن يغادرها وينجو بنفسه قائلاً: "إذا لم نستطع إنقاذ المدينة، فلا أقل من أن ننقذ الإمبراطور". ووقع هذا الاقتراح وقعًا شديدًا على نفس قسطنطين فأغمي عليه، فلما أفاق من غشيته أعادوا عليه الاقتراح، ولكنه أصرَّ على البقاء في المدينة مهما تكن العواقب.

وفي خلال هذا المؤتمر الحزين، كان يسمع من بعيد دويّ القنابل العثمانية وهي

تدكّ الأسوار، وصيحات الجنود تتعالى بالتهليل والتكبير. وامتطى الإمبراطور جواده كدأبه كل يوم ليفتش مواقع الجنود، وكان يتوقَّف بين موقع وآخر ويترجَّل عن جواده ويصعد إلى أعلى السور وينظر إلى معسكر العثمانيين، ثم يهبط ويستأنف طوافه وقلبه يتفطر ألمًا وحسرة.

وحدثت في ذلك الوقت بعض الأحداث والظواهر الطبيعية كان لها أثر سيِّئ في المعنويات، لا سيما معنويات أُناس كسكان القسطنطينية اجتمع عليهم الجهد والإعياء واليأس والقنوط من طول ما عانوا من أهوال الحصار وويلاته والإيمان العميق بالخرافة والطِّيَرَة، فقد خرج في يوم السابع عشر من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة هجرية موكب من الرجال والنساء حملوا معهم تمثال العذراء، وأخذوا يجوبون أنحاء القسطنطينية وهم يستغيثون ويتضرَّعون، وفيما كان الموكب يخترق طرقات المدينة، إذ سقط التمثال من أيدي حامليه ووقع إلى الأرض، فارتفعت صيحات الفزع والألم وتسابقوا إلى رفعه، وتشاءموا بهذا الحادث ورأوا فيه نذيرًا بسقوط المدينة. ولم يمضِ وقت طويل، حتى ثارت زوبعة شديدة وبرقت السماء وأرعدت، ثم تهاطل المطر غزيرًا مدرارًا، فطغى الماء وعاق الناس عن السير، وفي يوم السبت السابع عشر من جمادى الأولى، تجمَّعت السحب والضباب في السماء وتكاثفت، ثم انقضَّ نيزك من السماء على قبة كنيسة (آيا صوفيا) كاد يخطف الأبصار، فازداد الناس تشاؤمًا واشتدَّ بهم الفزع، واعتقدوا أنَّ الله قد تخلى عنهم وعن مدينتهم، وقصد وكيل البطريرك وقسم من كبار الرهبان قسطنطين ونصحوا له بمبارحة المدينة، فقد ظهرت أمارات تدلُّ على قرب سقوطها بيد العثمانيين بعد أن رفع الله عنها حمايته ورعايته. وما أن سمع قسطنطين هذا القول حتى غشي عليه وسقط إلى الأرض، وعندما أفاق قال لمن حوله: "إذا كانت هذه هي إرادة الله، فأين نفرّ من غضبه؟! سأبقى هنا وأموت معكم".

وكان هناك أناس في المدينة تداعب أخيلتهم أطياف من الأماني والتعلّات تبعث في نفوسهم شعاعًا من الأمل والنور في هذا الجو المظلم الكئيب. وكان فريق من هؤلاء الناس يذكرون كيف حاصر السلطان مراد الثاني والد السلطان الفاتح مدينة القسطنطينية وأطبق عليها بخيله ورَجِلِهِ، ولكن اضطر آخر الأمر أن يرفع الحصار عنها، وكان فريق من هؤلاء يردِّدون نبوءة مشهورة ذائعة وهي أن العثمانيين إذا انتصروا سيزحفون حتى يبلغوا كنيسة (آيا صوفيا) وهناك يهبط ملك من السماء فيقهرهم ويردّهم على أعقابهم، هكذا كانت حال القسطنطينية في أيامها الأخيرة وهي تدنو من نهايتها، تتوزعها الأوهام والأماني والنبوءات.

أما قسطنطين وجنوده، فكانوا يعرفون الحالة على حقيقتها ويدركون خطر الموقف وشدة بأس العدو.

* قبيل الهجوم العام:

مضت سبعة أسابيع والحصار قائم على قدم وساق، وقد تهدَّمت أجزاء كثيرة من السور وأبراجه وامتلأ الخندق بالأنقاض، بعد أن كلَّت أيدي المحصورين عن رفعها. وأصبحت أمام السلطان الفاتح ثلاثة مسالك للهجوم واقتحام المدينة: الأول ما بين (تقفور) وباب (أدرنه)، والثاني في (وادي ليكوس) عند باب القديس رومانوس (طوب قبو) وهو أكثر الأماكن تهدُّمًا وانهيارًا، والثالث بالقرب من الباب العسكري الثالث. واعتقد الفاتح أن السبيل للفتح قد تمهَّد أمامه، وأن الوقت قد حان للقيام بالهجوم العام، ولكنه قبل أن يُقدِم على تنفيذ خطة الهجوم العام، بعث برسالة إلى قسطنطين يدعوه فيها إلى تسليم المدينة قبل أن يستمر القتال وتراق الدماء وتكون المدينة غنيمة للفاتحين. وأوفد إليه إسماعيل اسفنديار أوغلو الذي كانت تربطه بقسطنطين صحبة قديمة، وعرض عليه أن يسلّم القسطنطينية بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الخراب والبؤس والشقاء وتهدَّمت أسوارها، وأن يجنّب الأطفال والنساء والشيوخ أهوال الحروب وويلاتها، وعرض عليه باسم

السلطان أن يكون حاكمًا على (المورة) كما كان من قبل. أما سكان المدينة فمن أراد الرحيل عنها بما شاء من أمواله، ومَن آثر البقاء فيها ضَمِن لهم السلطان الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم. فإن أبى قسطنطين هذا، فلا ينتظرنَّ غير الحرب الشعواء الضروس التي لا ترحم.

واجتمع قسطنطين برجاله وأهل مشورته وعرض عليهم رسالة الفاتح، فمال قسم منهم إلى تسليم المدينة، ولكنّ جستنيان ونفرًا من رجال الحرب أصرُّوا على مواصلة القتال مهما تكن نتائجه. وكان ذلك رأي قسطنطين، فقال لرسول الفاتح: "إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم، وإنه يرضى أن يدفع له الجزية. أما القسطنطينية، فإنه قد أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس في حياته؛ فإما أن يحتفظ بعرشها أو يدفن تحت أسوارها". فلما بلغ الفاتح جواب قسطنطين قال: "حسنًا، عما قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش، أو يكون لي فيها قبر".

وعمد السلطان الفاتح إلى مضاعفة قوة مدفعيته واستمرار قصفها للأسوار بدون انقطاع، وقد تمكَّن المهندسون من ابتكار مدفع جديد يرمي قنابله إلى أعلى فتتخطى الأسوار وتسقط في قلب المدينة، كما هي الحال في مدافع الهاون، وكانت المدفعية قبل ذلك ترمي بصورة مستقيمة، فتصيب الأسوار ولا تتخطاها، وبابتكار المدافع الجديدة أصبحت المدينة كلها لا الأسوار وحدها تحت رحمة قصف المدفعية العثمانية وبالإضافة إلى ذلك، عقد السلطان الفاتح مؤتمرًا حربيًا في مقرّه حضره وزراؤه وكبار قادة جيشه والشيوخ والعلماء للنظر في الموقف الراهن وما يجب اتخاذه من مقرَّرات لمعالجته، وطلب الفاتح إلى الحاضرين أن يعلن كل منهم رأيه بصراحة وفي حرية تامة.

أشار قسم من الحاضرين بالمبادرة إلى الهجوم العام فوراً على المدينة، قبل أن يتسرَّب اليأس إلى نفوس الجنود.

وقال الوزير العجوز خليل باشا: "إن الحميَّة والحماس شيء جميل يستحق الثناء والتقدير، ولكن يجب التريُّث والتبصُّر قبل الهجوم على قلعة قوية كالقسطنطينية، فقد حاصرت أكبر الجيوش في العالم هذه القلعة أكثر من سبع وعشرين مرة انتهت كلها بالخيبة والإخفاق. والمهم ليس ضرب الحصار على المدينة، بل الاستيلاء عليها، وقد مضى الآن أكثر من أربعين يوماً على حصارنا لها، وبذلنا في ذلك أغلى التضحيات وأفدحها، ولم تبدُ أية بارقة للنجاح؛ فالأنفاق التي حفرناها لم تجدنا شيئًا، والقلاع الخشبية حُرِقت، والمهندسون قُتلوا. وقد أشرت من قبل بدء الحصار، أن هذا العمل أمر عسير لن يحقق الغاية التي نريدها، وقد ظهر لكم الآن صدق قولي ورجاحة رأيي بعد أن مضى عليه أكثر من أربعين يوماً. وإذا أحسنَّا الغرض والظن واستولينا على القسطنطينية، فإن شعوب النصرانية في العالم كله ستتألَّب علينا وتزحف إلينا بجموع لا قِبَلَ لنا بها، ولن تدعنا حتى تسترد القسطنطينية من أيدينا. فخيرٌ لنا أن نقنع بجزية كبيرة نطلبها من قسطنطين ونرفع الحصار عن المدينة ونعود إلى ديارنا في الوقت الذي نستطيع أن نفعل ذلك بأمان"

ولم يكن كلام خليل باشا يخلو من التعريض والنقد للسلطان، وكان الفاتح قد لمس في خليل باشا ما يثير الريبة والشك وما يستحق المؤاخذة والعقاب، ولكنه أغضى وأمسك عنه وأسرَّ الأمر في نفسه حتى تواتيه الفرصة. فما زاد الفاتح بعد أن أتمَّ خليل باشا كلامه أن تبسَّم، ثم التفت إلى زغنوس باشا وسأله رأيه. وكان زغنوس لا يزال في عنفوان الشباب، شديد العزم وثّاب الهمة، وهو الذي كان يشرف على حفر الأنفاق تحت أسوار القسطنطينية لاقتحامها من بطن الأرض ، قال زغنوس: "حاشا وكلاّ أيها السلطان! أنا لا أقبل أبدًا ما قاله خليل باشا، فما أتينا هنا إلا لنموت لا لنرجع. إن خليل باشا أراد بما قاله أن يخمد فيكم نار الحمية ويقتل الشجاعة، ولكنه لن يبوء إلا بالخيبة والخسران. إن جيش إسكندر الكبير الذي قام من اليونان وزحف إلى الهند وقهر نصف آسيا الكبيرة الواسعة لم يكن أكبر من

جيشنا، فإذا كان ذلك الجيش قد استطاع أن يستولي على تلك الأراضي العظيمة الواسعة، أفلا يستطيع جيشنا أن يتخطَّى هذه الكومة من الأحجار المتراكمة؟! وقد أعلن خليل باشا أن دول الغرب ستزحف إلينا وتنتقم منا، ولكن ما الدول الغربية هذه؟! هل هي الدول اللاتينية التي شغلها ما بينها من خصام وتنافس؟ هل هي دول البحر الأبيض المتوسط التي لا تقدر على شيء غير القرصنة واللصوصية؟ ولو أن تلك الدول أرادت نصر بيزنطة لفعلت وأرسلت إليها الجند والسفن؛ ولنفرض أن أهل الغرب بعد فتحنا القسطنطينية هبُّوا إلى الحرب وقاتلونا، فهل سنقف منهم مكتوفي الأيدي بغير حراك؟! أوَليس لنا جيش يدافع عن كرامتنا وشرفنا؟ "يا صاحب السلطنة! أمَّا وقد سألتني رأيي، فلأعلنها كلمة صريحة: يجب علينا أن تكون قلوبنا قوية كالصخر، ويجب أن نواصل الحرب دون أن يظهر علينا أقل ضعف أو خور. لقد بدأنا أمرًا، فواجب علينا أن نتمَّه، ويجب أن نزيد هجماتنا قوة وشدة، ونفتح ثغرات جديدة وننقضّ على العدو بشجاعة. لا أعرف شيئًا غير هذا، ولا أستطيع أن أقول شيئًا غير هذا".

وبدت على وجه الفاتح أمارات البِشْر والانشراح لسماع هذا القول، والتفت إلى القائد طرخان يسأله رأيه، فأجاب على الفور: "إن زغنوس باشا قد أصاب فيما قال، وأنا على رأيه يا سلطاني". ثم سأل الشيخ آق شمس الدين والمولى الكوراني عن رأيهما، وكان الفاتح يثق بهما كل الثقة، فأجابا: إنهما على رأي زغنوس باشا، وقالا: "يجب الاستمرار في الحرب، وبالعناية الصمدانية سيكون لنا النصر والظفر"، وسرت الحمية في جميع الحاضرين، وابتهج السلطان الفاتح واستبشر بدعاء الشيخين بالنصر والظفر، ولم يملك نفسه من القول: "مَن كان من أجدادي في مثل قوتي"؟!، والواقع أن الفاتح لم يقل هذا القول تفاخرًا ومباهاة، بل قاله لرفع معنويات قادته العسكريين وقادته السياسيين وقادته الدينيين.

ومع ذلك فهو صادق في تقدير قوته، إذ كان يتفوَّق على أجداده بعدد رجاله وضخامة مدفعيته وبأسطوله البحري.

وانفرد الفاتح بعد المؤتمر بوزيره زغنوس باشا وقال له: "يجب ألا نضيّع شيئًا من الوقت، فقد دكّت الأسوار، وأعدت العدة للهجوم وتخيّرنا مواضعه؛ فاذهب إلى الجنود وأخبرهم أن ساعة الهجوم قد أزفت، وانظر أثر هذا القول فيهم، وارجع به إليّ"، وذهب زغنوس باشا إلى المعسكر، وجمع الجند حوله، وقال لهم:"إن سلطاننا المعظَّم يرى أنَّ الحصار والغارات التي دامت سبعة أسابيع كافية، وآن أوان الهجوم العام، ولا أدري متى يصدر أمره به، وأظنَّه قريبًا جدًا . لقد حانت الساعة لكي تُظهروا شجاعتكم وبسالتكم في هذا الهجوم، ولا ريب في أنه يحتاج إلى أعظم الجهد وأكبر التضحيات، فهل أنتم مستعدُّون"؟ ولم يكد زغنوس باشا يلقي سؤاله، حتى جلجل هذا المعسكر الواسع المترامي بدويّ كهزيم الرعد، وهتف الجند بصوت واحد: "الله أكبر ... الله أكبر".وعاد زغنوس باشا إلى الفاتح ليخبره بما رأى وسمع، فاطمأنَّ السلطان إلى أن رجاله عند حسن ظنّه، وأنَّ معنوياتهم عالية جدًا، وأنهم مستعدُّون للتضحية والفداء.

وفي يوم الأحد الثامن عشر من جمادى الأولى أمر الفاتح جنوده بالصيام تطهيرًا وتزكية للنفوس وتقوية للعزيمة والإرادة، وزار الفاتح في ذلك اليوم سور القسطنطينية من بحر (مرمره) إلى القرن الذهبي يستطلع أجزاءه بدقّة ويتفحَّص ما أحدثته المدفعية فيه من ثغرات، والمواضع التي لا تزال تحتاج إلى الدكّ والهدم منه.

ولم تنقطع المدفعية طوال ذلك اليوم واليوم التالي عن قصف السور وبخاصة المواضع التي رمَّمها المحاصَرون، وفي مساء ذلك اليوم أوقد الجنود العثمانيين النيران والمشاعل والقناديل، وأشعلت الشموع على رءوس الرماح حول معسكرهم، وتصاعد الضوء إلى الفضاء في توهُّج ونور، وتشرَّبت مياه بحر (مرمره) والبسفور باللون الأحمر واستحالت السماء إلى قبة حمراء، وتعالت صيحات المسلمين وهم

يهتفون بأعلى صوتهم: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله". يقول رئيس الأساقفة (ليونارد) الذي شهد هذا المنظر الرائع بأم عينيه، إذ كان في القسطنطينية مع المحصورين: "لو أنك سمعت مثلنا صيحاتهم المتوالية المتصاعدة إلى السماء: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) لأخذتك الروعة والإعجاب"، وأمضى السلطان يوم الإثنين التاسع عشر من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة هجرية في إكمال استعداداته الأخيرة، فطاف بالسور مرة أخرى ليكمل استطلاعه الشخصي المفصَّل؛ كما فتَّش جنوده، ليتعرَّف على درجة استعدادهم وحالتهم المعنوية، وقصد في نفس اليوم إلى مَرْسى أسطوله في (بشكطاش) يصحبه حمزة باشا أمير البحر، ليطلع بنفسه على ما اتخذه من الاستعدادات، وسأل الفاتح قائد بحريَّته حمزة باشا إن كان ثمة نقص في شيء، فأجابه: "إنَّ كل شيء قد تمَّ، وإنَّنا في انتظار أوامركم لتنفيذها"؛ فطلب إليه الفاتح أن يشترك جميع الأسطول في الهجوم العام، ويصفّ سفنه حول السور الواقع على بحر (مرمره)، ويتسلَّقه الجنود بالسلالم والحبال، ويقتحمون المدينة. ثم بعث الفاتح إلى سكان (غلطه) من الجنويين يحذرهم من مساعدة القسطنطينية، فقد كان على علم تام بما كانوا يفعلونه طوال أيام الحصار.

وكان الفاتح كلما مر بجمع من جنده خطبهم وأثار فيهم الحمية والنخوة، وأبان لهم أنهم بفتح القسطنطينية سينالون شرف الدنيا والآخرة، ويأمن العثمانيون بفتحها دسائس هذه المدينة التي طالما مالأت عليهم الأعداء والمتآمرين، وسيكون لأول جندي يرفع راية الإسلام فوق سور القسطنطينية الجزاء الأوفى والإقطاعات الواسعة وأجر الله في الجنَّة [إن شاء الله تعالى].

وكان الشيوخ والعلماء يتلون عليهم آيات القتال والجهاد، وما أعدَّ الله للمجاهدين من حسن الجزاء، ثم يقولون لهم: "لقد نزل سيدنا محمد ﷺ عند هجرته إلى المدينة المنورة في دار أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد قصد أبو أيوب

إلى هذه البقعة ونزل هنا". وكان هذا القول يلهب الجند ويبعث في نفوسهم أشدّ النخوة والحمية الدينية، فيسجدون إلى الأرض، ويدعون الله عزَّ وجلَّ ويبتهلون إليه أن يتم لهم النصر المبين.

وعاد الفاتح إلى مقرّه، فدعا إليه قادة جيشه وأصدر إليهم التعليمات الأخيرة، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية: "إذا تمَّ لنا فتح القسطنطينية تحقَّق فينا حديث من أحاديث ﷺ ومعجزة من معجزاته، وسيكون من حظّنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير؛ فأبلغوا أبناءنا العساكر فردًا فردًا، أنَّ الظفرَ العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرفًا، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغرَّاء نصب عينيه، فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسُّوها بأذى، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون"، وأخلد الجنود العثمانيون إلى الراحة والنوم استجمامًا للقوة والنشاط واستعدادًا للقتال الذي أزف موعده، وخيَّم على المعسكر الإسلامي سكون عميق شامل أثار دهشة سكان القسطنطينية وأثار فيما بينهم كثيرًا من التساؤل والقلق، وأحسَّ الناس في المدينة أن هبوب العاصفة قد اقترب، وأن الهجوم العام وشيك الوقوع، فدقّت أجراس الكنائس تدعو الناس إلى الصلاة والدعاء والاستعداد والتأهب، وأرهقت أعصاب كثير من المحصورين في هذا الجو المتوتّر، وضاقت بهم أنفسهم وعيل صبرهم، ففرُّوا إلى معسكر المسلمين ينشدون فيه الأمن والسلامة والطمأنينة لأنفسهم، فأحسن المسلمون لقياهم ومعاملتهم. وقد التجأ إلى المعسكر الإسلامي فيمن التجأ الراهب (بترو) في ثلاثمائة من أصحابه، فأكرمهم المسلمون وأحسنوا معاملتهم. ووقع ذلك موقعًا حسناً في نفس الراهب وشرح الله صدره للإسلام، فأسلم وعُرِف منذ ذلك الحين بمحمد بترو.

وكانت الجاسوسية تعمل بحذق ونشاط من جانبي الروم والعثمانيين على

السواء، فكانت لقسطنطين عيون وجواسيس في المعسكر العثماني يتنصتون الأخبار ويكتبونها في ورقة، حتى إذا ما جن الليل ثبتوها في السهام وقذفوا بها إلى المدينة، وكذلك كان يفعل جواسيس السلطان داخل القسطنطينية.

وقد أظهر الروم البخل والشح حتى في هذا الوقت الذي تستهدف فيه مدينتهم لأعظم الأخطار، فقد خبَّأ الأغنياء أموالهم وكنوزهم وضنُّوا بها على وطنهم، فصارت فيما بعد غنيمة باردة للعثمانيين، كما أبى كثير من الروم أن ينقلوا الأحجار والتراب إلى السور إلا إذا أخذوا أجرًا على هذا العمل، واضطرَّ اللاتين أن يدفعوا لهم ما طلبوا، ولكن الروم واللاتين قصدوا الكنائس وعلى رأسهم قسطنطين للدعاء!.

الهجوم العام:

في الساعات الأولى من يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة هجرية سمع فجأة في المعسكر العثماني إيذانًا للجند بالتأهُّب وتصاعدت التكبيرات مجلجلة مدوية من اتجاهي البر والبحر. وكان لذلك كله دوي هائل مخيف في ذلك السكون العميق المظلم، أثار الفزع والرعب في قلوب أهل القسطنطينية، وهرع كثير منهم إلى الكنائس التي دقت أجراسها، وانطلق الجنود العثمانيون يهجمون على سور القسطنطينية من البر والبحر طبقًا للخطة المرسومة التي وضعها الفاتح وأصدرها إلى قادته وكان أشد الهجوم وأعنفه قد ركز نحو وادي (ليكوس) الواقع بين (طوب قبو) في الجنوب، وباب (أدرنه) في الشمال. وكان هذان البابان يقعان على نشز مرتفع، ويقع الوادي بينهما متطامنًا منخفضًا، وكان السور القائم في تلك المنطقة وبخاصة الجانب الذي يلاصق (طوب قبو) قد تهدَّم تهدُّمًا كبيرًا، فأقام جستنيان مكانه متراسًا قويًا تحصَّن به.

وقد قسَّم الفاتح جنوده الذين يقاتلون في هذه المنطقة إلى ثلاثة أقسام: القسم

الأول مؤلف من جنود الروملي والمتطوعين المستجدِّين من أجناس مختلفة، وقد تقدَّم هؤلاء الجنود إلى الأمام، حتى إذا صاروا على مرمى قوس من السور توقفوا وأخذوا يمطرونه بالقذائف والسهام، فردَّ عليهم المدافعون بالمثل. واندفع فجأة تحت هذا الوابل من القذائف والسهام كثير من المهاجمين نحو السور وأقاموا عليه مئات السلالم لتسلّقه، فأسرع المدافعون وقلَّبوا هذه السلالم بمن كان عليها، وقذفوا وراءهم الصخور والأحجار الضخمة. ولم يمنع ذلك المهاجمين من معاودة تسلُّق السور مرة بعد مرة، ونجح قسم كبير منهم في ارتقائه واحتلال موطئ قدم عليه. وحدث صراع عنيف بالسلاح الأبيض، فالتحم الطرفان في معركة ضارية استمات فيها جستنيان ورجاله، واستطاعوا ردّ المهاجمين على أعقابهم، وقد استمرَّ هذا القتال العنيف نحو ساعتين.

وأمر السلطان هذا القسم من الجند بالانسحاب، ودفع إلى الهجوم القسم الثاني من جنوده وهم جنود الأناضول. أما المدافعون فقد ظنُّوا لأول وهلة عند انسحاب المهاجمين أنهم قد دحروا العثمانيين، ولكنهم لم يكادوا يتنفسون الصعداء، حتى بوغتوا بهجوم أشدّ وطأة وعنفًا من الهجوم الأول، فقد كان جنود الأناضول أحسن تدريبًا وأفضل تنظيمًا وأشدَّ ضبطًا وأكثر مراسًا في القتال.

ومن الواضح أن السلطان كان يرمي من هجومه الأول استنزاف طاقات المدافعين وإرهاقهم، قبل أن يضربهم الضربة الشديدة القاضية، فاستخدم جنوده الذين كانوا من الدرجة الثانية تنظيمًا وتدريبًا وضبطًا وتجربة، واستطاع تحقيق هدفه الابتدائي من الهجوم.

كانت أشعة الفجر قد بدأت تنير المكان، وبذلك انتهى هجوم العثمانيين الليلي ليبدأ هجومهم النهاري.

واندفع العثمانيون يهاجمون السور، وقد لبس قسم منهم الدروع وهم يهلِّلون ويكبِّرون، وأقام كثير منهم السلالم للتسلُّق.

وأدرك قسطنطين خطورة الموقف، فأتى إلى هذا المكان بمزيد من الجند وآلات الرمي والقذف، ونصب مدافع صغيرة؛ ونشط جستنيان وجنوده المدرَّعون، وقاوموا هذا الهجوم مقاومة عنيفة باسلة، وصبُّوا قذائفهم ونيرانهم الحامية على المهاجمين، وقلبوا السلالم التي أُسندت إلى السور، ولكن ذلك لم يزد العثمانيين إلا حماسة وشدة في القتال وتصميمًا على إحراز النصر.

ووقف الفاتح على ظهر حصانه يرقب هذه المعركة الدامية، وكان أشد القتال يجري على السور نفسه، حيث التحم المهاجمون والمدافعون بالسلاح الأبيض، ولكن القذائف والسهام التي صبَّت بكثافة على المهاجمين كبَّدتهم خسائر فادحة بالأرواح.

وأمر السلطان الفاتح بانسحاب جنوده، كما أمر بتكثيف نيران المدفعية على السور ومواقع المدافعين، فنصبت المدافع في أقرب مكان من السور، وأخذت تقصف المنطقة التي يدافع عنها جستنيان. وتحت ستار قصف المدفعية الكثيف زحف الجنود العثمانيون، وهاجموا مرة أخرى السور، ولكن جستنيان وجنوده ثبتوا لهذا الهجوم أيضًا.

وبينما كان القتال مستعرًا عنيفًا مريرًا عند السور البرّي، كان هناك قتال آخر لا يقلّ عنفًا وشدّة وضراوة في البحر؛ فقد أخذت السفن العثمانية بقيادة أمير البحر حمزة باشا في بحر (مرمره) وكذلك السفن العثمانية الراسية في (القرن الذهبي) أمكنتها من السور، وأخذ الجنود يطلقون عليه قذائفهم ونبالهم، وأخذ فريق منهم يتسلقونه بالسلالم والحبال وغيرها من أدوات التسلُّق، والتحموا في صراعٍ دامٍ مع المدافعين الذين هبُّوا إلى قذف السلالم إلى البحر وإطلاق النيران والسهام والقذائف على الجنود العثمانيين.

وقد أثار هذا الهجوم الشديد من ناحية البحر الفزع والرعب بين سكان

القسطنطينية، وجأرت أصواتهم بالدعاء والضراعة، ودقّت أجراس الكنائس دقات شديدة متوالية. وظلَّ الصراع على جانبي السور البحري على هذا النحو من الشدّة والعنف إلى آخر الحصار؛ وإذا كان العثمانيون لم يفلحوا في اقتحام المدينة من ناحية الأسوار البحرية، فإنهم شغلوا عددًا كبيرًا من المدافعين الذين كان بالإمكان استخدامهم لتقوية الدفاع على الأسوار البرية أما جنود الأناضول الذين كانوا يهاجمون وادي (ليكوس)، فقد أمرهم محمد الفاتح بالانسحاب، وكان المدافعون قد بلغوا أقصى المدى من الكلال والجهد والإعياء، وكان الفاتح يرمي من هذه الهجمات المتواصلة إرهاق المدافعين وإجهادهم واستنزاف طاقاتهم قبل أن يضربهم الضربة الأخيرة القاضية.

واغتبط جستنيان ورجاله بانسحاب العثمانيين، وارتفعت صيحات الفرح والنصر من جوانب السور، وقال جستنيان للأمبراطور قسطنطين وقد طفح وجهه بالبشر: "يا صاحب الجلالة! اطمئنوا، فإن سيوفنا قد ردَّت العدو".

ولم يكد جستنيان يأخذ قسطه من الراحة، ولم يكد السلطان الفاتح يسحب رجاله من السور، حتى أمر مدفعيته بقصف السور بشدة وعنف، ثم جاء بالقسم الثالث من جنوده وهم الانكشارية وكانوا خير الجند تدريبًا وتنظيمًا وضبطًا وحنكة وبسالة وقيادة، وأصدر إليهم أوامر الهجوم.

كان تنفيذ خطة الهجوم في هذه المرة أكثر إحكامًا ودقة، وكان الشيوخ والعلماء يشجعونهم ويحرضونهم على القتال والجهاد، وكان الصبح قد أضاء وأمكن رؤية كل شيء بسهولة ووضوح.

وقاد السلطان الفاتح بنفسه هؤلاء الجنود إلى حافة الخندق، وهناك أمر الرماة والنبالة بأن يمطروا المدافعين بالنبال والسهام بحيث لا يقدر أحد منهم أن يطل برأسه من فوق السور.

وتحت هذا الستار الكثيف من النبال المنهمرة الكثيفة، زحف الانكشارية

وهاجموا السور كالأسود، وكان هجومًا هائلًا اهتزَّت له جوانب القسطنطينية؛ وفي مثل لمح البصر، أقام كثير منهم السلالم على السور وقفزوا منها إلى أعلى السور في خفَّة مدهشة؛ وكانت تكبيراتهم العالية وقصف المدفعية الكثيف تُحدث دويًا يصمّ الآذان وتلقي الرعب والفزع في نفوس سكان القسطنطينية وتؤثر في معنوياتهم وتزعزعها وتؤدي بها إلى الانهيار.

وحمي وطيس القتال وبلغ أقصى مداه من العنف والشدة، لاسيما عند (طوب قبو) وباب (أدرنه)، وقد أدرك الفريقان أنها الساعة الأخيرة الحاسمة من تلك المعركة التي بدأت من خمسين يومًا.

وأصيب جستنيان بجرح بالغ عجز عن احتماله، فأزمع على الانسحاب من الميدان لتضميد جرحه، وطلب إلى الإمبراطور أن يتولَّى القيادة مكانه. وارتاع قسطنطين لهذا الأمر، ورجا جستنيان ملحًّا في رجائه ألَاّ يترك مكانه، فإنَّ ذلك سيفتّ في عضد الجند ويثبّط عزيمتهم في وقت هم أحوج ما يكونون فيه إلى مَن يشدّ أزرهم، وإن مصير المدينة كلها متوقّف على قراره، ولكن جستنيان أصرَّ على أن يُنقل في الحال إلى سفينته الراسية في الميناء.

ويظهر أنه كان قد أَيِسَ من استمرار الدفاع وصدّ العثمانيين عن القسطنطينية، فآثر الانسحاب والنجاة بنفسه. ونُقل القائد الجنوي إلى سفينته الراسية وراء السلسلة في (القرن الذهبي)، ومن هناك نُقل إلى جزيرة (خيوس) حيث قضى نحبه، بل لعله قد مات قبل وصوله إليها.

وتولَّى قسطنطين القيادة المباشرة بنفسه، وحاول رفع معنويات رجاله المنهارة دون جدوى. وكان هجوم الانكشارية يزداد عنفًا وشدَّة في هذه المنطقة، وارتقى كثير منهم أنقاض السور، وثبتوا أقدامهم فيها. واشترك السلطان الفاتح بنفسه في هذه المرحلة الأخيرة من الصراع، فاجتاز الخندق بحصانه، وأخذ يدير القتال

بنفسه، ولم يمضِ وقت طويل على انسحاب جستنيان وتولّي قسطنطين مكانه في القيادة بمنطقة (طوب قبو)، حتى انطلقت من الجهة الشمالية للسور صيحات عالية مفزعة ما لبثت أن سرت في جميع أنحاء المدينة وهي تدوي: لقد دخل العثمانيون المدينة ....

والتفت قسطنطين إلى الشمال، فإذا الأعلام العثمانية ترفرف على بعض الأبراج القريبة من باب (أدرنه). وكان يقود القوات العثمانية في هذه المنطقة (قره جه بك)، وقد حاول من قبل ذلك اقتحام هذا الباب فأخفق، فجمع قواته وشنَّ عليه هجومًا آخر أشدّ عنفًا وقوة، فزحزح المدافعين عن أماكنهم، ووثب جنوده على أنقاض السور المتراكمة إلى جنوب هذا الباب، وتمكَّن أحدهم من قتل قائد الحامية، وبمقتله انهارت مقاومة المدافعين، فولّوا هاربين وتدفَّقت جموع العثمانيين نحو المدينة، فلما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية المرفرفة، أطلق العنان لفرسه واتَّجه نحو الشمال ليستخبر عن الأمر بنفسه، فإذا جموع العثمانيين تتدفَّق إلى المدينة كالسيل. ونزل قسطنطين عن حصانه، وخلع ملابسه الامبراطورية وسلَّ سيفه وأخذ يخبط به ذات الشمال وذات اليمين، حتى كلَّت يده وأصابه أحد الجنود العثمانيين بضربة سيف قاتلة، فخرَّ صريعًا مضرَّجًا بالدماء، وصاح صائح بأن الإمبراطور قد قُتِل، فزاد ذلك في فزع سكان القسطنطينية ورعبهم.

ولم يقف بعد ذلك شيء في وجه العثمانيين لدخول المدينة، فقد تفتَّحت لهم جميع الأبواب والمنافذ، بعد أن فرَّ حماتها وذهبوا يلتمسون النجاة لأنفسهم. واشتدَّ الهرج والمرج في المدينة، واختلط الحابل بالنابل، وتزاحم الناس يدفع بعضهم بعضًا، كل يطلب النجاة فلا يدري أين يجدها.

أما عن القتال في جانب البحر، فقد ناجز العثمانيون من فوق سفنهم الراسية في بحر (مرمره) المدافعين، وظلُّوا على ذلك إلى أن رُفعت الأعلام العثمانية فوق الأبراج القائمة على السور البري، فرآها المدافعون، فخارت قواهم واستخذت

عزائمهم، فمنهم من استسلم، ومنهم مَن فرَّ مع الفارّين.وانتهت صفحة من صفحات تاريخ القسطنطينية الطويل بهزيمة البيزنطيين، وبدأت صفحة جديدة من صفحات تاريخها الطويل بفتح العثمانيين.

وكان آخر سطر من سطور آخر صفحة من صفحاتها البيزنطية:

أن قسطنطين آخر أباطرة الروم مات في ساحة القتال، وآثر الموت على حياته .

وكان أول سطر من سطور أول صفحة من صفحات العثمانية أن السلطان الفاتح، صمَّم أن يكون له عرش في القسطنطينية أو يكون له قبر فيها، فاعتلى العرش لأنه طلب الموت فوهبت له الحياة.

❋ الفاتح في القسطنطينية:

وقف محمد الفاتح وهو على صهوة جواده ينظر إلى جنوده وهم يدخلون من كل حدبٍ وصوب مدينة القسطنطينية ترفرف عليهم أعلام النصر، وأقبل عليه كبار رجاله تطفح وجوههم بالبشر والسعادة يهنِّئونه بالفتح، فكان الفاتح يجيبهم: "حمدًا لله، ليرحم الله الشهداء، ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبي الفخر والشكر".

أما أهل القسطنطينية فقد تملَّكهم الخوف والذعر، إذ كانوا يعتقدون أن العثمانيين وحوشٌ كاسرة. ولعلَّهم ذكروا دخول الصليبيين مدينتهم قبل قرنين ونصف، وما ارتكبوه فيها من التقتيل والتدمير والتحريق. وكان معظم سكان القسطنطينية قد لجؤوا إلى الكنائس وبخاصة كنيسة آياصوفيا التي غصَّت بجموعهم، وغلقوا على أنفسهم الأبواب.

وعند الظهيرة توجَّه الفاتح إلى القسطنطينية على ظهر جواده، يحفّ به كبار رجال دولته وحرسه، وقد أعجبته المدينة بآثارها الرائعة ومبانيها الفخمة، وكان ألوف من العثمانيين يحيطون بموكبه. ولما بلغ الفاتح منتصف المدينة توقَّف عن

السير وقال لمن حوله من الجند: "أيها الغزاة المجاهدون! حمدًا لله وشكرًا، لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية. قال رسول الله ﷺ: (**لتفتحنَّ القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**»[1]، ثم هنَّأهم بالنصر ونهاهم عن القتل والنهب والسلب، وأمرهم أن يكونوا أهلًا للشرف الذي حباهم به الرسول ﷺ، وترجَّل الفاتح عن فرسه، واستقبل الكعبة وسجد على الأرض، شكرا لله على ما منحه من توفيق ونصر. ثم استأنف سيره إلى كنيسة آياصوفيا، ولما اقترب منها، وصلت إلى سمعه أصوات خافتة حزينة هي أصوات الصلوات والدعوات التي كانت تجري فيها [للصليب من دون الله تعالى]. وقصد الفاتح إلى أحد أبواب الكنيسة، وكان بابًا منيعًا حصينًا، فوجده مغلقًا. وعلم الراهب بمقدم الفاتح، فأمر بفتح ذلك الباب على مصراعيه، وانتاب الناس خوف عظيم وفزع لحضور السلطان، وتوجَّسوا شرًّا وقطعوا ما كانوا فيه من الصلاة والدعاء، وساد بينهم لغط وضجيج؛ فما كان من الفاتح إلا أن طلب من الراهب أن يبقى كل إنسان في مكانه دون أن يجزع. وسجد الفاتح مرة أخرى سجدة الشكر، وأخذ يحمد الله ويشكره، ثم طلب إلى الراهب أن يأمرهم بالعودة إلى منازلهم آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وأن يعود كل إنسان إلى ما كان يمارسه من قبل من عمل وحرفة. ونزل هذا الكلام بردًا وسلامًا على هؤلاء الناس الذين كانوا يتوقَّعون أن ينزل بهم أشدّ أنواع البطش والتنكيل، وشاعت في نفوسهم الراحة والطمأنينة، وبعث الفاتح إلى مختلف أرجاء المدينة نفرًا من رجاله لتأمين الناس وليعودوا إلى حياتهم العادية، وكان نفرٌ من الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة خوفًا من القتل، فلما سمعوا بما فعله الفاتح، ولمسوا حسن رعايته للنصارى، خرجوا من مخابئهم

---

(١) قال الألباني رحمه الله ضعيف عبد الله بن بشر الغنوي لم أجد من ترجمه وجملة القول أن الحديث لم يصح عندي لعدم الاطمئنان إلى توثيق ابن حبان للغنوي هذا، وهو غير الخثعمي. سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/ ٢٦٩).

وأعلنوا إسلامهم، وعرف أحدهم الذي كان أكبرهم سنًا باسم: بابا محمد. وأمر السلطان الفاتح بعد ذلك بتحويل تلك الكنيسة إلى مسجد، وطلب إلى أحد العلماء الذين كانوا برفقته أن يؤذن، فجلجل صوته بالأذان، وأدَّى صلاة العصر، وأعلن أنه سيصلي صلاة الجمعة القادمة في المسجد الجديد. وقصد إلى قصر الإمبراطور، وتجوَّل في صالاته وغرفه، وقد كان مهملًا بدت عليه الوحشة والظلام والكآبة.

وسأل الفاتح عن قسطنطين وجستنيان ونوتاراس، فلم يأته منهم غير نوتاراس الذي كان يقوم بالإدارة المدنية في القسطنطينية أثناء الحصار. وقد أحسن الفاتح لقاءه وسأله عن الإمبراطور، فأجاب بأنه لا يعلم عنه شيئًا. فسأله السلطان عن مصير جستنيان فأجاب: "إن كل ما يعلمه عنه أن عقب إصابته بالجرح، نقل إلى سفينة راسية بميناء القرن الذهبي"، فأرسل الفاتح من فوره قسمًا من رجاله إلى (طوب قبو) للبحث عن الإمبراطور، كما أرسل أناسًا آخرين إلى الميناء للبحث عن السفينة التي يرقد فيها جستنيان وإنزاله إلى البرّ وإحضار أمهر الأطباء لمعالجته.

وقد كان السلطان بطلًا يكرم البطولة ولو كانت في ألدّ أعدائه، وكان قد أظهر إعجابه بجستنيان عندما كان يدافع عن السور بحذق ومهارة وبسالة.

وسلك السلطان الفاتح نحو أهل القسطنطينية سياسة الرأفة، وأمر جنوده بحسن معاملة مَن في أيديهم من الأسرى والرفق بهم، وقد بذل الفاتح ما كان في وسعه لتخفيف آلامهم وفكّ أسرهم، وفدى عددًا من كبار الأسرى بماله الخاص. وكان كثير من سكان القسطنطينية قد فرُّوا من المدينة عندما دخلها العثمانيون خوفًا من القتل، فأصدر الفاتح بيانًا عامًا دعا فيه هؤلاء الفارين للعودة إلى مدينتهم ومنازلهم، وأمَّنهم على حياتهم وأموالهم، ودعا إلى عودة التجار والحرفيين إلى أسواقهم لمزاولة أعمالهم ومهنهم، ووعد أهل الكتاب من ممارسة شعائر دينهم.

ولم تمضِ بضعة أيام على فتح القسطنطينية، حتى ساد الأمن والسكينة ربوع

المدينة، واستأنف الناس حياتهم المدنية العادية في أمن وسلام.

وكان الدوق نوتاراس كما ذكرنا قد قابل السلطان ولقي منه كل حفاوة ورعاية. وقد عاتبه السلطان على عدم تسليم المدينة بعد أن أرسل إليها الإنذار الأخير، فأجاب نوتاراس بأن استمرار المقاومة يرجع إلى الجنود الأجانب وإلى الرسائل التي كان يبعثها أحد وزراء السلطان إلى قسطنطين يحثه فيها على مواصلة المقاومة وعدم الاستسلام، ويطمعه في رفع الحصار، وقد اهتمَّ قسطنطين بهذه الرسائل وعمل بها. وما إن سمع خليل باشا هذا حتى ظهر عليه الارتباك والخوف، وكان واقفًا بجانب السلطان فصاح: "كلا يا سلطاني! من المستحيل أن يوجد في معيَّتكم من يرتكب مثل هذا الخزي والعار. إنَّ هذا الكافر يفتري كذبًا، فلا تسمحوا له بالكلام واقطعوا رأسه"، فقال له السلطان: "فلماذا ترتبك إذن؟! ألا تجيب على هذه التهم الموجهة إليك؟! " وعزله السلطان عن الوزارة وعهد بها إلى محمود باشا، ورعايةً لكبر سن خليل باشا، اكتفى بمصادرة أمواله وحبسه، وقد بقي في السجن حتى وافاه الأجل المحتوم وأمَّا نوتاراس فقد صفح عنه السلطان وأكرمه ووهب له ولأولاده مالاً كثيرًا، وذهب في اليوم التالي إلى بيته لعيادة زوجته المريضة، فواساها وأسبغ عليها من عطفه ورعايته. ولكن نوتاراس ومَن معه من نبلاء الروم أغرتهم هذه المعاملة الحسنة من الفاتح وأطمعتهم، فأخذوا يأتمرون لإخراج المسلمين من القسطنطينية، وبعثوا رسلًا إلى إيطاليا يدعون إلى حملةٍ صليبيةٍ ضدَّهم، فأمر السلطان الفاتح باعتقالهم وقتلهم.

واستعرض الفاتح جنوده بعد فتح القسطنطينية استعراضًا عسكريًا، ومثل هذا الاستعراض من التقاليد العسكرية التي لا تزال متَّبعة في الجيوش الحديثة حتى اليوم، ثم أُقيمت بين الجنود مسابقة في الرماية بمختلف الأسلحة، فأقبلوا عليها بشوقٍ وكفاية. والحقُّ أنَّ الجنود العثمانيين المشاة منهم والفرسان والمدفعية أبدوا مهارةً فائقةً في التصويب الدقيق أثناء الحصار، فحرَّم رماة السهام على المدافعين عن

الأسوار الظهور من شرفاتها، ودكَّ جنود المدفعية تلك الأسوار وكانت إصاباتهم مركزةً تركيزًا مباشرًا، وكان لتدريب العثمانيين على الرماية تدريبًا راقيًا أثرٌ كبيرٌ في إحراز النصر.

وقد أقام الفاتح لجنوده بعد انتهاء مسابقة الرماية مآدب حافلةً كرَّم فيها الأبطال الذين برزوا في القتال، والأبطال الذين تفوقوا في الرماية بخاصَّة، وسائر الجنود والمجاهدين والعلماء والشيوخ الذين شهدوا الفتح. وقد استمرت المآدب ثلاثة أيام، وكان السلطان الفاتح يخدم جنوده بنفسه، وقد وزَّع عليهم العطايا والهدايا والمنح وفي أثناء الاحتفالات خطب الشيخ العالم الورع آق شمس الدين الذي شحن الجنود بطاقاتٍ دينيةٍ مذهلةٍ في أيام الحصار، فقال: "يا جنود الإسلام! اعلموا واذكروا أن النبي ﷺ قال في شأنكم: **«لتفتحنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»**، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويغفر لنا جميعًا. أَلا لا تسرفوا ما أصبتم من أموال الغنيمة ولا تبذروا، وأنفقوها في البر والخير، واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه وأحِبُّوه"، ثم التفتَ إلى الفاتح وقال له: "يا سلطاني! لقد أصبحتَ قرَّة عين آل عثمان، فكن على الدوام مجاهدًا في سبيل الله"، ثم صاح مكبِّرًا بصوتٍ جهوري جليد ، وبعد ذلك الفتح المبين أُطلقت على السلطان محمد الثاني كنية (أبوالفتح).

وكان الفاتح على علمٍ بكل ما كانت تفعله (غلطه) ضدَّه أثناءَ الحصار، ولكنَّه آثرَ الإغضاءَ إلى أن تواتيهُ الفرصة المناسبة، فلما فتح القسطنطينية رأى حاكم (غلطه) أن يتفادى الاصطدام بالعثمانيين في حربٍ لا قِبَلَ له بها، فبعث إلى السلطان الفاتح في نفس اليوم الذي فُتحت فيه القسطنطينية وفداً يحمل الهدايا ومفاتيح (غلطه) ويلتمس منه عطفه وأريحيَّته. وقد كان استسلام (غلطه) أسوأ ما نزل من الكوارث بجمهورية (جنوا) الإيطالية، فضاعفت نشاطها وجهودها في محاربة

العثمانيين، وأخذت تؤلِّب دول أوروبا لشنّ حرب صليبية شاملة عليها والواقع أن معاملة الفاتح لسكان القسطنطينية - وبخاصة إذا قورنت بمعاملة الفاتحين في أيامه، تعتبر معاملة مثالية حقًا.وهذا الفرق الشاسع في المعاملة، اعترف به المؤرخون المنصفون من الصليبيين، أما غير المنصفين فلا عبرة لادّعاءاتهم، ولا قيمة لافتراءاتهم لأنهم يصدرون عن حقد وضغينة ويخضعون لنوازع الهوى لا لحقائق التاريخ.

❋ صدى الفتح:

كان حصار محمد الفاتح للقسطنطينية هو الحصار العثماني الخامس لعاصمة الدولة الشرقية، وقد حاصرها (بايزيد) مرتين، ثم حاصرها ولده موسى لثالث مرة، وحاصرها مراد الثاني الحصار الرابع، ثم كان الحصار الخامس والأخير على يد محمد الفاتح. وحوصرت القسطنطينية منذ تأسيسها تسعاً وعشرين مرة، وسقطت في أيدي الغزاة سبع مرات، كانت في كل مرة تعود بعدها إلى مُلك القياصرة، وسقطت للمرة الثامنة في يد محمد الفاتح، وكانت خاتمة القياصرة وخاتمة الدولة الرومانية الشرقية، وكان خروجها لأول مرة من حظيرة النصرانية إلى حظيرة الإسلام. وهكذا سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين بعد حصار صارم دام ثلاثة وخمسين يوماً، بعد قتال عنيف أبدى فيه العثمانيون أعظم ضروب الإقدام والجرأة والشجاعة، وبذلك سقطت هذه المدينة بعد حياة طويلة حافلة دامت منذ أنشأها قسطنطين ألفاً ومئة وخمسة وعشرين عاماً.

وقد كان سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين حادثًا جللًا، اهتزت له أوروبا النصرانية من أقصاها إلى أقصاها، ورأت فيه نذيرًا مزعجًا لتجدّد قوى الإسلام.

ولم يجد السلطان الفاتح بدًّا من مواصلة الحرب إزاء الثورة العارمة والسخط الشديد في أوروبا، فاستطاع أن يقضي على كل الدول النصرانية القريبة من (بيزنطة)، فقضى على قوات البلقان والبلغار، وهزم المجر هزيمة ساحقة.لقد بدأت الفتوح العثمانية تنساب بسرعة مذهلة إلى شمال البلقان وجازت إلى ما وراء

الدانوب، وبدأت القوة البحرية العثمانية تتوغَّل في مياه البحر الأبيض المتوسط وتهدد سيادة البندقية وجنوا البحرية، وكان استيلاء الفاتح على ثغر (أوترانتو) في جنوب إيطالية عاملًا جديدًا في إذكاء الفزع والروع في إيطالية وباقي الأمم النصرانية.والحقيقة أن سقوط القسطنطينية كان فاتحة لسلسلة طويلة من الفتوح والانتصارات العثمانية الباهرة في البر والبحر، ولم يأتِ أواسط القرن السادس عشر حتى استطاع العثمانيون أن يبسطوا سلطانهم على مناطق شاسعة في أوروبا الوسطى مثل المجر ورومانيا وجنوب بولونيا وأجزاء من شرق النمسا. .

استقبلت دول الشرق الإسلامي فتح القسطنطينية بأعمق مشاعر الفرح والحبور، بعكس استقبال دول الغرب لهذا الفتح، إذ عمَّ الفرح والابتهاج بين المسلمين في ربوع آسيا وإفريقية.

وما إن وصل رسل السلطان الفاتح إلى مصر والحجاز وفارس والهند وهي أكبر الدول الإسلامية في ذلك الوقت يحملون نبأ هذا الفتح حتى هلَّل المسلمون وكبَّروا، وأذيعت البشائر من منابر المساجد، وأمضى الناس في هذه البلاد أيامًا كأحسن ما تكون أيام الأعياد الإسلامية روعة ورونقًا وبهاء.

وندع المؤرخ المصري المعاصر أبا المحاسن بن تغري بردي يصف شعور الناس وحالهم في القاهرة بعد أن وصل إليها رسول السلطان الفاتح ورفقته في الثالث والعشرين من شوال سنة سبع وخمسين وثمانمائة هجرية بنبأ فتح القسطنطينية ومعهم الهدايا وأسيران من عظماء الروم، قال: "قلت ولله الحمد والمنَّة على هذا الفتح العظيم، وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء اسطنبول، وطلع بهما إلى السلطان - سلطان مصر إينال - وهما من أهل قسطنطينية وهي الكنيسة العظمى باسطنبول، فسُرَّ السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم، ودُقَّت البشائر لذلك، وزُيِّنت القاهرة بسبب ذلك أيامًا.

ويقول ابن إياس صاحب كتاب (بدائع الزهور): "فلما بلغ ذلك دقت البشائر بالقلعة ونودي في القاهرة بالزينة، ثم إن السلطان عيَّن برسباي أمير خور ثاني رسولاً إلى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح" . .

❋ الفتوح:

أ) كان فتح القسطنطينية أول الغيث، ثم انهمرت الفتوح عليه.

وليس في نيّتي تفصيل فتوحه، ولكنني سأمر عليها مرَّ الكرام لإعطاء صورة مختصرة جدًا عنها. لقد كانت للعثمانيين سيادة على كثير من أجزاء البلقان، ولكنها كانت سيادة مزعزعة تقوى حينًا وتضعف حينًا، ولكن بعد أن وضع الفاتح يده على القسطنطينية - مفتاح أوروبا الشرقية - تيسرت الطريق وتوطدت سيادة العثمانيين، وبدأت حقًا [خلافتهم] في أوروبا، وسهل على محمد الفاتح فتح البلاد الصربية واليونان والأفلاق والقريم والجزر الرئيسية في بحر الأرخبيل، وتم ذلك كله في خلال بضعة وعشرين عامًا من حكمه، ولم يزد خلفاؤه من بعده شيئًا ذا بال على فتوحاته بأوروبا.

❋ انتصر انتصارات حاسمة على الصربيين سنة ثلاث وستين وثمانمائة هجرية فأصبحت صربية عدا بلغراد ولاية من ولايات العثمانيين من ذلك الحين.

❋ كما أصبحت (البوسنة) كلها سنة سبع وستين وثمانمائة هجرية ولاية من ولايات العثمانيين، وأقبل أهلها على اعتناق الإسلام.

❋ كما أصبحت (الهرسك) بعد عام ولاية من ولايات العثمانيين، وأقبل أهلها على اعتناق الإسلام.

❋ وأصبحت (أثينا) في حكم العثمانيين نهائياً سنة أربع وستين وثمانمائة هجرية

❋ كما أصبحت (الموره) ولاية عثمانية أيضاً في السنة نفسها، وبذلك أصبحت اليونان كلها للدولة العثمانية وفي سنة ست وستين وثمانمائة هجرية أكمل السلطان الفاتح ضم جزر بحر الأرخبيل إلى الدولة العثمانية.

❋ وفي سنة أربع وثمانين وثمانمائة هجرية استتب الأمر للعثمانيين في الأفلاق وهي من رومانيا.

❋ ومهد لفتح البوغدان حتى استسلمت لابنه بايزيد الثاني سنة اثنتين وستين وتسعمئة هجرية.

❋ وفتح أماصرة وهي مدينة على البحر الأسود في آسيا سنة خمس وستين وثمانمائة هجرية.

❋ واستولى على إمارة سينوب الواقعة على البحر الأسود في آسيا في السنة نفسها.

❋ وفتح أرضروم في السنة نفسها أيضًا، وكانت قد حالفت الصليبيين ضد السلطان محمد الفاتح.

❋ وفتح (طرابزون) أيضًا، وكان إمبراطورها قد حالف الصليبيين ضد السلطان محمد الفاتح، وقد تم فتحها في سنة ست وستين وثمانمائة هجرية.

وبذلك قضى السلطان محمد بما أظهره من حسن السياسة ونفاذ البصيرة وقوة العزيمة وسرعة الحركة على تلك المحالفة الكبرى أو المؤامرة الكبرى التي دبرت للقضاء عليه وعلى دولته، وقد كانت تلك المؤامرة معقد آمال كبيرة للمشتركين فيها لاسيما امبراطور طرابزون وأمير أرضروم والبابا.

❋ كما طهّر الفاتح حدوده الشمالية من كل خطر، فامتدت أملاكه حتى البحر الأسود شمالًا.

❋ كما نشب القتال بين العثمانيين وإمارة (القرمان)انتهت في ربيع سنة خمس وسبعين وثمانمائة هجرية بفتح (القرمان) وضمها إلى الدولة العثمانية.

❋ وطلب الفاتح إعداد ثلاثمائة سفينة للقيام بغزوة جديدة، وأمر بالتقدم نحو شبه جزيرة القريم في السادس والعشرين من محرم الحرام سنة ثمانين وثمانمائة

هجرية، ففتح مدينة (كفه) وهي أكبر قاعدة تجارية للجنويين في القريم، وفتح شبه جزيرة القريم بسهولة، وبسيطرة العثمانيين على القريم وسيطرة أسطولهم على البحر الأسود، أصبح هذا البحر بحيرة عثمانية لا ينازعهم في سيادتها منازع.

❋ وفي اليوم الرابع عشر من ربيع الأولى سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة هجرية استسلمت (كرويا) المدينة المنيعة الحصينة في ألبانيا للفاتح.

❋ وفي اليوم الثالث من ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة هجرية وقع ممثل البندقية باسم حكومته معاهدة الصلح بينها وبين السلطان الفاتح، وبمقتضاها تخلت البندقية عن (أرجوس) و (نيجربون)، وسلمت (لنموس) وجميع ألبانيا ماعدا بضعة مواقع على الساحل، وتدفع للسلطان الفاتح تعويضًا حربيًا قدره مائة ألف دوقة، وضريبة سنوية قدرها عشرة آلاف دوقة، وكانت هذه الشروط هي الشروط التي أصر على فرضها السلطان الفاتح على البندقية ليقبل معاهدة الصلح معها.

وأصبح في وسع الأسطول العثماني بعد إبرام هذه الاتفاقية أن يجوب بحار المشرق بحرية وأمان، كما جعل كبرى الدول الإيطالية فوق ذلك طوع يدي الفاتح.

❋ وفي اليوم الرابع من جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين وثمانمائة هجرية استولى العثمانيون على مدينة (أوترانتو) الإيطالية. واستحوذ الفزع على البابا سيكست الرابع ولاح له أن روما ستسقط بيد العثمانيين كما سقطت القسطنطينية من قبل، وزاد في فزعه ما شاع من أن العثمانيين سينزلون في ساحل (مارس) في وسط إيطاليا، فهمّ البابا بالفرار من إيطاليا، ولكنه تلبث قليلًا، وأذاع على أمراء النصرانية رسالة يدعوهم فيها أن يتصافوا ويتهادنوا فيما بينهم ويوجهوا جميع قواهم ضد العثمانيين، وحشد أمراء إيطاليا قواتهم، ولكنهم لم يستطيعوا زعزعة العثمانيين عن مواضعهم،وحشد السلطان الفاتح جيشًا ضخمًا في (أسكدار)،وغادر السلطان القسطنطينية في أوائل الربيع من سنة ست وثمانين وثمانمائة هجرية ليتولى قيادة

جيشه، ولكن المنية عاجلته في (أسكدار)، فمات القائد البطل فلم يتحقق الفتح.

(ملخص معركة فتح القسطنطينية الفاصلة)

١- اسم المعركة : فتح القسطنطينية.

٢- مكان المعركة : خارج أسوار هذه المدينة البرية ، والبحرية.

٣- تاريخ المعركة: بدأ حصار القسطنطينية يوم الجمعة السابع والعشرين من ربيع الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة هجرية، وفي الساعات الأولى من يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة هجرية كان الفتح بعون الله سبحانه. التي بدأت من خمسين يومًا.

٤- الفريقان المتقاتلان :

أولًا المسلمون: بقيادة الخليفة العثماني محمد الفاتح بن مراد الثاني رحمه الله.

ثانيًا النصارى: بقيادة ملك الروم قسطنطين الحادي عشر.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما :

أولًا المسلمون: كانت خطة الفاتح لحصار المدينة تتلخَّص بتقسيم قوَّاته إلى ثلاثة أقسام:

أ) الميمنة، وتتألف من جنود الأناضول بقيادة إسحاق باشا ومحمود بك، وتمتدّ من بحر مرمرة أقصى جناحها الجنوبي إلى (طوب قبو).

ب) الميسرة، وتتألف من جنود أوروبا والمجاهدين والجنود غير النظاميين بقيادة (قره جه باشا)، وتمتدّ من ميناء القرن الذهبي أقصى جناحها الشمالي إلى باب (أدرنه) بمواجهة السور.

ج) القلب، ويتألف من جنود الانكشارية والجنود المختارة بقيادة محمد الفاتح، ويواجه الجزء الأوسط من السور الذي يمتد من (طوب قبو) إلى باب (أدرنه)، وهذا الجزء من السور يعتبر أضعف جزء فيه، إذ يقع في وادي (ليكوس)،

وقد وجَّه إليه أشد الهجوم،وقد أقام الفاتح مقرّ قيادته خلف القلب.

* **ومعه من أبرز المشايخ**: الشيخ آق شمس البرسوي الحنفي.

* وكان مع الفاتح المهندس المجري (أوربان)وهو أمهر صانع للمدافع في زمانه.

د) ولكي يحرم القسطنطينية من معاونة الجنويين في حي (غلطه) أمر زغنوس باشا مع فرقته بالتعسكر على المرتفعات المشرفة على هذا الحي، لمراقبة الجنويين ومنعهم من إمداد المدينة المحاصَرة ومراقبة الشاطئ الشمالي من القرن الذهبي وبذلك أصبحت فرقة زغنوس احتياطًا عامًا.

العدد: يقدِّر قسم من المؤرخين الجيش العثماني بمائة وخمسين ألفاً أو مائة وستين ألفاً وهو تقدير أقرب إلى الاعتدال، والمؤرخون البيزنطيون القدامى يبالغون في تقديره ويرفعونه إلى ثلاثمائة ألف مقاتل أو أربعمائة ألف مقاتل.

ثانيًا الصليبيون:

اتَّخذ قسطنطين مقرَّه جانب قلب الجيش العثماني ما بين باب (أدرنه) و (طوب قبو).

ومعه القائد المغامر الجنوي (جون جستنيان)الذي ولَاّه منصب قائد الدفاع.

العدد: لا يقلّ عن ستين ألفًا عند مؤرخي الأتراك وهو الأقرب، وعند الروم على وجه يشبه الإجماع على تقديرهم بثمانية آلاف مقاتل وهو اعتذار عن الهزيمة.

٦- سبب المعركة : نقض ملك الروم للعهد الذي بينه وبين المسلمين، واستمراره في المكايد التي مضى عليها سلفه ضد المسلمين، ورغبة المسلمين للحضوة بفتح هذه المدينة التي بشر رسول الله بفتحها وفضل الفاتحين لها.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- قتل قسطنطين آخر أباطرة الروم في ساحة القتال.

٢- أصدر الفاتح بيانًا عامًا دعا فيه الفارين للعودة إلى مدينتهم ومنازلهم،

وأمَّنهم على حياتهم وأموالهم، ودعا إلى عودة التجار والحرفيين إلى أسواقهم لمزاولة أعمالهم ومهنهم، ومكن أهل الكتاب من ممارسة شعائر دينهم، ولم تمضِ بضعة أيام على فتح القسطنطينية، حتى ساد الأمن والسكينة ربوع المدينة، واستأنف الناس حياتهم المدنية العادية في أمن وسلام. وإذا قورنت هذه المعاملة الحسنة بمعاملة الصليبيين السيئة حين استولوا على القسطنطينية قبل قرنين ونصف من ذلك العهد، نجد سماحة المسلمين أفضل بكثير من معاملة الصليبيين لإخوانهم في الدين.

٣- لما فتحت القسطنطينية رأى حاكم (غلطه) بعث إلى السلطان الفاتح في نفس اليوم الذي فُتحت فيه القسطنطينية وفدًا يحمل مفاتيح (غلطه).

٤- سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين بعد حصار صارم دام ثلاثة وخمسين يومًا، بعد قتال عنيف أبدى فيه العثمانيون أعظم ضروب الإقدام والجرأة والشجاعة، وبذلك سقطت هذه المدينة بعد حياة طويلة حافلة دامت منذ أنشأها قسطنطين ألفًا ومئة وخمسة وعشرين عامًا.

٥- وقد كان سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين حادثًا جللًا، اهتزت له أوروبا النصرانية من أقصاها إلى أقصاها، ورأت فيه نذيرًا مزعجًا لتجدّد قوى الإسلام.

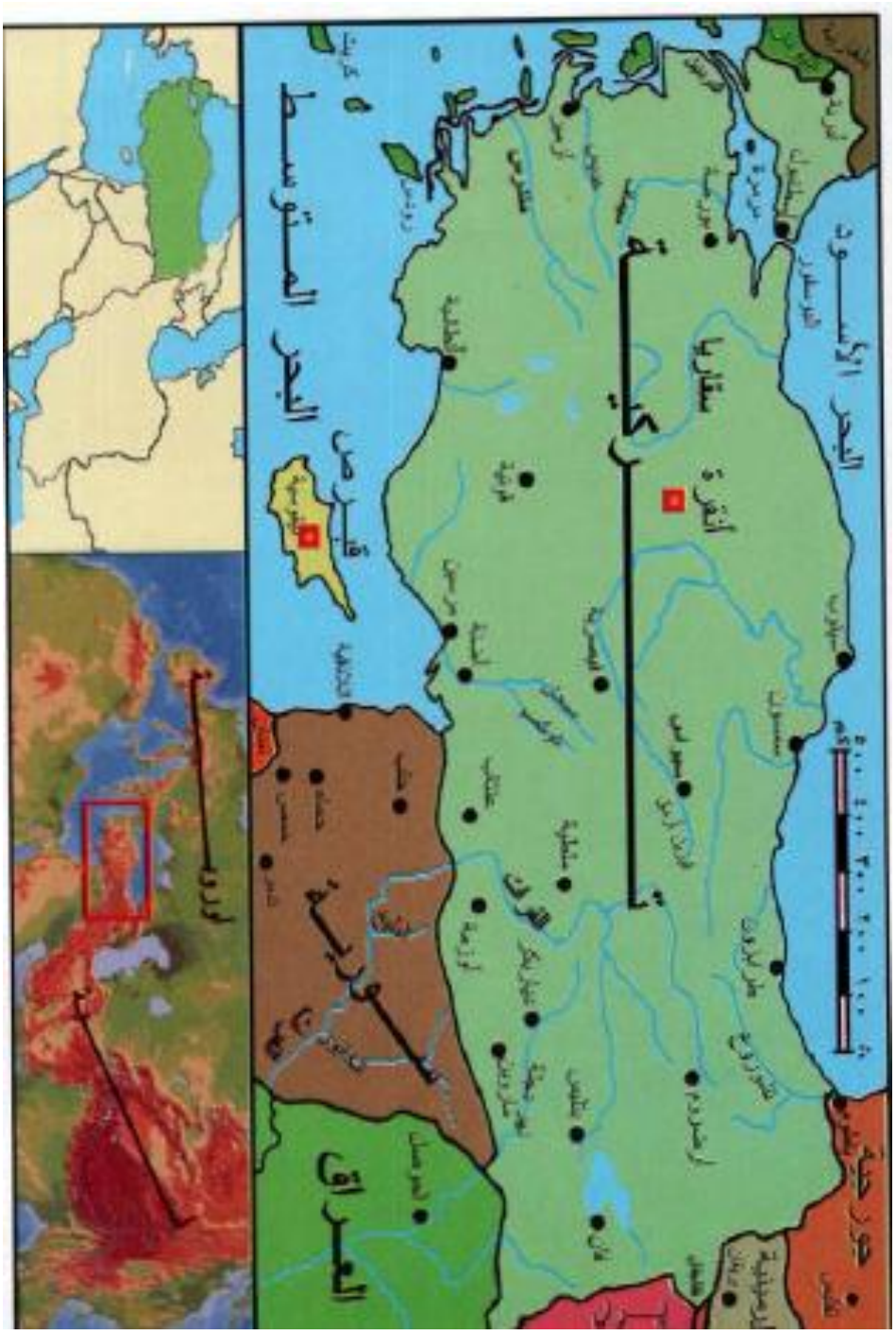
٦- الفتوح: كان أول هدف قصده الفاتح هو صربية فانتصر فأصبحت صربية عدا بلغراد ولاية من ولايات العثمانيين من ذلك الحين ، كما أصبحت (البوسنة) كلها ولاية من ولايات العثمانيين، وأقبل أهلها على اعتناق الإسلام ، كما أصبحت (الهرسك) بعد عام ولاية من ولايات العثمانيين، وأقبل أهلها على اعتناق الإسلام. وأصبحت (أثينا) في حكم العثمانيين ، كما أصبحت (الموره) ولاية عثمانية، وبذلك أصبحت اليونان كلها للدولة العثمانية أكمل السلطان الفاتح ضم جزر بحر الأرخبيل إلى الدولة العثمانية،واستتب الأمر للعثمانيين في الأفلاق وهي من

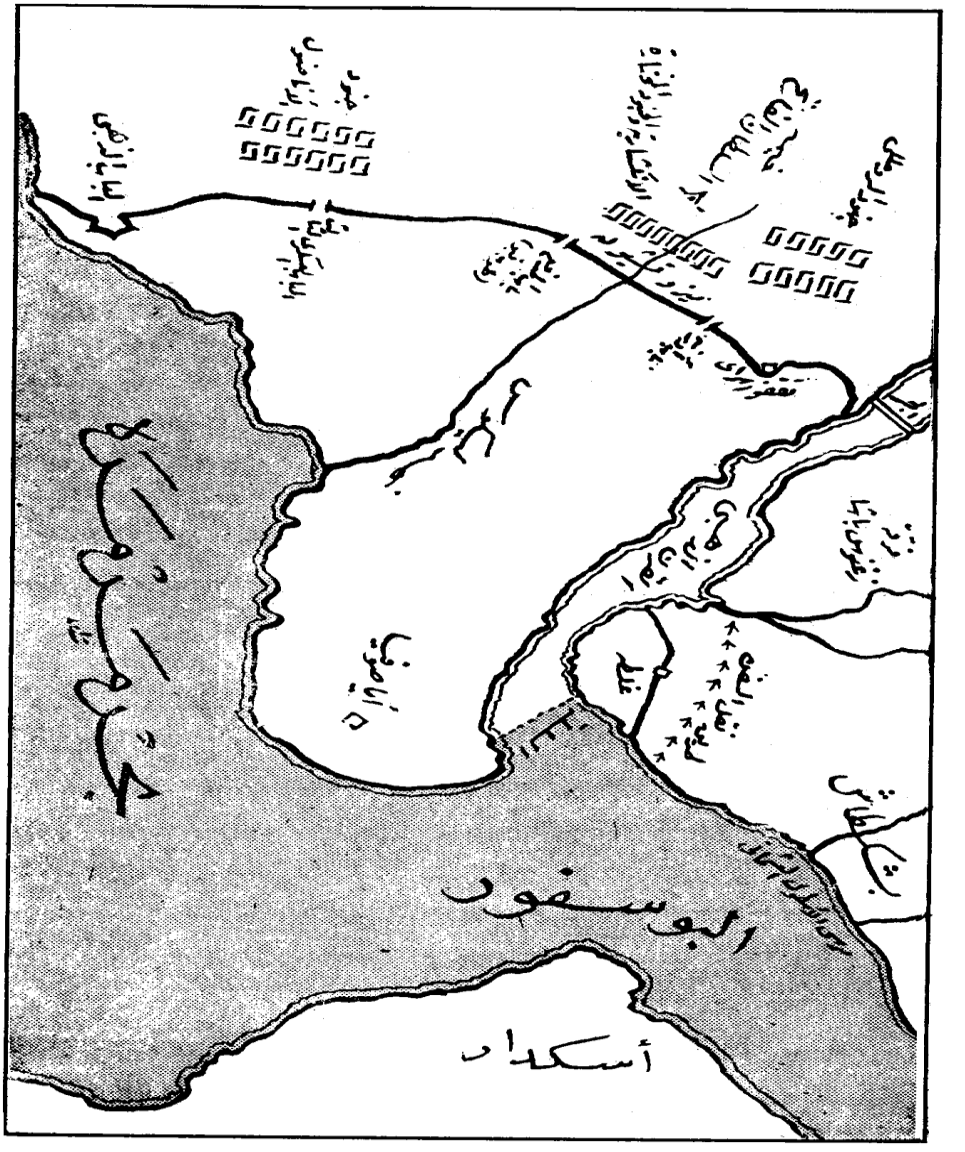
رومانيا. ومهد لفتح البوغدان حتى استسلمت لابنه بايزيد الثاني، وفتح أماصرة وهي مدينة على البحر الأسود في آسيا ، واستولى على إمارة سينوب الواقعة على البحر الأسود في آسيا، وفتح أرضروم، وفتح (طرابزون) كما طهّر الفاتح حدوده الشمالية من كل خطر، فامتدت أملاكه حتى البحر الأسود شمالًا، وفتح (القرمان) وضمها إلى الدولة العثمانية، وفتح مدينة (كفه) وهي أكبر قاعدة تجارية للجنويين في القريم، وفتح شبه جزيرة القريم، وبسيطرة العثمانيين على القريم وسيطرة أسطولهم على البحر الأسود، أصبح هذا البحر بحيرة عثمانية لا ينازعهم في سيادتها منازع، ووقع ممثل البندقية باسم حكومته معاهدة الصلح بينها وبين السلطان الفاتح،وبمقتضاها تخلت البندقية عن (أرجوس)و(نيجربون)، وسلمت (لنموس) وجميع ألبانيا ماعدا بضعة مواقع على الساحل، واستولى العثمانيون على مدينة (أوترانتو) الإيطالية.وهكذا استمرت الفتوح كما ترى في الأصل حتى مات السلطان وهو في طريقه إلى فتح عاصمة للصليبيين الغربية روما.

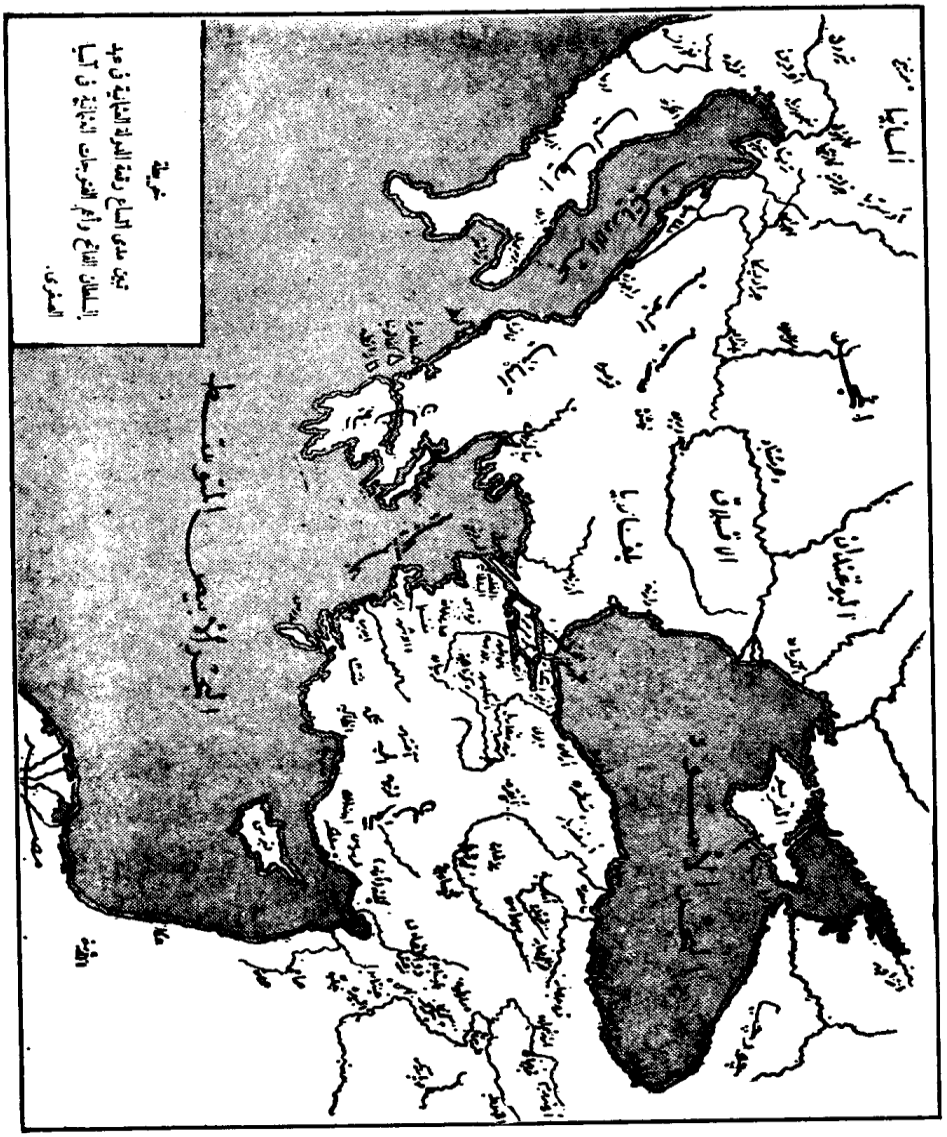
٧- أصبح في وسع الأسطول العثماني بعدتسلم المدن البندقية يجوب بحار المشرق بحرية وأمان، كما جعل كبرى الدول الإيطالية فوق ذلك طوع يدي الفاتح.

٧- استقبل المسلمون هذا النصر والفتح المبين بالفرح والسرور والدعاء لهذا السلطان الفاتح رحمه الله.

٨- خريطة القسطنطينية:


البحر الأسود
بلغاريا
أنقرة
تركيا
البحر المتوسط
قبرص
سوريا
العراق
جورجيا


البوسفور
أسكدار


خريطة
تبين مدى اتساع رقعة الدولة العثمانية في عهد
السلطان الفاتح وأهم الفتوحات العثمانية في آسيا
الصغرى.
آسيا
الأناضول
البوغدان
بلغاريا
البحر الأسود
البحر المتوسط
مصر



المعركة التاسعة عشرة : معركة (بروزة) الفاصلة

تمهيد

بطل هذه المعركة هو خير الدين بربا روسا واسمه خضر بن يعقوب. وُلد في عام (٨٧١هـ)، وعاش هو وأخوه تمروج في جزيرة جربة التونسية، وجعلاها مركزًا للقيام بعملياتهما الحربية في البحر المتوسط والتصدي لقراصنة البحار والصليبيين. كما ساعدا على تأمين سواحل الجزائر والمغرب، وباتا خطرًا كبيرًا يهدد أساطيل الإسبان والبرتغال. وفي عام (٩٢٢هـ) عين السلطان العثمانى سليم الأول خير الدين حاكمًا على الجزائر بعد أن هزم الأسطول الإسبانى عام (٩١٩هـ)، واستطاع خير الدين إنقاذ عشرات الآلاف من مسلمي الأندلس من محاكم التفتيش ونقلهم إلى الشمال الإفريقي عام(٩٤٠هـ) [١] «وقد قام «خير الدين» بسلسلة من الغارات على الأسطول الإسبانى، كما قام في الوقت نفسه بسبع رحلات من «الجزائر» إلى ساحل «الأندلس»، تمكن خلالها من نقل (٧٠) ألف مسلم أندلسي، فأنقذهم بذلك من الموت حرقًا باسم «محاكم التفتيش» فاستدعاه السلطان سليمان القانوني إلى إستانبول وعهد إليه بمهمة قيادة أسطول الدولة، فنجح في بناء أسطول قوي ضمَّ به تونس إلى الخلافة العثمانية، كما قاد معركة بَرْوَزة أشهر معركة بحرية في القرن العاشر الهجرى، ضد الجيوش الأوربية وهزمهم هزيمة ساحقة. وتُوفِّي خير الدين بإستانبول عام (٩٥٣هـ)» [٢].

---

(١) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (٨/ ٤٢).

(٢) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (١٠/ ٧٣٨).

السلطان العثماني ينشئ أول أسطول بحري ويعين أمير البحار.

في العام الهجري: ٩٤٠هـ عزم السلطان سليمان القانوني بعد أن استولى على بلغراد، السفر بسائر جنوده إلى أسبانيا للاستيلاء عليها، وبدا للسلطان سليمان، أنه لابد له من رجل يعتمد عليه في دخول تلك البلاد على أن يكون عالماً بأحوالها فوقع اختياره على خير الدين لما يعرفه عنه من شجاعة وإقدام، وكثرة هجومه على تلك النواحي، وما فتحه من بلاد في الشمال الإفريقي وكيف أقر الحكم العثماني فيها، فوجه إليه خطابا يطلبه فيه إلى حضرته ويأمره باستنابة بعض من يأمنه في الجزائر، فعزم خير الدين على السفر إلى استنابول ٩٤٠هـ وعين مكانه حسن آغا الطوشي، ولما وصل إلى استنبول احتفل به واستقبل بكل حفاوة وفوض إليه الخليفة سليمان النظر في دار الصناعة، ومنحه لقب قبودان باشا -وزير بحرية - حتى تظل له السلطة الكاملة لمساندة النظام في الجزائر لتحقيق هدف الدولة في استعادة الأندلس[١].

غارات خير الدين باربروس على السواحل الأوربية.

بعد أن تم إعداد الأسطول العثماني الجديد بقيادة خير الدين باربروس خرج خير الدين بأسطوله القوي من الدردنيل متجهًا نحو سواحل إيطاليا الجنوبية، فاستطاع أن يأسر الكثير منها، وأغار على مدنها وسواحلها، ثم اتجه نحو جزيرة صقلية، فاسترجع كورون وليبانتو وكريت[٢].

خير الدين بربروس يفتح تونس: في العام الهجري: ٩٤١هـ كانت المرحلة الثانية بالنسبة لخير الدين بعد هجومه على السواحل الجنوبية لإيطاليا وجزيرة صقلية هي تونس، وذلك لتنفيذ خطة الدولة، والتي تقتضي تطهير شمال إفريقيا من

---

(١) «الموسوعة التاريخية - الدرر السنية» (٧/ ٤٢٩).
(٢) «الموسوعة التاريخية - الدرر السنية» (٧/ ٤٣١)

الأسبان كمقدمة لاستعادة الأندلس، وصل الأسطول العثماني تحت قيادة خير الدين إلى السواحل التونسية فعرج على مدينة عنابة، وتزود ببعض الإمدادات، ثم تقدم نحو بنزرت ثم اتجه إلى حلق الواد، إذ تمكن منها بدون صعوبة، واستقبل خير الدين من قبل الخطباء والعلماء، وأكرموه وتوجهوا إلى تونس في نفس الوقت وهرب السلطان الحفصي الحسن بن محمد إلى أسبانيا، ثم عين خير الدين الرشيد أخو الحسن بن محمد على تونس، وأعلن ضم تونس للأملاك العثمانية، في وقت بدت فيه سيادة العثمانيين في حوض البحر المتوسط الغربي[١].

احتلال تونس من قبل إسبانيا

في العام الهجري:٩٤٢هـ في شهرمحرم لم تلبث تونس كثيرًا تحت يد العثمانيين حتى اتفق شارلكان وأسبان برشلونة ورهبان مالطة على الحرب واستعادة تونس التي كانت تحت يد الأسبان قبل أن يستعيدها خير الدين العام الماضي، مستغلين انشغال العثمانيين بحربهم ضد الصفويين الرافضة، فتوجه الجيش بقيادة شارلكان نفسه ملك أسبانيا بحملة بحرية كبيرة تكونت من ثلاثين ألف مقاتل أسباني وهولندي وألماني ونابولي وصقلي، على ظهر خمسمائة سفينة، وركب الأمبراطور البحر من ميناء برشلونة وعندما رست سفنه أمام تونس قامت المعارك العنيفة بين الطرفين، لم تكن قوة خير الدين بكافية للرد على ذلك الهجوم، فكان الجيش الإسلامي تعداده سبعة آلاف جندي عثماني وصلوا مع خير الدين ونحو خمسة آلاف تونسي، كما تخلف الأعراب عن الجهاد فكانت النتيجة أن استولى شارل على معقل حلق الوادي مرسى تونس، ونصب الأسبان الحسن بن محمد حاكماً عليها، وعملاً بمنطوق المعاهدة كان الحسن بن محمد سيسلم بونة والمهدية إلى شارل الخامس، فاستولى على بونة، وبما أن المهدية كانت في حوزة العثمانيين، فإن الحسن

(١) «الموسوعة التاريخية – الدرر السنية» (٧/ ٤٣٤).

لم يستطع الوفاء بعهده فاشترط الأسبان عليه أن يكون حليفاً ومساعداً لفرسان القديس يوحنا بطرابلس وأن يقوم بمعاداة العثمانيين وأن يتحمل نفقات ألفي أسباني على الأقل يتركون كحامية في قلعة حلق الواد وعاد شارل الخامس إلى أسبانيا بعد أن ارتكبوا أفظع الجرائم في تونس عند دخولهم فيها مظهرين الحقد الدفين فجعلوا جامع الزيتونة اسطبلًا لخيولهم وأحرقوا المساجد والكتب النادرة فيها، غير قتلهم النساء والأطفال[١].

(خير الدين بربروسا) يلاحق الأسطول الأسباني ويشتبك معه في عدة معارك

في العام الهجري:٩٤٣هـ قام بالهجوم على جزر البليار الأسبانية وعلى سواحلها الجنوبية، فاجتاز مضيق جبل طارق، وأطلق العنان لنفسه بالانقضاض على السفن الأسبانية والبرتغالية العائدة من الأراضي الأمريكية، والمحملة بالذهب والفضة، فاهتزت لتلك الأحداث جميع الأوساط الصليبية، وأقلقت شارل الخامس الذي اعتقد أن خير الدين لن يقوى شأنه بعد حادثة تونس السابقة ويعتبر ذلك هو رد الفعل على الهجوم المضاد الذي قام به الأسبان على تونس وبدا وكأن الإمبراطورية الرومانية قد طوقت من قبل خصومها الفرنسيين والعثمانيين مما أدى إلى استئناف الحروب بينهما من جديد كما صارت أهداف أسبانيا والبرتغال واحدة وذلك في احتلال مراكز في بلاد المغرب بالإضافة إلى خوفهم من تقدم العثمانيين داخل شبه الجزيرة الأيبيرية. [٢] فتداعوا لحرب المسلمين فكان اللقاء في بروزة.

معركة بروزة

موقعة بحرية بين الجيوش الأوربية المتحالفة والعثمانيين.وهى تعد من المعارك البحرية الخالدة في التاريخ الإسلامي الحديث، فقد دعا البابا«بول الثالث» الجيوش

(١) «الموسوعة التاريخية – الدرر السنية» (٧/ ٤٣٦).
(٢) «الموسوعة التاريخية – الدرر السنية» (٧/ ٤٣٩).

الأوربية إلى الاتحاد ضد العثمانيين، وتكوَّن منهم تحالف بحري ضمَّ أكثر من (٦٠٠) سفينة و (٦٠) ألف جندي[من إسبانيا والنمسا والبندقية]، يقودها «أندريا دوريا الجنوي»، وهو من أمهر القادة البحرية في ذلك الوقت. وتكوَّن الأسطول الإسلامي من (١٢٢) قطعة بحرية، و (٢٢) ألف جندي، والتقى الأسطولان في (٤ من جمادى الأولى٩٤٥هـ) أمام «بروزة» في البحر المتوسط يبعد عن الساحل نحو تسعة كم. وضع خير الدين بربروسا أسطوله على شكل هلال، وعيَّن على رأس جناحه الأيمن صالح رئيس. وعلى رأس جناحه الأيسر سيدي على رئيس. وقاد خير الدين الجناح الأوسط بنفسه، وأمر طورغود بأن يقود احتياطى الأسطول، ويبقى في الخلف.واستعمل خير الدين بربروسا عنصر المباغتة، ولم يكن أسطول الصليبيين مستعدًّا؛ مما أدى إلى اختلال نظامه؛ فما لبث أن تفرق، بدأ بربروسا بإطلاق نيران مدفعيته على سفن العدو، وعلى حين غرة وعندما لم يكن أسطول الصليبيين يتوقع الهجوم إذا بخير الدين بربروسا ينطلق إلى مقدمة الأسطول الصليبي الذي اختل نظامه بفعل المباغته وما لبث أن تفرق وإذا بالقائد أندريا دوريا يهرب نجاة بحياته، ولقد كان انتصار العثمانيين في هذه المعركة انتصارا يدين [بعد فضل الله] للمباغته والهجوم الغير متوقع من خير الدين بربا روس، وجعل هذا النصر، السيطرة في البحر المتوسط للعثمانيين وهرب قائده أندريا دوريا؛ نجاة بحياته. ولم تستمر المعركة أكثر من خمس ساعات تمكَّن في نهايتها «خير الدين» من حسم المعركة لصالحه، وصارت السيادة للعثمانيين في البحر المتوسط [١]. فتم النصر بعد استبسال عظيم قتل فيه من المسلمين أربعمائة بطل ومجاهد رحمة الله عليهم، وهكذا جرح ضِعف ذلك ، ولكنهم نسفوا السفن الحربية الصليبية نسفًا دمرت ثلاث عشرة سفينة بمن عليها حتى صبغوا وجه الماء بدمائهم، وعطلت

(١) «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (١٣/ ١٢١).

مائة وعشرون سفينة غيرها تعطيلًا جزئيًا أعاق أهلها عن الفرار ولذا أسر ثلاثة آلاف من النصارى، وغنم المسلمون كثيرًا من سفنهم سالمة، وكان الجريء من عباد الصليب من تمكن من الفرار والحمد لله رب العالمين.

(ملخص معركة بروزة البحرية الفاصلة)

١ – اسم المعركة : بروزة وهي مدينة يونانية تقع غرب بلادهم.

٢– مكان المعركة : وقعت المعركة في خليج أكتيوم بالقرب من ميناء بريفيزا .

٣– تاريخ المعركة: ٤/جمادى الأولى سنة (٩٤٥هـ)

٤ – الفريقان المتقاتلان :

الجيش العثماني المسلم: بقيادة وزير البحرية خير الدين بربا‌روسا خضر بن يعقوب رحمه الله تعالى في خلافة السلطان العثماني سليمان القانوني رحمه الله.

الجيش النصراني: بقيادة البحار أندريا دوريا الجنوي.

٥– عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما:

أولًا المسلمون:

❋ تكوَّن الأسطول الإسلامى من (١٢٢) قطعة بحرية، و (٢٢) ألف جندي وضع خير الدين بربروسا أسطوله على شكل هلال.

١ – عيَّن خير الدين على رأس جناحه الأيمن صالح رئيس.

٢– وعلى رأس جناحه الأيسر سيدي علي رئيس.

٣– وقاد خير الدين الجناح الأوسط بنفسه.

٤ – وأمر طورغود بأن يقود احتياطى الأسطول، ويبقى في الخلف.

❋ استعمل خير الدين بربروسا عنصر المباغتة.

ثانيا النصارى: تكوَّن منهم تحالف بحري ضمَّ أكثر من (٦٠٠) سفينة و (٦٠) ألف جندي، يقودها أندريا دوريا ، وهو من أمهر القادة البحرية في ذلك الوقت.

٦- سبب المعركة : دعا البابا بول الثالث، الجيوش الأوربية للاتحاد ضد العثمانيين، وتكون تحالفًا صليبيًا بحريًا وسعى في ذلك شارلكان ملك أسبانيا للانتقام من خير الدين بربروسا الذي له منّ الله تعالى به على المسلمين لحماية الثغور ولتكون بلاد المغرب كلها من أقصاها إلى أقصاها خاضعة لهم وليست تابعة للعثمانيين بالإضافة إلى خوفهم من تقدم العثمانيين داخل شبه الجزيرة الأيبيرية.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- انتصر المسلمون وفرّ من سلم من الصليبيين، بعد تدمير ثلاث عشرة سفينة، والاستيلاء على ستة وثلاثين سفينة، وتم أسر ثلاثة آلاف جندي.

٢- جعل هذا النصر، السيطرة في البحر المتوسط للعثمانيين بفضل من الله سبحانه، وضحى المسلمون بأربعمائة جندي في هذه المعركة، وثمانمائة جريح.

٣- العلم بأن حقد الكفار لا دواء له إلا الجهادفي سبيل الله تعالى لا في سبيل الوطنية.

٤- لمّا كان الجهاد تحت راية ولي الأمر كان ذلك من أسباب النصر ولو كانت لديه مخالفات فالشأن أنه مسلم فالدولة العثمانية مع ما لديها من مخالفات لكنها كانت تغار على ملة الإسلام وتنتصر لها كيف والإسلام هو الدين الذي رفعها الله تعالى به.

٥- كم من رجال قدموا للإسلام والمسلمين الشيء الكثير ومع ذلك لا يعرف عنهم المسلمون كبير شيء ، فالنصيحة أن نطالع التاريخ الإسلامي لنتعرف على هؤلاء الرجال ، ولنعرف خمولنا أمام شموخهم وعزتهم وتضحيتهم.

٨- خريطة موقعة بروزة:




الجبل
الأسود
صربيا
بلغاريا
مقدونيا
ألبانيا
اليونان
بحر
إيجة
البحر
الأيوني
صقلية
البحر المتوسط





المعركة العشرون: معركة وادي المخازن الفاصلة

تمهيد

بعد تجزؤ دولة الموحدين حكم بنو مرين في المغرب الأقصى، ثم خلفهم عام (٨٢٣هـ) بنو وطاس واستمر أمرهم حتى عام (٩١٦هـ) وفي أيامهم احتل البرتغاليون شواطئ المغرب، فتضايق المسلمون من هذا التوسع الصليبي، وخاصة أن النصارى من إسبان وبرتغال قد طردوا المسلمين من الأندلس ، ونكلوا بهم أشد تنكيل، وانطلقت جموع من المسلمين شاردة على وجوهها نحو المغرب فتأثر المسلمون لما حلّ بإخوانهم وخافوا على أنفسهم أن يصيبهم ما أصاب الناس في الأندلس فسقطت أسهم بني وطاس وبدأ التفكير فيمن يقود الناس للوقوف أمام هذا المد الصليبي الزاحف واتجهت الأنظار نحو شيخ السعديين أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله وقد كان يفكر في إنقاذ المغرب ويحلم بذلك ومع عرض نفسه وتفتيش الناس عن منقذ اتجهوا إليه وبايعوه عام (٩١٦هـ) فأعلن الجهاد ودعا الناس إلى القتال فالتفوا حوله فقاتل البرتغاليين ، وانتصر عليهم وأجلاهم عن الأماكن التي بقوا في بعضها (٧٢سنة) [١]وكان العثمانيون يدعمون السعديين ويحثونهم على قتال الصليبيين، ويشجعونهم على العمل معًا لاستعادة الأندلس وبتلك المساعدات تمكن السعديون من دخول فاس عام(٩٥٥هـ) غير أن النصارى عملوا على الإيقاع بين الطرفين فنقلوا أن العثمانيين لهم نية في احتلال المغرب

(١) توفي القائم بأمر الله سنة (٩٢٣هـ) واستخلف ابنه أحمد الأعرج فبقي مدة ثم أفسد الوشاة ما بينه وبين أخيه أبي عبد الله محمد الشَّيْخ فاعتقله وتلقب بالمهدي .

فوقعت الشكوك واغتيل السلطان أبو عبد الله محمد المعروف بالشيخ الملقب بالمهدي [ابن شيخ السعديين أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله]وقام مكانه ابنه عبد الله الْغَالِب بِاللَّه فلما توفي بويع ابنه محمد المتوكل على الله فوطد علاقته مع الإسبان والبرتغاليين ، ووقع معاهدة مع البرتغال تنص على إرسال جيش مغربي برتغالي لإخراج العثمانيين واتهم الصليبيون العثمانيين باغتيال السلطان السعدي، والتجأ عبد الملك وأحمد المنصور ابنا السلطان محمد [المهدي ابن مؤسس الدولة السعدية] إلى العثمانيين واشتكيا [ابن أخيهما] بأنه اغتصب الملك منهما فأمدهما الخليفة العثماني سليم بن سُلَيْمَان رَحمَه الله بجيش قوامه خمسة آلاف جندي وتمكنت هذه القوة من دخول فاس عام(٩٨٢هـ) وتنصب عبد الملك (المعتصم) سلطانًا على المغرب ولما استقر حكمه انسحبت القوة إلى الدولة العثمانية والتجأ الملك السعدي المعزول عم السلطان عبد الملك إلى البرتغال فطلب معاونتهم على وطنه فحصلت معركة وادي المخازن الآتي تفصيلها إن شاء الله تعالى[1]:

تفاصيل المعركة

قال شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري السلاوي (المتوفى: ١٣١٥هـ) في كتابه: [«الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» (٥/ ٦٩):].

«الْغَزْوَة الْكُبْرَى بوادي المخازن من بِلَاد الهبط وَالسَّبَب فِيهَا. كَانَ من خبر هَذِه الْغَزْوَة أَن السُّلْطَان المخلوع أَبَا عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله السَّعْدِيّ لما دخل طنجة قصد طاغية البرتغال واسْمه سبستيان بِكَسْر السِّين وَفتح الْبَاء وَالسِّين وَسُكُون التَّاء الْقَرِيبَة من الطَّاء وَهُوَ طاغيتهم الْأَعْظَم وَلَيْسَ قَائِد الْجَيْش فَقَط على مَا هُوَ الْمُحَقق فِي تواريخهم وتطارح عَلَيْهِ وشكا إِلَيْهِ مَا ناله من عَمه أبي مَرْوَان المعتصم

(١) «التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر رحمه الله» (٨/ ٥٢٣-٥٢٧) بتصرف.

بِاللَّه وَطلب مِنْهُ الْإِعَانَة عَلَيْهِ كي يسترجع ملكه وينتزع مِنْهُ حَقه فأشكاه الطاغية ولبى دَعوته وصادف مِنْهُ شَرها إِلَى تملك سواحل الْمغرب وأمصاره فَشرط عَلَيْهِ أَن يكون لِلنَّصَارَى سَائِر السواحل وَله هُوَ مَا وَرَاء ذَلِك فَقبل أَبُو عبد الله ذَلِك وَالْتَزَمَهُ وللحين جمع الطاغية جموعه واستوعب كبراء جَيْشه ووجوه دولته وعزم على الْخُرُوج إِلَى بِلَاد الْإِسْلَام.

وَمن الْمُتَوَاتر فِي تواريخ الإفرنج أَن كبار دولته حذروه عَاقِبَة هَذَا الْخُرُوج ونهوه عَن التَّغْرِير ببيضة البرتغال وتوريطها فِي بِلَاد الْمغرب وقبائله فَصم عَن سَماع قَوْلهم ولج فِي رَأْيه وَملك الطمع قلبه وأبى إِلَّا الْخُرُوج فأسعفوه وَخرج من طنجة فِي جَيش قَالَ ابْن القَاضِي فِي الْمُنْتَقى الْمَقْصُور عدده مائَة ألف وَخَمْسَة وَعِشْرُونَ ألفا وَقَالَ أَبُو عبد الله مُحَمَّد الْعَرَبِيّ الفاسي فِي مرْآة المحاسن يُقَال إِن مجموعهم كَانَ مائَة ألف وَعشْرين ألفا وَأَقل مَا قيل فِي عَددهمْ ثَمَانُون ألف مقَاتل وَكَانَ مَعَ مُحَمَّد بن عبد الله نَحْو الثلاثمائة من أَصْحَابه قَالَ بَعضهم وَكَانَ عدد الأنفاض الَّتِي يجرونها مِائَتَيْنِ وقصدوا هَلَاك الْمغرب وحصد الْمُسلمين وإدارة رحى الهوان على الدّين فَعظم ذَلِك على النَّاس وامتلأت صُدُورهمْ رعْبًا وَقُلُوبهمْ كربًا وَبَلغت الْقُلُوب الْحَنَاجِر واتقدت بهَا نيران الهواجر.

وَكَانَ خُرُوج مُحَمَّد بن عبد الله بِجَيْش البرتغال وفصوله بِهِ من طنجة فِي ربيع الثَّانِي سنة سِتّ وَثَمَانِينَ وَتِسْعمِائَة قَالَ فِي الْمرْآة إِنَّهُم لما خَرجُوا إِلَى بِلَاد الْإِسْلَام ضربوا محلاتهم بالفحص على أقل من مسيرَة يَوْم من مَدِينَة الْقصر وَكَانَت آصيلا قد تصيرت إِلَيْهِم قبل ذَلِك بأشهر يَعْنِي بعد فرارهم عَنْهَا أَيَّام السُّلْطَان مُحَمَّد الشَّيْخ كَمَا تقدم فعاين أهل الْقصر الهلكة لقرب الْعَدو مِنْهُم وقوته الَّتِي لَا طَاقَة لَهُم بهَا وَفَشَا النِّفَاق لأجل السُّلْطَان مُحَمَّد بن عبد الله الَّذِي مَعَهم وَلأَجل بعد صريخ الْمُسلمين فَإِن السُّلْطَان أَبَا مَرْوَان المعتصم بِاللَّه كَانَ إِذْ ذَاك بمراكش فاستبطؤوا

وُصُول الْخَبَر إِلَيْهِ ثمَّ مَجِيئه بعد ذَلِك فَلم يبْق لَهُم تَدْبِير إِلَّا الْفِرَار والتحصن بالجبال وَغَيرهَا فَقَالَ الشَّيْخ أَبُو المحاسن يُوسُف الفاسي رَحمَه الله وَكَانَ إِذْ ذَاك بِالْقصرِ لرجل من أَصْحَابه نَاد فِي النَّاس أَن الزموا بِلَادكُمْ ودوركم فَإِن عَظِيم النَّصَارَى مسجون حَيْثُ هُوَ حَتَّى يَجِيء السُّلْطَان من مراكش وَإِن النَّصَارَى غنيمَة للْمُسلمين وَمن شَاءَ فليعط خمسين أُوقِيَّة فِي النَّصْرَانِي يُشِير إِلَى مبلغ قيمَة النَّصْرَانِي فِي الْغَنِيمَة فَمَا انْتقل النَّصَارَى من مكانهم ذَلِك أَكثر من شهر حَتَّى قدم السُّلْطَان أَبُو مَرْوَان وَكَانَ مَرِيضًا. اهـ.

وأمدت الدولة العثمانية السعديين بقوة تضم ستة آلاف من الرماة ، وثمانمائة فارس ، ومعهم اثنا عشر مدفعًا، إضافة إلى ألف من المشاة .

اقترب يوم المعركة

وَقَالَ فِي النزهة إِن النَّصَارَى لما برزوا من طنجة شنوا الْغَارة على السواحل فَأعْلم أَهلهَا السُّلْطَان أَبُو مَرْوَان وَكَانَ بمراكش وَشَكوا إِلَيْهِ كلب الْعَدو عَلَيْهِم فَكتب السُّلْطَان أَبُو مَرْوَان من مراكش إِلَى الطاغية إِن سطوتك قد ظَهرت فِي خُرُوجك من أَرْضك وجوازك العدوة فَإِن ثَبت إِلَى أَن نقدم عَلَيْك فَأَنت نَصْرَانِيّ حَقِيقِيّ شُجَاع وَإِلَّا فَأَنت كلب ابْن كلب فَلَمَّا بلغه الْكتاب غضب وَاسْتَشَارَ أَصْحَابه هَل نُقِيم حَتَّى يلْحق بِنَا من خلفنا من أَصْحَابنَا فَقَالَ لَهُ مُحَمَّد بن عبد الله الرَّأْي أَن نتقدم ونملك تطاوين والعرايش وَالْقصر ونجمع مَا فِيهَا من الْعدة ونتقوى بِمَا فِيهَا من الذَّخَائِر فأعجب ذَلِك الرَّأْي أهل الدِّيوَان وَلم يعجب الطاغية وَكتب السُّلْطَان أَبُو مَرْوَان لِأَخِيهِ أبي الْعَبَّاس أَحْمد وَكَانَ نَائِبه على فاس وأعمالها أَن يخرج بجيوش فاس وأحوازها ويتهيأ لِلْقِتَالِ ثمَّ كتب إِلَيْهِ أَيْضا فِي شَأْن مُؤنَة الْجَيْش كتابا يَقُول فِيهِ من عبد الله المعتصم بِاللَّه الْمُجَاهِد فِي سَبِيل الله أَمِير الْمُؤمنِينَ أبي مَرْوَان عبد الْملك بن أَمِير الْمُؤمنِينَ أبي عبد الله مُحَمَّد الشَّيْخ الشريف الحسني أيد الله أمره وأعز نَصره إِلَى أخينا الْأَعَز الأنجب بَابا أَحْمد ابْن مَوْلَانَا الْوَالِد حرس الله

كريم إخائه سَلام كريم وَرَحْمَة الله وَبَرَكَاته أما بعد: فَإِنَّا كتبناه إِلَيْكُم من محلتنا السعيدة بتامسنا وَلَا زَائِد بِحَمْد الله إِلَّا الْخَيْر والعافية وَالنعَم الضافية هَذَا وَإِنَّهُ سَاعَة وُصُوله إِلَيْكُم تخرجُونَ من الخدام لعمالة مكناسة وقبيلة آزمور وَأَوْلَاد جلول من يفْرض عَلَيْهِم علف محلتنا المنصورة ومؤنتها وَيَأْمُرهُمْ بِرَفْعِهِ وإبلاغه إِلَى مَدِينَة سلا وَقدر ذَلِك صَحْفَة شعير وَعِشْرُونَ مدا من الْقَمْح لكل نائبة وَصَاع من سمن وكبش لكل أَربع نَوَائِب ووكد عَلَيْهِم رعاك الله أَن يعتنوا بذلك وبإيصاله إِلَى الْمَكَان الْمَذْكُور من غير عطلة وَهَذَا مَا وَجب بِهِ الْإِعْلَام إِلَيْكُم وَالله يرعاكم بمنه وَالسَّلَام اهـ. ثمَّ كتب السُّلْطَان أَبُو مَرْوَان للطاغية ثَانِيَة وَذَلِكَ بعد مَا وصل إِلَى الْقصر إِنِّي رحلت إِلَيْك سِتّ عشرَة مرحلة أما ترحل إِلَى وَاحِدَة فَرَحل الطاغية من مَوضِع يُقَال لَهُ تاهدارت وَنزل على وَادي المخازن بمقربة من قصر كتامة وَكَانَ ذَلِك من السُّلْطَان أبي مَرْوَان مكيدة ثمَّ إِن الطاغية تقدم بجيوشه وَعبر جسر الْوَادي وَنزل من هَذِه العدوة فَأمر السُّلْطَان بالقنطرة أَن تهدم وَوجه إِلَيْهَا كَتِيبَة من الْخَيل فهدموها وَكَانَ الْوَادي لَا مشرع لَهُ سوى القنطرة ثمَّ زحف السُّلْطَان أَبُو مَرْوَان إِلَى الْعَدو بجيوش الْمُسلمين وخيل الله المسومة وانضاف إِلَيْهِ من المتطوعة كل من رغب فِي الْأجر وطمع فِي الشَّهَادَة.

دور العلماء في الجهاد

وَأَقْبل النَّاس سرَاعًا من الْآفَاق وابتدروا حُضُور هَذَا المشهد الْجَلِيل فَكَانَ مِمَّن حَضَره من الْأَعْيَان الشَّيْخ أَبُو المحاسن يُوسُف الفاسي وَغَيره قَالَ فِي الْمرْآة كَانَ الشَّيْخ أَبُو المحاسن فِي ذَلِك الْيَوْم فِي أحد الجناحين وَأَظنهُ الميسرة من عَسْكَر الْمُسلمين فِي مُقَابلَة النَّصَارَى دمرهم الله قَالَ فَوَقع فِي ذَلِك الْجنَاح انكسار تزحزح بِهِ الْمُسلمُونَ عَن مَصَافهمْ وحملت عَلَيْهِم النَّصَارَى دمرهم الله فَثَبت الشَّيْخ وَثَبت من كَانَ مَعَه إِلَى أَن منح الله الْمُسلمين النَّصْر وركبوا أكتاف الْعَدو يقتلُون وَيَأْسِرُونَ

وَالشَّيْخ لم يتزلزل وَلم يلْتَفت مُنْذُ توجه إِلَى قِتَالهمْ حَتَّى فتح الله عَلَيْهِم. اهـ.

وَلما الْتَقت الفئتان وزحف النَّاس بَعضهم إِلَى بعض وَحمى الْوَطِيس واسود الجو بنقع الْجِيَاد ودخان المدافع وَقَامَت الْحَرْب على سَاق توفّي السُّلْطَان أَبُو مَرْوَان رَحمَه الله عِنْد الصدمة الأولى وَكَانَ مَرِيضًا يُقَاد بِهِ فِي محفة فَكَانَ من قَضَاء الله السَّابِق ولطفه السابغ أَنه لم يطلع على وَفَاته أحد إِلَّا حَاجِبه مَوْلَاهُ رضوَان العلج فَإِنَّهُ كتم مَوته وَصَارَ يخْتَلف إِلَى الأجناد وَيَقُول السُّلْطَان يَأْمر فلَانا أَن يذهب إِلَى مَوضِع كَذَا وَفُلَانًا أَن يلْزم الرَّايَة وَفُلَانًا يتَقَدَّم وَفُلَانًا يتَأَخَّر.

وَقَالَ شَارِح الزهرة لما توفّي السُّلْطَان أَبُو مَرْوَان لم يظْهر الَّذِي كَانَ سائس المحفة مَوته فَصَارَ يقدم دَوَاب المحفة نَحْو الْعَدو وَيَقُول للجند السُّلْطَان يَأْمُركُمْ بالتقدم إِلَيْهِم وَعلم أَيْضًا بِمَوْتِهِ أَخُوهُ وخليفته أَبُو الْعَبَّاس أَحْمد بن الشَّيْخ فكتمها وَلم يزل الْحَال على ذَلِك وَالنَّاس فِي المناضلة والمقاتلة ومعانقة القواضب والاصطلاء بِنَار الطعان واحتساء كؤس الْحمام إِلَى أَن هبت على الْمُسلمين ريح النَّصْر [وأعانهم الله تعالى] وأثمرت أَغْصَان رماحهم زهر الظفر فولى الْمُشْرِكُونَ الأدبار ودارت عَلَيْهِم دَائِرَة الْبَوَار وحكمت السيوف فِي رِقَاب الْكفَّار فَفرُّوا ولات حِين فرار وَقتل الطاغية سبستيان عَظِيم البرتغال غريقًا فِي الْوَادي وَقصد النَّصَارَى القنطرة فَلم يَجدوا إِلَّا آثارها فخشعت نُفُوسهم وتهافتوا فِي النَّهر تهافت الْفراش على النَّار فَكَانَ ذَلِك من أكبر الْأَسْبَاب فِي استئصالهم وَأعظم الحبائل فِي اقتناصهم وَلم ينج مِنْهُم إِلَّا عدد نزر وشرذمة قَلِيلَة.

وَقَالَ فِي الْمُنْتَقى الْمَقْصُور كَانَت هَذِه الْغَزْوَة من الْغَزَوَات الْعَظِيمَة الوقائع الشهيرة حضرها جم غفير من أهل الله تَعَالَى حَتَّى إِنَّهَا أشبه شَيْء بغزوة بدر حَدثنَا شَيخنَا أَبُو رَاشد يَعْقُوب البدري عَمَّن يَثِق بِهِ أَن الرجل من حاضري ذَلِك المعترك كَانَ يستبق إِلَى النَّصْرَانِي لينتهز فِيهِ الفرصة فَمَا يصله حَتَّى يجده مَيتا اهـ.

وَبُحث فِي الْقَتْلَى عَن مُحَمَّد بن عبد الله المستصرخ بهم والقائد لَهُم إِلَى مصَارِعهمْ

فَوجدَ غريقا فِي وَادي المخازن وَذَلِكَ أَنه لما رأى الْهَزِيمَة فر ناجيًا بِنَفسِهِ واضطر إِلَى عبور النَّهر فتورط فِي غَدِير مِنْهُ وغرق فَمَاتَ فاستخرجه الغواصون وسلخ وَحشِي جلده تبنًا وطيف بِهِ فِي مراكش وَغَيرهَا من الْبِلَاد.

وَمِمَّنْ وجد صَرِيعًا فِي الْقَتْلَى يَوْمئِذٍ الْفَقِيه أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن عَسْكَر السريفي الشفشاوني صَاحب الدوحة فَإِنَّهُ كَانَ هرب مَعَ المسلوخ وَكَانَ من بطانته فَدخل مَعَه بِلَاد الْعَدو فَوجدَ بَين جيف النَّصَارَى قَتِيلا وَتكلم النَّاس فِي أمره.

وَكَانَ التقاء الجمعين يَوْم الِاثْنَيْنِ منسلخ جُمَادَى الأولى سنة سِتّ وَثَمَانِينَ وَتِسْعمِائَة .

قَالَ فِي الْمُنْتَقى وَكَانَ مِقْدَار زمَان الْمُقَاتلَة خمْسا وَأَرْبَعين دَرَجَة وَقيل اثْنَتَيْنِ وَخمسين على مَا حَدثنِي بِهِ بعض الميقاتيين.

وَقَالَ فِي الْمرْآة وَحصل الْمُسلمُونَ على غنيمَة لم يكن قطّ مثلهَا بالمغرب إِذْ لم يتَقَدَّم لِلنَّصَارَى خُرُوج بِهِ على هَذِه الصُّورَة إِلَّا أَن الْغَنِيمَة لم تقسم وَإِنَّمَا انتهبها النَّاس كَمَا اتّفق لَهُم بِحَسب الْقُوَّة وَالْبخْت الدنيوي وَكَانَ النَّاس يتوقعون مغبتها لاختلاط الْأَمْوَال بالحرام فَظهر ذَلِك من غلاء وَغَيره وَكُنَّا نسْمع أَن الْبركَة رفعت من الْأَمْوَال من يَوْمئِذٍ.

وَقد حضر الشَّيْخ أَبُو المحاسن هَذِه الْغَزْوَة وأبلى فِيهَا بلَاء حسنا وتورع عَن الْغَنِيمَة فَلم يتلبس مِنْهَا بِشَيْء وَبَلغت قيمَة النَّصْرَانِي مَا ذكره الشَّيْخ وَكَانَ سَبَب عدم ضبط الْغَنِيمَة وَقسمهَا على الْوَجْه الْمَشْرُوع موت السُّلْطَان أبي مَرْوَان قبل هزيمَة النَّصَارَى وَكَانَ مَرِيضًا فاشتغل أَخُوهُ أَبُو الْعَبَّاس أَحْمد بِجمع الْكَلِمَة وَلم يهتبل بِأَمْر الْغَنِيمَة فتم لَهُ مَا قصد.

مدى استعداد النصارى:

وَقد سَاق منويل فِي تَارِيخه خبر هَذِه الْوَقْعَة مساقا حسنا فَقَالَ لما استولى عبد

الْملك السَّعْدِيّ الْمَدْعُو عِنْد أهل الْمغرب بمولاي مُلُوك على ملك الْمغرب وطرد ابْن أَخِيه مولَايَ مُحَمَّد الْمَعْرُوف بالأكحل يَعْنِي المسلوخ ذهب أَولا إِلَى إسبانيا وتطارح على طاغية الإصبنيول فيليب الثَّانِي فِي أَن يُعينهُ على استرجاع ملكه فَامْتنعَ ثمَّ دخل أشبونة وتطارح على طاغية البرتغال سبستيان فَأَجَابَهُ وَذهب إِلَى خَاله طاغية الإصبنيول فيليب الْمَذْكُور آنِفا وَطلب مِنْهُ الْإِعَانَة على مَا هُوَ بصدده فوعده بِأَن يُعْطِيهِ من المراكب والعساكر مَا يملك بِهِ العرائش لِأَنَّهُ كَانَ يرى أَنَّهَا تعدل سَائِر مراسي الْمغرب ثمَّ أمده بِعشْرين ألفا من عَسْكَر الإصبنيول وَكَانَ سبستيان قد سَاق مَعَه اثْنَي عشر ألفا من البرتغال وَثَلَاثَة آلَاف من الطليان وَمثلهَا من الألمان وَمن متطوعة الإصبنيول وَغَيرهم عددًا كثيرًا وَبعث إِلَيْهِ البابا صَاحب رومة بأَرْبعَة آلَاف أُخْرَى وبألف وَخَمْسمِائَة من الْخَيل واثني عشر مدفعًا وَجمع سبستيان نَحْو ألف مركب وَجَاء إِلَى قادس.

وَلما عزم على اقتحام بِلَاد الْمغرب تشفعت إِلَيْهِ جدته وأرباب دولته وشيوخ دينه فِي الرُّجُوع فَصم عَنْهُم وَكَذَلِكَ خَاله فيليب حذره عَاقِبَة التوغل فِي أَرض الْمغرب فَصم على ذَلِك كُله وَجَاء إِلَى قادس وَمِنْهَا خرج إِلَى طنجة.

وَكَانَ مُحَمَّد بن عبد الله المسلوخ ينتظره هُنَالك فَاجْتمع بِهِ وزحفوا إِلَى بِلَاد الْمغرب وزحف إِلَيْهِم السُّلْطَان عبد الْملك فِي عَسَاكِر الْمُسلمين وَكَانُوا أَرْبَعِينَ ألفًا وَزِيَادَة ومدافعهم أَرْبَعَة وَثَلَاثِينَ مدفعا وقواد الْجَيْش أَبُو عَليّ القوري وَالْحُسَيْن العلج الجنوي وَمُحَمّد أَبُو طيبَة وَعلي بن مُوسَى وَأَخُوهُ أَحْمد بن مُوسَى الَّذِي كَانَ عَاملا على العرائش فجَاء فِي جمعه إِلَى السُّلْطَان عبد الْملك وانضم إِلَيْهِ وَلما تقَارب الجيشان جمع السُّلْطَان عبد الْملك النَّاس وخطبهم ثمَّ استدعى النَّصَارَى إِلَى الْقِتَال وَنصب لَهُم علامته فأحجموا وَكَانَ قصدهم المطاولة وَقصد السُّلْطَان عبد الْملك المناجزة وَذَلِكَ لِأَن مُحَمَّد المسلوخ قد دس إِلَيْهِ من سمه وَلما أحس عبد الْملك بذلك وَأَنه لَا محَالة هَالك بذل نَفسه لِلْقِتَالِ ليَمُوت فِي الْجِهَاد وَكَانَ المسلوخ يتربص كي

يهْلك عَمه قبل اللِّقَاء فَتَقَع الْفِتْنَة فِي عَسْكَر الْمُسلمين لَكِن جَيش النَّصَارَى لم تكن لَهُم مُؤنَة يطاولون بهَا فألجأهم ذَلِك إِلَى المناجزة وَلما انتشبت الْحَرْب هلك عبد الْملك للحين وَكَانَ أَمر هَذَا الرجل عجبًا فِي الحزم والشجاعة حَتَّى أَنه لما مَاتَ مَاتَ وَهُوَ وَاضع سبابته على فَمه كَأَنَّهُ يُشِير إِلَى جَيْشه أَن يسكتوا عَن الْخَوْض فِي وَفَاته حَتَّى يتم أَمرهم وَلَا يضطربوا وَكَذَلِكَ كَانَ فَإِنَّهُم كتموا مَوته فانتصروا وظفروا بالنصارى ظفرًا لَا كفاء لَهُ فَكَانُوا يذبحونهم مثل الكباش ودهش النَّصَارَى وتكبكبت جموعهم وتراكمت أمتعتهم وصناديقهم وخيلهم وسلاحهم بِلَا تَرْتِيب وَزَادَهُمْ دهشًا أَن بعض طوابيرهم كَانَ يُنَادي صَاحب صفارته وراءكم وراءكم قطعكم الْعَدو ووقدت النَّار فِي بارود النَّصَارَى فنفط وانهزموا إِلَى وَادي المخازن فتهافت جلهم فِيهِ فهلكوا وَالْبَاقِي أسره الْمُسلمُونَ.

وَزعم أَن سبستيان هلك تَحْتَهُ فِي ذَلِك الْيَوْم أَرْبَعَة أَفْرَاس وَكَانَ شَابًّا حَدثًا وَقَالَ لأَصْحَابه إِن تروني تروني أمامكم وَإِن لم تروني فَأَنا فِي وسط الْعَدو أقَاتل عَنْكُم قَالَ وأبدأ وَأعَاد فِي ذَلِك الْيَوْم إِلَى أَن خر قَتِيلًا وَبَقِي مَذْكُورًا عِنْد البرتغال يسمرون بأخباره وَذكره شعراء الأوربا فِي أشعارهم وَلَا زَالُوا يذكرُونَهُ إِلَى الْآن.

وَخلفه فِي ملكه الطاغية الريكي البرتغالي فَهُوَ الَّذِي ولي بعده وافتدى جنَازَته من الْمُسلمين ونقلها إِلَى سبتة فَبَقيت هُنَالك إِلَى أَن هلك الطاغية الريكي وَتَوَلَّى على البرتغال طاغية الإصبنيول فيليب الثَّانِي فَصَارَ ملك الدولتين مَعًا وَهُوَ خَال سبستيان أَخُو أمه فَنقل جنَازَته من سبتة إِلَى أشبونة ثمَّ أرخ منويل الْوَقْعَة بالتاريخ الْعَرَبِيّ والعجمي مُوَافقًا لما مر فَهَذَا مَا ذكره فِي هَذِه الْوَقْعَة.

قَالَ فِي النزهة توفّي السُّلْطَان أَبُو مَرْوَان عبد الْملك بن الشَّيْخ فِي زَوَال الْيَوْم

الْمَذْكُور وَبَايع النَّاس أَخَاهُ أَبَا الْعَبَّاس أَحْمد الْمَنْصُور بِاللَّه[1] كَمَا سَيَأْتِي إِن شَاءَ الله.

وَلما بلغت الْهَزِيمَة إِلَى الطاغية الْأَعْظَم أَعنِي الْقَائِم بِالْأَمر بعد سبستيان يَوْمئِذٍ بعث إِلَى الْمَنْصُور بعد استقلاله بِالْملكِ وَعوده إِلَى فاس كَمَا سَيَأْتِي يلْتَمس مِنْهُ الْفِدَاء فِيمَن بَقِي بِيَدِهِ من الْأُسَارَى فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِك وَحصل لَهُ بِسَبَبِهِ أَمْوَال طائلة وَذكر بَعضهم أَن الْأُسَارَى لما ذَهَبُوا إِلَى بِلَادهمْ قَالَ الطاغية لم لم تَأْخُذُوا تطاوين والعرائش وَالْقصر قبل أَن يصل ملكهم فَقَالُوا لَهُ امْتنع من ذَلِك الْأَمِير الَّذِي كَانَ علينا فَأمر بهم فأحرقوا جَمِيعًا.

شر البلايا ما يضحك: قَالَ فِي النزهة ذكر بَعضهم أَن النَّصَارَى لما وَقعت عَلَيْهِم الكائنة الْمَذْكُورَة وفنى من فنى مِنْهُم وَرَأى أساقفتهم قلَّة عَددهمْ وخلاء بِلَادهمْ لِكَثْرَة من مَاتَ مِنْهُم أباحوا للعامة فَاحِشَة الزِّنَا ليكْثر التناسل ويخلف مَا هلك مِنْهُم وَرَأَوا ذَلِك من نصْرَة دينهم وتقويم أود ملتهم أخزاهم الله اهـ.

وَقد وقفت على تَارِيخ لبَعض مؤرخي الفرنج الإنجليزيين من أهل جَزِيرَة مالطة فرأيته قد ألم بِخَبَر هَذِه الْوَقْعَة وَصرح بِأَنَّهَا كَانَت سَبَب هَلَاك البرتغال وتلاشي دولتهم وَبطلَان كرْسِي سلطنتهم حَتَّى استضافهم إِلَيْهِ طاغية الإصبنيول

---

(١) «هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن علي السعدي الملقب بالمنصور بالله، يعرف أيضًا بالذهبى. رابع سلاطين الدولة السعدية بالمغرب الأقصى. ولد بمدينة فاس بالمغرب سنة (٩٥٦هـ) ونشأ محبًّا للعلم وأهله، متدينًا. تولى ولاية العهد وقيادة الجيش في عهد أخيه السلطان عبد الملك بن محمد وبويع بعده بالسلطنة بدأ أحمد حكمه بالقضاء على الفتن الداخلية التي نشبت بعد وفاة أخيه، أما في سياسته الخارجية فقد تمكن من ضم عدة مناطق إلى دولته مثل بلاد الصحراء تيكورارين، وتوات، وبلاد السودان، وتمبكتو، وتمكن من هزيمة البرتغاليين سنة(٩٩٦ هـ) واستعاد مدينة سبتة من أيديهم. واتصف أحمد المنصور بأنه كان سياسيًّا حاذقًا، محبًّا للفتح والجهاد، وأقام علاقات طيبة مع الدول الأوربية توخى فيها مصلحة بلاده.وترك أعمالاً معمارية كبيرة، منها المسجد الكبير بمراكش وقصر البديع وحصنان في ثغر العرائش ومات أحمد المنصور بمراكش في (ربيع الأولى ١٠١٢ هـ).اهـ بتصرف. «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» (١٠/ ٤٨١ بترقيم الشاملة آليا).

بعد نَحْو سنتَيْن وصيرهم من جملَة رَعيته وَمن فُصُول كَلَامه بعد أَن ذكر أَن أَكثر البرتغال قتلوا فِي ذَلِك الْيَوْم مَا نَصه وَكَانَت يَعْنِي الْوَقْعَة الْمَذْكُورَة وقْعَة هائلة وَيَوْمًا مشؤومًا وَبِالْجُمْلَةِ فقد قتل فِي ذَلِك الْيَوْم سَائِر أَشْرَاف البرتكيسيين وَلم يتَخَلَّف مِنْهُم أحد فَلَمَّا بَطل كرْسِي سلطنتهم قَامَ وقتئذ فيليبس الثَّانِي ملك إسبانيا وَتزَوج ملكتهم وَحكم على الْبِلَاد كلهَا اهـ.

وَقد ألم بِهَذِهِ الْوَقْعَة أَيْضا لويز مَارِيَة فِي كِتَابه الْمَوْضُوع فِي أَخْبَار الجديدة لكنه لم يبسطها على عَادَته فِي السُّكُوت عَن مَا يكون من الظُّهُور فِي جَانب الْمُسلمين وإشاعة مَا يكون من ذَلِك فِي جَانب النَّصَارَى بل وَالزِّيَادَة فِيهِ وَمَعَ ذَلِك فقد قَالَ فِي وصفهَا كلَاما هَذِه تَرْجَمته وَقد كَانَ مخبوءًا لنا فِي مُسْتَقْبل الْأَعْصَار الْعَصْر الَّذِي لَو وَصفته كَمَا وَصفه غَيْرِي من المؤرخين لَقلت هُوَ الْعَصْر النحس الْبَالِغ فِي النحوسة الَّذِي انْتَهَت فِيهِ مُدَّة الصولة وَالظفر والنجاح وَانْقَضَت فِيهِ أَيَّام الْعِنَايَة من البرتغال وانطفأ مصباحهم بَين الْأَجْنَاس وَزَالَ رونقهم وَذَهَبت النخوة وَالْقُوَّة مِنْهُم وَخَلفهَا الفشل وَانْقطع الرَّجَاء واضمحل إبان الْغنى وَالرِّبْح وَذَلِكَ هُوَ الْعَصْر الَّذِي هلك فِيهِ سبستيان فِي الْقصر الْكَبِير من بِلَاد الْمغرب اه فَهَذَا كَلَام هَذَا البرتغالي قد تحفظت عَلَيْهِ وَأديت تَرْجَمته كَمَا هِيَ ليعتبر بِهِ من يقف عَلَيْهِ **وَالْحق مَا شهِدت بِهِ الْأَعْدَاء** وَلما تمت للسُّلْطَان أبي الْعَبَّاس الْمَنْصُور الْبيعَة بوادي المخازن طَالبه الْجَيْش بأرزاقهم واستنجزوا أعطياتهم حَسْبَمَا جرت بِهِ عَادَة من قبله مَعَهم فطالبهم هُوَ بِخمْس الْغَنِيمَة لأَنهم جعلوها نهبى وَلم يقتسموها على الْوَجْه الشَّرْعِيّ كَمَا سبق فصعب استخراجها مِنْهُم لعدم التَّعْيِين وجرأة النَّاس على الْغلُول فسامحهم فِيهَا وسامحوه فِي عطائهم.

التبشير بالنصر وورود التهاني

ثمَّ أَمر الْمَنْصُور بتوجيه كتب البشارات إِلَى الْآفَاق بِهَذَا الْفَتْح الْمُبين فَكتب إِلَى

صَاحب الْقُسْطَنْطِينِيَّة الْعُظْمَى وَهُوَ يَوْمئِذٍ السُّلْطَان مُرَاد بن سليم العثماني وَإِلَى سَائِر ممالك الْإِسْلَام المجاورين للمغرب يعرفهُمْ بِمَا أنعم الله بِهِ عَلَيْهِ من إِظْهَار الدّين وهلاك عَبدة الصَّلِيب واستئصال شأفتهم فوردت عَلَيْهِ الأرسال من سَائِر الأقطار مهنئين لَهُ بِمَا فتح الله على يَده وَكَانَ أول من وَفد عَلَيْهِ رَسُول صَاحب الجزائر ثمَّ تلته أرسال طاغية البرتغال وَهُوَ الريكي الْقَائِم بأمرهم بعد هَلَاك سبستيان وَلَيْسَ خَاله وَإِنَّمَا خَاله طاغية الإصبنيول فيليب الثَّانِي الَّذِي جمع المملكتين مَعًا [أسبانيا والبرتغال] بعد هَلَاك الريكي الْمَذْكُور وَبعد وقْعَة وَادي المخازن بِثَلَاث سِنِين فقدموا بهدية عَظِيمَة وضعوها يَوْم دُخُولهمْ إِلَى فاس على الكراريص والعجل فَعجب النَّاس مِنْهَا عجبا بليغا وَكَانَ ذَلِك الْيَوْم يَوْمًا مشهودًا وَكَانَ من جملَة مَا فِيهَا ثَلَاثمِائَة ألف دكات من ريال الْفضة وَأما الطّرف النفيسة والأثاث الرفيع فشيء لَا يُحْصى ثمَّ وَردت أرسال طاغية الإصبنيول صَاحِبَ قشتالة بهدية عَظِيمَة مِنْهَا اليواقيت الْكِبَار الَّتِي انتزعها الطاغية من تَاج آبَائِهِ وصنيديق مَمْلُوء من الدّرّ الفاخر وقضب الزمرد وَغير ذَلِك وَتكلم النَّاس فِيمَا بَين الهديتين أَعنِي هَدِيَّة البرتغالي وهدية الإصبنيولي أَيهمَا أعظم وَلم يهتد أهل الْعقل والمعرفة إِلَى مِقْدَار التَّفَاوُت بَينهمَا ثمَّ قدمت أرسال السُّلْطَان مُرَاد العثماني وَمَعَهُمْ هَدِيَّة وَهِي سيف محلى لم ير مثله مضاء وصفاء متن ثمَّ قدمت أرسال طاغية أفرانسة وَمَعَهُمْ هَدِيَّة عَظِيمَة وَلم تزل الْوُفُود مترادفة بِبَاب الْمَنْصُور والأرسال تصبح وتمسي على أعتاب تِلْكَ الْقُصُور إِلَى أَن لم يبْق أحد مِمَّن تتشوف النُّفُوس إِلَيْهِ وَحِينَئِذٍ اطمأنت بالمنصور الدَّار وطاب الْمقَام وَتمّ الْقَرار. ولما توفّي السلطان أبو مروان رحمه الله حمل إِلَى مراكش فقبر بهَا»

«ولداود بن عبد المنعم الدغوغي يصف معركة وادي المخازن[1]:

(١) «النبوغ المغربي في الأدب العربي» (٣/ ٦٦٢).

جنىٰ النصـر ما بين الظبا والكنائن ۞ ۞ ۞ علىٰ سابقات المذكيات الصوافن
فبين المعـالي والمـآثر في الوغىٰ ۞ ۞ ۞ يجول الذي يبغي اقتحامَ المدائن
هي السور من يجتزه حل بساحها ۞ ۞ ۞ فحل له منها امتلاك المخازن
ومن لم يخض بحرَ الحروب فلا يرىٰ ۞ ۞ ۞ لحوزته دون العدا خيرُ صـائن
ومن لم يخضـها بالثبات فرأيه ۞ ۞ ۞ يفيل ويمسـي حظه جد خائن
وماذا يفيد الجيشُ إن كان ربُه ۞ ۞ ۞ كسيبستيانَ عند وادي المخازن
يقود لها ما يحجب الشمسَ نقعه ۞ ۞ ۞ مياسـره لا تلتقي بميامن
أتىٰ سـادرًا يختال في غلوائه ۞ ۞ ۞ وفي صدره للدين غليُ الضغائن
يسـرب نحو المغربين جنوده ۞ ۞ ۞ كمثل الدبا عن ماخرات السفائن
وما قـ صده إلا انتهاكُ حريمِهِ ۞ ۞ ۞ ودكُ صـياصـيه وبعث الدفائن
وقود أسارىٰ المسلمين لأرضه ۞ ۞ ۞ يقدمهم للصـلب مثلُ القرابن
ولهو بأبكار الخدور بناتنا ۞ ۞ ۞ فيصبحن من خدامه والسوادن
فذا مكره والله يمكر مكره ۞ ۞ ۞ به، إذ حداه نحو تلك الأماكن
فخيَّم في تلك الجهات وعينه ۞ ۞ ۞ لمراكش الحمراء لا لتطاون
ولكنه مع حفله بمدافع ۞ ۞ ۞ وبيض وسـمر وامتلاء الكنائن
تخلف ربط الجأش عنه فرده ۞ ۞ ۞ علىٰ خزيه صفرا ولو من فراسن
تجمع جند الله من كل وجهة ۞ ۞ ۞ وقد غض من مِدِينهِ كل دائن
من الملك المقدام فالعلماء فا ۞ ۞ ۞ لشيوخ أولي التقوىٰ وأهل البواطن
وتلوهم الأجناد والناس كلهم ۞ ۞ ۞ تضـل بهم أبصـار كل معاين
فشبت لظىٰ الهيجاء ليس وقودها ۞ ۞ ۞ سوىٰ أنفس الشجعان وسْط الميادن
إذا أرعدت تلك المدافع أبرقت ۞ ۞ ۞ صقيلاتُ بيضِ الهند فوق اليمائن

فلولا البروق الخاطفات من الظبا ❁❁❁ لما أبصرت عينٌ خلالَ المداخن
قد انقضت الفرسان منا عليهم ❁❁❁ انقضاض صقور الجو فوق الوراشن
وصابر كل قرنه فمجندل الـ ❁❁❁ ـثرى وجريح ساحب للمصارن
وهامهم مثل الكرين وقد غدت ❁❁❁ سنابك خيل الله مثل المحاجن
وسيبستيان كفَّنَتْهُ مياهه ❁❁❁ هزيمًا، وماء النهر أفظع كافن
فحين قضى البتار في الكفر ما قضى ❁❁❁ وأشلاؤه نتن بغير مدافن
رأيت ألوفا من رؤوس تجمعت ❁❁❁ ويا ليتها أيضًا جدار المآذن
هنالك نـ صر المؤمنين موزر ❁❁❁ على كل ذي كفر، تهجم، ضاغن
فذلك يوم مثل بدر وصنوه ❁❁❁ حنين بأيدي المؤمنين الميامن
لقد ذاق فيه البردقيز من الردى ❁❁❁ جزاء مناحيس خزايا ملاعن
بغوا فجنوا جنيَ البغاة فأصبحوا ❁❁❁ سماد الفيافي لا سماد الفدادن
فللثكل ما كان الهزيم لأرضه ❁❁❁ وللصقر من ذاقوا الردى والشواهن
فنحمد رب العرش إذ كان ديننا ❁❁❁ لأهل الوغى والبأس خير المعادن

(ملخص معركة وادي المخازن الفاصلة)

١- اسم المعركة : وادي المخازن أو معركة الملوك الثلاثة، أو القصر.

٢- مكان المعركة : على مقربة من القصر الكبير المشهور جنوبي العرائش في وادي المخازن من بلاد المغرب الأقصى، وهي في الشمال الغربي للملكة المغربية تبعد عن العاصمة الرباط ١٤٣كيلو.

٣- تاريخ المعركة: كَانَ التقاء الجمعين يَوْم الِاثْنَيْنِ ٣٠/جمادى الأولى /٩٨٦هـ.

٤- الفريقان المتقاتلان :

أولًا المسلمون: بقيادة السلطان أبو مروان عبد الملك السَّعْدِيّ الشريف الحسني.سلطان الدولة السعدية في المغرب الأقصى.

ثانيًا النصارى الصليبيون : بقيادة ملك البرتغال سبستيان الأول.

٥- عدد الجيشين وأبرز قادتهما وطريقة ترتيبهما:

أولًا المسلمون: كَانُوا أَرْبَعِينَ ألفا وَزِيَادَة ومدافعهم أَرْبَعَة وَثَلَاثِينَ مدفعًا وقواد الْجَيْش.

١- أَبُو عَليّ القوري.

٢- وَالْحُسَيْن العلج الجنوي.

٣- وَمُحَمّد أَبُو طيبَة.

٤- وَعلي بن مُوسَى.

٥- وَأَخُوهُ أَحْمد بن مُوسَى.

* **وشهد هذه الوقعة من العلماء وثبت في القتال:** الشَّيْخ أَبُو المحاسن يُوسُف الفاسي رَحمَه الله.

ثانيًا النصارى:عددهم: مائَة ألف وَخَمْسَة وَعِشْرُونَ ألفًا وَأَقل مَا قيل فِي

عَددهمْ ثَمَانُون ألف مقَاتل. من عَسْكَر الإصبنيول ومن البرتغال ومن الطليان وَ من الألمان وَبعث إِلَيْهِ البابا صَاحب رومة بألف وَخَمْسمِائَة من الْخَيل واثني عشر مدفعًا وَجمع سبستيان نَحْو ألف مركب وَجَاء إِلَى قادس.

٦- سبب المعركة : وَالسَّبَب فِيهَا كَانَ من خبر هَذِه الْغَزْوَة أَن السُّلْطَان المخلوع أَبَا عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله السَّعْدِيّ لما دخل طنجة قصد طاغية البرتغال واسْمه سبستيان وتطارح عَلَيْهِ وشكا إِلَيْهِ مَا ناله من عَمه أبي مَرْوَان المعتصم بِاللَّه لأنه أخذه ملكه وَطلب مِنْهُ الْإِعَانَة عَلَيْهِ كي يسترجع ملكه وينتزع مِنْهُ حَقه فأشكاه الطاغية ولبى دَعوته وصادف مِنْهُ شَرها إِلَى تملك سواحل الْمغرب وأمصاره فَشرط عَلَيْهِ أَن يكون لِلنَّصَارَى سَائِر السواحل وَله هُوَ مَا وَرَاء ذَلِك فَقبل أَبُو عبد الله ذَلِك وَالْتَزَمَهُ.

٧- نتائج المعركة والتحولات العظيمة الحاصلة بسببها:

١- يكفي من النتائج ماشهدوا به على أنفسهم فقد قال أحد مؤرخيهم وهو لويز مَارِيَة: هُوَ الْعَصْر الَّذِي انْتَهَت فِيهِ مُدَّة الصولة وَالظفر والنجاح وَانْقَضَت فِيهِ أَيَّام الْعِنَايَة من البرتغال وانطفأ مصباحهم بَين الْأَجْنَاس وَزَالَ رونقهم وَذَهَبت النخوة وَالْقُوَّة مِنْهُم وَخَلفهَا الفشل وَانْقطع الرَّجَاء واضمحل إبان الْغنى وَالرِّبْح وَذَلِكَ هُوَ الْعَصْر الَّذِي هلك فِيهِ سبستيان فِي الْقصر الْكَبِير من بِلَاد الْمغرب اهـ. **وَالْحق مَا شهِدت بِهِ الْأَعْدَاء.**

ومن النتائج فوق هذا: ما ذكر في كتاب [«سلسلة جهاد شعب الجزائر» (٢/ ١٠٦)] حيث قال المؤلف: «تمخضت هذه الأحداث عن مجموعة من التحولات أبرزها:

٢ - فشلت الصليبية الإسبانية فشلا تامًّا في تحقيق أهدافها على أرض المغرب العربي الإسلامي ولم يبق لها بعد توسعها الكبير إلا (قاعدة وهران ومرساها الكبير).

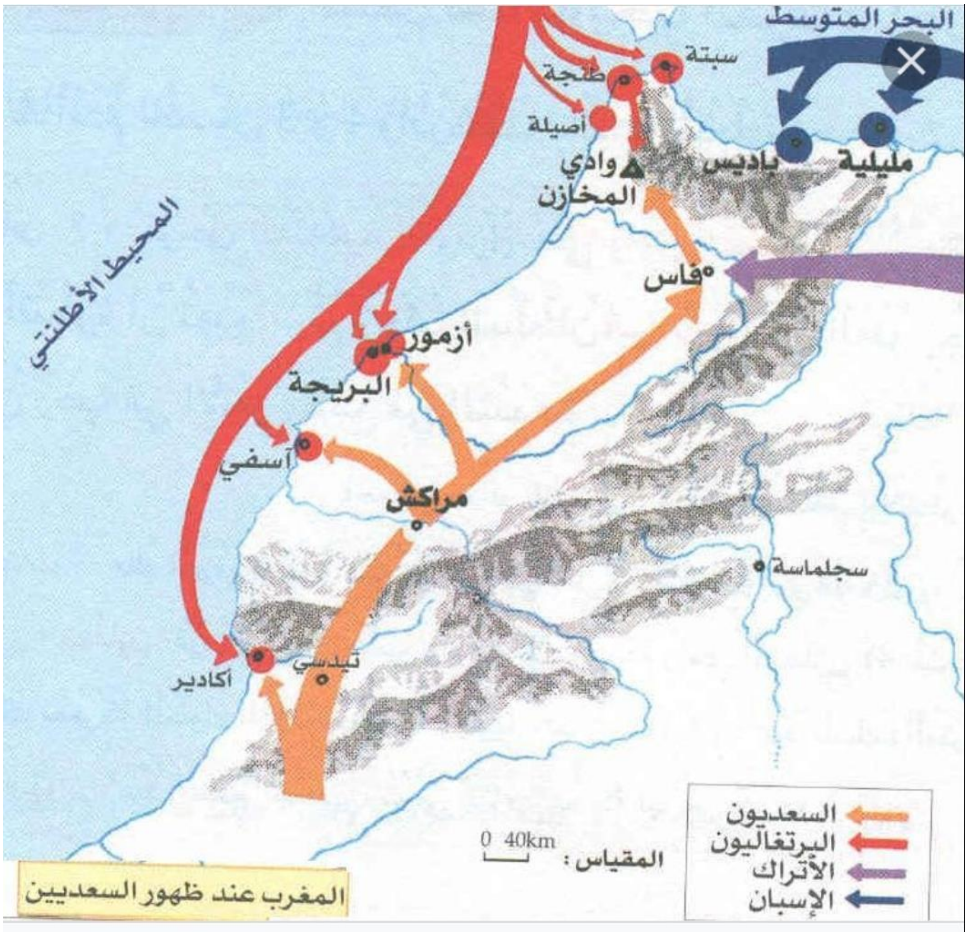
٣ – استقرار سلطنة الأشراف السعديين في المغرب الأقصى بصورة ثابتة ووطيدة. وظهور كيان دولة الجزائر كدولة مستقلة خاضعة اسميا للخلافة العثمانية، شأنها في ذلك شأن تونس وطرابلس ومصر وبقية بلاد العرب والترك، ولو أن الجزائر تمتعت بدور ريادي في الجهاد أتاح لها قدرا كبيرًا من حرية العمل السياسي والعسكري.

٤ – انصرفت الدول الأوروبية لمعالجة مشكلاتها الخاصة في حروب أهلية لم تتوقف، مما أتاح لدول المسلمين نوعًا من الهدوء النسبي. غير أن الصراع لم يتوقف».اهـ بتصرف.

٥– ومن النتائج: هزيمة البرتغال فلم تغرب الشمس حتى كان جيش الغزو قد أبيد إبادة شبه كاملة بحيث كان عدد الأسرى قليلا جدًا.

٦– ومنها: فتح وضم كثير من بلاد إفريقيا للدولة السعدية في المغرب.

٨- خريطة موقعة وادي المخازن:



المعركة الحالية: (الغزو الفكري ومحاربة العلم والعلماء)

رأى الصليبيون أن المسلمين ما داموا يحاربون عن عقيدة فالحرب بالسيف والسنان لا يجدي ولذلك اجتهدوا في الحرب الفكرية والغزو الفكري فجندوا كثيرًا من المستشرقين ، وأصنافًا من المشككين ، وامتد نفوذهم إلى المواد المدرسية في كثير من بلاد الإسلام حتى أصبحت المواد دنيوية بحتة ، أو في الغالب وبهذا أصبح كثير من طلبة المدارس يمجدون طريقتهم ، وينبهرون بالقذارات الغربية وفي نفس الوقت مات لدى كثير من المسلمين الولاء لدينهم ، والبراء من عدوهم فضلًا عن أن يجاهدوا في سبيل الله تعالى ولذا يمكنك أن ترى القتال من أجل الدنيا والغضب لها وتسمعهم يذكرون أن العدو هدّ الاقتصاد ، ودمر البنية التحتية ، وجاء بالمجاعة وو..إلخ ولكن لا يتكلم إلا أحياء القلوب على من قتل أهل العقيدة والدين وغزا المسلمين بمنظماته، ودراساته، ومكن أتباعه وسلطهم على المسلمين ، **فهذه معركة فاصلة لم ينفر فيها إلا أهل العلم علم كتاب الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **وسنة رسوله** ﷺ جردوا أقلامهم ، ورفعوا أصواتهم ، وربّوا من يسر الله تعالى لهم من أبناء المسلمين على طريقة سلفهم الصالح رضوان الله تعالى عليهم، وهم والله أسود الله أسياف الإسلام إن دارت رحا الحرب، وأما علماء الدنيا وأساتذتها فقد خدع كثير منهم بعدوهم فاتهموا أهل الحق بكل باطل والله المستعان فيا أبناء الإسلام تأملوا في هذه المسألة جيدًا وكونوا منتبهين لهذه الحرب الباردة ، وهذا أقل جهاد نقوم وتقومون به ضد أعداء الإسلام الذين صرفوا جلّ أوقاتهم للتفكير في الفتك بكم بكل طريق

ووسيلة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

مسألة

وهنا أذكر فائدة مهمة ربما جهلها بعض من يلمز في قادة هذه المعركة وهم العلماء بحجة أنهم قابعون في مساجدهم لا يجاهدون في سبيل الله تعالى!!.

اعلم أيها المسلم أن مراتب المُنعَم عليهم أربع في كتاب الله تعالى ذكرها الله في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [سورة النساء:٦٩]. فالأنبياء أولًا ثم الصديقون أتدري من أصحاب هذه الرتبة الذين فضلوا على الشهداء مع شرف الشهادة؟ إنهم العلماء بشرع الله تعالى العاملون بما علموا **فالصِّدِّيق:** هو اسمٌ للمُبَالِغِ في الصِّدْقِ، ومن عادَته الصِّدْق.

وفي التعريفات للجرجاني (ص١٣٢) الصدِّيق: هو الذي لم يدع شيئًا أظهره باللسان إلا حققه بقلبه وعمله اهـ.

وفي حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/ ٥٧): هُوَ لِلْمُبَالَغَةِ مِنَ الصِّدْقِ وَتَصْدِيقُ الْحَقِّ بِلَا تَوَقُّفٍ مِنْ بَابِ الصِّدْقِ وَلَا يَكُونُ عَادَةً إِلَّا مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الصِّدْقُ قِيلَ: فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ صِدِّيقًا لِمُبَادَرَتِهِ إِلَى التَّصْدِيقِ.

وفي [تفسير العثيمين: النساء (١/ ٥٠٢-٥٠٣- ٥٠٦)] الصديق هو: الذي صدق بالحق وقال بالصدق. وأعلم الناس بصدق الرسل وبشريعة الرسل العلماء فيشهدون بالحق الذي جاءت به الرسل ويشهدون على الخلق أن الرسل بلغوهم. فليس كل صالح يكون صِدِّيقًا، وليس كل صالح يكون شهيدًا، وليس كل صالح يكون نبيًا أو رسولًا، لكن كل نبي وكل صديق وكل شهيد فهو صالح. ثم لخص الفوائد فقال: ٥- أن النبي أفضل من الصديق، والصديق أفضل من الشهيد، والشهيد أفضل من الصالح؛ لأن الترتيب هنا ترتيب من الأعلى إلى الأدنى اهـ.

وفضل هذه الرتبة يعود إلى أسباب:

❋ هذه المرتبة صعبة المرتقى ابتداء إلا على من يسرها الله تعالى عليه ولذلك قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي ، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي ، إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَدَقْتَ**». [أخرجه البخاري عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ٤٦٤٠].

❋ لما جاء عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: عَرَضَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْأُولَى فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ فَسَكَتَ عَنْهُ فَلَمَّا رَمَى الْجَمْرَةَ الثَّانِيَةَ سَأَلَهُ فَسَكَتَ عَنْهُ فَلَمَّا رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ لِيَرْكَبَ قَالَ «**أَيْنَ السَّائِلُ؟**» قَالَ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ «**كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ ذِي سُلْطَانٍ جَائِرٍ**».(١)

❋ وهكذا لتضحياتهم وصبرهم وإليك هذه المقدمة الجليلة التي فيها بعض أسباب سموِّهم على رتبة الشهداء : قال الإمام العلامة شيخ الإسلام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، رحمه الله وأثابه الجنة، وغفر لنا وله بمنه وكرمه آمين:

الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم **يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضالٍ تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون

---

(١) **حسن:** أخرجه ابن ماجه (٤٠١٢) والبيهقي في "سننه الكبير" (٢٠٢٤٢) وأحمد في "مسنده" (٢٢٥٨٨) قال الإمام الوادعي في الصحيح المسند (١/ ٤١٠) (٤٨٣) هذا حديث حسنٌ.

بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن الضالين اهـ.(١)

فهذه نحو عشر خصال من جهادهم الشاق الذي استحقوا به هذه الرتبة العلية، وهذه المنقبة الجلية فتأملها وهم ممن يدخل تحت قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [سورة المائدة:٥٤]. فهم ممن يجاهد لا يخاف في الله تعالى لومة لائم.

* ثم اعلم أن الجهاد يكون بشيئين : بالحجة والبيان وهو جهاد العالم بعلمه وهذا جهاد رسول الله ﷺ قبل الهجرة ثلاثة عشر عامًا لم يؤمر بغير سلاح العلم كما قدمت لك في أول الكتاب ، ثم قرن بين الجهادين بعد الهجرة حتى مات حيث أمره الله سبحانه بذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣﴾ [سورة التوبة:٧٣] و[سورة التحريم:٩]. فقل لي أيها المنصف "**والإنصاف عزيز**" بم جاهد النبي ﷺ المنافقين؟ يتبادر إلى ذهني أن الجواب" جاهدهم بالحجة والبيان بالسنة والقرآن ولم يمسهم بالسيف والسنان" وإذا كان كذلك فكيف علمك بجهاده هذا أكان شاقًا مريرًا أم سهلًا مستطرفًا؟ لا شك أن رسول ﷺ الله عانى من المنافقين أشدّ المعاناة.

فقد كذبوا بوعد الله ورسوله ﷺ للأمة المستمسكة بالتمكين قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢﴾ [سورة الأحزاب:١٢]. ولا يزال هذا دأب أضرابهم الذين يرون عزهم في غير العلم والدين ويرون أهل العلم ورثة الأنبياء من المتخلفين.

(١) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد ت صبري (ص٥٥).

وهم الذين رموه بعدم التمييز قال تعالى : ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [سورة التوبة:٦١]. يعنون أنه يسمع من كل أحد بغير تمييز ولا يدرون أن هذا من سياسته الشرعية ورعايته الحكيمة وإن كان يعرف أصحابه ويعرف المنافقين فيصدق الأول لصدقه ويغضي عن الثاني لاجتناب أذاه ونحو هذا من المقاصد وكذلك ورثته من أهل العلم على منواله فيأتي الجاهل المتشبه بالمنافقين يظنه من عدم تمييزهم، وهذه بلوى منتشرة في زمننا هذا بكثرة أورثت التعالي على أهل العلم ، واتهامهم بأنهم لا يفقهون الواقع!! والعكس هو الصحيح.

❋ والذي يحز في النفس، ويدمي الفؤاد هو أن كثيرًا من هؤلاء يكتشفون بعد كل مخالفة لهم لأهل العلم الذين ثبتوا على الدليل أن العالم هو الذي كان فاهمًا للواقع حقًا مصيبًا للحق ثم لا يستجيبون للحق الذي بينه ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [سورة التوبة:١٢٦].

❋ القسم الثاني من أقسام آلات الجهاد: الجهاد بالسيف والسنان وما قام مقامهما في هذا الزمان. وهذا القسم تابع للعلم ولا يقوم إلا به ولذلك بدأ النبي ﷺ بالعلم فلما رسخ الدين وعلمت الحقوق نزل الإذن من عند الله سبحانه بالثاني بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الحج:٣٩]. ولذلك ترى قيام الجهاد إذا كان بغير علم وعمل به لا يحالفه النصر غالبًا إما ابتداء أو مآلًا وقد حصل من ذلك الكثير، وهكذا المجاهد الفرد الذي يسير بغير علم ربما أخطأ الطريق وقد قارب المنزل فمنهم يسرق من الغنيمة فيتعرض بذلك لعذاب الله إلا أن يعفو عنه فقد قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالُوا : فُلَانٌ شَهِيدٌ ، فُلَانٌ شَهِيدٌ ، حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ ، فَقَالُوا : فُلَانٌ شَهِيدٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : **كَلَّا إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا أَوْ عَبَاءَةٍ** ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : **يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ، اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ أَنَّهُ : لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ** »، قَالَ : فَخَرَجْتُ فَنَادَيْتُ : أَلَا إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ[أخرجه مسلم: ١١٤] وربما فقد الإخلاص وقد قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ ، قَالَ: كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ**».الحديث. [أخرجه مسلم: ١٩٠٥].

وربما زين لهم الشيطان فأصبحوا «**يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ**» كما هو دأب الخوارج، وأسباب أخر كثيرة تحتم علينا التعلم قبل الجهاد ولم يقل أصحاب النبي ﷺ ما يقوله الجهال ذوو الحماس الخالي عن المعرفة هذا الطريق طويل ؛لأنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ اعتبروا طريق العلم جهادًا وانظر إلى ما تيسر ذكره من المعارك وغيرها، كيف اصطحب العالم والأمير في جهاد الكفار لكنهم لم يصحبوهم في القتال على الدنيا.

* وكما أن المنافقين يُجاهَدون بالعلم به ينصحون، وبه يفضحون فكذلك الكفار يجاهدون بالعلم ثم بالقتال قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [سورة الفرقان:٥٢]. وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : **جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ**(١). وهذا أهم ما أردت أن أذكره في هذا الفصل. فإنك قد تشترك مع العالم في الجهاد بالسيف ، ولكن العالم يتفوق

(١) **صحيح**: صححه الألباني في المشكاة (٣٨٢١)، سنن أبي داود ١٢٦٢.سنن النسائي (٢/ ٦٤٩) (٢٩٠٠) وصححه شيخنا يحيى حفظه الله في السنن الصغير للبيهقي (١٤٩٠).

عليك بدرجة سامية وهي الجهاد باللسان وربما حصل للمسلمين ضعف في حقبة من الزمان لم يستطيعوا الغزو إلا أن العالم لا يتوقف جهاده فهو المعلم ، والخطيب، والكاتب، والمؤلف، والقاضي، والمفتي.إلخ.وأما في زمننا هذا فجهادهم مرير؛ لأن شر عدوهم مستطير ، وخطره كبير، بعد أن خلت ساحة القتال من الفرسان، وبقي الكثير من عامة المسلمين مستمسكًا بقد كنّا وقد كان.

* وحتى تتصور جهاد علمائك الأجلاء أوقفك أمام مدرستين غيرت مجرى تاريخ أمتها إلى الأفضل بعون من الله وتسديد.

لمّا عرف عباد الصليب من النصارى، وخلف أهل شباك السبت من اليهود أن محاربة المسلمين بالسيف تبوء بالفشل بحثوا عن سبب ذلك كما بحث جند إبليس حين حيل بينهم وبين خبر السماء ، فكان سلفهم إبليس عليه لعنة الله قد بعث جنده فجاءه الخبر أن نبينا ﷺ ينشر الإسلام ويدعوا الأنام أنزل عليه ربه أمرًا أوله القراءة التي هي أساس العلم، فتحدرت الشياطين بأيديهم شعل النار ليحرقوا نبي الله ﷺ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة التوبة:٣٢].

وبعث هؤلاء المستشرقين فجاءوا مستظهرين يرسم لهم ماجلّان،ويمكن لهم نابليون، فوجدوا السر الذي وجده قائدهم إلى النار ومصاحبهم إلى دار البوار إبليس عليه لعائن الله ما تتابع الليل والنهار ، وجدوا أمة اقرأ لا زالت تقرأ وما دامت تقرأ فإن جند الله منصور، وعدو الله مدحور، فكان من حربهم أنهم حملوا المكتبات الإسلامية إلى بلدانهم ، منها ما اشتروه ومنها ما سرقوه أو نهبوه، ولذلك تجدها اليوم في مكتباتهم العالمية ، فخرج الجهلة يمدحونهم على أنهم هم الأولى بالكتاب المكنون، والحرز المصون، وأنهم أخرجوا منها فنونًا أيما فنون.

بنى أولئك حولها الجامعات، وأدخلوا فيها أكثرهم للإسلام كرها وأشدهم به

نكاية، وأعلمهم بأساليب الكلام المعسول، وأعرفهم بلغة الرسول ﷺ .

ومع هذا كله فقد أسلم بعض المستشرقين الذين بعثوا لمحاربة المسلمين، كما أسلم الجن الذين بعثهم الشيطان حين سمعوا القرآن في صلاة الفجر والرسول ﷺ والصحابة إلى عكاض عامدين، وقد رجع أولئك كما رجع هؤلاء لمن وراءهم داعين ولكن: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [سورة يوسف:١٠٣]. فسبحان الله رب العالمين ، مقلب القلوب والمتصرف في خلقه أجمعين.

* ومن المستحسن هنا قبل ذكر المدرستين أن أذكر **ملخص بعض المكائد التي وضعت ولم ينتبه لها إلا أهل العلم وقليل ممن عداهم**، وذلك كما أسلفت لك حين بطل لديهم عمل السلاح، بدأ الرهبان وتلاميذهم معركة أخرى أقسى من معارك الحرب، معركة المعرفة والعلم الذي هيأ للمسلمين ما هيأ من الظفر والغلبة:

قال محمود شاكر في: رسالة "في الطريق إلى ثقافتنا" ص (٤٧ – ومابعدها) كان من أهدافهم ووسائلهم:

١ – «**بعثة أعداد كبيرة ممن تعلموا العربية وأجادوها إجادة ما، تخرج لتسيح في أرض الإسلام، وتجمع الكتب شراءً أو سرقة، وتُلاقي الخاصة من العلماء، وتخالط العامة من المثقفين والدهماء، وتُدَوِّن في العقول وفي القراطيس ما عسى أن ينفعهم في فهم هذا العالم الذي استعصى على [الصليبية] واستعلى قرونًا طوالًا**. يخرجون أفواجًا تتكاثر على الأيام، ويجوبون أرجاء هذا العالم، ويعودون لإتمام عملين عظيمين: إمداد علماء اليقظة[الصليبية] بهذه الكنوز النفيسة من الكتب التي حازوها أو سطوا عليها، وإطلاعهم على ما وقفوا عليه فيها، باذلين كل جهد ومعونة في ترجمتها لهم، وفي تفسير رموزها بقدر ما استفادوا من العلم بها، وأيضًا إطلاع رهبان الكنيسة وملوكها على كل ما علموا من أحوال دار الإسلام وما رأوه عيانًا فيها، وما لاحظوه استبصارًا. وكان أهم ما لاحظوه أو خبروه، هذه الغفلة

المطبقة على أرض الإسلام، والتي أورثهم إياها الاستنامة إلى النصر القديم على [الصليبية]، والاغترار بالنصر الحادث بفتح القسطنطينية، ثم سماحة أهل الإسلام عامتهم وخاصتهم، .. ومن يومئذ نشأت هذه الطبقة من الأوربيين الذين عُرفوا فيما بعد باسم المستشرقين ، وهم أهمّ وأعظم طبقة لأنهم جند الصليبية الشمالية وفي قلوبهم فجيعة سقوط القسطنطينية في حوزة الإسلام».

٢- وبجهود هؤلاء وملاحظاتهم التي جمعوها من التجسس في دار الإسلام ومن الكتب التي بذلوها لملوك الصليبية نشأت طبقة الساسة الذين عرفوا باسم **الاستعمار** [وضعوها خداعًا بدل كلمة استحلال ؛لأن الاستعمار من العمران والإصلاح].

٣- وبجهود المستشرقين الأشرار التي زودوا بها رهبان الكنيسة نشأت طائفة أخرى تعرف باسم رجال **التبشير**.

فهذه ثلاثة أصناف متعاونة على الإسلام فلا تنس ما حييتَ أن هذه الثلاثة إخوة لأم واحدة وأب واحد لا تفرق قط بين أحد منهم.

٤- **[التفريق بين المسلمين جميعًا، وبين العلماء خاصة واستمالة من تيسر لهم]**وبدأ طور التنفيذ من هؤلاء الثلاثة فبعد احتلال فرنسا لمصر عام ١٢١٣هـ بقيادة **نابليون** قاتله الله ، ومعه المستشرق **فانتور** الذي قضى أربعين سنة يتجول في بلاد الإسلام كان «الاستشراق » كامنًا في أحشاء نابليون . هو الذى يوجهه ويلقنه ويدربه عل أساليب المداهنة التى يظن أنها تروج على أهل دار الإسلام ، وكان رأس الاستشراق في الحملة الفرنسية هو فانتور » المستشرق الداهية الخبيث وهو الذي وجهه ليكتب رسالته إلى « كليبر » كبش الفداء (!!) نائب نابليون على مصر يقول له فيها :«يجب أن تحذر روح التعصب وتنومها إلى أن تتمكن من استئصالها . إذا حزت ثقة كبار مشايخ القاهرة ، فإنك تجمع حولك أفكار مصر بأجمعها ، وأفكار

كل زعيم من زعماء الشعب .لا شيء أقل خطرًا من المشايخ الذين يرهبون القتال ولا يعرفون طرقه ، ولكنهم مثل القسيسين ، يوحون بالتعصب ، دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين». [وهذه الوصية معناها معاداتهم والتفريق بينهم ، واستقطاب من استطاع منهم إلى صفه وهؤلاء بدورهم ينقلون صورة حسنة عنهم عند الناس ، وكذلك ربما مجدوهم في صفحة التاريخ فيأتي من بعدهم فيرى مدحهم فيصدقه وهذا هدف بعيد وقد تحقق لهم كثير منه فكم في المدارس من تمجيد نابليون وكم فيها من تمجيد للبحار الأسباني ماجلان الذي قتل بجيشه آلافًا من المسلمين وحول مناطق من الفليبين إلى النصرانية كرها بعد أن كانوا مسلمين فهل تعرف هذا يا من تنظر إلى رجال دينك الصادقين نظرة ازدراء وتعجبك الدعوة إلى وحدة الأديان وو.!!].

٥- **تغريب المسلمين وتحبيب الدراسة في الغرب إليهم لينقلوا إلى المسلمين عادات الغرب وفسادهم:** كتب نابليون بعد رجوعه إلى فرنسا إلى نائبه كليبر: «ستظهر السفن الحربية الفرنسية بلا ريب في هذا الشتاء أمام الإسكندرية «أو البرلس أو دمياط . يجب أن تبني برجًا في البرلس . «اجتهد في جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخص من المماليك ، حتى متى لاحت السفن «الفرنسية تقبض عليهم في القاهرة أو الأرياف وتسفرهم إلى فرنسا . وإذا لم تجد عددًا، كافيًا من المماليك ، فاستعض عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان ، فإذا ما وصل «هولاء إلى فرنسا يحجزون مدة سنة أو سنتين ، يشاهدون في أثنائها عظمة الأمة، (الفرنسية) ، ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا ، ولما يعودون إلى مصر ، يكون لنا منهم حزب يضم إليه غيرهم.[!!!] « كنت قد طلبت مرارا جوقة تمثيلية ، وسأهتم اهتمامًا خاصًا بإرسالها لك ،«لأنها ضرورية للجيش ، وللبدء في تغيير تقاليد البلاد ».اهـ . وأول من وقف على هذه الرسالة أحمد حافظ عوض في كتابه « فتح مصرا لحديث)) (ص : ٤٠٧ - ٤١١) فقال : «وهذا الكتاب (يعنى الرسالة) محفوظ بالنص الأصلى في وزارة

الحربية الفرنسية (وثيقة رقم ٤٣٧٤) [أليست هذه حرب أشد من الحرب بالسيف؟] تحقق لهم هذا الأمر ثم صار محمد علي باشا هو الذي يرسل تلك البعثات إلى الغرب. وكانت أول بعثة في عام (١٢٤١هـ) وكان في هذه البعثة رفاعة الطهطاوي إمامًا للرحلة في الصلوات ولكنه تأثر هنالك ورجع وقد وضعوا أمامه الخطة لإقامة مدرسة الألسن لتدرس فيها اللغات والثقافات وقد علموا أنه لايقدر على تدريس هذه الفنون كلها فتكون النتيجة التي أرادوها يستقدم معلمين من الغرب وتحصل النتيجة التي تليها الناس يرمون بأبنائهم إلى الطهطاوي كونه من أهل الدين فإذا وصل أبناء الأرياف البسطاء إليه تلقفهم المستشرقون بأخلاق مصطنعة فبثوا فيهم الأفكار التي يريدون ، وكذلك حقق رفاعة للاستشراق أهم ما يتوقون إليه ، ومرت الأيام والسنون وذهبت كثير من تعاليم الإسلام أدراج الرياح ونمت هذه المدارس وتكاثرت ، وجعلت الهُوة بين هذه المدارس وبين التعليم الصحيح يتسع ، وأصبحت المناهج تتباين تباينًا شديدًا ثم جاء الاستشراق الإنجليزي عام ١٢٩٩هـ فكان من أول أفكاره في المدارس تذكير الناس بتاريخ ما قبل الإسلام فكان أهل مصر لديهم تاريخ الفراعنة ،واليمن لديهم تاريخ التبابعة والعراق لديهم تاريخ البابليين والآشوريين وهكذا..وفي جانب اللغة فإنهم قد وجدوا طرقًا كثيرة لإفسادها منها: إنشاء مدرسة الحداثة وتوسع باب العروض والقافية التي وضعها الخليل بن أحمد رحمه الله فكان مما قاله طـه حسين وهو أحدهم حين ألقى محاضرته في الشعر الجاهلي زعم أن له منهجًا يدرس به تراث العرب كله ، وسمى هذا المذهب مذهب الشك فكان فيما قاله عن مذهبه إن هذا المذهب سوف يقلب العلم القديم رأسًا على عقب ، إن لم يمحه كله سيمحو منه شيئًا كثيرًا ثم قال مستخفًا والنتائج الملازمة لهذا المذهب الذي يذهبه المجدوون [يعني نفسه وأشباهه] عظيمة جليلة الخطر.. وحسبك أنهم يشكون فيما كان الناس

يرونه يقينًا .. وأما الذي كان يقوله بين طلبته الصغار المفرغين من ثقافتهم فكان شيئًا لا يكاد يوصف من الاستهزاء بالسلف والدين . وهذه الفقرة تحتها بنود أجملتها طلبًا للاختصار فلا تغفلها.

٦- **إمداد من يحارب العلماء وأهل المعتقد الصحيح**: كانت إنجلترا ومستشرقوها ما فتئت تخوف الدولة التركية وتؤلبها عل مهد «اليقظة » في جزيرة العرب ، والتى قام بها محمد بن عبد الوهاب رحمه الله «(١١١٥ - ١٢٠٦ هـ). واستجابت دار الخلافة بغفلتها إلى هذا التأليب ، حتى جردت حملات متتابعة لقمع «اليقظة »، وآبت في جميعها بالإخفاق . ثم منذ ولي « محمد علي باشا » [على مصر] جعلت تركية تدعوه إلى تجريد جيوشه لقتالهم ، فلم يستجب لنداء تركية ، ولكن «الاستشراق » بقناصله زين ذلك له أخيرًا ليحقق مآربه في وادي « اليقظة» التى كادت تعم جزيرة العرب ، وأمدوه بالسلاح الذى يعينه على خوض الحرب ، وذلك في سنة ١٢٢٦هـ، وسارت الجيوش قاصدة جزيرة العرب ، ودارت الحرب التى لم تنته إلا بعد ثمان سنوات ، في سنة ١٢٣٥هـ ، وفقدت الجيوش المصرية آلافًا من أبنائها ، ولقيت هزائم كادت تودي بها . وأخيرًا تم النصر لمحمد علي باشا، بعد أن ارتكب من الفظائع ما لا يستحله مسلم ، واستباح الديار والأموال والنساء ، وهدم المدن ،هو وابنه إبرهيم . وكانت حربًا طاحنة لا معنى لها ، ولا ينتفع بها إلا مُورثوها من دهاة الصليبية الشمالية.

٧- **تجريد المسلمين من السلاح (دولة مدنية)**: كتب الجنرال « زايو نشك قومندان المنوفية قبحه الله: وعليكم أن توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح »، وكذلك فعل نابليون نفسه في القاهرة بالإرهاب ، فسارع الناس إلى إخفاء الأسلحة.

٨- **إهمال كتب الإسلام النافعة:** ملئت المكتبات بتآليف القصص والروايات والحكايات التي كانت مؤلفة أو ألفت بعد وبكتب الغزل وبعلوم الدنيا وعلوم

الجيلوجياء، وكتب تتحدث عن الحضارات ، وكتب عن صعود القمر ، ولأنها كتب جديدة أقبل الناس عليها وأهملوا كتب الإسلام النافعة ، فإذا خاطبت إنسانًا قال : قد وصل الناس الفضاء وأنتم قال الأئمة الأربعة قال كذا. وهذه كان دورها كدور كتب اليونان حين ترجمت للعربية، من قرأها احتقر سلفه الصالح ، وهؤلاء تجد عندهم من هذه الثقافة الخرقاء ما يتبجحون به ولا فخر فيه !!!.

وليس هذا جميع دسائسهم ولكن هذا إشارات تدلك على اكتشاف هنات وهنات للقوم ،وهنا أنتقل إلى دور العلماء المجاهدين وقد تقدم ذكر بعضه:

❋ غبر ما غبر على يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة ٨٥٧ هـ بسقوط القسطنطينية حصن الصليبية الشمالية المنيع ، وعل تدفق كتائب الإسلام في قلب أوربة الغارقة في حمأة قرونها الوسطى .. غبر ما غبر عل فرحة أذهلت دار الإسلام عن فجيعتها بسقوط الأندلس كله بعد أربعين سنة في قبضة الصليبية الشمالية يوم سقطت غرناطة آخر حصون الإسلام في الأندلس ،(٨٩٧ هـ .. وغبر ما غبر على جزع الصليبية الشمالية وشعورها بالإخفاق والمذلة والعار ، وعلى ما كان من توغل محمد الفاتح في قلب أوربة وتساقط رعايا الرهبان في الإسلام طواعية واختيارًا ، ودخولهم بحماسة ويقين في جحافل الإسلام الزاحفة، .. غبر ما غبر ، ودخلت دار الإسلام في سِنةٍ لذيذة أورثتها نشوة النصر المؤزر ، ودخلت أوربة كلها في عزيمة حاسمة لترد عن عرضها العار [زعمت]، وبلغ السيل الزبى ، فكانت يقظه محسوسة في جانب ، وغفوة لا تُحس في جانب ، وشال الميزان ، وانطلقت الأساطيل الأوربية تُطوق دار الإسلام من أطرافها البعيدة ، فإذا دار الإسلام محصورة في الجنوب ، بعد أن كانت حاصرة للصليبية في الشمال ، وشيئًا فشيئًا فقدت دار الخلافة في القسطنطينية هيبتها وسيطرتها ، وصارت لأوربة هيبة مرهوبة وسيطرة ،يومئذ كان قد مضى عل فتح القسطنطينية قرنان .، ويومئد آنس قلب دار الإسلام ركزًا

خفيًا فأرهف له سمعه . سمع نقيض أركان دار الخلافة وهي تتقوض ، فتوجس توجسًا غامضًا لشر مستطير آت لا يدري من أين ؟ فهب من جوف الغفوة الغامرة أشتات من رجال أيقظتهم هدّة هذا التقوض ، فانبعثوا يحاولون إيقاظ الجماهير المستغرقة في غفوتها . رجال عظام أحسوا بالخطر المبهم المحدق بأمتهم،وهبوا بلا تواطؤ بينهم .كانوا رجالًا أيقاظًا مفرقين في جنبات أرض مترامية الأطراف ،متباعدة أوطانهم ، لا يجمعهم إلا هذا الذى توجسوه في قرارة أنفسهم مبهمًا من خطر محدق .أحسوا الخطر فراموا إصلاح الخلل الواقع في حياة دار الإسلام: «خلل اللغة »و«خلل العقيدة » و «خلل علوم الدين » وبأناة وصبر عملوا وألفوا وعلموا تلاميذهم، وبهمّة وجدّ أرادوا أن يدخلوا الأمة في «عصر النهضة » ، نهضة دار الإسلام من الوسن والنوم والجهالة والغفلة عن إرث أسلافهم العظام اهـ[1].

من هولاء: الإمام محمد بن عبد الوهاب والعلامة ابن الأمير الصنعاني ثم الشوكاني ، وتقي الدين الهلالي ثم ابن باز والعثيمين والألباني والوادعي وأئمة غير هؤلاء رحمة الله عليهم.

أما المدرستان اللتان وعدنا بالكلام عنهما كنموذج لجهاد العلماء وليس لحصر العلم في هذين العالمين وهاتين المدرستين فهي كالتالي:

(١) انتهى ملخصًا من رسالة في الطريق إلى ثقافتنا مع إضافة لما لم يذكره المؤلف.

المدرسة الأولى مدرسة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب النجدي رحمه الله

وحتى أعطي القوس باريها أنقل لك محاضرة عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته لفضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ألقيت بقاعة المحاضرات بالجامعة الإسلامية عام ١٣٨٥هـ حينما كان نائبًا لرئيس الجامعة أخذت من شريط التسجيل، وقد ألقيت ارتجالًا، ولم تقيد من قبل.

ولما فُرغت مهد لها الشيخ عطية محمد سالم بمقدمة أسوقها معها قال فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم من عوامل بقاء الدعوة تعاقب الدعاة لها ما تعاقبت الأيام، ومنذ أن أكرم الله تعالى هذه الأمة وصوت الداعي مدويًا في أفق المدعوين إلى أن أكمل الله الدين وأتم النعمة، ثم توالى الدعاة من خلفاء الرسول ﷺ إلى من بعدهم من دول أو مصلحين وموجهين آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، وذلك عملًا بالأصل القويم في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٠٤]. فكلما خيمت سحب البدع، واحلولكت ظلم الجهالة، وخاض الناس لجج الباطل أيد الله تعالى لهذه الأمة رجالًا يدعون إلى الله تعالى على بصيرة، ينيرون الطريق، ويظهرون الحق ويحيون السنة، ويحاربون البدعة حتى يطهر الله على أيديهم البلاد، وينقذ بدعوتهم العباد، وهذا من تمام النعمة وسعة الفضل من الله تعالى على عباده.ورجال الفكر وأرباب المعرفة دائمًا وأبدًا يعنون بتراجم الأشخاص وسيرهم، وبالأخص أولئك الرجال الذين حولوا مجرى التاريخ في بلادهم وأوجدوا [تصحيحًا] في التفكير، فتراجم هؤلاء بمثابة المصابيح على جانبي الطريق يسترشد بهم الساري ويهتدي بهم القاصد. ولئن كان بعض الناس يمجدون رجال الفكر أيًّا كانت وجهاتهم ويغالون في إحياء ذكراهم، بل ربما نصبوا لهم التماثيل، فإننا معاشر المسلمين لا نقدس الشخصيات، ولا ننساق وراء

التيارات، ولكن لنا مقاييس تعرض عليها الرجال وأعمالهم، وبقدر ما ترجح كفتهم يكون لهم القدر والمنزلة في نفوسنا، ألا وهي مقاييس الدعوة والإرشاد وميادين الإصلاح في ظل الإسلام، وصاحب موضوع هذه المحاضرة القيمة من أوفر الناس حظًا وأرجحهم كفة في ميادين الدعوة والإصلاح، وقد طبقت شهرته الآفاق حتى كتب عنه القاصي والداني مما سيراه القارئ، في غضون المحاضرة من التنبيه على ذلك، من كتاب شرقيين، بل قد كتب عنه أحد علماء المغرب العلامة سيدي محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي مدرس العلوم العالية بالقروية، وفيما ألقاه فضيلته بنادي الخطابة الأدبي بفاس ربيع الثاني عام ١٣٣٦هـ في كتابه عن نشأة الفقه الإسلامي وتطوراته، وترجم لأعلام العالم الإسلامي ومنهم الشيخ المحاضَر عنه وعن دعوته، وذلك في كتابه (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: جزء ٤ صفحة ١٩٦ فقرة ١٠١١ تحت عنوان (أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي) ..انتقل إلى البصرة لإتمام دروسه، فبرع في علوم الدين، واللسان وفاق الأقران، واشتهر هناك بالتقوى وصدق التدين. . ثم قال: عقيدته: السنة الخالصة، على مذهب السلف المتمسكين بمحض القرآن والسنة لا يخوض التأويل والفلسفة ولا يدخلهما في عقيدته، وفي الفروع: مذهبه حنبلي غير جامد على تقليد الإمام أحمد، ولا من دونه، بل إذا وجد دليلًا أخذ به، وترك أقوال المذهب، فهو مستقل الفكر في العقيدة والفروع معًا: إلى أن قال: وكان قوي الحال ذا نفوذ شخصي وتأثير نفسي ولذا كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهو متفرد عن عشيرته في البصرة. ونحن إذ ننقل للقارئ هذا القدر من كلام أحد علماء المغرب إنما نؤكد عناية أهل الفكر بسيرته وثبات ثمرة دعوته والتدليل على معرفة العلماء به، بل إن بعض الأشخاص ليذكرون عن الدكتور كامل الطويل أنه أثناء وجوده بأوربا للتحضير للدكتوراه عثر على وثائق كانت متبادلة بين نابليون والباب العالي بخصوص دعوة الشيخ المترجم عنه، ووجوب عمل اللازم تجاهها، كخطر على مصالحهم في

الشرق. فلئن كان الأمر كذلك فلا أقل من أن نقدم سيرته ومنهج دعوته إلى الناس، وخاصة الناشئة منهم، ليروا مدى صبره ومثابرته وعوامل نجاح دعوته، ومما يعلي قيمة هذه المحاضرة عاملان أساسيان:

الأول: أنها توضح عوامل الدعوة، وأسسها، ومنهج الداعي، وخطواته، وتبرز جانبًا هامًا من جوانب العقيدة، وهو جانب توحيد العبادة الذي اشتدت حاجة الناس إليه، ولا سيما على النحو الذي عرض في أثناء تلك المحاضرة.

العامل الثاني: أنه من أولى الناس بالمحاضر عنه حيث إنه حفظه الله أحد أفاضل علماء نجد، ومن أبرز من تلقى العلم على أحفاد الشيخ الإمام، فكان من أقرب الناس إليه وأولاهم به، وقد جاءت تلك المحاضرة وافية بالغرض، محققة للمطلوب، مما يتطلبه القارئ عن الشيخ الإمام، (وعن دعوته) وعن أحوال بلاده، وأسباب قيامه بالدعوة، وعوامل نجاحه. فجزى الله الإمام عن الدعوة والمسلمين خيرا. وجزى الله فضيلة الشيخ المحاضر عنه خيرًا وصلى الله وسلم على عبده ورسوله، ورضي الله عن كل داعية، وبارك في جهود كل مصلح في مشارق الأرض ومغاربها إنه سميع قريب. كتبها: عطية محمد سالم.اهـ.

محاضرة الإمام ابن باز رحمه الله :(محاضرة عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وخيرته من خلقه سيدنا وإمامنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه ومن والاه.

أما بعد: أيها الإخوان الفضلاء، أيها الأبناء الأعزاء. هذه المحاضرة الموجزة أتقدم بها بين أيديكم تنويرًا للأفكار، وإيضاحًا للحقائق، ونصحًا لله ولعباده وأداء لبعض ما يجب علي من الحق نحو المحاضر عنه وهذه المحاضرة عنوانها: الشيخ

الإمام محمد بن عبد الوهاب. دعوته وسيرته. لما كان الحديث عن المصلحين، والدعاة والمجددين، والتذكير بأحوالهم وخصالهم الحميدة، وأعمالهم المجيدة، وشرح سيرتهم التي دلت على إخلاصهم، وعلى صدقهم في دعوتهم، وإصلاحهم وأعمالهم وسيرتهم؛ مما تشتاق إليه النفوس الطيبة، وترتاح له القلوب، ويود سماعه كل غيور على الدين، وكل راغب في الإصلاح، والدعوة إلى سبيل الحق رأيت أن أتحدث إليكم عن رجل عظيم ومصلح كبير وداعية غيور، ألا وهو **الشيخ الإمام المجدد للإسلام في الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر من الهجرة النبوية**.

هو: الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي الحنبلي النجدي، لقد عرف الناس هذا الإمام ولا سيما علماؤهم ورؤساؤهم وكبراؤهم وأعيانهم في الجزيرة العربية وفي خارجها، ولقد كتب الناس عنه كتابات كثيرة ما بين موجز وما بين مطول، ولقد أفرده كثير من الناس بكتابات حتى المستشرقون كتبوا عنه كتابات كثيرة، وكتب عنه آخرون في أثناء كتاباتهم عن المصلحين وفي أثناء كتاباتهم في التاريخ، وصفه المنصفون منهم بأنه مصلح عظيم، وبأنه مجدد للإسلام، وبأنه على هدى ونور من ربه، وتعدادهم يشق كثيرًا.

من جملتهم المؤلف الكبير أبو بكر الشيخ حسين بن غنام الأحسائي. فقد كتب عن هذا الشيخ، فأجاد وأفاد وذكر دعوته، وذكر سيرته وذكر غزواته، وأطنب في ذلك وكتب كثيرًا من رسائله واستنباطاته من كتاب الله - عز وجل - ومنهم الشيخ الإمام عثمان بن بشر في كتابه عنوان المجد، فقد كتب عن هذا الشيخ، وعن دعوته، وعن سيرته، وعن تاريخ حياته، وعن غزواته وجهاده، ومنهم خارج الجزيرة الدكتور أحمد أمين في كتابه زعماء الإصلاح، فقد كتب عنه وأنصفه، ومنهم الشيخ الكبير مسعود عالم الندوي، فقد كتب عنه وسماه المصلح المظلوم وكتب عن سيرته وأجاد في ذلك، وكتب عنه أيضا آخرون، منهم الشيخ الكبير الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني. فقد كان في زمانه وقد كان على دعوته، فلما بلغه دعوة الشيخ

سر بها وحمد الله عليها. وكذلك كتب عنه العلامة الكبير الشيخ محمد بن علي الشوكاني صاحب نيل الأوطار ورثاه بمرثية عظيمة، وكتب عنه جمع غفير غير هؤلاء يعرفهم القراء والعلماء ولأجل كون كثير من الناس قد يخفى عليه حال هذا الإمام وسيرته ودعوته رأيت أن أساهم في بيان حاله وما كان عليه من سيرة حسنة، ودعوة صالحة، وجهاد صادق وأن أشرح قليلًا مما أعرفه عن هذا الإمام حتى يتبصر في أمره من كان عنده شيء من لبس، أو شيء من شك في حال هذا الرجل ودعوته، وما كان عليه.

[مولده ونشأته]

ولد هذا الإمام في عام (١١١٥) هجرية هذا هو المشهور في مولده رحمة الله عليه، وقيل في عام (١١١١) هجرية والمعروف الأول أنه ولد في عام ١١١٥ هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التحية. وتعلم على أبيه في بلدة العيينة وهذه البلدة هي مسقط رأسه رحمة الله عليه وهي قرية معلومة في اليمامة في نجد شمال غرب مدينة الرياض بينها وبين الرياض مسيرة سبعين كيلو مترًا تقريبًا، أو ما يقارب ذلك من جهة الغرب.

ولد فيها رحمة الله عليه ونشأ نشأة صالحة، وقرأ القرآن مبكرًا، واجتهد في الدراسة، والتفقه على أبيه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان - وكان فقيهًا كبيرًا وعالمًا قديرًا، وكان قاضيًا في بلدة العيينة - ثم بعد بلوغ الحلم حج وقصد بيت الله الحرام وأخذ عن بعض علماء الحرم الشريف.

ثم توجه إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فاجتمع بعلمائها، وأقام فيها مدة، وأخذ من عالمين كبيرين مشهورين في المدينة ذلك الوقت، وهما: الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف النجدي، أصله من المجمعة، وهو والد الشيخ إبراهيم بن عبد الله صاحب العذب الفائض في علم الفرائض، وأخذ أيضًا عن

الشيخ الكبير محمد حياة السندي بالمدينة. هذان العالمان ممن اشتهر أخذ الشيخ عنهما بالمدينة، ولعله أخذ عن غيرهما ممن لا نعرف.

[رحلته في طلب العلم]

ورحل الشيخ لطلب العلم إلى العراق فقصد البصرة واجتمع بعلمائها، وأخذ عنهم ما شاء الله من العلم، وأظهر الدعوة هناك إلى توحيد الله ودعا الناس إلى السنة، وأظهر للناس أن الواجب على جميع المسلمين أن يأخذوا دينهم عن كتاب الله وسنة رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وناقش وذاكر في ذلك، وناظر هنالك من العلماء، واشتهر من مشايخه، هناك شخص يقال له الشيخ محمد المجموعي، وقد ثار عليه بعض علماء السوء بالبصرة وحصل عليه وعلى شيخه المذكور بعض الأذى، فخرج من أجل ذلك وكان من نيته أن يقصد الشام فلم يقدر على ذلك لعدم وجود النفقة الكافية، فخرج من البصرة إلى الزبير وتوجه من الزبير إلى الأحساء واجتمع بعلمائها وذاكرهم في أشياء من أصول الدين ثم توجه إلى بلاد حريملاء وذلك (والله أعلم) في العقد الخامس من القرن الثاني عشر لأن أباه كان قاضيًا في العيينة وصار بينه وبين أميرها نزاع فانتقل عنها إلى حريملاء سنة ١١٣٩هجرية فقدم الشيخ محمد على أبيه في حريملاء بعد انتقاله إليها سنة ١١٣٩هجرية فيكون قدومه حريملاء في عام ١١٤٠ أو ما بعدها، واستقر هناك ولم يزل مشتغلًا بالعلم والتعليم والدعوة في حريملاء حتى مات والده في عام ١١٥٣ هجرية فحصل من بعض أهل حريملاء شر عليه، وهم بعض السفلة بها أن يفتك به، وقيل إن بعضهم تسور عليه الجدار فعلم بهم بعض الناس فهربوا، وبعد ذلك ارتحل الشيخ إلى العيينة رحمة الله عليه، وأسباب غضب هؤلاء السفلة عليه أنه كان آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، وكان يحث الأمراء على تعزير المجرمين الذين يعتدون على الناس بالسلب والنهب والإيذاء، ومن جملتهم هؤلاء السفلة الذين يقال لهم العبيد هناك، ولما عرفوا من الشيخ أنه ضدهم وأنه لا يرضى

بأفعالهم، وأنه يحرض الأمراء على عقوباتهم، والحد من شرهم غضبوا وهموا أن يفتكوا به، فصانه الله وحماه ثم انتقل إلى بلدة العيينة وأميرها إذ ذاك عثمان بن نصار بن معمر، فنزل عليه ورحب به الأمير، وقال: قم بالدعوة إلى الله ونحن معك وناصروك وأظهر له الخير، والمحبة والموافقة على ما هو عليه.

فاشتغل الشيخ بالتعليم والإرشاد والدعوة إلى الله - عز وجل - وتوجيه الناس إلى الخير، والمحبة في الله، رجالهم ونسائهم، واشتهر أمره في العيينة وعظم صيته وجاء إليه الناس من القرى المجاورة، وفي يوم من الأيام قال الشيخ للأمير عثمان دعنا نهدم قبة زيد بن الخطاب - رضي الله عنه - فإنها أسست على غير هدى، وأن الله جل وعلا لا يرضى بهذا العمل، والرسول ﷺ نهى عن البناء على القبور، واتخاذ المساجد عليها، وهذه القبة فتنت الناس وغيرت العقائد، وحصل بها الشرك فيجب هدمها، فقال الأمير عثمان لا مانع من ذلك، فقال الشيخ إني أخشى أن يثور لها أهل الجبيلة، والجبيلة قرية هناك قريبة من القبر، فخرج عثمان ومعه جيش يبلغون ٦٠٠ مقاتل لهدم القبة، ومعهم الشيخ رحمة الله عليه فلما قربوا من القبة خرج أهل الجبيلة لما سمعوا بذلك لينصروها ويحموها، فلما رأوا الأمير عثمان ومن معه كفوا ورجعوا عن ذلك، فباشر الشيخ هدمها وإزالتها فأزالها الله - عز وجل - على يديه رحمة الله عليه.

[حال نجد قبل قيام الشيخ رحمة الله عليه وأسباب قيامه ودعوته]

ولنذكر نبذة عن حال نجد قبل قيام الشيخ رحمة الله عليه، وعن أسباب قيامه، ودعوته:

كان أهل نجد قبل دعوة الشيخ على حالة لا يرضاها مؤمن، وكان الشرك الأكبر قد نشأ في نجد وانتشر حتى عبدت القباب وعبدت الأشجار، والأحجار، وعبدت الغيران، وعبد من يدعي بالولاية، وهو من المعتوهين، وعبد من دون الله

أناس يدعون بالولاية، وهم مجانين مجاذيب لا عقول عندهم، واشتهر في نجد السحرة والكهنة، وسؤالهم وتصديقهم وليس هناك منكر إلا من شاء الله، وغلب على الناس الإقبال على الدنيا وشهواتها، وقل القائم لله والناصر لدينه وهكذا في الحرمين الشريفين وفي اليمن اشتهر في ذلك الشرك وبناء القباب على القبور، ودعاء الأولياء والاستغاثة بهم، وفي اليمن من ذلك الشيء الكثير، وفي بلدان نجد من ذلك ما لا يحصى، ما بين قبر وما بين غار، وبين شجرة وبين مجذوب، ومجنون يدعى من دون الله ويستغاث به مع الله، وكذلك مما عرف في نجد واشتهر دعاء الجن والاستغاثة بهم وذبح الذبائح لهم وجعلها في الزوايا من البيوت رجاء نجدتهم، وخوف شرهم، فلما رأى الشيخ الإمام هذا الشرك وظهوره في الناس وعدم وجود منكر لذلك وقائم بالدعوة إلى الله في ذلك شمر عن ساعد الجد وصبر على الدعوة وعرف أنه لا بد من جهاد، وصبر، وتحمل للأذى.

فجدّ في التعليم والتوجيه والإرشاد وهو في العيينة، وفي مكاتبة العلماء في ذلك والمذاكرة معهم رجاء أن يقوموا معه في نصرة دين الله، والمجاهدة في هذا الشرك وهذه الخرافات. فأجاب دعوته كثيرون من علماء نجد وعلماء الحرمين، وعلماء اليمن، وغيرهم وكتبوا إليه بالموافقة، وخالف آخرون وعابوا ما دعا إليه وذموه ونفروا عنه وهم بين أمرين، ما بين جاهل خرافي لا يعرف دين الله ولا يعرف توحيد الله، وإنما يعرف ما هو عليه وآباؤه وأجداده من الجهل والضلال والشرك، والبدع، والخرافات، كما قال الله - جل وعلا - عن أمثال أولئك: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الزخرف:٢٣].

[طائفة ممن ينتسبون إلى العلم ردوا عليه عنادًا وحسدًا]

وطائفة أخرى ممن ينسبون إلى العلم ردوا عليه عنادًا وحسدًا لئلا يقول العامة: ما بالكم لم تنكروا علينا هذا الشيء؟! لماذا جاء ابن عبد الوهاب وصار على الحق وأنتم علماء ولم تنكروا هذا الباطل؟! فحسدوه وخجلوا من العامة، وأظهروا العناد

للحق إيثارا للعاجل على الآجل، واقتداء باليهود في إيثارهم الدنيا على الآخرة نسأل الله العافية والسلامة. أما الشيخ فقد صبر وجد في الدعوة وشجعه من شجعه من العلماء والأعيان في داخل الجزيرة، وفي خارجها، وعزم على ذلك، واستعان بربه – عز وجل – وعكف على الكتب النافعة ودرسها وعكف قبل ذلك على كتاب الله، وكانت له اليد الطولى في تفسير كتاب الله، والاستنباط منه، وعكف على سيرة الرسول ﷺ وسيرة أصحابه، وجد في ذلك وتبصر فيه حتى أدرك من ذلك ما أعانه الله به وثبته على الحق فشمر عن ساعد الجد، وصمم على الدعوة وعلى أن ينشرها بين الناس ويكاتب الأمراء والعلماء في ذلك وليكن في ذلك ما يكون، فحقق الله له الآمال الطيبة، ونشر به الدعوة، وأيد به الحق، وهيأ الله له أنصارا ومساعدين وأعوانا حتى ظهر دين الله وعلت كلمة الله، فاستمر الشيخ في الدعوة في العيينة بالتعليم والإرشاد، ثم شمر عن ساعد الجد إلى العمل وإزالة الشرك بالفعل لما رأى الدعوة لم تؤثر في بعض الناس فباشر الدعوة عمليا ليزيل بيده ما تيسر وما أمكن من آثار الشرك. فقال الشيخ للأمير عثمان بن معمر لا بد من هدم هذه القبة التي على قبر زيد وزيد بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو أخو عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله تعالى عن الجميع، وكان من جملة الشهداء في قتال مسيلمة الكذاب في عام ١٢ من الهجرة النبوية، فكان ممن قتل هناك وبني على قبره قبة فيما يذكرون، وقد يكون قبر غيره، لكنه فيما يذكرون أنه قبره – فوافقه عثمان كما تقدم، وهدمت القبة بحمد الله وزال أثرها إلى اليوم ولله الحمد والمنة، أماتها جل وعلا لما هدمت عن نية صالحة، وقصد مستقيم ونصر للحق، وهناك قبور أخرى منها قبر يقال إنه قبر ضرار بن الأزور كانت عليه قبة هدمت أيضًا، وهناك مشاهد أخرى أزالها الله – عز وجل – وكانت هناك غيران (جمع غار وهو الكهف في الجبل) وأشجار تعبد من دون الله جل وعلا فأزيلت وقضى عليها وحذر الناس عنها.

[دعوة الشيخ قولًا وعملًا]

والمقصود أن الشيخ استمر رحمة الله عليه على الدعوة قولا وعملا كما تقدم، ثم إن الشيخ أتته امرأة واعترفت عنده بالزنا عدة مرات، وسأل عن عقلها فقيل إنها عاقلة ولا بأس بها، فلما صممت على الاعتراف، ولم ترجع عن اعترافها، ولم تدع إكراها ولا شبهة وكانت محصنة. أمر الشيخ رحمة الله عليه بأن ترجم فرجمت بأمره حالة كونه قاضيًا بالعيينة، فاشتهر أمره بعد ذلك بهدم القبة وبرجم المرأة وبالدعوة العظيمة إلى الله وهجرة المهاجرين إلى العيينة، وبلغ أمير الأحساء وتوابعها من بني خالد سليمان بن عريعر الخالدي أمر الشيخ وأنه يدعو إلى الله وأنه يهدم القباب، وأنه يقيم الحدود فعظم على هذا البدوي أمر الشيخ، لأن من عادة البادية إلا من هدى الله، الإقدام على الظلم، وسفك الدماء، ونهب الأموال، وانتهاك الحرمات، فخاف إن هذا الشيخ يعظم أمره ويزيل سلطان الأمير البدوي، فكتب إلى عثمان يتوعده ويأمره أن يقتل هذا المطوع الذي عنده في العيينة.

وقال: إن المطوع الذي عندكم بلغنا عنه كذا، وكذا!! فإما أن تقتله، وإما أن نقطع عنك خراجك الذي عندنا!! وكان عنده للأمير عثمان خراج من الذهب، فعظم على عثمان أمر هذا الأمير، وخاف إن عصاه أن يقطع عنه خراجه أو يحاربه، فقال للشيخ إن هذا الأمير كتب إلينا كذا وكذا وأنه لا يحسن منا أن نقتلك وإنا نخاف هذا الأمير ولا نستطيع محاربته، فإذا رأيت أن تخرج عنا فعلت، فقال له الشيخ إن الذي أدعو إليه هو دين الله وتحقيق كلمة لا إله إلا الله، وتحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله، فمن تمسك بهذا الدين ونصره وصدق في ذلك نصره الله وأيده وولاه على بلاد أعدائه، فإن صبرت واستقمت وقبلت هذا الخير فأبشر فسينصرك الله ويحميك من هذا البدوي وغيره، وسوف يوليك الله بلاده وعشيرته. فقال: أيها الشيخ إنا لا نستطيع محاربته، ولا صبر لنا على مخالفته، فخرج الشيخ عند ذلك وتحول من العيينة إلى بلاد الدرعية، جاء إليها ماشيًا فيما ذكروا

حتى وصل إليها في آخر النهار، وقد خرج من العيينة في أول النهار ماشيًا على الأقدام لم يرحله عثمان، فدخل على شخص من خيارها في أعلى البلد يقال له محمد بن سويلم العريني فنزل عليه، ويقال إن هذا الرجل خاف من نزوله عليه وضاقت به الأرض بما رحبت، وخاف من أمير الدرعية محمد بن سعود فطمأنه الشيخ وقال له أبشر بخير، وهذا الذي أدعو الناس إليه دين الله، وسوف يظهره الله، فبلغ محمد بن سعود خبر الشيخ محمد، ويقال إن الذي أخبره به زوجته جاء إليها بعض الصالحين وقال لها أخبري محمدًا بهذا الرجل، وشجعيه على قبول دعوته وحرضيه على مؤازرته ومساعدته وكانت امرأة صالحة طيبة، فلما دخل عليها محمد بن مسعود أمير الدرعية وملحقاتها قالت له أبشر بهذه الغنيمة العظيمة! هذه غنيمة ساقها الله إليك، رجل داعية يدعو إلى دين الله، ويدعو إلى كتاب الله، يدعو إلى سنة رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يا لها من غنيمة! بادر بقبوله وبادر بنصرته، ولا تقف في ذلك أبدًا، فقبل الأمير مشورتها، ثم تردد هل يذهب إليه أو يدعوه إليه؟! فأشير عليه، ويقال إن المرأة أيضًا هي التي أشارت عليه مع جماعة من الصالحين وقالوا له: لا ينبغي أن تدعوه إليك، بل ينبغي أن تقصده في منزله، وأن تقصده أنت وأن تعظم العلم والداعي إلى الخير، فأجاب إلى ذلك لما كتب الله له من السعادة والخير رحمة الله عليه وأكرم الله مثواه، فذهب إلى الشيخ في بيت محمد بن سويلم، وقصده وسلم عليه وتحدث معه، وقال له يا شيخ محمد أبشر بالنصرة وأبشر بالأمن وأبشر بالمساعدة فقال له الشيخ وأنت أبشر بالنصرة أيضًا والتمكين والعاقبة الحميدة، هذا دين الله من نصره نصره الله، ومن أيده أيده الله وسوف تجد آثار ذلك سريعًا، فقال يا شيخ سأبايعك على دين الله ورسوله ﷺ وعلى الجهاد في سبيل الله، ولكنني أخشى إذا أيدناك ونصرناك وأظهرك الله على أعداء الإسلام، أن تبتغي غير أرضنا، وأن تنتقل عنا إلى أرض أخرى فقال: لا. أبايعك على هذا. . أبايعك

على أن الدم بالدم والهدم بالهدم لا أخرج عن بلادك أبدًا، فبايعه على النصرة وعلى البقاء في البلد وأنه يبقى عند الأمير يساعده، ويجاهد معه في سبيل الله حتى يظهر دين الله، وتمت البيعة على ذلك. وتوافد الناس إلى الدرعية من كل مكان، من العيينة، وعرقة، ومنفوحة، والرياض وغير ذلك من البلدان المجاورة، ولم تزل الدرعية موضع هجرة يهاجر إليها الناس من كل مكان، وتسامع الناس بأخبار الشيخ، ودروسه في الدرعية ودعوته إلى الله وإرشاده إليه، فأتوا زرافات ووحدانا.

فأقام الشيخ بالدرعية معظمًا مؤيدًا محبوبًا منصورًا ورتب الدروس في الدرعية في العقائد، وفي القرآن الكريم، وفي التفسير، وفي الفقه، وأصوله، والحديث، ومصطلحه، والعلوم العربية، والتاريخية، وغير ذلك من العلوم النافعة، وتوافد الناس عليه من كل مكان، وتعلم الناس عليه في الدرعية الشباب وغيرهم، ورتب للناس دروسًا كثيرة للعامة، والخاصة، ونشر العلم في الدرعية واستمر على الدعوة.

[بداية دعوة الشيخ للجهاد ومكاتبته للناس وأمراء المناطق والعلماء والأمصار]

ثم بدأ بالجهاد وكاتب الناس إلى الدخول في هذا الميدان وإزالة الشرك الذي في بلادهم، وبدأ بأهل نجد، وكاتب أمراءها وعلماءها. كاتب علماء الرياض وأميرها دهام بن دواس، كاتب علماء الخرج وأمراءها، وعلماء بلاد الجنوب والقصيم وحائل والوشم، وسدير وغير ذلك، ولم يزل يكاتبهم ويكاتب علماءهم وأمراءهم، وهكذا علماء الأحساء وعلماء الحرمين الشريفين، وهكذا علماء الخارج في مصر، والشام، والعراق، والهند واليمن وغير ذلك، ولم يزل يكاتب الناس ويقيم الحجج ويذكر الناس ما وقع فيه أكثر الخلق من الشرك والبدع، وليس معنى هذا أنه ليس هناك أنصار للدين بل هناك أنصار والله جل وعلا قد ضمن لهذا الدين أن لا بد له من ناصر ولا تزال طائفة في هذه الأمة على الحق منصورة كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهناك أنصار للحق في أقطار كثيرة.

[عودة للحديث عن بلاد نجد وما كان فيها من الشرك والفساد]

ولكن الحديث الآن عن نجد فكان فيها من الشر والفساد والشرك والخرافات ما لا يحصيه إلا الله – عز وجل. مع أن فيها علماء فيهم خير، ولكن لم يقدر لهم أن ينشطوا في الدعوة وأن يقوموا بها كما ينبغي، وهناك أيضا في اليمن وغير اليمن دعاة إلى الحق وأنصار قد عرفوا هذا الشرك وهذه الخرافات، ولكن لم يقدر الله لدعوتهم من النجاح ما قدر لدعوة الشيخ محمد لأسباب كثيرة.

منها: عدم تيسر الناصر المساعد لهم.

ومنها: عدم الصبر لكثير من الدعاة وتحمل الأذى في سبيل الله

ومنها: قلة علوم بعض الدعاة التي يستطيع بها أن يوجه الناس بالأساليب المناسبة، والعبارات اللائقة، والحكمة والموعظة الحسنة.

ومنها: أسباب أخرى غير هذه الأسباب، وبسبب هذه المكاتبات الكثيرة والرسائل والجهاد اشتهر أمر الشيخ، وظهر أمر الدعوة، واتصلت رسائله بالعلماء في داخل الجزيرة، وفي خارجها.

وتأثر بدعوته جمع غفير من الناس في الهند وفي أندونسيا، وفي أفغانستان، وفي أفريقيا وفي المغرب، وهكذا في مصر، والشام، والعراق، وكان هناك دعاة كثيرون عندهم معرفة بالحق والدعوة إليه فلما بلغتهم دعوة الشيخ زاد نشاطهم، وزادت قوتهم واشتهروا بالدعوة. ولم تزل دعوة الشيخ تشتهر وتظهر بين العالم الإسلامي وغيره، ثم في هذا العصر الأخير طبعت كتبه، ورسائله، وكتب أبنائه، وأحفاده، وأنصاره، وأعوانه من علماء المسلمين في الجزيرة وخارجها. وكذلك طبعت الكتب المؤلفة في دعوته، وترجمته، وأحواله، وأحوال أنصاره، حتى اشتهرت بين الناس في غالب الأقطار والأمصار، ومن المعلوم أن لكل نعمة حاسدًا وأن لكل داعي أعداء كثيرين كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ

ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ [سورة الأنعام:١١٢].

[تقسيم خصوم الشيخ إلى ثلاثة أقسام]

فلما اشتهر الشيخ بالدعوة وكتب الكتابات الكثيرة،وألف المؤلفات القيمة، ونشرها في الناس، وكاتبه العلماء، ظهر جماعة كثيرون من حساده، ومن مخالفيه، وظهر أيضًا أعداء آخرون، وصار أعداؤه وخصومه قسمين: قسم عادوه باسم العلم والدين.

وقسم: عادوه باسم السياسة ولكن تستروا بالعلم، وتستروا باسم الدين، واستغلوا عداوة من عاداه من العلماء الذين أظهروا عداوته وقالوا إنه على غير الحق، وإنه كيت وكيت.

والشيخ رحمة الله عليه مستمر في الدعوة يزيل الشبه، ويوضح الدليل، ويرشد الناس إلى الحقائق على ما هي عليه من كتاب الله وسنة رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وطورًا يقولون إنه من الخوارج، وتارة يقولون: يخرق الإجماع، ويدعي الاجتهاد المطلق ولا يبالي بمن قبله من العلماء والفقهاء وتارة يرمونه بأشياء أخرى وما ذاك إلا من قلة العلم من طائفة منهم وطائفة أخرى قلدت غيرها واعتمدت على غيرها، وطائفة أخرى خافت على مراكزها فعادته سياسة وتسترت باسم الإسلام والدين واعتمدت على أقوال المخرفين والمضللين.

والخصوم في الحقيقة ثلاثة أقسام: علماء مخرفون يرون الحق باطلًا والباطل حقا، ويعتقدون أن البناء على القبور، واتخاذ المساجد عليها، ودعاءها من دون الله والاستغاثة بها وما أشبه ذلك دين وهدى، ويعتقدون أن من أنكر ذلك فقد أبغض الصالحين، وأبغض الأولياء، وهو عدو يجب جهاده.

وقسم آخر: من المنسوبين للعلم جهلوا حقيقة هذا الرجل، ولم يعرفوا عنه الحق الذي دعا إليه بل قلدوا غيرهم وصدقوا ما قيل فيه من الخرافيين المضللين،

وظنوا أنهم على هدى فيما نسبوه إليه من بغض الأولياء والأنبياء، ومن معاداتهم، وإنكار كراماتهم، فذموا الشيخ، وعابوا دعوته ونفروا عنه.

وقسم آخر: خافوا على المناصب والمراتب فعادوه لئلا تمتد أيدي أنصار الدعوة الإسلامية إليهم فتزيلهم عن مراكزهم، وتستولي على بلادهم، واستمرت الحرب الكلامية، والمجادلات والمساجلات بين الشيخ وخصومه، يكاتبهم ويكاتبونه، ويجادلهم ويرد عليهم، ويردون عليه، وهكذا جرى بين أبنائه وأحفاده وأنصاره وبين خصوم الدعوة، حتى اجتمع من ذلك رسائل كثيرة، وردود جمة، وقد جمعت هذه الرسائل والفتاوى والردود فبلغت مجلدات، وقد طبع أكثرها والحمد لله، واستمر الشيخ في الدعوة والجهاد وساعده الأمير محمد بن سعود أمير الدرعية، وجد الأسرة السعودية على ذلك، ورفعت راية الجهاد وبدأ الجهاد من عام ١١٥٨هـ. بدأ الجهاد بالسيف، وبالكلام والبيان، والحجة، والبرهان، ثم استمرت الدعوة مع الجهاد بالسيف، ومعلوم أن الداعي إلى الله - عز وجل - إذا لم يكن لديه قوة تنصر الحق وتنفذه فسرعان ما تخبو دعوته وتنطفي شهرته، ثم يقل أنصاره. ومعلوم ما للسلاح والقوة من الأثر العظيم في نشر الدعوة، وقمع المعارضين ونصر الحق، وقمع الباطل، ولقد صدق الله العظيم في قوله - عز وجل - وهو الصادق سبحانه في كل ما يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحديد:٢٥]. فبين سبحانه وتعالى أنه أرسل الرسل بالبينات، وهي الحجج والبراهين الساطعة التي يوضح الله بها الحق، ويدفع بها الباطل، وأنزل مع الرسل الكتاب الذي فيه البيان، والهدى والإيضاح، وأنزل معهم الميزان، وهو العدل الذي ينصف به المظلوم من الظالم، ويقام به الحق وينشر به الهدى ويعامل

الناس على ضوئه بالحق والقسط، وأنزل الحديد فيه بأس شديد، فيه قوة وردع وزجر لمن خالف الحق، فالحديد لمن لم تنفع فيه الحجة وتؤثر فيه البينة، فهو الملزم بالحق، وهو القامع للباطل، ولقد أحسن من قال في مثل هذا:

وما هو إلا الوحْيُ أوْحَدُّ مُرْهَفٍ ❁❁❁ تُميلُ ظُبَاه أخدَعَيْ كُلِّ مائِلِ
فهذا دواءُ الدَّاءِ مِن كلِّ عالم ❁❁❁ وهذا دواءُ الدَّاءِ من كُلِّ جاهِلِ
هوَ الحقُّ إنْ تستيقِظُوا فيه تَغْنَمُوا ❁❁❁ وإن تَغْفَلُوا فالسَّيْفُ لَيْسَ بغافِلِ

فالعاقل ذو الفطرة السليمة، ينتفع بالبينة، ويقبل الحق بدليله، أما الظالم التابع لهواه فلا يردعه إلا السيف، فجد الشيخ رحمه الله في الدعوة والجهاد، وساعده أنصاره من آل سعود، طيب الله ثراهم على ذلك، واستمروا في الجهاد والدعوة من عام ١١٥٨ هـ إلى أن توفي الشيخ في عام ١٢٠٦ هـ فاستمر الجهاد والدعوة قريبًا من خمسين عامًا. جهاد، ودعوة، ونضال، وجدال في الحق، وإيضاح لما قاله الله ورسوله ﷺ، ودعوة إلى دين الله، وإرشاد إلى ما شرعه رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. حتى التزم الناس بالطاعة،وهدموا ما عندهم من القباب، وأزالوا ما لديهم من المساجد المبنية على القبور، وحكموا الشريعة، ودانوا بها، وتركوا ما كانوا عليه من تحكيم سوالف الآباء والأجداد، وقوانينهم، ورجعوا إلى الحق. وعمرت المساجد بالصلوات، وحلقات العلم، وأديت الزكوات، وصام الناس رمضان، كما شرع الله – عز وجل – وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وساد الأمن في الأمصار، والقرى، والطرق، والبوادي، ووقف البادية عند حدهم، ودخلوا في دين الله وقبلوا الحق، ونشر الشيخ فيهم الدعوة. وأرسل الشيخ إليهم المرشدين، والدعاة في الصحراء والبوادي، كما أرسل المعلمين، والمرشدين، والقضاة إلى البلدان والقرى، وعم هذا الخير العظيم والهدى المستبين نجدًا كلها وانتشر فيها الحق، وظهر فيها دين الله (ثم بعد وفاة الشيخ رحمة الله عليه استمر

أبناؤه، وأحفاده، وتلاميذه، وأنصاره في الدعوة والجهاد، وعلى رأس أبنائه الشيخ الإمام عبد الله بن محمد، والشيخ حسين بن محمد، والشيخ علي بن محمد، والشيخ إبراهيم بن محمد، ومن أحفاده الشيخ عبد الرحمن بن حسن، والشيخ علي بن حسين، والشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد وجماعة آخرون ومن تلاميذه أيضًا الشيخ حمد بن ناصر بن معمر، وجمع غفير من علماء الدرعية، وغيرهم استمروا في الدعوة والجهاد ونشروا دين الله تعالى وكتابة الرسائل وتأليفات المؤلفات، وجهاد أعداء الدين، وليس بين هؤلاء الدعاة وخصومهم شيء إلا أن هؤلاء دعوا إلى توحيد الله وإخلاص العبادة لله -عز وجل - والاستقامة على ذلك، وهدم المساجد والقباب التي على القبور، ودعوا إلى تحكيم الشريعة والاستقامة عليها ودعوا إلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود الشرعية. هذه أسباب النزاع بينهم وبين الناس.

والخلاصة: أنهم أرشدوا الناس إلى توحيد الله، وأمروهم بذلك وحذروا الناس من الشرك بالله ومن وسائله وذرائعه، وألزموا الناس بالشريعة الإسلامية ومن أبى واستمر على الشرك بعد الدعوة والبيان، والإيضاح والحجة، جاهدوه في الله - عز وجل -وقصدوه في بلاده حتى يخضع للحق، وينيب إليه أو يلزموه به بالقوة والسيف، حتى يخضع هو وأهل بلده إلى ذلك، وكذلك حذروا الناس من البدع والخرافات، التي ما أنزل الله بها من سلطان، كالبناء على القبور، واتخاذ القباب عليها والتحاكم إلى الطواغيت، وسؤال السحرة والكهنة، وتصديقهم وغير ذلك، فأزال الله ذلك على يدي الشيخ وأنصاره رحمة الله عليهم جميعًا.

وعمرت المساجد بتدريس الكتاب العظيم والسنة المطهرة، والتاريخ الإسلامي، والعلوم العربية النافعة، وصار الناس في مذاكرة، وعلم، وهدى، ودعوة، وإرشاد، وآخرون منهم فيما يتعلق بدنياهم من الزراعة والصناعة وغير

ذلك، علم وعمل، ودعوة وإرشاد، ودنيا ودين فهو يتعلم ويذاكر، ومع ذلك يعمل في حقله الزراعي، أو في صناعته أو تجارته وغير ذلك، فتارة لدينه، وتارة لدنياه دعاة إلى الله وموجهون إلى سبيله ومع ذلك يشتغلون بأنواع الصناعة الرائجة في بلادهم، ويحصلون من ذلك على ما يغنيهم عن خارج بلادهم، وبعد فراغ الدعاة وآل سعود من نجد امتدت دعوتهم إلى الحرمين، وجنوب الجزيرة، وكاتبوا علماء الحرمين سابقًا، ولاحقًا فلما لم تجد الدعوة واستمر أهل الحرمين على ما هم عليه من تعظيم القباب، واتخاذها على القبور، ووجود الشرك عندها، والسؤال لأربابها.

سار الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد بعد وفاة الشيخ بإحدى عشرة سنة متوجها إلى الحجاز، ونازل أهل الطائف ثم قصد أهل مكة وكان أهل الطائف قد توجه إليهم قبل سعود الأمير عثمان بن عبد الرحمن المضايفي، ونازلهم بقوة أرسلها إليه الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد أمير الدرعية بقوة عظيمة من أهل نجد وغيرهم، ساعدوه حتى استولى على الطائف، وأخرج منها أمراء الشريف، وأظهر فيه الدعوة إلى الله، وأرشد إلى الحق، ونهى فيها عن الشرك، وعبادة ابن عباس، وغيره مما كان يعبده هناك الجهال، والسفهاء من أهل الطائف، ثم توجه الأمير سعود عن أمر أبيه عبد العزيز إلى جهة الحجاز، وجمعت الجيوش حول مكة. فلما عرف شريفها أنه لا بد من التسليم أو الفرار فر إلى جدة، ودخل سعود ومن معه البلاد من غير قتال واستولوا على مكة في فجر يوم السبت ٨ محرم من عام ١٢١٨هـ وأظهروا فيها الدعوة إلى دين الله، وهدموا ما فيها من القباب التي بنيت على قبر خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وغيره، فأزالوا القباب كلها، وأظهروا فيها الدعوة إلى توحيد الله عز وجل وعينوا فيها العلماء والمدرسين، والموجهين والمرشدين، والقضاة الحاكمين بالشريعة.

ثم بعد مدة وجيزة فتحت المدينة، واستولى آل سعود على المدينة في عام ١٢٢٠هـ بعد مكة بنحو سنتين، واستمر الحرمان في ولاية آل سعود، وعينوا فيها

الموجهين والمرشدين، وأظهروا في البلاد العدل وتحكيم الشريعة، والإحسان إلى أهلها ولا سيما فقرائهم ومحاويجهم فأحسنوا إليهم بالأموال، وواسوهم، وعلموهم كتاب الله. وأرشدوهم إلى الخير، وعظموا العلماء، وشجعوهم على التعليم، والإرشاد ولم يزل الحرمان الشريفان تحت ولاية آل سعود إلى عام ١٢٢٦هـ ثم بدأت الجيوش المصرية والتركية تتوجه إلى الحجاز لقتال آل سعود وإخراجهم من الحرمين، لأسباب كثيرة تقدم بعضها.

وهذه الأسباب كما تقدم هي أن أعداءهم، وحسادهم، والمخرفين الذين ليس لهم بصيرة، وبعض السياسيين الذين أرادوا إخماد هذه الدعوة وخافوا منها أن تزيل مراكزهم، وأن تقضي على أطماعهم، كذبوا على الشيخ، وأتباعه، وأنصاره، وقالوا إنهم يبغضون الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وإنهم يبغضون الأولياء، وينكرون كراماتهم، وقالوا إنهم أيضًا يقولون كيت وكيت مما يزعمون أنهم ينتقصون به الرسل عليهم الصلاة والسلام، وصدق هذا بعض الجهال، وبعض المغرضين، وجعلوه سلمًا للنيل منهم والقتال لهم، وتشجيع الأتراك والمصريين على حربهم، فجرى ما جرى من الفتن والقتال - وصار القتال بين الجنود المصرية والتركية ومن معهم وبين آل سعود في نجد، والحجاز، سجالًا مدة طويلة من عام ١٢٢٦ هـ إلى عام ١٢٣٣ هـ سبع سنين كلها قتال ونضال بين قوى الحق وقوى الباطل.

[خلاصة دعوة الشيخ رحمه الله]

والخلاصة: أن هذا الإمام الذي هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمة الله عليه إنما قام لإظهار دين الله، وإرشاد الناس إلى توحيد الله، وإنكار ما أدخل الناس فيه من البدع والخرافات، وقام أيضًا لإلزام الناس بالحق، وزجرهم عن الباطل، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر.

هذه خلاصة دعوته رحمة الله تعالى عليه، وهو في العقيدة على طريقة السلف

الصالح يؤمن بالله وبأسمائه، وصفاته، ويؤمن بملائكته، ورسله وكتبه، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وهو على طريقة أئمة الإسلام في توحيد الله، وإخلاص العبادة له جل وعلا.

وفي الإيمان بأسماء الله وصفاته على الوجه اللائق بالله سبحانه، لا يعطل صفات الله، ولا يشبه الله بخلقه. وفي الإيمان بالبعث، والنشور، والجزاء والحساب، والجنة والنار، وغير ذلك. ويقول في الإيمان ما قاله السلف إنه قول وعمل يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، كل هذا من عقيدته رحمه الله، فهو على طريقتهم وعلى عقيدتهم قولا وعملا، لم يخرج عن طريقتهم البتة، وليس له في ذلك مذهب خاص، ولا طريقة خاصة، بل هو على طريق السلف الصالح من الصحابة وأتباعهم بإحسان، رضي الله عن الجميع.

وإنما أظهر ذلك في نجد، وما حولها ودعا إلى ذلك ثم جاهد عليه من أباه، وعانده، وقاتلهم، حتى ظهر دين الله وانتصر الحق.

وكذلك هو على ما عليه المسلمون من الدعوة إلى الله، وإنكار الباطل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ولكن الشيخ وأنصاره يدعون الناس إلى الحق، ويلزمونهم به، وينهونهم عن الباطل، وينكرونه عليهم، ويزجرونهم عنه حتى يتركوه، وكذلك جد في إنكار البدع والخرافات حتى أزالها الله سبحانه بسبب دعوته. فالأسباب الثلاثة المتقدمة آنفا هي أسباب العداوة، والنزاع بينه وبين الناس وهي:

أولا: إنكار الشرك والدعوة إلى التوحيد الخالص.

ثانيا: إنكار البدع، والخرافات، كالبناء على القبور واتخاذها مساجد ونحو ذلك كالموالد والطرق التي أحدثتها طوائف المتصوفة.

ثالثا: أنه يأمر الناس بالمعروف، ويلزمهم به بالقوة فمن أبى المعروف الذي أوجبه الله عليه، ألزم به وعزر عليه إذا تركه وينهى الناس عن المنكرات، ويزجرهم

عنها، ويقيم حدودها، ويلزم الناس بالحق، ويزجرهم عن الباطل، وبذلك ظهر الحق، وانتشر، وكبت الباطل، وانقمع، وصار الناس في سيرة حسنة، ومنهج قويم في أسواقهم، وفي مساجدهم، في سائر أحوالهم، لا تعرف البدع بينهم ولا يوجد في بلادهم الشرك، ولا تظهر المنكرات بينهم، بل من شاهد بلادهم وشاهد أحوالهم وما هم عليه ذكر حال السلف الصالح وما كانوا عليه زمن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وزمن أصحابه، وزمن أتباعه بإحسان في القرون المفضلة رحمة الله عليهم.

فالقوم ساروا سيرتهم، ونهجوا منهجهم، وصبروا على ذلك، وجدوا فيه، وجاهدوا عليه، فلما حصل بعض التغيير في آخر الزمان بعد وفاة الشيخ محمد بمدة طويلة ووفاة كثير من أبنائه رحمة الله عليهم وكثير من أنصاره حصل بعض التغيير جاء الابتلاء وجاء الامتحان بالدولة التركية، والدولة المصرية، إلا مصداق قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[سورة الرعد: ١١].

نسأل الله - عز وجل - أن يجعل ما أصابهم تكفيرًا وتمحيصًا من الذنوب، ورفعة، وشهادة لمن قتل منهم - رضي الله عنهم ورحمهم. ولم تزل دعوتهم بحمد الله قائمة منتشرة إلى يومنا هذا فإن الجنود المصرية لما عاثت في نجد، وقتلت من قتلت، وخربت ما خربت، لم يمض على ذلك إلا سنوات قليلة ثم قامت الدعوة بعد ذلك وانتشرت، ونهض بالدعوة بعد ذلك بنحو خمس سنين الإمام تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود رحمة الله عليه فنشر الدعوة في نجد وما حولها، وانتشر العلماء في نجد وأخرج من كان هناك من الأتراك والمصريين أخرجهم من نجد وقراها، وبلدانها وانتشرت الدعوة بعد ذلك في نجد في عام ١٢٤٠ - هـ وكان تخريب الدرعية والقضاء على دولة آل سعود في عام ١٢٣٣ هـ. فمكث الناس في نجد في فوضى، وقتال وفتن بنحو خمس سنين من أربع وثلاثين إلى عام ١٢٣٩ هـ ثم في عام أربعين بعد المائتين وألف اجتمع شمل المسلمين في نجد على الإمام تركي بن عبد

الله بن محمد بن سعود، وظهر الحق وكتب العلماء الرسائل إلى القرى والبلدان، وشجعوا الناس ودعوهم إلى دين الله وانطفأت الفتن التي بينهم بعد الحروب الطويلة التي حصلت على أيدي المصريين، وأعوانهم، وهكذا انطفأت الحروب، والفتن التي وقعت بينهم على أثر تلك الحروب، وخمدت نارها، وظهر دين الله، واشتغل الناس بعد ذلك بالتعليم، والإرشاد، والدعوة، والتوجيه، حتى عادت المياه إلى مجاريها. وعاد الناس إلى أحوالهم، وما كانوا عليه في عهد الشيخ، وعهد تلامذته، وأبنائه، وأنصاره، رضي الله عن الجميع ورحمهم، واستمرت الدعوة من عام ١٢٤٠ هـ إلى يومنا هذا بحمد الله، ولم يزل يخلف آل سعود بعضهم بعضًا، وآل الشيخ وعلماء نجد بعضهم بعضًا فآل سعود يخلف بعضهم بعضًا في الإمامة والدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله.

وهكذا العلماء يخلف بعضهم بعضًا في الدعوة إلى الله والإرشاد إليه، والتوجيه إلى الحق.

إلا أن الحرمين بقيا مفصولين عن الدولة السعودية دهرًا طويلًا ثم عادا إليهم في عام ١٣٤٣ هـ واستولى على الحرمين الشريفين الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود رحمة الله عليه ولم يزالا بحمد الله تحت ولاية هذه الدولة إلى يومنا هذا، فلله الحمد ونسأل الله - عز وجل - أن يصلح البقية الباقية من آل سعود، ومن آل الشيخ، ومن علماء المسلمين جميعًا في هذه البلاد، وغيرها وأن يوفقهم جميعًا لما يرضيه وأن يصلح علماء المسلمين أينما كانوا وأن ينصر بالجميع الحق، ويخذل بهم الباطل وأن يوفق دعاة الهدى أينما كانوا للقيام بما أوجب الله عليهم، وأن يهدينا وإياهم صراطه المستقيم، وأن يعمر الحرمين الشريفين، وملحقاتهما، وسائر بلاد المسلمين بالهدى، ودين الحق، وبتعظيم كتاب الله، وسنة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأن يمن على الجميع بالفقه فيهما، والتمسك بهما، والصبر على ذلك، والثبات عليه، والتحاكم إليهما، حتى يلقوا ربهم

- عز وجل - إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

وهذا آخر ما تيسر بيانه، والتعريف به، من حال الشيخ، ودعوته وأنصاره، وخصومه والله المستعان، وعليه الاتكال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، نبينا وإمامنا محمد بن عبد الله، وعلى آله، وأصحابه ومن سلك سبيله واهتدى بهداه، والحمد لله رب العالمين.

عبد العزيز بن عبد الله بن باز الإمام .اهـ.

ملخص نتائج جهود الإمام النجدي والتحولات التاريخية الحاصلة بها بعد عون الله

لخص الإمام ابن باز رحمه الله تعالى هذه الجهود وأضيف إليه التالي:

❋ أنقذ الله بهذه الدعوة أمة من الناس كانت قد انحرفت كثيرًا عن دين الله الحق فحصل منها بناء القباب على القبور والتوسل بالمقبورين كقبر زيد بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره وهكذا بعض الأشجار التي كانت تعبد، بل كان التوسل حاصلًا بأكثر قبور الصالحين المعلومة آنذاك بل شيدت القباب على مقبرة بقيع الغرقد وألّف الصوفية كتبهم بأن من دين الله دعاء النبي أو التوسل به في قبره وأن ذلك من الدين وكان هذا الأمر من المسلمات عندهم يرونه دينًا وهم في نفس الوقت يصلون ، ويحجون..إلخ فالتبس الأمر جدًا فجاء الله بهذا الإمام فبين للناس أن هذه الأعمال من الشرك بالله ولا زال يؤلف ويناظر ويراسل والناس يصفونه بكل قبيح حتى نصره الله فغير مجرى حياتهم وعدل مسير عبادتهم ، وأقنعهم بأن الله لا يقبل من عبد أي عبادة إذا أخل بأصل الدين وهو توحيد الله عز وجل،ولو صلى وصام فهداهم الله على يديه وأيدي أنصاره فصاروا أنصارًا بعد أن كانوا أعداء وهنا تغير مجرى التاريخ:

❋ أزيلت جميع القباب في كل أملاك دولة آل سعود الذين أخذوا بتوجيهات هذا الإمام المبارك ولك أيها المسلم أن تقارن بين صورة مقبرة البقيع قبل الدعوة وهي تعلوها القباب ، وبعد الدعوة وقد أعيدت على حالها الأصلي وهي موجودة في وسائل التواصل الحديثه أليس هذا عمل يستحق الإشادة أم أنك لا تقدر على الإنصاف.





❋ بعد الدعوة صارت خدمة الحرمين الشريفين نادرة النظير ولا تكن كأولئك الذين إذا عجزوا عن الانتقاد رجعوا إلى الطعن في النيّات ! الله أعلم بذلك فَقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ**»(١).

❋ بعد الدعوة صارت الجاليات المسلمة في البلدان المشركة تتلقى المعلمين وتتلقى الإعانات.

❋ بعد الدعوة صار الناس يستفيدون من كتب هذا الإمام وعلمه، وكتب

(١) أخرجه مسلم: (١٠٦٤) عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ.

طلابه في محاربة الشرك الحاصل في غير تلك البلاد، ودعوة الناس إلى الخير.

❊ بعد الدعوة صار الناس يأمنون في سيرهم إلى الحج بعد أن كانوا يتعرضون لقطاع الطريق من البدو.

❊ بعد الدعوة ووجود الإذاعات كم استفاد الناس من إذاعة القرآن الكريم من فتاوى ، وتفسير ، وقراءة قرآن وغير ذلك من الخير، في حين تسمع من أكثر الإذاعات الغناء والمجون.

❊ **وأقول: إن خير الدنيا تابع للدين ، فإن استمر هذا السير، استمر ذاك الخير.**

المدرسة الثانية: مدرسة الإمام المجدد مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله

كذلك أنقل هنا كلام شيخنا الفاضل أبي محمد عبد الحميد الحجوري حفظه الله في كتابه "البيان الحسن وما أحياه الإمام الوادعي من السنن" حيث قال بعد الحمد والثناء: وبعد: فإن الله تعالى قد منّ علينا بعد نعمة الإسلام، أن هدانا للسنة، ويسر لنا السبل لطلب العلم النافع، علم كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ في وقت كثرت فيه البدع، وانتشرت فيه العقائد الزائفة، والمناهج المنحرفة، وقد بين رسول الله ﷺ، وأشار إلى هذا الشر العظيم، وحث على الصبر على طاعة الله فقال كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه البخاري رحمه الله (١٧٠٠) **«لايأتي زمان إلا والذي بعده شر منه فاصبروا حتى تلقوا ربكم»**. وبين أن الإسلام **«بدأ غريبًا وسيعود كما بدأ غريبًا فطوبى للغرباء»** من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم (٦٢١) ونص ﷺ أيضًا على أنه **«يأتي زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر»** أخرجه الترمذي من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فمنّ الله سبحانه ووفق لطلب العلم على يد الإمام الجليل، والعالم النبيل شيخ الإسلام، **وأحد مجددي القرن الخامس عشر الهجري: أبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي،**

* الذي كان رحمه الله محبًّا للسنة، داعيًا إليها، مبغضًا للبدع والشركيات، محذرًا منها.
* وكان ليّنًا هيّنًا مع المؤمنين الطائعين، شديدًا على أهل البدع المعاندين.
* حث على التميز عن أهل البدع بكافة أشكالهم ومعتقداتهم مقتفيًا في ذلك منهج السلف الصالح من لدن الصحابة إلى يومنا هذا، الذين قد قال الإمام مسلم رحمه الله: أثنى الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[سورة التوبة:١٠٠].
* وكان رحمه الله في كل ذلك مبتعدًا عن التقليد الأعمى، الذي قد بين الله

تعالى أنه سبيل الكافرين فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [سورة الزخرف:٢٣]. وقد نص على معنى هذه الآية الشوكاني رحمه الله تعالى بقوله:وهذه من أعظم الأدلة الدالة على بطلان التقليد وقبحه.اهـ بل قد قال الشيخ رحمه الله عند أن سئل: هل أنتم مقلدون لمحمد بن عبد الوهاب؟ قال: لو كنا مقلدين لقلدنا أحمد بن حنبل.

* وكان رحمه الله آخذًا بالدليل، مخلصًا لله سبحانه وتعالى فيما نحسبه، وقد سمعت من الشيخ الفاضل الناصح الأمين خليفة شيخنا مقبل رحمه الله أبي عبد الرحمن شيخنا يحيي بن على الحجوري حفظه الله تعالى يقول: لو جمعت السنن التي أحياها الشيخ مقبل رحمه الله، فأحببت أن أقوم بهذا العمل لعلي أن أرد بعض جميل الشيخ رحمه الله إلينا، ولعل الله عز وجل أن ييسر لي أولًا العمل بها، ثم نشرها بين المسلمين، وليعرف قدر هذا الإمام رحمه الله، وما واجه من الصعوبات في نشر السنة راجيًا من الله تعالى العون والسداد والتوفيق والرشاد، سائلاً المولى عز وجل أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين إنه سميع كريم، والحمد لله رب العالمين.

ترجمة مختصرة للإمام الوادعي رحمه الله

اسمه: هو الإمام العلامة شيخ الإسلام رحلة الطالبين وأحد المجددين الزاهد الورع السني السلفي الفقيه المحدث قامع البدعة وناصر السنة إمام الحديث وعلله و خاصّه وعامّه ومجمله أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي بن مقبل بن قائدة الهمداني الوادعي الخلالي من قبيلة آل راشد.

مولده رحمه الله: ولد رحمه الله في قرية دماج من قبيلة وادعة وهذه القرية تقع جنوب شرق مدينة صعدة من بلاد اليمن أما تاريخ ولادته فيقدر بأنه ولد رحمه الله في سنة(١٣٥٤هـ) حسبما كان يقدر لنا في دروسه.

نشأته: نشأ رحمه الله يتميًا حيث مات أبوه رحمه الله وهو صغير لا يعرفه وبقي في حضانة والدته رحمها الله فترة وكانت تأمره أن يشتغل في الأرض وتأمره أن ينظر إلى حال مجتمعه كي يكون مثلهم وهو يقول لها سأذهب أدرس فتقول له الله يهديك اهـ.

بيئته: نشأ رحمه الله في بيئة شيعية قد ملئت بالخرافات والشركيات وغيرها من المخالفات فمن المعلوم أن التشيع جثم على اليمن أكثر من ألف عام أدخله أحد أئمة الضلال الهادي يحيى بن الحسين المعتزلي الذي جعل من صعدة عاصمة لدولته وقُبر فيها واتخذ قبره وثنًا يعبد من دون الله عز وجل بيئة بلغ بها الجهل مبلغة ينذرون لغير الله ويذبحون ويخافون ويستعينون ويستغيثون بغيره سبحانه تعالى. مجتمع صرفوا كثيرًا مما يستحقه الله لغيره إلا من رحم الله وفي باب الأسماء والصفات معتزلة وجعلوا الدين كله محبة آل البيت حتى قال قائلهم:

لي خمسة أطفي بهم ❁❁❁ نار اللظى والحاطمه
المصطفى والمرتضى ❁❁❁ وابناهما والفاطمه

بل ربما كانوا يدعونهم يا الخمسة، وكانوا يقولون: إذا وقع الرجل أو البعير أوالولد.. بدلًا من قول بسم الله يقولون يا محمد يا علي وهذا بسبب الجهل الذي انتشر بسبب هذه الدعوة الشيعية الخبيثة. السمن للسيد والكبش للسيد والزبيب والعنب والحب وغيرها من الأمور كلها للسيد يقبلون الركب ويبجلونهم وهؤلاء السادة على زعمهم والعياذ بالله تجد الواحد منهم ساحرًا والآخر قبوريًّا والآخر مبتدعًا ضالًّا والأخر سبابًا لصحابة رسول الله ﷺ وينكرون رؤية المؤمنين لله عز وجل يوم القيامة وينكرون الشفاعة لأهل الكبائر وينكرون القدر إلى غير ذلك من المعتقدات البائرة ليس فيهم رجل رشيد ولا ذو عقل سديد إلا من رحمه الله هذا في باب المعتقد أما في باب العبادات فهم على المذهب الحنفي سائرون وفي السنن مفرطون وفي البدعة واقعون فالله المستعان.

طلبه للعلم: جاء الله سبحانه تعالى بهذا الإمام الألمعي رحمه الله وغرس فيه حب العلم وهذا من رحمة الله سبحانه تعالى وإنجازه لوعده: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [سورة الحجر:٩]. ولحديث رسول الله ﷺ **«إن الله يبعث في هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»** (١) وسيحدثنا الشيخ رحمه الله عن بدء طلبه للعلم كما في ترجمته التي خطها بيده قال: درست في المكتب حتى انتهيت من منهج المكتب ثم ضاع من العمر ما شاء الله في غير طلب علم وطلبت العلم في جامع الهادي فلم أساعد على طلب العلم ثم رحلت إلى أرض الحرمين ونجد فكنت أسمع الواعظين ويعجبني وعظهم فاستنصحت بعض الواعظين ما هي الكتب المفيدة حتى اشتريها فأرشدني إلى صحيح البخاري وبلوغ المرام ورياض الصالحين وفتح المجيد شرح كتاب التوحيد وأعطاني نسخًا من مقرر التوحيد، وكنت حارساً على عمارةٍ بالحجون بمكة فعكفت على تلك الكتب وكانت تعلق بالذهن لأن العمل في بلدنا على خلاف ما فيها..وبعد مدة من الزمن رجعت إلى بلدي أنكر كل ما رأيته يخالف ما في تلك الكتب.. ثم أخبر رحمه الله عن نفسه أنه أوذي مما اضطره إلى الدراسة في جامع الهادي مرة أخرى وركزوا عليه الدراسة في كتب العقيدة كي يغيروا ما علق في ذهنه من العقيدة الصحيحة ولكن هيهات، وكما استشهد لنفسه:

عرفت هواها قبل أن أعرف ❁❁❁ فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

يعني: أن العقيدة الصحيحة قد تمكنت من قلبه ، فاجتهد رحمه الله في النحو لما رأى أن الكتب المقررة شيعية معتزلية كما يخبر عن نفسه ويخبر عن نفسه كذلك أنه رحل إلى نجران عند قيام الثورة (عام ١٣٨٢هـ) ولازم أبا الحسين مجد الدين المؤيدي وهو أحد أئمة الضلال في اليمن المنافحين عن التشيع والداعين إليه بل قد طعن في

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٨٤)عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

كتاب مطالع الأنوار في ترجمة علماء الأمصار في أكثر من أربعين صحابيًا من صحابة النبي ﷺ وهذا يدل على رفضه واستفاد منه في النحو. هذا ملخص مختصر لما حصل له من التحصيل الدراسي في اليمن ثم رحل رحمه الله إلى المملكة العربية السعودية فالتحق بمدرسة تَحفيظ القرآن في الرياض قدر شهر ونصف ثم رحل إلى مكة

قال رحمه الله: كنت أشتغل إن وجدت شغلًا واطلب العلم في الليل أحضر دروس الشيخ يحيى بن عثمان الباكستاني(في تفسير ابن كثير والبخاري ومسلم وأطالع في الكتب والتقيت بشيخين فاضلين من علماء اليمن أحدهما القاضي يحيى الأشول صاحب معمرة فكنت أدرس عنده في سبل السلام للصنعاني وكان يدرسني فيما أطلب وأيضًا عبدالرزاق الشاحذي المحويتي وكان يدرسني فيما أطلب منه ثم التحق رحمه الله بمعهد الحرم حين فتح وكان من أبرز من درس الشيخ على يديه فيه الشيخ عبد العزيز السبيل والشيخ عبد الله بن حميد والشيخ محمد السبيل هذا في المعهد ودرس في الحرم على يد الشيخ عبد العزيز بن راشد النجدي وعلى يد الشيخ محمد بن عبد الله الصومالي وبعد الانتهاء من المعهد التحق بالجامعة الإسلامية فحُول إلى كلية الشريعة وعلوم الدين وأشهر من درس على يديه فيها الشيخ السيد محمد الحكيم والشيخ محمود بن عبد الوهاب فائد المصريين. ثم يحدث رحمه الله عن نفسه فقال: وعند أن جاءت العطلة خشيت من ذهاب الوقت وضياعه فانتسبت في كلية الشريعة لأمرين أحدها: التزود من العلم.الثاني: أن الدروس متقاربة وبعضها متحدة فهي تعتبر مراجعة لما درسناه في كلية الدعوة وانتهيت بحمد الله وأعطيت الشهادتين وأنا بحمد الله لا أبالي بالشهادات المعتبر عندي العلم ، وكان تخرجه من كلية الدعوة سنة ١٣٩٤هـ، ومن كلية الشريعة في العام التالي.

قال رحمه الله: وفي العام الذي انتهينا من الكليتين فتحت في الجامعة دراسة آلية بما يسمونه بالماجستير، فتقدمت لاختبار المقابلة ونجحت بحمد الله، وهي تخصص في علم الحديث، وبحمد الله حصلت الفائدة، وكان أبرز من درسنا الشيخ محمد الأمين المصري رحمه الله، والشيخ السيد محمد الحكيم المصري وفي آخرها الشيخ حماد بن محمد الأنصاري، وكنت بعض الليالي، أحضر بعض دروس الشيخ عبد العزيز بن باز في الحرم المدني صحيح مسلم، وأحضر كذلك مع الشيخ الألباني في جلساته الخاصة بطلبة العلم للاستفادة. وذكر أيضًا ممن استفاد منهم الشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله ومع هذه الدراسة فقد كان رحمه الله داعيًا إلى الله في تلك البلاد السعودية يُدَرِّس ما استفاد فيه ، وكان رحمه الله في أوقات الفراغ مقبلًا على الكتب كما أخبر بذلك عن نفسه.

مرحلة ما بعد الدراسة: بعد أن تخرج الشيخ رحمه الله من الجامعة كانت تواجهه مصاعب كثيرة جدًا من أبرزها خروجه إلى اليمن وإلى بلده صعدة بتلك الكتب التي يعتبرها الشيعة كتب وهابية وأنها تخل بالدين وصل الشيخ رحمه الله إلى بلده دماج وبدأ يعلم الأولاد القرآن قال رحمه الله : فما شعرت إلا بتكالب الدنيا علي فكأني خرجت لخراب البلاد والدين والحكم وأنا آنذاك لا أعرف مسئولًا ولا شيخ قبيلةٍ فأقول حسبي الله ونعم الوكيل وإذا ضاقت ذهبت إلى صنعاء أو إلى حاشد أو إلى ذمار وهكذا إلى تعز وإلى الحديدة وإب دعوة وزيارة للإخوان في الله.اهـ.

وقالت أم عبد الله الوادعية حفظها الله حاكية عن أبيها: ولم يكن أحد يعينه على الخير وعلى طلب العلم والاستقامة، ولم يكتفوا بذلك بل زاد كبراؤهم الطين بلة فحاربوه، وآذوه وأثاروا عشيرته والعوام، أيما إثارة علية وهموا بقتله اهـ.

وقال الشيخ المبارك الناصح الأمين يحيى بن علي الحجوري حفظه الله في كتابه(الطبقات ص ٤٢) من المعلوم بيقين أن شيخنا العلامة الوادعي رحمه الله خرج من الديار السعودية إلى البلاد اليمنية قبل نحو ربع قرن في جوٍّ مظلم بالتشيع

والتصوف والتحزب ودعاء غير الله عز وجل والتمسح بأتربة القبور والجهل المطبق فتنكر لدعوته الكثير وسانده من أهل بلده النزر اليسير فصبر وصابر ودعا وعلم واجتهد وثابر بما آتاه الله من العلم النافع والعمل الصالح فيما نحسبه والله حسيبه. اهـ. ثم يذكر الشيخ عن نفسه قال بعد أيام أخرج أحد فاعلي الخير مكتبتي من المدينة فوصلت إلى صعدة ولا تسأل عن الغرامة المالية والمتاعب التي حصلت لي ثم أحيلت إلى صنعاء وبعد جهد سُلِّمت.

الشيخ وبدء الدعوة وأسلوبه الدعوي وتشويه دعوته رحمه الله:

نستفتح بسؤال قدم للشيخ رحمه الله قال السائل كيف استطعت أن تدعو في مجتمع قد خيم فيه التشيع أكثر من ألف سنة؟ فقال رحمه الله الذي يظهر أن هذا أمرٌ أراده الله وقدره وليس بسبب كثرة علمي ولا بسبب شجاعتي ولا بسب بصيرتي في الدعوة ولعله من باب قول الله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال:١٧]. وأنا يعلم الله لم أتخذ دماج مقرًّا من أجل أن أدعو منه لكن من أجل أن اختبئ في دماج فأردنا شيئًا وأراد الله خلافه اهـ. [غارة الأشرطة١/٢١٤] ثم ما هي إلا أيام حتى جاء مجموعة من المصريين يدرسون عنده كما أخبر عن نفسه في ترجمته قال ثم فتحنا دروسًا في بعض كتب الحديث وبعض كتب اللغة وبعد هذا مازال طلبة العلم يفدون من مصر ومن الكويت ومن أرض الحرمين ومن نجد ومن عدن وحضرموت ومن الجزائر وليبيا والصومال ومن بلجيكا ومن كثير من البلاد الإسلامية وغيرها اهـ.

ويوجد في مركزه من شتى دول العالم كذلك الكثير وهذا بفضل الله وانتشرت بعد ذلك الدعوة انتشارًا سريعًا ودخلت السنة كل المدن والقرى والجبال والسهول كم كنا نسمع من الشيخ وهو يقول ما وصلنا بلد إلا والسنة قد سبقتنا نعم كان الشيخ في هذه الفترة يخرج دعوة بين الحين والآخر من محافظة إلى أخري ومن عزلة

إلى التي تليها فربما وصل إلى منطقة وقد بلغت الدعايات مبلغها أنه يبغض آل البيت فيعطي محاضرة في فضائل آل البيت ويصل منطقة وقد حذر الحزبيون أنه يحذر من مدارس تحفيظ القرآن ويزهد في القران فيعطي كلمة في فضائل القرآن وهكذا رحمه الله سارت دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة والبصيرة ، وطعنوا فيه أنه يحرم الأكل بالملاعق ويجعلون عنوانًا رنّانًا "الصواعق والبوارق في تَحريم الأكل بالملاعق" وهذا عنوان من غير كتاب. ربما قالوا إنه يحرم الجزر والبقل والخيار والموز لا يدخل البيت ويحرم على المرأة أن تَحلب البقرة وكل هذا من الكذب المفضوح وما أشبه الليلة بالبارحة ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [سورة الذاريات:٥٢-٥٣]. الطريقة هي الطريقة في التحذير من الأنبياء وأتباع الأنبياء ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره، وصدق رسول الله ﷺ **«لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»** .

الشيخ في الاعتقاد: قال: نؤمن بالله وبأسمائه وصفاته كما وردت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من غير تَحريف ولا تأويل ولا تَمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ، نعتقد أن نداء الأموات والاستعانة بهم وكذا الأحياء فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك بالله ،وهكذا العقيدة في الحروز والعزائم أنها تنفع مع الله أو من دون الله شرك وحملها مع غير عقيدة خرافة. نأخذ بظاهر الكتاب والسنة ولا نؤول إلا بدليل يقتضي التأويل من الكتاب والسنة ، نؤمن بأن المؤمنين سيرون ربهم في الآخرة بلا كيف ، ونؤمن بالشفاعة وبخروج الموحدين من النار ،ونؤمن بأن القرآن كلام الله غير مخلوق. قال رحمه الله نحب أصحاب رسول الله ﷺ ونبغض من تكلم فيهم ونعتقد أن الطعن فيهم طعن في الدين لأنهم حملته إلينا ونحب أهل بيت النبوة الصالحين حبًا شرعيًا.

بُعد الشيخ رحمه الله تعالى عن تكفير المسلمين

قال رحمه الله لا نكفر مسلمًا بذنب إلا الشرك بالله أوترك الصلاة أو الردة أعاذنا الله وإياكم من ذلك ولا نرى الخروج على الحكام المسلمين.اهـ كان رحمه الله مبغضًا للخوارج الذين يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وله في ذلك اليد الطولى في التحذير و التنفير منهم فقد أسماهم جماعة الفساد وهذا الوصف منطبق عليهم لما يجرونه من الفتن والمحن على كثير من البلدان الإسلامية.

غيرة الشيخ رحمه الله على الدين

جمع الله للشيخ رحمه الله صفتي الغيرة والشجاعة الغيرة على دين الله فلا يرى منكرًا إلا غيره بما يستطيع ولا تظهر بدعة ولا دعوة مخالفة للكتاب والسنة إلا صدع بالحق لا يخاف في الله لومة لائم محذرًا منها عند أن اجتمعت هاتان الصفتان حصل الخير الكثير فلله الحمد والمنة.

إن مما ساعد على انتشار دعوة الشيخ رحمه الله بعد نصر الله سبحانه وتَمكينه للمؤمنين والحق الذي يحمله أيضًا غيرته للدين فكان رحمه الله ليّنًا سهلًا لكن إذا علم بشيء من حدود الله انتهكت أو داعية ضلاله أحل شيئًا حرمه الله إلا احمر وجهه واشتد غضبه وعلا صوته إنكارًا لهذا المنكر ،وردوده الكثيرة تدل على حجم غيرته وغضبه لله سبحانه وتعالى وكم تَحقق بهذه الغيرة من الخيروكم من أناس عرفوا الحق وكتموه في صدورهم فلله الحمد الذي هيأه لهذا الأمر.

الدروس التي درسها الشيخ رحمه الله

في بدأ الدعوة كان الشيخ رحمه الله يدرس الطلاب جميع الدروس الخاصة والعامة فلما كثر الطلاب واستفاد منه كثير منهم كانوا يقومون بالدروس الخاصة والشيخ يدرس الدروس العامة فقط نظرًا لكثرة أشغاله وضعف صحته.ومن هذه الدروس التي درسها:

في التفسير: تفسير ابن كثير.

وفي الحديث: الصحيح المسند من أسباب النزول من تأليفه، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم ،وجامع الترمذي ،ومستدرك الحاكم،والصحيح المسند ما ليس في الصحيحين له رحمه الله . ودرّس بعض الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين، وأحاديث معلة ظاهرها الصحة له رحمه الله وهو كتاب علل ،وذم المسألة له رحمه الله،والإلزمات والتتبع للدار قطني بتحقيقه رحمه الله.

وفي المصطلح: تدريب الراوي ،والباعث الحثيث،و المحدث الفاصل ،وغارة الفصل على المعتدين على كتب العلل له رحمه الله.

وفي العقيدة: السنة لعبد الله بن أحمد، ودلائل النبوة له رحمه الله وهو كتاب مسند ،والقدر له رحمه الله، والشفاعة له رحمه الله، والتوحيد لابن خزيمة،وفتح المجيد درسه لأهل بيته.

وفي أصول الفقه:مذكرة أصول الفقه للشنقيطي.

وفي اللغة:شرح ابن عقيل، وقطر الندي ،وموصل الطلاب إلى قواعد الإعراب ، والتحفة السنية ،وعقود الجمان للسيوطي، ودرس في الإملاء المفرد العلم تخلله شيء من الدعابة والشعر وغير ذلك من الملح العلمية وكان رحمه الله ربما نزل عن الكرسي ويمر على الطلاب يسألهم أو يُسمع لهم الحديث.

ثناء العلماء عليه

١ – قال الشيخ الإمام المجدد محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله في [سلسلة الأحاديث الضعيفة (٥/ ٩٥)] : وأما أهل المعرفة بهذا الفن؛ فهم لا يشكون في ضعف مثل هذا الحديث، فهذا هو الشيخ الفاضل مقبل بن هادي اليماني يقول في تخريجه على " ابن كثير " (١/ ٥١٣) بعد أن تكلم على رجال إسناده بإيجاز مفيد فردًا فردًا: "والحديث ضعيف من أجل الانقطاع، وضعف عبيد الله بن الوليد الوصافي "اهـ.

[وقال رحمه الله في سلسلة الهدى والنور شريط رقم: ١/ ٨٥١: بالنسبة للشيخ

مقبل فأهل مكة أدرى بشعابها ، والأخبار التي تأتينا منكم أكبر شهادة ، لكن الله قد وفقه توفيقًا ربما لا يعرف له مثيل بالنسبة لبعض الدعاة الظاهرين اليوم على وجه الأرض ، فنسأل الله أن يوفق المسلمين ليعرفوا دينهم].

٢- وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الشيخ مقبل إمام فعارضه بعضهم بكلام يطعن به في الشيخ فقال الشيخ رحمه الله: الشيخ مقبل إمام الشيخ مقبل إمام.

٣- ولما ذُكر للشيخ ابن باز رحمه الله انتشار دعوة الشيخ مقبل في اليمن وغيره قال: هذه ثمرة الإخلاص، هذه ثمرة الإخلاص اهـ.

٤- [وقال الشيخ حماد الأنصاري رحمه الله "إن مقبلًا الوادعي تلميذي وأنا الذي اخترت له الموضوع (في الماجستير) وكان يقرأ عَليَّ في البيت أيام الحرة الشرقية، وكنت. أقول له: أرجو أن تكون في اليمن في هذا الزمان كالشوكاني في زمانه.وقد كان مقبل تلميذًا ما رأيت مثله في النشاط وطلب العلم اهـ.] (١).

وثناء العلماء على الشيخ رحمه كثير وإنما هذا من باب التنبيه لا الحصر وإنما يعرف الفضل لذوي الفضل ذووه ،وشهرته معلومة للخاص والعام.

المدارس السلفية في اليمن في عهد الشيخ رحمه لله تعالى

قبل خروج الشيخ من المملكة السعودية، لم تكن في اليمن أي مدرسة سلفية، تعلم الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح، فلما بدأ الشيخ رحمه الله في نشر دعوته، وإذا بهذه المدارس تغطي اليمن شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، وأهم هذه المدارس هي مدرسة دار الحديث بدماج حرسها الله سبحانه وتعالى، التي أسست على التقوى من أول يوم، وعلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، والعمل بهما ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، و أجزم أنها أي دار الحديث بدماج أكبر جامعة سلفية في

(١) المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري(رحمه الله) (٢/ ٦٠٦-٦٠٧).وانظر كتاب أمة في رجل.

العالم، بل لا يوجد لها نظير في التعليم، وبمثل هذا يقول الكثير من أئمة الدين كالشيخ ربيع وفقه الله قال: وهي جامعة وفد إليها الآلاف من الطلاب من جميع بقاع الأرض، وتدرس فيها جميع الفنون الشرعية بدءًا بكتاب الله عز وجل وعلومه، ثم الحديث وعلومه من مصطلح وعلل وغيرها، والعربية بفنونها والفقه سواء على الطريقة الحديثة، أو طريقة المسائل، وعلم أصول الفقه والعروض والحساب، والفرائض، وجميع الفنون التي تخدم الدين. وأما العقيدة: فتدرس وتلقى للطلاب من أول يوم يدخلون فيه، هذه الجامعة فتدرس كتب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، في باب توحيد الألوهية و الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، واللمعة لابن قدامة، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ومتنها أيضًا، والقواعد المثلى لابن عثيمين وغيرها في باب الأسماء والصفات والإيمان. وفي الدار مكتبة عامرة بالكتب يزورها المئات من الطلاب كل يوم بين باحث ومطالع، وقد خرجت منها بحمد الله كثير من الكتب والرسائل والتحقيقات والبحوث المفيدة.وهنالك مكتبة أخرى للنساء، يرتشفن منها العلم، وهن شقيقات للرجال في كثير من الدروس، تقوم على تدريسهن مدرسات فضليات، وباحثات محققات، ولهن قسط من الدروس العامة، يسمعنها بمكبر الصوت في مدرستهن. وهناك مدراس أخرى متفرقة في جميع المدن اليمنية، وكثير من القرى أيضاً فللّه الحمد و المنة: وربما جاوزت هذه المدارس أكثر من مائة مدرسة ، يعلم فيها كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ على فهم السلف الصالح[1]. والمئات كذلك من الدعاة يجوبون اليمن يمينًا وشمالًا، يبلغون دين الله وسنة رسول الله ﷺ بدون كسل أو ملل حتى اندحرت الدعوات الضالة من شيعة ،

---

(١) **قلت:** أما حال نسخي لملخص تاريخ مدرستنا المسلوبة على أيدي الرافضة قاتلهم الله فإن الله قد فتح فتحًا مبينًا يشق إحصاؤه، في اليمن وخارج اليمن، ولله الحمد والمنة وعلى إمامنا الراحل من الله الرحمة.

وإخوان، وصوفية وسرورية، وتبليغ والفضل في هذا لله جل وعز.

وفاته رحمه الله

بعد عناء طويل من المرض أعيد إلى مكة وفي حالة الاحتضار لقنه الشيخ: عبد العزيز الجهني الشهادة في أذنه، فتحرك لسانه بالشهادة، وتبسم ابتسامة ظن من حوله أنه يضحك، وأنه سيتكلم، ولكنه كان في النزع الأخير، ثم قبضت بعد ذلك روحه وعادت إلى بارئها، بعد مغيب شمس يوم السبت ودخوله ليلة الأحد من غره جمادى الأولى ١٤٢٢هـ رحمه الله وأسكنه فسح جناته. وبهذا تنطوي حياة عامرة بالخير والعطاء للإسلام والمسلمين، وقد ترك الشيخ رحمه الله تركة مباركة من العلماء الأفذاذ، الذي يذبون عن السنة، وعن دين الله،وكذلك خلف الآلاف من الطلاب المستفيدين، ومكتبة عامرة تسقى منها السنة، وتنشر منها الكتب، ودار حديث تطبق فيها السنة، ويطلب فيها العلم اهـ.

هذا ما قصدنا تلخيصه من كتاب البيان الحسن في ترجمة الإمام الوادعي وما أحياه من السنن للشيخ عبد الحميد الحجوري جزاه الله خيرًا.

ملخص نتائج جهود الإمام الوادعي والتحولات التاريخية الحاصلة بها بعد عون الله

❋ جعل الله هذا الإمام غياثًا لأهل اليمن خاصة، ولمن استفاد منه من غيرهم عامّة، فعرف السنة على يده خلق لا يحصون كثرة، فأصبح العمل بالكتاب والسنة شاهرًا ظاهرًا بارزًا قويًّا.

❋ كذلك عرف الإسلام على يديه وأيدي طلبته أمة كثيرة في أرجاء المعمورة ، ولو كان هذا الذي تحقق على يديه حصل عشره لبعض الدعوات الأخرى لتبجحوا به كثيرًا ، ولكن مراد هذا المجدد هو حصول الخير وثبوت الثواب ، وهذا أحد الأسباب التي جعلت الغرب تفكر في إطفاء هذا النور.

❋ همدت الزيدية وخبت نارها، وانكشفت الصوفية المدعية للسنة وبدا عوارها، وفضحت الأحزاب وظهر بوارها، وهذا أهم تحول داخلي حصل في زمن هذا الإمام طيب الله ثراه، فقد كان من وُجد من خيار الناس يستبعد انهيار الزيدية بعد مضي ألف ومائة سنة على حكمها لأجزاء كثيرة من اليمن ، وهكذا تلاعب الصوفية بعقول الناس في بقية أرض اليمن، فجاء الله بنور السنة والكتاب على فهم السلف والأصحاب ، وانهزم أهل الشك والباطل والارتياب

هذا وجهوده بطريق التعليم فحسب لا بقوة السلاح ونفوذ السلطان،وإنما في ذلك الحين تُرك لكل شأنه لأن طريقة الحكم كانت تقبل التعددية السياسية والمذهبية، وهي طريقة ندم عليها ولي الأمر رحمه الله بعد فوات الأوان ، وانقضاء المحمود لديه من الزمان ، مع أنه كان من أحسن الناس خلقًا مع رعيته والله المستعان[1].

❋ تصدى المجدد رحمه الله بكليته لجميع الأفكار الدخيلة على المسلمين:

فهو الذي تكلم على خطر الديمقراطية التي هي: حكم الشعب نفسه بنفسه من غير كتاب ولا سنة. فبيّن بالدليل حرمة الحكم بغير ما أنزل الله.

---

(١) وهو: الرئيس: علي عبد الله صالح رحمه الله.

وبيّن حرمة الانتخابات، **وحرمة** إقامة الأحزاب لما يحصل وراء ذلك من الفرقة والشر بين المسلمين.

وبيّن حرمة الحكم بالقانون لبنائه على مناقضة حكم الله تعالى.

وبيّن حرمة التشبه بالكافرين، **وفضح** دعوة التنصير التي كانت تعمل في بعض بلاد اليمن باسم الطب.

وبيّن خطر الرافضة الحوثيين من حين نشأتهم، وأسماهم الشباب المجرم ، وقد بان إجرامهم اليوم.

وجلّى حال الاشتراكية وأهدافها.

وبيّن خطر المنظمات داخل بلاد المسلمين.

وبيّن حال جماعة الفساد وأن طريقتهم لا تنصر الدين.

وبيّن حرمة الدراسة الاختلاطية وخطر اجتماع الجنسين بغير طريق شرعي...إلى غير ذلك وكان لا يدع منكرًا إلا أنكره بضوابط الشرع.

❋ ومن جانب آخر دعا إلى الإقبال على تعاليم الدين ، **وأوضح** أنه باب النصر والعز والتمكين، وأن الأمة لم تتأخر عن ذرا المجد إلا بالجهل وتقليد الكافرين.

ودعا الأحزاب والطوائف والمناطق ، إلى الاجتماع على على هدي المرسلين ولم يقبل الاجتماع على: "ويعذر بعضنا بعضًا في مخالفات الشرع والوحي المبين".

ودعا إلى طاعة ولاة الأمر في طاعة الله، وعدم متابعتهم في معصيته بغير خروج ما صح انتماؤهم لهذا الدين.

وألزم نفسه الدليل، وطالب كل من خالفه بإبرازه عند الاختلاف ؛ لأنه الطريق الوحيد للائتلاف.

وأثبت أن فهم الواقع في أي شأن من الشئون لا يصح ولا تكون نتائجه سليمة إلا إذا كان على قواعد الشرع وضوابطه ، سواء في الجهاد ، أو في نصيحة الحاكم، أو في معاملة الكافرين ، أو في أسلوب الدعوة، أو في الجمعيات والأموال، وكم

تعدد ، ولكن :﴿ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ ﴾ [سورة يس:٢٦].

مضى كثير من هؤلاء راكبين رءوسهم ، واتهموه بالغباء ، ونصبوا له العداء ، فصاح فريق منهم بأن القافلة سائرة فاسترجع وأقبل على شأنه ، وإذا بالواقع يثبت أن القافلة قد نُهبت ، وضل ركبانها الطريق ، والسؤال ﴿ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزًا ٩٨ ﴾ [سورة مريم:٩٨].

* فلما رأى المنصفون صفاء دعوته، وأنها على طريق نبينا ﷺ أخذوا عنه ، وسمعوه يربط الناس بالدين لا به ولم يجعل نفسه كأولئك الذين ينصب أحدهم نفسه زعيمًا لحركة فتُسمى باسمه وتُنمى إليه فيقال عنه المؤسس، بل كان من الأساسيات عند أهل السنة ، الرسول ﷺ هو المؤسس ونحن أتباع ملته وشرعته ﷺ، فأقبل الناس من الشمال والجنوب ، ومن خارج اليمن ، وصرتَ ترى مجتمعًا بُني على التعاون، وهُذب بأدلة الكتاب والسنة فلم يحتج إلى كثير من ترتيبات البشر ولكن التحاكم يكون إلى الدليل.

نبذة عن تلامذة المجدد رحمه الله

* **المشايخ والمدرسون**: كان الطالب يجد أكثر من شيخ ومدرس في الفنِّ والعلم الواحد فيدرس التوحيد والعقيدة، والفقه بالطريقة الحديثية ، والفقهية، مصطلح الحديث، والعلل، والبحث، والنحو، والبلاغة، والصرف ، والإملاء ، والتجويد ، والقراءات، والإقراء، وآداب الطلب، ومنهجيته، وهكذا قل في شتى فنون وعلوم الشريعة. كان هؤلاء على حظ وافر من التأسيس العلمي، والتأصيل المنهجي ، وكانوا على رتبة عالية في الحفظ للكتاب ، والسنة والمتون العلمية بحيث جعل الله لهم بذلك ملكة على مناقشة المسائل، وإن فقدت الدفاتر والوسائل، وقد جربهم كثير من المتبجحين بشهاداتهم، فأصبح المتبجح إن كثر علمه واديًا لاقى محيطًا ، ومن ثَم تحاشوهم في كثير من المجامع ، وقدموهم إمّا عجزًا، وإمّا حبًّا

واعترافًا.

* **الخطباء:** هم« **كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ** » من البشر إلا بمشقة ، ولما كانت طريقة التذكير بالآية والحديث والبراهين الشرعية من غير تكلف ، ارتقى المنابر كثير من فتيان الدعوة ، وحفاظ الدار، فضلًا عن الدعاة المشاهير، فأُسقط في أيدي خطباء الصحف ، والتقارير السياسية، واستفاد الناس أيما استفادة من الخطبة المدعمة بالدليل. وتصرف الدعوة قسطًا كبيرًا من المال لإيصال الدعاة إلى القرى النائية ، وليس كما يصنع بعض الأحزاب بالتركيز على الأماكن الحساسة فحسب. ولا يتقاضى الداعية والشيخ والمدرس أي راتب مقابل هذا العمل الخيري المبارك.

* **أئمة المساجد :** أهل السنة مضرب مثل عند العامة والخاصة في عفافهم وصيانتهم عن أموال الناس، ينزل الطالب حيث يؤمر ، فيصير هو الإمام عن استحقاق، والخطيب بالاتفاق ، والمدرس بلا تخبيب ولا غِش ولا نفاق ، فإذا انقضى دوره انصرف راشدًا وقد أخذ بمجامع القلوب بخلقه ودينه ، وثباته ويقينه، لا بماله وبيعته وسرِّه ودفينه.

* **الشعراء:** لم تكن تشغلهم ليلى ، ولا تهيجهم لُبنى، ولكنهم على منهج حسان في الرد على المبطلين حين قال: « **وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَفْرِيَنَّهُمْ بِلِسَانِي فَرْيَ الْأَدِيمِ** » وكان تأثيره بليغًا في الكفار وأهل البدع والمخالفين كما قال رسول الله ﷺ في شأن حسان «**لَكَلَامُهُ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقْعِ النَّبْلِ** » ولم يكن هذا هدف شعرهم الوحيد بل كانوا أيضًا **يقربون** العلوم بنظم رائق ، وسبك فائق، كطريق أهل العلم في نظم السير والنحو والفقه ، وغير ذلك.

وكانوا يشرحون الدعوة ، ويصفونها ليعرفها الناس، ويذكرون رجالها ليعلم الناس خيرهم، ويصفون دماج حاضرة العلم ، وحاضنة الفقهاء والأدباء.

وكانوا يعالجون بشعرهم آلام الأمة الإسلامية وأوجاعها ، ويبينون للناس الحلول

الشرعية والأدوية المرضية.

وربما تذَكَّر الشاعر وطنه ، فبين لأهله أنه لولا حاجته وحاجة الأمة للعلم لما فارقهم.

وكان قاعدتهم التي رسمها الإمام الوادعي وحفظتها أنا من خليفته **"أعذب الشعر أصوبه"** ولذلك يُلزم الشاعر بمسح التجاوزات من قصيدته ، أو التراجع عنها إن غُفل عن تنبيهه قبل.وكم تعدد من مقاصدهم الحسنة وإنجازاتهم العظيمة.

❋ **نساء السنة:** يُحسبن والله حسيبهن :"صالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله"كنَّ ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ وكما قيل:

لم تمش ميلًا ولم تركب على جمل ❁ ❁ ❁ ولم تر الشمس إلا دونها الكلل

صوامات قوامات ، متعلمات ومعلمات مثابرات، أما اعتزازهن بالدين ، ورضاهن بنهج سيد المرسلين ، وقناعتهن بفهم السلف المتبعين ، فإنه الدافع لهن في رد كل فكر مهين ، من تشبه ، أو تأثر ، أو ميل أو حتى زينة للكافرات والكافرين.

وأما القناعة فحدث عن البحر ولا حرج ، يصبرن على القلة ، لديمومة الاستقامة، وعلى النصب لحب التعلم والطلب، وعلى البعد عن الأوطان لطاعة الديان.

❋ ومات الشيخ طيب الله ثراه وأسكنه جنته ، وجزاه عن المسلمين خيرًا وازدادت دعوتة قوة وخلفه شيخنا المبارك الناصح الأمين يحيى بن علي الحجوري حفظه الله وقام بالدعوة بعون الله خير قيام.

واليوم لا تشاء أن ترى طالبًا في قرية من قرى اليمن فضلًا عن مدنها إلا رأيته يدعو ويعلم في أعمق مجتمعات الشيعة والصوفية، وفي خارج اليمن في أكثر دول العالم توجد هذه الدعوة المباركة ، محافظة على منهج الولاء لدين الله سبحانه وأهله ، والبراء من الشرك وأهله، والبدع وأهلها ، وبصفائها ونقائها الذي هو مراد الله ورسوله ﷺ صارت محل ثقة الناس ، ومحط أنظارهم؛ لمعرفتهم بالقصد الحسن الذي يحمله رجال هذه الدعوة المتبعة لا المبتدعة، وحبهم الخيرَ للآخرين.

❋ بفضل الله عز وجل أصبحت هذه الدعوة التي هي الدعوة إلى كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسنة رسوله ﷺ وطريق سلفنا الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في أوجّ قوتها ونسأل الله سبحانه وتعالى لنا الثبات على دينه حتى نلقاه ، وللضالين الهداية، وللديننا العز والنصر والتمكين، ولأمتنا الإسلامية كل خير وهدى وسداد ، وهذا آخر ما تيسر نقله وتحريره في كتابي هذا ، وأتمثل في الختام بقول القائل:

أموت ويبقى كلُّ ما قد كتبتُه ❁ ❁ ❁ فيا ليت من يقرا كتابي دعا ليا

لعل إلهي أن يمن بلطفه ❁ ❁ ❁ ويرحم تقصيري وسوء فعاليا

والحمد لله رب العالمين.

المحتويات

مقدمة الشيخ العلامة أبي عبد الرحمن يحيى بن علي الحجوري حفظه الله تعالى ٣
مقدمة..... ٤
أولاً التحول التاريخي الأكبر : التحول من الجاهلية إلى الإسلام ٦
وجاء الله بالنور ليتحول من وفقه الله تعالى إلى الهدى..... ٢٤
الصحابي الذي كان بيته مدرسة للمسلمين ٣١
الهجرة وظهور دولة الإسلام وطريقة بنائها ٤١
بناء مجتمع جديد..... ٤٣
ملخص ما تقدم ٥٢
المعركة الأولى من معارك الإسلام الفاصلة: غزوة بدر الكبرى ٥٣
ساعة الصفر وأول وقود المعركة: ٦٦
القرآن ينزل حول موضوع المعركة: ٨٠
العبر والعظات ٨٢
مَا قِيلَ مِنْ الشِّعْرِ فِي يَوْمِ بَدْرٍ : ٨٤
عدد قتلى المشركين سبعون وهذه أسماء أشرافهم]: ٨٩
(ملخص معركة بدر الكبرى الفاصلة) ١١٠
٨- خريطة: موقعة بدر من الصحيح المصفى للشيخ سليم وفقه الله: ١١٣
المعركة الثانية من معارك الإسلام الفاصلة: معركة أحد..... ١١٥
خطة الدفاع: ١٢٢
غلطة الرماة: ١٣٠
البطولات النادرة:..... ١٣٨
الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقذ الموقف: ١٣٩
غزوة حمراء الأسد: ١٥٧
نزول القرآن حول موضوع المعركة:..... ١٦١
الحكم والغايات المحمودة في هذه الغزوة: ١٦٢
العبر والدلالات والعظات والدروس..... ١٦٣
(ملخص معركة أحد الفاصلة) ١٦٧
٨- خريطة موقعة أحد: من الصحيح المصفى للشيخ سليم وفقه الله: ١٧١

المعركة الثالثة من معارك الإسلام الفاصلة: غزوة الأحزاب..... ١٧٣
تمهيد: ١٧٣
غزوة بني قريظة ١٨٧
(ملخص معركة الأحزاب أو الخندق الفاصلة)..... ١٩٥
٨- خريطة: موقعة معركة الأحزاب من الصحيح المصفى للشيخ سليم وفقه الله: .. ١٩٩
المعركة الرابعة : فتح مكة وغزوة حنين ٢٠١
الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة: ٢٠٤
قريش تباغت بزحف الجيش الإسلامي: ٢٠٩
الجيش الإسلامي يدخل مكة: ٢١١
الرسول ﷺ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام: ٢١٢
الرسول ﷺ يصلي في الكعبة: ٢١٣
سماحة رسول الله ﷺ والمسلمين: ٢١٣
تخوف الأنصار من بقاء الرسول ﷺ في مكة: ٢١٦
أخذ البيعة: ٢١٧
المرحلة الثالثة: [ما حصل من تحوّل تاريخي عظيم]..... ٢١٨
غزوة حنين..... ٢١٨
الجيش الإسلامي يُباغت بالرماة والمهاجمين وذكر شجاعة نبينا ﷺ..... ٢٢١
غزوة الطائف: ٢٢٩
(تَسْمِيَةُ مَنْ اُسْتُشْهِدَ يَوْمَ حُنَيْنٍ ثم الطائف) : ٢٣٦
[تأمل هذا الحدث التاريخي العظيم بعد فتح مكة]..... ٢٣٧
(ملخص فتح مكة)..... ٢٤٥
٨- خريطة: موقعة فتح مكة: من الصحيح المصفى : ٢٥٠
(ملخص معركة حنين الفاصلة) ٢٥١
٨- خريطة: موقعة حنين من الصحيح المصفى للشيخ سليم وفقه الله. ٢٥٤
المعركة الخامسة من معارك الإسلام الفاصلة: حديقة الموت ٢٥٥
تمهيد: قال ابن كثير : «خِلَافَةَ الصِّدِّيقِ، وَمَا كَانَ فِي أَيَّامِهِ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْأُمُورِ ٢٥٥
فَصْلٌ فِي تَصَدِّي الصِّدِّيقِ لِقِتَالِ أَهْلِ الرِّدَّةِ وَمَانِعِي الزَّكَاةِ. ٢٥٩
مَقْتَلُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ لَعَنَهُ اللَّهُ وَأَخْزَاهُ ومعركة عقرباء وحديقة الموت ٢٦٥
توجيهات مهمة من الخليفة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ٢٦٥

ذكر تقديم خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطلائع أمامه من البطاح ٢٦٨
إقبال خالد وترتيب جيش مسيلمة الكذاب ٢٦٩
ترتيب جيش المسلمين: ٢٧٠
وحمي الوطيس بعد إعادة ترتيب الجيش ، ودخول الحديقة: ٢٧٤
من كرامات الأولياء ٢٨٥
قرقرة الشيطان هي قرآن مسيلمة لعنه الله ٢٨٨
تعرّف على كرامات الأشقياء!!! ٢٨٩
ذكر بعض من استشهد يوم اليمامة ٢٩٠
(ملخص معركة حديقة الموت الفاصلة) ٢٩٣
٨- خريطة: موقعة حديقة الموت ٢٩٦
المعركة الفاصلة السادسة: معركة اليرموك ٢٩٧
ترتيب جيش الروم ٣٠١
وصول خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من العراق وذكر عدد الجيشين ٣٠٤
ترتيب الجيشين ٣٠٤
[الحث والتذكير وشحذ الهمم قبل القتال] ٣٠٨
[عدد الصحابة في هذا الجيش] ٣٠٩
[وبدأت المعركة] ٣١٠
ورحل البطل يحمل رسالة ٣١٢
مجاهد آخر يريد الجنة ثمنًا لروحه ٣١٣
أسلم ثم قتل ٣١٣
قتلى الروم ٣١٥
عدد قتلى المسلمين ٣١٥
هنا تُعرف الرجال ٣١٦
ملاحقة المنهزمين: ٣١٦
نهاية حكم الروم في الشام ومقالة هرقل الشهيرة ٣١٧
أسباب النصر الحقيقية وأسباب الهزيمة: ٣١٨
(ملخص معركة اليرموك الفاصلة) ٣١٩
٨- خريطة موقعة اليرموك: من كتاب التاريخ الإسلامي، وأطلس عمر. ٣٢٣
المعركة السابعة من معارك الإسلام الفاصلة: القادسية ٣٢٦
بعْث سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ووصية أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له ٣٢٧

عدد من خرج مع سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المدينة ٣٢٧
وفاة المثنى أمير العراق رحمه الله ٣٢٨
قائد المعركة وعدد الجيش الإسلامي ودقة ترتيبه، ورسائل عمر ٣٢٨
عدد الصحابة وأبنائهم رضي الله عنهم في القادسية ٣٢٩
أول النصر ٣٣٠
دعوة يزدجرد قبل خروج رستم إلى القادسية ٣٣٠
عدد جيش الفرس وترتيبهم ٣٣٤
الدعوة قبل القتال ٣٣٤
كيف يخاطب العدو عند حضور القتال ٣٣٥
فصل: كَانَتْ وَقْعَةُ الْقَادِسِيَّةِ وَقْعَةٌ عَظِيمَةٌ لَمْ يَكُنْ بِالْعِرَاقِ أَعْجَبُ مِنْهَا: ٣٣٥
ملاحقة الفرس حين فرّوا ٣٣٨
عدد قتلى الفرس قبحهم الله وعدد قتلى المسلمين عليهم رحمة الله ٣٣٩
رسالة البشارة بالنصر ٣٤٠
مواصلة المسير حتى سقوط عاصمة الفرس (المدائن) ٣٤٢
٧- ذِكْرُ فَتْحِ الْمَدَائِنِ الَّتِي هِيَ مُسْتَقَرُّ مُلْكِ كِسْرَى ٣٤٥
تسمية الكتائب ٣٤٦
(ملخص معركة القادسية وفتح المدائن الفاصلة) ٣٥١
٨- خريطة: موقعة القادسية من كتاب أطلس الخليفة عمر: ٣٥٥
المعركة الثامنة من معارك الإسلام الفاصلة:(نهاوند) ٣٥٨
عدد جيش الفرس في هذه المعركة وقائدهم فيها ٣٥٨
قائد جيش المسلمين في هذه المعركة ٣٦١
عدد جيش المسلمين في نهاوند وترتيبهم ٣٦٢
الأيام التي كانت فيها المعركة ٣٦٣
كيف تكون مخاطبة العدو في الحرب والتشاور قبل القتال ٣٦٣
وبدأت المعركة ٣٦٥
عدد القتلى من الفرس ٣٦٦
حقد الفُرس ٣٧٠
نهاية دولة الفرس وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ٣٧٠
(ملخص معركة نهاوند الفاصلة) ٣٧٠

٨- خريطة: موقعة نهاوند: ٣٧٣
المعركة التاسعة من معارك الإسلام الفاصلة: (ذات الصواري) ٣٧٦
تمهيد بين يدي المعركة ٣٧٦
نشأة الأسطول الإسلامي: ٣٧٦
بناء الأسطول: ٣٧٨
فتح جزيرة قبرص سنة (٢٨هـ): ٣٧٨
السبب الحقيقي لذل الأمم: ٣٨٠
مكان معركة ذات الصواري (وهي معركة بحرية) ٣٨١
تاريخ المعركة ٣٨١
سبب المعركة وسبب تسميتها بذات الصواري ٣٨٢
ترجمة قائد جيش المسلمين في هذه المعركة ٣٨٤
(ملخص معركة ذات الصواري الفاصلة) ٣٨٤
٨- خريطة موقعة ذات الصواري: ٣٨٩
المعركة العاشرة من معارك الإسلام الفاصلة: (النهروان) ٣٩٠
[ذِكْرُ خُرُوجِ الْخَوَارِجِ] ٣٩٢
قصة مناظرة ابن عباس الخوارج: ٣٩٥
صفة في الخوارج بها يعرفون في كل زمان ٤٠٥
واقتربت المعركة المشهود لأهلها بالخير من الله تعالى ٤٠٦
[ترتيب جيش الخوارج قاتلهم الله] ٤٠٧
[ترتيب جيش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه] ٤٠٨
فهل من غنيمة ٤٠٩
وَلِنَذْكُرِ الْآنَ مَا وَرَدَ فِيهِمْ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ٤١١
[ما تسمعه من الخوارج في الانتصار للدين هو (كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ)] ٤١٢
(ملخص معركة النهروان الفاصلة) ٤٢١
٨- خريطة موقعة النهروان: ٤٢٦
المعركة الحادية عشرة: معركة وادي لكة وفتح الأندلس ٤٢٧
تمهيد بين يدي الفتح ٤٢٨
ماذا بعد المعركة ٤٣٠
قدر الله وما شاء فعل ٤٣٥
سعة مملكة لذريق التي صارت للمسلمين وذكر بعض ما غنموه فيها ٤٣٧

نتائج هذه المعركة وهذا الفتح العظيم ٤٣٨
ملخص معركة وادي لكة الفاصلة وفتح الأندلس ٤٤٠
٨- خريطة: موقعة وادي لكة: من كتاب دولة الإسلام في الأندلس..... ٤٤٤
المعركة الثانية عشرة: ملاذ كرد أو الزهوة ٤٤٦
تمهيد..... ٤٤٦
ملاذ كرد وقائد الروم فيها وقوام جيشه ومدى استعدادهم ٤٤٩
قائد جيش المسلمين في هذه المعركة وعدد جيشه..... ٤٥٠
ثمرة وجود العلماء مع المجاهدين في سبيل الله عز وجل ٤٥٠
رُقيٌّ لم يتربَ عليه النصارى فلم يتوقعه ملكهم..... ٤٥١
(ملخص معركة ملاذ كرد الفاصلة) ٤٥٣
٨- خريطة: موقعة ملاذ كرد:..... ٤٥٦
المعركة الثالثة عشرة من معارك الإسلام الفاصلة:الزلاقة ٤٥٧
تمهيد..... ٤٥٧
كيف يكون الرد عندما يُتعرض للمقدسات و دور العلماء ٤٥٩
نحن لا نقبل الازدراء والاحتقار ٤٦٠
حماية الدين قبل حماية المصالح ٤٦١
[وأقبل الأسد]..... ٤٦٢
ترتيب الجيشين وعددهما..... ٤٦٥
الدعوة قبل القتال ٤٦٧
بقية الجيش العرمرم ٤٧٢
رسالة التبشير بالنصر ٤٧٢
ما ذكر من شأن الغنيمة ٤٧٣
ذكر عدد الشهداء رحمهم الله تعالى ٤٧٣
خاتمة جليلة المعنى..... ٤٧٣
(ملخص معركة الزلاقة الفاصلة) ٤٧٤
٨- خريطة موقعة الزلاّقة: من كتاب دولة الإسلام في الأندلس: ٤٧٨
المعركة الرابعة عشرة من معارك الإسلام الفاصلة: حطين ٤٨١
مقدمة توضح الحملات الصليبية السبع وهي من ٤٨٩ - ٦٩٢ هـ ٤٨١
وحدة المسلمين قبل الجهاد:..... ٤٨٣

بين يدي المعركة الكبرى ذِكْرُ حَصْرِ صَلَاحِ الدِّينِ الْكَرَكَ ٤٨٥
ذِكْرُ الْغَارَةِ عَلَى بَلَدِ عَكَّا ٤٨٦
ذِكْرُ عَوْدِ صَلَاحِ الدِّينِ إِلَى عَسْكَرِهِ ، وَدُخُولِهِ إِلَى الْفِرِنْجِ ٤٨٦
عدد جيش المسلمين ، وترتيبهم ٤٨٧
المشورة قبل القتال وخطة صلاح الدين رحمه الله ،و ذِكْرُ فَتْحِ طَبَرِيَّةَ ٤٨٨
ذِكْرُ انْهِزَامِ الْفِرِنْجِ بِحِطِّينَ ٤٩٠
ذِكْرُ عَوْدِ صَلَاحِ الدِّينِ إِلَى طَبَرِيَّةَ، وَمُلْكِ قَلْعَتِهَا مَعَ الْمَدِينَةِ ٤٩٤
أثر من ساحة المعركة ٤٩٤
المواصلة إلى الفتح الأكبر ٤٩٤
ذِكْرُ فَتْحِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ وَاسْتِنْقَاذِهِ بَعْدَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ سَنَةً ٤٩٧
ذِكْرُ أَوَّلِ جُمُعَةٍ أُقِيمَتْ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ بَعْدَ فَتْحِهِ فِي الدَّوْلَةِ الصَّلَاحِيَّةِ ٤٩٩
(ملخص معركة حطين الفاصلة) ٥٠٦
من هم الداوية والاسبتارية: ٥٠٧
٨- خريطة موقعة حطين: ٥١٠
المعركة الخامسة عشرة من معارك الإسلام الفاصلة: الأرك ٥١١
رسائل العدو عندما يكون قويًا ٥١٢
الجواب ٥١٣
القائد الأول بعد الأمير وترتيب المسلمين حسب البلدان ، والقبائل ٥١٤
ترتيب الجيش الإسلامي في ساحة المعركة ٥١٦
الموعظة قبل القتال ثم المعركة ٥١٦
عدد جيش النصارى ٥١٧
عدد الأسارى ، والقتلى من الصليبيين ، وتقريب مقدار الغنيمة ٥١٨
عدد قتلى المسلمين رحمهم الله ٥١٨
(ملخص معركة الأرك الفاصلة) ٥٢٢
وهذا تلخيص حياة اليتيمة حاضنة المسلمين، وناشرة الدين ٥٢٤
٨- خريطة موقعة الأرك: ٥٣٦
المعركة السادسة عشرة : معركة(المنصورة وفارسكور) ٥٣٨
تمهيد بذكر سبب المعركة ٥٣٨
نزول الصليبيين دمياط للاحتلال، والرسائل بين الطرفين ٥٣٨
بداية القتال، وطمع العدو في الانتصار ٥٤٠

وتغيرت الحال،وخرج الأبطال ٥٤٢
ماذا بعد موت السلطان نجم الدين أيوب ٥٤٤
مناوشات أشبه بحرب الشوارع ٥٤٥
دور المنافقين، ثم معركة المنصورة بقيادة بيبرس في أزقة المدينة ٥٤٧
عام جديد والحرب قائمة وفيها معركة فارسكور الفاصلة ٥٤٩
(ملخص معركتي المنصورة وفارسكور الفاصلة) ٥٥٢
الحروب الصليبية ٥٥٦
٨- خريطة موقعة المنصورة وفارسكور: ٥٥٩
المعركة السابعة عشرة من معارك الإسلام الفاصلة: (عين جالوت)... ٥٦٠
تمهيد بين يدي المعركة ٥٦٠
نص رسالة المغول إلى مصر والجواب عليها ومابعدها حتى النصر: ٥٦٣
الاستعداد للجهاد ٥٦٥
المسير للجهاد ٥٦٦
عدد جيش المغول في عين جالوت ٥٦٦
عدد جيش المسلمين ٥٦٧
أول علامات النصر ٥٦٧
تاريخ يوم المعركة، وتفاصيلها ٥٦٨
الكرَّة الثانية ٥٦٩
رسائل بشرى النصر ٥٦٩
لكن الأسد الضاري لم ينته دوره ٥٧١
(ملخص معركة عين جالوت الفاصلة) ٥٧٢
٨- خريطة موقعة عين جالوت: ٥٧٥
المعركة الفاصلة الثامنة عشرة : (فتح القسطنطينية) ٥٧٦
التمهيد للفتح: ٥٨٥
الزحف: ٥٩٣
سفن البر: ٦٠٠
الهجوم العام: ٦١٩
(ملخص معركة فتح القسطنطينية الفاصلة) ٦٣٥
٨- خريطة القسطنطينية: ٦٣٨

المعركة التاسعة عشرة : معركة(بروزة)الفاصلة..... ٦٤٢
السلطان العثماني ينشئ أول أسطول بحري ويعين أمير البحار. ٦٤٣
معركة بروزة ٦٤٥
(ملخص معركة بروزة البحرية الفاصلة) ٦٤٧
٨- خريطة موقعة بروزة: ٦٤٩
المعركة العشرون: معركة وادي المخازن الفاصلة..... ٦٥١
تفاصيل المعركة ٦٥٢
دور العلماء في الجهاد..... ٦٥٥
(ملخص معركة وادي المخازن الفاصلة) ٦٦٥
٨- خريطة موقعة وادي المخازن: ٦٦٨
المعركة الحالية: (الغزو الفكري ومحاربة العلم والعلماء)..... ٦٦٩
المدرسة الأولى مدرسة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب النجدي رحمه الله..... ٦٨٣
ملخص نتائج جهود الإمام النجدي والتحولات التاريخية الحاصلة بها بعد عون الله. ٧٠٦
المدرسة الثانية: مدرسة الإمام المجدد مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله ٧٠٩
ملخص نتائج جهود الإمام الوادعي والتحولات التاريخية الحاصلة بها بعد عون الله ٧٢٢
المحتويات..... ٧٢٨